

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

■ ٢ ■

---

**السيرة النبوية والدعوة  
في العهد المكي**

---

**تأليف**

**أ.د / أحمد أحمد غلوش**

**عميد كلية الدعوة الإسلامية الأسبق  
جامعة الأزهر**

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

غاية في كلمة



للطباعة والنشر والتوزيع

١٤ شارع الجمهورية  
عابدين - القاهرة

تليفون / ٣٩٠٦٧٢٧

فاكس / ٣٩٥٦٨٠٤

ص ب / ٦٣٢ القاهرة

الرقم البريدي / ١١٥١١

*Resalah  
Publishers*

Tel.: 3906727

Fax : 3956804

P.O.Box : 632

Cairo - Egypt

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م

حقوق الطبع محفوظة © ١٩٨٢ م. لا يُسمح بإعادة نشر هذا الكتاب أو  
أي جزء منه بأي شكل من الأشكال أو حفظه ونسخه في أي نظام  
ميكانيكي أو إلكتروني يمكن من استرجاع الكتاب أو أي جزء منه.  
ولا يُسمح باقتباس أي جزء من الكتاب أو ترجمته إلى أي لغة أخرى  
دون الحصول على إذن خطي مسبق من الناشر.

سلسلة تاريخ الدعوة إلى الله تعالى

— ٢ —

السيرة النبوية والدعوة

في العهد المكي





بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



## المقدمة

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على رسول الله ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين . . وبعد ،،،

فإن دين الله واحد ، ورسله جميعاً يتحركون بعقيدة واحدة ، يعلنون كلمة الله ، ويعملون لنقل الناس من الضلال إلى الهدى ، وإخراجهم من الظلمات إلى النور يقول تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ويقول تعالى ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ويقول تعالى : ﴿ قُلْ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

والآيات واضحة الدلالة في إثبات وحدة الدين ، الذي جاء به الرسل أجمعين وهذه الوحدة بادية في أركان العقيدة ، فهي عقيدة واحدة معلومة من لدن آدم " عليه السلام " ، إلى محمد " ﷺ " ، تناسب الفطرة البشرية ، وتنسم بالصدق ، والحق ، والواقعية .

ولو كان الإنسان واحداً ، والواقع البشرى ثابتاً ، لجاء للناس رسول واحد ، صالح للناس أجمعين .

<sup>(١)</sup> سورة الشورى الآية ( ١٣ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران الآية ( ١٩ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة آل عمران الآيات ( ٨٤ ، ٨٥ ) .

لكن الإنسان ليس واحداً ، وإنما هو متعدد النزعات ، متنوع الفكر ، متأثر واقعته دائماً بعوامل جغرافية ، وبيئية ، واقتصادية ، وثقافية ، واجتماعية .. الخ ولذلك قضى الله بحكمته أن يبعث رسولاً لكل أمة يبلغها بالعقيدة الدينية الواحدة ، وبأسلوب يتلاءم معها ، ومنهج يقرها من دعوته ، مع تكليف الناس بأعمال ، وتطبيقات ، تظهر حياتهم ، وتقوى عقيدتهم ، وتساعد في القضاء على مواريث الجهل والضلال ، وبناء الحياة على الحق والصواب .

وقد رأينا في الكتاب الأول الخاص بدعوة الرسل " عليهم السلام " أن كل رسول دعا قومه بمنهج خاص ، وبطريقة خاصة ، مع اتحادهم في العقيدة الواحدة . ورأينا — كذلك — أن كل رسول بعث لقوم معينين سواء تابعوا زمنياً ، أو بعثوا في وقت واحد كإبراهيم ولوط " عليهما السلام " .

ورأينا — أيضاً — أن كل رسالة كانت تراعى أحوال المدعوين ، وتلاحظ مستواهم العقلي ، والحضاري في التوجه ، والمناقشة .

إن هذا الموكب الطويل من الرسل جاءوا للناس بصورة واحدة للاعتقاد الصحيح ، القائم على التوحيد الخالص ، التوحيد المطلق ، الناصع ، القاطع ، توحيد الألوهية التي يجب أن يتوجه إليها البشر جميعاً ، كما يتوجه إليها سائر الخلائق بالتسليم والخضوع ، والعبودية .

إن هذا التوحيد يعنى أن القوامة المطلقة لله لازمة على خلقه جميعاً ، فلا يقوم شيء إلا لله ، ولا سيادة على الخلق إلا من الله ، ومن ثم فإن الاستسلام كله من البشر يجب أن يكون لله ، صاحب الحول والطول ، ورب العالمين .

وقد علم الله رسله أن يتلاءم كل منهم مع واقعته في الشريعة ، وإن اختلفت عن الشرائع الأخرى ، يقول تعالى : ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾<sup>(١)</sup>

وقد رأينا لكل رسول شريعته ، المناسبة لقومه ، فيها الخلال ، وفيها الحرام ، وفيها التكاليف العملية المتنوعة ، وهي مع اختلافها مع كل رسول فهي منزلة من الله ، ولذلك اتسفت مع العقيدة الربانية الواحدة ، التي تلزم المعتقد بضرورة التلقى من الله الواحد ، والتحاكم إلى الوحي المنزل ، والأخذ من توجيهات النبي المبعوث ، وبذلك يتحد الضمير الخفي مع الواقع العملي ، ويعيش الناس ، كل الناس مع رسلهم مؤمنين مخلصين ، مطيعين لله رب العالمين .

وكما اختلف الرسل في الشريعة اختلفوا كذلك في المنهج والأسلوب ليحقق المراد من الدعوة ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (١) .

إن طريقة التوجه لقوم ما لا تتناسب مع التوجه لغيرهم ، لما بين الفريقين من اختلاف ، وتنوع ، وتلك دروس مستفادة من تاريخ دعوة رسل الله تعالى . وقبيل بعثة محمد " ﷺ " ، أقرب الناس فكرياً ، وترقت عقولهم حتى وصلت إلى التصور الخرد ، والقدرة على مناقشة الدليل ، إلا أنهم مع ذلك كانوا مختلفين واقعاً وسنوكاً ، وعقيدة .

ووسط هذا الحال بعث محمد " ﷺ " رسولاً للعالم كله ، بالعقيدة الإلهية الواحدة ، والشريعة الملائمة للناس أجمعين ، والصالحة للتطبيق في كل زمان ، ومكان إن الواقع البشري يلتقي مع العقيدة الإلهية لأنها نفس العقيدة التي نادى بها جميع الرسل ، وخطب بها سائر الأقوام ، وأمن بها الكثيرون فيما مضى من الزمان . ورسالة محمد " ﷺ " هي خاتمة ارسلات فلا دين بعده ، ولا رسول بعده ولذلك جاء الإسلام بعقيدته ، وشريعته ، صالحاً لكل زمان ومكان إلى يوم القيامة . وحتى تلتقى الشريعة الإسلامية الواحدة مع جميع الناس ، وعنى امتداد الزمن

جعلها الله على نوعين : —

## **النوع الأول :** ما يتصل بالعبادات المشروعة، والأعمال التامة، والأحكام

الثابتة ، وهذه فصلها الإسلام تفصيلاً ، لا يقبل تغييراً أو تبديلاً ، وقد شرعها الله بهذه الدقة ، والدوام لتنظيم حياة الناس جميعاً إلى يوم القيامة ، وهي المعروفة بالشوايت في الإسلام ، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والحج ، وأحكام النكاح ، والطلاق ، والميراث ... وهكذا .

## **النوع الثاني :** وهو ما يتصل بالأعمال التي تختلف من مكان إلى مكان

وتتغير من زمن لزمان آخر ، ومن جماعة لغيرها كصورة الشورى ، ومناهج العمل اليومي ، والطبائع المرتبطة بالعادات والتقاليد، ومع هذا النوع كان وضع القواعد العامة المنضبطة بالأصول الشرعية، لتكون إطاراً للمتغيرات، تأخذ الحكم منها بواسطة اجتهاد علماء الإسلام ... ومن أمثلة ذلك القوة فهي تختلف نوعاً ، وصورة ، فهناك القوة الخلقية، وهناك القوة الإيمانية، وهناك القوة العلمية وهناك القوة العسكرية ، من سيف ، ورمح ، ومدفع ، وصاروخ ، وطائرة ... إلخ .. وأمام هذا التنوع للقوة يضع الله تعالى مبدأ كلياً حيث يقول تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> وعلى مثال ذلك وضعت المبادئ الكلية للمتغيرات العملية .

وهكذا ملكت الشريعة القدرة على الالتقاء مع الناس جميعاً ، وهي تنظم لهم كافة جوانب الحياة مع اختلافهم وتنوعهم .

والعالم كله لا يجتمع على منهج واحد ، ولذلك احتاجت الرسالة المحمدية إلى عديد من المناهج لتوجه إلى الناس ، أينما كانوا ، وكيفما كانوا ، وبخاصة أنها

<sup>(١)</sup> سورة الأنفال الآية ( ٦٠ ) .

تتمدد إلى آخر الزمان ، وتشمل العالم كله ، ولم يكن المطلوب عسيراً أبداً ، فقد قص الله تاريخ الأنبياء ، وسجل حركة الدعوة الإسلامية من خلال الوحي المنزل على محمد ﷺ " ليقدم العديد من المناهج ، والوسائل ، للقائمين بأمر الدعوة إلى الله تعالى .

إن مناهج الرسل تعد طرقاً عملية ، تطبيقية للدعوة ، تحتاج إلى من يفهمها ويطبقها في حركة الدعوة للناس .

ولم يبق تعدد اللغات ، واللهجات عائقاً أمام الدعوة ، بعدما هيا الله من المسلمين دعاة يتقنون كافة اللغات ، ويعرفون الجوانب النفسية ، والفكرية التي تساعد في نجاح الدعوة .

## وهكذا ..

جاء الإسلام للناس صالحاً لكل زمان ومكان ..

ومحمد ﷺ " هو الرسول المختار لتبليغ دعوة الإسلام للناس ، ولذلك أنزل الله عليه القرآن الكريم محكماً ، مفصلاً ، قيماً ، مهيمناً ، لا عوج فيه ، ولا ريب . وقد استمرت البعثة المحمدية ثلاثاً وعشرين سنة ، أقام خلالها رسول الله ﷺ " في مكة ثلاث عشرة سنة ، والمدة الباقية عاشها في المدينة المنورة بهجرته ﷺ " إليها .

في مدة البعثة نزل وحي الله للناس ، وكمل الدين ، وتمت النعمة ، وأصبح الإسلام ديسن البشرية جميعاً ، في كافة أرجاء الأرض ، وعلى طول الزمن إلى يوم القيامة .

وقد هيا الله محمداً ﷺ " للدعوة ، وصنعه للرسالة ، وأمدّه بكل ما يحتاجه لتصل الدعوة إلى الناس على وجه صحيح ، واضح ، قطعاً للأعذار ، ﴿ لَعَلَّأ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ﴾ .

وقد ترك الرسول ﷺ " لأمته رصيذاً هائلاً ، يمكنهم من نشر الدين ، وتبليغه إلى العالم ، والتعامل مع كل إنسان بواقعه ولغته ، لأن هذا الرصيد كما يقدم موضوعه يقدم معه الأسلوب الأمثل ، والطريق السديد .

وقد أعانني الله تعالى فكتبت في تاريخ دعوة الرسل " عليهم السلام " وفيه حاولت إبراز منهجهم في الحركة بالدعوة ، وتوضيح أهم الركائز المستفادة من تاريخهم ، من أجل أن تكون أسساً للدعاة إلى الله من بعدهم ، وإلى يوم القيامة . وأصبحت أمام الدعوة المحمدية لأكتب بعون الله فيها ، ورأيت ضرورة إتباع المنهج الذي أتبعته مع تاريخ الرسل حيث الأسس التالية : —

**أولاً :** التعريف بقوم الرسول ، من ناحية موطنهم ، وحضارتهم ، وأديانهم ومستواهم الفكري ، لأن هذا يساعد على اكتشاف الجوانب الفنية التي واجه بها الرسول قومه ، منهجاً ، وأسلوباً ، وحتى يتمكن دعاة العصر من الاستفادة بهذه الناحية ، كاختيار الموضوع المناسب ، والطريقة اللائقة ، والأسلوب المفيد ... وهكذا

**ثانياً :** التعريف بالرسول نفسه من ناحية أصله ، ونشأته ، ورحلاته ، وكافة المؤثرات في شخصيته ، وصفاته ، وكلها عوامل يُتاح في تكوين الدعوة ، لأنه " ﷺ " قائدهم ورائدهم ، يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ۚ ﴾

لِمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴿٢٠﴾

**ثالثاً :** تتبع حركة الرسول بالدعوة ، وإبراز كيفية مواجهته للناس على اختلافهم ، فمنهم الملأ ، ومنهم الضعفاء ، ومنهم السادة ، ومنهم العبيد ، وبذلك دعا الرسول قومه جميعاً ، ووصل إلى عقولهم ، وناقش حججهم ، وهدم ضلالهم ، وبذلك ظهرت منهجية الدعوة ، والطريقة المثلى للحركة بها مع الطوائف المختلفة وأصحاب المذاهب ، والمثل الخرفة .



**رابعاً :** استنباط أهم الركائز المستفادة من دعوة الرسول ﷺ " لتكون  
ركيزة يستفاد بها في الدعوة إلى الله تعالى .

**خامساً :** المحافظة مع الأسس المذكورة على ذكر الوقائع ورواية الأخبار  
وتصحيح الخطأ للمحافظة على التاريخ ، وأحداثه ، وبخاصة أنه تاريخ الدعوة .  
إن إتباع هذا المنهج مع الدعوة الإسلامية دفعني إلى عدة أمور : —

**الأمر الأول :** التعريف بأهم العالم كله ، فإليها جاء الإسلام، ومن أجلها  
بعث محمد ﷺ ، يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ  
لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ويقول تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً  
لِّلْعَالَمِينَ ۝ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا  
وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ۝ ﴾ <sup>(٣)</sup> ، ويقول سبحانه قال تعالى :  
﴿ قُلْ أَيْ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ  
لَأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۝ ﴾ <sup>(٤)</sup> ، ويقول النبي ﷺ : ( كان كل نبي يبعث لقومه  
خاصة وبعث إلى الناس كافة ) <sup>(٥)</sup> ..

ويقول الرسول ﷺ : ( إني رسول الله إليكم خاصة ، وإلى الناس كافة ) <sup>(٦)</sup>  
.. وهذا التعريف بالعالم له أهميته ، لأنه يعرف بمدى حاجة العالم إلى الدعوة ، ويبين  
الحكمة في تنوع المناهج ، والطرق ، والأساليب ، التي وجه الله رسوله ﷺ إلى

<sup>(١)</sup> سورة الفرقان الآية ( ١ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأنبياء الآية ( ١٠٧ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة سبأ الآية ( ٢٨ ) .

<sup>(٤)</sup> سورة الأنعام الآية ( ١٩ ) .

<sup>(٥)</sup> صحيح البخاري — كتاب التيمم ج ١ ص ٤٣٦ بشرح فتح الباري .

<sup>(٦)</sup> لم يرجع السابق — كتاب التفسير — باب سورة المائدة ج ٨ ص ٧٣٧ .

استخدامها في مجال الدعوة ، ويشير إلى السر في تكليف الرسول أصحابه بحمل الدعوة في حياته ، وتحميلهم مسئولية التبليغ من بعده إلى أن تقوم الساعة .

### الأمر الثاني : في قضية التعريف بالرسول وجدت نفسى أمام السيرة

النسبية ولاحظت أن مرحلة ما قبل البعثة حيث التنشئة ، والتربية ، والتكوين الشخصى لرسول الله " ﷺ " لها ارتباط وثيق بالبيئة والواقع ، ولذا كان الاهتمام بدراستها ، لما لها من تأثير في التربية الإسلامية ، وإظهار قيمة الحق ، والصواب ، ومكارم الأخلاق الذى عاشه رسول الله " ﷺ " وسط واقع ملئ بالفساد ، والضلال إن مرحلة ما قبل البعثة المحمدية تعد دراسة للسيرة ، ولها صلة مباشرة في التعريف بالرسول " ﷺ " ، ومن الممكن الاستفادة بأحداث هذه المرحلة وأثرها في نشأة رسول الله " ﷺ " في اختيار الدعوة ، وتربيتهم ، وتكوين شخصياتهم النفسية ، والاجتماعية ، والخلقية ، والقيادية ، ليتمكنوا من حمل الدعوة ، وتبليغ الإسلام على الوجه المطلوب .

أما مرحلة ما بعد البعثة ، فقد لاحظت أن تاريخ السيرة تاريخ الدعوة متداخلاً بحيث يصعب الفصل بينهما ، فقد كانت حياة الرسول " ﷺ " خلالها حركة دائمة للدعوة ، حيث عد نومه " ﷺ " ، ومشييه ، وصمته ، وحياته في بيته ، ومع الناس جزءاً من حركته " ﷺ " بالدعوة ، وقد اعتبرها المسلمون ركائز يأخذون منها ، ويستفيدون من توجيهاتها ، وإنجازاتها .

وتبعاً لهذه الحفيفة سأعيش مع السيرة النبوية في مرحلة ما قبل البعثة ، وأدرسها دراسة تفصيلية ، وأخذ منها الركائز التربوية في مسجال التكوين ، والتنشئة .

أما مرحلة ما بعد البعثة فسأوردها بمحكمة مع التركيز على الأحداث المتصلة بشخصية محمد الرسول " ﷺ " تاركاً تفصيل الجانب الحركى لمبحث حركة الرسول بالدعوة ، مع أن هذه الحركة جزء من شخصيته " ﷺ " العملية ، وإظهار لرسائله

مع الناس .

**الأمر الثالث :** سأحاول مستعيناً بتوفيق الله تعالى إبراز الركائز التي فيها فائدة للدعوة والدعاة ، متصلة بكل دراسة سواء كانت الدراسة للواقع البشري ، أو في السيرة قبل البعثة ، أو الحركة بالدعوة بعد البعثة على أن تكون هذه الركائز في فصل مستقل يجمعها جميعاً . وبذلك التزم نفس المنهج الذي اتبعته مع تاريخ رسل الله تعالى .

ونظراً لطول دراسة تاريخ الدعوة خلال البعثة الحممدية فقد قسمتها إلى قسمين :

**القسم الأول :** ويشمل دراسة المرحلة المكية قبل الهجرة ، بحيث يتكون منه الكتاب الثاني من سلسلة تاريخ الدعوة .

**القسم الثاني :** ويشمل دراسة المرحلة المدنية الذي ستصدر بإذن الله تعالى في كتاب مستقل ، يمثل الكتاب الثالث في سلسلة تاريخ الدعوة .  
وسيتضمن تاريخ المرحلة المكية بعون الله تعالى النقاط التالية تبعاً للمنهج الذي رجوته في دراستي لتاريخ الدعوة ، وهي كما يلي : —

**الأولي :** التعريف ، بالعالم قبيل ظهور الإسلام ويشمل دراسة أوضاع أقاليم العالم المختلفة ، لأن موطن الدعوة الإسلامية هو العالم كله .

**الثانية :** التعريف بالرسول " ﷺ " من الميلاد إلى الهجرة .

**الثالثة :** الحركة بالدعوة في مرحلة ما قبل الهجرة .

**الرابعة :** إبراز الركائز المستفادة من سيرة الرسول " ﷺ " وحركته

بالدعوة ، وبخاصة ما لها صلة بالدعوة والدعاة في العصر الحديث .  
وسسوف أورد كل نقطة من هذه النقاط في فصل مستقل ، لما لكل منها من دراسة مطولة ، وعمق علمي ، وفوائد عديدة .

وبهذا التقسيم أكتب في السيرة، وهو الأمل الذي كنت أثنائه ، كما أكتب في تاريخ الدعوة الذي أرجو له أن يصير علماً ، شامخاً بين سائر العلوم الإسلامية ، وأكتب للدعاة الذين هم أمل الأمة في النهوض ، والتقدم ، ولسوف أستفيد من سائر العلوم الإنسانية والدينية ، لأن الدعوة في الحقيقة هي غاية كل العلوم ، والحركة بها تحتاج لدراسات عديدة .

إن الدعوة إلى الله تعالى من أهم علوم الإسلام في أي جانب من جوانبها ، ويكفي شهادة على ذلك موقف القرآن الكريم معها ، فهو الذي حدد موضوعها ، ورسم مناهجها ، وقص تاريخها ، وأنزل العديد من أساليبها ، ووسائلها .. ومن المعلوم أن كل العلوم الإسلامية نشأت لخدمة القرآن الكريم ، وخدمة أهدافه والدعوة هي هدفه الأول ، وغايته الأساسية ... وأملى في الله ، ودعائي له أن يهيئ العلماء المختصين ، ويسر لهم العمل لإبراز علوم الدعوة ، متميزة بموضوعها ومنهجها ، وغايتها ، وشرفها ، لينالها بها ومعها ، وعليها ، المؤمنون المخلصون

يقول الله تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ إِلَيْنَا هَٰذَا الْقُرْآنَ لِأُنذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ۖ ۝١١ ﴾ .

ويقول سبحانه : ﴿ اتَّخَذُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ قَيِّمًا يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا لِّمَنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۖ مَّا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا ۖ وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۚ ۝١٢ ﴾ (١) ويقول سبحانه : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۖ ۝١٣ ﴾ (٢)

فالقرآن الكريم هو كتاب الدعوة ، ولا جديد في الدعوة بعد القرآن الكريم ، اللهم إلا اجتهادات عقلية في مجال التطبيق ، والملاءمة بين القضية والواقع في إطار

(١) سورة الأنعام الآية ( ١١ ) .

(٢) سورة النكهف الآيات ( ١ - ٤ ) .

(٣) سورة الفرقان الآية ( ١ ) .

مفهوم القرآن الكريم .

والرسول ﷺ ، بعث للدعوة ، فهي مسئوليته ، ووظيفته ، يقول الله تعالى :

﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ<sup>(١)</sup> .

وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ<sup>٢</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ<sup>(٣)</sup> ﴾ ، ويقول

سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّبِيُّ<sup>٤</sup> إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُهَيَّمًا<sup>(٥)</sup> وَذَيِّرًا<sup>(٦)</sup> ۖ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ .

وَمِرَاحًا<sup>(٧)</sup> مُبِينًا<sup>(٨)</sup> ۖ وَكَثَرِ الْمُؤْمِنِينَ<sup>(٩)</sup> بِأَنَّ هُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا<sup>(١٠)</sup> ۖ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ

وَالْمُنَافِقِينَ<sup>(١١)</sup> وَدَعْ أَذْلَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ<sup>(١٢)</sup> وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا<sup>(١٣)</sup> ﴾<sup>(١٤)</sup> ، ويقول

سبحانه : ﴿ يَتَأْتِيهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ<sup>١٥</sup> وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

رِسَالَتَهُ<sup>١٦</sup> ۖ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ<sup>١٧</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ<sup>(١٨)</sup> ﴾<sup>(١٩)</sup>

هذا التزاوج الواضح بين القرآن الكريم وبين رسول الله ﷺ " مع الدعوة ،

وكذا الصلة الوثيقة بينهما ، فالقرآن الكريم دعوة تعليمية ، توجيهية ، ورسول الله "

ﷺ " دعوة تطبيقية عملية ، وبهذا التلاقي تحققت المثالية الإسلامية في مجال الواقع

والتفت الفطرة البشرية مع الوحي الإلهي العظيم ، وتحدث في رسول الله ﷺ "

الذي جعل القرآن تطبيقاً عملياً في خلقه ، وسلوكه .

يسروى مسلم بسنده عن سعد بن هشام قال : ( قلت لعائشة " رضی اللہ

عنها " : يا أم المؤمنين أنبئني عن خلق رسول الله ﷺ " .

قالت : أأنت تقرأ القرآن ؟

قلت : بلى .

<sup>(١)</sup> سورة المائدة الآية ( ٦٧ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأحزاب الآيات ( ٤٥ — ٤٨ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة المائدة الآية ( ٦٧ ) .

قالت : فإن خلق نبي الله ﷺ " كان القرآن " <sup>(١)</sup> .

ومن هنا تكون السيرة إبرازاً لشخصية الرسول ﷺ في خصائصها وكمالاتها، ويكون تاريخ الدعوة إظهاراً لجهاد الرسول ﷺ ، وتحمل مشاق الدعوة وهو يتحرك بها مع الناس .

### ولي قصة مع السيرة أحب أن أذكرها هنا :

فلقد كان شيخاي اللذان حفظت القرآن الكريم على يديهما وهما الشيخ/عيسى أحمد طه، والشيخ / إبراهيم ويح <sup>(٢)</sup> ، يحكيان لي ولزملائي تنقلاً عن رسول الله ﷺ " حين نقرأ على أحدهما سورة من السور التي تتحدث عن رسول الله مثل سورة " الضحى " و " الانشراح " و " الفيل " وكان الشيخ يشرح لنا خواطره بأسلوب مبسط، مما حييني في السيرة منذ الصغر، حيث كنت مع زملائي الصغار ، تتداول كلام الشيخ، ونسعد معه بحب رسول الله ﷺ " ولتمثله حركة معجبين بها . ولما انتسبت للأزهر الشريف ، ودخلت المرحلة الابتدائية على النظام القديم <sup>(٣)</sup> ، صارت السيرة مقررأ دراسياً ، يعيش تاريخ رسول الله ﷺ " ، من

(١) بعض التقدير ج ٥ ص ١٧٠ .

(٢) ولد الشيخ عيسى أحمد طه ونشأ بقرية " منية مسير " من أعمال محافظة كفر الشيخ ، وأسس كتاب القرية ، واهتم به مع زميل له هو الشيخ / إبراهيم ويح " عليهما رحمة الله " ، وقد بارك الله في عملهما ، وأخرج من هذا الكتاب علماء أفاض ، وظهر جيل من علماء القرية يدين هما بالفضل ، ويكفي أن قرية ويفية صغيرة هي قرية " منية مسير " تخرج من أبنائها أكثر من ثلاثين أستاذاً بجامعة الأزهر يدينون لكتاب القرية بالفضل ، ومن الواضح أن أبناء هذه القرية قد بارك الله لهم وحبب أبناءهم في العلم والتعلم .

(٣) كان النظام القديم في الأزهر يقصر الدراسة قبل الجامعة على مرحلتين ، المرحلة الابتدائية ومدتها أربع سنوات ، والمرحلة الثانوية ومدتها خمس سنوات ، على أن يكون التحاق الطالب بالمرحلة الابتدائية بعد امتحان للقبول في مستوى نهاية التعليم الأساسي ، وحفظ القرآن الكريم

مولده، إلى لقائه ربه ، ونالت مقررات السيرة إهتمامى ، إذ كنت أحفظها مع بداية الدراسة ، وأذكر أن بعض زملائى كان يشيد بذلك عند الأساتذة .

ولما بدأت فى دراسة المرحلة الثانوية القديمة ، لاحظت أننا فى الدراسة كلها نعيش مع رسول الله " ﷺ " .

فالتفسير بيان لوحى الله إلى الرسول " ﷺ " .

والحديث شرح لأقوال رسول الله وأفعاله " ﷺ " .

والفقه أحكام مأخوذة عن رسول الله " ﷺ " .

وعلموم اللغة تدور كلها حول القرآن لمعرفة معانيه ، وبيان إعجازه، وإظهار

سمو الوحي إلى رسول الله " ﷺ " .

وأذكر أن مدرس الخط كان يورد الآيات، والأحاديث، ويكلفنا

يكتابــــــــــــتها ( رحمه الله ) ويشرح لنا معناها ، وما يستفاد بها ، وبذلك عملت

المقررات كلها فى بناء الصورة الإسلامية ، وكان الأساتذة خير من يتفاعلون مع

أهداف هذه المناهج ، وتحويلها إلى عنصر يتفاعل معه الطالب الأزهرى فى النظام

القديم .

ومن هنا لم تعد السيرة مجرد تاريخ ، وإنما صارت الدين كله ، مما رغبتى فى

أن أكتب فيها منذ صغرى، وأذكر هنا ألى كتبت عن محمد اليتيم ، وعن غزوة أحد ،

وغزوة الخديبية .. وغير ذلك وأنا فى المرحلة الثانوية .

وكسلما تقدم بى السن كبر معى الأمل ، وأخذت أتصور نفسى أمام مؤلف

ضخم عن رسول الله " ﷺ " ، أتناول فيه كافة جوانب شخصيته " ﷺ " .. فأخذت

أقرأ ، وأطلع ...

ومع القراءة ، وعمق النظرة ، وتكشف الحقيقة ، أخذت أستشعر ضالة همتى

أمام هامة المصطفى " ﷺ " ، وبان لى أنى كنت فى أمنية حاملة، صعبة المنال ، لكنى لم

أفقد الرغبة ، ولم يملكى اليأس والقنوط ، عشت مع أمنيتى راجياً مؤملاً فى توفيق الله

أن يسدد الخطى ، ويسر الصعب ، ويقرب البعيد والله على كل شيء قدير .  
 وزاد من تباعد الأمنية بروز المؤلفات الضخمة ، العديدة ، حول شخصية  
 المصطفى " ﷺ " متناولة أهم جوانب العظمة في السيرة النبوية ، حتى خيل إلى أن هذه  
 المؤلفات لم تترك لي ولمن يأتي بعدى مجالاً نبرزه في حياة رسول الله " ﷺ " .  
 وحمدت الله ، ولجأت للسكوت الهادئ ، واكتفيت بالقراءة ، والتعلم ،  
 وقلت لنفسي : لا تكن متعلماً ما دمت قد عجزت عن أن أكون عالماً معلماً .  
 ولم يطل بي الحال إذ وقع أمر قدرى أعاد لي الأمل مرة أخرى ، حين حدث  
 حوار علمي : حول ماهية الفرق بين السيرة النبوية ، وبين تاريخ الإسلام في عصر  
 النبي " ﷺ " : أو بين فقه السيرة النبوية ، وبين الدعوة في عصر النبوة ، ووجدت  
 نفسي في خضم المناقشة أؤكد أن السيرة النبوية : لا بد معها من فقه يعيش مع الحدث  
 ويأخذ العبرة حتى لا تروى السيرة في صورة جامدة ، خامدة ، لا تليق برسول الله " ﷺ " <sup>(١)</sup>  
 الذي أضيى حياته في خدمة الإسلام ، وتبليغ الدعوة ، والدفاع عن دين الله تعالى ،  
 وتلك كانت مهمته ، يقول تعالى : ﴿ وَإِنْ تَكْذِبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا  
 عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلُغُ الْمُبِينِ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

إن السيرة النبوية إذا درست مع التحليل ، واستنباط العبر ، فإنها تعد تاريخاً  
 للدعوة في عصر رسول الله " ﷺ " .

وفي زيارة لمسجد رسول الله " ﷺ " وقفت أمام قبره " ﷺ " ، وحاشت الخواطر  
 في ضميري ، ودارت تصوراتي دورة سريعة حول حياة وجهاد المصطفى " ﷺ " .  
 وقلت لنفسي : إني أقف أمام محرك البشرية كلها ، وأرى الآن التاريخ مجسداً في  
 قوته النابضة ، وألفت ضميري يلتصق بعالم اللاشعور الخفي ، منتقلاً بين روابي  
 مكة ، وبادية بني سعد ، وفي غار حواء ، وثور .. وعند بدر ، وأحد ،



والأحزاب ، وتبوك ، وأخذت أتصور المسلمين مع رسول الله " ﷺ " وهم يواجهون الطواغيت وهم يعملون للقضاء على الإسلام ، وتضليل المسلمين .

وسرح خاطري بعد ذلك إلى واقع المسلمين المعاصر ، ورأيت ما فيه من تباعد عن المجتمع الإسلامي الذي رباه محمد " ﷺ " ، وقلت متسائلاً :

— لم كل هذا التباعد الذي ألحقه المسلمون بأنفسهم ؟ !

— وما أسباب هذا التباعد ؟ !

— وهل من عودة مرة أخرى إلى حيوية الإسلام، وعظمة الحياة فيه ؟ !

— ألم يتأكد المسلمون من فشل كافة السبل اللا إسلامية ؟

— وهل يتصور المسلمون نصرهم في غير الإسلام، وهم مسلمون ؟ !

— وهل يضع مجد الإسلام غير المسلمين ؟ !

— ماهي العراقيل ؟ وكيف نتغلب عليها ؟ !

— ومن للإسلام في عالم اليوم ؟ !

وهكذا :

عشت الإسلام كله، ونظرت أمامي إلى غير حبيبي، وسيدى المصطفى " ﷺ "

ودعوت الله أن يجزيه عن الإسلام والمسلمين الجزاء الأوفى .

وعشت مع المسلمين ودعوت لهم بالفوز والفلاح ..

في هذه اللحظات عشت السيرة كلها ، بأحداثها ، وحركتها ، وقيمتها ،

وقيمتها .. وتأكدت أن أملي القديم ضرورة نفسية تسرني ، وتسعدني .

وهو في الوقت نفسه ضرورة إيمانية ، لأن العصر الأول — سيرة ودعوة —

هو منهج الإسلام وعبرة التاريخ للمؤمنين ..

كما أنه ضرورة اجتماعية يحتاجها الناس في وقت تتنازع فيه المذاهب ،

وتكثر المعارضات، وتشد الحاجة إلى العلم والمعرفة بالإسلام ، لأن به وحدة النصر ،

والقوز ، والفلاح .

إن عرض السيرة بصورة حركية ، ومنهجية فنية ضرورة ليعيش الناس السيرة ، ويحيوا بها ، ويعيدوا الإسلام للحياة كما حققه النبي ﷺ " للناس .

وزاد إقتناعي بهذا التصور بعد أن اطلعت على مناهج أقسام ، وكليات الدعوة في الجامعات التي قمت بالتدريس فيها <sup>(١)</sup> ورأيت أنها هُتم بدراسة تاريخ الدعوة ، وتخص عصر النبوة بالدراسة الموسعة ، وشرفني الله تعالى فقامت بتدريس مقررات تاريخ الدعوة ، لسنوات عديدة في جامعات مختلفة الأمر الذي أحيا الأمل القديم مرة أخرى في أن أكتب عن رسول الله ﷺ " من هذه الزاوية المنهجية ، وبذلك أكتب سيرة رسول الله ﷺ " ، وأؤرخ للدعوة في عصره ﷺ ، وأقدم للدعوة والدعاة الفوائد والعبر المأخوذة من السيرة النبوية ، وتاريخ عصر النبوة ، وأوضح منهج التقديم للمجتمع كله .

إن سيرة الرسول ﷺ " غنية بالأحداث ، مليئة بالوقائع ، متنوعة في العطاء رائدة في التربية والتوجيه ، وغنى دارسها أن يوسع اهتمامه ليشمل جوانبها جميعاً ، من شخصية ، وسياسية ، ودعوية ، واجتماعية ... إلخ .

وسأحاول بإذن الله تعالى أن أكتب في الجوانب كلها إيفاء لحق السيرة النبوية وإبرازاً للدعوة في إطار السيرة الكاملة ..

وسوف أعمل على إبراد الحقائق المدعمة بالدليل ، الخالية من المبالغة ، أو التهويل ... ولن أقف موقف الدفاع أمام أكاذيب أعداء الإسلام ، وسأترك الحقيقة التاريخية تلو بصدقها ، وأحقيتها ، فليس أقوى من الحق نصراً للحقيقة في مجال المنازعة العلمية ، وفي كل مجال .

ولن أجرى وراء المبالغة والتهويل في ذكر الحوادث ، والوقائع ، حتى لا أتعارض مع مسلمات العقل ، وأكون كالدبة التي قتلت صاحبها ، وهي تحبه .

(١) قام المؤلف بتدريس مقررات تاريخ الدعوة في قسم الدعوة بكلية أصول الدين - جامعة الأزهر ، وجامعة أم القرى بمكة المكرمة ، وجامعة الملك سعود بالرياض ، وفي كلية الدعوة الإسلامية بجامعة الأزهر بالقاهرة .

لقد كان " ﷺ " في حركته بالدعوة واقعياً ، ربي أصحابه على الصبر ، وتحمل المشاق ، وتحمل " ﷺ " من أذى أعدائه ما لا يتصوره عاقل ، وبذلك بين أمته على الإيمان بسنن الله في الحياة والأحياء ، وأبعدها عن الجري وراء الخيال والأوهام . إن الحقيقة يجب أن تعرض في ثوب يليق بها ، ثوب خال من المبالغة ، والتهويل بعيد عن الإخفاء ، والصمت ، لأن كل ذلك يبعدها عن صورتها المستقيمة .

والسيرة النبوية هي شخصية رسول الله " ﷺ " الحقيقية ، وتاريخ الدعوة هو الحركة الحقيقية بدين الله تعالى وتبليغه للناس .

وهاتان القضيتان — السيرة وتاريخ الدعوة — من أمهات الحقائق التي يجب أن يعيشها الناس ، بعقل مفتوح ، وتأمل دقيق ، وتفهم واع ، من أجل أن تظهر فترة الدعوة المكية والمدنية — كما كانت — بنبضها الحي ، وقوتها المتدفقة .

ومن أفضل السبل لعرض حقائق السيرة والدعوة أن نأخذ من المؤرخين القدماء والمحدثين ما يفيد ، فمن القدماء نأخذ حشد الآثار ، وتمحيص الأسانيد ، وحقائق الوقائع والأحداث ، .. ونأخذ من المحدثين التفحص ، والتحليل ، والموازنة ، واستنباط الدروس ، والعبر .

وبذلك نعرض أحداث السيرة ، ووقائع الدعوة بوساطة حية ، محبة ، يتأسى بها ، من كان يرجو الله واليوم الآخر ، وذكر الله كثيراً .

إنني أكتب في السيرة كمؤمن محب لصاحب السيرة ، سيدي محمد " ﷺ " تدفعه عواطفه المحبة إلى مواصلة المديح ، والإشادة ، ويدفعه إيمانه إلى التزام الدقة والصدق ، الذي دعا إليها رسول الله " ﷺ " ، والحمد لله أن رواية الصدق لا تظهر إلا عظمة رسول الله " ﷺ " .

وأكتب في الدعوة كذلك كعالم شرفه الله بالتخصص في علوم الدعوة ، وقدر الله تعالى فضله ، ومنته ، على العمل لها ، ولذلك فإني أود أن آخذ من السيرة الدروس المفيدة للدعوة والدعاة ، وأحب الدعاة في أن يعيشوا مع السيرة فهماً ، واستفادة ، وعملاً .

وليس من اللائق أن يبقى رسول الله ﷺ " بين الكتب حبيساً ، أو في ثنايا الألسنة ذكراً فقط ، وإنما الواجب أن يصير عملاً وسلوكاً ، وقدوة ، لتحيا الأمة مرة أخرى : ويعيش الإسلام حاضره العظيم .

لقد عاش أصحاب النبي ﷺ " حياة رسول الله ﷺ " وتخلوها في نومهم ، وبقظتهم ، وحركتهم ، وسكوتهم .. وهو الأمل الذي أرجوه لنفسى ، وللمسلمين أجمعين ، ولذلك جعلت دراستي للسيرة والدعوة في إطار واحد . وبذلك أكون قد سلكت منهجاً وسطاً ، لا إفراط فيه ، ولا تفريط ، لتحقيق الفائدة ، ويسدو الإسلام بواقعيته وشمونه .

وبهذه الوسطية المنهجية أشعر أني مع الحق والصواب ، أورده بدليله الصحيح بعيداً عن الشطط الذي لا أرتضيه ، سواء كان مدحاً ، أو ذماً .. وبذلك التزم مع السيرة والدعوة بالصدق والأمانة ، واضعاً أمام عيني قول النبي ﷺ " : ( من كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ) (١) ..

أسأل الله سبحانه وتعالى أن يوفقني في مقصدي ، ويبارك لي فيه ، ويجعله ذخراً لي في يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا ملكتنا ، وإليك أديننا ، وإليك المصير ...

**أ.د/ أحمد أحمد غلوش**

**مدينة نصر ١١ / ٣ / ١٤٢٤ هـ**

**١٢ / ٥ / ٢٠٠٣ م**

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب العلم — باب إن من كذب على النبي ﷺ " ح ١

## **الفصل الأول**

**الواقع العالمي قبيل مجئ الإسلام**

**( التعريف بأمة الدعوة )**

**ويشمل**

**المبحث الأول : " واقع العرب " .**

**المبحث الثاني : " واقع الروم " .**

**المبحث الثالث : " واقع الفرس " .**

**المبحث الرابع : " واقع الهنود " .**

**المبحث الخامس : " ملائمة الواقع العالمي**

**للحركة بالإسلام " .**



**تمهيد :**

العالم هو أمة الدعوة ، فإليه بعث محمد ﷺ ، وأمر بتبليغ الإسلام إلى الناس أجمعين .

فمن أجاب ، ودخل في دين الله تعالى صار من أمة الإجابة ، التي عرفت الحق ، وآمنت به ، واستقامت على الصراط المستقيم .

والتعريف بهذا العالم ضرورة مهمة ، لأنه يبين واقعه ، وما سادته من انحراف وضلال ، ويظهر المناهج التي دعا بها الرسول ﷺ " الأمم كلها على اختلافهم ، وتنوعهم ، ويوضح طريقة المواجهة بين الإسلام ومعارضيه في هذا الزمان السحيق .... وبذلك تستفيد الدعوة ، وتأخذ الدعاة الدروس ، والعبر ..

لقد انقسم العالم في هذا الزمان إلى أمم كبرى هي الفرس ، والروم ، والعرب والهند وكان لكل منها وضعه ، ونظامه ، ودينه ، وانضوت بقية الأقاليم تحت سلطان إحدى هذه الأمم ، كولايات تابعة لها ، تعيش بنظمها ، وتتمذهب بمذهبها .. وهكذا .

وفي هذا الفصل سأتناول هذه الأمم بالدراسة ، وأعرف بواقعها ، وأهم نظمها ، وأديانها ، وأخلاقها ، وسأعقد لكل أمة مبحثاً على أن أعقد مبحثاً آخراً أبين فيه مدى حاجة العالم يومذاك لحمل الإسلام ، وكيف تهيأت الظروف العالمية لاستقباله ، وبذلك سيكون هذا الفصل مكوناً من خمسة مباحث هي :

- **المبحث الأول :** " واقع العرب " .
- **المبحث الثاني :** " واقع الرومان " .
- **المبحث الثالث :** " واقع الفرس " .
- **المبحث الرابع :** " واقع الهنود " .
- **المبحث الخامس :** " ملائمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام " .

وبذلك ينتهي الفصل بتوفيق الله تعالى ،،،،

## المبحث الأول

### "العرب"

#### ١ =

### جغرافية بلاد العرب

العرب هم أبناء إسماعيل "عليه السلام" ، نشأوا في مكة أولاً ، وبعدها انتشروا في شبه جزيرة العرب <sup>(١)</sup> ، وهاجروا إلى البثدان المجاورة .

وتنقسم الجزيرة العربية إلى خمسة أقاليم تبعاً لجغرافية الأرض : وطبيعة المكان ذلك أن جبل السراة بدأ من ثغر اليمن جنوباً ، وأمتد حتى بلغ أطراف الشام شمالاً ، فسمى بإقليم "الحجاز" لأنه يحجز إقليم "تهامة" الواقع في غربته على ساحل البحر الأحمر ، عن إقليم "نجد" الواقع شرقه . وتسمى المنطقة الواقعة جنوب جبل السراة بإقليم "اليمن" ، والمنطقة الواقعة شرق نجد بإقليم "العروض" .

وهذه الأقاليم تتمايز عن بعضها على النحو التالي :

**١ . تهامة :** يشمل الأرض المنخفضة ، الساحلية ، المشاذية للبحر الأحمر بدءاً من ينبع في الشمال ، إلى نجران في جنوب السعودية ، وسميت تهامة بتهامة لشدة حرها ، وركود ريحها ، كما تسمى "الغور" لانخفاض أرضها بالنسبة لغيرها .

**٢ . الحجاز :** ويتكون من عدد من الوديان التي تتخلل جبال السراة ، الممتدة من الشام شمالاً إلى نجران جنوباً ، وسميت بالحجاز لأنها تحجز تهامة عن نجد ، وفي هذا الإقليم تقع مدينتا "مكة" ، "والمدينة" ، ويرتبط هذا الإقليم بالبحر الأحمر بعدة طرق عرضية كما يرتبط بسائر الجهات .

(١) يسمى العرب بلادهم بـ "جزيرة العرب" على سبيل التحوز ، لأن للبلاد تحيط بها من ثلاث جهات فقط هي : الشرق ، والجنوب ، والغرب ، ويحدها من الشمال بلاد الشام ، والعرب يدخلون في جزيرةهم بركة سيناء ، وفلسطين ، وسوريا .



**٣ - نجد :** ويمتد من اليمن جنوباً ، وبادية السماوة والعروض والعراق شمالاً ،

والخليج العربى شرقاً ، والحجاز غرباً ، وسمى " نجد " لارتفاع أرضه .

**٤ - اليمن :** ويمتد من نجد شمالاً إلى المحيط الهندى جنوباً ، والبحر الأحمر غرباً إلى

حضرموت ، والشمر ، وعمار شرقاً ، وقد أقيم باليمن سد مأرب ، وقصر غمدان .

**٥ - العروض :** ويشمل اليمامة ، وعمان ، والبحرين ، والإمارات العربية ، وقطر

وسمى بـ " العروض " لاعتراضه بين اليمن ، ونجد ، والعراق .

وبلاد العرب صحراوية ، شحيحة المياه ، نادرة الزرع ، إلا فى بعض المناطق

كالطائف ، واليمن ، ولذلك إتحه الناس إلى الرعى ، والتنقل ، والتجارة ، طلباً للرزق

والمعاش ، وساعدهم على ذلك تعدد الطرق الممهدة التى تربط الشمال بالجنوب ،

والشرق بالغرب ، بطرق ومسالك عديدة ، وكانت الجزيرة قبيل البعثة معبر

التجارات المختلفة الآتية : من وإلى الهند ، وروما ، والحبشة ، ومصر ، وغيرها .

وتعد مدينة " مكة " ، حاضرة الجزيرة العربية ، لوجود الحرم بها ، وقد حفظ

العرب لمكة حقها ، وصانوا حرمتها ، وتعارفوا على الأشهر الحرم ، لينتشر السلام فى

الحرم ويحج الناس إليه آمنين .

وكان العرب على اختلاف قبائلهم ، وأديانهم يؤمنون بأن دعوة إبراهيم "

الْحَنِيفَةَ" الواردة فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا ءَامِنًا

وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ

قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ ۖ وَفِيْنَ الْمَصِيرِ ۝ ﴾ <sup>(١)</sup> قد استجيب ، حتى

صارت مكة ، التى دعا لها إبراهيم " الْحَنِيفَةَ " بلداً ، يأمن فيه الخائف ، ويشبع الجائع ،

وتأتىها الثمرات من كل الآفاق ويخيب فيها الظالم ، ويهلك المعتسدى ، وقد رأوا

<sup>(١)</sup> سورة البقرة الآية ( ١٢٦ ) .

" أبرهة " يهلك أمامهم بجيشه ، وفيه <sup>(١)</sup> ، عندما جاء لهدم الكعبة ، وصرف الحجاج عنها إلى الـ " قليس " الذي بناه في اليمن ليقتصد به الناس بدل الكعبة .  
وقد سمي العرب مكة بـ " ناسة " لأنها تطرد من يظلم فيها ، كما سموها " بكة " لأنها نيك أعناق الجبابرة <sup>(٢)</sup> .

يقول جصاص بن عمرو بن الخارث لقومه الجراهمة : ( لا تستخفوا بحق الحرم ، وحرمة البيت ، ولا تظلموا من دخله ، وجاء معظماً لحرمة ، أو آخر جاء بايعاً لسلعته ، أو راغباً في جواركم ، فإن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منها خروج ذل وصغار ) <sup>(٣)</sup> .

ومن أقوال سبيعة بنت الأحب بن عيلان توصي ولدها بإحترام مكة ، وبأهمية تجنب الظلم في الحرم ، تقول :

أبني لا تظلم بمكـــــــــــــــــة	ة لا الصغير ولا الكبير
وأحفظ محارمها بـــــــــــــــــة	ى ولا يغرنك الغرور
أبني من يظلم بمكـــــــــــــــــة	ة يلق أطراف الشرور
أبني يضرب وجهـــــــــــــــــه	ويلح بخديه السعير
أبني قد حربـــــــــــــــــها	فوجدت ظالمها يسرور
الله أمنها ومـــــــــــــــــا	ينبت يعرضها قصور
والله آمن طيرـــــــــــــــــا	والعصم تأمن في ثير
ولقد غزاها تبـــــــــــــــــع	فكسا بنيتها الخبير
وأذل ربي ملكـــــــــــــــــه	فيها فأوفى بالنذور
والفيل أهلك جيشـــــــــــــــــه	يرمون فيها بالصخور

(١) أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١١٣ .

(٢) سورة النحل لابن هشام ج ١ ص ١٢٦ .

(٣) عقربة بن مالك ص ١٧ .

فأسمع إذا حدثت وافهم ————— كيف عاقبة الأمور<sup>(١)</sup>

إن هذه المرأة العربية تشير في نصيحتها تلك إلى مقام مكة في ضمير أسانها ،  
والعرب جميعاً منذ القديم .  
وقد أعتبر العرب مكة حاضرتهم ، ومقصدهم ، ولذلك سموها بأم القرى ،  
وقد ازدادت أهمية " مكة " بعد الإسلام بمبعث محمد ﷺ فيها ، وشروق  
الإسلام من بين جنباتها ، وتوجه المسلمين في كافة أنحاء الكون إليها ، قاصدين الكعبة  
في صلواتهم ، وحجهم .

\*\*\*

<sup>(١)</sup> "السيرة النبوية لأبي هشام ج ١ ص ٢٦ ، يدرج : يهلك ، وأمر : اسم جبل بمكة ، بينها : الكعبة .

## . ٢ .

## الأوضاع السياسية والاجتماعية

## والأخلاقية عند العرب

اختلفت الأقاليم العربية في أنظمتها السياسية ، وأوضاعها الاجتماعية والأخلاقية .

ففي إقليم اليمن قامت مملكة " حمير الثانية " التي ضمت إلى سلطاتها مناطق كثيرة ، وكان ملكها يسمى بملك " سبأ " ، وذى ريدان ، وحضرموت ، ومخانت ، وعربهم في الجبال ، وفي تهامة <sup>(١)</sup> .

وكان هذا الإقليم محل صراع ، وتنافس بين الفرس والروم ، خلال القرن السادس الميلادي ..

حكمهم " ذونواس " الحميري وكان يهودياً ، متعصباً ، حاول فرض يهوديته على أهل عمران النصراني ، فلما أيوا خد لهم أخذوداً ، وأحرقهم بالنار ، وأعمل فيهم السيوف ، فاستجدوا بأميراطور الروم ، فأعانهم بجيش نصراني حبشي بقيادة " أبرهة " قوامه سبعون ألف جندي ، فقتل على دولة " حمير " الثانية <sup>(٢)</sup> وسار في اليمنيين بحروته ، وطغيانه حتى ملوا من ظلمه ، وعدوانيته وبخاصة بعدما بنى " القليس " ليصرف العرب إليها ، ويهجروا الكعبة الموجودة بمكة ، فاستعان اليمنيون بالفرس الذين أسسوا دولة لهم بقيادة " وهرز " الفارسي ، وقد استمرت هذه الدولة حتى ظهور الإسلام .

وقد سار ملوك اليمن التابعين للفرس أو للروم ، على نظام سياسي واحد ، قائم على وراثة الحكم بين الأبناء والإخوة ، وكان يساعد الملك مجلس من شيوخ

(١) عنر ما قبل الإسلام ص ٧٩ .

(٢) سيرة نبي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٣٦ .

القائل ، يتولون شئون الأقاليم، حيث يرأس كل قبيلة شيخها على أن يقدم الأموال التي يكلف يجمعها إلى حاكم اليمن .

وكان المجتمع في اليمن ينقسم إلى طبقات أربع هي : —

١ . **طبقة الجند** : وتتكون في أغلبها من جنود الفرس أو الروم .

٢ . **طبقة الفلاحين** : وهم الذين يقومون بالزراعة والرعي .

٣ . **طبقة الصناع** : وهؤلاء يقومون بالصناعات المطلوبة التي يحتاجها الناس .

٤ . **طبقة التجار** : وهم جماعات في المدن والقبائل كثيرو السفر والتنقل .

وقد أدى الثراء المادى في إقليم اليمن إلى تعاون الناس ، وإلى قيام حضارة مزدهرة ، وإلى بعدهم عن السحاء والحارب ، كما ساعدهم على الحركة وركوب البحر ، والانتقال إلى أقاليم العالم المختلفة ، وكانوا دائماً حلقة وصل بين العرب وسائر الأمم في الشرق ، أو الغرب ، أو الشمال ، أو الجنوب ، وكان لهم نشاطهم الواسع مع أقاليم الجزيرة الغربية ، وقبيل ظهور الإسلام تأثر اليمنيون بحادثة محاولة أبرهة هدم الكعبة ، وبناء القليس ، وشعروا بأن هذا يتعارض مع مشاعرهم القومية ، ويتناقض مع توجه عرب الجزيرة جميعاً إلى الكعبة بيت الله تعالى الذى بناه إبراهيم وإسماعيل " عليهم السلام " .

وقد تبدلت أوضاعهم الاقتصادية بهدم سد مأرب، بسبب بغيهم ، وظلمهم ، وإعراضهم عن الحق ، والصواب، يقول الله تعالى : ﴿ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ حِجَّتَيْهِمْ دَوَاتِي أَكُلِ خَطَرٍ وَأُتْلِ وَشَىٰءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٨﴾ ﴾ <sup>(١)</sup> وهكذا انقلبت أوضاعهم ، وعاشوا في اضطراب ، وضجر حتى جاء الإسلام .

<sup>(١)</sup> سورة سبأ الآية ( ١٧ ، ١٨ ) .

وفي شمال الجزيرة العربية ، حيث قرب قبائلها من الفرس والروم ، تأسست مملكة كنان ، لها مملكة الحيرة في الشرق تابعة للفرس ، ويحكمها المناذرة ، ومملكة الغساسنة في الغرب تابعة للروم .

وقد اتخذ الفرس والروم هاتين المملكتين حائلًا بشرياً لكل منهما ، يتقوى به هجوم الدولة الأخرى .

وقد تشبه ملوك العرب في كل دولة بأسيادهم ، وساند كلاً منهم جيش كبير مدعوم من الفرس أو من الروم .

وكثيراً ما قامت الحروب بين الغساسنة ، والمناذرة ، وبذلك تحقق للدول الكبرى ما أرادت ، حيث كان الصدام بين العرب والفرس ، ولم يقع صدام بين الفرس والروم بصورة مباشرة .

إلا أن هذا الحال أدى في الوقت نفسه إلى عدم العدوان على داخل الجزيرة العربية ، حيث لا مطمع لأحد من الفرس ، أو من الروم فيها ، لأنها بدت في نظرهم أماكن صحراوية ، متباعدة ، خالية من الخير والنفع ، وتحتاج لجهد كبير من أجل السيطرة عليها .

وأما أقاليم نجد ، والعروض ، والحجاز ، وقحافة ، فقد عاشت حياة بدوية ، تعتمد على الرحلة ، والتنقل ، ما عدا أهل مكة والمدينة ، والطائف ، فقد سكنها أهلها وعاشوا حياتهم بين الحضارة والبدوة ، فقد أخذوا الحضارة من الحجاج ، والزوار ، والتجار ، وتمسكوا ببدونهم التي ورثوها ، وعاشوا نظامهم عليها .

ومن هنا كان لهم شيء من الحضارة ، ففي مكة أنشأ " قصي بن كلاب " نظاماً سياسياً ، فأسس داراً سماها " دار الندوة " ، وجعل بها يؤدي إلى الكعبة ، وخصصها لاجتماع كل من بلغ أربعين سنة ، متمتعاً بالحكمة ، والنصاحة ، وتدبر الأمور من أهل مكة ، ولا يقتلن من شرط السن فقط إلا أبناء قصي <sup>(١)</sup> .

جعل قصى قومه على دفع ضريبة سنوية تسمى بـ " الرفاة " . . ينفق منها على الحجيج ، ضيوف الله ، فهم أحق الناس بالكرم .

وقد ألتفق القرشيون فيما بينهم ، منذ عهد قصى ، على توزيع مناصب المسئولية العامة ، على مختلف القبائل ، مع استقلال كل قبيلة بشئونها<sup>(١)</sup> .

استمر هذا النظام إلى ظهور الإسلام حيث كانت توزع المناصب على النحو التالى :

**١ . الحجابة والسدانة :** والمقصود بها حراسة مفاتيح الكعبة ، وكانت فى

بيت " عبد الدار " .

**٢ . السقاية :** وهى الإشراف على بئر زمزم ، وكانت فى بيت هاشم .

**٣ . الديات :** وتسمى الأشناق ، وكانت فى بيت " تيم " .

**٤ . السفارة :** وتختص بالبت فى الصلح ، وكانت فى بيت " الخطاب " .

**٥ . اللواء :** وحامله هو كبير القواد إذا هوجمت مكة ، وكان فى بنى أمية .

**٦ . الرفاة :** وهى الإشراف على جمع الأموال ، وكساست لـ

" عبد المطلب " .

**٧ . الندوة :** وهى الإشراف على دار الندوة ، وكانت لأبناء عبد العزى .

**٨ . الخيمة :** وهى حراسة دار الندوة وتولاها بنو مخزوم .

**٩ . الخازنة :** وهى إدارة أموال الكعبة وكانت لبنى كعب .

**١٠ . الأزدام :** وهى الاستخارة لمعرفة رأى الآلهة فى القضايا العامة ، وكانت

فى بنى أمية<sup>(٢)</sup> .

وقد أراضى هذا التقسيم قبائل مكة ، فعاشوا فى استقرار ، وتعاون ،

واستقلت كل قبيلة بشئونها ، ونشاطها ، وحركتها .

<sup>(١)</sup> سيرة النبي لابن هشام ج ٦ ص ١٣٨ .

<sup>(٢)</sup> عصر ما قبل الإسلام ص ١٧٨ .

وظهرت في الجزيرة طبقات اجتماعية متعددة أهمها : —

١ - **الصحراء** : وهؤلاء يتكونون من أبناء القبائل المعروفين بانتسابهم إلى آبائهم الموالين لهم ، ولقبيلتهم .

٢ - **العبيد والموالي** : وهم الأسرى الذين ملكتهم القبائل ، أو الرقيق المشترون ، أو الموالى الذين لجأوا إلى القبيلة ، أو المخرج من العبيد .

٣ - **الصعاليك** : وهم الأحرار الذين فروا من قبائلهم ، واجتمعوا في الصحاري ، وكونوا مجتمعات جديدة معارضة لقبائلهم الأولى وتعتمد على السلب ، والنهب <sup>(١)</sup> .

وأغلب نشاط العرب قوائم على الرعي ، والتجارة ، وبخاصة بعد أن نظم هاشم بن عبد مناف رحلتي الشتاء ، والصيف ، وعقد تحالفات عدة ، ضمنت الأمن للتجارة ، كما أخذ الأمن ( الإيلاف ) من القبائل المنتشرة على الطرق في مختلف أرجاء الجزيرة .

وقد استفاد أهل مكة من الحركة التجارية كثيراً ، لأن التجارة مدرسة تعلم السياسة ، والكياسة ، وحسن الجوار ، وعمق الفهم ، فتعلموا من الحبرة القراءة والكتابة ، وأخذوا من الروم السياسة ، وتقلدوا من الفرس ما لسنطة من سيادة وطاعة وفي — يشرب — كثرت الآبار ، والأشجار ، واعتدل ريحها عن مكة ، سكنها اليهود منذ القرون الأولى بعد الميلاد ، ونزل عليهم الأوس والخزرج ، وكان لكل من اليهود ، والأوس ، والخزرج ، وضع خاص ، ونظام معين ، فاليهود انطوا على أنفسهم واهتموا بالزراعة ، والتجارة ، وتحصين المساكن ، خاصة وأنهم رأوا قبيلتي الأوس والخزرج ، في قتال دائم جعلهما يقدمان شباهما ، وأموالهما ، للحروب الطويلة المستمرة بينهما ، وأغلب أيام العرب كانت في يشرب .

<sup>(١)</sup> الشعراء الصعاليك من ١٠٣ — ١٠٦ بتصرف .



وقد أدت هذه الحروب إلى اضطراب الحياة في المدينة ، فاقترضهم منهجلاً ،  
وأفراد القبائل كلهم محاربون ، ورؤساء القبائل لا يعدون إلا للحرب ، وطالت الأيام  
بين الأوس والخزرج مما جعلهم ينتظرون الخلاص من هذا التنافس ، وقد حاولوا أن  
يتوجوا " عبد الله بن أبي الخرزج " ملكاً عليهم يخضع له الجميع ، لكنهم فوجئوا  
بالبعثة الحميرية في مكة فوجهوا أملهم إليها .

وأما — الطائف — فإنها تتمتع بخصوبة التربة ، وجودة المناخ ، وحسن الشمس <sup>(١)</sup>  
وجبال الموقع ، حيث يمر بها الطريق التجاري القادم من الجنوب ، وترتبط بمكة ،  
وبالمدينة بأكثر من طريق ، وقد نشأت بها صناعات عديدة وإن كانت بدائية ، كل هذا  
جعل أبناء الطائف يتمتعون بما فيها ، فعاشوا في رغد ، ورفاهية ، مع تمسكهم ببدونهم  
فكانوا مرعون الإبل ، والغنم ، ويهتمون بالزراعة ، وكانت القبيلة هي النظام السائد  
فيها ، حيث يدير شئونها رؤساء القبائل بالتشاور فيما بينهم ، وقد قام بالطائف نظام  
يشبه المزارعة في العصر الحديث إذ تنازل " بنو عامر " وهم البدو المخاضرون للطائف  
عن أرضهم ، وسلموها لمن يعمرها ، ونحيتها ، بالعرس والزراعة ، على أن تقسم  
الثمار بينهم نصفين <sup>(٢)</sup> وقد اكتسبت الطائف شهرة عظيمة عند ظهور الإسلام .

وأما سكان المناطق الصحراوية في وسط الجزيرة ، فهم مجموعة من القبائل  
أفرحل يتولى شئوهم مشايخهم بلا دولة ، أو جند ، أو حصون <sup>(٣)</sup> .  
وعاشت هذه المناطق الجذب ، والحر ، وقلة المطر ، وكان أهلها دائماً في  
تقل وراء رعيهم ، ومعاشهم <sup>(٤)</sup> .

وعاش أهل هذه البوادي حياة فقيرة ، تبعدهم عن رحلات التجارة ، وخلصو

<sup>(١)</sup> مرصد الاطلاع — ص ٢٦٥ .

<sup>(٢)</sup> معجم ما استعجم — البكري — ج ١ ص ٦٥ ، ٦٦ .

<sup>(٣)</sup> العرب قبل الإسلام — ص ٢٤٠ .

<sup>(٤)</sup> شعراء الجاهلية — ص ٦٢ .

مواطنهم من المياه ، وقد أدى الفقر الشنيع بهم إلى قتل أولادهم ، أو بيعهم ، ليستعينوا بأغنائهم على مطالب الحياة <sup>(١)</sup> .

وكان مجال العمل أمام البدو ضيقاً جداً ، لأن الخير فوق رمال الصحراء القاحلة نادر ، ومن هنا لم يكن أمامهم إلا أن يعملوا للأغنياء في رعي الإبل ، أو في خدمتهم ، فإن أبى ذلك نفوسهم تحولوا للغزو والإغارة <sup>(٢)</sup> .

وقد وقعت بين قبائل البدو المتناثرة في الجزيرة حروب ، ومنازعات ، هي أيامهم ، ورغم كثرتها فإن الدم لم يرق فيها كثيراً ، لأن البدوى لم يكن يرمى إلى سفك الدماء بلا مبرر <sup>(٣)</sup> ، وكثيراً ما كانت هذه المنازعات بسبب دفاع البدوى عن خلق كرم ، أو رد لظلم واضح ، وتعزير " حرب البسوس " وهي أطول حروبهم صورة رائعة لاحترام البدوى لواجب الضيافة المقدس <sup>(٤)</sup> . عند العرب ودفاعه عن الأضياف ، وقد اشتهر البدوى بالشجاعة ، والكبرياء منذ القدم ، وقد اكتسبتهم الصحراء بما فيها من مخاطر ، صفات جعلتهم أشجع من الحضار <sup>(٥)</sup> ، وعودتهم الاعتماد على أنفسهم .

وكان لعرب الجزيرة تصرفات أخلاقية راقية ، فالوفاء بالوعد صفة بارزة لا تنقص ، حيث يرون أن الغدر من كبائر الأمور ، ذكروا أن الحارث بن عباد مر على عدى بن ربيعة ، وهو قاتل أبيه في يوم " قضه " وكان يبحث عنه ليثأر منه لأبيه فلما لقيه وهو لا يعرفه قال له : ( دلى على عدى بن ربيعة .

فأجابه عدى : إن دلتك عليه أتؤمنى ؟ !

قال الحارث : نعم .

(١) الكاسم — للميرد — ج ٢ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

(٢) الشعراء الصعاليك — ص ١٤٧ .

(٣) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم — ص ١٨ .

(٤) سورة النبی " ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ٢٠٠ .

(٥) ابن خلدون — المقدمة — ج ١ ص ١٢٥ .

فقال له عدى : أنا عدى بن ربيعة فخلاد (١) ، احتراماً لكنته ، ووفاء بوعدته .  
 وكانوا أهل حلم ولين ، ويكفيهم عند الغضب كلمة يقولونها فتهدأ تأثيرهم  
 وهى " إذا ملكت فاسجح " وما حروهم إلا لحماية المنزل ، والمحافظة على المجد  
 والشرف ، وكانوا يتحرزون عن سفك الدم بقدر إمكانهم ، ولذلك نذر عدد القتلى  
 في معاركهم ، ففى يوم " شطة " ، وهو أول أيام الفجار لم يقتل أحد من قريش ،  
 كذلك لم يقتل أحد من بنى بكر بن عبد مناف ، وفى يوم " الشعب " وكان أهله  
 ثلاثين ألفاً ، وكان أعداؤهم أضعاف ذلك ، فى هذا اليوم لم يقتل إلا رجل من كل  
 طرف (٢) ، ولم تكن الحرب تقوم ، أو تتوقف ، إلا بعد أن يجتمع أهل الحل والعقد من  
 القبائل ليقرروا ما يستقر عليه الأمر (٣) .

وأم سخاؤهم وكرمهم فهو مضرب الأمثال ، ويكفى أنهم كانوا يوقدون  
 ناراً تسمى " نار القرى " توقد لاستدلال الأضياف بها على المنزل ، وكانوا يوقدونها  
 على الأماكن المرتفعة لتكون أشهر ، وكثيراً ما أوقدوا معها عطرأ يطير مع الريح  
 ليهدى إليها العميان (٤) .

وقد اشتملت أخلاقهم على صرامة وجدية ، والناظر لأسباب حرب الفجار  
 وقيام حلف الفضول ، يدرك ذلك .

إن سبب حرب الفجار كان قتل رجل فى الحرم (٥) الأمر الذى أدى إلى ثورة  
 القبائل وتجسعها فى مواجهة من فجر فى الأشهر الحرم ، لتستقم للمقتيل ، ولتبقى درساً  
 بعدها لكل من يفكر فى هتك حرمة مكة أو التعدى فى الأشهر الحرم ، وحتى لا يفجر

(١) بلوغ الأرب — ج ١ ص ١٣٦ .

(٢) بلوغ الأرب — ج ١ ص ٧٠ ، ٢٦٨ .

(٣) بلوغ الأرب — ج ١ ص ٢٧١ .

(٤) سيرة النبی " ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٩٩ .

(٥) سيرة النبی " ﷺ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٩٩ .

أحد بعد ذلك في الحرم ، ويظلم غيره .

وأيضاً فسيان قيام حلف الفضول كان لصيانة حقوق المظلومين الضعفاء  
وجبروت الانتصار لمن وقع عليه عدوان من أهل مكة ، أو من يقصدها من العمار  
والزوار .

إن حلف الفضول يتميز بنبل الهدف ، وروعة الطريقة ، والتجرد الكرم من  
الأنانية ، والذاتية ، ولذلك مدحه النبي ﷺ " بعد ذلك ، وقال عنه " لو دعيت إليه  
في الإسلام لأجبت<sup>(١)</sup> لأنه يلتقى مع غايات الإسلام ، ومراميه .



(١) سورة النحل " ﷻ " — لابن هشام — ج ١ ص ١٤٤ .

## أوضاع العرب الدينية

يشير ذلك الحشد الهائل للأصنام التي شيدها العرب ، وأقاموها حول الكعبة وفي جوفها إلى وجود عقيدة دينية ، وانتشار أفكار مقدسه عند العرب جميعاً ، فلقد وجد يوم فتح مكة حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً<sup>(١)</sup> .

يمثل هذا العدد بكثرتة ، آلهة القرشيين الثابتة عند الكعبة ، وفي جوفها ، حيث كان يأتيها أصحابها للطواف حولها بين الحين والحين ، وكانت كل قبيلة تعرف صنمها الذي تعبده عند الكعبة ، أما ما وراء هذا العدد فهو كثير بعضه أقيم في البيت وبعضه في مكان العمل ، والبعض الآخر يتنقل مع قوافل السفر ، وكان لأهل كل بيت صنم يعبدونه<sup>(٢)</sup> وينحتون على صورته أصناماً صغيرة يصطحبونها معهم في الرحلة والسفر ، ويلزمونها حتى يعودوا إلى مكة<sup>(٣)</sup> .

وقد اشتهر العرب بتقديسهم لما اتخذ من حجر ، أيا كان شكله ، فسنهم من اتخذ بيتاً ، ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن كان يعجز منهم عن بناء البيت ، واتخاذ الصنم ينصب حجراً في مكان يستحسنه ، ثم يطوف به ويسميه النصب<sup>(٤)</sup> . ومن بيوت العرب المقدسة " برئام " وكان بيتاً لأهل اليمن يعظمونه وينحرون عنده<sup>(٥)</sup> ، ومنها " رضاء " وكان بيتاً لبني ربيعة بن كعب<sup>(٦)</sup> .

ومن أصنامهم " هيل " وهو أول صنم أقيم في الكعبة بعد أن أحضره عمرو

<sup>(١)</sup> أخبار مكة ... ج ١ ص ٧٠ .

<sup>(٢)</sup> الأصنام ص ٣٣ .

<sup>(٣)</sup> الأصنام ص ٦ .

<sup>(٤)</sup> الأصنام ص ٧ .

<sup>(٥)</sup> ابن هشام — ج ١ ص ٢٤ .

<sup>(٦)</sup> ابن هشام — ج ١ ص ٩٢ .

ابن خنيس من " ماب " ونصبه على البئر الذي حفره إبراهيم " ~~الثقيلة~~ " في جوف الكعسبة، وأمر الناس بعبادته فعبدوه، وكانوا ينادونه " يا إلهنا " <sup>(١)</sup> وكان من تقديس أهل مكة لـ " هبل " أن أظهروه في المشاكل الكبرى، حتى أنهم هتفوا باسمه لما رأوا أنفسهم انتصروا على المسلمين في يوم أحد <sup>(٢)</sup> .

ومع أن " هبل " هو أقدم الأصنام فإن قريشاً ومن سكن مكة كانت تعظم " العزى " أكثر من " هبل " وبعدهما " مناة "

وقد أشار الكلبي إلى أن " مناة " أقدم الثلاثة، وهي المنصوبة ناحية البحر عند المشلل والمنتمعة بتعظيم العرب جميعاً، وكان الأوس والخزرج أكثر تعظيمه واختصاصاً به .

وذكر الكلبي أيضاً أن " اللات " أخذت من مناة، وكان تعظيمه عند أهل الطوائف أكثر، و " العزى " أخذت الثلاثة، وهي شجرة بوادي نخلة قرب مكة، ولها منزلة خاصة، وفريدة عند أهلها فهي أعظم الأصنام عند قريش جميعاً، يزورونها، ويهدون إليها، ويدبحون عندها <sup>(٣)</sup> .

وقد تقسمت القبائل أصناماً عدة، واختصت كل قبيلة بضم، وعلى سبيل المثال نرى أن هذيلاً اتخذت سواعاً، وكنباً اتخذت ودّاً، وأنعم وأهل حرس اتخذت يغوث، وحيوان اتخذت يعوق، وحمير اتخذت نسرأ، وطى اتخذت الفليس وبنو الحارث اتخذت ذا الشرى <sup>(٤)</sup> .

وهكذا توزعت الأصنام على القبائل، وليس الخيال هنا لحصرها فما هي إلا نماذج نعرف منها دين العرب، ومعتقداتها قبل الإسلام .

(١) أخبار مكة — ج ١ ص ٦٨ .

(٢) سورة ابن هشام — ج ٢ ص ٣٧ .

(٣) الأصنام — ص ١٣ — ٢٧ .

(٤) سورة النبی — ج ١ ص ٨٣ — ٩١ ، المثلل والبهل — ج ٢ ص ٢٤٧ .

وقد عظم العرب أصنامهم بأشكال متعددة ، فكانوا يسمون أولادهم باسمها  
 فباسم " مناة " سمي تميم بن مر ابنه ، " زيد مناة بن تميم " ، وباسم اللات سمي ثعلبة بن  
 عكابة ابنه " تميم اللات " ، وباسم العزى سمي كعب بن سعد ابنه " عبد العزى " وحمل  
 عوف بن عذرة " ودأ " معه إلى دومة الجندول وسمى ابنه " عبد ود " .  
 وكانوا يذبحون ذبائحهم عندها ، ويهدون لحومها من حضر عند الصنم  
 ويأتونها بالهدية والزيارة <sup>(١)</sup> .

وكانوا يهتمون بالتمسح بها فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في  
 منزله أن يتمسح بالصنم ، وإذا رجع كان تمسحه بالصنم أول ما يفعله ، وكانت  
 الحائض لا تقربه ، ولا تتمسح به ، بل تقف بعيداً عنه حتى ينتهي حيضها <sup>(٢)</sup>  
 وكانوا يحلقون رؤوسهم عنده ، ويلقون حوله شعرهم ، ومعه كمية من دقيق .  
 وكانوا يخلفون به ، يقول عبد العزى بن وديعه المزني :

إن حلفت بمين صدق برة      بمناة عند محل آل الخزرج

ويقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دوماً      وبالله إن الله منهن أكبر <sup>(٣)</sup>

وكانوا يصطحبون أصنامهم معهم في الحروب ، فرى العربي في يوم " أحد " يستغيث  
 ويستنصر — " هبل " <sup>(٤)</sup> ، وكان أبو سفيان في هذه الغزوة يحمل اللات والعزى ،  
 وكانوا يستهيمون عند الصنم ، ويضربون الأقداح لديه في شئون كثيرة كالعقل إذا  
 اختلفوا فيمن يتحمله ، ولعمل ماء ، أيفعل أم يترك ، يقول ابن هشام <sup>(٥)</sup> : كانوا إذا

<sup>(١)</sup> الأصنام — ١٨ ، ٥٥ ، ١٣ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٥٩ .

<sup>(٢)</sup> أخبار مكة — ج ١ ص ٦٦ .

<sup>(٣)</sup> الأصنام — ص ٤٨ ، ١٤ ، ١٧ .

<sup>(٤)</sup> تاريخ الرسل والملوك — ج ١ ص ١٣٩٥ .

<sup>(٥)</sup> سيرة النبي — لابن هشام — ج ١ ص ٦٦٥ .

أرادوا أن أن يَحْسِنُوا غِلَاماً ، أو يَنْكَحُوا مَنْكَحاً ، أو يَنْدِفُوا مَيْتاً ، أو شَكُوا فِي نَسَبِ أَحَدِهِمْ ذَهَبُوا بِهِ إِلَى هَبْلٍ ، وَأَجْرُوا الْقَدَاحَ ، وَنَفَلُوا الْمَرَادَ .

ولقد أشار الأزرقى إلى أن عبادة الحجر نشأت في بني إسماعيل بسبب تعلقهم الشديد بالحرم ، وبمكة ، لدرجة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه من حجارة الحرم تعظيماً للحرم ، وصياغة بمكة ، وبالكعبة ، وحيث ما حلوا وضعوا هذا الحجر أمامهم ، ليبقى رمزاً لبيت الله في غيبتهم عن مكة ، وينطوفون به ، كطوافهم بالكعبة ، وظلوا على ذلك حتى عبدوا ما استحسِنوا من الحجارة <sup>(١)</sup> .

ولعل هذه البداية سهلت للعرب تقدير الرمز نيابة عن أصله ، وجعلوا ذلك مبدأ ينطبق على كل الأصنام مهما كانت بدايتها ، وهو الذى جعلهم يتقنون ما أتى بسبه عمرو بن لحي من أصنام ، حين أحضرها من بلاد الشام لقومه ، ونصبها عند الكعبة ، وذكر لهم أنها تنزل المطر ، وتنصر في الحروب ، وأمرهم بعبادتها فعبدوها <sup>(٢)</sup> ، وهو الذى أمرهم كذلك بعبادة أساف ونائلة ، هذين الصنمين اللذين كانسا في الأصل رجلاً وامرأة فحرا في الكعبة فمسحا حجرين للأزدجار والعظة ، ولكنهما بتقادم العهد صارا صنمين فلما أمر " عمرو بن لحي " بعبادتهما عبدا <sup>(٣)</sup> .

وقد كان العرب لهذا المبدأ يستحسنون بعض أصنامهم مع علمهم أنها في الأصل صورة لقوم صالحين ، معظمين من قومهم السابقين ، لكنهم مع طول العهد تسأولوا وقالوا : ما عظم الأولون هؤلاء إلا وهم يرجون شفاعتهم عند الله ، فعبدوا صورهم ، وعظموا أمرهم ، واشتد كفرهم <sup>(٤)</sup> وما عبدوا الصورة إلا لاعتقادهم أنها رمز يستشفعون به نيابة عن صاحبه .

(١) أخبار مكة — ج ١ ص ٦٧ .

(٢) الأصنام — ص ٨ ، أخبار مكة — ج ١ ص ١٢٥ .

(٣) أخبار مكة — ج ١ ص ٤٤ ، ٦٦ .

(٤) الأصنام — ص ٥١ ، ٥٢ .



وكان تعلق العربي الشديد بصلته يشير إلى ارتباط عجيب معه، وتحمس من أجل دوام عبادته ، فلقد دخل أبو لب على أبي أحيحة ( وهو سعيد بن العاص بن عبد شمس )، وهو في مرضه الذي مات فيه فوجده يبكي فقال له : ما يبكيك أمن الموت تبكي ولا بد منه .

قال : لا ، ولكني أخاف أن لاتعبد العزى بعدى .

فقال أبو لب : والله ما عبدت حياتك لأجلك ، ولا تترك عبادتها بعدك لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة <sup>(١)</sup> .

ويبدو أن العرب كانت تعتقد أن لهذه الأصنام أثراً جعلهم يتمسحون بها ويطلبون نصرتها ، ويرحلون بها ، ويرون أن الأصنام احتوت روحها التي صورت في الأصل على شكلها ، ولولا الروح التي احتوت ما كانت تستحق شيئاً <sup>(٢)</sup> .

من ذلك ما عرف عن " اللات " فإنها كانت في الأصل صخرة يجلس عليها رجل يلت السويق ، فلما مات اعتقدوا أن روحه تقمصت الحجر ، وسكنته فاتخذوه إلهاً هو اللات ، ومنه ما عرف عن " العزى " فإنها ثلاث شجرات اعتقد العرب أن الجن سكنتها ، وأن التأثير فيها للجن الساكن فيها <sup>(٣)</sup> .

وعلى الجملة كانت العرب تعتقد أن لكل صنم شيطاناً ، فمن عبد الصنم قضى الشيطان حوائجه ، بأمر الله الأكبر وإلا أصابه الشيطان بنكبة عظيمة <sup>(٤)</sup> وأكد لهم هذا الاعتقاد ما كانت تصدره يوقهم المقدسة بفعل الريح ، أو بفعل الكهنة من أصوات خفية ، جعلتهم يصدقون أن الأرواح والشياطين تكلمهم <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> الأصنام — ص ٢٣ .

<sup>(٢)</sup> أخبار مكة — ج ١ ص ٤٤ ، ٦٩ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ العرب قبل الإسلام — ج ٥ ص ٣٤ .

<sup>(٤)</sup> بلوغ الأرب — ج ٢ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

<sup>(٥)</sup> الأصنام — ص ١٢ .

ورغم صور تعظيم الأصنام السابقة ، وعقيدة العرب فيها ، رغم ذلك لم تنشأ طبقة كهنوتية لها مميزاتها، وخصائصها، كما حدث في البلاد الأخرى ، بل بقي كهنة العرب بين الناس كأحدهم ، يقومون بسائر الأعمال، ويشتركون في الحروب . كذلك لم يحدث صراع من أجل الأصنام رغم تعددها ، ولم تحاول قبيلة ما ضم أخرى لتعبد صنمها ، بل وجدنا العكس، فالقبيلة تقُدس صنمها ، وفي نفس الوقت تحترم أصنام الآخرين ، ولكنها لا تقترب إلا إلى صنمها .

كذلك لم تنشأ لدى العرب عاطفة دينية تربطهم بالأصنام ربطاً نفسياً، فيه الحماس والاندفاع، ومعه الغيرة والانفعال ، ولذلك نراهم يتركون أصنامهم في الكعبة يوم قدوم أبرهة، ولا يفكرون إلا في البيت وحده دون معبوداتهم .

ولعل تفسير ذلك هو اعتقادهم أن كل هذه المقدسات من بيوت ، وأصنام ، ونصب ما هي إلا آلهة صغرى فوقها إله أكبر هو الخالق للجميع ، وما عبادة المظاهر الطبيعية المادية إلا لتكون قربي لله الأكبر، لأنه هو المالك لكل الآلهة الصغرى ، وهو رب الحرم، وحاميه ، وكانت التلبية السائدة عندهم تشير إلى أن الله هو المالك للأصنام فهم يقولون فيها " لبيك اللهم لبيك .. لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك " ، وهكذا كانوا يوحدون الله في التلبية، ويدخنون معه ألهتهم ، ويجعلون ملكها بيده <sup>(١)</sup> .

وأيضاً فإنهم يوم قدوم " أبرهة " تركوا مكة، ورحلوا عنها إلى شعاب الجبل المحيطة بها ، على أمل أن ينقذ رب الحرم حرمة ، ولم ينتظروا معونة من هبل، أو النلات، أو غيرهما ، ولم يفكروا في انقاذها هي نفسها من الهدم، والتكسير، يروى ابن هشام أن عبد المطلب لما أمر قريشاً بالخروج من مكة أخذ بحلقة باب الكعبة وهو يقول :

لاهم إن العبد يمنع      رحله فامنع حلاً لك  
لا يغلبن صليهم      ومجالهم عدواً بمالك  
إن كنت تاركهم وقيل      ستنا فأمرو ما بدا لك

ولما حدثت المناقشات بين أبرهة وعبد المطلب وقال أبرهة متسائلاً: تسألني عن الإبل، وتترك البيت الذي هو دينك، ودين آبائك، أجاب عبد المطلب: أما الإبل فهي لي وأما البيت فله رب يحميه <sup>(١)</sup> ، ولم يرد ذكر للأصنام في حوار عبد المطلب وأبرهة .  
وقد كان العرب يذبحون ، وينحرون ، ويشقرون إلى الأصنام، وهم مع ذلك عارفون بفضيل الكعبة، ورب الكعبة ، يقول أوس بن حجر :

وباللات والعزى ومن دان دوماً      وبالله إن الله منهن أكبر <sup>(٢)</sup>

يرى " ورنركاس " أن الله هو الإله الذي كان فوق ألهة القبائل جميعاً، ولهذا ذكره شعراء مختلف القبائل لأنه لا يختص بقبيلة واحدة <sup>(٣)</sup> فهذا امرؤ القيس في معلقته يقسم بالله فيقول :

فقلت يمين الله مالك حيلة      وما أن أرى عنك الغواية تنجلي  
ونراه يذكر الله بالحمد فيقول :  
أرى إبلى والحمد لله أصبحت      ثقلاً إذا ما استلهمتها صعودها  
ويقول عبيد بن الأبرص :

حلفت بالله أن الله ذو نعم      لمن يشاء وذو عفو وتصفاح <sup>(٤)</sup>  
ويقول زهير بن أبي سلمى :

حلفت فلم أترك لنفسك رية      وليس وراء الله للمرء مذهب

<sup>(١)</sup> سورة النحل - ج ١ ص ٥١ .

<sup>(٢)</sup> الأصنام - ص ١٧ .

<sup>(٣)</sup> الشعراء الصالحين - ص ٣٠٥ .

<sup>(٤)</sup> نفس المزمع ص ١٩٧ ، ٢٩٨ .

وهكذا نراهم يعرفون الله بأنه الخالق، القادر، المديبر، الحكيم، المسخر لكل شيء في الوجود، وقد سجل القرآن الكريم هم هذه المعرفة بقوله تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول له تعالى: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ تَزَكَّى مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ <sup>(٢)</sup>، ويقول له: ﴿قُلْ لِمَنْ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ <sup>(٣)</sup> سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ <sup>(٤)</sup> ويقول له: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ <sup>(٥)</sup> سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ <sup>(٦)</sup> <sup>(٧)</sup> ويقول له: ﴿وَلَيْن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ <sup>(٨)</sup>، فهم يعرفون أن الخالق هو الله، ومسخر السموات هو الله، ومزكئ المطر، ومهي الأرض هو الله، وهو المالك لكل شيء .

وهذه النظرة إلى الله بما فيها من قداسة، وسمو، لم تصل إلى التوحيد الخالص بسبب إنعدام التعاليم الثابتة ، الأمر الذي جعلهم يبحثون عن واسطة تربطهم بهذا الإله الأعلى ، ويبدو أن " ابن حن " كان يستع بعقلية فذه استغل بها الوضع القائم فقدم للعرب الأصنام كرمز على شيء آخر عظيم، ولتكون واسطتهم إلى الله فعبدوها وقالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ ، لدرجة أن بعض الجاهلین كانت أصنامهم على صورة تخيلوها للملائكة، لاعتقادهم أن الملائكة ذو منزلة عند الله، فهم أولى أن يكونوا واسطتهم إليه <sup>(٩)</sup> .

(١) سورة العنكبوت آية ( ٦١ ) .

(٢) سورة العنكبوت آية ( ٦٣ ) .

(٣) سورة المؤمن آية ( ٨٤ ، ٨٥ ) .

(٤) سورة المؤمن آية ( ٨٦ ، ٨٧ ) .

(٥) سورة لقمان آية ( ٢٥ ) .

(٦) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ١٩٧ .

ومما زاد من ضلال نظرة العرب في الواسطة ما كانوا يسمعون من أصوات تصدر من الأصنام ، والبيوت ، ومن رؤيتهم لخيالات الجن قرب معبوداتهم، وبذلك تأكدت فكرتهم عن الواسطة ، وبمرور الأيام أصبحت هذه الفكرة عقيدة أساسية وما استبعدوا أن يكون الرسول بشراً إلا لاستحالة اتصال البشر بالله من غير واسطة في نظرهم، وكأنهم كانوا يريدون واسطة بين الرسول والله، من نوع معبوداتهم الموضوعة عند الكعبة وحولها، رغم صغر مساحتها لتكون في رعاية الله الأكبر، وعلى مقربة منه .

وكانت هذه العقيدة، وذاك الخلط يعيشان عادة عند العرب، فهم يحجون الكعبة، ويطوفون بها، وبعدها يَحْتَمُونَ حجهم بالتقرب للصنم، فيحلقون رؤوسهم عنده، ويذبحون عتائرهم أمامه <sup>(١)</sup> ، ويبدو أن سبب ذلك هو بقايا بقيت من مناسك دين إبراهيم " عليه السلام " تقادم بها الزمن فشابتها بعض العبادات المبتدعة ، هذه البقايا جعلتهم يعظمون البيت، ويطوفون به، ويحجون، ويعتَمِرُونَ، ويقفون بعرفه، ويهلون بالحج والعمرة <sup>(٢)</sup> .

ولعل في تسمية مكة " أم القرى " على الرغم من وقوعها في واد غير ذي زرع إشارة إلى اهتمام العرب بقداسة الكعبة، أول بيت وضع للناس، وأحد موارث إبراهيم " عليه السلام " .

وقد سخر بعض عقلاء العرب من هذا الخلط فنظروا إلى مسلك أقوامهم مع الأصنام فوجدوه لهواً لا يفيد، وعبثاً من غير فكر دقيق، وعندئذ أخذوا يلتسسون الصواب في الدين .

ولقد حكى ابن هشام عن أربعة منهم هم ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأهم اجتماعوا في عيد لهم

<sup>(١)</sup> أخبار مكة — ج ١ ص ٧٣ .

<sup>(٢)</sup> الأصنام — ص ٦ .

عند صتم من أصنامهم ، فقال بعضهم لبعض : تعلموا والله ما قومكم على شيء ، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم ، ما حجر نظيف به لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا يضرب ، ولا ينفع ، يا قوم التمسوا لأنفسكم ، فإنكم والله ما أنتم على شيء <sup>(١)</sup> .

وقد وقف " قس بن ساعدة الأيادي " قبيل البعثة بسوق عكاظ ، وقال أيها الناس اسمعوا وعوا ، فإذا وعيتم فانتفعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، إن في السماء لخبراً ، وإن في الأرض لخبيراً ، مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، ونجوم تمور ، وبحار لن تغور ، ليل داغ ، وسماء ذات أبراج ، أقسم قسماً ، حقاً حتماً ، لئن كان في الأرض ليكونن بعده سخطاً ، وأن الله عزت قدرته ديناً أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه " <sup>(٢)</sup> .

وهكذا وصل فكر هؤلاء النفر إلى أن ما عليه قومهم ليس شيئاً يذكر ، وأن دين الله الحق هو من نوع ما جاء به إبراهيم فبحثوا عنه ، وانتظروا في الوقت نفسه رسولاً يبعثه الله إليهم ، وقد انتشر هذا الفكر بين عدد من العرب <sup>(٣)</sup> مع اختلاف طرقهم التي سلكوها بعد ذلك ، فمنهم من لم يهتد إلى شيء محدد حتى مات كـ " زيد بن نفيل " ومنهم من تنصر وقرأ كتب النصرانية كـ " ورقة بن نوفل " ، ومنهم من بقى على فكره حتى جاء الإسلام وأسلم كـ " عبيد الله بن جحش " <sup>(٤)</sup> .. ومن هؤلاء المفكرين كانت طائفة " الخنفاء " التي عبدت الله على ما بقى من دين إبراهيم ، وبحثوا عن كل ما غاب عنها ، وهكذا لم يقتصر نشاط العرب الديني على الأصنام ، والأوثان فقط ، بل اتجه مفكروهم إلى الإله الحق كما بدا من الخنفاء .

(١) سيرة النبي ﷺ — ج ١ ص ٢٤٢ .

(٢) بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٤٥ .

(٣) الملل والنحل — ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥٣ .

(٤) ابن هشام — ج ١ ص ٢٤٣ .. ٢٥٠ .

وكذلك ظهر في العرب عدد من " الحكماء " الذين امتازوا بالخبرة ،  
والستجربة وكانوا مرجع القوم فيما يعرض لهم من مشاكل ، يقضون لهم فيها ، وقد  
تنوقلت عنهم كلمات قصيرة موجزة ، لكنها تحمل المعنى الكبير مما جعلها تتخذ بين  
الناس ومن أمثالهم : —

" مقتل الرجل بين فكيه " .

" إن المنبت لا أرضاً قطع ، ولا ظهراً أبقى " .

يقول الشهرستاني عنهم : ( ومنهم الحكماء وهم شردمة قليلون ، لأن أكثر  
حكمهم فلتات الطبع ، وخطرات الفكر ) <sup>(١)</sup> .

وقد اتجه الحكماء أيضاً إلى فكرة ضرورة الخالق ، وربط المعلول بعلة ، ورأوا  
استحالة وجود هذا الكون بلا موجد له ، قدير ، يقول عامر بن الطرب الحكيم  
مفكراً في سبب الخلق : ( إني ما رأيت شيئاً قط خلق نفسه ، ولا رأيت موضوعاً إلا  
مصنوعاً ، ولا جائياً إلا ذاهباً ، ولو كان يميت الناس الداء لأحياهم الدواء ) <sup>(٢)</sup> .

ومن حكماء العرب كذلك " عبد المطلب " جد النبي ﷺ " الذي وصلت  
به الحكمة إلى سنن أمور أقرها الإسلام بعد ، فقد منع نكاح المحارم ، وقطع يد  
السارق ، ونهى عن قتل الموءودة ، وجعل دية القتل مائة من الإبل ، إلا أن الحكمة  
مهما دقت ، فإنها لا تصل إلى الحقيقة بكمالها ، وأصولها ، ولذلك كانت حاجة  
الحكماء ، وغيرهم إلى وحي يقنعهم ، ويأخذهم إلى دين الله تعالى ، ضرورة لا بد منها  
ويبدو أن الفرق بين الخفاء والحكماء أن الخفاء بذلوا الجهد كله لمعرفة الدين  
الحق ، الذي كان عليه إبراهيم عليه السلام " وأهلوا عبادة الأصنام ، أما الحكماء فكان  
تفكيرهم في الخلق والخالق عارضاً ، وكانوا بمثابة قضاة مجتمعهم ، ومع ذلك عبد  
بعضهم الأصنام مثل أقوامهم ..

(١) النمل والنحل — ج ٢ ص ٦٤ .

(٢) تهديد لتاريخ الفلسفة — ص ١١٠ .

وقد وصل الاضطراب الديني عند بعضهم إلى ابتداء رأى الخمس ، وهو  
 اعتقاد مبتدع ، سببه حماسة العرب تجاه حرمة البيت ، ووجوب إبراز هذه الحرمة في  
 منهج عملي ، وكان هذا المنهج شديداً ، ويحتاج إلى مال كثير ، فلقد كانوا يلتزمون  
 بإطعام الحجيج ، وكسائهم ، فلا يأكل الحاج إلا من طعام الخمس ، ولا يلبس إلا  
 أثوابهم ، فإذا لم يجد من ثيابهم طواف عرباناً ، ولو طواف بثوبه فإنه يذبحه مباشرة ولا  
 يستعمله أبداً ، وذلك لظنهم أن الحجيج عصوا الله في أثوابهم ، ولذلك لا يتصح  
 الطواف بها .

هذا وقد وجدت عند العرب عقائد أخرى وردت إليهم من أقاليم العالم التي  
 اتصلوا بها خلال التجارة ، أو الهجرة ، ومن هذه العقائد : —

### المجوسية :

أخذ العرب المجوسية من بلاد فارس ، فجعلوا النور والظلمة آلهة تعبد ،  
 وكانوا يتخذون لها رموزاً مقدس ، يقول الألو سي : كانت المجوسية في عديم ، ومنهم  
 الأقرع بن حابس ، وكان مجوسياً ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان كان مجوسياً<sup>(١)</sup>  
 ويقول في مكان آخر : كانت الزندقة في قريش أخذوها عن الخيرة<sup>(٢)</sup> .

وقد ثبت أن النبي ﷺ " أخذ الجزية من مجوس هجر<sup>(٣)</sup> وبذكر أبو عبيدة  
 أن النبي ﷺ " قبل الجزية من أهل البحرين وكانوا مجوساً<sup>(٤)</sup> .

**ومنها أيضاً " عبادة الكواكب "** وكانت موجودة في العالم على نادرة

أصحابها ، وهم الصابئة ، وقد نقلها بعض العرب عنهم فعبدت " طي " الشريا<sup>(٥)</sup> وعبد  
 لهم وجذام " المشتري " وعبد أسد " عطارد " وعبد كنانة " القمر<sup>(٦)</sup> .

<sup>(١)</sup> بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٣٥ .

<sup>(٢)</sup> المصدر السابق — ج ٢ ص ٢٢٨ .

<sup>(٣)</sup> ميل الأوطار — ج ٨ ص ٦٣ .

<sup>(٤)</sup> الأموار — ص ٣٣ .

<sup>(٥)</sup> التاريخ الإسلامي العام — ص ١٧٧ .

<sup>(٦)</sup> بلوغ الأرب — ج ٢ ص ٢٣٩ .



**ومنها عبادة الحيوان والطيور :** وهذه العبادة أتت من قبل الهند ، وقد

اتخذ بعض العرب أصنامهم على صورة الحيوان ، والطيور .

فصنمهم " نسر " كان على صورة النسر .

وصنمهم " يغوث " كان على صورة الأسد .

ويعوق كان على هيئة الفرس <sup>(١)</sup> .

ومن عبادات العرب عبادة الشجر ، فلقد روى أن النبي " ﷺ " خرج إلى

حنين وقومه حديثو عهد بجاهلية ، فلما رأى بعض أصحابه شجرة في الطريق ، يقال

لها ذات أنواط ، كانت العرب تقديسها ، فنادوا وقالوا : يا رسول الله أجعل لنا

ذات أنواط كما هم ذات أنواط ، فقال رسول الله " ﷺ " : سبحان الله هذا كما

قال قوم موسى لموسى " ﷺ " إجعل لنا إلهاً كما هم آلهة ، والذي نفسى بيده

لتركبن سنن من كان قبلكم <sup>(٢)</sup> .

ومن العرب ظهر بعض الدهريين الذين أنكروا الخالق ، ويوم القيامة ، وقالوا

بالطبع المحيي ، والدهر المقيي <sup>(٣)</sup> وقد أخبر القرآن عنهم بقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا

حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ

إِلَّا يَظُنُّونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> وقد أشارت الآية إلى عقيدة هؤلاء الأفراد الذين جعلوا الدهر

إلهاً ، يحيي ، ويميت .

ولقد أدت المحاولات التبشيرية للفرس والروم إلى وجود عدد ليس بالكثير

تابعاً لإحدى الدولتين ، على منهج الولاء السياسي ، أو الديني ، ومن هنا وجدت

<sup>(١)</sup> تفسير الخنثري — ج ٤ ص ١٦٤ .

<sup>(٢)</sup> سنن الترمذي — كتاب النور — باب ترك سنن من كان قبلكم — ج ٤ ص ٤٧٥ .

<sup>(٣)</sup> الملل والنحل — ج ٢ ص ٢٤٥ .

<sup>(٤)</sup> سورة الجاثية آية ( ٢٤ ) .

المسيحية في شمال الجزيرة ، وجنوبها ، وشرقها .

كما أن اليهودية وجدت في جنوب الجزيرة ووسطها، وسكنت " يثرب "

بمجرة بعض اليهود إليها ، ولم تكن اليهودية دين أمة، وإنما دين جماعه متعصبه من الرجال المغامرين .

وكان اليهود يسكنون عند الميلاد في فلسطين ، فلما تعرضوا لاضطهاد

الرومان وخاصة على يد " تيطس " الذي دمر لهم " أورشليم " في المرة الثانية، رحلوا إلى البلاد المجاورة كالعراق ، ومصر، والجزيرة العربية <sup>(١)</sup> ، فسكنوا أولاً بلاد اليمن

حيث الازدهار والغنى ، إلا أنهم وقعوا في صراع مع المسيحية، كاد يودي عليهم لولا أن ساعدتهم الفرس ضد الروم ، فلما اشتد اضطهادهم في اليمن، وانگدم سد مأرب

مصدر الغنى، هاجروا إلى يثرب، وأسسوا فيها لأنفسهم المزارع والحصون ، وفي يثرب ياشروا مناسك دينهم في حرية ، ونشطوا في أعمال التجارة والصناعة وغيرها .

وقد أشار ابن قتيبة إلى هود عدد قليل من العرب ، حيث وجد أفراد من

اليهود العرب في حمير ، وبين كنانة ، وبين الحارث بن كعب ، وكنده <sup>(٢)</sup> .

ويندو أن السبب في عدم انتشار اليهودية هو عنصرية اليهود القائمة على

فكرهم الديني، وإيمانهم بأنهم شعب مختار من الله على الخصوص، حسب ما تعلموا من

نصوص كتابهم المقدس ، فلقد ايقنوا أنهم أعلى من سائر الشعوب ، وأن دينهم وقف

عليهم كما جاء في سفر التثنية : ( أنت شعب مقدس للرب إلهك، إياك قد اختار

الرب إلهك، لتكون له شعباً أنحص من جميع الشعوب، الذين على وجه الأرض ) <sup>(٣)</sup>

وهذا ما جعلهم يعيشون مستغلين، ومنطوين على أنفسهم ، ودفعهم كذلك إلى

التفوق في كافة الشؤون، وخاصة الشؤون الاقتصادية، كما أسسوا القرى المخصصة ضماناً

(١) التاريخ الإسلامي العام ص ١٥٨ .

(٢) المعارف ص ٣٠٥ .

(٣) سفر التثنية — الإصحاح السابع فقرة .

لمصالحهم، وحفاظاً على هذه العنصرية ، التي آمنوا بها ، وأيضاً فإن من طبيعة العربي الاستعلاء ، والثقة ، والرضي ، رغم ما فيه من نقص ، وحاجة ، ولذلك أرى أن يكون تابعاً لهؤلاء المتعصبين .

وقد انقسم اليهود إلى طوائف متعددة ، أشهرها الفريسيون الذين ينادون بالتمسك بنص التوراة من غير تأويل ويسنون أنفسهم بالأصوليين ، والصندوقيون وهم الذين ينكرون الآخرة .

وتؤكد آيات القرآن الكريم وجود اليهود في الجزيرة العربية ، حيث خاطبتهم الآيات المتصلة، وتحدثت كثيراً عنهم ، ويفهم من دلالة الآيات أن اليهود في الجزيرة كانوا من بني إسرائيل لا من العرب ، حيث كان النداء لهم ببني إسرائيل ، يقول تعالى : ﴿ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ أَذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> ، ﴿ سَلِّ بَنِي إِسْرَءِيلَ كَمَ ءَاتَيْنَهُمْ مِنْ ءَايَةٍ بَيِّنَةٍ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ويذكر الأستاذ دروزة أن اليهودية لم يعتنقها أحد من العرب في يثرب، ويبدو أن من هود من العرب كانوا أعداداً قليلة لا تذكر لقلتها ، وعدم تأثيرها في الناس ، كما أنها لا تستحق نداء باسمها على الخصوص ، ولذلك فهي مندرجة في نداء الله لبني إسرائيل <sup>(٣)</sup>.

## هذا ..

والمطلع على هذا التنوع في أديان العرب يدرك حكمة الله تعالى في جعل الإسلام ينبع أولاً في العرب ، حيث يمكن مناقشة سائر المذاهب والأديان ، ومناقشة أصحابها بسهولة ممكنة ، وشمول تام و ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ﴾ <sup>(٤)</sup>

<sup>(١)</sup> سورة البقرة آية ( ٤٠ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة البقرة آية ( ٢١١ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة النور ص ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

<sup>(٤)</sup> سورة الأنعام الآية ( ١٢٤ ) .

## المبحث الثانى

### الروم

#### ١ .

### جغرافية الدولة الرومانية

سكنت — الروم — غرب أوروبا، واتخذت روما <sup>(١)</sup> حاضرة لها، ومدت سلطانها على مساحات شاسعة، شملت سائر البلاد المطلة على البحر الأبيض من جميع جوانبه، وكان الشمال الأفريقي ابتداء من مصر حتى المحيط الأطلسي تحت السيطرة الرومانية، وكانت مصر ثم الإمبراطورية الرومانية بالحبوب، والغذاء <sup>(٢)</sup>. أدى الاتساع الكبير للإمبراطورية إلى أخطار كثيرة، قابلت الدولة من جيرانها في عدد من النواحي <sup>(٣)</sup>، فمن أطرافها الشرقية عند نهر الفرات أقامها خطر الفرس، ومن حدودها الشمالية الشرقية والشمالية، كان خطر القبائل الجرمانية، ومن حدودها الجنوبية الشرقية على حدود الشام كان خطر القبائل العربية الغازية <sup>(٤)</sup>، ولم يسلم من حدودها إلا الجنوب في أفريقيا، حيث كان الأسباط قوة تحمي هذا الجانب.

وأصبح لهذه الأخطار المتعددة أثر كبير في تفكك الدولة الرومانية. وانقسمها إلى شطريها الشرقى، والغربى، ذلك أن تجمع هذه الأخطار جعلت الإمبراطور " قسطنطين " سنة ٣٢٣ م " والإمبراطور دقلديانوس " سنة ٢٨٤ م يشعران بأن روما " لم تعد تصالح لأن تكون مركزاً لإدارة الإمبراطورية، ومنذ عهدهما بدأ الاتجاه نحو الشرق، وصار غرب البحر الأبيض المتوسط في المرتبة الثانية <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> مرآة الإطلاع ص ١٩٦ .

<sup>(٢)</sup> المسلمون والجرمان ص ١٢ ، ١٣ .

<sup>(٣)</sup> الإمبراطورية البيزنطية ص ١ ، ٢ .

<sup>(٤)</sup> الدولة الجرمانية الشرقية ص ٣٦ .

<sup>(٥)</sup> المسلمون والجرمان ص ١٣ .

وبالفعل فلقد عين " دقلديانوس " قسيساً له مقره " رافنا " بشمال إيطاليا يشرف على إدارة القسم الغربى .

وتعتبر سنة ٣٩٥ م هى بداية الانفصال العملى بين الشطر الشرقى، والشطر الغربى لهذه الإمبراطورية الكبرى ، إذ صار إمبراطور كل قسم يعمل على حماية ممتلكاته دون اعتبار لوحدة الإمبراطورية <sup>(١)</sup> ، وأصبح لها عاصمتان هما " القسطنطينية " عاصمة القسم الشرقى و " روما " عاصمة القسم الغربى ، وأخذ الانفصال في تزايد بينهما حتى القرن السابع الميلادى <sup>(٢)</sup> .

### الأحباش :

الأحباش أمة تابعة للدولة الرومانية ، مع شئ من الاستقلال، سكنت شرق أفريقيا وأصبحت حارسة لحدود الدولة الرومانية الجنوبية في القطاع الأفريقى ، واشتهرت بقوتها العسكرية التى مكنتها من شن حملات على جيرانها، وسعت بها حدودها التى وصلت شمالاً إلى الحدود المتاخمة لجنوب مصر، التى كانت مستعمرة رومانية، وأخضعت لحكمها منطقة نهر " نكازه " ( المجرى الأعلى لنهر عطبرة ) وقبائل " البجة " ووصلت حدودها الجنوبية إلى الصومال ، أما حدها الشرقى فهو البحر الأحمر <sup>(٣)</sup> وحدها الغربى فينتهى عند النيل وسط أفريقيا <sup>(٤)</sup> .

وكانت حاضرة الأحباش هى " أكسوم " الواقعة في شمال الحبشة، وقد عرفت دولة الأحباش بالدولة الأكسومية ابتداء من القرن الأول قبل الميلاد حتى القرن السابع الميلادى <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> المصدر السابق ص ١٩ .

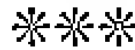
<sup>(٢)</sup> الدولة الرومانية الشرقية ص ٣٦ .

<sup>(٣)</sup> بين الحبشة والعرب ص ٢٧ ، ٢٨ .

<sup>(٤)</sup> سيرة النبي " ﷺ " ص ٣٦١ .

<sup>(٥)</sup> بين الحبشة والعرب ص ١٣ ، ١٥ .

وقد كان لدولة الروم نفوذ واسع على الحبشة نظراً لاعتناق الأخير المسيحية، إذ من المفهوم أن المسيحية كانت تربط الدولة المنتصرة بالدولة الرومانية رباطاً قوياً، وكانت المسيحية هي الوسيلة المثلى في بسط النفوذ الرومان في أي مكان<sup>(١)</sup>.



<sup>(١)</sup> نفس المصدر السابق ص ٤٤ .

■ ٢ ■

## أوضاع الرومان الاجتماعية والسياسية والأخلاقية

كان لكل إقليم في الدولة الرومانية بشطريها أوضاع اجتماعية مغايرة لسواها ونظم سياسية تختلف عن غيرها .

فالرومان في دولتهم الشرقية أو الغربية كانوا يعرفون منهج الدولة المنظمة إلا أنهم عاشوا تحت وطأة ظلم بغض ، وطبقية باغية ، وكان عامة الشعب عبيداً ، وخداماً للطبقة العليا المتمتعة بكل شيء .

ففي الدولة الرومانية الغربية : قامت دويلات عدة ، تكونت من القبائل الجرمانية التي نزلت من الشمال في موجات غازية ، وكونوا طبقة السلطة ، ففي أسبانيا قامت دولة القوط الغربيين التي أسسها الملك " واليا " .

وفي أفريقيا قامت دولة " الوندال " بعد انتزاعها من الرومان بالقوة ، وتمكن القوط الغربيون من تأسيس مملكة لهم في إيطاليا ، وتدعمت في غاليا ( فرنسا ) مملكة يحكمها الفرنجة البحريون ، وبقيام الممالك المذكورة تصدعت الدولة الرومانية الغربية عملياً <sup>(١)</sup> ومع بداية القرن السادس الميلادي تم استقرار هذه الممالك الجديدة في مواطنها من المدة ما بين سنة ٤١٥ م إلى سنة ٥٠٧ م .

وكان حكم هذه الممالك وراثياً في القبائل الجرمانية ، وقد تشبه أمراء هذه الدول بأباطرة الشرق ، وحولوا المجتمع إلى طبقات ، وكانت طبقة الحكم هم الجرمان والعسكريون ، حيث تتمتع بكل شيء في الدولة ، ولا يقرب منها إلا طبقة صغار الملاك ، والحرفيين ، والتجار ، أما عامة الشعب فهم الطبقة الدنيا حيث العبيد ، والأجراء ، والفلاحين ، والخدم .

(١) المسلمون والجرمان ص ٢٢ — ٣٨ بتصرف .

عاش أفسراد الشعب يكرهون حكمهم ، وكثيراً ما قامت صراعات بين الحكام والمحكومين في هذا العصر ، الذى عرف بـ " عصر الظلام " في أوروبا .

وقد زاد المنسوك البلاء ، فكانوا يسفكون الدم ، وينحقون بالشعب العذاب ، لأتفه الأسباب ، أو من غير سبب أصلاً ، ويكفى تدليلاً على ذلك أن القسوط ، والبرجنديين أبادوا سنة ٥٢٩ م جميع الذكور من سكان " ميلان " ، وقد قدر " بروكوبيوس " عددهم بثلاثمائة ألف طفل <sup>(١)</sup> .

ورغم أن غالبية المجتمع زراع ، فقد شمل الدمار والتخريب صغار الملاك <sup>(٢)</sup> فسلبت الأرض منهم ، وتحولوا إلى عبيد ، يرتبطون بالأرض التى يقومون بزراعتها لسدادهم بسلاً مقابل ، وبسبب الحاجة والفقر ، اضطروا إلى أكل لحوم البشر ، وثمار الحشائش ، وورق الشجر .

وقد تدهورت الحالة الاقتصادية تدهوراً تاماً ، وزاد من تدهورها أن الدولة الرومانية الشرقية قاطعت التجارة مع دول الجرمان ، فضلاً عن أن دول الجرمان نفسها كانت فيما بينها متقطعة الأوصال ، وكل منها ينطوى على نفسه ، ولا يتعاون مع جيرانه ، بل وصلت الفارقة إلى قيام عديد من الحروب بينهم ، أما الشمال الأفريقي الذى كان مكاناً لمملكة الوندال ، فقد اضطرب اقتصادياً هو الآخر ، وعمد عن إنتاج القمح كعادته ، ولم يستطع أن يقف ولو قليلاً أمام هجوم " جستنيان " لما كان فيه من ضعف وانحيار .

ولم يسجل تاريخ الجرمان في هذه الدويلات أى نظرة إصلاحية ، بل سادها نظام الإقطاع البغيض الذى مزق غرب أوروبا تمزيقاً كاملاً <sup>(٣)</sup> .

وفي الدولة الرومانية الشرقية التى اتخذت " القسطنطينية " عاصمة لها ، وهى

(١) المسلمون والجرمان ص ٤٨ .

(٢) الإمبراطورية البيزنطية " بينز " ص ٦ .

(٣) المسلمون والجرمان ص ٢٠ — ٥٢ بتصرف .



المدينة التي ابتناها "قسطنطين" في موقع ممتاز <sup>(١)</sup> ، واتخذ لها هذا الاسم الديني، المنسوب إليه ، لتكون في الحقيقة رمزاً على مجتمع هذه الدولة ، ونظمها الأوتوقراطية <sup>(٢)</sup> حيث كانت الهويات ، والترعات ، وكافة الأمور من سياسية ، واجتماعية ، تلبس ثوباً دينياً <sup>(٣)</sup> فإذا ما تعرضت الدولة لهجمات بربرية فإنها في دستورهم أحكام من السماء نزلت على عالم فاسد يستحقها <sup>(٤)</sup> وصار الفرد يعيش بمجموعة من الأوهام، فإذا نزل به مرض فإن ذهابه إلى الطبيب كفر ، وكانت جماهير المرضى من جميع أنحاء الإمبراطورية تهرع إلى القسطنطينية ، لتعالج في كنيسة يوحنا المعمدان <sup>(٥)</sup> .

ونقد مزقت الطبقة أوصال هذا المجتمع ؛ ذلك أن طبقته العليا المكونة من الإمبراطور ، وأعضاء مجلس الشيوخ ، كانت تقرب طبقة ثانية تقل عنها، وتتكون من الملاك، وأغنياء التجار، وأصحاب الحوانيت، ليمثلوا وجهة نظرهم ويقبضوا لهم على زمام الأمور، ويستخروا الشعب المتمثل في مجموعات العبيد، والأجراء، ورعاي المدن <sup>(٦)</sup> وكثيراً ما صدرت قرارات إمبراطورية تجعل من المستأجر رقيقاً تابعاً ، هو وأولاده ، وزوجته ، للمالك يرتبط بالأرض مملوكاً لسيدته <sup>(٧)</sup> وكان هذا النظام مطبقاً في الولايات التابعة للإمبراطورية الشرقية <sup>(٨)</sup> .

وانصف البيزنطيون بالخدعة ، والخيانة الصريحة ، والوحشية ، والعنف ، نتيجة لقلّة عددهم أمام عدوهم ، ولما رأوه أمام أعينهم من ساستهم ، الذين كانوا

(١) الإمبراطورية البيزنطية ( بيتر ) ص ٨ .

(٢) مصر البيزنطية ص ٢

(٣) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ١٧ .

(٤) الإمبراطورية البيزنطية " أومان " ص ١١٦ .

(٥) الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٢١٠ .

(٦) تاريخ الإمبراطورية الرومانية ص ٢٥٤ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٧) المصدر السابق ص ٦٣١ .

(٨) مصر البيزنطية ص ٣٠١ ، ٣٠٢ .

يقترون التحريق ، والقتل ، وقطع الأهدى ، وسمل العيون ، وجدع الأنوف ، بكل سهولة ، ولأنفه الأسباب <sup>(١)</sup> .

وقد شاعت في أبناء القسطنطينية على الأخص صفات الجبن ، والفسق والخساسة ، يقول بعض المؤرخين إنها لقصة مزعجة من مكاييد القسس ، والخصيان والنساء ، من دس السم ، والمؤامرات ، ونكران الجميل ، وقتل الإخوة بشكل مستمر ، ورغم أن تولية الإمبراطور كانت تتم وفق انتخاب يقوم على نظام معين ، لكن النظر المقدسة إليه من الناس ، جعلته أكثر رسوخاً ، فهو صفى الإله ، وعليله ، وإله فالمرشح المناسب هو بالضرورة من اختارته مشيئة الله ، بغض النظر عن الطريقة التي اكتسب بها هذا النصر .

إن جناح الإمبراطور يلزم الناس دينياً بطاعته ، وعلى ذلك فالإمبراطور رجل دين ، وملكيته أوتوقراطية <sup>(٢)</sup> وقد شهد القرنان الخامس والسادس الميلادى تحول الإمبراطور من رجل مدنى إلى رجل يعتمد على الدين ، في تأييد نفوذه ، ويمثل هذا الاتجاه بوضوح الإمبراطور " جستنيان " سنة ٥٢٨ م إلى سنة ٥٦٥ م .

ومع كل هذا الفساد الإمبراطورى فقد تم إلغاء الانتخاب ، وصار الإمبراطور يعين من يخلفه في حياته ، ويدعى أنه اختيار الله .

ويكفى تصويراً للقسوة التي عامل الأباطرة شعوبهم بها ، أن نعرف أن الإمبراطور " جستنيان " لما قامت ثورة الزرى ( أنصار جستنيوس الأرثوذكسى ) والخضر ( أتباع انستاسيوس اليعقوبى ) وطالبوا إقصاء وزير المالية أحمدتها بالقوة ، وقتل من الثوار خمسة وثلاثين ألفاً في ستة أيام وذلك في يناير سنة ٥٣٢ م <sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> "الإمبراطورية البيزنطية" بيتر " ص ٢٥ .

<sup>(٢)</sup> "الإمبراطورية البيزنطية" أومان " ص ١١٧ .

<sup>(٣)</sup> "الإمبراطورية البيزنطية" بيتر " ص ٨٠ ، ٨١ .

<sup>(٤)</sup> "الإمبراطورية البيزنطية" بيتر " ص ٢٥ ، ٢٣ بتصرف .

وهكذا كثرت الفتن في الإمبراطورية، وكثرت الاضطرابات، وقد لخص أحد الكتاب الإنجليز أسبابها، وذكر أنها تنحصر في الابتداء الديني، واستحداث الضرائب وتغيير القوانين، والعادات، مما أدى إلى الظلم العام، وانتشار المجاعات<sup>(١)</sup>.

وكانت العلاقة بين الإمبراطوريتين الرومانييتين سيئة، وزادت الهياراً بقيام الحروب بينهما، وقد وجه " جستنيان " أولى ضرباته القاصمة إلى دولة الوندال بأفريقيا، واستولى على المدن الكبرى<sup>(٢)</sup> وأخذ بعدها يسلك مسلكاً معيناً فأكثر من فرض الضرائب، واستعمل القسوة في جمعها، فهجر الأهالي مزارعهم، ومتاجرهم، واحترفوا اللصوصية وقطع الطرق، وشن الغارات على الحاميات البيزنطية<sup>(٣)</sup> فلجأ الإمبراطور إلى قوة أكبر لحكمهم بالأسلوب العسكري، حتى صارت أفريقيا ولاية يديرها قائد عسكري، وله مساعدون عسكريون، وكانت هذه خطوة انتهت ضرراً ضد الدولة، فعندما شعر القائد العسكري بقوته، وبإمكان استغناؤه عن الإمبراطورية أعلن استقلال ولايته.

وهكذا أعلن " جوريجوريوس " استقلاله بأفريقيا قبيل الفتح الإسلامي بقليل<sup>(٤)</sup>.

أما — الأحباش — فهم أمة عاشت هدوءاً نسبياً، وسادها نظام ملكي مثله الدولة الأكسومية، التي قامت مزدهرة، قوية منذ القرن الأول قبل الميلاد<sup>(٥)</sup>.

وقد ساعدت قوة هذه الدولة على الاستقرار الاجتماعي، وبسط سيطرتها على جيرانها بعدما قامت بحملات حربية عديدة، وعبرت البحر، وكونت مستعمرات حبشية<sup>(٦)</sup> في اليمن، تدر عليهم الأموال والخيرات، وتضمن لهم تجارة آمنة،

<sup>(١)</sup> المسلمون والجرمان ص ٥٦ .

<sup>(٢)</sup> الإمبراطورية البيزنطية " بيتر " ص ٣١ .

<sup>(٣)</sup> المسلمون والجرمان ص ٦٠ .

<sup>(٤)</sup> المسلمون والجرمان ص ٦١ .

<sup>(٥)</sup> بين الحبشة والعرب ص ١٧ .

<sup>(٦)</sup> المصدر السابق ص ٢٦ .

ومتبادلة مبيع الجزيرة العربية ، والشرق الأقصى ، وكان يفتح الأحباش اليمن أن صارت أرض الحبشة متجراً لقريش ، يجدون فيها رغداً من الرزق ، وأما ورهباناً حسناً <sup>(١)</sup> ، بل وصلت قوة الدولة الأكسومية غرباً حيث النيل <sup>(٢)</sup> تستفيد من مياهه ونخيلاته ، ولقد كان ساحل أرتيريا موطناً هاماً للتجارة : ففي موايه ترسو السفن التجارية لعديد من الجماليات الأجنبية ، وقد دلت الآثار على وصول أبحار من اليونان ومصر إلى هذه البلاد .

وقد اشتهر ملوك هذه الدولة قبيل الإسلام بالعدل ، وبكراهية الظلم ، وكان هذا سبباً في اختيار المسلمين للحبشة بالدات للهجرة إليها ، وقد قال الرسول " <sup>(٣)</sup> لأصحابه : ( لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد ) <sup>(٤)</sup> . وخضعت الدولة الحبشية للنفوذ الروماني ، وبخاصة بعد اعتناقها المسيحية خلال القرن الرابع الميلادي <sup>(٥)</sup> ، حيث كان اعتناق المسيحية هو السبيل الفعال إلى بسط النفوذ الروماني ، ويمكن ملاحظة هذا النفوذ عندما تعرض مسيحيو اليمن للاضطهاد وذهاب " دوس ذو ثعلبان " إلى قيصر الروم يستنصره ، فأرسله القيصر إلى ملك الحبشة الذي أعانه بجيش من عنده ، قوامه سبعون ألف رجل <sup>(٦)</sup> .

\*\*\*

(١) تاريخ الطبری ج ١ ص ٣٧ .

(٢) سيرة النبي " عليه السلام " ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) سيرة النبي " عليه السلام " ج ١ ص ٣٤٣ .

(٤) بين الحبشة والعرب ص ٢٦ .

(٥) سيرة النبي " عليه السلام " ج ١ ص ٣٦ .

## الأوضاع الدينية للرومان

كانت المسيحية هي دين الدولة الرومانية يقسمها الشرقي والغربي ، ودين الولايات التابعة لها كمصر والحبشة وغيرها ، وكانت الأحداث الدينية تتردد سريعاً في كل أرجاء الدولة من أقصاها إلى أقصاها .

وقد وضعت الكنيسة لنفسها نظاماً معيناً، تسير عليه ، فأقامت رئاساتها في العواصم الثلاث الكبرى لعالم البحر الأبيض حيث توجد كنائس روما والإسكندرية وإنطاكية ، على أن يكون لبقية المدن أساقفة ورؤساء تابعون لأحد الكنائس الرئيسية الثلاث <sup>(١)</sup> .

وظل الأمر على هذا الوضع حتى تأسست القسطنطينية وأصبحت عاصمة الدولة الرومانية الشرقية ، فتحولت كنيستها إلى المرتبة الثانية بعد كنيسة روما ، تليها في المرتبة الثالثة كنيسة الإسكندرية وإنطاكية <sup>(٢)</sup> .

ولم يكن هذا الوضع الجديد بمحل رضي من رؤساء الكنائس الأخرى ، فحل التنافس بينهم ، وقد ظهرت أفكار جديدة في الفكر المسيحي ، شغلت بال العالم المسيحي ، وقسمته إلى فرق متنازعة <sup>(٣)</sup> .

ذلك أن أفكار " أريوس " الداعية إلى إنكار ألوهية المسيح ، وتأسيس فكرة دينية، تعتمد على التوحيد ، لاقت خلال القرن الرابع الميلادي نجاحاً في عديد من الأماكن، حيث، كما ذكرنا، الكنيسة في " أسيرط " على رأسه، وكثير أنصاره في الإسكندرية وفلسطين ومقدونية <sup>(٤)</sup> وكانت الكنائس الجرمانية التي نشأت في الدولة

<sup>(١)</sup> الحضارة البيزنطية ص ١٢٤ .

<sup>(٢)</sup> الدول الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٣٦ .

<sup>(٣)</sup> الحضارة البيزنطية ص ١٢٥ .

<sup>(٤)</sup> محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

الرومانية الغربية على رأيه كذلك <sup>(١)</sup> .

وقد عرف أتباع مذهب " أريوس " بالموحدين ، وقد نشط هؤلاء الموحدون في نشر عقيدتهم ، حتى أنهم في الإسكندرية وثبوا على " اثناسيوس " بطريرك الإسكندرية ، ورأس معارضي " أريوس " والمنادى بالوهمية المسيح ، وثبوا عليه ليقتلوه فهرب منهم وأختفي ، وكذلك فعلوا في بيت المقدس مع بطريركها <sup>(٢)</sup> .

وفي قرطاجنة تعرض " الاثناسيوسيون " للاضطهاد ، ولقى كثير منهم حتفهم ، وتحول بعضهم إلى عبيد ، وصارت كنائسهم أماكن عبادة للموحدين ، وفي بلاد الغال وأسبانيا ، لجأ الموحدون إلى القسوة في تبشيرهم ، معتمدين على سلطان " القوط " <sup>(٣)</sup> .

ورغم سيادة أفكار التوحيد فقد استطاع " قسطنطين " ، بقوته أن يقضى عليها فجمع القسوس من جميع الكنائس ، وعقد مجمعاً في " نيقية سنة ٣٢٥ م " ضم ألفين وثمانية وأربعين من الأساقفة المختلفين في آرائهم وعقائدهم ، وكان من بينهم ثلاثمائة وثمانية عشر أسقفاً يقولون بالوهمية المسيح ، فأخذ الإمبراطور برأيهم ، وجعله عقيدة عامة قررها على الناس بقوة الدولة <sup>(٤)</sup> وجعل مخالفته زندقة ، موجهة ضد الدين يعاقب عليها بالهرطقة <sup>(٥)</sup> .

وهكذا انتصرت " الاثناسيوسية " على الأريوسية مما آذن بعلو شأن كنيسة الإسكندرية <sup>(٦)</sup> واختفاء مذهب التوحيد ، ولم يظهر في عالم المسيحية بعد ذلك إلا الوهمية المسيح .

(١) المسلمون والجرمان ص ٤١ : ٤٢ .

(٢) محاضرات في النصرانية ص ١٣١ .

(٣) محاضرات في النصرانية ص ١٢٣ .

(٤) محاضرات في النصرانية ص ١٢٤ ، ١٢٥ .

(٥) المحاضرة البيزنطية ص ١٣١ .

(٦) الإمبراطورية البيزنطية " بيت " ص ١٠٠ .

ولم يكن هذا النصر بداية استقرار في الفكر المسيحي، بل نشأت مسألة أخرى مع بداية القرن الخامس الميلادي، كانت هي السر في الانقسام الكامل للكنائس المسيحية بصورة واضحة.

ذلك أن مجمع " أفسوس " الأول سنة ٤٣١ م الذي اجتمع ليقرر رأيه في أفكار " نسطور " القائلة بأن المسيح ليس إلهاً، ولكنه إنسان ملهم معصوم، لا كسائر الناس <sup>(١)</sup>، أيد رأى أسقف القسطنطينية، في تقسيم طبيعة المسيح إلى شقين هما اللاهوتي، والناسوتي، وأتخما امتزجا، وصارا كائناً واحداً.

وكان هذا القرار مبعوضاً عند كنيسة الإسكندرية، وروما، وشعب القسطنطينية، لأنه يهدد بعزل " مريم " العذراء من أمومتها للقسم اللاهوتي، ويجرمها من لقب " أم الرب " ولذلك نجد هذه الكنائس تتحد ضد هذا القرار، وتجتمع في أفسوس ثانية، وتقرر أن للمسيح طبيعة واحدة، وتسرع في نشر هذا المذهب في أطراف الدولة، وتقوم كنيسة الإسكندرية بإرسال تسعة رهبان إلى الحبشة، يدعون لمذهب الطبيعة الواحدة <sup>(٢)</sup> مما جعل كنيسة القسطنطينية تتأثر لنفسها بقرار مضاد في مجمع " خلقدونية " سنة ٤٥١ م وذلك بمساعدة كنيسة روما، وقد أعتبر هذا المجمع القائمين بالطبيعة الواحدة هرطقة، وقرر وجوب تعذيبهم، ومع الأيام تطور هذا الخلاف إلى منافسة حادة، نشط فيها كل طرف لتقوية مذهبه، واتهام غيره بالهرطقة، الأمر الذي حوله إلى خلاف قومي، نادى كل وطن فيه بالانفصال عن الإمبراطورية <sup>(٣)</sup>.

فشلت كل محاولات التوفيق بين الطرفين المتنازعين، كما اعترف بذلك " يوستينياتوس " في مجمع " القسطنطينية الخامس سنة ٥٥٣ م .

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٣٥ .

(٢) بين الحبشة والعرب ص ٣٦ .

(٣) الحضارة البيزنطية ص ١٣٣ .

وقد حاول " هرقل " بعد انتهائه من الحروب الفارسية أن يضع حداً لهذا الخلاف، فألف مذهباً جديداً، تخيل من ورائه أنه يرضي الأطراف المتنازعة، سماه بمذهب التوحيد في الإرادة، وهو ينادى بعدم النقائص في طبيعة المسيح، حيث الاختلاف والتنازع، مع الإيمان بأن له إرادة واحدة، غير أن هذا المذهب جاء بنتيجة متضادة لأن " هرقل " استعمل القوة في فرضه، وأمد إلى على أمراء الولايات أن يفعلوا ذلك، فأخذ " المقوقس " في مصر يستعمل العنف والتعذيب في فرض هذا المذهب، وألهم القوم " هرقل " وولائه بمحاولة إضلال الشعب المسيحي، وغاموا بحركة مقاومة سرية، وقاد " بنيامين " هذه الحركة في مصر حتى أصبح المصريون يتسبون زوال الإمبراطورية <sup>(١)</sup>.

ومع الأيام انتشر هذا التراجع في كل الدولة الرومانية بأجزائها، وولاياتها، وقد انتشر مذهب الطبيعة الواحدة في مصر، والحبشة، واعتنقه بعض الغساسنة وتغصبوا له وانتشر مذهب الطبيعة في " القسطنطينية " وروما، وبلاد الحيرة، وعن طريق الحيرة أمتد إلى بعض أطراف الجزيرة العربية الجنوبية <sup>(٢)</sup>.

و يجب ملاحظة أن هذه المنازعات لم تقف حائلاً دون نشر المسيحية، بل إنها أدت إلى قيام منافسة، وتسايق، بين الكنائس المختلفة، لتفوق كل على زميتها، في نشر المسيحية بمذهبها، في بلاد جديدة وبذلك يتحقق تفوق سياسي واقتصادي يمكن الدولة من مجاهدة الصراع الفارسي، والانتصار عليه.

والمسيحية بعد المسيح " الشكوك " تعتبر ديناً توسعياً، ولذلك نشط معتقوها قبل الإسلام في توسيع دائرتها في البلاد الخارجية.

ففي الولايات التابعة للفرس ظهر لها أتباع من الغساسنة، كما أن امتدادها إلى الحبشة تم في القرن الرابع، ووصلها إلى اليمن ثم قريباً من هذا التاريخ، وكان

(١) الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ص ٤٠.

(٢) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٧٥، ٧٦، ٨٢.



لانتشارها طرق مستعدة لاقت تشجيعاً من جميع المسيحيين، وخاصة من الدولة الرومانية الشرقية، وكنائسها المتعددة، ولا غرو فهي دولة "أوتوقراطية" أسست من بدايتها على الدين .

ولم تمنع المنازعات المذهبية تعاون المختلفين في المذهب إذا لزم الأمر، حيث نرى "النحاشي" ملك الحبشة يتعاون مع إمبراطور القسطنطينية، ويرسل جيشاً إلى اليمن للمحافظة على المسيحية بها، رغم اختلاف الإمبراطور والنحاشي في طبيعة المسيح، ورغم أن نصارى اليمن أنفسهم كانوا على القول بالأريوسية المخالفة لكل من النحاشي والإمبراطور .

وكان لموقع الجزيرة العربية بين الحبشة والدولة الرومانية الشرقية أن تعرضت لمحاولات تبشيرية متعددة، أدت إلى اعتناق بعض العرب للمسيحية، وقد وجدت المسيحية بنجران (جنوب الجزيرة) على يد رجل من الشام هو "فيمين" حيث تمكن هو وتلميذه "عبد الله بن الثامر" من نشر المسيحية بهذه المنطقة<sup>(١)</sup>، وقد كان فيمين وتلميذه صورتين لمبشرى المسيحية الذين انتشروا في الجزيرة يتاجرون، ويدعون للمسيحية، وكانوا يعتبرون التجارة مع التبشير كسباً مضاعفاً<sup>(٢)</sup> .

ويمكن اعتبار حملة "أبرهة" على مكة حملة عسكرية للتبشير بالمسيحية، تمت بعد فشل الوسائل السلمية، وبخاصة بعدما ثبت أن الدولة البيزنطية كانت ترسل تجارها إلى مكة لتجسس على العرب<sup>(٣)</sup>، ومما يساعد على هذا الاعتبار سرعة بناء أبرهة "للقليس" ومضاعفة تحسينها، وتحميلها، قاصداً بذلك صرف العرب عن كعبتهم وتوجيههم إلى القليس للحج والزبارة، التي بناها على هيئة الكعبة،

(١) التاريخ الإسلامي العام ص ٥٠ .

(٢) أخبار مكة ج ١ ص ٨٣ .

(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام ج ٦ ص ٥٨ .

وصورتها، وقد كتب أبرهة إلى النجاشي بعد بناء القليس قائلاً : ( ولن أنتهي حتى أصرف حج العرب إليه ويتركوا الحج إلى بيتهم )<sup>(١)</sup> .

ولما تبين استحالة تحقيق هذا الأمل جرد حملته إلى الحجاز، لهدم الكعبة، وبذلك لا يجد العرب إلا " القليس " ، فيذهبون إليها مضطرين ، وبذلك يسهل تنصير أبناء الجزيرة العربية كلها .

وفد بذلت الدولة الرومانية الأموال الضخمة في تأسيس عديد من الكنائس والأديرة داخل الجزيرة العربية، وكانت تجلب الإعانات ، والأموال لهذه الكنائس من بلاد العراق والشام، والروم<sup>(٢)</sup> ، ومع كل هذه المحاولات التبشيرية فإنه لم يعتنق المسيحية إلا نفر ضئيل من العرب، ويبدو أن السبب ما كان فيها من قصور فكري، وتناقض واضطراب لا يتفق مع الفطرة العقلية .

\*\*\*

(١) الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

(٢) وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

## المبحث الثالث

### الفرس

#### ١ -

### الموطن الجغرافى

— والفرس — أمة سكنت شرق الجزيرة العربية ، واشتركت معها في الحدود الشرقية ، ويعتبر الخليج العربى حاجزاً طبيعياً بين العرب والفرس .

— والفرس — امتداد للشعب الإيرانى القديم الذى نشأ في الوديان الخصبة بين جبال الهندكوش ، وسلسلة جبال يمان ، وانتشر هذا الشعب في منطقة آسيا الوسطى ، وانقسم إلى شطرين : شطر سكن في منطقة ما وراء نهر جيحون وهم الإيرانيون الشرقيون ، وشرطر سكن غرب النهر وهم الإيرانيون الغربيون <sup>(١)</sup> .

وقد قامت دولة الفرس في المنطقة الواقعة بين الجزيرة العربية، وبلاد الشام ، ونهر الفرات غرباً ، وبين نهر جيحون، والستد شرقاً ، وبين بلاد أرمينيا، وصحراء سيريا شمالاً ، وبين المحيط الهندى جنوباً <sup>(٢)</sup> .

وكانت عاصمة الفرس " المدائن " وهى مدينة كبيرة أقيمت على شاطئ نهر دجلة ، فتحها المسلمون في عهد عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " ، في واقعة مشهورة ، عرفت باسمها، وقد عرف جزؤها الشرقى بـ " المدائن القصوى " وجزؤها الغربى عرف بالمدائن الدنيا <sup>(٣)</sup> .

وقبيل الإسلام وحسد الساسانيون فارس تحت حكمهم ، وانهاوا إمارات الطوائف التى تقاسمت الدولة ، وجعلوا لدولتهم قوة تناوى دولة الروم الموجودة في شمال غرب الدولة .

<sup>(١)</sup> تاريخ بخارى ص ٤٤ .

<sup>(٢)</sup> العرب قبل الإسلام — زيادة — ص ٥٥٢ .

<sup>(٣)</sup> نفس المصدر ص ٥٣٤ .

## الأوضاع السياسية

### والاجتماعية والأخلاقية للفرس

كان الحكم في الفرس مطلقاً قائماً على أساس تقديس بيت معين يستند حقه من الله ، فلقد كان ( آل ساسان ) يعتقدون أن حفيهم في الملك مستمد من الله ونشروا ذلك في الناس ، حتى أن العامة اعتقدوا هذا ، وبنار جزءاً من تدينهم ، ومن هنا كان الملك يتوارث للأولاد ، والحفدة ، فإذا لم يجدوا من الأبناء رجلاً كبيراً جعلوه لطفل لا يعنى ، فإن لم يوجد الطفل جعلوه لامرأة ، ولقد ملكوا بعد شيرويه أردشير طفلاً عمره سبع سنوات ، وملكوا بوران بنت كسرى ، وملكوا أخرى اسمها ( أزرهسي دفت ) <sup>(١)</sup> ووفقاً لهذه النظرية المقدسة تمنع الإكاسرة ، وهم ملوك فارس تمزايلاً لا حد لها ، فهم كالآلهة تماماً ، وفوق القانون ، وفوق البشر ، ولهم تشديد الأناشيد المقدسة ، وعندهم تكفر الذنوب ، وإشاراتهم أمر لا يستحق إلا السمع والطاعة ، وكان لكل واحد منهم حاشية خاصة لما تقاليدها ، ومظاهرها .

وقد استغل الملوك منزلتهم عند القوم في الإثراء القاحش الكبير ، واعتادوا أن يكثرزوا التقود ، وبدخروا الطرائف من الأشياء الغالية ، حتى أن "خسرو الثاني" حينما نقل أمواله إلى بناء جديد سنة ٦٠٨ م بلغ ما نقله ٤٦٨ مليون مثقال ذهب ، وبعد ثلاثة عشر عاماً من ملكه بلغت ماله ٨٠٠ مليون مثقال <sup>(٢)</sup> ، يقول شاهين مكاربوس : ( لم يرد في التاريخ أن مليكاً بذخ وتنعم مثل الأكاسرة ، الذين كانت تأثيهم الهدايا ، والجزيات ، من كل البلدان الواقعة ما بين الشرق الأقصى والشرق الأدنى ) <sup>(٣)</sup> وكانت الولايات العديدة تخضع لكسرى بوجهها كما يريد رغم تباعدها ،

(١) تاريخ الطبری ج ٢ ص ٤٥ — ٥٥ بنصره .

(٢) إيران في عهد الساسانية ص ١٦٣ وما بعدها .

(٣) تاريخ إيران لشاهين مكاربوس ص ٢١١ .

ولعل في طلب ( باذان ) من عامله في اليمن أن يحضر النبي " ﷺ " إلى المدائن حياً، أو ميتاً توضيحاً لنوع سطوة كسرى، وخضوع الولاة له .

وقد امتاز الفرس بالنشاط وكلفوا بالمدينة، وطلبوا الاستقرار ما وسعتهم الأرض، ومالوا إلى الاشتغال بالفنون والحرف، وأقبلوا على تجارة الحرير في غيرة وجد، وكانوا خلال القرنين الخامس والسادس الميلاديين يسرون بقوافل الحرير العظيمة عبر الإمبراطورية الساسانية إلى شرق بلاد الإمبراطورية الرومانية<sup>(١)</sup> وبسبب ذلك انتشر النشاط الصناعي، والزراعي، في أنحاء الإمبراطورية، وحقق رخاء ورفاهية في أنحاء الدولة.

وكان المقتضى أن ينتشر العدل بين الرعية تبعاً لذلك، إلا أن الوضع أخذ شكلاً رهيباً من الطبقة البغيضة، القائمة على النسب، والحرف، يصوره صاحب كتاب إيران في عهد الساسانية في إيجاز فيقول : ( كان المجتمع الإيراني مؤسساً على أساس النسب، والحرف، وكان بين طبقات المجتمع هوة واسعة، لا يقوم عليها جسر، ولا تصل بينها صلة، وكانت الحكومة تحظر على العامة أن يشتري أحد منهم عقاراً لأمر، أو كبير، وكان من قواعد السياسة الساسانية أن يقتنع كل واحد بمركزه الذي منحه نسبه، ولا يستشرف لما فوقه، ولم يكن لأحد أن يتخذ حرفة غير الحرفة التي خلقه الله لها، وكان ملوك إيران لا يولون وضيعاً وظيفه من وظائفهم، وكان العامة كذلك طبقات متميزة بعضها عن بعض تميزاً واضحاً، وكان لكل واحد مركز محدد في المجتمع )<sup>(٢)</sup>.

ولم تقف إهانة الطبقات الدنيا عند حد إبعادها عن الوظائف العامة، بل فرضت عليها الضرائب الباهظة بلا حساب وضبط، حيث كانت تختلف من سنة إلى أخرى، ومن مكان إلى آخر، كما، ونوعاً، الأمر الذي ألحق أفدح الأضرار

<sup>(١)</sup> تاريخ بخارى ص ٤٥ — ٤٦ .

<sup>(٢)</sup> إيران في عهد الساسانية ص ٤١٨ ، ٤٢٠ ، ٤٢٢ .

بالضعفاء وأصحاب الحرف الصغيرة، مما أدى أخيراً بالمزارعين إلى أن يتركوا أعمالهم،  
ويلجأوا إلى الأديرة يلتمسون فيها المأوى والاستقرار ، وكان أسعد المزارعين حظاً  
ذلك الذي سمح له بأن يعمل لسيدته بأجر زهيد .

ولم تقف هذه الإهانات الواقعة على الطبقات السافلة في حياتهم المدنية، بل  
كانت تلازمهم وهم في الجيش، وفي ميدان القتال، يقول المؤرخ " أميان مارسيلينوس " :  
( إن هؤلاء الفلاحين البؤساء كانوا يسرون خلف الجيوش مشاة كأنه قد كتب  
عليهم السرقة الدائم، ولم يكونوا ينالون إعانة، أو تشجيعاً، من راتب، أو أجرة،  
وكانت علاقة الفلاحين بالملوك أصحاب الأراضي كعلاقة العبيد بالسادة ) <sup>(١)</sup> .  
وقد أدى هذا الوضع الطبقي إلى نتائج بالغة السوء ، فانتشر الحقد والبغضاء  
بين الضعفاء، والكبر والاستعلاء بين الكبراء، وهدد المجتمع بانقسامات خطيرة،  
سكنت ملامحها نفوس الناس وقلوبهم .

ولعل في هذا الوضع بعض أسباب إنتشار واستقرار الإسلام السريع في ربوع  
الدولة الفارسية، حين أتاها، لأن مبادئ الإسلام السامية صادفت وضعاً ظالماً فمحتة،  
وطبقت تعاليمها مكانه ، فاستقرت، وما ظهر في فارس من قوة وغنى ، فقد كان  
خاصاً بالطبقات الأعلى ، والحاكمة وحدها ، وكل ما دونها ، فقد عاش في فقر  
وهوان .

(١) المرجع السابق ص ٣٢٤ .

## أوضاع الفرس الدينية

كانت المجوسية وهي ديانة الفرس ، مركبة من عناصر مذاهبهم المتعددة ، التي بدأت قبل الميلاد بكثير ، واستمرت في تطورها ، وتشكلها ، حتى جاء الإسلام ، وهي ديانة في الجملة تهتم ببيان أصل المخلوقات وعدد الآلهة ، فمنذ القدم والملوك يقدسون إلهين من بين الآلهة الكثيرة ، التي يعبدونها عامة الشعب ، على أساس أن أحدهما أصل الخير ، والثاني أصل الشر <sup>(١)</sup> وبعد تطور المجوسية على يد زرادشت نراه يرجع جميع الآلهة الموجودة إلى إلهين اثنين ، إله الخير ويسمى " أهورامزدا " ، وإله الشر ويسمى " أهريمان " وهما متضادان ، فلقد ورد في كتبهم المقدسة أن " مزدا " قال لـ " أهريمان " ما معناه : ( ليس علمنا ، ولا شرائعنا ، ولا مداركنا ، ولا كلماتنا ، ولا أفعالنا ، ولا حياتنا ، أنا وأنت متفقان في شيء ، ولذا فنحن اضداد ) <sup>(٢)</sup> .

والفرس يعتبرون أن أقوال زرادشت ، وتعاليمه قبل أودعت في كتاب " زند أفستا " ، الذي تم جمعه في القرن السادس الميلادي <sup>(٣)</sup> ، وفي هذا الكتاب سمو خاص ، ومواعظ طيبة ، مما جعل الفرس يرفعون زرادشت بعد وفاته إلى مرتبة عالية ، فرعموا أن وجوده في الدنيا مر بمراحل خيالية خاصة ، وأنه بعث رسولاً إلى الخلق ، ونبياً لكشتاسب الملك وغيره ، هذا مع إثباته للأصلين المتضادين ، النور والظلمة <sup>(٤)</sup> ويظهر من كلام الشهرستاني أن نبوة " زرادشت " صحيحة لأنه يقول : إن زرادشت يدعوا إلى أن الباري هو الخالق للظلام والنور ، ومبدعهما ، وهو واحد ، لا شريك له ، ولا ضد ، ولا ند له ، ويدعى كذلك أن كتاباً نزل عليه وهو " زندوفستا " ومن

<sup>(١)</sup> الفلسفة الشرقية ص ١٨٤ .

<sup>(٢)</sup> وحدة الدين والفلسفة والعلم ص ١٠٥ .

<sup>(٣)</sup> الفلسفة الشرقية ص ١٨٧ .

<sup>(٤)</sup> الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ .

تعاليمه ضرورة الإيمان بالروح والجسم ، والتكليف القائم على الاعتقاد ، والقول ، والعمل ، وأيضاً فأتباع زرادشت يثبتون له معجزات ، منها دخول قوائم الفرس في بطنه ، وقد بشر " زرادشت " بظهور " الرجل العالم " في آخر الزمان ، ليزين الكون بالدين والعدل <sup>(١)</sup> وهو يدعو الناس إلى الإيمان باليوم الآخر ، والبعث ، والجزاء .

وليس لدينا دليل ، يمنع أن يكون نبياً ما دامت تعاليمه موحدة في العقيدة ومؤمنة بالبعث ، وداعية إلى الخلق الطيب ، والعمل النافع ، وغير ذلك ، واندراجه تحت الرسل المذكورين في قوله : ﴿ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ﴾ جائز .

ويمكن تفسير ما ينسب إليه من دعوته لإلهين ، أحدهما للنور ، والآخر للظلام ، أنه من وضع أتباعه الذين حرفوا دعوته .

لكن الذى نذكره بعد ذلك أن ديانة الفرس بعد " زرادشت " داخلها فساد كبير ، أضاع أغلب معالمها ، فلقد جاء " مانى " في القرن الثالث الميلادى ، وعمق الأصلين في الوجود ، وجعلهما إلهين ، مستقلين ، أزليين ، قديمين .

وقد حكى " محمد بن هارون " المعروف بـ " أبى عيسى الوراق " أن الحكيم " مانى " زعم أن العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور ، والآخر ظلمة ، وأتهما أزليان لم يزالا ، ولن يزالا <sup>(٢)</sup> .

وفي نهاية القرن الخامس الميلادى جاء " مزدك " فأضاف إلى فساد العقيدة على يد " مانى " فساداً أخلاقياً آخر ، حين قال بالشيوعية المتطرفة ، المناذية بالمساواة في المال ، والنساء ، لأتهما في نظره سبب الحرب ، والقتال ، وبإلغائهما تنطهر القلوب من الأحقاد ويعيش الناس في سلام <sup>(٣)</sup> ، وجاءت المانوية فأوصلت الأصول إلى ثلاثة هي النار والأرض ، والماء <sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> الملل والنحل ج ١ ص ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢١٩ . <sup>(٢)</sup> الفلوسة الشرقية من ١٩٥ ، ١٩٦ .

<sup>(٣)</sup> الملل والنحل ج ١ ص ٢٢٤ . <sup>(٤)</sup> وحدة الدين ص ١١١ .



ولقد كانت المجوسية في عصر ظهور الإسلام خليطاً من كل هذه الآراء ،  
فلقد تناسى الفرس وحدانية زرادشت ، وتمسكوا بثنائية المانوية ، بل كان العامة منهم  
يؤمنون بعض القوى الطبيعية ، ويقدمون بعض الحيوانات ، ويؤمنون أن روح  
الإنسان بعد الموت تنتظر ثلاثة أيام ، وفي فجر اليوم الرابع تهب ريح إما معطره إن  
كان صاحب الروح خيراً ، أو تنه إن كان صاحبها شراً ، وبعد ذلك تذهب الروح  
مع فتاة ، أو عجوز لتحاكم وتأخذ جزاءها <sup>(١)</sup> .

وكان الفرس قبل ظهور الإسلام يعبدون النار ويقدمونها ، مؤمنين بقوتها  
وشرفها ، حتى لا يعذبوا بها في الآخرة ، وقد بنوا لها بيوتاً للعبادة في كثير من نواحي  
الدولة ، ففي طوس ، وبخارى ، وغيرهما أقيمت البيوت ، ومن المعلوم أن عبادة النار مع  
طول الزمن تغيب فلسفتها ، وأسباب وجودها ، وتبقى هي يقداستها أمام العامة  
والجمهير الغفيرة ، بعقولها المخيبة ، وبذلك يزداد الفساد والفضلال كما حصل لعبدة  
الأوثان من العرب ، فإنهم بدأوها تقديراً لأشخاص ، ثم تصوروها آلهة ، وتناسوا كل  
ما يتصل بوجودها .

وقد أطلق مسمى " المجوسية " على هذا الخليط الموروث من الأقدمين ، ومن  
زرادشت ، وماني ، وغيرهم ، وصار للمجوسية دولة كبرى تدافع عنها ، هي  
الإمبراطورية الفارسية المنافسة لدولة الروم قبل ظهور الإسلام ، وكان الفرس يعظمون  
ملوكهم ، ويقدمونهم ، ويزعمون أن الله اختار هؤلاء الملوك ، وأعطاهم ملكه ،  
ليكونوا ظله بين الناس ، فلهم الطاعة ، وليس لأحد قبلهم حق ، وبلغ هذا الاعتقاد  
أشدّه أيام الأسرة الساسانية <sup>(٢)</sup> ، التي وجدت قبيل ظهور الإسلام .

<sup>(١)</sup> الفلسفة الشرقية ص ١٩٥ : ١٩٦ .

<sup>(٢)</sup> وحدة الدين ص ١١١ .

## المبحث الرابع

### الهنود

#### ١ .

### الموطن الجغرافى

و — الهنود — أمة سكنت الجزء الجنوبي من قارة آسيا، وسط مجموعة من الحواجز الطبيعية التي هيأت لها لوناً معيناً من الحياة المستقرة، وطبعت حضارتها بطابع فريد، وهى أمة تشغل حيزاً كبيراً من الأرض، حيث أن مساحتها تعادل مساحة دول أوروبا مجتمعة باستثناء روسيا<sup>(١)</sup>.

ويذكر السيرونى أن الهند يحيط بها من الجنوب البحر المعروف باسمها وهو المحيط الهندى، وفي جهاتها الثلاث الأخرى توجد سلسلة جبال مرتفعة<sup>(٢)</sup>. ولمعرفة ما وراء هذه المرتفعات نتطلع على سطحها، فنراه يأخذ شكلاً رباعى الأضلاع، ضلعاها الجنوبي الشرقى، والجنوبى الغربى يطلان على البحر، ويكونان سواحل الهند وموانئها، أما الضلعان الشمالى الغربى، والشمالى الشرقى فيريان يسيران مع الحافة الجنوبية الغربية لمرتفعات وسط آسيا<sup>(٣)</sup>، وهذان الضلعان مجموعة من المرتفعات التي تتكون من جبال آسام، وسلسلة جبال الهملايا، وجبال هندكوش وجبال سليمان<sup>(٤)</sup>، وهذان الضلعان يكونان حدود الهند مع بلوخيستان، والتركستان والصين، وبورما<sup>(٥)</sup>. قامت هذه الحدود الطبيعية المنيعه بدور عازل هام، ساعد على ازدهار

(١) أدیان الهند الكبرى ص ١٩ .

(٢) تحقيق ما للهند من مقولة ص ١٥٧ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١١ .

(٤) تاريخ الإسلام في الهند ص ٢ .

(٥) أدیان الهند الكبرى ص ٢١ .

الحضارة الهندية، وبرزها في طراز فريد، جعل تأثرها بغيرها محدوداً، وخاصة في داخل البلاد، أما في الأطراف الشمالية عند الأبواب فكان التأثير أوضح<sup>(١)</sup>.

ونظراً لتغاير السطح الطبيعي للهند فلقد انقسمت البلاد إلى ولايات عديدة واشتهرت بها مدن كثيرة<sup>(٢)</sup>.

وأبناء الهند نشيطون منذ القدم، حيث انتشرت مجموعات منهم في البلدان حولهم، ووصلوا إلى أقصى شرق آسيا، وأسسوا لأنفسهم مستعمرات لها طابع هندي خاص، وكان من هؤلاء الرجال تجار كبار، ورجال ذوو ثقافات عالية تمكنوا بها من نقل ثقافات الهند إلى المستعمرات التي أسسوها<sup>(٣)</sup>.

واستمر هذا النشاط لأبناء الهند حيث توقف في القرن الثامن الميلادي<sup>(٤)</sup>.

\*\*\*

(١) ملامح الهند والباكستان ص ٥ .

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٢٣ .

(٣) ملامح الهند والباكستان ص ١٥٤ .

(٤) يلاحظ أن الحديث هنا عن الهند يشمل شبه القارة الهندية كلها التي تتكون حالياً من دول ثلاث هي : الهند ، والباكستان ، وباكستان الشرقية .

## الأوضاع السياسية

### والاجتماعية والأخلاقية للهنود

والهنود أمة سادت فيها الطبقات الاجتماعية بكل وضوح، وقد تنوعت دواعي هذا التقسيم الطبقي بسبب البعد الزمني لوجوده، إلا أن الراجح أنه قام بسبب اختلاف العناصر الهندية، فإن الآريين، والتورانيين، وفدوا على الهند، واختلطوا بسكان الأصليين، يؤيد ذلك أن الآريين قوم بيمضو اللون، طويلو القامة، والسكان الأصليون سودو اللون، قصيرو القامة، وكلمة طبقة باللغة الهندية هي " فارنا " ومعناها لون (١) وعند استقرار الآريين في البلاد تحافوا مغبة الاختلاط بغيرهم، فوضعوا بين الطبقات، وجعلوا أنفسهم طبقة برهمية عالية.

تليها طبقة الكشترية، فالجيش تقوده الكشترية، والبراهمة يؤيدونه بالدين الذي لا يتم النصر إلا به.

وإلى جانب هاتين الطبقتين الآريتين وضع التورانيون في طبقة ثالثة هي طبقة الويشية.

وتأتى بعدهم الطبقة الرابعة والأخيرة وهي طبقة الشودرا التي تتظم أصحاب المهن الحقيرة والخدم (٢).

وكان الهنود يمثلون الطبقات الأربع بجسم إنسان، فالبراهمة يمثلون الرأس، والكشترية يمثلون المنكب واليدين، والويشية تمثل الفخذ، والشودرا تمثل القدم. ويعتقد الهنود أن الطبقات خلقت من جسم برهما، ومن العضو الذي فيه كل طبقة (٣) حيث يقول متو وهو يعدد خلق برهما للكائنات: ( تم خلق البرهمن من

(١) ملاح الهند وباكستان ص ١٤٧.

(٢) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ج ١ ص ٩.

فمه ، والكاشترى من ذراعته ، والويشيا من فخذه ، والشودرا من رجله (١) .  
وقد وردت نصوص دينية تحدد وظيفة كل طبقة ، فلقد جاء في الفقه  
الهندوسي الأكبر وذكره الأستاذ / أحمد شلبي في " أديان الهند الكبرى " : ( على  
البرهمن أن يشتغل بالتعليم ، والتعلم ، وإرشاد الناس في دينهم ، فكان هو المعلم  
والكاهن ، والقاضي ، أما كشتريا فعليه أن يقدم القرابين ، ويحمل السلاح للدفاع عن  
وطنه ، وشعبيه ، أما ويشيا فعليه أن يزرع ، ويتجر ، ويجمع المال ، أما شودرا فعليه أن  
يخدم الطوائف الثلاث الشريفة ) (٢) .

والمسيودون هم طبقة " الشودرا " وهم سلالة العنصر الأصلي من السكان  
القدامى ، ولا يجزى في عروقهم الدم الآري ، أو التوراني ويسمون بـ " زنوج الهند " .  
وقد حرمهم المجتمع حقوق الإنسان العادي ، فليس لهم حقوق كطبقة ، ولا منزلة لهم  
يشتغلون برذالات الأعمال ، وهم منفيون ، منحطون (٣) لدرجة أنه إذا استمع أحدهم  
جلسة لرجل برهمن وهو يتلو " الفيدا " صب في أذنيه الآنك ، وإذا روى جالساً معه  
كوى بالنار ، ولا يجوز له أن يتزوج من الطبقات الثلاث الأخرى (٤) .

يقول مانو " أن الخالق قد ذرأهم " الشودرا " عبيداً ، وكل من انتمى إلى  
هذه الطبقة فمن المحال أن يكون حراً حتى ولو اعتقه سيده ، ومن الذي يستطيع أن  
يحرقه من الرق إذا كان الرق طبيعة فيه (٥) .

ومع هذه المنزلة الوضيعة للشودرا ، فقد وجد في المجتمع من هو أدنى منزلة  
منهم ، وهم الوافدون إلى البلاد ، الذين ولدوا بعيداً عن براهما ، وهؤلاء لا حقوق

(١) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٦ ، ٧٧ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٥ ، ٥٦ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٧ .

(٤) تحقيق ما للهند من مقولة ص ٧٧ .

(٥) روح الإسلام ص ١٥ .

لهم مطلقاً .

وكان النظام السياسي في الهند ملكياً حيث يرأس الملك الدولة، ويساعد الوزراء، ورجال التشريع<sup>(١)</sup> ، ومع ذلك فالملكية تعتمد على نظام مقدس ، فالملك إلى في صورة إنسان ، وعليه أن يكون عادلاً، وخادماً لشعبه، ومحافظاً على حقوق الطبقات بكل دقة<sup>(٢)</sup> .

وقد ازدهرت الهند بهذا النظام السياسي، فنمت حضارتها وفلسفتها، وكثرت المدن المليئة بالحركة والناس، وانتشرت المستشفيات ، والمدارس ، وعم الرخاء والعدل وخاصة مع بداية القرن الرابع الميلادي ، حيث ظهرت أسرة " كبتا " في الهند .

وقد نعم البراهمة مع هذا النظام المقدس، ونالوا كل حقوقهم وصاروا سادة المجتمع ، لهم ما يريدون<sup>(٣)</sup> وهم ملجأ الجميع في كل الحالات .

أما بقية الطبقات فإنها تتمتع بالحقوق التي يسمح بها البراهمة ، وليس عليهم إلا الطاعة ، والخضوع .

وقد أدى تماسك المجتمع بالتعاليم المقدسة في أنظمتها الاجتماعية والسياسية إلى ازدهار اجتماعي، تمتع به أهل الطبقات الشريفة، وما عداهم فلا شيء لهم من حقوق كما أدى هذا النظام الطبقي في الهند إلى إذلال طبقة المنبوذين ، وحرمانهم من كافة حقوقهم ، وقد وصل مستواهم أحياناً إلى أقل من مستوى الحيوان ، وعاشوا حياة بدائية متخلفة ، ولم يتقنوا إلا السخرة ، والطاعة ، في إطار القداسة الودية .

\*\*\*

(١) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٢ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٧٢ .

(٣) تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية ص ٣٣ .

## أوضاع الهند الدينية

يرجع ظهور الهندوكية إلى أقدم العصور، وهي ديانة معقدة ، لا تعرف البساطة في تعاليمها ، أو السهولة في مناسكها ، أخذت كثيراً من معتقدات الوافدين إلى الهند من أقدم العصور <sup>(١)</sup> .

وللهندوكية كتب عدة أهمها " الويدا " وأهميته ترجع إلى تصويره لحياة الآرين ، ومعشيتهم ، ونظمهم ، وعقائدهم .

وقد مرت هذه الديانة بأطوار مختلفة، جعلت تطبيقاتها تأخذ أشكالاً متعددة فمن أشكالها تأليه قوى الطبيعة والكون، حيث يتصور مؤهلوها أن للطبيعة روحاً، وقوة، تنفع وتضر، ومع تعدد آلهة الهنود إلا أنهم إذا اتجهوا لإله من هذه الآلهة سموه بـ " رب الأرباب " و " إله الآلهة " وهو إحساس منهم بالوحدانية غير مركز <sup>(٢)</sup> .

وللهندوكية سلوك أخلاقي ، يقوم على فكرة الجزاء على العمل في الحياة الأولى للروح ، أو بعد الحياة الأولى ، لأن الروح عندهم لا تفنى، بل إنها تنتقل بعد فناء جسد صاحبها إلى جسد آخر ، لتأخذ جزاءها، ولتتمتع بشهوات المادة التي لم تنلها من قبل ، وتستمر هكذا في تنقلها من جسد إلى جسد ، حتى تغلب على شهواتها وتقع بما حصلت عليه <sup>(٣)</sup> وحينئذ تخرج بـ " براهما " في مرحلة تعرف عندهم بـ " الانطلاق " ذلك أنهم يؤمنون أن روح الفرد جاءت من روح العالم، ومآلها إليه <sup>(٤)</sup> فإذا ما وصلت إلى الانطلاق فقد انحدت مع أصلها الأول ، وهذه أشكال صوفية قائمة على إحساس بوحدة الوجود .

<sup>(١)</sup> ملامح الهند والباكستان ص ١٤٣ .

<sup>(٢)</sup> أديان الهند الكبرى ص ٤٢ ، ٤٨ .

<sup>(٣)</sup> ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

<sup>(٤)</sup> ملامح الهند والباكستان ص ١٤٥ .

وهكذا نرى أن عبادة الهندوكية انتقلت من البساطة إلى التعقيد ، فمن البدائية إلى التفلسف ، وكان من أثر هذا التنقل تعدد طوائف الهنداكية تعدداً يحيط بالعدد ، وفي الحملة فإن عقائد الخاصة تختلف عن عقائد العامة ، حيث اتجه الخاصة إلى لون من التوحيد الغامض ، المشوش ، بينما عاش العامة مع التعدد والتجسيد <sup>(١)</sup> إلا أن العقائد كلها كانت تلتقى عند فكرة الجزاء ، وتناسخ الأرواح ، والروح الواحدة للهندوكية <sup>(٢)</sup> وتقوم العقيدة الدينية عند الهندود على أساس النظام الطبقي السابق ذكره : لأن المنبوذين لا يسمح لهم بإعتناق الهندوكية ، ولهم أن يختاروا ديناً آخر ، مما أدى إلى حدوث ثورات عدة ضد هذه النظم ، وخاصة نظام الطبقات ، وأشهر هذه الثورات ثورتان قام بهما الزعيمان " مهاويرا " و " بوذا " وهما من طبقة " الكشتريا " التي ضجت من ظلم البراهمة ، واضعياً الهندوسية ، وقد قاما بثورتيهما ضد الهندوسية ، وأدخلوا بعض التعاليم الجديدة عليها ، وأعلنوا ديانتين جديدتين هما : الجينية والبوذية **فالجينية** وهي مذهب " مهاويرا " تنكر الإله ، وتنادى بالمسالة ، ولا تعترف بالطبقات ، إلا أن ميداً المسالة أدى بأتباع مهاويرا إلى الإقرار بألهة الهندوس للهندوس ، واحترام عبادة البراهمة .

وعلى العموم فالجينية دين يؤمن بالزهد ، والتقشف ، والفناء ، والسنوك السوى ، حتى تصل الروح إلى مرتبة " النجاة " التي تشبه مرتبة " الانطلاق " وكن تعاليمهم المقدسة أتت من خطب " مهاويرا " ومريديه <sup>(٣)</sup> وكان انتشار هذا المذهب ضئيلاً في العدد ، انحصر في طبقة الكشتريا ، والمنبوذين .

**والبوذية** هي دعوة " بوذا " تلغى نظام الطبقات ، وتدعو إلى الصبر ، وتحمل الألم ، ودعم قوة الذات ، لتفهر سيطرة الشهوة والهوى وترفع النفس عن عالم

(١) تحقيق ما للهند من مشنونة ص ٣٩ .

(٢) أديان الهند الكبرى ص ٥٢ .

(٣) أديان الهند الكبرى ص ١١٣ وما بعدها .



المادة ، وكانت تنادى بالسلوك القويم حتى يمتزج الهندوسى مع " النرفانا " وهى تؤمن بتناسخ الأرواح ، وإمكانية الوصول إلى " النرفانا " <sup>(١)</sup> والاندماج معها كما حدث في الانطلاق ، والنجاة .

أما فكرة البوذية عن الإله فقد تجاهلته تماماً ، ولم تتكلم عنه ، ولم يشر بوذا إلى ذلك لا نفيّاً ولا إثباتاً ، بل كان يدعو إلى اكتشاف الألم ، والبحث عن مصدره من أجل إعدامه لتزول الآلام ، ويصل الإنسان إلى السعادة <sup>(٢)</sup> .

وكان صمت البوذية عن أفكار الألوهية الهندوسية ، وقصرها إلغاء نظام الطبقات على من دخل البوذية ، وتبسيطها العقائد سبباً في إقبال الناس عليها ، وتمسكهم بأخلاقها ، مع ولائهم لآلهة الهندوس ، وكان هذا الوضع سبباً في أن مظاهر البوذية لم تكن خالصة بها ، بل كانت خليطاً منها ومن الهندوسية ، الأمر الذى جعلها محل تقبل في المجتمع الهندى ، وسرعان ما اكتسبت تعاليم الهندوسية ، وذايت فيها وقبنت من الناحية العملية لا النظرية نظام الطبقات الهندوسى .

وأثنى القرن السادس الميلادى على الهند والبوذية تنتشر بثقافتها ، وأخلاقها ، وحضارتها ، إلى عديد من الأماكن خارج الهند ، فوصلت إلى البنغال ، والصين ، شرقاً وكشمير ، وكوريا شمالاً <sup>(٣)</sup> ، وكان لاعتقاد الهندوس بتناسخ الأرواح أن عبدوا الحيوان ، على أساس أن روحاً قديمة تقمصته ، فعبدوه على أساس أنه جسد حقيقى ، أو رمزي للأسرة ، وأنه معطيهم الخير بلا مقابل <sup>(٤)</sup> .

وقد اتخذ العامة منهم الأصنام وجعلوها آلهة لهم <sup>(٥)</sup> يتعبدون لها ، ويثقبون إليها بالقرابين ، وهى عندهم تجسيد لشيء قوى وهام ، وكانوا يسمون الصنم باسم

<sup>(١)</sup> أدیان الهند الكبرى ص ١٥٦ وما بعدها .

<sup>(٢)</sup> الله ص ٦٥ .

<sup>(٣)</sup> أدیان الهند الكبرى ص ٨٤ .

<sup>(٤)</sup> الله ص ٦١ .

<sup>(٥)</sup> المثل والنحل — للشهر ستانى — ج ١ ص ٢٦٧ وما بعدها .

القسوة الغائبة عنهم ، فصنعوا للشمس صنماً ، وللقمر آخر ، وللنار مثل ذلك ، وهكذا .

وقد أقاموا في بعض الأحيان بيوتاً للأصنام يطوفون حولها ، ويسجدون فيها ، ويبدو أن هذه الأصنام هي من بقايا آلهة الهندوسية في بدائيتها ، وقد بقيت عند العامة وفي عدد قليل من الشعب الهندي .

\*\*\*

## المبحث الخامس

### ملاءمة الواقع العالمي

### للحركة بالإسلام

بالنظر إلى أوضاع العالم قبل مجئ الإسلام كما ظهرت في المباحث السابقة نلمس مدى حاجته إلى دين ، ينقذه من ضلاله ، وهوانه ، وقد تجلت رحمة الله تعالى بالناس فجاء الإسلام بدعوته ، وعمل عمله في العقول والقلوب ، وأخذ في صناعة العالم بمنهج الله تعالى .

ويمكن إجمال أوضاع العالم التي جعلته ملائماً لدعوة الإسلام في النقاط التالية : —

#### أولاً : شيوع الضلال الديني : -

يرحم الله عباده ، ويتزل عليهم كتبه ، ويرسل فيهم رسله ليخرجهم من ظلمات الشرك والكفر ، إلى أنوار الحق والإيمان .  
وجاءت الرسائل تترى ، فكلما احتاج الناس إلى الحق أتاهم رسول من قبل الله تعالى بالهداية والخير .

ودائماً تأتي الرسالة في إحدى الحالات التالية : —

١. أن تكون الرسالة السابقة خاصة بقوم معينين ، وحيثئذ يحتاج غيرهم إلى رسالة أخرى .

٢. وإما أن يتطور أتباع الرسالة فكرياً ، أو اجتماعياً ، مما يجعل الرسالة السابقة فيهم قاصرة بتعاليمها عن ملاءمة التطور الجديد .

٣. وإما أن تختفى معالم الرسالة السابقة ، أو أغلبها لطول الزمن ، مما يجعل أتباعها يعجزون عن معرفتها لتطبيقها .

٤. وإما أن يقوم نفر من الناس بتحريف الرسالة الموجودة لغاية في أنفسهم ، وحيثئذ يحتاج الناس إلى رسالة صحيحة خالية من التحريف .

والناس في كل حالة من الحالات المذكورة عذر في عدم الاتباع ، وتركهم عندهم من رسالة لأنها تكون قاصرة عن الحق ، لا تمثل هدى الله للناس .

فدين إبراهيم " عليه السلام " قبيل ظهور الإسلام لم يبق منه إلا بعض رموز لا شيئاً من الحقيقة ، وقد رأينا كيف امتلأت الكعبة بالأصنام ، وكيف اخترع العرب ألوان الشرك ، وابتدعوا صوراً عديدة للعبادات ، وزعموا أن ذلك من دين إبراهيم " عليه السلام " .

ورأينا أهل الكتاب وقد أدخلوا في دين عيسى " عليه السلام " ما ليس منه ، وحرفوه وبدلوه وشغلوا أنفسهم بالمجادلات ، والمحاورات حول الألوهية ، والمسيح ، ومن ثم بما لا يفيد .

ورأينا ما كان عند الهند ، وفارس من ضلال ، وفساد جعلهم يعبدون النار والحيوان ، وكافة مظاهر الطبيعة المخلوقة .

كل هذا يؤكد الضلال الديني في العالم كله ، ويؤكد حاجة الناس إلى دين ينقذهم من هذا الضياع الذي هم فيه ، وفي رواية سلمان الفارسي عن قصة إسلامه دلالة واضحة على هذا الضلال الذي ساد العالم كله لأنه عايش المجوسية، والنصرانية، واليهودية، في هذا الزمان، قبيل ظهور الإسلام .

يسروري ابن عباس عن سلمان الفارسي أنه قال : ( كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان، من أهل قرية منها يقال لها : (حبي) ، وكان أبي دهقان قريبه ، وكنت أحب خلق الله إليه ، فلم يزل به حبه إياي حتى حبسني في بيت كما تحبس الحارية واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار الذي يوقدها، لا أتركها تحبو ساعة . وكان لأبي ضيعة عظيمة .

شغل في بنيان له يوماً ، فقال لي : يا بني إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم عن ضيعتي فاذهب فاطلع عليها ، ودير شئونها ، وأمرني فيها ببعض ما يريد .

ثم قال لي : لا تختبئ علي ، ولا تغب غيتي ، فإنك إن اختبئت علي كنت أهم من ضيعتي ، وشغلتني عن كل شيء من أمري .

فخرجت أريد ضيعته ، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى ، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون ، وكنت لا أدري سبب حبس أبي إياي في بيته ، فلما مررت بهم وسمعت أصواتهم ، دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون ؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم وقلت : هذا والله خير من الدين الذي نحن عليه ، فوالله ما تركتهم حتى غربت الشمس ، وتركت ضيعة أبي ولم آتها .

فقلت لهم : أين أصل هذا الدين ؟

قالوا : بالشام .

ثم رجعت إلى أبي ، وقد بعث في طلبي ، وقد شغلت عن عمله كله .

فلما جئته قال : أي بني أين كنت ؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت ؟

قلت : يا أبتى مررت بناس يصلون في كنيسة لهم ، فأعجبني ما رأيته من دينهم ، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس .

قال : أي بني ليس في ذلك الدين خير ، دينك ودين آبائك خير منه .

قلت : كلا والله ، إنه لخير من ديننا .

فخافني ، فجعل في رجلي قيداً ، ثم حبسني في بيته .

وبعثت إلى النصارى وقلت لهم : إذا قدم عليكم من الشام تجار من النصارى

فأخبروني بهم ، فأقبل عليهم ركب من الشام تجار من النصارى فأخبروني .

فقلت : إذا قضوا حوائجهم ، وأرادوا الرجعة إلى بلادهم ، فأذنوني بهم .

فلما أرادوا الرجعة إلى بلادهم أخبروني بهم ، فألقيت الحديد من رجلي ، ثم خرجت معهم حتى قدمت الشام .

فلما قدمتها قلت : من أفضل أهل هذا الدين ؟

قالوا : الأسقف في الكنيسة .

فجاءته فقلت : إني قد رغبت في هذا الدين ، وأحببت أن أكون معك أخدمك في كنيسك ، وأتعلم منك ، وأصلي معك .

قال : أدخل ، فدخلت معه ، فكان رجل سوء ، يأمرهم بالصدقة ، ويرغبهم فيها ، فإذا جمعوا له منها شيئاً اكتره لنفسه ، ولم يعطه المساكين ، حتى جمع سبع قلال من ذهب ، وورق ، وأبغضه بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ، ثم مات فاجتمعت إليه النصارى ليدفنوه .

فقلت لهم : إن هذا كان رجل سوء يأمركم بالصدقة ، ويرغبكم فيها ، فإذا جمعتموه له منها أشياء جثثموه بها اكترها لنفسه ، ولم يعط المساكين منها شيئاً .

قالوا : وما علمك بذلك ؟

قلت : أنا أدلكم على كثره .

قالوا : فدلنا عليه .

فأريتهم موضعه فاستخرجوا منه سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً .

فلما رأوها قالوا : والله لا ندفنه أبداً ، فصلبوه ثم رجموه بالحجارة ، ثم حلقوا برجل آخر فجعلوه بمكانه .

يقول سلمان : فما رأيت رجلاً يصلي أفضل منه ، ولا أزهد في الدنيا ولا أرغب في الآخرة ، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه ، فأحببته حباً لم أحبه من قبله ، فأقامت معه زماناً ثم حضرته الوفاة ، فقلت له : يا فلان ، إني كنت معك ، وأحببتك حباً لم أحبه أحداً من قبلك ، وقد حضر بك ما ترى من أمر الله ، فيألي من توصي بي لا وما تأمرني لا .

قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً اليوم على ما كنت عليه ، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل ، وهو فلان ، فهو على ما كنت عليه : فالحق به .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب الموصل ، فقلت له : يا فلان إن فلاناً أو صاني عند موته أن ألحق بك ، وأخبرني أنك على مثل أمره .

فقال : أقم عندي ، فأقمت عنده ، فوجدته خير رجل ( على أمر صاحبه ) ، فلم يلبث أن مات ، فلما حضرته الوفاة ، قلت له : يا فلان ، إن فلاناً أوصاني إليك وقد أمرني باللحوق بك ، وقد حضرك من أمر الله ما ترى ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : أي بني ، والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنا عليه إلا رجلاً بنصيبين ، وهو فلان ، فالحق به .

قال : فلما مات وغيب ، لحقت بصاحب نصيبين ، فبحثته فأخبرته خبري ، وما أمرني به صاحبي .

قال : أقم عندي ، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه ، فأقمت مع خير رجل ، فو الله ما لبث أن نزل به الموت ، فلما حضر قلت : يا فلان ، إن فلاناً كان أوصى بي إلى فلان ، ثم أوصى بي فلان إليك ، فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟ قال : أي بني ، والله ما أعلم أحداً بقى على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية ، فإنه على مثل ما نحن عليه ، فإن أحببت فأته ، فإنه على مثل أمرنا .

فلما مات وغيب لحقت بصاحب عمورية ، فأخبرته خبري .

فقال : أقم عندي ، فأقمت مع رجل على أمر أصحابه وهديبهم ، واكتسبت حتى صارت لي بقرات وغنيمة .

قال : ثم نزل به أمر الله — عز وجل — .

قال : فلما حضر ، قلت له : يا فلان ، إني كنت مع فلان ، وأنه أوصى بي إلى فلان وأوصى بي فلان إلى فلان ، وأوصاني بي فلان إليك فإلى من توصي بي ؟ وما تأمرني ؟

قال : يا بني — والله — ما أعلم أحداً على ما كنا عليه من الناس ، أمرك أن تأتيه ، ولكن قد أظلك زمان نبي ، هو مبعوث بدين إبراهيم ، يخرج بأرض العرب ، مهاجرة

إلى أرض بين حرتين ، بينهما نخل ، به علامات لا تخفى : يأكل الخديعة ، ولا يؤمن  
الصدقة ، بين كتفيه حاتم البوة ، فإذا استطعت أن تدحق بتلك البلاد ، فافعل ( ١ )  
ونلاحظ من القصة ما كان عليه الفرس ، والمصري ، وما كان عليه الخبيث  
من ضلال جعلت سلمان " ﷺ " يترك موطنه ، ودين آبائه ، وينتقل في العديد  
الأماكن باحثاً عن الدين الحق ، حتى وجدته في مبعث المصطفى " ﷺ " .

ومن رحمة الله بالناس أن جاءهم بالإسلام في وقت تلاقت فيه الأفهام  
ونضجت العقول ، وتشابهت في التوجه والتفكير ، حتى صارت البشرية كياناً فكرياً  
واحداً في مصاحبة دين الله الواحد ، الذي جاء مناسباً للناس أجمعين .

وقد ضمن الله دينه من التعاليم ما يجعله صالحاً على الزمن كله لا يقصر .  
غاية للناس إلى يوم القيامة ، وحفظ الله دينه بثبوت الوحي الذي نزل به ، وحسن  
الأسباب الموجبة لهذا الحفظ ، الأمر الذي يؤكد استمرار الإسلام بين الناس كما نزل  
من عند الله تعالى بلا تحريف ، أو غموض .

إن الحقيقة التطبيقية تؤكد كفاية الإسلام للناس وعدم حاجتهم لدين جديد  
وكل ما عليهم أن يعلموا دينهم ، ويعملوا بما جاء به .

## **ثانياً : هوان الإنسان :**

سيطر على العالم قبل ظهور الإسلام وضع سيئ ، ضيع حقوق الإنسان  
وحرمه من حريته ، وكرامته ، وسائر حقوقه .

ففسى كل مجتمع وجد العبيد ، والمبذون ، والضعفاء الذين يعيشون لخدمة  
السادة ، والرؤساء ، لدرجة أن الإنسان الضعيف كان يعد جزءاً من الأرض يملكها

<sup>(١)</sup> رواه أحمد في المسند — الفتح الرباني — باب المناقب — باب ما جاء في سلمان ج ٢٢ ص ٢٦١ ، والحاكم  
مستدركه ، والطبراني في المعجم بنحوه ، يقول الميثمي : رجال هذه الرواية رجال الصحيح ، وقد صرح محمد  
إسحاق بالسماع فأنفقت همه التدليس ، وذكر البخاري في الصحيح أن قصة إسلام سلمان تناولها بضعة من  
سندنا .



غيره كما يملك الحيوان ، والمتاع ، والعقار .. وانقسمت المجتمعات جميعاً إلى طبقات عديدة يتمتع من خلالها فريق الطبقة العليا بكل شيء ، ويحرم الآخرون من أي شيء ، ولذلك انتشرت الأحقاد ، والكراهية بين أبناء الشعب الواحد .

ومن العجيب أن استغلال الإنسان لغيره ، واستعباده لغاياته ، وأمانيه ليس ثوباً دينياً ، فالطبقات العليا في فارس والهند هي آلهة الناس ، وليس على الطبقات الدنيا إلا السمع والطاعة .... وفي الدولة الرومانية بقسميها شغل القياصرة الناس بأمور جدلية حول طبيعة المسيح ، وأمه ، وحول الألوهية ، وصلة المسيح بالله ... ومع كل هذا الجدل كانت طبقة الكنيسة ، تملك كل شيء ، فهي ظل الله في الأرض ، وعليها المحافظة على ما للمسيح من قداسة ، وتقدير .

وكان الولاة في كافة الأقاليم يرهقون الناس بدفع الضرائب ، وتحصيل الإتاوات المختلفة بمساعي كثيرة ، ويجبروهم على ذلك ، وإن كان فيسا يدفعون معاشهم وحياتهم ، وحياة أبنائهم .

وهكذا عاش إنسان هذا الزمان مقهوراً ، مظلوماً ، مستعبداً باسم دين العلية الحاكمة وقد تذكر بعض الصور الأخلاقية الكريمة هنا ، أو هناك ، إلا إنها لا تدل على طبيعة العلاقات الاجتماعية بصورة عامة ، لأنها صور وجدت في حياة الرؤساء والقادة ، والطبقات العليا ، ولم ير العامة منها شيئاً .

وهذا الوضع يفسر سر مسارعة الضعفاء إلى اعتناق الإسلام ، والدخول في دين الله تعالى ، لما رأوا فيه من عقيدة كاملة ، ترضى العقل ، وتشبع النفس ، وتحقق للجميع الحرية ، والمساواة ، في إطار الأخوة الدينية التي تؤكد على أن الناس سواسية لا يفضل أحدهم أخاه إلا بالتقوى ، وجزاء الجميع عند الله تعالى .

### **ثالثاً : سهولة التواصل :**

لم تستمر البشرية على بداوتها الأولى ، ولكنها تقدمت تقدماً هائلاً في المدنية ، والتحضر المادي .

وقد برز ذلك بوضوح في اكتشاف طرق الاتصال العديدة ، التي ربطت العالم كله ، وأصبح التجار يرحلون ببضائعهم إلى كل مكان في المعمورة ، ويرتبطون البحر على اتساعه وعمقه ، وصار شرق أفريقيا ، وبلاد الحبشة ، مرتبطاً بالبحر والجزيرة العربية ، وتمكن تجار مكة من الرحلة بقوافلهم شرقاً ، وغرباً ، وشمالاً ، وجنوباً في يسر وأمان .

ولم تغد المحيطات حاجزاً يمنع من التنقل ، وإنما ساهمت الصناعات العديدة لتحقيق التواصل ، وسهولة الانتقال من مكان إلى مكان .

صحيح أن التواصل لم يكن سلاماً كله ، فلقد نشأت الحروب ، وساءت الأقوياء على الضعفاء ، وتحولت البلاد الصغيرة إلى ولايات تابعة للفرس أو للروم تستغل خيرها ، وتسخر أصحابها لخدمتهم ، ومصالحهم .

ومع ذلك ففي التواصل كسب مادي ، وارتقاء عقلي ، ومعرفة بعادات وفكر الآخرين .

وكثيراً ما انتقلت العادات ، والأفكار ، والمذاهب مع هؤلاء المسافرين . وقد حاول الفسفس ، والأباطرة ، الاستفادة بهذه التطورات المدنية فعملوا المؤتمرات ، والجامع العالمية ، التي كان يحضرها الآلاف منهم ، في كنائس مصر ، في بيت المقدس ، أو في الشام ، أو في أوروبا ، بسهولة وأمان .

وهاجر المسلمون إلى الحبشة وكأنها بلد مجاور لمكة .. وظهر في كل إقليم من يتقن المعرفة بالطرق ، وقبادة القوافل في الرحلة والحركة .

ولما جاء الإسلام ساهمت هذه الخاصية في نشر الدعوة وتبليغها للناس في كل مكان ، حيث تمكن الدعاة من الوصول إلى كل مكان قصدوا التبليغ فيه ، لم يتبع الطريق معروفة لهم ، ومخاطبة أهل البلاد أمر عادي لسابق إحاطتهم بلغتهم وعاداتهم .

وقد ساعد هذا التواصل على سرعة انتقال الأفكار ، والأخبار ، ولذلك كان كل فريق يعرف أخبار الآخرين ، وكانت العقائد، والأديان، والمذاهب الخاصة بجماعة ما معلومة لغيرهم من الناس .

فلما بعث محمد ﷺ انتشر خبره في الجزيرة العربية ، وفي العالم كله ، ولذلك جاءت الوفود إلى مكة لاكتشاف أخبار الدعوة الجديدة ، فلما رأوا موقف أهل مكة انتظروا نتائج صراعهم مع الدعوة ، فلما فتحت مكة دخلت الجزيرة كلها في دين الله تعالى ..

### رابعاً : تعدد الصراع : ■

ساد العالم في هذا الزمان صراع عام ، فلم تخل أمة ، أو منطقة منه ، سواء كان الصراع بين عناصر الأمة الواحدة ، أو بينها وبين غيرها ، وأهم ما تميز به هذا العصر هو تكرار الصراع تكرراً متلاحقاً فمنهزم اليوم ينتصر غداً ، وهكذا دواليك من غير توقف ، وغالباً ما كان الصراع بسبب سياسي ، أو اقتصادي ، أو ديني ، تبعاً لاختلاف البيئات ففي البيئة العربية لم ينشأ صراع بسبب السلطة خاصة بعد أن وزع ( قصي ) الأعمال بين القبائل وجعلها فيهم وراثية ، وإنما كان صراع العرب بسبب الاقتصاد في أكثر الأحيان .

وفي البيئة الرومانية كان سبب الصراع ينحصر في الدين والسياسة .

وفي الفرس والحبشة كان السبب في الدين .

وفي الهند كان السبب في نظام الطبقات المعروف فيهم .

وقد ساد الصراع الداخلي سائر الأمم ، ففي الدولة الرومانية الشرقية قامت ثورات عدة أشهرها ثورة الزرق والخضر أثناء حكم جستنيان سنة ٥٣٢م التي طالبت بإقصاء وزير المالية وإجراء تعديلات كثيرة ، وقد قضى جستنيان على هذه الثورة بإراقة دماء كثيرة وصلت إلى قتل خمسة وثلاثين ألفاً<sup>(١)</sup> .

(١) الإمبراطورية البيزنطية ص ٦٠ - ٦٣ .

وفي الرومانية الغربية نشأت دولة جرمانية ، وقامت ثورات عدة ، وظهرت  
كثيرة من أشهرها في بلاد الغال " فرنسا " حيث ظهر الصراع بين كلوفيس  
وسيجاريوس ، والثورنيجيين ، والبرجنديين ، والأليمان <sup>(١)</sup> وكان هناك صراع  
إيطاليا <sup>(٢)</sup> وبين البربر في شمال أفريقيا <sup>(٣)</sup> .

وبين العرب كانت أيامهم كيوم داحس الذي استمر مدة طويلة ، وكانت  
حرب حاطب ، ويوم يعاث بين الأوس والخزرج وقد استمرت إلى قبيل الإسلام  
وفي فارس كان الصراع مستحكماً بين أفراد البيت الواحد ، بين الأب والابن ،  
ولما ساعد على ازدهار الصراع في الفرس ظهور مذهب " ماني " القائم على  
الشيوعية المطلقة .

ومع الصراع الأقليمي وجد الصراع الدولي بين الفرس والروم ، إذ كانت  
الحرب مستعرة بينهما على الدوام في أطراف الجزيرة العربية جنوباً في اليمن ، و  
بين الغساسنة والمناذرة .

إن الصراع بكافة أشكاله وصوره يؤدي حتماً إلى تغيرات اجتماعية ، كانت  
هذه التغيرات متجهة إلى التقدم ، أو إلى التأخر ، وقد سلم علماء الاجتماع  
بضرورة هذه التغيرات <sup>(٤)</sup> ، إلا أنها تتجه عندهم في النهاية إلى التطور والتقدم  
يقول إيمانول كانت : إن القوة التي تدفع التاريخ إلى التطور هي الصراع ، وهم  
يرى أن التعارض هو أهم مؤثر في العلاقات الإنسانية ، وأن حركة التطور الاجتماعي  
ما هي إلا النماء المستمر للأضداد ثم اندماجها في النهاية لإيجاد مرحلة من التطور

(١) المسلمون والجرمان ص ٣٧ .

(٢) نفس المرجع ص ٣٠ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٥ .

(٤) أصول علم الاجتماع ص ٢٢٠ .

(٥) أصول علم الاجتماع ص ٨٥ .

ومن التغييرات التي يمكن أن تحدث بعد أي صراع ظهور قوى جديدة، وبروز أفراد يقابلون المخاطر بفهم وشجاعة ، كما أن التفتح الذهني يجعل المتصارعين لا يتعصبون لشيء معين ، ويبحثون عن أية قيمة إنسانية تخلصهم من هذا الصراع ، فإن الطبقة المستضعفة تمنى الخلاص والهروب مما هي فيه .

وقد استفادت الدعوة الإسلامية من كل هذا، لأن القوى الجديدة التي ظهرت كانت ركيزة لانطلاق الدعوة ونشرها ، وكان أتباع الدعوة الأول من هذه الفئات الجديدة التي لا تتعصب لموارث قديمة .

وأيضاً فإن الانفتاح الذهني وذوبان التعصب الأعمى، يفيدان الدعوة في كثير فبالذهن الصافي تفهم التعاليم والأفكار ، وذوبان التعصب تتخلص الدعوة من عدو بغض يقف في طريقها .

إن فكرة البحث عن قيمة راقية ، ومخلص للضعفاء ، وجدا في الدعوة بغيتهما ، فكان الضعفاء هم أتباع الدعوة في العرب وفي كل مكان، لأهم بها يتخلصون من مهانة الرق ، وذل الطبقية ، وضعة المنبوذين ، وبها كذلك لا يتجهون بالتعظيم والتقديس إلى شخص ما ، لا ينالهم منه سوى الظلم ، والجور ، والتعالي وإنما يتجهون إلى الله الخالق ، صاحب النعم كلها ، الذي يملك الخلق كله ، ويحيط به علماً ، وإرادة ، وقدرة ، ويوزع رحمته على جميع الناس ، ويأمر في الدعوة بالقيم الراقية ، والسلوك الممتاز ، ويحث على إقامة أخوة صادقة ، ومساواة حقيقية ، وعادل في الكسب والعمل .

إن وضعية الضعفاء تتفق لأول وهلة مع روح الدعوة ومبادئها ، والمتصارعون يجدون بغيتهم في الدعوة ، لأنها تقدم سبب صراعهم ، وتؤاخي بينهم بالحسنى، وتعودهم على الألفة والخير .

إن صراعات هذا الزمن تميزت عن كل ما سبقها بالشمول، والعمق، حيث انتشرت في العالم كله، بشكل مستمر، ومتجدد ، كما أنها لامست سائر حياة الناس

وعاشت في نفوسهم وأحلامهم ، ولذلك كانت نهايتها أمنية صادقة على مستوى هذا التسمول ، وهذا العمق ، فلما جاءت الدعوة الإسلامية هادفة إلى تغيير جذري في المجتمع ، وإزالة الصراخ والآلام من حياة الناس ، وتحرير العبيد ، والمنبوذين والأجراء من وضعهم البائس ، ووضعهم في الإطار النظيف الذي وضعته للناس أجمعين كما فيه من كرامة ، وحرية ، ومساواة : لما جاءت هكذا آمن بها الجميع وانتشرت بسرعة عجيبة قوية .

### خامساً : النضج الفكري :

شاهد القرن السادس الميلادي تطوراً عقلياً في كل أرجاء المعمورة بشكل لم يعهده الناس من قبل حتى كأن البشر قد ترقوا من طفولتهم الذهنية ، إلى مرحلة بلغ فيها الإنسان أشده ، كما يقول الشيخ / محمد عبيد<sup>(١)</sup> ولعل المراد من النضج العقلي المذكور هو وصول الإنسان إلى التفكير التكلي ، المنظم ، الذي يستنتج من الحسوس ومن القضايا العقلية أشياء أخرى غيرها ، وينظر للحياة نظرة فيها الرضى القائم على التحليل ، والدقة ، أو السخوط المعتمد على الدليل والمناقشة ، ويحاول دائماً السمو إلى العلا والتقدم .

إن طفولة الإنسان كانت تقوم على الحسوس فقط ، تنبهر بالعجائب وتندهش بالظواهر الخارقة كعندها مع الرسائل السابقة : لأن الخوارق إليهم كانت حسية ، وكانوا يؤمنون بعدها خائفين ومندهشين ، كما حدث لما أحيا المسيح شأيا في مدينة " نازين " فقد أخذ الجميع خوفاً وعبادوا الله قائلين : قد قام فينا نبي عظيم واقتقد الله شعبه<sup>(٢)</sup> .

ولقد كان عصر الدعوة الإسلامية يوافق عصر نضج عقلي واضح ، ساد العالم كله ، وقد أجلي هذا الواقع في نقد ظهر في كل مكان ، متجهاً إلى العقيدة

(١) رسالة التوحيد ص ١٥٥ .

(٢) انجيل لوقا — الأصحاح السابع فترات ١٤ — ١٦ .

الدينية ، وأوهامها ، ولم يجد العلماء مشقة أمام الخوض فيما كان ممنوعاً من قبل باسم الحق المقدس لرجال الدين ، وعقائدهم على اختلاف أئمتهم وأديانهم .

ففى العالم المسيحى الواسع بدأت الأصوات ترتفع ضد أوضاع لا تتفق مع الطبيعة العقلية، من أمثال المناداة بألوهية المسيح ، وتركبه من طبيعتين، مع إصرار هذه الأصوات على مذهب الفطرة القائل بيشرية المسيح ، وتكونه من طبيعة إنسانية واحدة ؛ وقد اختاره الله ليكون رسولاً نبياً، من قبل الإله الواحد، وأحاطه بالحواريين الذى لا توجد مع الناس دفعاً إلى تصديقه في دعواه ، وما دفعهم إلى هذا الرأى إلا عقلهم الذى أبى التصديق بما هو وهم وخيال ، ولأن تصور أصحاب مذهب الطبيعتين تصور بنهار أمام النظرة الفاحصة ، وقد حدثت لهذه المعارضات أحداث خطيرة في كل العالم المسيحى انعقدت لها مجامع عدة، على النحو الذى سبق ذكره .

ولم يكن المنادون بمذهب التوحيد عدداً قليلاً ، يقول ان البطريق ( إن الذئب ليس على " أريوس " ، وهو رأس المنادين بالتوحيد — بل على فئات أخرى سبقته فأخذ هو عنها ، ولكن تأثير تلك الفئات لم يكن شديداً كما كان تأثير " أريوس " الذى جعل الكثيرين يتكبرون سر الألوهية، حتى انتشر هذا الرأى وعم )<sup>(١)</sup> ، وهذا دليل على نضج عقلى وجد بين المسيحيين، جعلهم يحاولون إصلاح معتقدهم .

ومن الملاحظ أن المسيحيين الذين عارضوا الإصلاح احتموا أيضاً بعقلهم وحاولوا التدليل على صدق معتقدهم بأدلة جدلية في صورة تشبيه عقلى ، وهذه إن دلت فإنها تدل على تقدم ذهنى، وفهم إدراكى، فيه نوع من التجريد، والعقل ، يقول الشهرستانى — عنهم : ( ولهم في كيفية الاتحاد والتجسد كلام ، فمنهم من قال : أشرق على الجسد إشراق النور على الجسم المشف ، ومنهم من قال انطبع فيه الطباع النقش في الشمع ، ومنهم من قال : ظهر به ظهور الروحاني بالجسماني ،

(١) محاضرات في النصرانية ص ١٢٢ .

ومنهم من قال : تدرع اللاهوت بالناسوت . ومنهم من قال : مازجت الكلمة  
جسد المسيح ممازجة اللبن الماء ، والماء اللبن ( ١٠١ ) .

فهذه الأدلة مع ما فيها تدل على تقدم فكري معين ، ويكشف أنها من سائر  
التعصب للمسيح حتى الذين آمنوا بالوهمية المسيح ، وحاولوا جعل هذه الأوثان  
مستساغة أمام العقل ، فأثروا هذه التشبيهات ليتربوا فكرة الاتحاد الأوثانية مع الإله  
ولو تركنا عالم المسيحية إلى غيرهم لوجدنا أن اليهود قد أبدوا ثورة البركة  
على التلمذوية في بعض تعاليمها ، وحاولتها تبسيط العقائد ، والاهتمام بالإنسان  
والعودة إلى الطبيعة ، كما إن اليهود قبل شن الدعوة الإسلامية كانوا يشبهون الرب  
من الآلهة ، ويختصونه باسم ( رب الأرباب ) و ( إله الآلهة ) ( ١٠٢ ) وهذا نوع من التوحيد  
لم يعهده اليهود من قبل ، فلقد كانوا دائماً يعددون الآلهة ، ويقسمون كثيراً من أسلافهم  
الطبيعية ، بلا النعمات إلى حقيقتها ، أو فهم معنى عبادتهم لها ، إلا أنهم في تلك الحقبة  
بسبب الضيق شككوا عن تعطى الردة العقائدية والقرب من توحيد الآلهة .

وفي الجزيرة العربية وعلى الرغم من نصص القوم في تقليد الأسماء ، ومنظم  
الحجر ، فإن المنهج الذي اتسم به العصر بدأ يظهر في العرب ، إذ اتجهوا بعمق إلى  
حياتهم يستظرون فيها ، ويضعون لها نظاماً يكفل الأمن والسلام ، ويقلل الصراع  
والشروع ، ولذلك نظموا نشاطهم خلال السنة وأحاطوا بفصلها ، ونظموا التجارة  
على وفق هذه الفصول ، وأقاموا أسواقاً تدور مع أيام السنة ، وفي جميع أنحاء  
الجزيرة ، وحتى يزدقوا أكبر فائدة من هذه الأسواق جعلوها مكاناً للمكسب الذاتي ،  
وتقوية للشعور القومي ، وللتسابق اللغوي والأدبي ، وكانها مؤتمرات ، فهذا هو مدع  
وظهرت دقة تنظيم هذه الأسواق في اختيار الأمكنة والأزمنة . فمن الأمكنة  
ورعوا في ملتقى جميع أبناء الجزيرة ، وعن الأزمنة جعلوها في الأشهر الحرم .

( ١٠١ ) الملل والنحل ج ١ ص ٢٠١ .

( ١٠٢ ) ملاحم الهند والباكستان ص ١٤٣ .



الدقة ضمنوا لأنفسهم الحركة الآمنة، والقول الجريء، والنقد الحر، وكل هذه أسباب تجعل العقل ينمو باطراد ، وخصوا الأسواق الهامة بشهرى ذى القعدة وذى الحجة إذ جعلوا سوق " عكاظ " في أول شهر ذى القعدة، و " المجنة " في آخره، وذى الحجاز وعرفه في شهر ذى الحجة <sup>(١)</sup> ربطاً للدنيا بالدين، إذ يقدم الحجاج في هذا الوقت من كل صوب قاصدين مكة، والكعبة، فيعيشون هذه الأسواق، ويكتسبون مع شعورهم الديني بعض معاشهم .

ولعل أوضح مظاهر النضج العقلي عند العرب ظاهرة الخفاء، الذين أخذوا يحللون بعمق وفهم فساد ما عليه الناس، ويبينون الحاجة إلى دين يعرف باخلاق ، ويكشفون الطريق إليه، مدللين على اتجاههم بما وقعت عليه حواسهم من مهاد موضوع ، وسقف مرفوع ، وبخوم ثور ، وبحار لن تغور ، وليل داج ، ونهار ساج ، وقد وصلت هذه الجماعة برجاسة عقلها إلى بعض شريعة إبراهيم " عليه السلام " .

وفي الحق لقد وصل النضج الفكري إلى مستوى ممتاز ، ناسب ظهور الدعوة الخاتمة بمعجزتها التي جعلها الله تعالى في قرآنه الكريم، الذي نزل للناس، يؤمن بالكلمة ويخاطب العقول ، ويهتم بالمعاني والأفكار ، وينقل الإنسان من عالم الخس إلى عالم الغيب، والإيمان به ، مع اشتماله على وسائل تتعدد أمام الفكر ، تؤكد وتجادل ، وتقرب وتيسر ، قاصدة الإقناع العقلي ، واليقين النفسي ، والثبات مع الروح والوجدان، أكثر من ثباتها مع الانفعالات والأحاسيس .

يقول الشيخ/رشيد رضا: إن الله جعل نبوة محمد ورسائله قائمة على قواعد العلم، والعقل في ثبوتها، وفي موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون بها في سن الرشد والاستقلال النوعي، الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر منهم أمور مخالفة للنظام الكوني، وإنما جعل الله تعالى حجة نبيه كتابه المعجز للبشر، بهدايته

(١) أخبار مكة ج ١ ص ١٢١، ١٢٢ بصرف .

وعلموه ، وبإعجازه اللفظي والمعنوي ، ليرى البشر على الترقى في هذا الاستقلال إلى ما هم مستعدون له من الكمال <sup>(١)</sup> .

وقد جعل الله معجزة الإسلام هكذا لتتلاءم مع طبيعة البشر العقلية ، ودائمًا يجعل الله المعجزة من جنس ما تفوق فيه البشر الذين تأتيهم هذه المعجزة، حتى يتمكنوا من تبيان صدق الرسول في دعواه ، وينظروا إلى ما جاءهم به ، ويعلموا أنه وحى من الله ، ودليلهم المعجزة التي يعرفونها يقيناً، حيث تفوقوا في جميع أنواعها كما ظهرت لهم .

إن معجزة موسى " **الْقَلَمُ** " في قوم اشتهروا بالسحر كانت قلب العصا ثعباناً، وإخراج اليد بيضاء من تحت الجحاح ، ومعجزة عيسى " **الْقَلَمُ** " إلى قوم اشتهروا بالطب هي إحياء الموتى وإبراء الكمّة والأبرص ، فكان لزاماً أن تأتي معجزة الإسلام على هذه السنة ، ما دام العالم كله على وجه العموم في موجة رشيدة من النضج الفكري .

وكان العرب على الخصوص أكثر اهتماماً بصناعة اللسان، وعلوم البلاغة والفصاحة <sup>(٢)</sup> ولهذا كانت المعجزة هي القرآن الكريم مناسبة لهذا النضج، ومراعاة للبلاغة والفصاحة، ليؤمن العرب سراعاً بها وينطلقوا حاملين الدعوة إلى كل العالم مقدرين نضجه الذي ساعد على أن تكون الرسالة عامة وخاتمة .

ومع ما في القرآن الكريم من إعجاز لغوي ناسب العرب الذي نزل بلغتهم فإنه يشتمل على وجوه عدة للإعجاز تناسب كافة الأمم لأن الرسول بعث للعالم كله ، ففى القرآن من وجوه الأعجاز الكثير منها : —

— الإعجاز التاريخي بما فيه من بيان لتاريخ السابقين وآثارهم ، وملهم ، وخلهم ليناسب أهل الحضارات ، المهتمين بالتاريخ .

<sup>(١)</sup> الرحي المحمدي ص ٦١ .

<sup>(٢)</sup> توضيح العقائد ص ١٧٢ .

- الإعجاز العلى ، مثل إيراد بعض الإشارات عن الحديد ، وألوان الصناعات .
- الإعجاز الفلكى ، مثل الحديث عن الشمس والقمر والليل والنهار .
- الإعجاز البيئى ، مثل الحديث عن الزراعة ، والحيوان ، والنهر ، والبحر .
- الإعجاز الطبى .
- الإعجاز النفسى والاجتماعى .

### **سادساً : انتظار رسول جديد : -**

كان للنضج الذى ساد العالم، وكثرة الصراع، وتنوعه، وسهولة الاتصال ، وتلاقى الأفكار قبيل مجئ الدعوة الإسلامية أن ظهرت موجة من النقد للعقائد يومذاك.

إن النقد على العموم ظاهرة تدل على عدم اكتمال الثقة في العقائد التى يتوجه النقد إليها ، ومن هنا صاحب عملية النقد شعور بقرب ظهور نبي من العرب يصلح فساد هذا العالم ، ويضع الحقيقة الفاصلة في مسألة العقيدة، والسلوك، وكل ما يعتقد به الناس في الأصنام، ويطلبونه منها .

وقد وصل هذا الشعور إلى حد الاحتمال المؤكد لدرجة أن اليهود في المدينة "يثرب" كانوا ينتظرون هذا النبي على وجه اليقين، وكثيراً ما ذكروا لجيرانهم من الأوس والخزرج أنهم سيتبعون هذا النبي " ﷺ " فور ظهوره ليتمكنوا به من سيادة العالم وتملك الناس ، وقتل الأوس والخزرج قتل عاد وإرم، والقرآن الكريم يقص ما كان منهم في هذا الشأن بقوله تعالى: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا حَكَرُوا بِهِمْ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ (١)

فهم كانوا يعرفون معية النبي ﷺ ، ويعلمون أن زمانه قد حان، فعن محمد بن إسحاق عن عاصم بن قتادة عن أبيه أنه أخبره أن اليهود في المدينة كانت تقول للأوس والخزرج: قد أظن زمان بني يثرب يخرج بتصديق ما قلنا فنقتلكم معه قتل عاد وإرم <sup>(١)</sup> يقول ابن عباس إن اليهود في المدينة كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ " فيل مبعثه " <sup>(٢)</sup> .

ورأى اليهود أنه فيمته عند حيرتهم قبل البعثة ، لأنه قد اشتهر عنهم معارفهم ببعض أسرار الوحي ، وعلاماته ، فلقد روي أن مشركي مكة لما بعث محمد ﷺ فيهم أرسلوا وفداً منهم، يسأل اليهود عن رأيهم في هذا الرسول الذي أتاهم، ودعاهم بدعوته، وكان الوفد مكوناً من النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي معوية <sup>(٣)</sup> ولم يكن هذه المعرفة خاصة بيهود المدينة وحدهم، فلقد انتشر خبرها في أماكن كثيرة، وصلت إلى أقصى الشمال، لدرجة أن سلمان الفارسي حينما أراد أن يترك الخوئية ويبحث عن الدين الحق ، قال له كاهن عمورية : إنه قد أظن زمان نبي، وهو معوت بن إبراهيم ﷺ " يخرج بأرض العرب، مهاجرة إلى أرض بين حرتين، بينهما نخل، وبه علامات لا نخفي، يأكل الخديعة، ولا يأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة <sup>(٤)</sup> " وليس ذلك بكثير على علماء اليهود والنصارى لأنهم : " سجدوا له مكتوباً عندهم " <sup>(٥)</sup>

### في التوراة والإنجيل <sup>(٦)</sup>

جاء في تفسير ابن كثير هذه الآية أن صفة النبي محمد ﷺ " وسجدت في التوراة والإنجيل ، ولم تزل مسلماته موجودة يعرفها العلماء والأخبار <sup>(٧)</sup> من أهل الكتاب " <sup>(٨)</sup>

<sup>(١)</sup> الكتاب ١ ج ١ ص ٢٩٦ .

<sup>(٢)</sup> تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢١٣ حاشي فتح البيان .

<sup>(٣)</sup> سورة النبي ﷺ " ج ١ ص ٣٢٠ .

<sup>(٤)</sup> نفس المرحوم ج ١ ص ٢٣٧ .

<sup>(٥)</sup> سورة الأعراف، من آية ( ١٥٧ ) .

<sup>(٦)</sup> تفسير ابن كثير ج ١ ص ٢٤٨ حاشي فتح البيان .

وكما وصل خبر ظهور نبي إلى أقصى الشمال وصل كذلك إلى أقصى الجنوب ، فلقد روى الأزرقى أنه لما ذهبت القبائل العربية لتهنئة حمير أفضى سيف بن ذى يزن لعبد المطلب بما علمه من كتبه ، من أن نبياً سوف يظهر في العرب يضمن الرعامة لقريش إلى يوم القيامة <sup>(١)</sup> .

وهكذا ظهرت ملامح النبوة المحمدية في عقول الناس ، وفي كثير من الأماكن وهذه الملامح في حد ذاتها تمهد للدعوة ، وتدعو إلى استماعها بشوق ، خاصة وقد وقعت أحداث كثيرة ، جعلت الناس يرجون التغيير على يد هذا الرسول المنتظر الذي كاد أن يلمس في طفولته ، لوضوح صفته في الكتب السابقة ، بل أن يحيرى الراهب عرفة وهو صغير ، يروي ابن هشام قاصداً ما حدث من يحيرى فيذكر أنه أعد طعاماً لقافلة قريش ، وفيها أبو طالب ، ومحمد ( وهو صغير ) ودعاهم فحضروا جميعاً إلا محمداً ، لصغر سنه ، لكن يحيرى أصر على حضوره ، فلما حضر أخذ يسأله عن أشياء كثيرة ، وأخيراً قال لعمه أبي طالب : إرجع بابن أخيك إلى بلده ، وأحذر عليه يهود فو الله لئن رأوه ، وعرفوا منه ما عرفت ليبغته شراً ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم فأسرع به إلى بلاده <sup>(٢)</sup> ، ولا غرابة في تحديد يحيرى للنبي " ﷺ " في طفولته لأنه ممن يعرف صفته الموجودة في التوراة والإنجيل .

إن عديداً من الرهبان في أديرتهم ، والقسس في كنائسهم كانوا يدركون هذه الحقيقة ، ويتحدثون بها لمن يمر بهم ، وفي مكة نفسها كان كعب بن لؤى بن غالب يذكر بالنبوة ويشر بها أهل مكة ويقول لهم : ( زينوا حرمكم وعظموه فسيأتى له نبأ عظيم وسيخرج منه نبي كريم ) <sup>(٣)</sup> .

إن تجمع انتظار رسول جديد ، مع موجة النقد السائدة ضد العقائد ، والمذاهب على يد الخلفاء ، وأتباع أريوس " والبوذية " ، مع وجود الصراع ، والتنافس

<sup>(١)</sup> أخبار مكة ج ١ ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ .

<sup>(٢)</sup> بلوغ الأرب ج ١ ص ٢٧١ .

<sup>(٣)</sup> سيرة النبي ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٦ بتصرف .

وسد رعدة الحركة والاتصال ، أدى فائدة عظيمة للدعوة الإسلامية ساعدت على انتشارها ، وما لاحظناه من معارضة للدعوة بعد ظهورها فمباشرة الدعوة ، ومما لاحظناه المحافظة على القدم الموروث ، وبقايا صراعات قبلية قديمة كما حدث من الأمويين فيهم تأخروا عن الدخول في الإسلام بسبب كون النبي من بني هاشم ، للدرجة أن ابن سفيان الأموي حمل المعارضة للنبي في مكة بلا سبب غير التنافس بين الهاشميين والأمويين ، وكانت " أم حميلة بنت حارث زوجة أبي ذب تحمل الحطب ، وتضعه أمام بيت النبي " ﷺ " وفي طريقه ، وكانت تقول عنه " ﷺ " :

مذمماً عصينا وأمره أبينا ودينه قبيحاً (١)

كانت مدفوعة بالعصية بسبب كونها أختاً لأبي سفيان الأموي (٢) فدفعها التعصب إلى هذه الحملة على رسول الله " ﷺ " وما المانع إذاً أن يكون موقف زوجها أياً ذهب عم النبي " ﷺ " من تأثيرها فيه .

وكذلك فإن أصحاب المصلحة في مكة عارضوا الدعوة حفاظاً على وضعهم

## لكن ...

وهل تعدى الخيل الإنسانية أمام الإرادة الإلهية التي قدرت ظهور الدعوة واختارت لها هذا الزمان الذي تميز بالصرع ، والنضج ، وانتشار الرسالة لكي تنتشر الدعوة وتظهر على الأدبان كلها بقدرة الله وعلى سنن البشر .

وهل تمحو الخيل الشيطانية من واقع الحياة ، وأفكار الناس ما قدره الله من كافة الشئون ، والأحوال ، والأعمال .

إن قدر الله غالب ، وقضاه نافذ ، وإرادته شاءت أن يحيى الدعوة إلى الله تعالى في هذا الزمان مما فيه من خصائص وصفات .

(١) سورة مائدة ، ص ٢٧٩ .

(٢) السيرة النبوية ، ص ٢٦١ .

**الفصل الثانى**  
**السيرة النبوية**  
**( التعريف بالرسول )**

” ﷺ ”

**من الميلاد حتى الهجرة**







يوم طلب كفار مكة ذلك قال الله تعالى عنهم : ﴿ أَهْمَرُوا قُلُوبَكُمْ لِرَبِّكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (١) .  
 رَبِّكَ ﴿ كَحَنٍّ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ فِي دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُلَخِيًّا ۖ وَرَحِمْتَ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَحْكُمُونَ ﴾ (٢) .  
 وبذلك أبطل الله أوهامات هؤلاء القوم وأمناتهم ، ووضح لهم أن الرسالة والسورة لا يكونان لمن شاءه الناس ، وإنما لمن أراد الله ، واختاره ، ولا دخل لبشر في هذا الاختيار .  
 وبين سبحانه في هذه الآية أيضاً أن أوضاع الناس المعيشية قسمة إلهية ، وفق إرادة الله ، وقدرته ، لأسباب لا يعلمها إلا هو سبحانه وتعالى ، وليس لها علاقة بالعظمة ، أو بالحقارة ، وليست شاحداً بحدود العمل ، وعلى الناس أن يعلموا أن الله خير ما يعطاه إنسان في الدنيا ، بل هي أعظم من كل الخير إذا احتسب ، فإذا ما أتاه من إنسان فإنه يعظم ، ويعلو باختيار الله إياه ، وقد اختار الله لرسالته الخلق العالمين ، سبحانه ﴿ وَهُوَ سُبْحَانَهُ ۚ ﴿ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ۚ ﴾ (٣) والذائق فستدركون .  
 — «إلى ربِّكَ تَخَلَّقُوا بِمِثْلِ مَا يَخْلُقُ ۖ وَمَا يَخْتَارُ ۚ مَا كَانَ لَهُمْ لَئِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْجِعُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ أَنْ يَقُولُوا رَبِّكَ تَخَلَّقَ بِمِثْلِ مَا يَخْلُقُ ۖ وَمَا يَخْتَارُ ۚ ﴾ (٤) .  
 سبحانه ﴿ اللَّهُ يَصْطَلِفِي مِنْ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ ﴾ (٥) وعلى ذلك ﴿ إِنَّهُ سُبْحَانَهُ ۚ أَعْلَمُ الْعَرَبِ قَابِلَةً ۚ وَأَعْلَمُ الْبَشَرِ أَجْمَعِينَ ۚ ﴾ (٦) .

وإن مؤلفين بأن حكمة الله في اختيار رسوله محمد " ﷺ " للرسالة لا يمكن لبشر أن يدركها إدراكاً كلياً ، وأرى في نفس الوقت أن في منظور البشر أن يفهموا شيئاً من هذه الحكمة ، وخاصة بعد انكشاف شيء من أسرارها خلال الرسالة بالرسالة ، والإسلام .

(١) سورة الفرقان آية ( ٢٢ ) .

(٢) سورة الأنعام آية ( ١٦٤ ) .

(٣) سورة القصص آية ( ٦٨ ) .

(٤) سورة الحج آية ( ٦٥ ) .

إن الخصائص التي تميز بها رسول الله محمد ﷺ ، وظهرت خلال قيامه بالدعوة العديدة ، وشاملة لكافة جوانب شخصيته ، ومتأصلة في أصوله وجذوره ، وملازمة له في تربيته ونشأته ، وملموسة في سائر أعماله ، وأقواله ، وأمانته ، وسلوكه مع نفسه ، ومع أسرته ، ومع الناس أجمعين .

ولولا أن الرسالة والنبوة اصطفاة وإحسان من الله لقلنا : إن محمداً ﷺ " اكتسبها بخصائصه ، وناخها بأعماله وجهاده ، لكن جمهور علماء المسلمين — ونحن معهم — يسمعون على أن الرسالة لا تكتسب ، وإنما يخلق الله الناس ، ويختار منهم رسوله ، ويهبه من لدنه استعداداً خاصاً ، يجعله أهلاً لهذا الاختيار ، قادراً على تحمل أمانة التبليغ والدعوة .

والاختيار بهذه الكيفية رحمة من الله بالناس ، إذ به جرت الأمور بين الخلق على وفق سننه في الكون ، فلم يفاجئهم بشخص سيئ ، ولم يدعهم إلى أمر شاذ لا يتصور ، ولا يعقل .

ومتابعة خصائص الشخصية المحمدية تبدأ من الأصول والجذور ، ترى كيف أودع الله فيه ما يجعلنا تؤمن بحكمة الله في هذا الاختيار ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ أَكْبَرُ حَيْثُ تَجَعَلُ رِسَالَتُهُ﴾<sup>(١)</sup> وفي هذا الفصل سأتناول الحديث عن سيرته " ﷺ " من مولده ، ومروره ، ونشأته ، وزواجه ، ومعته ، وتكريم الله له ، ومعونته إياه ، في مباحث متتابعة حين نصل إلى الهجرة إلى المدينة المنورة لنهاية المرحلة المكية .

وسوف أعتمد بإذن الله تعالى على ما رواه المؤرخون ، وعلماء السير ، وبخاصة ما صح منها .

وسوف تكون الأحداث ممثلة لتسيرة النبوة بكاملها في عدد من المباحث وذلك فيما يلي ..

<sup>(١)</sup> سورة الأعراف آية ( ١٢٤ ) .

## المبحث الأول

### النسب الشريف

رسول الله " ﷺ " هو محمد ، بن عبد الله ، بن عبد المطلب ، من آلهم  
ابن عبد مناف ، بن قصي ، بن كلاب .

وأم رسول الله " ﷺ " هي أمة بنت وهب ، بن عبد مناف ، بن زهرة ، بن  
نسيب أبيه وأمه " ﷺ " يلتقيان في كلاب ..

وكلاب هو ابن مرة ، بن كعب ، بن لؤي ، بن غالب ، بن فهر ، بن مالك  
ابن مضر ، بن كنانة ، بن خزيمية ، بن مدركة ، بن إلياس ، بن مضر ، بن نزل ، بن  
مضر ، بن عدنان .

ونسبه " ﷺ " من جهة أبيه ، ومن جهة أمه يجمع عليه ابن عدنان ، وبما توفي  
ذلك فمختلف فيه ، والكل يجمع على أنه " ﷺ " من ولد إسماعيل بن إبراهيم " عليهم  
السلام " .

ونسبه " ﷺ " كريم ، جامع لسائر أسباب الفضل والرفعة .

فأبوه " عبد الله " أصغر أبناء عبد المطلب وأقربهم إلى قلبه ، يكنى بأبي القيس  
وأبي محمد ، وأبي أحمد ، ويلقب بالذبيح .

وسبب هذا اللقب أن عدى بن نوفل بن عبد مناف ، والد المطلع قال لبيته :  
يا عبد المطلب أمتطيل عليا وأنت فد لا ولد لك ؟ ....

فقال عبد المطلب : أبا لقلة تعيرني ؟ فوالله لئن ألقى الله عشرة من الولد ذكورا  
لأنحون أحدهم عند الكعبة <sup>(١)</sup> .

فلما توافى بنوه عشرة ، وعرف أنهم سيمنعون له ، جمعهم ثم أخبرهم بشيء  
ودعاهم إلى الوفاء لله بذلك ، فأطاعوه وقالوا : أوف بتذكرك ، وافعل ما شئت

وهم : ليأخذ كل رجل منكم قدحاً ، ثم يكتب فيه اسمه ، ثم اتوني ففعلوا .

هــ عبد المطلب لصاحب القداح ، اضرب على بنى هؤلاء بقداحهم هذه ،  
 رحورد بنزرة الذى نذر ، وأعطاه كل رجل منهم قدحه الذى فيه اسمه ، فخرج  
 إليهم على عبد الله . فأتاه عبد المطلب بيده رحد الشفرة ليذبحه ، فقامت إليه  
 فربش من أنديتها وقالوا : والله لا تذبحه أبداً حتى تعذر فيه ، فإن كان فداؤه  
 موك فدد : فذهبوا إلى عرافة خير فقلت لهم : كم الدية فيكم ؟

فلوا : عشرة من الإبل .

قلت : فارجعوا إلى بلادكم ، ثم قربوا صاحبكم ، وقربوا عشراً من الإبل  
 ثم عسروا عليه وعليها بالقداح ، فإن خرجت على صاحبكم فربدوا من الإبل  
 متى يوصى بكم ، وإن خرجت على الإبل فاعمرزها عنه فقد رضى بكم ، ونجا  
 مدحكم ففعلوا ذلك حتى بلغت الإبل مائة .

فقلت فربش : قد انتهى رضا ربك يا عبد المطلب .

فقال عبد المطلب : لا والله حتى أصرب عليها ثلاث مرات ، فضربوا  
 من عبد الله وعلى الإبل ، وقام عبد المطلب يدعو الله فخرج القدح على الإبل ،  
 وندرا الشابة والذاتة . وعبد المطلب قائم يدعو الله فخرج القدح في كليهما  
 من زائل فبحرت ثم تركت لا يصد عنها إنسان ، ولا يمنع<sup>(١)</sup> .

وكان من كثر سنده أن أعرباً قال نسي " يهز " : يا ابن الذبيحين ، فتبسم

منه . و ما سكر عليه ... ففنى معاوية : من الذبيحان ؟

من الذبيحان معاوية ؟

عبد الله بالعبادة والعلية ، وحسن الخلق ، وروا أن خاضعة كغيره من  
خاطمة ذات من الخلعة من دعا عبد المطلب ، وسماه ابنه عبد الله يريد أن يعالجه امر  
بست وحسن هراكت نور النبوة في وجه عبد الله ، فقالت : هل لك أن تصلي وتقرأ  
مائة من الإبل ، فمعه الله تعالى من إجلالها وقال لها :

أما الخوام فالأموات دونهم

فكفرت بالأمر الذي تضيفه

فعلما تزوجت أمية عبد الله ، وحملت زورا ، فقال لها من عهدهم

علي الكاهنة مرة أخرى ، وقال لها : هل أنت فيما ظلمت ؟  
فبظرت إليه ، ولم تر ذلك النور في وجهه فقالت له : قد رأيت ذلك النور في وجهه  
اليوم لا ، ماذا صنعت ؟

فقال : ( وحيي إلى أمية بنت وهب الزهوية )

فقالت : قد أخذت النور الذي كان في وجهك وأضمت قروا

الآن قد ضيعت ما كان ظاهرا

غدوت علي خائبا فبذلك

ولا تحسب اليوم أمرا وليتي

وذاخلها الأسف علي ما فاتها ، والحسرة علي ما تولى غيرها

وكسبان عبد الله بأول بانيه ، مطيها له ، يروي ابن إسحاق أن عبد الله بن عبد الله

صبيح أبيه بحسد الذبح هو علي امرأة من بني أسد ، وهي أمة عبد الله بن عبد الله

فبظرت إلى وجهه ، وقالت له : أين تذهب يا عبد الله ؟

قال لها : معي إلى

قالت له : لك مثل الإبل التي تجرت عنك ، وقع علي فكسرت

قال لها : أنا مع أبي ، ولا أستطيع خلافه ، ولا فراقه <sup>(١)</sup> .

فأخذه أبوه عبد المطلب ، وذهب به إلى وهب بن عبد مناف وزوجه ابنته آمنة بنت وهب ، وهي يومئذ أفضل نساء قريش نسباً وموضعاً ، .  
ورسول الله هو الابن الوحيد لعبد الله وآمنة ، وقد مات أبوه قبل مولده ، وماتت أمه وهو ابن ست سنوات .

**وعبد المطلب** ، والد عبد الله اسمه شيبة الحمد ، واشتهر بعبد المطلب ، لأن عمه المطلب أحضره من المدينة ، حيث نشأ عند أخواله ، فلما سأله أهل مكة : من هذا ؟

قال لهم : هذا عبيدي ، فثبت معه اسمه هذا ، وترك شيبة .  
وكان عبد المطلب شديد الوفاء بوعده ، وقد رأينا ما فعل مع نذره بذبح أحد أبنائه ، إذا بلغوا عشرة .

ومن وفائه أنه أجاز يهودياً يدعى " أذينة " فتأمر حرب بن أمية على قتله ، وقتله ، فلم يزل عبد المطلب يسعى في دمه حتى أخذ ديته ، وسلمها لأهله <sup>(٢)</sup> .  
وهو شيخ مكة ، وزعيمها يوم قدوم أبرهة ..

وكان عبد المطلب جسيماً أبيض ، وسيماً " طوالاً ، فصيحاً ، ما رآه أحد قط إلا قدره ، وقد صارت إليه السقاية والرفادة ، وشرف في قومه ، وعظم شأنه ، وكان يعرف فيه قوة الحق ، وهيبة الملك .

ومكارمه أكثر من أن تحصى ، فإنه كان سيد قريش غير مدافع نفساً ، وأباً ، وبنياً ، وجمالاً ، وبهاء ، وفعالاً .

وكان ممن حرم الخمر في الجاهلية ، وأول من جعل دية القتل مائة من الإبل بعد فداء عبد الله .. .

<sup>(١)</sup> مسيرة النبي " ﷺ " ج ١ ص .

<sup>(٢)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٠ .

وقد أقام لأهل مكة ما كان يقيمه أبائهم ، فشرف فيها شرفاً لم يشرف عليه قبله ، وأحبه قومه ، وعظم خطره فيهم .

ومن أهم ما وقع لعبد المطلب من أمور البيت شيخان : —

**الأول :** حضر بئر زمزم بعدما أمر به في المنام ، ووصف له موضعها ، وكانت السقاية معه ، ولما حاولت قريش منازعته في زمزم ، والسقاية ، أراهم الله عليهم على تخصيص عبد المطلب بـ " زمزم " (١) .

**الثاني :** لما قدم أبرهة بجيشه يريد هدم الكعبة تخافت قريش ، وتفرقوا في الشعاب ، وتركوا إبلها وغنمها ، فاستولى عليها أبرهة ، فذهب إليه عبد المطلب واستقبله أبرهة وسأله : ماذا جاء بك ؟

قال عبد المطلب : جئت أسألك الإبل والغنم .

فقال أبرهة له : اكبرتك حين رأيتك ، وزهدتني فيك حين كلمتني ، تسألني الإبل ، وتترك البيت الذي هو دينك ودين آبائك ؟ !

فقال عبد المطلب : أما الإبل فهي لي ، وأما البيت فله رب يحميه .

وقد كان حيث هلك أبرهة ، وجيشه بالطير الأبايل ، واسترد عبد المطلب الإبل والغنم وهو أول من طلى الكعبة بالذهب ، وسمي الفياض لجوده ، وكان له أولاده بترك الظلم والبغى ، ويحثهم على مكارم الأخلاق ، ويقول : لن يخرج من الدنيا ظلم حتى ينتقم منه ، ونصيبه عقوبة ، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام ، ونهى عن قتل الموءودة ، ونكاح المحارم ، وأمر أن لا يطوف بالبيت عريان (٢) .

و " هاشم " واسمه عمرو العلاء والد عبد المطلب .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٤٣ بتصرف .

(٢) متقى النقول ص ٢٠ ، ٢١ .

(٣) متقى النقول ص ٢١ .



ولقب هاشماً لأنه هشم الثريد لقومه بمكة، وأطعهم ، وذلك أن أهل مكة أصابهم جهد، وشدة ، فرحل هاشم إلى فلسطين، فاشترى منها دقيفاً كثيراً وكعكاً ، وقدم بذلك إلى مكة فأمر به، فخبز، ثم نحر جزوراً ، وجعلها ثريداً ، عم به أهل مكة ولا يزال يفعل ذلك معهم حتى استكفوا .

وهو أول من سن الرحلتين ، رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى الشام<sup>(١)</sup> ومن قبله كان تجار مكة لا يغادرون بلادهم ، فركب هاشم إلى الشام ، ونزل بقبصر ، فلما علم به ملك الروم سأل عنه ، وكلمه ، وأعجب به ، وجعل يرسل إليه ويدخله عليه .

فلما رأى هاشم مكانه منه قال له : أيها الملك إن لي قوماً وهم تجار العرب، فإن رأيت أن تكتب لي كتاباً تؤمنهم، وتؤمن تجارتهم، فيقدمون عليك بما يستظرف من أدم الحجاز، وثيابه، ليتمكنوا من بيعه عندكم، فهو أرخص عليكم ، فكتب له كتاب أمان لمن أتى منهم، فأقبل هاشم بالكتاب فجعل كلما مر بحي من العرب على طريق الشام أخذ لهم من أشrafهم إيلافاً .

والإيلاف أن يأمنوا وهم عندهم، وفي طريقهم، وفي أرضهم بغير حلف ، إنما هو أمان الطريق ، فأخذ هاشم الإيلاف فيمن بين مكة والشام، حتى قدم مكة فأعطاهم الكتاب ، فكان ذلك أعظم بركة ، ثم نخرجوا بتجارة عظيمة، وخرج هاشم معهم يجوزهم، ويوفيههم إيلافهم، الذي أخذ لهم من العرب ، فلم يرح بجمع بيتهم وبين العرب حتى ورد الشام<sup>(٢)</sup> .

واشتهر هاشم بالدقة ، والحكمة ، ومكارم الأخلاق ، ومن وصاياه الحكمة لقومه وهو يخطب فيهم : —

<sup>(١)</sup> مثل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣١٦ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ج ١ ص ٣١٦ .

أيها الناس نحن آل إبراهيم، وذرية إسماعيل، وبنو النضر بن كنانة، وبنو قصي كلاب، وأرباب مكة، وسكان الحرم، لنا ذروة الحسب، ومعدن الحمد في كل حلف يجب عليه نصرته، وإجابة دعوته إلا ما دعا إلى عقوقه وقطع رحم.

يا بني قصي أنتم كغصني شجرة أيهما كسر أو حش صاحبه، والسنبل يسان إلا بغمده، ورامي العشيرة يصيبه سهمه، ومن أمحكه اللجاج أخرجه البغي.

أيها الناس الحلم شرف، والصبر ظفر، والمعروف كثر، والجود سواد والجهل سفه، والأيام دول، والدهر غير، والمرء منسوب إلى فعله، ومناجى بعمله، فاصطنعوا المعروف تكسبوا الحمد، ودعوا الفضول يجانبكم السفاهة وأكرموا المجلس يعمر ناديك، وحاموا الخليط يرغب في جواركم، وأنصفوا أنفسكم يوثق بكم، وعليكم بمكارم الأخلاق فإنها رفعة، وإياكم والأفعال الدنيئة، فإنها تضع الشرف، وقدم الحمد ألا وإن منهة الجاهل أهون من حزين ورأس العشيرة يحمل أثقالها، ومقام الحليم عظة لمن انتفع به <sup>(١)</sup>.

وكان من أجمل الناس، وأحسنهم صورة، يتلأأ النور في وجهه كأنه يتوقد، لم يره أحد إلا أحبه، وأقبل عليه.

و " **عبد مناف** " والد هاشم اشتهر بأفعال الخير، وأماجد الأعمال وسمى بالمغيرة لقوته، وإغارته على الأعداء، وسمى بالقمر لحسنه وجماله.

وقد ساد في حياة أبيه، وبرز بآرائه في دار الندوة، وسر به والده " قصي " وهو الذي سماه ( عبد مناف ) واستبدله بـ " عبد مناة " كما سمته أمه.

قام بعد أبيه قصي بالسقاية، والرفادة، واشتهر بالحكمة، وحسن السياسة.

(١) أعلام النبوة للماوردي ص ١٣٩.

أحاطت قريش عبد مناف بالتفضيل ، والتكريم ، ومن أشعارهم :

كانت قريش بيضة فتفتقت فالح خالصة لعبد مناف

والسح : صقرة البيض ، يشيرون بذلك إلى أن قريشاً إذا انقسمت كالبيضة ، فعبد مناف صقرها ، وهي أصل البيضة ، وأكثرها منفعة .

يروى البلاذري أن النبی " ﷺ " سمع جارية تنشد هذا البيت وتقول :

فالح خالصة لعبد الدار .

فقال الرسول " ﷺ " لأبي بكر " ﷺ " : كذا قال الشاعر ؟

قال أبو بكر : لا ، إنما قال : لعبد مناف

فقال النبی " ﷺ " : كذاك <sup>(١)</sup> .

وهذا تأكيد لمزلة عبد مناف ، وقدرته في قومه .

و " قصي " والد عبد مناف اسم مصغر من " قصي " أي بعد ، لأنه بعد عن قومه في بلاد " قضاة " مع أمه حين تزوجت بعد أبيه في بني عذرة ... وقد عاد قصي إلى مكة بعد أن غير بغيرته ... وعمل بعد أن شب على أن يكون أمر مكة لأهلها ، فأبى خزاعة وبنو بكر ، فقاتلهم قصي ومن معه .. حتي تصالحوا بعد ذلك على أن يكون الأمر لقصي وبنيه ، لأنهم الأحق والأولى .

فلما جمع قصي قريشاً قال لهم : هل لكم أن تصبحوا بأجمعكم ( أي أنتم وبنوتكم ) في الحرم حول البيت ؟ فوالله لا يستحل العرب قتالكم ، ولا يستطيعون إخراجكم منه ، وتسكنونه فتسودوا العرب أبداً .

فقالوا : أنت سيدنا ، ورأينا تبع لرأيك ، فجمعهم ثم أصبح بهم في الحرم حول الكعبة <sup>(٢)</sup> وبنوا بيوتهم مجاورة للكعبة ، وكانوا من قبل يبنونها بعيداً في الشعاب .

<sup>(١)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢١ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٤ .

وأمرهم قصى أن يجعلوا أبواب بيوتهم جهة الكعبة ، على أن يتركوا بيتين طريقاً يؤدي إلى الكعبة ، وفي نهاية هذه الطرق تأسست أبواب الحرم بعين المكان .  
وقد جمع " قصى " لنفسه أمر الحجابة ، والسقاية ، والرفادة ، والندوة ، واللواء ، وبذلك حاز الشرف في مكة كلها .

وبنى داراً سماها " دار الندوة " ، وجعلها مكاناً للاجتماع ، والسياسة ، وغيرها .  
كافة أمورهم الشخصية ، والاجتماعية ، والسياسية ، وغيرها .

وقد فرض قصى على قريش مالا يدفعونه إليه ، وهو الذي يعرف بالرفادة ، يضرون على حجاج بيت الله تعالى ، قال لهم : ( يا معشر قريش : إنكم جيران الله وأهل البيت ، وأصحاب الحرم ، وإن الحاج ضيف الله وزوار بيته ، وهم أحق الناس بالكرامة ، فاجعلوا لهم طعاماً ، وشراباً أيام الحج ، حتى يصدروا عنكم ، ففعلوا ) .

يقول ابن هشام : فكانوا يخرجون لذلك كل عام من أموالهم خبزاً فيدفعونه إليه ، فيصنعه طعاماً للناس أيام منى ، فجرى ذلك من أمره في الجاهلية ، حتى قام الإسلام ، ثم جرى في الإسلام إلى يومنا هذا ، فهو الطعام الذي يفيضه الولاة كل عام ، ويقدمونه للحجيج بمنى حتى ينقضى الحج <sup>(١)</sup> .

وقد قسم قصى المهام الرئيسية في أولاده .. فأعطى عبد مناف القضاء والندوة ، وأعطى عبد الدار الحجابة واللواء ، وأعطى عبد العزى الرفادة والضياقة بمنى .. وهكذا .

ومن أقوال قصى الحكيمة التي علمها أولاده :

" من عظم لثيماً شركه في لؤمه " .

" ومن استحسن مستقبلاً كان معه " .

" ومن لم تصلحه كرامتكم فدأروه بهوانه ، فذاك دواء يحسم الداء " .

" العبي عيان : عى إفحام ، وعى المنطق بغير سداد " .

" من سأل فوق قدره استحق الحرمان " .

و " **كلاب** " والد قصصى جمع كلب ، وهو مجمع نسب عيد الله ، وآمنه ، أبوى النبی " ﷺ " ، سمي بذلك من المكالبة ، وهو المسارعة في التجمع على الكسب ، أو جرياً على عادة العرب في تسمية أبنائهم بأسماء موحشة كذئب ، وأسد ، وضبع ...

قيل لأعرابي : لم تسمون أبناءكم بأشر الأسماء كـ " كلب " ، وذئب ، وتسمون عبيدكم بأحسن الأسماء كـ " رباح " و " مرزوق " ؟ ...

فقال : إنا نسمي أبناءنا لأعدائنا ، ونسمي عبيدنا لأنفسنا ... يريد أن الأبناء هم عدة مواجهة الأعداء ، والسهام المصوبة إليهم .  
وقيل : سمي بذلك لدفع السوء والحسد عنه <sup>(١)</sup> .

ومن أسماء " كلاب " الحكيم ، والمهذب ، وعروة ، ويكنى بـ " أبي زهرة " وزهرة هو جد النبي " ﷺ " من قبل أمه .

و " **مرة** " والد كلاب اسم منقول من وصف الخنظلة ، والغلقة ، وقيل منقول من وصف الرجل بالمرارة .

وقيل مأخوذ من القوة ومنه قوله تعالى : ﴿ ذُو مِرَّةٍ ﴾ أى قوة ، وكنيته أبو يقظه <sup>(٢)</sup> .  
وهذه المعاني تفيد ما كان له من قوة في الحق ، وشدة وقسوة على أهل الباطل .

و " **كعب** " والد مرة ومعناه العلو في الشرف ، والسؤدد ، والثبات والمتلة وكنيته أبو هصبص .

<sup>(١)</sup> الروض الأنف ج ١ ص ٨ .

<sup>(٢)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ٣٢٩ .

وهو أول من جمع الناس ، وخطبهم في يوم معين ، هو يوم " **العروبة** " .

اليوم المسمى في الإسلام بيوم الجمعة ، ومن خطبه في قومه : —

أمسا بعد ، فاسمعوا وعوا ، وافهموا وتعلموا ، ليل ساج ، ونهار ضاح ، والأرض  
مهاد والسماء بناء ، والجبال أوتاد ، والنجوم أعلام ، لم تخلق عبثاً فتضربوا  
صفحة ، الآخرون كالأولين ، والذكر كالأنثى ، والزوج والفرد إلى بلى ، فضال  
أرحامكم ، وأوفوا بعهودكم ، واحفظوا أصهاركم ، وثمروا أموالكم ، فإنها قوام  
مروءتكم ، فهل رأيتم من هالك رجع ، أو ميت نشو ، الدار أمامكم ، واليقين  
غير ما تظنون ، حرمكم زينود وعظمود ، وتمسكوا به ، فسيأتى له نبأ عظيم  
وس يخرج منه نبي كريم بذلك جاء موسى وعيسى " صلى الله عليهما وسلم " .  
والله لو كنا ذا سمع وبصر ، ويد ورجل ، لتصببت فيها تنصب الجمل ، ولأزفقت  
فيها إرقال الفحل <sup>(١)</sup> .

و " **لوى** " يكنى باسم ابنه كعب ، اشتهر بالحكمة ، والحلم منذ صغره .

و كان مطاعاً ، محبوباً في قومه .

و " **غالب** " من الغلبة والفوز : وكنيته أبو تميم .

و " **فهر** " كان رئيس أهل مكة ، وقيل إنه سمي بـ " قريش " يقول ابن

شهاب : من جاوز فهراً فليس من قريش <sup>(٢)</sup> .

و " **مالك** " يكنى باسم ولده " فهر " ولم ينجب سواء ، تميز بالحكمة

وحسن الخلق .

و " **النضر** " ابن كنانة ، وكنيته ( أبو يحد ) .

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٩ ، ٣٣٠ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٢٤ .

و " **كنانة** " هي ستر السيف ، سمي بذلك لأنه كان ستراً على قومه ، ويكنى بأبي النضر ، يقول عامر العدواني لابنه في وصيته : يا بني أدركت كنانة بن خزيمة وكان شيخاً مسناً ، عظيم القدر ، وكانت العرب تحج إليه لعلمه وفضله ، ومن أقواله لهم : إنه قد آن خروج نبي من مكة يدعى أحمد ، يدعو إلى الله ، وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق ، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم .

قال أبو الربيع رحمه الله تعالى : إن كنانة رثي وهو نائم في الحجر فتبيل له :  
تخير يا أبا النضر بين الصهيل والهدر ، وعمارة الجدر ، وعز الدهر ، فقال : كل  
يارب فصار هذا كله في قريش <sup>(١)</sup> .

و " **خزيمة** " يكنى بأبي أسد ، يروي ابن عباس أن خزيمة مات على دين إبراهيم " **الحنيفة** " ، وهو أول من أهدى البدن للبيت .

و " **مدركة** " اسمه عمرو على الصحيح ، وكنيته أبو هزبل ، وأبو خزيمة .

و " **إلياس** " كان عاقلاً ، أريباً ، يقول ابن الزبير : لما أدرك إلياس وبلغ  
أنكر على بني إسماعيل ما غيروا من سنن آبائهم ، وسيرهم ، وبان فضله عليهم ،  
وجمعهم رأيه ، ورضوا به ، فردهم إلى سنن آبائهم ، ولم تزل العرب تعظمه تعظيم  
أهل الحكمة .

وهو وصي أبيه ، تميز بجمال الخلق والخلق ، ويذكر عن النبي " ﷺ " أنه قال  
: ( لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً ) <sup>(٢)</sup> .

ويذكر أنه كان يبشر بني من صلبه ، يصلح الله به شئون الناس .

و " **مضر** " اسمه عمرو ، وكنيته أبو إلياس ، كان على دين إبراهيم " **الحنيفة** " .

أشتهر بالحكمة ، وسداد الرأي ، ومن أقواله : —

(١) مثل المدي ج ١ ص ٣٣٨ .

(٢) الروض الأنف ج ١ ص ١٠ .

"خير الخير أعجله" .

"احملوا أنفسكم على مكروهاها فيما يصلحكم ، واصرفوها عن هونهاها فيما أفسدها ، فليس بين الصلاح والفساد إلا صبر فواق" <sup>(١)</sup> .

و "نزار" سماه أبوه بهذا الاسم لما نظر في وجهه ، ورأى نور الله فيه ، كان يتنقل في الأصلاب ، لما رأى ذلك فرح ، ونحر ، وأطعم ، وقال : هذا نذر بلسم . فسمى بـ " نزار " وكنيته " أبو إيراد " .

و "معد" بضرب به المثل في الخلق ، يقول عمر بن الخطاب : " اخشوشنوا وتعددوا " أى كونوا على خلق معد .

و "عدنان" أول من كسا الكعبة ، وكان الناس يعرفون أن نبيهم من صلبه ، ويكنى بأبي معد .

وقد سبق الإشارة إلى إجماع النسابين على معرفة نسب النبي " ﷺ " .  
عدنان ، وأن عدنان من نسل إسماعيل " عليه السلام " ، إلا أنهم يختلفون في عدد أبناء عدنان ، إلى إسماعيل " عليه السلام " ، ولذلك اكتفى هنا بذكر نسبه " ﷺ " إلى عدنان مع تأخير أن عدنان من ولد إسماعيل " عليه السلام " ، فلقد روى ابن سعد أن النبي " ﷺ " كان انتسب لم يجاوز في نسبه عدنان ، ثم يمسك ، ثم يقول : كذب النسابون . ويرى السهيلي أن هذا الحديث من قول ابن مسعود ، ويقول عمر بن الخطاب " ﷺ " : إنما تنتسب إلى عدنان ، وما فوق ذلك لا تدري ما هو <sup>(٢)</sup> .

ومن هذا الإيجاز نرى شرف النسب ، وعلو المخذ ، فجميعهم كثر ذوو شأن حيث نلمح في سيرهم كل خير ، فهم حماة البيت ، والمقربون من الله ، والمؤسسون لأهل مكة " دار الندوة " ، وقد نظموا للقبائل سائر المهام ، وعرفوا الناس

(١) سبل الهدى ج ١ ص ٣٤٤ ، والفراق : المدة بين حلتيه للناقة .

(٢) الطلقات الكبرى ج ١ ص ٥٦ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٥٨ .



يوم العروبة : وجمعوهم فيه كل أسبوع ، لسماع الخطب ، وتداول الأمور .  
 وفي أسمائهم نلح صفاقم ، ففي كعب الغلو والثبات ، وفي لؤي الطلوع ،  
 وفي الأمانة ، وفي غائب القوة القاهرة للأعداء <sup>(١)</sup> ، وفي فخر الطول والعون ، سمى قريشاً لأنه  
 كبريان بقرش أى يقتل عن حاجة المحتاج ليعيه بماله ونفسه <sup>(٢)</sup> ، وفي مالك السيادة  
 وبذلك العرب <sup>(٣)</sup> ، وفي النظر الحسن والجمال <sup>(٤)</sup> ، وفي كتابه ستر قومه ، ومن جمعهم  
 بعلمه وفطنه <sup>(٥)</sup> ، وفي عزيمة إصلاح قومه ، وأعلمهم على الحق <sup>(٦)</sup> وهكذا إلى  
 عذنان الذى عاش زمن موسى " ~~نبي~~ " <sup>(٧)</sup> .  
 هذا سبه " ~~نبي~~ " من جهة أبيه ..

وأما سبه من جهة أمه فهو إلى كلاب ، وعند كلاب يلتقى نسبها مع أبيه  
 فسبه من جهة أمه عاتل هو الآخر : يصفه ابن هشام ويقول : ( إن آباء أمته من  
 فضلاء قريش ، وسادة بني زهرة ) <sup>(٨)</sup> .

ولم يكن للنبي " ~~نبي~~ " أخ ولا أخت من أمه وأبيه ، يقول الماوردي : ( لم  
 يشركه في ولادته من أبويه أخ ، ولا أخت ، لانتهاء صفوئهما إليه ، وقصور نسبهما  
 عليه ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنسوة غاية ، ولنفرد به آية ، فيزول عنه أن  
 يشارك فيه ويماثل به ) <sup>(٩)</sup> .

<sup>(١)</sup> مدارج مشهورة من ٧ ص ٢٧ .

<sup>(٢)</sup> نزهة المجالس من ٣٠ ص ٣٠ .

<sup>(٣)</sup> مدارج مشهورة من ٣٠ ص ٣٠ .

<sup>(٤)</sup> مدارج مشهورة من ٣٧ ص ٣٧ .

<sup>(٥)</sup> المربع الساقى ج ٣ ص ٢٧ .

<sup>(٦)</sup> مدارج مشهورة من ١ ص ١٨٨ .

<sup>(٧)</sup> نزهة المجالس ج ١ ص ١١ .

<sup>(٨)</sup> مسند ابن هشام ج ١ ص ١٦٩ .

<sup>(٩)</sup> نزهة المجالس من ١٤٧ ص ١٤٧ .

ولقد تميز آباؤه بعديد من المزايا العامة التي اشتركوا فيها جميعاً ،  
معهم تكريماً لرسول الله " ﷺ " .

وسأين أهم هذه المزايا لما لها من مردود إيجابي على شخصية النبي  
وهيئة النفوس للامتثال له ، والإجابة لدعوته ، وبخاصة أن الناس جبلوا على  
السريعة لمن علا نسبه ، وسمت أخلاقه ، وكان لهم به صلة وقربى .

وسأوضح بإذن الله تعالى أهم هذه المزايا في عدد من المسائل  
مسألة مزية ، وهي كما يلي : —

### المسألة الأولى : أصالة النسب .

المسألة الثانية : بعدهم عن عبادة الأصنام .

المسألة الثالثة : صلتهم بسائر بطون العرب .

وسوف أفصل هذه المسائل فيما يأتي ...

\*\*\*

## المسألة الأولى

### أصالة النسب

اشتهر أبناؤه " ﷺ " جميعاً ، يعلمو الأصل ، وشرف النسب ، ومكارم الخلق ، فكسبوا من أحسن الخلق وأماجدهم ، وقد رأيتهم سادة الناس ، ورواد القبائل ، جعلوا مهام البيت ، وقاموا بواجب ضيوف الله .

ولعل أهم ما تميزوا به هو طهارتهم ، وغفرتهم ، وبعدهم عن سفاح الجاهلية ، وضلالات الشرك والهوى ، والأنحاديث الصحيحة تؤكد هذه الحقيقة : وعن ابن عباس " ﷺ " قال : ( خرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من ولد آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ) (١) ، وعن ابن عباس " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : ( ما ولدني من سفاح الجاهلية شيء ، وما ولدني إلا نكاح كنيكاح الإسلام ) (٢) .

ويروى ابن سعد في طبقاته عن محمد الكلبي قال : ( كتبت لنبي الله " ﷺ " خمسمائة أم ، فما وجدت فيهن سفاحاً ، ولا شيئاً مما كان عليه أمر الجاهلية ) (٣) . وهكذا وضع الله رسوله " ﷺ " في موضع يحمل معه شرف سلسلة طارئة ، كريمة الخلق والسلوك ، طيبة الشأن والذكر ، وهو اصطفاء من الله تعالى .

فعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : ( إن الله اصطفي كنانة من ولد إسماعيل ، واصطفي قريشاً من كنانة ، واصطفي من قريش بني هاشم ، واصطفاني من بني هاشم ) (٤) .

(١) نسخة الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — باب علامات النبوة — باب كرامة نسبه " ﷺ " ج ٨ من ٣٦٥ .

(٢) المرجع السابق . — باب علامات النبوة — باب كرامة نسبه " ﷺ " ج ٨ من ٣٩٥ .

(٣) نسخة ابن كثير ج ١ من ١٩١ .

(٤) صحيح مسلم . — كتاب المغاضل . — باب فضل النبي " ﷺ " ج ٧ من ٥٨ .

وعن أبي هريرة " ﷺ " قال : قال رسول الله " ﷺ " : ( بعثت من قبلي  
قرون بنى آدم قروناً فقرناً حتى كنت من القرون الذى كنت منه )<sup>(١)</sup> .  
وأخرج البيهقي في دلائل النبوة عن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال :  
افترق الناس فرقتين إلا جعلني الله في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، فلم يبق  
شئ من عهد الجاهلية ، وأخرجت من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم  
حتى انتهيت إلى أبي وأمي ، فأنا خيركم نفساً ، وخيركم أباً )<sup>(٢)</sup> .  
وعن ابن عباس قال : قال رسول الله " ﷺ " : ( لم يزل الله يقسم  
الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة مصفى مهذباً ، لا تتشعب شعبتان إلا  
في خيرهما )<sup>(٣)</sup> .

وعن أنس أن رسول الله " ﷺ " قال : ( ما افترق الناس فرقتين إلا  
في خيرهما ، فأخرجت من بين أبوي ، لم يصبني شئ من عهد الجاهلية ، وأخرجت  
من نكاح ، ولم أخرج من سفاح ، من لدن آدم حتى انتهيت إلى أبي وأمي )<sup>(٤)</sup> .  
وعن واثلة بن الأسقع قال : قال رسول الله " ﷺ " : ( إن الله اصطفى  
ولد إبراهيم إسماعيل ، واصطفى من ولد إسماعيل بنى كنانة ، واصطفى من  
كنانة قريشاً ، واصطفى من قريش بنى هاشم ، واصطفاني من بنى هاشم )<sup>(٥)</sup> .  
أخرج الحافظ أبو القاسم حمزة بن يوسف السهمي في فضائل العباس من حديث  
واثلة بلفظ : ( إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم واتخذه خليلاً ، واصطفى  
ولد إبراهيم إسماعيل ، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً ، ثم اصطفى من ولد

(١) صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب المنقب — باب صفة النبي " ﷺ " ج ٦ ص ٥٦٦ .

(٢) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — كتاب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٥ .

(٣) سبل الخلد والرشاد ج ١ ص ٢٧٦ .

(٤) قدس سره تاريخ دمشق ج ١ ص ٢٧٩ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي — كتاب الفضائل — فضل سبب النبي ج ١ ص ٢٦ .

مضر ، ثم اصطفى من مضر كنانة ، ثم اصطفى من كنانة قريشاً ، ثم اصطفى من قريش بني هاشم ، ثم اصطفى من بني هاشم عبد المطلب ، ثم اصطفاني من بني عبد المطلب <sup>(١)</sup> والاصطفاء أخذ الأحسن من جماعة فيها غيره ليسوا مثله .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( خير العرب مضر ، وخير مضر بنو عبد مناف ، وخير بني مناف بنو هاشم ، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب والله ما افتوت فرقتان منذ خلق الله آدم إلا كنت في خيرهما ) <sup>(٢)</sup> .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله خلق الخلق فاختار من الخلق بني آدم ، واختار من بني آدم العرب ، واختار من العرب مضر ، واختار من مضر قريشاً ، واختار من قريش بني هاشم ، واختارني من بني هاشم ، فأنا من خيار إلى خيار إلى خيار ) <sup>(٣)</sup> .

وعن ابن عباس بن عبد المطلب قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله حين خلق الخلق جعلني من خير خلقه ، ثم حين فرقهم جعلني في خير فريق ، ثم حين خلق القبائل جعلني من خير قبيلة ، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم ، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم ، فأنا خيرهم بيتاً ، وخيرهم نسباً ) <sup>(٤)</sup> .

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : ( إن الله قسم الخلق قسمين فجعلني في خيرهما قسماً ، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً ، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة ، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً ) <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> الخواص ج ٢ ص ٢٦٦ .

<sup>(٢)</sup> الطبقات الكبرى لابن سعد ج ١ ص ٢٠ .

<sup>(٣)</sup> دلائل النبوة لليهقي ج ١ ص ١٦٨ .

<sup>(٤)</sup> سنن الترمذي - كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٤ .

<sup>(٥)</sup> الطبقات الكبرى ج ١ ص ٢٠ .

وعن ابن عباس قال : ( دخل ناس من قريش على صفية بنت عبد المطلب فجعلوا يتفاخرون ، ويذكرون الجاهلية ، فقالت صفية : ما رسول الله ﷺ فقالوا : تنبت النخلة أو الشجرة في الأرض الكبا .

فذكرت ذلك صفية لرسول الله ﷺ " فغضب وأمر بلالاً فنادى في الناس ، فنادى على المنبر فقال : أيها الناس من أنا ؟ قالوا : أنت رسول الله .

قال : انسيوني .

قالوا : محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : أجل ، أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ، فما بال أقوام يتنزلون أصلي ؟ ! فوالله إني لأفضلهم أصلاً وخيرهم موضعاً <sup>(١)</sup> .

وعن ربيعة بن الحارث قال : بلغ النبي ﷺ " أن قوماً بالوا منه ، فقالوا : مثل محمد كمثل نخلة نبتت في كناس ، فغضب النبي ﷺ " وقال : ( إن الله خير خلقه فجعلهم فرقتين ، فجعلني في خير الفرقتين ، ثم جعلهم قبائل فجعلني في خيرهم قبلاً ، ثم جعلهم بيوتاً فجعلني في خيرهم بيتاً ، ثم قال : أنا خيركم قبلاً وخيركم بيتاً <sup>(٢)</sup> .

وعن عائشة " رضي الله عنها " قالت : ( قال لي رسول الله ﷺ : قل لي جبريل " ﷺ " : قلبت الأرض مشارقها ، ومغاربها ، فلم أجد أفضل من محمد ، وقلبت الأرض مشارقها ومغاربها ، فلم أجد أفضل من بني هاشم <sup>(٣)</sup> .

هذه النصوص الكثيرة التي أوردتها تطمئن النفس على صدق ما تضمنته وهو ما نريد إبرازه في إثبات علو نسبه " ﷺ " ، وتمتع آبائه ، وأجداده بكرم الطبع ، وسرف

<sup>(١)</sup> بغية الزائد في تحقيق مجمع الزوائد — باب علامات النبوة ج ٨ ص ٣٩٩ .

<sup>(٢)</sup> سنن الترمذي والرشاد ج ٥ ص ٢٧٦ .

<sup>(٣)</sup> دلائل النبوة ج ١ ص ١٥١ .

الأصل ، والبعد عن الدنيا ، وصغائر الأمور .

كان " ﷺ " نتاج هذه السلسلة الكريمة التي يفتخر بها ، وتذكرها العرب له وقد أقر خصومه في مكة بهذه الحقيقة ، وهم في أشد حالات العداوة معه .

يسروى البخاري أن هرقل أرسل إلى أبي سفيان ومن معه ، وكانوا في تجارة بالشام ، فدعاهم إلى مجلسه ، وحوله عظماء الروم ، ثم دعا ترجمانه .

فقال : أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي ؟ .

فقال أبو سفيان : أنا أقربهم نسباً .

فقال هرقل : أدنوه مني ، وقربوا أصحابه ، فاجعلوهم عند ظهره .

ثم قال لترجمانه : قل لهم إني سائل عن هذا الرجل فإن كذبت فكلبوه .

يقول أبو سفيان : فوالله لولا الحياء من أن يأتروا على كذباً لكذبت عنه ، ثم كان

أول ما سألتني عنه أن قال : كيف نسيه فيكم ؟

قلت : هو فينا ذو نسب .

ثم سأله عدة أسئلة وأبو سفيان يجيبه ، وأخيراً قال هرقل لترجمانه : قل لأبي سفيان

سألتك عن نسبه فقلت : هو فينا ذو نسب ، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها <sup>(١)</sup>

والمهم أن أبا سفيان يومئذ كان على الكفر ، ولم يدخل في الإيمان بعد ، ومع

ذلك نطق بالحق ، وشهد بعلو نسب رسول الله " ﷺ " وهو أول ما سأل عنه هرقل

لمعرفته بضرورة سمو نسبه ، وطهارته إن كان رسولاً صادقاً ..

إن معرفة خصائص النسب الشريف لرسول الله " ﷺ " يؤثر في تقويم

صاحبه وتقدير شأنه ، وإدراك مستقره في الأمور ، فالخلق الغالب على الأصل يتزع

عنه الفرع ولا يتغير بالإسلام إلا إلى الأفضل .

أخرج الشيخان وأحمد عن أبي هريرة أن رسول الله " ﷺ " قال : ( تجدون

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣١ ، ٣٢ .

الناس معادن فخيرهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا ، ويجدون من سوي الناس في هذا الأمر أكرههم له قبل أن يقع فيه ( ١٢٠ ) .

وأصحاب المروءات ، ومكارم الأخلاق في الجاهلية إذا أسلموا أو فقهوا به  
خير الناس ( ١٢١ ) .

قال ابن حجر في الفتح : وجد التشبيه أن المعدن لما كان إذا استخرج منه ما اختفى ، منه ولا تغير صفته ، فكذلك صفة الشرف لا تتغير في ذاتها ، بل هي  
كان شريفاً في الجاهلية فهو بالنسبة إلى أهل الجاهلية رأس ، فإن أسلم استمر راساً  
وكان أشرف من أسلم من المشركين في الجاهلية ( ١٢٢ ) .

ولهذا كان رسول الله ﷺ يقول : ( أنا بن العواتك ) ( ١٢٣ ) .

والعاتك هو الكار الشجاع في القتال ، والمرأة العاتك هي الشريف الكريمة .

وعند امتداد المواجهة بين الرسول ﷺ وأهل مكة لم يسمع ، فقال  
سب رسول الله وأصله ، ولا تشدأ خلفه وسلموكه ولا همراً حول شيء ، فصل يدك  
... ولو وجد شيء من هذا اتحدنوا عنه ، وأظهروه ...

\*\*\*

مسحح البخاري في كتاب المقاتل : قال قول الله تعالى : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَا النَّاسَ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ دَمٍّ وَنَسَاءٍ ﴾

ج ٦ ص ٥٦٥ .

( ١٢٠ ) شرح النووي على مسلم ج ٥ ص ٢٣٠ .

( ١٢١ ) فتح الباري ج ٦ ص ٥٦٩ .

( ١٢٢ ) الطهطاوي ، قال الطيبي رحمه الله رحمه الله : جميع الروايات في كتاب غرر الحقايق - باب في كرم

" ﷺ " ج ٢ ص ٢١٥ .



## المسألة الثانية

بعد أبيائه " ﷺ " عن الشرك

### وعبادة الأصنام

ثبت بالأدلة والبراهين العديدة أن أصول النبي " ﷺ " وأبائه من لادن آدم " ﷺ " إلى والده المباشر عبد الله بن عبد المطلب ، كانوا جميعاً بعيدين عن الشرك : وعبادة الأصنام .

والأدلة على ذلك عديدة ، يجمعها السيوطي رحمه الله تعالى <sup>(١)</sup> في مقدمتين ليصل إلى نتيجة عقلية مسلمة .

**أما المقدمة الأولى** فهي أن أباء النبي " ﷺ " هم من خير الناس ، كل منهم أفضل معاصريه ، وأخيرهم ، فهم خيار من خيار ، اصطفاهم الله منذ وجود آدم " ﷺ " ، واستمر هذا الاصطفاء معهم حتى جاء رسول الله محمد " ﷺ " .

**أما المقدمة الثانية** فإنها تظهر حقيقة دينية ، تاريخية ، وهي أن الأرض لم تخل من عهد آدم " ﷺ " إلى بعثة النبي " ﷺ " ، وإلى أن تقوم الساعة ، من أناس على الفطرة يوحدون الله ، ويعبدونه بما بقي من دين سابق ، ويرون أن الأصنام ، والأوثان ، وما يمثلها ، ما هي إلا افتراءات لا حقيقة لها ، ولذلك فهم يعبدون عنها ، لا يقتنعون بها ..

فإذا انضمت المقدمة الأولى إلى المقدمة الثانية لظهر بجلاء أن أباء النبي " ﷺ " في كل عصر كانوا من هؤلاء الأناس الذين عاشوا بالفطرة النقية ، الموحدة ، ذلك أن الخيرية ، والأفضلية تقوم أساساً على التوحيد والتقوى .

وممن الواجب التسليم بهذا ، لأن الأفضلية إذا لم تقم على التوحيد ، وقامت على المال أو الكثرة ، أو السلطان مثلاً ، فإن الشرك يعلو التوحيد ، ويفضل المشرك

<sup>(١)</sup> الحاشي للفتاوى ج ٢ ص ٣٦٧ بتصرف .

المؤمن ، وهذا غير صحيح ، فوجب بمجموع هاتين المقدمتين أن يكون أباء النبي ﷺ أفضل الخلق في زمانهم على التوحيد ، أصل التفضيل ، وأساسه ، لأن القول بغير ذلك يؤدي إلى أحد أمرين : لا يسلم بهما أو بأحدهما عقلاً .

**الأمر الأول :** أفضلية المشرك على المسلم ، وهذا أمر غير صحيح ،

مسلم ، ولم يقل به أحد من العقلاء .

**الأمر الثاني :** أن يكون هناك من هم أفضل من أباء النبي ﷺ ،

معارض بما ثبت في المقدمة الأولى التي سبق ذكر أدلتها .

يقول الإمام السيوطي : ( يجب أن يكون أباء النبي موحدين ، لا شرك في

ليكونوا من خير أهل الأرض ، كل في قرنه )<sup>(١)</sup> .

وفي الدراسة السابقة عن المقدمة الأولى أوضحت أن أباء النبي هم خيار

من لدن آدم " ﷺ " إلى محمد " ﷺ " ، وبذلك ثبتت المقدمة الأولى .

وإثبات المقدمة الثانية بعد ذلك أمر مسلم ، لأن الناس كانوا على الإسلام

منذ آدم إلى نوح " ﷺ " ، يقول الله تعالى : ﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ

النَّبِيِّنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ﴾<sup>(٢)</sup> وفي الآية بيان أن الناس جميعاً بعد آدم " ﷺ "

كانوا على دين واحد هو الإسلام .

فعن أبي أمامة " ﷺ " أن رجلاً قال : يا رسول الله ، أنبي كان آدم ؟

قال " ﷺ " : نعم نبي مكلم .

فقال الرجل : فكم كان بينه وبين نوح " ﷺ " ؟

قال " ﷺ " : عشرة قرون<sup>(٣)</sup> .

(١) الخاوي للفتاوى ج ٢ ص ٣٦٨ .

(٢) سورة البقرة آية ( ٢١٣ ) .

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٧٢ .

وهكذا استمرت البشرية على دين الإسلام عشرة قرون ، وبعد هذه المدة بدأ  
شرك في الظهور ، واختلف الناس ، فبعث الله رسله مبشرين ، ومنذرين ، بلاغاً  
وإرشاداً ، ولذلك بعث شيث " عليه السلام " ، وإدريس " عليه السلام " نصراً لأهل الحق ،  
ومحافظة على دين الله القويم .

يروى عن قتادة " عليه السلام " أنه قال : ( ذكر لنا أنه كان بين آدم ونوح عشرة  
قرون ، كلهم على الهدى ، وعلى شريعة الحق ، ثم اختلفوا بعد ذلك ، فبعث الله  
نوحاً " عليه السلام " ) (١) .

وعن ابن عباس : ( أنه كان بين آدم ونوح " عليهما السلام " عشرة قرون  
كلهم على الإسلام ) (٢) .

وهذه الآراء بيان لاستمرار الإسلام في الناس منذ آدم إلى نوح " عليهم  
السلام " ، فلمّا اختلفوا ، وانقسموا جاء رسل الله ، وعلى رأسهم نوح " عليه السلام " .  
والتعبير بالاختلاف في الآية بيان لتمسك فريق من الناس بالإسلام الذي  
كانوا جميعاً عليه ، حين أرتد فريق منهم ، وعبدوا الأصنام ، وأشركوا في الألوهية ،  
وبذلك وجد الاختلاف ، والتفرق بدليل أن الله توعد هؤلاء المشركين الذين أشركوا  
وضيعوا وحدة الأمة — وتجمعها على الدين الحق ، يقول تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ النَّاسُ  
إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا ﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ  
يَخْتَلِفُونَ ﴿٣﴾ .

ومع الاختلاف على الدين الحق قبيل نوح " عليه السلام " نرى أن والد نوح كان  
مؤمناً ، موحداً ، امتداداً لأبائه من قبله ، دليل ذلك أن نوحاً " عليه السلام " دعا لأبيه كما

(١) الحاوي ج ٢ ص ٣٧٢ .

(٢) تفسير الطبري ج ٤ ص ٢٧٥ .

(٣) سورة يونس آية ( ١٩ ) ودلالة الآية أن الله توعد المختلفين ، والله لا يتوعد إلا بسبب كفر أو معصية .

في قوله تعالى ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ <sup>(١)</sup> والنبي " ﷺ " لا يستغفر لكافر بدليل قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْ أَتَّغْفَرُ لِإِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَيَّنَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> وبذلك تكون الآية صريحة في إيمان نوح " وهو " سام " لأنه لو لم يكن مؤمناً لما دعا له ، وأيضاً فإن دعوة نوح " كانت بعد الطوفان ، ولم ينج من الطوفان إلا المؤمنون .

هذا عن الفترة من آدم إلى نوح " عليهم السلام " ..

أما ما بعد نوح " ﷺ " ، فقد روى ابن عباس أن نوحاً " ﷺ " لما أخطأ ومن معه من السفينة هبطوا إلى قرية ، فبنى كل رجل منهم بيتاً ، فسميت القرية سوق الثمانين نسبة لعدد الناجين فلما ضاقت بهم القرية تحولوا إلى بابل فبنوها . ويزالوا على الإسلام وهم ببابل ، أما من كفر فقد غرق وهلك ، يؤيد ذلك قوله تعالى ﴿ وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup> ومفهوم الآية يوضح أن ذرية من كفر غرقوا بغرق آبائهم ، ولم يبق إلا المؤمنون ، الموحدون كما يفيدُه ضمير الموصّل الموجود في الآية .

وقيل إن المؤمنين مع نوح كانت لهم ذرية مؤمنة نجحت مع الناجين إلا أنها ماتت بأجلها ، ولم يبق إلا أبناء نوح .

وقيل : إن المؤمنين من ذرية الآخرين تلحق بذرية نوح في البقاء بسبب إيمانهم <sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة نوح آية ( ٢٨ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة التوبة آية ( ١١٤ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة الصافات آية ( ٧٧ ) .

<sup>(٤)</sup> فتح القدير ج ٤ ص ٤٠٠ .

واستمر إيمان آباء النبی ﷺ " من نوح إلى إبراهيم " عليهم السلام " ، غير أن ما ورد عن والد نبي الله إبراهيم " عليه السلام " ( **آزر** ) يتعارض مع هذا حيث يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ **ءَازَرَ** اتَّخِذْ أَصْنَامًا **ءَالِهَةً** إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٩١﴾ ﴾ <sup>(١)</sup> ويقول سبحانه : ﴿ يَتَأْتَى لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وفي هذه الآيات تصريح واضح بكفر أب إبراهيم " عليه السلام " وقد رد العلماء هذا التعارض بأن إبراهيم " عليه السلام " كان يخاطب عمه ( **آزر** ) أما والده فهو ( **تارح** ) ، واللغة العربية تطلق اسم الأب على العم ، ولهذا يقول الله تعالى : ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ **الْمَوْتُ** إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ **ءَابَائِكَ** **إِبْرَاهِيمَ** **وَإِسْمَاعِيلَ** **وَإِسْحَاقَ** ﴾ <sup>(٣)</sup> فأطلق سبحانه على إسماعيل اسم الأب ليعقوب " عليه السلام " مع أنه كان عمه .

وبعد نجات إبراهيم " عليه السلام " من النار أمره الله تعالى بأن يهاجر إلى بلاد الشام فهاجر حيث أمره الله تعالى ، وأخذ معه المؤمنين ، وكانوا ثلاثة ، هم زوجته ساره وابن خالته لوط ، وأبوه تارح <sup>(٤)</sup> ولو كان أبوه مشركاً ما اصطحبه معه في رحلة الحجرة من موطنه إلى بلاد الشام . . . وأيضاً فلقد دعا إبراهيم " عليه السلام " لأبيه بعد هلاك عمه بمدة طويلة ، ولو كان مشركاً ما دعا له ، يقول الله تعالى على لسان إبراهيم " عليه السلام " : ﴿ رَبَّنَا **أَغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ** وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ **الْحِسَابُ** ﴾ <sup>(٥)</sup>

<sup>(١)</sup> سورة الأنعام آية ( ٧٤ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة مريم آية ( ٢٢ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة البقرة آية ( ١٣٣ ) .

<sup>(٤)</sup> الكامل لابن الأثير ج ١ ص ٩٦

<sup>(٥)</sup> سورة إبراهيم آية ( ٤١ ) .

أما آباء النبي محمد ﷺ " بعد إبراهيم فهم على النحو المذكور لسائر الآيات  
 يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿١﴾ إِلَهَ  
 الَّذِي قَطَرْنِي فَإِنَّهُ سَيِّدِي ۖ ﴿٢﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ ۖ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٣﴾  
 بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّىٰ جَاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿٤﴾ ۝ (١)

فقد أخبر الله تعالى بأنه بقدرته سبحانه وتعالى جعل كلمة الهدي والهدى  
 باقية ، متعلقة في عقب إبراهيم عليه السلام " تنتقل من واحد إلى من بعده في عقبه  
 والعقب أبناء الرجل المذكور ، دون الإناث .

يقول المفسرون : الكلمة هي شهادة التوحيد ، جعلها الله مستمرة في ذرية إبراهيم  
 عليه السلام " يعقب كل جيل ما سبقه ، بحيث لا يزال في ذريته من ينطق ، ويؤمن بها .

ويقول تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ  
 أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ۖ ﴿١﴾ ۝ (٢) وقد دعا إبراهيم عليه السلام " في الآية بدعوتين :

أحدهما أن يجعل مكة بلداً آمناً ، في المقام ، والمعاش .

والثانية أن يجنبه ، وبنيه ، وذريته عبادة الأصنام ، وقد استجاب الله له ، فأكرم مكة  
 بجعلها حرماً آمناً ، ورزق أهلها ثمرات كل شيء ، كما استجاب الله سبحانه بالدعوة  
 الثانية لإبراهيم في أولاده فنجاهم من عبادة الأصنام وجعل النبوة والكتاب فيهم  
 خاصة .

وقد جاءت أحاديث مسندة تفصل ما جاء في الآيات : —

يقول النبي ﷺ : ( لا تسبوا مضر فإنه كان قد أسلم ) (٣) .

ويقول النبي ﷺ : ( لا تسبوا مضر ولا ربيعة فإنهما كانا مؤمنين ) (٤)

(١) سورة الزخرف الآيات ( ٢٦ — ٢٩ ) .

(٢) سورة إبراهيم آية ( ٣٥ ) .

(٣) الروض الأثف ج ١ ص ١٠ .

(٤) طبقات بن سعد ج ١ ص ٥٨ .

ويقول النبي ﷺ : ( لا تسبوا قسا فإنه كان مسلماً )<sup>(١)</sup> .

ويقول النبي ﷺ : ( لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً )<sup>(٢)</sup> .

وقد رأينا من كلمات آباء النبي ﷺ " ووقفنا على معانيها الدالة على العقل

والحكمة ، وروح الإيمان ..

يقول السهيلي : ( وكعب بن لؤي أول من جمع يوم العروبة ، فكانت

قريش تجتمع إليه في هذا اليوم ، فيخطبهم ، ويذكرهم ببعث النبي ﷺ ،

ويعلمهم أنه من ولده ، ويأمرهم باتباعه ، والإيمان به ) .

وعبد المطلب هو الذي قابل أبرهة وقال له : للبيت رب يحميه ..

أما آباء النبي ﷺ " القرييون إليه فهم : كلاب ، وقصى ، وعبد مناف ،

هاشم ، وعبد المطلب ، وعبد الله ، فإنهم شيوخ مكة ، وحماة الكعبة ، وإليهم يرجع

الفضل في تنظيم أمور البيت الحرام ، والاتفاق على الخرج ، وفي حياتهم إشارات إلى

عقيدتهم الدينية .

يقول عبد الله : أما الحرام فالملمات دونه .

ويقول عبد المطلب : للبيت رب يحميه .

وقد تميز هاشم ، وعبد مناف بالحكمة ، وكرم الأخلاق ، ودور قصي

وكلاب مع الكعبة وأهل مكة لا يخفى ، ولذلك كان " ﷺ " يفتخر بأبائه ويقول

" ﷺ " : ( أنا ابن الذبيحين ) يريد بهما عبد الله وإسماعيل " عليهما السلام " ، وفي

يوم حنين قال : —

أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب

ويقول " ﷺ " : أنا خيار من خيار من خيار .

<sup>(١)</sup> الخواص ج ٢ ص ٢٨٠ .

<sup>(٢)</sup> الررض الأنف ج ١ ص ١٠ .

وحدیث النبی " ﷺ " عن آياته لتعريف منازلهم ، وبيان مراتبهم ، والإشارة إلى نعم الله تعالى التي أحاطه ، وأحاطهم بها .

يقول أبو الحسن الماوردي : ( أنبياء الله صفوة عباده ، وحرة خلقه ، لما كلفهم من القيام بحقه ، والإرشاد لخلقهم ، استخلصهم من أكرم العناصر ، واجتباهم من الأواصر ، فلم يكن لنسبهم من قدح ، ولمنصبهم من جرح ، لتكون القلوب لهم أمنى ، والنفوس لهم أوطأ ، والناس إلى إيمانهم أسرع : ولأوامرهم أطوع ، ولأمرهم استخلص رسول الله " ﷺ " من أطيب المناكح ، وجماعة من دنس التواضع ، ونقله من أصلاب طاهرة إلى أرحام مكرمة ، وقد قال ابن عباس في تأويل قول الله : ﴿ وَتَقَالِبْ فِي السَّجْدِينَ ﴾ أي تقليبك من أصلاب طاهرة من أمه بعد أب إلى أم حسان نبياً ، فكان نور النبوة ظاهراً في آياته ، ثم لم يتركه في ولادته من أبويه استخرا ، تحت لانشاء صفوتهما إليه ، وقصور نسبهما عليه ، ليكون مختصاً بنسب جعله الله للنبوة غاية ، ولتفرده هاية ، فيزول عنه أن يشارك فيه ، ويماني فيه : ولذلك مات أمه في صغره ، فأما أبوه حسان وهو حمل ، وأما أمه فماتت وهو ابن ستة سنين ، وإذا خبرت حال نسبه ، وعرفت طهارة مولده ، علمت أنه من سلالة آباء كرام ، ليس في آياته مستردل ، ولا مغشور مستبطل ، بل كلهم سادة قادة ، وشرف النسب ، وطهارة المولد من شروط النبوة ( ١ ) .

ويقول الشهرستاني : ( ظهر نور النبي " ﷺ " في أسرار عبد المطلب مع الظهور ، وببركة ذلك انور ألمع النار في ذبح ولده ، وببركة ذلك كان يأمر ولده بترك الظلم والبغي ، ويحثهم على مكارم الأخلاق : وبنهاهم عن ذنوب الأمور ، وببركة ذلك النور كان يقول في وصاياه : إنه لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى يستقم بها ، وتصيب عقوبة ، إلى أن هلك رجل ظلوم لم تصيب عقوبة ، فقبل لعبد المطلب في ذلك



فذكر وقال : والله إن وراء هذه الدار دار يجزى فيها المحسن بإحسانه ، ويعاقب فيها المسيئ بإساءته ، وبركة ذلك النور قال لأبرهة : إن هذا البيت رباً يحفظه <sup>(١)</sup> .  
ومع سلامة النسب النبوي وأصالته أرى توضيح أمرين : —

**الأمر الأول :** يتصل بتوحيد آباء النبي ﷺ " لأن منهم من عاصر الأنبياء ومنهم من كان بعيداً عنهم ، أما من كان نبياً أو عاصر نبياً ، فإنه كان على التوحيد الخالص ، الواضح الذي جاء من عند الله تعالى ، بكل ما يلزمه من اعتقاد وشرعة وأخلاق ، أما من بعد منهم عن زمن الأنبياء فإنه كان على توحيد يبعده عن تأليه الصنم ، وعبادته ، مع غياب تعاليم الرسالة السابقة ، ولذلك لم يكن لهم دين واضح بتعاليمه ، وتفصيلاته .

إنهم لم ينغمسوا في الشرك ، ولم يكونوا سادة الأصنام ، ولا كهنة الألهة ، مع ما لهذه الأعمال من أهمية في الحياة الجاهلية ، ومع منزلتهم في قبائل مكة ، التي تمكنهم من الحصول على ما يريدون ، ولو كانوا من الكهنة ما منعهم أحد ، لكن الله أنقذهم منها .

إن بعدهم الزماني عن رسالات الله أنساهم كثيراً من الحقائق الدينية ، شأنهم في ذلك شأن الخنفاء الذين رفضوا عبادة الأصنام ، ورأوا ضرورة وجود إله واحد قدير ، واهتموا في البحث عن دين إبراهيم ﷺ " ، ولذلك لم تكن لأباء النبي ﷺ " دعوة دينية ، ولم يقوموا بنشر عقيدتهم في الناس ، إلا أن الله أكرمهم بالتوحيد ، وخصهم بالخيرية ، وفضلهم على الناس ، لذكر الرسول بهم ، وحتى لا تلحقه منقصة بسببهم ، يعبره بها المشركون والكافرون .

**الأمر الثاني :** أهل الفترة وأباء النبي : يراد بالفترة المدة الزمنية بين رسولين ، وبخاصة إذا طالت المدة ، وغابت تعاليم الرسول السابق كلياً ، أو جزئياً .

ودرس العلماء ، والفقهاء أحكام أهل الفترة لأهم بعدوا عن الرسالة السابقة ، ورسالة جديدة ، وهذا حال يرفع عنهم المسئولية أمام الله تعالى عند جمهور العلماء ، والعرب من الأمم التي طالبت الفترة بهم ، ولم يأثم رسول منذ إسماعيل عليه السلام بين الله ذلك لمحمد ﷺ : ﴿ لِنُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ (١) وصلة هذا المبحث بأباء النبي ﷺ " تلمس الإنصاف لهم لأن آباءه القريبين ابتداء من كلاب لم يكن لهم دور ديني واضح ، مع ثبوت عدم تأليههم للأصنام وسبب ذلك أنهم كانوا من أهل الفترة التي لا وجود فيها للدعوة الدينية ... وأقصى كانوا فيه أنهم من الحنفاء الموحدين ، الباحثين عن الحقيقة ، التي تجلت أمامهم بعين النبي ﷺ " .

يذهب جمهور العلماء إلى أن أهل الفترة ناجون ، لأنه لا تكليف قبل البعثة بدلالة الآيات التالية : —

يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ (٢) والآية أساس للحجج الذين يرون أن وصول الرسالة إلى الناس شرط للمسئولية ، يقول قتادة : (إن الله ليس بمعذب أحداً حتى يسبق إليه من الله خبر ، أو تأتيه من الله بينة ) (٣) . ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤) . واضحة في ثبوت العذر لأهل الفترة على عدم إيمانهم ، ودلالاتها على ضرورة الدعوة على وجهها الصحيح عن طريق رسول الله ، أو بواسطة من يكلفه من الدعوة

<sup>(١)</sup> يس آية ( ٦ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الإسراء آية ( ١٥ ) .

<sup>(٣)</sup> تفسير القرطبي ج ١ ص ٢٥١ .

<sup>(٤)</sup> سورة القصص آية ( ٤٧ ) .

وعلى هذا فآباء النبي ﷺ " القرييون كانوا من الخفاء، على أقل تقدير وليس بضروري أن يكونوا على رسالة دينية كاملة ( عقيدة وشريعة ) وأما الأبوان الشريفان فهما من أهل الفترة بإجماع ، لتأخر زمانهما ، وبعد ما بينهما وبين الأنبياء السابقين <sup>(١)</sup> ، فأخر نبي بعث للعرب هو إسماعيل ، وبينه وبين محمد ﷺ " ثلاثة آلاف سنة ، ولم يعمر طويلاً ، وكان العرب في جهل بالنسبة للرسالة للدرجة أنهم تعجبوا حين بعث الله تعالى نبيه محمداً ﷺ " وقالوا ما حكاه الله تعالى : ﴿ أَيْبَعَثَ اللَّهُ نَبِيًّا رَسُولًا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وقالوا أيضاً ما حكاه الله تعالى : ﴿ قَالُوا لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً فَإِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِمْ كَاذِبُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> وقد صور الله تعالى أحوالهم متعجباً فقال تعالى : ﴿ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وهذا محمد ﷺ " لما حُبب إليه الخلاء ، كان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه اللبالي ذوات العدد ، وكانت عبادته على ما بقي من دين إبراهيم وإسماعيل " عليهما السلام " ، إذ لا سبيل له إلى غير ذلك .

إن تباعد الزمان بين رسالة إسماعيل " عليه السلام " وآباء النبي القرييين غيب عنهم حقيقة رسالة الله بكمالها ، وتمامها ، ولكنهم تمسكوا بما أبقاه الله بينهم ، فلم يعبدوا غير الله ، ولم يشركوا معه إلهاً آخر .

ومن هنا نرى أن توحيد الخفاء كاف في القول بإيمان آباء رسول الله ﷺ " .

\*\*\*

<sup>(١)</sup> أرجح الرأي القائل بأن آبا النبي ﷺ " من أهل الفترة على الآراء الأخرى ، هذا وقد فصل السيوطي الآراء

كلها وأدونها في كتابه الخواص .

<sup>(٢)</sup> سورة الإسراء آية ( ٩٤ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة فصلت آية ( ١٤ ) .

<sup>(٤)</sup> سورة المؤمنون آية ( ٦٩ ) .

## المسألة الثالثة

## صلة بني هاشم بسائر بطون العرب

تعرف أسرة النبي ﷺ " بالأسرة الهاشمية نسبة إلى هاشم بن عبد مناف وهي أسرة عربية تمتد نسبها إلى إبراهيم عليه السلام .  
فرسول الله ﷺ " واحد من العرب يتصل مع كل عربي نسباً ، وطناً ، ولهم جميعاً أبناء إسماعيل ، وعروبة النبي ثابتة موطناً ، وجنساً ، ولغة .

يقول الله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَا مِنْهَا آلَهُمْ فَلَا تَصِيرُهُمْ ﴾ (١) وفي هذا بيان لقريّة النبي ﷺ " التي أخرجهم وهي مكة ، موطنه الذي أخرج على تركه ، والهجرة منه إلى يثرب ، المدينة التي هاجرته ﷺ " إليها ، يقول قتاده وابن عباس : ( لما أخرج النبي ﷺ " من مكة المدينة انفتحت إلى مكة وقال : اللهم إنك أحب البلاد إلى الله ، وأنت أحب إلى ولولا المشركون أهلك أخرجوني ما خرجت منك ) (٢) .

ويقول تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾ (٣) ، ويقول : ﴿ يَتَّبِعُونَ الرُّسُولَ الَّذِي الْأُمِّيُّ ﴾ (٤) وعلى هذا فالنبي أمي ، أي عربي ، لأن الله صفة ، ومسمى للعرب قبل المبعث في مقابل أهل الكتاب وهم بنو إسرائيل (٥) وجاء الإسلام بلغة العرب ، يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (٦) ، ويقول : ﴿ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ ﴾ (٧) فهذه العرب

(١) سورة محمد آية (١٣) .

(٢) الحديث صحيح ، رواه الثعلبي ، تفسير القرطبي ج ١٦ ص ٢٣٥ .

(٣) سورة الجمعة آية (٢) .

(٤) سورة يوسف آية (٢) .

(٥) سورة الأعراف آية (١٥٧) .

(٦) سورة مريم آية (٩٧) .

(٧) النحل ج ١ ص .

التي أتت لرسول الله تؤكد قرابته العامة لكل عربي ، وتزيد التقاءه مع كل منهم في نسب  
عبد أو قريب .

وقد وضع ابن حزم الأسباب النسبية التي ربطت النبي ﷺ " بقبائل العرب  
جميعاً ، فقال : ( وفي عبد المطلب يجتمع معه " القبيلة " : بنو علي ، وجعفر ، وعقيل  
— بنو أبي طالب — ، وبنو العباس ، وبنو الحارث ، وبنو أبي هب .

وفي عبد مناف يجتمع معه : بنو أمية ، وسائر بني عبد شمس ، وبنو المطلب ،  
وبنو نوفل ، وبنو عبد المطلب .

وفي قصي يجتمع معه : بنو عبد العزى ، وبنو عبد الدار ، الذين منهم حجة الكعبة .  
وفي كلاب يجتمع معه : بنو زهرة ، وأمه منهم ، وهي أمنة بنت وهب بن  
عبد مناف بن زهرة .

وفي مرة يجتمع معه : بنو تميم بن مرة ، وبنو مخزوم بن يقظة بن مرة .

وفي كعب يجتمع معه : بنو عدي ، وبنو جمح ، وبنو سهم .

وفي لؤي يجتمع معه : بنو عامر بن لؤي .

وفي غالب يجتمع معه : بنو تميم الأدرم .

وفي فهر يجتمع معه : بنو الحارث ، وبنو محارب ، وفهر هذا : هو أبو قريش  
كلها ، من لم يكن من ولده فلا نسب له في قريش ، ومن كان من ولد فهر فهو  
قرشي .

وفي كنانة يجتمع معه : كل من ينتمي إلى كنانة من بني عبد مناة ، وملك ،  
وملكان ، وحنال ، وعمرو بن كنانة .

وفي خزيمة يجتمع معه : بنو أسد ، والقارة ، وهم بنو الهون بن خزيمة .

وفي مدركة يجتمع معه : بنو هذيل .

وفي اليأس يجتمع معه : بنو غنيم وإخوانهم ، وبنو ضبة ، ومزينة ، والرياب  
وخزاعة ، وأسلم ، فأما الرياب فهم : تيم ، وعدي ، وثور ، وعكل .

وفي مضر يجتمع معه : قبائل قيس كلها : سليم ، ومازن ، وفزارة ، وبنو  
وأشجع ، ومرة ، وسائر بني ذبيان ، وغطفان : وعقيل ، وقشير ، والحريش ، وبنو  
والعجلان ، وكلاب ، والبيكاء ، وهلال ، وسواعة ، وبنو جشم ، وبنو  
وثقيف ، وسعد ، وسائر هوازن ، ومخارب ، وعدوان ، وفهم ، وباهلة ، وغير  
والطفاوة ، وسائر قيس .

وفي نزار يجتمع معه : قبائل ربيعة ، وهم بكر ، وتغلب ، وعثر بني وائل  
وعبد القيس وقبائلها ، وعثرة ، والنمر بن قاسط .

وفي معد يجتمع معه : إباد .

وفي عدنان يجتمع معه : بنو عك ( ١ ) .

هذه واحدة ..

وأخرى وهي أن جميع بطون مكة قبيل البعثة كانت ترتبط بين هاشم بن عبد  
ورحم ، فعن ابن عباس ( أن النبي ﷺ " لم يكن بطن من بطون قريش إلا وله سهم  
قراءة ) ( ٢ ) وبسبب هذه القرابة نرى القرآن الكريم يكرر في معرض دعوته لأهل مكة  
أن الرسول "منكم" و "من أنفسكم" و "منهم" يقول تعالى : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ  
مِّنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ ( ٣ ) ، ويقول سبحانه : ﴿ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنْفُسِهِمْ ﴾ ( ٤ )

( ١ ) جوامع السيرة ص ٢١٣ ، ٤٤ .

( ٢ ) صحيح البخاري — باب المناقب ج ٤ ص ٢١٧ .

( ٣ ) سورة التوبة آية ( ١٢٨ ) .

( ٤ ) سورة آل عمران آية ( ١٦٤ ) .

ويقول : ﴿ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ ﴾ <sup>(١)</sup> ، فالرسول " ﷺ " منهم ، وهم أقرباؤه ، ومع ذلك فدعوته للعالم كله ، وعليهم أن يؤمنوا به ليؤكدوا تشرفهم بحمل الرسالة ، وتبليغها للعالمين .

إن بطون قريش يرتبطون بقراية مع رسول الله فهم أحواله وأعمامه ، وله منهم عمات ، وخالات ، كما يقول تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي ءَاتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ﴾ <sup>(٢)</sup> ودلالة هذه الآية صريحة في وجود أعمام ، وأحوال ، وعمات ، وخالات له " ﷺ " في مكة ، وأنه " ﷺ " تزوج من بناتهم المهاجرات بعد الهجرة ، وبالبحث في زوجات النبي " ﷺ " القرشيات نجد أنهن لسن من بني هاشم ، ولكنهن من بقية بطون مكة ..

**فُعَانِشَةُ** من بطن : تيم " ، وتلتقي برسول الله في جده مرة .

**وحفصة** من بطن " عدى " ، وتلتقي برسول الله في جده كعب .

**وأم حبيبة** من بطن " بنى أمية " ، وتلتقي برسول الله في جده عبد مناف .

**وأم سلمة** من بطن " بنى مخزوم " ، وتلتقي برسول الله في جده كلاب .

**وسودة** من بطن " بنى عامر " ، وتلتقي برسول الله في جده لؤى .

**وزينب** من بطن " بنى أسد " ، وتلتقي برسول الله في جده خزيمة .

وهذا يشهد القرابة القريبة لرسول الله مع بطون مكة جميعاً : فهم أعمام وعمات وأحوال وخالات ، أقرباء لحمد " ﷺ " .

إن قرابة النبي " ﷺ " لبطون مكة تعود لعدة أجيال قديمة ، وهي حقيقة لا شك فيها

<sup>(١)</sup> سورة النحل آية ( ٥٠ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأحزاب آية ( ٥٠ ) .

وقد تحدث القرآن الكريم عن هذه القرابة في مجال حث أهل مكة على الإسلام حيث يقول تعالى : ﴿ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ ﴾ <sup>(١)</sup> .  
 فهي تشير إلى القرابة المعروفة بين رسول الله ﷺ وأهل مكة ، والتي  
 أن تدفعهم إلى الإيمان بالإسلام أداء لحق المودة ، والقرابة مع رسول الله ﷺ .  
 ويقول تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> ..

والآية تتضمن — كما هو ظاهر — دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ كان  
 في مكة عشيرة ، أو بطن خاص يلتحم به التحام القرابة العصبية المباشرة ، مع أنهم  
 هذا البطن الخاص بوشائج القرى مع سائر بطون قريش ، والقرائن القرآنية مضادة  
 أخبار السيرة والروايات ، تدل على أن هذا البطن الخاص كان ذا مكانة محترمة  
 وملك جانباً عزيزاً بين الناس .

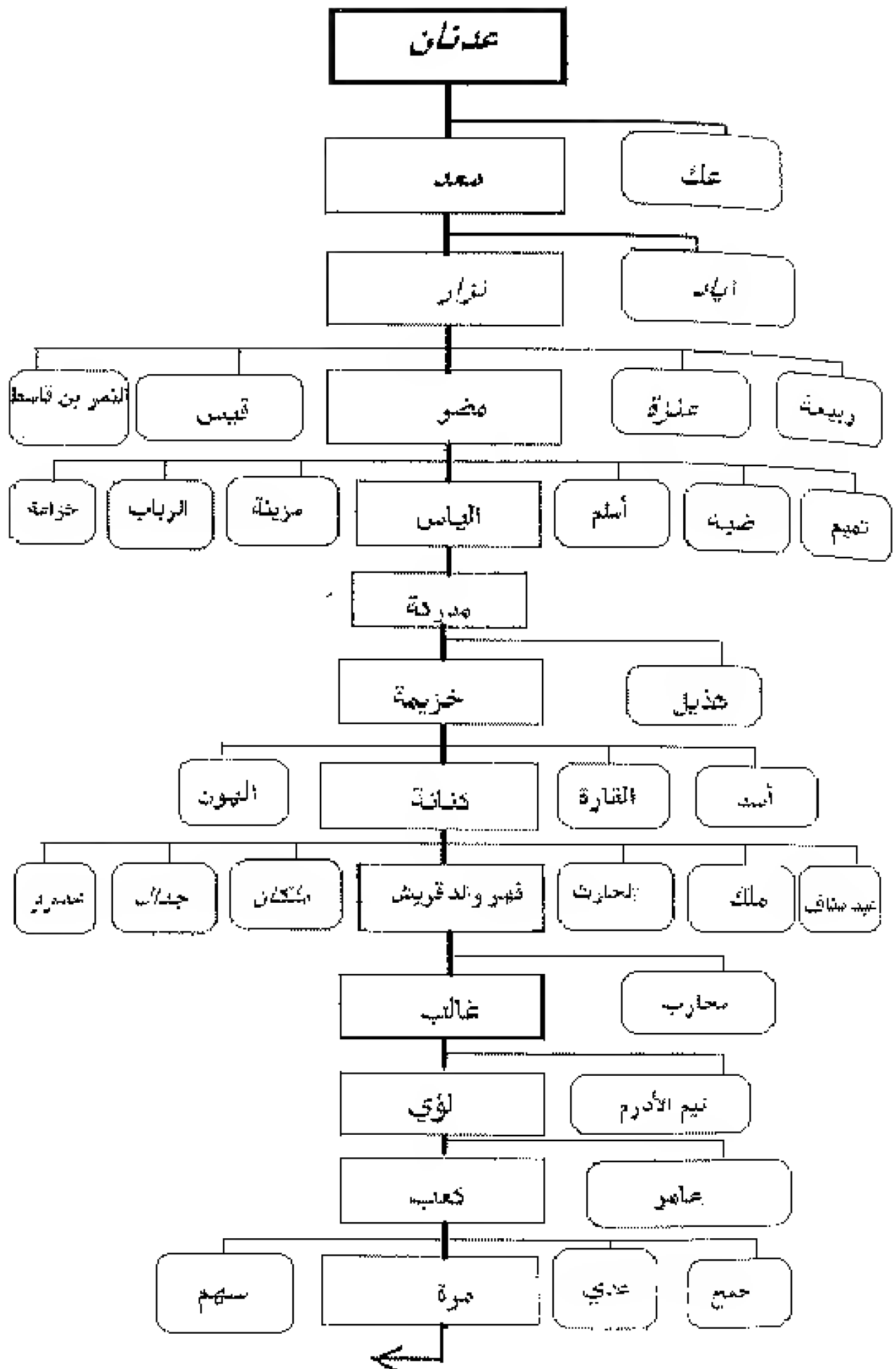
لقد أمر النبي ﷺ كثيراً من المسلمين بالهجرة من مكة إلى الحبشة خوفاً  
 ما نالهم من اضطهاد قريش ، لمتابعتهم النبي ﷺ " وعدم وجود من يحميهم  
 وينصرهم ، في حين أن النبي ﷺ " ومعه غيره من رجالات المسلمين القريشيين  
 بهاجروا ، وظل يقوم بدعوته قوياً ، صريحاً ، واضحاً في الإنكار ، والتخمين  
 والإنذار بلسان القرآن ، معتمداً على الله تعالى الذي جعل له من أقربائه أنصاراً  
 أنهم لم يؤمنوا بالإسلام <sup>(٣)</sup> .

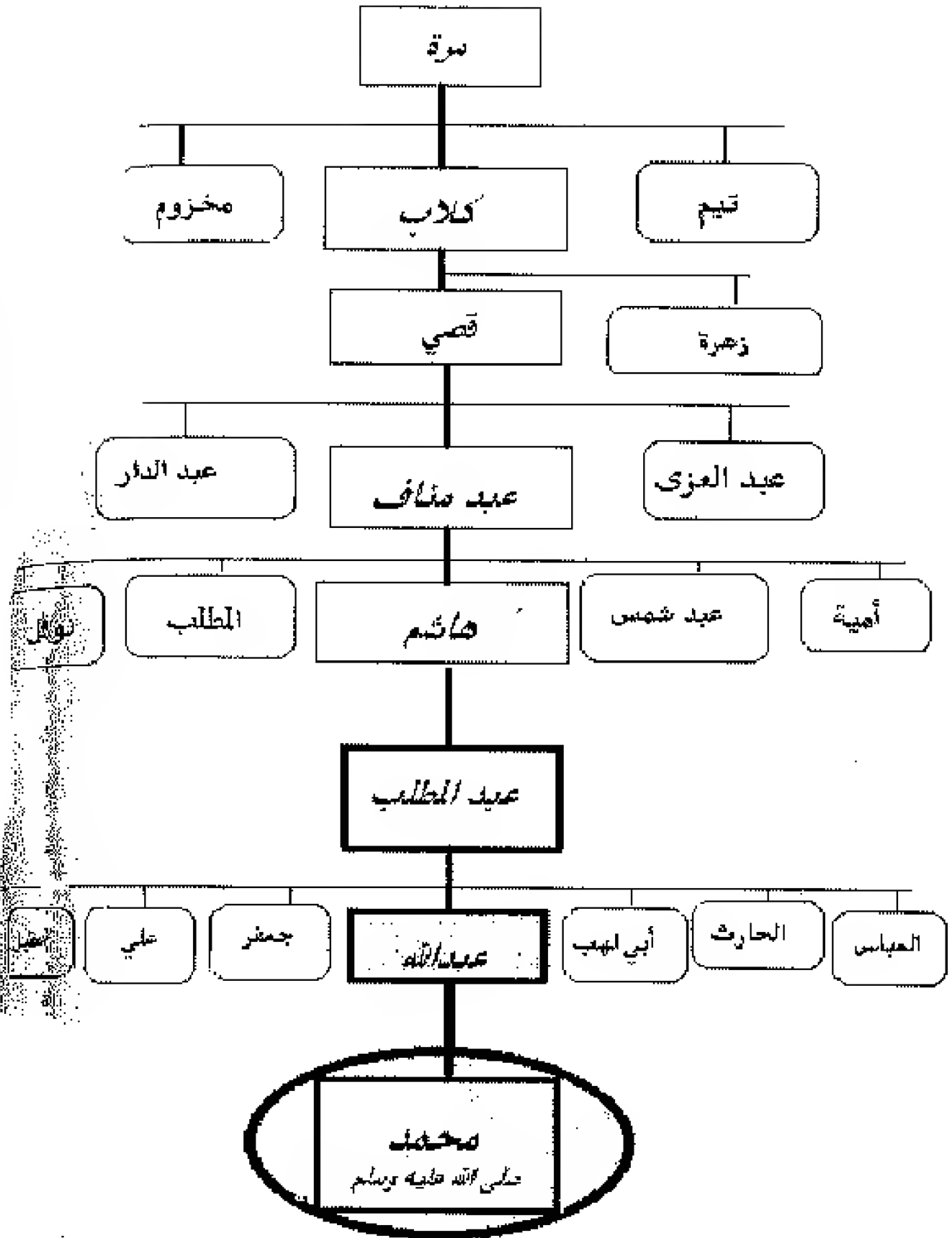
(١) سورة الشورى آية ( ٢٣ ) .

(٢) سورة الشعراء آية ( ٢١٤ ) .

(٣) تراجع في هذه القضية مواقف عمه أبي طالب الذي عاش حياته مدافعاً عن محمد ﷺ " مع أنه  
 وقصة إسلام حمزة التي قامت دفاعاً عن محمد ﷺ " ، واشترك بني هاشم والمطلب مع المسلمين  
 الكفار لهم .. وكلاهما تدل على ما كان القرابة والعصبية من نصرة ومساندة .  
 ويجب أن ينظر إلى أن الهجرة إلى الحبشة كانت للمحافظة على روح وقوة الجماعة المسلمة ،  
 الإسلام خارج جزيرة العرب .







سلسلة نسب النبي محمد صلى الله عليه وسلم

**وهي نهاية هذا البحث** أجد شبهة تستحق أن نرد عليها ، فلقد عرض الدكتور / محمود علي مراد لأحداث السيرة في المرحلة المكية في رسالته للدكتوراه ، ورأى أن أغلب مروياتها وضع تمجيذاً لبني هاشم ، أجداد العباسيين ، الذين دونت السيرة في عهدهم ، ولذلك جاءت أحداث سيرة ابن اسحق وبخاصة في الفترة المكية تمجيذاً لبني هاشم خدمة للعباسيين على حساب الأمويين أعدائهم .

ويرى أن النصوص التي تصور عبد المطلب مؤمناً غير صحيحة ، ولا تتناسب مع بعض الشواهد التي ذكرها الدكتور في مؤلفه ، فقصة حفر عبد المطلب لمزم ، ومواجهته لأبرهة ، وإصراره على الوفاء بنذره ، بذبح أحد أبنائه العشرة .

هذه الأحداث يردها الدكتور ويستدل في ردها برضى عبد المطلب على وضع الأصنام حول الكعبة ، وعدم قيام عبد المطلب بدعوة دينية في قومه ، وتسميته أحد أبنائه بـ " عبد العزي " ، وجحود أبنائه الديني ، حيث لم يؤمن أحدهم بمحمد إلا بعد ثلاث سنوات من البعثة <sup>(١)</sup> ، مما يدل على عدم توجيههم دينياً .

ومن لا يرتضي ما ذهب إليه الدكتور لما يلي : —

١. التشكيك في راوي السيرة ( ابن اسحاق ) غير صحيح فهو من رواة السنة ، وأحاديثه ، ورواياته مقبولة ، وقد وثقه علماء الجرح والتعديل <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> سيرة رسول الله " ﷺ " — د / محمود علي مراد ص ٤٢ بتصرف ، وهي رسالة حصل بها المؤلف على الدكتوراه من جامعة السوربون ، وهي مترجمة من الفرنسية إلى العربية .

<sup>(٢)</sup> محمد بن اسحاق صاحب السيرة التي خصها ابن هشام من العلماء الثقات يقول عنه البخاري : روي عنه إبراهيم بن سعد ، سبعة عشرة ألف حديث ، ومن أشهر مشايخه عاصم بن قنادة ، والزهري ، وعبد الله بن أبي ، وهشام وعمر بن عمرو بن الزبير ، وإبان بن سعيد .

يقول ابن هشام عنه : هذا أعلم الناس بالمغازي ، ويقول عاصم بن عمر : لا يزال في الناس أعلم ما بقي من اسحاق ، ويقول ابن معين عنه : إنه ثقة ، حسن الحديث .

وقد جرح بعض العلماء ابن اسحاق لإكثاره في الرواية ، وإجماعه بالقدر ، وتبعه لأولاد اليهود الذين روى أحاديث الغزوات ، وهي أسباب ردها علماء الحديث ، ويحصر نقد ابن اسحق عند إمامين جليلين ---  
عدهما الإمام مالك بن أنس ، وهشام بن عمرو : بناء على أسباب وجدوها فيه ، وهي :

٢. لأجداد الأمويين والعباسيين أجداد : ومزايًا ، فلم نفهم ابن إسحاق

أجداد العباسيين مع أن إيرادهم هنا مع أحداث السيرة ضرورة علمية لا من من صلة مباشرة بصاحب السيرة رسول الله ﷺ " ؟ !

ولم لم نفهم سبب سكوته عن أجداد الأمويين : مع أن مجال الدراية

عنهم ، ولم يشر ابن إسحاق إلى الأمويين بأي سوء ،

٣. رد الأحاديث المروية اعتماداً على العقل وحده لا يكفي ، لأن

عبد المطلب لم يكن بصورته الكاملة : فهو يشبه الخنفاء كما قلنا . فكم الدكتور بتصوره رسولاً ، وينقد على هذا الأساس .

٤. تشكك ابن هشام في صحة القصائد التي عزاها ابن إسحاق إلى

عبد المطلب ، وقد أبرز الدكتور هذا التشكك ، واستشهد به ، فلم

ابن هشام صادقاً هنا . . وغير صادق في مروياته الأخرى عن عبد المطلب ؟

الأول : حرصه على الإكثار من الرواية ، وهو أمر كرهه الإمام مالك في حياته ، قال عبد الرحمن بن مهدي :  
مالك : زيا أبا عبد الله سمعنا في بلدكم - أي المدينة - أمر معاذة حديث في ثوبين يوماً ، ونحن في الجوف  
نسمع هذا كله - أي بالمعراق - فقال له : يا أبا عبد الرحمن من أين لنا دار الصرب التي عندكم ؟ قال :  
تضربون بالليل : وتنقضون بالنهار .

البيان : إقامته بالقدر ، وهي قيمة أهم لها كثير من المحدثين ولم تنل منهم ، وقد أخرج مسلم  
صحيحة عن بعضهم .

أخرج الخطيب عن أبي زرعة الدمشقي قال : ( وعبد بن إسحاق رجل قد أجمع النجباء منكم )

على "الأخذ منه منهم سفيل : ربيعة : ومن عيه ، وحامد بن زيد ، وحامد بن مشقة ، وابن المبارك ، وأبو  
أهل الحديث قرأوا حديثاً ، وخيراً ، مع مدح بن تهاب له ، وقد ذكرت دحيماً قول مالك في ابن إسحاق :  
أن ذلك ليس له حديث : إنما هو لأنه إسمه بالقدر .

وقد قال الخرجاني : الناس يشتهرون حديثه ، وكان يرعى بغير نوع من الدخ ، وقال موسى بن

سليم : سمعته من عبد الله بن محمد يقول : كنت مع عبد بن إسحاق برمي بالشعر وكان أعبد الناس معه .

الثالث : تبعه لغزوات النبي ﷺ من أولاد اليهود الذين أسلموا وحفظوا قصة حير وغيره

( انظر : مع (الموسم) " ١٢٤ - ١٢٥ بتصرف ) .

## المبحث الثاني

### إرهاصات الميلاد والرأى فيها

الإرهاص أمر خارق للعادة يظهره الله قبيلاً مبعث نبي ما ، وهو يختلف عن  
 الحوار في العبادات الأخرى ، لأن المعجزة تظهر على يد مدعى النبوة تصديقاً له ،  
والكرامة تظهر على يد عبد صالح تكريماً له ، والمعونة تظهر لعبد صالح معونة له .  
 وقد أورد مؤرخو السيرة الخمدية ، عدداً من الإرهاصات ذكرها أنها وقعت  
 عند ولادته " ﷺ " .

من هذه الإرهاصات : —

- ما رواه محمد بن إسحاق عن حسان بن ثابت ، قال : ( والله : إني لغلام  
 يفعلة ، ابن سبع سنين أو ثمان ، أعقل كل ما سمعت ، إذ سمعت يهودياً  
 يصرخ بأعلى صوته على أطفة بـ ( يشر ب ) : يا معشر يهود ! حتى إذا  
 اجتمعوا إليه قالوا له : ويلك ؟ ! مالك ؟ !  
 قال : طلع الليلة نجم أحمد الذي ولد به ) <sup>(١)</sup> .
- وعن أسامة بن زيد قال : ( قال زيد بن عمرو بن نفيل ، قال لي حبر من  
 أحبار الشام : قد خرج في بلدك نبي ، أو هو خارج ، قد خرج نجمه ،  
 فارجع فصدقه ، واتبعه ) <sup>(٢)</sup> .
- ما رواه ابن سعد بسنده عن ابن عباس أن آمنة بنت وهب قالت : لقد  
 علقت به ، تعنى رسول الله " ﷺ " ، فما وجدت له مشقة حتى وضعته ،  
 فلما فصل مني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق إلى المغرب ، ثم وقع  
 على الأرض معتمداً على يديه ، ثم أخذ قبضة من تراب فقبضها ، ورفع

<sup>(١)</sup> صحيح السيرة ص ١٤ -

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ص ١٦ .

رأسه إلى السماء ، وقالت أيضاً : لما ولدته خرج مني نور أضاء  
الشمس ، فولدته نظيفاً ، ولدته كما يولد السحلب ما به قدر ،  
الأرض وهو جالس على الأرض بيده <sup>(١)</sup> .

• ويروى بن سعد أيضاً أنه لما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله  
أربعين إيوان كسرى ، وسقطت منه أربع عشرة شرفة ، وحدث نار فارتفعت  
تحمداً قبل ذلك بألف عام ، وغاضت بحيرة ساوة ، ورأى الموبدان إبلاً ضاعاً  
خسلاً عراباً ، قد قطعت دجنة ، وانتشرت في بلادهم ، فلما أصبح كسرى  
ذلك ، فتصير عليه تشجعاً ، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك عن مرأته فجمعهم  
تاجه ، وجلس على سريرته ، ثم بعث إليهم فلما اجتمعوا عنده .  
قال : أتدرون فيم بعثت إليكم ؟ ! .

قالوا : لا إلا أن يخبرنا الملك .

فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم كتاب حمود النيران ، فازداد غمماً إلى غمهم ،  
أخبرهم بما رأى ، وما هاله .

فقال الموبدان وأنا — أصلح الله الملك — قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ، ثم قصت  
رؤياه في الإبل ، فقال أى شيء يكون هذا يا موبدان ؟

قال حدث يكون في ناحية العرب — وكان أعلمهم من أنفسهم — فكتب  
كتاباً من كسرى ملك الملوك ، إلى النعمان بن المنذر ، أما بعد فوجه إلى رجل  
أريد أن أسأله عنه ، فوجه إليه بعبد المسيح بن عمرو بن حيان بن تقيبة النخعي  
فلما ورد عليه قال له : ألك علم بما أريد أن أسألك عنه ؟

فقال : لتخبرني أو ليسألني الملك عما أحب ، فإن كان عندي منه علم والإله  
يمن يعلم .

فأخبره بالذى وجه به إليه فيه .

قال : علم ذلك عند خال لى يسكن مشارف الشام يقال له سطيح .

قال : فأتته فأسأله عما سألتك عنه ، ثم اتيت بتفسيره ، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح ، وقد أشفى على الضريح ، فسلم عليه وكلمه ، فلما سمع سطيح قوله ، رفع رأسه يقول : عبد المسيح ، على جمل مشيح ، أتى سطيح ، وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بني ساسان ، لارتجاس الإيوان ، وحمود النيران ، ورؤيا المويذان رأى إبلاً صعباً ، تقود خيلاً عرباً ، قد قطعت دجلة ، وانتشبت في بلادهم ، يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب الهراوة ، وفاض وادى السماوة ، وغاضت بحيرة ساوة ، وخذت نار فارس ، فليس الشام لسطيح شاماً ، يملك منهم ملوك وملكات ، على عدد الشرفات وكل ما هو آت آت ، ثم قضى سطيح مكانه فنهض عبد المسيح إلى راحلته <sup>(١)</sup> .

والإرهاصات التى ذكرها مؤرخو السيرة عديدة ، وكلها تشير إلى حدوث أمر جديد يتأثر به العالم كله ، ويصل خيره ، ونفعه إلى كل مكان في أرض الله تعالى . أدرك من شاهد هذه الإرهاصات ، أو بعضها حدوث هذا التغيير ، لكنه لم يرتبط في أذهانهم بالمولود الجديد ، اللهم إلا نفر قليل من أهل الكتاب الذين كانوا يقرأون الكتاب ، ويرون صفة رسول الله ، الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة ، والإنجيل ، وسار العلماء القدامى على تصديق كل أثر صح سنده ، فلم ييحتوا عن علة الأثر ، أو غايته ، لأنهم رأوا أن من الأخبار ما هو متصل بأمر خارق للعادة ، لا يصل العقل إلى كنهه ، وحقيقته ، مما جعلهم يقفون عند حد ثبوت النص ، وتصديقه والعمل به ، ورأينا العلماء القدامى يروون إرهاصات النبوة في مؤلفاتهم ، ودروسهم ، ولم يعلقوا عليها ، مما يدل على أنهم راضون عنها ، سعداء بذكرها .

إلا أننا في العصر الحديث وجدنا عدداً من المستشرقين ، والمستشرقات ، كتبوا في السيرة ، يرفضون الإرهاسات باسم العلم والعقل من غير نظر إلى أو مصدر رواية الحدث .

فمنهم من رفض هذه الإرهاسات بحجة أن الإسلام لا يحتاج إليها ، وانتشاره ، لأنه يعمل عوامل التصديق به في ذاته ، كما أن هذه الإرهاسات لم تنسج على الإسلام أحد ، ولم تكن دليلاً على صدق الرسالة يوم بعث محمد ﷺ ، فلقـد ولد مع النبي ﷺ في يوم مولده غيره ، ومن الممكن أن يدعى أهل بيته الأبناء ، وقومهم أن هذه الإرهاسات بسبب ميلاد أبنائهم .

إن هذا الفريق لا يصرح بكذب الإرهاسات ، ولا يقول بها ، لأنها لا تفي بأمامه فائدة تذكر للدعوة الإسلامية .

يقول عباس العقاد : علامات الرسالة الصادقة هي عقيدة تحتاج إليها الأمة وهي أسباب تشهد لظهورها ، وهي رجل يضطلع بأمانتها في أوائها ، فإذا جئت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها ؟ ..

وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها ؟ وقد خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين ، وإلا فلأى شيء خلق ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوقيعات ؟ هاتيك المناقب والصفات ؟ ..

إن المؤرخين يجهدون أقلامهم غاية الجهد في استقصاء بشائر الرسالة الخاتمة يسردون ما أكدته الرواة منها ، وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منها ، وما لم يلقوه ، وما أيدته الحوادث ، أو ناقضته ، وما وافقته العلوم الحديثة ، أو عارضته ، ويتفرقون في الرأي والهوى بين تفسير الإيمان ، وتفسير العيان ، وتفسير المعرفة ، وتفسير الجمالة . فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة في آثار تلك البشائر التي سبقت الميلاد ، أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة ، واستفاض أمر الإسلام ؟ ..



لا موضع هذا لاختلاف ، فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر في إقناع أحد بالرسالة يوم صدق النبي ﷺ " بالرسالة .

ولم يكن ثبوت الإسلام متوقفاً عليها ، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ، ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء ، أو على رسالة ستأتي بعد أربعين سنة ، ولأن الذين سمعوا بالدعوة ، وأصاحوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارتها واحدة منها ، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه .

وقد دل مع النبي ﷺ " أطفال كثيرون في مشارق الأرض ومغاربها ، وبما جاز للمسلمين أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره . ولم يفصل الخوارج ما لحق بين المصدقين والمكابرين ، إلا بعد عشرات السنين ، يوم أتت الدعوة بالآيات والبراهين ، غنية عن شهادة الشاهدين ، وإنكار المنكرين ، أما العلامة التي لا الأساس فيها ، ولا سبيل إلى إنكارها ، فهي علامة الكون ، وعلامة التاريخ . قالت حوادث الكون : إن الدنيا في حاجة إلى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ : محمد ﷺ " هو صاحب تلك الرسالة ؛ ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون ، وعلامة التاريخ (١) ؟ ؟ .

**ومنهم من رأى** ضرورة عرض هذه الإرهاصات على العقل ، فهو ميزان

القبول والرفض لأي قول ، في إطار الأسس العلمية ، التي أخذوها من المنسشرين ، حيث يعتمدون على العقل اعتماداً كاملاً في إدراك كل شيء .

وحين تظهر النظرة العقلية في صورة أحياد العلي عند أصحاب هذا الاتجاه

مراهم يعرضون المرويات على القرآن الكريم آحياناً ، عما اتفق معه منها قبل ، وما لم يوفق فمستدركه الرفض وعدم القبول ، مع أن القرآن يشهد عن الخوارق المعجزة وغيرها

وعلى أساس فكرهم هذا رفضوا كثيراً من الإلهاميات ، كما رفضوا من أحداث السيرة لخروجها عن عادة العقل ، وسكوت القرآن عنها ، وأوضحها في القرآن الكريم ، وأولوه دينا يؤيد موقفهم الراض عن المرويات السنية والتاريخ ، وذلك كموقفهم من شق الصدر وغيرها .

وحين ننظر إلى هؤلاء ندرك الفرق بينهم ، فكلاهما يرفض الإلهام المروية ، إلا أنهما يختلفان في سبب الرفض ، حيث يذهب الفريق الأول في سبب رفضه إلى عدم فائدتها للدعوة ، بينما الفريق الثاني ينكر وجودها لعدم تسليم العقل بها . وقيل أن نرد عليهم أشير إلى أن أحداث هذه الإلهاميات جاءت على غير ما أتته الناس ، وأقل ما تركه في عقولهم انبث عن فاعلها ، وعن أسباب وقوعها ، والصورة المخارقة ، وهذا كاف في توجيه أنظارهم إلى التفكير ، والتدبر ، وإن لم يعمدوا إلى شيء .

إن الفريقين على خطأ فيما ذهبا إليه لأسباب كثيرة أهمها : —

**أولاً :** ضرورة التفريق بين الجانب العقلي ، والصورة النبوية ، لأن الله تعالى مستند من الله تعالى ، وقدرة الله تعالى مطلقة ، تعلو كثيراً عن نطاق العقل البشري ، وطاقته .

وإذا كانت النبوة مخاطبة بخوارق العادات ، فكيف تدرك حقائق هذه الخوارق بالعقل المحدود .

لقد حاول كفار مكة بمواجهة النبوة بعقولهم : ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا نَزَلَ الْفُرْقَانُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ <sup>(١)</sup> وحجتهم فيما طيلوه أن النبوة رئاسة ، وقيادة ، وحديث بها العظماء المشهورون بالغي ، والجاه ، والسمعة ، وطوبى لأحد عظماء مكة ، أو للطائفة .

ولو عرضنا هذا المنطق على العقل وحده لكان منطقاً مسلماً ، فالتعظيم بماله  
ويُسود ، وبجاهه يأمر ويطاع ، وبقوته وسطوته يوجه ، وبسيطه ، ويحكم .

أما لو عرضناه على منطق النبوة والوحي فإن الأمر يختلف كما قال الله تعالى  
لَهُمْ يَفْقِسُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ حَتَّىٰ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا  
بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا  
يَجْمَعُونَ ﴿١١﴾

إن النبوة رحمة من الله تعالى يعطيها لمن اصطفاه ، واختاره ، ولا تدخل للعقل  
فيها ، لأن العقل محدود التصور ، محدود الإدراك ، فكيف له أن يتدخل في رحمة الله  
وعطائه بالرفق ، والتوزيع ، والنقد ؟ !! ..

إن العقل يعجز في إدراك شأن صاحبه ، ولا يستطيع له أمراً ، فأمور الدنيا  
تجري بقدر الله تعالى ، ولا يمكن لإنسان أن يخرج عن هذه القدرة الإلهية .

إن الغني ، والفقر ، والسعادة ، والشقاوة ، والصحة ، والمرض ، والتيسير ، والتعسير ..  
كل ذلك وغيره قدر لا دخل للإنسان فيه ... فأين العقل إذاً في هذه المحالات ؟ ! ..  
إن القدر الإلهي قد يرفع إنساناً ، ويعطيه ، وحيث يستخدم كثيراً من العقلاء  
الموهوبين ، مع أن حظه في العبقرية قليل ، مما يدل على أن الأمر بيد الله رب العالمين .

إن العقل البشري قد يتصور العظمة في الأمور الظاهرة ، كالغني ، والوظيفة  
والسلطان ، وتثبت الأيام والتجارب أن العظمة الحقيقية في الجوانب المعنوية ، المستورة  
التي يعلمها الله تعالى وحده ، ولذلك كانت النبوة قدراً إلهياً ، ﴿ وَرَبِّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ  
وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ﴾ .

لقد استعمل القرشيون عقلهم أيضاً أمام الوحي ، والقُدرة الإلهية في حادثة الإسراء والمعراج ، وأنكروا على رسول الله ﷺ " ما قاله لهم ، وقالوا له : يا بشرنا ! ما لك أن تأتيهم في ليلة واحدة ؟ ! ..

لقد أملي عليهم عقلهم استحالة ما سمعوا من رسول الله ، لأن العقل لا يستطيع أبداً بأن يسافر إنسان ما في زمان النبوة والبعثة ، من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ويعود في ليلة واحدة ، ونسوا أن الذي أسرى برسول الله هو قُدس الله تعالى ، والذي هو الله ، يقول تعالى : ﴿ شُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنَ الْأَيْمَنِ إِنَّ اللَّهَ الْبَصِيرُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) ، والنبي ﷺ " ( يقول أسرى في الليلة ) (٢) ولم يستعمل العقل لنفسه .

إن أصل الخلاف بين الرسول وأهل مكة في هذه الحادثة هو مصدر الوحي والتصور ، فأهل مكة يعتمدون على عقولهم ، بينما الرسول ينطلق من الوحي والنبي ﷺ " لقد ذهب الكفار إلى أبي بكر ﷺ " ليكون معهم في تصورهم العقل . وينكر معهم الإسراء والمعراج ..

نكته " ﷺ " " منطوق الإيمان بالنبوة والرسالة يرد عليهم قائلاً : إن قال فقد صدق ، يخبرني أن الوحي يأتيه من السماء في لحظة وأنا معه فأصدق ، أفلا أصدقها هذا ؟ إن البعض قد تصور أن إيمان أبي بكر في شأن حادثة الإسراء والمعراج وغيرها — قد بني على غير تفكير ، أو على أساس الإيمان فقط ، وهذا تصور خاطئ ، إنه قد علم الجميع درساً قائماً ، في كيفية استعمال العقل ، وحدوده التي لا ينبغي أن يتجاوزها .

(١) سورة الإسراء آية ( ١ ) .

(٢) صحيح مسلم بشرح النووي ... باب الإسراء ج ٢ ص ٢١٠ .

إنه يفكر في قبول الرسول إنه رسول، فإذا ثبت لديه صدق الرسول  
فإن النتيجة الحتمية، الموافقة لأى منهج عقلي، أن يؤمن بكل ما صدر عن ذلك الرسول  
يسندون تدخل للعقل، لأن الرسالة، مستمدة من الله عز وجل، وقدرة الله صالحة  
لكل فعل يخالف العقل، أو توافق معه، وذلك هو جوهر القياس العقلي الذي أجراه  
أبو بكر أمام المشركين، لقد قال لهم: إنه يقول لي إن الخير يأتيه من السماء في لحظة  
وأصدق، فأى غرابة في منطق العقل والعلم أن يصدق بعد ذلك في أنه قد أسرى به  
إلى بيت المقدس ما دامت القدرة التي أنجزت هذا الفعل هي قدرة الله عز وجل.  
فليخجل أتباع المدرسة العقلية من أنفسهم وليتعلموا ذلك الدرس العظيم على  
بدأ أبي بكر في كيفية استخدام العقل<sup>(١)</sup>.

يقول ابن عطاء الله السكندري: زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد " عليه السلام "

وقال: هل هنا أحد ممن اجتمع بأبي يزيد؟

فأشير إلى شيخ كبير في السن كان حاضراً هناك.

فقال له: هل سمعت شيئاً من كلام أبي يزيد؟

فقال: نعم: سمعته يقول: ( من زارني لا تحرقه النار ).

فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال: كيف يقول أبو يزيد ذلك،

وأبو جهل رأى النبي " عليه السلام " وتحرقه النار؟

فقال ذلك الشيخ للسلطان: أبو جهل لم ير النبي " عليه السلام "، إنما رأى ( يتيم

أبي طالب ) ولو رآه " عليه السلام " رسولاً لم تحرقه النار.

ففهم السلطان كلامه، وأعجبه هذا الجواب منه، أى إنه لم يره بالتعظيم

والإكرام، والأسوة، واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لتغير حاله، لكنه

رآه باحتقار، واعتقاد أنه ( يتيم أبي طالب )، فلم تنفعه تلك الرؤية.

(١) السيرة النبوية ص ٥٧، ٥٨.

ومما كان المستشرقون في تركيزهم على بشرية الرسول إلا متابعين في هذه النزعة ، وكل من يركز على بشرية الرسول من الكتاب المسلمين إنما هو يتابع المستشرقين والمبشرين في هذه النزعة ، أو يتابع أبا جهل وهم في ذلك ليسوا تقدميين ، ولا تطورين ، وإنما هم من الرجعيين حيث ترجع فكرهم إلى ما قبل خمسة عشر قرناً مضت ، يتزعمهم فيها أبو الجهل كنه ، وأبو الضلالة القلبية كلها إلى التمسك هناك إذن اجتهداء وخطأ ، وصواب ، وإنما هناك تصرفات تفضل بها الكرم والرحمة ، فيحدث الله ، مبيناً طبيعة رسوله الكريمة ، وفطرته الرحيمة ، والواضحة ، ويبين في الوقت نفسه : أن بعض هؤلاء الذين فاضت عليهم هذه الرحمة ليسوا جديرين بها ، وليسوا أهلاً لها ، فساد طوبيتهم وسوء نواياهم .

ومن الخفايا المعروفة : أن الإنسان يميل إلى التركيز على " بشر " أو على " يوحى إلى " حسب قوة شعوره الديني وضعفه ، فالذي لا إيمان له لا يرى إلا البشرية ، والعقل ، والمنهج الوضعي ، ومن ضعف إيمانه يركز على البشرية ، ويحدد التركيز على البشرية كلما قوى الإيمان ، ويزداد التركيز على : " يوحى إلى " كلما ازداد الإيمان حتى يصل الإنسان إلى مستوى ألا يرى ، أو لا يكاد يرى إلا " يوحى إلى " وهناك إذن طرفان يمثلان فرعين من الناس ، طرف " بشر " أو يوحى إنما أنا بشر مثلكم ، وطرف : " يوحى إلى " أو " رسولاً " ، وبين الطرفين بذراع عداد لا يخطئ من المسلمين نزولاً وارتفاعاً ، انخفاضاً وسمواً .

إن مقياس الإيمان قوة وضعفاً ، ومقياس درجة الإيمان الذي لا يخطئ هو ما وقر في القلب ، أو غلب عليه ، من " البشرية " أو من " يوحى إلى " ، يمثلان ما يوضع في كفتي ميزان .

إن النبوة اصطفاة إلهي ، واختيار رباني ، لا يدرك سرها إلا القادر العظيم ، ومن الضروري أن نوضع في موضعها ، ونقف العقل عند حده ، وبذلك يتميز جانب

النبوة عن جانب البشرية في التصور الإنساني .

**ثانياً :** التفرقة بين الجانب الإلهي ، والجانب البشري تكريم للإنسان ، واحترام للعقل ، لأن الإنسان إن أدرك حقيقة ذاته وعرف حقوقه ، وواجباته ، وتمكن من القيام بما هو مسئول عنه ، ونال ما هو محتاج إليه في كمال ودقة ، كان هذا تكريماً له .

وحيثما يكلف العقل بما هو ممكن ، وحيثما يعيش في إطار قدرته الذاتية ينال رضي نفسه ، ويحسن تفكيره ، وتديره ، ويصير مصدر السعادة ، والخير لذاته ولصاحبه . وحيثما يخرج الإنسان عن طاقته ، ويتماذى العقل بعيداً فوق مداركه ، واستعداداته ، فإنه يضل ، ويزيغ عن الحق ، ويحلب على صاحبه الاضطراب ، والضيق . من أين للإنسان أن يتحصل بقدرة غيبية بعيداً عن ميزان النبوة ؟ ! ومسالكها ؟ ! ومن أين للعقل أن يدرك الغيب الخفي ، بمجرداً عن أدواته ومصادره ؟ ؟ .. إن العقل ليس هو النبوة ، ولذلك يجب أن يكون عقلاً فقط ، ويجب أن يؤمن العقل بالنبوة ليعرف ويعلم ، ويؤمن ويهتدى .

**ثالثاً :** يتصور القائلون بالعقل أنهم تقدميون ، يسلكون منهجاً علمياً معاصراً ، وما دروا أنهم حين أعملوا العقل في مقابل النبوة ، والإرادة الإلهية ، رجعوا إلى عصور سحيقة ، وتشبهوا بمخلوقات قديمة ، اعتمدت على عقلها ، وبذلك أثبتوا رجعتهم ، وتحلفهم .

ألم يقف إبليس بعقله أمام الوحي والنبوة ، حين أمره الله بالسجود لآدم " **الطَّيِّبُ** " ، حيث أبي وقال : **﴿ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾** .. وتمسك برأيه ، وتصور صوابه ، مع أنه قائم على الضلال ، والهوي ..

على هؤلاء القائلين بالعقل فقط أن يروا مدى رجعتهم ، وتحلفهم ، ويعلموا أنهم تشبهوا مع أمثالهم الذين وحدوا مع آدم " **الطَّيِّبُ** " في القول والتوجيه .

**رابعاً :**

يرى المنكرون للإرهاصات النبوية غرابة فيها لا يستسيغها العقل ولذلك سارعوا إلى إنكارها، أو السكوت عنها، ومن عجب أن هؤلاء المنكرين أغلبهم من المستشرقين غير المؤمنين بالإسلام والذين يديون بالسيحية، ولذلك نساءهم أينما أكثر غرابة في عقولكم امرأة تحبل بلا زوج ، أم انطفاء نار ؟ وأينما أقرب للعقل اهتزاز قصير ، أم ولادة طفل بغير أب ؟ ! ..

إن المسلم يصدق بكل هذا ، لأنه يؤمن بالله ، ونبوة عيسى " عليه السلام " ولكن السؤال نوجهه لهؤلاء الذين يحاولون تفسير الإسلام تفسيراً غريباً بعيداً عن بيئته ، وطبيعته .

لو وقفنا أمام كل غريبة من الغرائب ، ولم نسلم بها ، وأخذنا نعرنها على التجربة والقواعد العقلية ، فسوف نهدم كثيراً من وقائع الحياة التي نعيشها ، فكم غريبة من الغرائب والعجائب ؟ ! !

إن كون الله معجز كله ، وتصوير إيجاده فوق مستوى العقل كسائر أسرار الله في الخلق .

كيف وجد العقل ؟ وكيف يتصور ، ويفهم ، ويحكم ؟

كيف للقلب أن يعمل ؟ ومتى ينشط ؟ ومتى يتوقف ؟

كيف تقوم الجوارح ، والأحاسيس ، والعواطف بوظائفها ؟

إن كل ذلك وغيره قدرة إلهية ، لا يدرك العقل حقيقتها ، وكنهها مما يجب نقول لهؤلاء : متى تغفون بالعقل عند طاقته ، وحدوده ؟ ... متى ... ؟ ؟

**خامساً :**

المنكرون للإرهاصات ، والأحاديث يحكمون القرآن الكريم حين يتصورون تعارض الأحاديث ومرويات السيرة معه ، لأنهم لا يريدون تكذيب القرآن — كما يزعمون — ولكنهم يردون السنة فقط ، حتى يظهروا بمظهر الإنصاف وحين ألم يعلموا أن السنة الصحيحة لها حجة شرعية كحجية القرآن الكريم ؟

يقول النبي " ﷺ " : ( ألا إني أوتيت القرآن ومثله معه ) .



والأمر المهم هنا ، هو سؤالهم لم صدقتكم بالقرآن الكريم وهو وحى صادر عن الغيب ؟ وهل دفعكم تصديق القرآن الكريم إلى الإيمان بما جاء فيه ؟ وقد جاء فيه ضرورة الإيمان بالنبوة ، والوحى ، وتسليم الأمر لله رب العالمين .

إن إنكار الوحي الغيبي إنكار للإسلام كله ، يقول الدكتور / سعيد البوطي : إن الممس الذي يدعو المسلمين إلى ثورة علمية إصلاحية في شئون العقيدة الإسلامية يستهدف في الحقيقة نسف الإسلام كله ، لأن تفريغ الإسلام من حقائقه الغيبية ، يعنى حشوه بأمور عقلية غريبة عنه ، لأن الوحي الإلهي — وهو ينبوع الإسلام ومصدره ، يعد قمة الخوارق والحقائق الغيبية كلها ، ولا ريب أن الذي يسرع إلى رفض ما جاء في السيرة النبوية من خوارق العادات بحجة اختلافها عن مقتضى ستن الطبيعة ومدارك العلم الحديث ، يكون أسرع إلى رفض الوحي الإلهي كله ، بما يتبعه ، ويتضمنه من إخباراته عن التشور ، والحساب ، والجنة ، والنار بالحجة الطبيعية ذاتها .

كما غاب عنهم أن الدين الصالح في ذاته لا يحتاج إلى مصلح ، يتدارك شأنه ولا يحتاج إلى إصلاح يغير من جوهره .

غاب عن هؤلاء الناس هذا كله ، مع أن إدراكهم له كان من أبسط مقتضيات العلم لو كانوا يستمعون بحقيقته ، وينسجمون مع منطقته ، ولكن أعينهم غابت في غمرة إنبهارها بالنهضة الأوروبية الحديثة ، وما قد حفر بها من شعارات العلم ، وألفاظه ، فلم تبصر من حقائق العلم والمنطق إلا عناوينها ، وشعاراتها ، وقد كانوا بأمس الحاجة إلى فهم كامل لما وراء تلك العناوين ، وإلى هضم صحيح لمضمون تلك الشعارات <sup>(١)</sup> .

**سادساً :** من الحقائق المسلمة أن عديداً من الأطفال ولدوا يوم مولد محمد

" ﷺ " لأن هذه من الضرورات المعلومة .

(١) نفع السيرة البوطي ص ٣٩ .

ومع ذلك فلا تعارض بين كثرة المواليد، وهذه الإرهاصات، لأن القائلين في  
 يستحلونها دليلاً على معرفة الله، والتصديق بالرسالة، وإنما يتصورونها رمزاً قسرياً  
 لإعلان جزء من القدرة المتحركة في هذا الكون، وثيقة العقول لاستقبال مرسى  
 البشرية، ومحرر الإنسان من ظلمات الطغاة، وعبث العابثين، المرسل من الله العزيز  
 الحكيم .

وحين نقول — والقول حق — إن أيام مولد النبي " ﷺ " شهدت سريراً  
 فريداً لا يمكن للعقل تصوره، مع أنه حقيقة ثابتة، وهو هلاك جيش أبرهة الجبر  
 الحصى نزل على الرؤوس فتحملها كعصف مأكول ... نعم العقل لا يتصور  
 حبات الحصى الصغيرة تلك قوة فكرية تمكنها من اختراق الرأس، وتقتل بها  
 تتحرك كل حصاة نحو من تريد قتله ! ! ، بلا أدنى خطأ وهل يمكن لحصاة صغيرة  
 تدبر وتقتل وتفعّل كل هذا ! ؟ ! .

إنها حادثة فوق مستوى العقل ... ولكنها حدثت لقوله تعالى : ﴿ هَآؤُلَآءِ  
 كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ ﴿١﴾ أَلَمْ تَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ﴾ ﴿٢﴾ وَأَرْسَلْنَا  
 طِهْرًا أَبَايِلَ ﴾ ﴿٣﴾ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارٍ مِّنْ سِجِّيلٍ ﴾ ﴿٤﴾ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ ﴾ ﴿٥﴾  
 وكان حدوثها بعد ميلاد النبي " ﷺ " بخمسين يوماً على الأرجح .

وما الذى يمنع أن تكون هذه الحادثة من إرهاصات المولد النبوى ..  
 إن القضية في النهاية ليست منهجاً علمياً ، أو عقلياً ، بقدر ما هي قضية  
 إيمان وتسليم .. فالمؤمن يصدق بالخبر إذا اشتمل على صدق روايته ، ويكذبه إذا  
 تأتته الرواية صحيحة ، مقبولة، أما غير المؤمن فإنه ابتداء لا يصدق ، وبعدها يبحث  
 عن مبرر يؤيد مقالته وتكذيبه .

**سابعاً :** الوجود كله خضع ، واستسلم لله تعالى، إلا أن الإنسان  
 المخلوق الوحيد الذى تمرد عن الحق، ولعب به الشيطان ، يقول تعالى : ﴿ أَفَلَا تَتَذَكَّرُ ﴾

أَلَمْ يَسْجُدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ  
وَالشَّجَرُ وَالْدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَبِيرٌ حَقٌّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُنِ اللَّهَ فَمَا لَهُ مِنْ  
مَكْرَمٍ إِنَّ اللَّهَ يَقْعُلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٨﴾ .

والآية توضح هذه الحقيقة التي يجب أن تعرف معرفة من رأى وشاهد، لقوله

تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ ﴾ .. هذه الحقيقة تبين ما يلي : —

١ . كل من في السموات ومن في الأرض وما بينهما، صغيراً أو كبيراً، خاضع  
ومستسلم لله تعالى .

٢ . المخلوقات الكبرى المنتظمة في عملها كالشمس، والقمر، والنجوم، والجبال  
والشجر، والدواب، خاضعة ، خاشعة لله رب العالمين .

٣ . أنقسم الناس إلى قسمين ، قسم خاشع وخضع لله ، وهو القسم الفائز الناجي  
أما القسم الثاني فهو قسم متمرّد ، ضال ، ولذلك حق عليه العذاب ،  
ووجبت له اللعنة ، ولحقه الهوان ، لأنه مطرود من رحمة الله تعالى .

إن هذه الحقيقة بعناصرها المذكورة تؤكد حاجة الكون إلى التوازن بعودة  
الإنسان إليه ، وإتلافه معه في حركته ، ونشاطه .

ألا يفتق لهذا الكون أن يسعد يوم ميلاد رسول الله " ﷺ " الذي سيحدث  
إعادة التوازن بين سائر عناصره ، ويُضع الإنسان في إطار الطاعة لله رب العالمين .  
يقول الشيخ / محمد متولي الشعراوي : (نقرأ في كتب السيرة أنه حدث في  
يوم مولده " ﷺ " : أن انشق إيوان كسرى ، وغاضت بحيرة ساوة ، وحدث نيران  
فارس .. إلى آخره ، وهذه هي المعروفة بإرهاصات النبوة .

نجد بعض الناس يرددها بأسلوب التأديب مع سيرته " ﷺ " ولكنه لا يتعرض  
لها بالنفي ، أو التأييد ، وإن كان يقترب من الرفض ، وربما ذهب بعض الناس الذين

لا يريدون الإقرار بهذه الظواهر، أو المعجزات الكونية إلى أن الرسول " ﷺ " ليس بحاجة إلى هذه المعجزات الكونية .

أما وقد وضح أن الرسول " ﷺ " جاء ليعيد إنسجام الإنسان مع الكون الساجد ، وأن كل ما في الوجود يسجد ويسبح لله ، غير أن الجنس البشري هو الذي يبتعد بعضه عن الإجماع في الخضوع والسجود لله ، فإن هذه الظواهر الكونية المخشقة لله والعبادة له بلغت كما أثبتها القرآن ليس مستبعداً أن تفرح ، وأن تتهيج بخلاف المولد ، مولد الإنسان الأعظم " ﷺ " الذي جاء ليعيد إلى الإنسانية رشدها .

وإذا عرضت لنا السيرة أن أشياء من الكون فرحت بمولد الرسول " ﷺ " حدثت منها أشياء، فذلك أمر لا نستبعده على كون مسيح لله ، عارف بحق الله وأيضاً لسنا نحن المظنوين بأن نؤمن بهذا ، ولكن الذين آمنوا بها هم الذين شاهدوها وهم الذين سمعوا عنها ، فالذين سمعوها حجة على أنفسهم ، ونحن نتلقى عنهم الخبر فإن كنا موثقين لهم في الخبر صدقناه ، وإن لم يسع ظننا لتوثيقهم في خبرهم فمن أحرار في أن نصدق أو لا نصدق ، ولكن منطق الوجود ، لا يمنع حدوث شيء من ذلك أبداً ، فإذا ذكر أن إيوان كسرى قد انشق ، فساداً في ذلك من الدهشة ؟ ، وما في ذلك من العجبة ؟ .

أنستبعد أن يوقت شق الإيوان بالميلاد الحمدي ؟ ولم يكون هذا الاستبعاد ؟ .  
أنكر على الله أن يطفى نار فارس التي تعبد من دونه ، وأن يوقت ذلك بالميلاد الحمدي ؟ وما سبب الإنكار ؟

أنصوّر أن لاتغيض بحيرة ساوة مع الميلاد الحمدي ؟ ، ولماذا هذا التصوّر ؟ <sup>(١)</sup> .

ألم ينشق القمر نصفين معجزة لرسول الله " ﷺ " ؟

ألم يفيض الماء من بين أصابع الشريفة " ﷺ " ؟

ألم يحدثه الحجر ، والشجر ؟

ألم .. ؟ ألم ... ؟ ألم .. ؟

وقد يرد هنا سؤال :

وهل تدرك الكائنات ؟

**نعم** ، الكائنات منذركة عابدة لربها ..

لنقرأ قول الله تعالى حكاية عن سليمان " **الْحَمْدُ لِلَّهِ** " : ﴿ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ ۖ وَقَالَ يَتْلِيهَا النَّاسُ غُلْمًا مِّنْطِقَ الطَّمْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ۝ ﴾ <sup>(١)</sup> ونقرأ قوله تعالى وهو يحكي حديث النسل والهدى : يقول تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَتْلِيهَا النَّمْلُ آدِخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا عِطْمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝ ﴾ <sup>(٢)</sup> ويقول تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّمْرُ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدْيَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَايِبِينَ ۝ ﴾ <sup>(٣)</sup> لَأَعَذَّبْتُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ أَوْ لَأَذْنَحُجَّهَ ۖ أَوْ لَأَيَّا تَنِي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ۝ ﴾ <sup>(٤)</sup> فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ حُطُّ بِهِمْ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبَأٍ يَقِينٍ ۝ ﴾ <sup>(٥)</sup> ..

ألا يدل ذلك على أن الكون يدرك ، فللطير منطقته ، ولنمل فكره وحذره ،

وللههدى منطقته ، وفهم ، وعسل .

**ثامناً :** ونحن في إطار الدعوة ندرك ضرورة وجود المنبهات الموقظة قبيل

عرض الشئ الهام ، لينتبه الغافلون ، ويستيقظ النائمون .. وهذه قضية علمية معاصرة.

<sup>(١)</sup> سورة النمل آية ( ١٦ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة النمل آية ( ١٨ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة النمل الآيات ( ٢١ - ٢٢ ) .

ألا يدفعنا استيعاب هذه القضية إلى اعتبار أن هذه الإرهاصات جاءت من  
الله المتنبه ، وليعلم من يعقل أن لا دوام لخلق ، وما يلحقه النقص ، والتغير ،  
باله ، وكل ما يلحقه العجز ، والهلاك ، والانهاء ، فهو مخلوق لله رب العالمين .

\*\*\*

## المبحث الثالث

### ميلاد اليتيم محمد ﷺ

ولد محمد ﷺ " يوم الإثنين لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، بمكة المكرمة ، في دار أبيه التي كانت موجودة بشعب بني هاشم ، وقيل : إنه ولد بدار عند الصفا ، كانت لمحمد بن يوسف ، أخو الحجاج ، اشتراها زبيدة زوجة هارون الرشيد ، وبنت مكانها مسجداً <sup>(١)</sup> وهي اليوم بناء صغير ، موجود بجوار الساحة الجنوبية للحرم الشريف ، وبها مكتبة صغيرة عامة تعرف بمكتبة المحرم الملكي .

ومما يدل على ولادته يوم الاثنين ما روي أن أعرابياً قال : يا رسول الله ، ما تقول في صوم يوم الاثنين ؟

قال " ﷺ " : ذاك يوم ولدت فيه ، ويوم بعثت أو وأنزل علي فيه <sup>(٢)</sup> . ويشهد لولادته " ﷺ " عام الفيل حديث قيس بن مخزومة الذي قال فيه : ( ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل ) <sup>(٣)</sup> .

يقول محمد بن اسحاق : ( ولد رسول الله " ﷺ " يوم الإثنين عام الفيل لاثني عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول ) <sup>(٤)</sup> .

كما يروي الترمذي بسنده عن قيس بن مخزومة بن عبد مناف قال : ( ولدت أنا ورسول الله " ﷺ " عام الفيل ، كنا لدين ) <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> الروض الأنف ج ١ ص ١٨٤ .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم بشرح النووي — كتاب الغنيمة — باب استحباب صيام ثلاثة أيام من كل شهر ج ٨ ص ٥١ .

<sup>(٣)</sup> السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٧٥ .

<sup>(٤)</sup> سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٧١ .

<sup>(٥)</sup> سنن الترمذي — كتاب المناقب ج ٥ ص ٥٨٩ .

وروى عن أبي الجويرث قال : ( سمعت عبد الملك بن مروان يقول لعبد الله بن أشيم الكنائي ، ثم الليثي : يا قباث : أنت أكبر أم رسول الله ﷺ )  
 قال قباث : رسول الله أكبر مني ، وأنا أسن منه ، ولد رسول الله ﷺ عام الفيل ، ووقفت بي أمي على روث الفيل أخضر محيلاً أعقله (١)  
 يقول ابن عباس ؓ : ( ولد نبيكم يوم الإثنين ) (٢).

وجهور المؤرخين ، وعلماء السيرة يجمعون على أن رسول الله ﷺ ولد يوم الإثنين لاثني عشرة ليلة نزلت من شهر ربيع الأول عام الفيل ، حين طلع الفجر ، وقد مات أبوه عبد الله وهو حمل في بطن أمه ، وكانت وفاته بالمدينة ، وأخواله من بني النجار حيث دفن بدار عدي النابغة ، يقول ابن كثير : ( خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام ، إلى غزة ، في غير من غيران قريش ، يحملون تجارتهم ، فلما فرغوا من تجارتهم مروا بالمدينة ، وعيد الله يومئذ مريض . فقال : أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار ، فأقام عندهم مريضاً شهراً ومضى أصحابه فقدموا مكة ، فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله . فقالوا : خلفناه عند أخواله في المدينة وهو مريض . فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده الحارث ، فوجده قد توفي ، ودفن في دار النابغة فرجع إلى أبيه ، وأخبره ) (٣) ، وكان وقع خبر وفاته على أبيه ، وإخوته مؤلماً . وكان عمر عبد الله يوم وفاته خمساً وعشرين سنة على الصحيح (٤).

(١) البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٦٢ .

(٢) التهج الرباعي ج ٢٠ ص ١٨٩ .

(٣) السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ١٩٩ ، وهناك أقوال متباعدة تشير إلى غير هذا التاريخ لكنها معارضة لما

جمهور العلماء ، ومؤلفي التاريخ والسيرة .

(٤) طبقات ابن سعد ج ١ ص ٦١ ، وهذا رأى الجمهور .

(٥) المرجع السابق ج ١ ص ٦١ .



عبد المطلب أن توفى وأم رسول الله حامل به <sup>(١)</sup> ولم يترك عبد الله مالا يورثه  
زوجا ، وولده ، اللهم إلا جاريتة أم أئمن ، وخمسة جمال ، وقطعة من غنم <sup>(٢)</sup> .  
ولذلك ولد النبي يتيماً ، فقيراً لحكمة أرادها الله تعالى ..

إن اليتيم في حد ذاته ، منقصة للوليد ، وبخاصة في مجتمع يفتخر بالأنساب ،  
والأحساب ، والقبيلة ، والجماعة ، إن الوليد في نشأته بعيداً عن أبيه يعيش منعزلاً ،  
لا يحسن معاملة الناس ، وينمو ضعيفاً في بدنه ، وسلوكه ، لا يتمكن من مواجهة  
مصاعب الحياة ، وإذا وجد مع اليتيم الفقير ، فإن الصغير يعيش مهملاً ، لا يهتم به  
أحد ، وإن اهتم به أحد فتستخيره ، واستغلاله .

فمن أين لليتيم بأبوة حانية ؟ .. تتعهد غلاماً ، وتربيته طفلاً ، وتوجهه  
شأناً بالغاً ، وتدفعه إلى غمار الحياة رجلاً مسؤولاً .

وأين لليتيم من رعاية شاملة ؟ تحافظ عليه في نومه ، ويحفظه ، وسكونه ،  
وحركته ، وراحته ، وعمله ؟ ..

ومن أين لليتيم من ينصره ، ويعينه في مواجهة الخطوب ، والحوادث ؟

فإذا ما انضم إلى اليتيم الفقير ، فالنتيجة أسوأ ، وأظلم ..

إن اليتيم الفقير لا ينال التعليم الذي يريده ، ولا يتمكن من نيل الأعمال التي  
يرغبها ، لأن غيره أسبق إليها منه ، وله من يساعده ، أما اليتيم الفقير فإن الجميع  
يتصرفون عنه ، ولا يهتمون بشأته !!! .

ذلك هو منطق الواقع والحياة .

فاليتيم ضعيف ، مهمل ، منعزل ، تؤثر معيشته في خلقه ، وسلوكه ..

<sup>(١)</sup> سورة النحل ج ١ ص ١٥٨ .

<sup>(٢)</sup> مسند أبي داود ج ١ ص ٤٠٠ .

والله انك كانت وصية الله باليتامي من اجل انك دافعوا انماي : يعني المفسر  
يراقب الله في معاملتهم ، ويعطيهم الله في حسن معاملتهم ، والانساء انهم  
يقول الله تعالى : ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ ۖ ﴾ (١) ..

ويقول الله تعالى : ﴿ كَلَّا بَلْ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ ۖ ﴾ (٢) وَلَا تَسْجُدْ عَلَى ظُهُورِ  
الْمُسْكِينِ ۖ ﴾ (٣) .. ويقول الله تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالنَّذْرِ ۖ ﴾  
فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۖ ﴾ (٤) ..

ويقول الله تعالى : ﴿ فَلَا أَفْتَحُهَا الْعَاقِبَةَ ۖ ﴾ (٥) وَمَا أَكْرَمَكَ مَا لَأَمَدُهُ ۖ ﴾ (٦) فَكَفَّ رَفِيقَهُ  
أَوْ إِطْعَمُوهُ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ۖ ﴾ (٧) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ۖ ﴾ (٨) ..

ويقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ - أَسَدَنَ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ  
وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۚ إِنَّ الْعَهْدَ بَيْنَكُمْ لَا يَكْفُلُ بَيْنَهُمَا إِلَّا مَنْعُهَا ۚ إِذَا قُلْتُمْ فَاعْبُوا ۚ  
كَانَ ذَٰلِكُمْ قُرْآنًا وَمَنْهَدًا لِلَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنَكُمْ بِهِ ۚ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ۖ ﴾ (٩)  
ويقول الله تعالى : ﴿ وَيُطْعَمُونَ الصَّغَامَ عَلَىٰ حَبْلٍ مِمَّنْ كَانُوا يَتِيمًا ۖ ﴾ (١٠)  
ويقول الله تعالى : ﴿ وَتَكُونُكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ ۚ قُلْ إِصْلَاحُ نَفْسٍ خَيْرٌ مِّنْ إِصْلَاحِ نَفْسٍ ۚ فَاِجْزُوا  
وَاللَّهُ يَتْلُو الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَمْنَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ غَفِيرٌ رَّحِيمٌ ۖ ﴾ (١١)

...

(١) سورة البقرة الآية (٩)

(٢) سورة البقرة الآية (١٧ : ١٨)

(٣) سورة البقرة الآية (٢٠ : ٢١)

(٤) سورة البقرة الآية (٢١ : ٢٢)

(٥) سورة البقرة الآية (٢٢ : ٢٣)

(٦) سورة البقرة الآية (٢٣ : ٢٤)

(٧) سورة البقرة الآية (٢٤ : ٢٥)

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ وَءَاتُوا آلَ يَتِيمَ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ (١) ..

وَيَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتِيمِ ظُلْمًا إِنَّهُمْ يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ ذَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ (٢) ..

والآيات كثيرة ، والأحاديث معها مبينة ، وشارحة ، وكلها تدور حول الاهتمام باليتيم حتى لا يضيع في مجتمع يهمله .

إن الآيات تدعوا إلى حسن معاملة اليتيم ، وعدم القسوة معه ، وترك دعه وزجره ، وظلمه ، حتى يجد من المؤمنين من يعوضه فقدان الأب والأم ...

كما تدعو الآيات إلى ضرورة المحافظة على مال اليتيم ، وتمميته بالحق

والعدل ، والابتعاد عن أكله بالباطل ، أو الاستيلاء عليه بأي وجه من الوجوه .

وتدعو الآيات إلى العمل على إصلاح اليتيم ، والعناية بتربيته ، وتوجيهه نحو

الخير والفلاح .

وتدعو الآيات إلى أهمية رعاية اليتيم مالياً، إن كان في حاجة للمال ، حيث

الآيات وضحت أن إعطاء اليتيم من المال له أثر كبير على المعطى ، إنه بهذا العطاء

يتخلص من العقبة، ويدخل الجنة ، ويشرب السلسيل ، ويقرب من الله تعالى .

إن الإسلام واجه واقع اليتيم بشريعته العادلة ، لنشر الخير بين الناس أجمعين .

وتعامل مع طبيعة البشر ، ومع ميولهم الفطرية ليرقى بها في رفق ولين .

هذا في الإسلام .. وبالإسلام وحده .

أما في الجاهلية حيث لا دين ، ولا شريعة ، فإن الأمر يختلف ..

(١) سورة النساء آية ( ٢ ) .

(٢) سورة النساء آية ( ١٠ ) .



ومن هنا كان في يتم محمد " ﷺ " حكمة يريد بها الله تعالى ، ويتفضل بها على رسوله الأمين " ﷺ " ..

يحمل الله تعالى هذا التفضل على محمد " ﷺ " بقوله تعالى : هُوَ أَلَمْ يَخْذَكَ يَتِيمًا فَلَاوِي ۖ ﴿١﴾ حيث يشير إلى أن محمداً " ﷺ " ولد في رعاية الله تعالى ، يرغم يتمه إلا أن الله أحاطه بالإيواء الشامل ، فأحبه كل من رآه ، بدءاً بمرضعه ومروراً بمن شاركهم في طفولته ، وشبابه ، ورجولته .  
فهو إيواء يتضمن الرعاية ، والاهتمام ، والمعاملة ، والتضحية في مودة صادقة أغنت محمداً " ﷺ " عن رعاية الوالد الحنون .

وفي ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً إشارة إلى بعض الحكم الإلهية ، التي يمكن استنباطها في العصر الحديث ، ومن أهم الحكم المستنبطة ما يلي : —

١. أراد الله تعالى أن ينشأ محمد " ﷺ " محاطاً بالرعاية الإلهية التامة منذ اللحظة الأولى لوجوده في الدنيا، وحتى لا تفسر خيرات الله له بسبب أبيه ، أو أمه ، أو بتأثير ماله وغناه .. ولو فكر عقلاء هذا الزمان في تميز هذا اليتيم عن أقرانه ، ولداته، لأدركوا شيئاً عن هذه العناية الإلهية بمحمد " ﷺ " .

٢. في ولادته " ﷺ " يتيماً فقيراً رد لأي شبهة يمكن أن يخلقها الأفاكون الضالون كأن يقولوا : إن محمداً أخذ تعاليم النبوة من أبيه، أو من أمه ، حيث يحاول الآباء دائماً غرس قيمهم ، وعاداتهم ، واهتماماتهم في أبنائهم ، بل إن الابن يحاول بصورة تلقائية أن يقلد أباه ، ويحتشد في حمل فكره ، ومذهبه .

لقد زعم كفار مكة أن محمداً " ﷺ " يأخذ ما يقوله لهم من رجل غريب قالوا ما حكاه الله عنهم في قوله تعالى : هُوَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ

أَفَرَأَيْتُمْ أَفْعَاهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخِرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلُمًا وَزُورًا ﴿١٠﴾ وَقَالُوا سُبْحَانَ  
 الْأُولَىٰ أَكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿١١﴾ : وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ :  
 ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ  
 أَعْجَمِي ۖ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ ﴿١٢﴾ .

لقد تحت كفار مكة عن شخص له صلة برسول الله " ﷺ " ليعرضوا له  
 مؤلف الوحي ، وأن محمداً يأخذ منه ، وقد بين الله كذبهم ، وصلاهم فيما يزعمون .  
 فلو كان عبد الله والد النبي حياً ، لسهل عليهم ادعاء أنه المعلم لولده ، وإن  
 الوحي من كلامه ، وتأليفه ... لكن الله تعالى قطع عنهم هذا الطريق بوفاة عبد الله  
 وميلاد محمد بعد وفاته .

٣ — في ولادته " ﷺ " يتيماً ناكيد الحقيقة غائبة عن الكثير من الناس ، وهي أن  
 الأمور كلها بقدره الله تعالى ، وليس للإنسان في عمله إلا الكسب والميل ،  
 والله خالق كل شيء .

ولو عقل الناس لعاشوا مؤمنين حقاً ، عن اقتناع ، ورضى ، ولستموا بالقرآن  
 وعاشوا مؤمنين .

إن العقل سوف يتساءل أسئلة توصل إلى اليقين، والإيمان، ومن هذه الأسئلة :

- من أين وجد الإنسان ؟ ومن يقدر على هذا الإيجاد ؟
- هل يمكن تصور المستقبل من ناحية الصحة ، والخير ، والسعادة أم أن ذلك  
 مجهول أمام الإنسان ؟
- هل تجري الأحداث وفق تقدير العقل ، أم أن أحداث الحياة تسجل العقار  
 عاجزاً عن تفسير اتجاهاتها غالباً ؟

<sup>١٠</sup> سورة الفرقان آية ( ٤ ، ٥ ) .

<sup>١١</sup> سورة النحل آية ( ١٠٣ ) .

• من الإنسان يعلم ظواهر الأشياء ، وبواطنها ، أم ماذا ؟

إن النظر في هذه القضايا تدفع الإنسان إلى التسليم بقدرة الله تعالى ، وحين  
يقارن محمداً ﷺ " بسائر الناس مع إدراكه بجمه ، وفقره ، نأكد أنه صناعة قديرية ،  
ربانية ، والعلم بهذه الحقيقة يشير إلى بعض أسرار يتم محمداً ﷺ " ..  
إن الحكمة الإلهية التي أحاطت بمحمد ﷺ " أحاطت بكافة جوانب مولده ﷺ " .

**وبالنسبة** للأشخاص الذين أحاطوا به ، وجرياً على أن للإنسان من اسمه  
صيغة يرى أنهم متلوا مع محمد عدة معان نبيلة ، فمن أمه آمنة كان الأمن والهدوء ،  
ومن فصيلته الشفاء كانت العافية والصحة ، ومن حاضنته أم أيمن كان اليمن والبركة ،  
ومن مرضعته حليلة السعدية الخنم ، والسعد ، ومن جده العبودية ، ومن عمه النوح  
في التنادر والتكلم منه ، وكان الله تعالى أوجد في حياة محمد ﷺ " هذه المسيمات  
لتتحول في حياته إلى خلق وسلوك .

**وبالنسبة لتسميته** فلقد ألهم الله جده عبد المطلب حين أخبرته السيدة  
آمنة بوضع حملها أن يسميه محمداً .

يقول السهيلي : ( سئل عبد المطلب : ما سميت ابنك ؟  
فقال : محمداً .

فقيل له : كيف سميت باسم ليس لأحد من آبائك وقومك .

فقال : إني لأرجو أن يحمداه أهل الأرض كلهم .

وكان ذلك لرؤيا كان رآها في منامه ، كأن سلسلة من فضة ، خرجت من  
ظهره ، لها طرف في السماء ، وطرف في الأرض ، وطرف في المشرق ، وطرف في المغرب  
ثم عادت كأنها شجرة ، على كل ورقة منها نور ، وإذا أهل المشرق والمغرب ، كأنهم  
يستعلنون لها ، فقصها ، فعبثت له بمولود يكون من صلبه يتبعه أهل المشرق والمغرب ،  
ويحمدوه أهل السماء والأرض ، فلذلك سماه : محمداً .

وذكروا أن أمه حدثته بأنه قد قيل لها : إنك حملت بسيد هذه الأمة ، فإذا

وصعته فسميه محمداً (١).

وكان النبي ﷺ يذكر فضل تسميته محمداً ويقول : ( ألا تعجبون )  
 يصرف الله عني شتم قريش ، ولعنهم ، يشتمون مذمماً ، وأنا محمد (٢)  
 يقول القاضي عياض : ( وقد سماه الله تعالى في كتابه محمداً ، وأحمد  
 خصائصه تعالى له أن ضمن أسماء ثناءه ، فطوي أثناء ذكره عظيم شكره ، فأحمد  
 أحمد فأفعل مبالغة من صفة الحمد ، ومحمد مفعول مبالغة من كثرة الحمد ، وتكرره  
 " ﷺ " أجل من حمد ، وأفضل من حمد ، وأكثر الناس حمداً ، فهو أحمد المحمودين  
 وأحمد الخامدين ، ومعه لواء الحمد يوم القيامة ، ليتم له كمال الحمد ، ويشهد  
 تلك العرصات بصفة الحمد ، ويعتد ربه هناك مقاماً محموداً كما وعده : الحمد  
 الأولون والآخرون ، وفي هذين الاسمين من عجائب خصائصه ، وبدائع آياته ،  
 أن الله عز وجل حمي اسمه أن يسمي بهما أحد قبل زمانه .

أما أحمد الذي أُلِي في الكتب، وبشرت به الأنبياء، فمنع الله تعالى بحكمته أن يسمي  
 أحد غيره، ولا يدعي به مدعو قبله حتى لا يدخل ليس على ضعيف القلب، أو يفتن  
 وكذلك محمد أيضاً لم يسم به أحد من العرب ، ولا غيرهم إلى أن جاء  
 قبيل وجوده " ﷺ " وميلاده أن نبياً يبعث اسمه محمد ، فسمي قوم من العرب بأحمد  
 بذلك، رجاء أن يكون أحدهم، وهم محمد بن أبيحة بن الجلاح الأوسي ، ومحمد بن  
 مسلمة الأنصاري ، ومحمد بن براء البكري ، ومحمد بن سفيان بن جاشع ، ومحمد بن  
 حمران الجعفي ، ومحمد بن خزاعة السلمي ، لا سابع لهم ، ثم حمي الله كل من يسمي  
 به أن يدعي النبوة ، أو يدعيها أحد له ، أو يظهر عليه سب يشكك أحداً في أمره  
 حتى تحققت السمتان ( الحمد والثناء ) له " ﷺ " ولم ينزع فيهما (٣).

(١) الروض الأنف ج ١ ص ١٨٢ .

(٢) صحيح البخاري ج ٦ ص ٤٣٥ .

(٣) النفا للقاضي عياض ج ١ ص ٢٢٩ — ٢٣١ .



**وبالنسبة لولادته يوم الاثنين** فإنه كان لارتباط هذا اليوم بعدد من

الأفعال بخيرة التي قدرها الله لكونه المخلوق في هذا اليوم ، فلقد ورد الحديث من أن  
الله تعالى خلق الشجر يوم الاثنين ، يقول بن عباس " ﷺ " : ( ولد نبيكم يوم  
الاثنين ، ونبي يوم الاثنين ، وخرج من مكة يوم الاثنين ، وقدم المدينة يوم الاثنين ،  
رفع مكة يوم الاثنين ، ونزلت سورة المائدة يوم الاثنين ، وتوفي يوم الاثنين ) <sup>(١)</sup> ،  
وفي ذلك إشارة إلى ارتباط الحوادث العظيمة بيوم الاثنين ، ومنها مولده " ﷺ " ..

إن خلق الأقوات والأرزاق والفواكه ، والخيرات التي يختارها نو آدم ،  
يعبون ويستندون ، وتنشرح صدورهم لرؤيتها ، وتطيب بها نفوسهم ، وتسكن  
بواطنهم ، لتحصيل ما يبقى حياتهم ، على ما جرت به حكمة الحكيم سبحانه  
وتعالى ، كل ذلك كان في يوم الاثنين ، فولادته " ﷺ " في هذا اليوم إشارة إلى  
ما وجد من الخير العظيم والبركة الشاملة للناس أجمعين ببعثته " ﷺ " <sup>(٢)</sup> .

**وبالنسبة لولادته في شهر ربيع الأول** فلم في هذا الشهر من خيرات تتوافق

مع خيرات بحينه إلى الدنيا ، حيث الازدهار ، والجدد ، والحسن ، والنفع العام .  
ففي الربيع تبدو خيرات الله تعالى في الكون ، حيث ينبت الزرع ، ويفيض  
الضرع ، ويأتي الحب والنوى ، وتنتشر الخضرة الجميلة في ربوع الأرض كلها ، وفي  
السهول والجبال ..

والجسو في الربيع معتدل المناخ لا حرارة فيه : كما تقل فيه العلل والأمراض  
بفضل الله تعالى .

وفي محرم محمد " ﷺ " ومبعثه تحقيق لهذه المعاني ، فلقد أتى " ﷺ " بما يسعد  
الناس في الدنيا والآخرة .. ورسائله " ﷺ " قائمة على الاعتدال ، والاستقامة ، دائمة  
ال إعطاء ، شاملة لكافة المخارج ، سهلة ، ميسرة .

<sup>(١)</sup> الفتح الربيعي ج ٢٠ ص ١٨٩ .

<sup>(٢)</sup> سبق لعلمي ومارشدي ج ١ ص ٤٠٦ .



إن العالم كله قبيل بعثة النبي " ﷺ " ، وقبيل مولده كان في انتظار رسول  
 جديد يجمع العالم على الحق ..  
 وعلى هذا فإن حدوث الميلاد محاطاً بهذه الحكم ، يمثل عوامل تصديق رسالة  
 الرسول بعد مبعثه ، وتعد دوافع إيمانية للعقلاء الذين يعرفون أن النبوة صناعة ربانية ،  
 ولا مانع من جريان الأحداث معها على نحو خارق لعادة الناس .  
 والله أعلم حيث يجعل رسالته .

\*\*\*

## المبحث الرابع

### محمد " ﷺ " في

### ديار بني سعد

بعدها وضعت السيدة أمية بنت وهب حملها أرسلت إلى جده عبد المطلب وأخبرته بولادة حفيده ، فسر به كثيراً ، وأخذه ودخل به الكعبة ، ودعا له <sup>(١)</sup> وسماه محمداً ، قلما سئل عن سبب هذه التسمية مع أنها لم توجد في أبائه وأقربائه ، قال : أردت أن يحمد في السماء عند الله ، وفي الأرض عند الناس <sup>(٢)</sup> يذكر السهيلي أن التسمية كانت لرؤيا رآها عبد المطلب توافقت في ثلاث مع ما حدثته به أمه " ﷺ " <sup>(٣)</sup> .

يروى ابن عساكر أن عبد المطلب سر بولادة محمد كثيراً وعق عنه بكثيراً وقد عاش الوليد في كنف أمه سبعة أيام أرضعته فيها ومعها قابله " النصفاء " ، وسماه أعمامه بميلاد ابن لأخيه الذي فقدوه صغيراً ، لدرجة أن أبا لهب أعتق جاريته ثريباً عندما أخبرته بميلاد محمد " ﷺ " ، فذهبت إلى أمه " أمية " وأرضعته معها <sup>(٤)</sup> . أقبلت أمية على وليدها بالحنان ، والرفق ، في انتظار مرضعة تستلمه <sup>(٥)</sup> بتربسته في البادية ، حيث الحلاء الواسع ، والطبيعة الجميلة ، وبساطة الحياة <sup>(٦)</sup> . الناس ، وكانت عادة أثرياء أهل مكة أن يسلموا أولادهم بعد ولادتهم ، لمرضعته من البادية لقاء أجر ، ورزق .

وأتفق أن جاءت المراضع من بني سعد يلتصقن أبناء الأغنياء : طمعا في الرزق <sup>(٧)</sup> .

<sup>(١)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ١ ص ١٨٢ .

<sup>(٢)</sup> الروض الأنف ج ١ ص ١٨٣ .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخاري شرح فتح الباري - كتاب - النكاح باب - ما يخرج من الرضاع ج ١ ص ١٢ - و <sup>(٤)</sup> التي أرضعت عنه حمزة ، وأبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي ليكون لها أخ في الرضاع .

يسروا جميعاً على آمنة، فرأوا ولدها يتيماً فقيراً، فتركه لقلة الأجر، وضالة العطاء  
المنظر من يتيم فقير .

ووجد النسوة عند أبناء الأثرياء ما يأملون، ماعدا حليلة السعدية، فإنها  
كانت فقيرة ضعيفة، رأت الأمهات منها ما صرفهن عن اختيارها مرضعة لأبنائهم،  
فليسها قليل، وجسدها نحيل، وأتألمها هزبل، والفقر ياد عليها، فانصرفوا عنها إلى  
غيرها .

ووجدت حليلة نفسها مضطرة لأخذ محمد " ﷺ " حتى لا تعود لديارها  
ندوية الوفاض، فكان في أخذها له الخيرة والبركة، وظهر ذلك في كافة جوانب  
حياتها، وأسرفها، ونعمت بهذا الخير هي وقومها بعد ذلك .

وحليمة هي بنت أبي ذؤيب، وهو عبد الله بن الحارث بن سعد من هوازن،  
وتعرف بحليمة السعدية، وكنيتها أم كبشة .. وزوجها هو الحارث بن عبد العزي بن  
رفاعة من هوازن كذلك، ويكنى بأبي كبشة .

وقد شرفها الله تعالى بإرضاع محمد " ﷺ "، فصارت له أمّاً، وصار زوجها  
له أباً، وصار أبنائها إخوته وهم، عبد الله بن الحارث، وحفص بن الحارث، وأميمة  
ابن الحارث، والشيماء، وهي خدامة بنت الحارث، وقد أكرمها الله تعالى، ففاض  
الحرم في كل جوانب حياتها ببر كته " ﷺ "، رغم أنها لم تكن راغبة فيه، ولولا  
انصراف الوالدات عنها ما أخذته .

تحكي حليلة قصتها مع رضاعة رسول الله " ﷺ " فتقول : خرجت في  
نسوة من بني سعد بن بكر، نلتبس الرضعاء بمكة، على أتان لي قمرء قد أدمت  
بالركب، وخرجنا في سنة شهباء، لم تبق لنا شيئاً، ومعى زوجي الحارث بن  
عبد العزي، ومعنا شارف لنا، والله إن يرض علينا بقطرة من لبن، ومعى صبي لي ما  
نسام ليلنا أجمع، من بكائه من الجوع، ما في ثدي ما يحصيه، وما في شاربنا من لبن

نغذوه ، ولكننا كنا نرجو الغيث والفرج ، فخرجت على أتانى تلك ، فشقى الله علينا ضعفاً ، وعجفاً ، حتى قدمنا مكة فلتمس الرضعاء .

فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله " ﷺ " فتأباه ، وإنما كنا نرجو كرامة رضاعة ، من والد المولود ، فكنا نقول يتيم ! وما عسى أن تصنع أمه ؟ وما يغني جده ؟ فكنا نكرهه لذلك ، فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غريباً . فلما أجمعنا الانطلاق قلت لزوجي : والله لأرجعن إلى ذلك اليتيم فلأغذيه ، والله إن لأكره أن أرجع من بين صواحي ، ولم أأخذ رضيعاً . قال : لا عليك أن تفعل عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة .

قالت : فذهبت إليه فأنخذته ، وما حملني على أخذه إلا أني لم أجد غيره ، فلما أخذته رجعت إلى رحلي <sup>(١)</sup> .

وقد رأت حليلة فضل الله عليها عقب عودتها إلى رحلها ، بمحمد " ﷺ " تقول : ( فلما وضعت في حجرى ، أقبل عليه ندياي بما شاء من لبن ، فشرب حتى روي : وشرب معه أخوه حتى روي . ثم ناما ، وما كنا ننام معه قبل ذلك .

وقام زوجي إلى شارفنا تلك : فإذا لبنا حافل ، فحلب منها ما شرب ، وشربت معه حتى انتهينا رباً وشبعاً ، هبتنا ليلتنا تلك بخير ليلة شباعاً ، رواءاً وقد نام صبياننا . يقول أبوه — يعني زوجها — والله يا حليلة ما أراك إلا أصبت نسمة مباركك : ففأنا صبياننا ورويا .

فقلت : والله إن لأرجو ذلك .

ثم خرجنا وركبت أتانى ، وحملته عليها معي ، فو الله لقطعت بالركب ما يقدر عليه شيء من حمهم ، حتى إن صواحي ليقطن لي : يا ابنة أبي ذؤيب ، ويحك ، أربعى عشرين أليست هذه أتانك التي كنت خرجت عليها ؟

فأقول لمن : بلى والله ، إنها لمحي هي .  
يقول : والله إن لها لثأماً .

لقد كنا منازلنا من بلاد بني سعد ، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجذب منها ،  
فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به معنا شباعاً لبناً ، وتروح أغنامهم جياًعاً  
بالكة ما بها من لبن ، فنحلب ونشرب ، وما يحلب إنسان قطرة لبن ، ولا يجدها في  
ضرع ، حتى كان الحاضرون من قومنا يقولون لرعايتهم : ويلكم ، اسرحوا حيث  
يسرح راعي بنت أبي ذؤيب ، فتروح أغنامهم جياًعاً ما تبض بقطرة لبن ، وتروح  
غني شاعاً لبناً .

فلما نزل تعرف من الله الزيادة والخير ، حتى مضت سنتاه وفصلته ، وكان يشب  
شباباً لا يشبه العلمان ، كان " ﷺ " يشب في اليوم شباب الصبي في شهر ، ويشب  
في الشهر شباب الصبي في سنة فبلغ ستاً وهو غلام حفر <sup>(١)</sup> .

إن رعاية الله تعالى مستمرة مع رسول الله تعالى، وما هي بركاته نحل حليلة حيث  
أخصبت أرضها الجدياء، ودر لبن إبلها الجاف، وصارت ترى النعم في كل شئوها .  
وفد أجمع مؤرخو السيرة على رواية ما حكته حليلة عن قصة إرضاعها محمداً " ﷺ "  
وهي بما روت تصنيف فصلاً جديداً من تكرم الله لعبده ، ورسوله محمد " ﷺ " ..  
ولما بلغ عمره " ﷺ " سنتين فصلته حليلة ، وعادت به إلى أمه في مكة ..  
ويرجع السبب في عادة أثرياء مكة إرضاع أولادهم ، وتنشئهم في البادية إلى  
أمر تلمس بعضها فيما يلي : —

(١) تتميز البادية بالنقاء والصفاء ، حيث الخلاء الواسع ، والفضاء الرحيب ،  
وهذا يساعد في اتساع الأفق ، وبعد المدارك ، ويؤدي إلى هدوء الطبع ،  
واستقرار النفس ، فالناس في البادية يعيشون بين الخضرة اليانعة ، والطبيعة  
الخلابة ، مع الطمأنينة ، والهدوء ، فلا اشتغال لهم بقضايا السلطة والإدارة ،

ولا عناء معهم في السعي والتجارة ، ولا تعب في الترقى والتجسس  
حياتهم الرتيبة تصنع الهدوء ، والاستقرار .

(٢) تصنع البادية من أبنائها رجالاً يعتمدون على أنفسهم : فهم يحمون  
نحسهم ، ولا رجال أمن يحرسوهم ، وإنما يعتمد كل على نفسه ، ولا  
ينشأ السبدوى على الخرافة والشجاعة ، ويتعود الإقدام ، وعدم الخوف  
ويعتمد اليدو على أنفسهم في الدفاع ، والنصرة : والحماية .

(٣) يعيش أبناء البادية في مجتمع معلق ، لا يأتيهم غريب ولا يعيش بينهم أجنبي ،  
وهذا الوضع ساعدهم على المحافظة على الفطرة الطبيعية ، واللغة القصبية  
والنسب الصريح ، والله البدني ، في تربط الأقارب ، و مودة المخين .  
إن الآباء قصدوا تربية أبنائهم في البادية لينشأوا أقوياء البنية ، فصحاء اللسان  
حسين الأخلاق ، يتميزون بهدوء الطبع ، وشجاعة السلوك ، وحب التعاون والتواضع  
وتلك عوامل أرادها الله لرسوله " ﷺ " فأرضعته حليلة السعدية ونشأ في ديار  
بني سعد ، ليستفيد بما أراد الله له .

عادت حليلة السعدية بمحمد إلى أمه السيدة آمنة بعد تمام إرضاعه : ونشأ  
وذلك على عادة سائر المراضع مع أبنائهن ، ولم تكن حليلة سعيدة بعودته لإمه فلا  
تخاف توقف الخير الذي تدفق عليها ، تقول حليلة : ( فقدعنا به على أمه ، ونحن  
أحرص شئ على مكثه فينا ، لما كنا نري من بركته ) <sup>(١)</sup> .

عرضت حليلة على آمنة أن تعود بمحمد " ﷺ " إلى ديارها مرة ثانية لتستفيد  
بركته ، ولتبتعد به عن وباء كان بمكة يومذاك ، فوافقتها آمنة ، وأعادته معها مرة ثانية  
إلى ديار بني سعد ، وبخاصة أن مكة يومذاك كانت موبوءة ، وأملت أن يزفاد محمد  
نضارة ، وازدهاراً ، ونمواً في بدنه وعقله ، وشخصيته ، ليثب رجالاً له قدره ومكانته

<sup>(١)</sup> السيرة النبوية لابن هشام ج ١ ص ١٦٤ .



ويقوم بدوره مع جده وأعمامه ، وقومه .

وأخذته حليلة وعادت به سعيدة مرة ثانية ، وفرحت بذلك ، إلا أنها اضطرت إلى إعادته لأمه حين بلغ عمره خمس سنوات وشهراً ، ولم تره بعد ذلك إلا مرتين ، الأولى : بعد تزويجه " ﷺ " خديجة ، والثانية : يوم حنين ، وسيأتي ذكرهما إن شاء الله تعالى .

وكانت آمنة قد أوصت حليلة بمحمد ، وعرفتها بما حصل معها ، في حملها وولادته ، وبينت لها ما رأت ، وما شاهدت من كرامات صاحبت مولده ، وقالت لها : أحفظي ابني هذا ، واحذري عليه الرهبان ، والكهان ، .

تقول حليلة : مر بي بعض اليهود فقلت لهم : ألا تحدثوني عن ابني هذا ؟ ! فإن حملته كذاً ، ووضعته كذاً ، ورأيت كذاً ! كما قالت أمه .

تريد حليلة بذلك أن تعرف شيئاً عن الأسرار المتصلة بهذا الغلام المبارك .

تقول حليلة : لما رآه اليهود ، قال بعضهم لبعض : اقتلوه .

وسألوها : أيسم هو ؟

فقلت لهم : لا ، هذا أبوه ، وأنا أمه .

فقالوا : لو كان يسمياً لقتلناه .

فذهبت به حليلة وقالت : كدت أخرب أمانتي <sup>(١)</sup> .

يقول ابن إسحاق : وحدثني بعض أهل العلم أن الذي أهاج أمه السعدية

على إعادته لأمه أن نفرأ من نصاري الحبشة رأوه معها ، حين رجعت به بعد فطامه ،

فنظروا إليه ، وسألوها عنه ، وقلبوه ، ثم قالوا لها : لنأخذن هذا الغلام ، فلنذهبن به

إلى ملكنا ، وبلدنا ، فإن هذا غلام كائن له شأن ، نحن نعرف أمره .. يقول ابن

إسحاق : إنها لم تكذب تغفلت به منهم <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> الطوفات الكبرى ج ١ ص ٧١ .

<sup>(٢)</sup> سيرة النبي ج ١ ص ١٦٧ .

وعاد محمد ﷺ إلى أمه ليبدأ مرحلة جديدة من قومه وعشيرته ..

### وفاء النبي لأيام حليلة :

عاش النبي ﷺ " أيامه الأولى عند حليلة السعدية ، ونما جسده فلهذا وصفوا لسانه بلغات بني سعد ، وصاحب عديداً من الناس .

وعاش محمد ، وهو في ديار حليلة ، مع قبيلة بني سعد ، حيث أحبه كل من رآه ، وأحاطوه بالرعاية الحسنة ، والتكريم الجميل .

وحفظ " ﷺ " حليلة وأسرهما هذا الجميل ، وكان يذكره ، ويشيده ..

يقول النبي ﷺ : ( أنا أعربكم ، أنا من قريش ، ولساني لسان بني سعد ) (١)

يقول محمد بن المنذر : استأذنت امرأة علي النبي ﷺ " كانت أرضعه فلما دخلت عليه ، سر بها ، وقال : أمي ، أمي ، وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقبلت عليه (٢) ، وعرف أصحابه بأنها حليلة .

يروى ابن سعد بسنده أن حليلة قدمت علي النبي ﷺ " بحكة بعد زواجه بخديجة " رضي الله عنها " ، وشكت إليه جذب البلاد ، وهلاك الماشية ، فكلم رسول الله ﷺ " خديجة في شأنها ، فأعطتها أربعين شاة ، وبعيراً ، وانصرف لأهلها (٣) .

وأخسر ج أبو داود بسنده عن ابن الطفيل " ﷺ " قال : ( رأيت رسول الله ﷺ " يقسم لحماً بالجعرانة — وأنا يومئذ غلام أحمل لحم الجزور — إذ أقبلت امرأة حتى دنت إلى رسول الله فبسط لها رداءه ، فجلست عليه ، فقلت : من هذه ؟ قالوا : هذه أمه " ﷺ " التي أرضعته ) (٤) .

(١) بغية الرائد في تحقيق مجمع الزوائد — كتاب المنافع — باب في حليلة ج ٩ ص ٤١٥ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١١٣ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٦١٤ .

(٤) سنن أبي داود — كتاب الأدب .. باب في بر الوالد ج ٢ ص ٦٣٠ .

وهكذا كان تقدير النبي ﷺ " لمرضعته حليلة ، وفاء لحقها ، وبراً بأمومتها وتكريماً لوفادتها .. لم ينسه تغير الحال ما أسدى له من جميل ..  
ولم يتصور أن ما أخذته من أمه أجراً كافياً في حقها ، بل كان " ﷺ " يقدر روجعها ، وأبناءها ، فهم أبوه ، وإخوته ، في الرضاعة ، أخرج أبو داود عن عمر ابن الخطاب أن عمر السائب حدثه أنه بلغه أن رسول الله " ﷺ " ، كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة ، فوضع له بعض ثوبه فقعده عليه ، ثم أقبلت أمه ، فوضع لها شق ثوبه من جانبه الآخر فجلست عليه ، ثم أقبل أخوه من الرضاعة فقام له رسول الله فأجلسه بين يديه <sup>(١)</sup> .

وبعد فتح مكة كانت غزوة حنين ، وأسر النبي " ﷺ " عدداً من هوازن قبيلة حلبيمة ، فجاء وفدهم إلى رسول الله " ﷺ " وهو بالجعرانة لفتك أسراهم ، وكان رأس القوم ، والمتكلم فيهم "أبو صرد زهير بن صرد" فقال : إن في هذه الحظائر (مكان الأسرى) أخواتك ، وعماتك ، وخالاتك ، وبنات عملك ، وبنات خالاتك وأبعدهن قريب منك ، بأبي أنت وأمي ! إنهن حضنك في حجورهن ، وأرضعنك شديهن ، وتوركنك على أوراكنهن وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله " ﷺ " : إن أحسن الحديث أصدقه ، وعندى من ترون من المسلمين أفأبناؤكم ونسأؤكم أحب إليكم ، أم أموالكم ؟ فقالوا : يا رسول الله خيرتنا بين أحسابنا ، وأموالنا ، وما كنا لنعدل بالأحساب شيئاً فرد علينا أبناءنا ونساءنا .

فقال النبي " ﷺ " : أما ما لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وأسأل لكم الناس ، فإذا صليت بالناس الظهر فقولوا : نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله ، فإني سأقول لكم : ما كان لي ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وسأطلب

لكم الناس فلما صلى رسول الله ﷺ ، الظهر ، قاموا فتكلموا بالذي قال  
 لهم رسول الله ﷺ ، ، فرد عليهم رسول الله ﷺ ، وقال لهم : ما كان لي  
 وليسني عبد المطلب فهو لكم ، وهنا تأثر المهاجرون ، والأنصار ، وقالوا مثل ما قال  
 رسول الله ﷺ ، ، ثم اتفقوا على قول واحد وقاموا بتسليم الوفد جميع ما أخذوا ،  
 وهم راضون ، سعداء ، وأطلقوا سراح ما في أيديهم من سبي هوازن إلا أنهم  
 تمسكوا بما في أيديهم فأعطاهم الرسول ﷺ " إبلاً عوضاً عن ذلك ، وفك أسرهم  
 جميعاً <sup>(١)</sup> .

إن الإنسان العظيم لا ينسي جيلاً أسدي إليه ، أو أسدي لأحد من  
 صحابته ، ودائماً يحفظ الفضل لأهله ، وعلي رأس العظماء رسول الله ﷺ  
 الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه ، لقد تذكر جيل آل حليلة في وقت عسرهم ،  
 وضعفهم فما خذلهم وما أهانهم ... بل أكرمهم جميعاً ، وأعادهم إلى ديارهم  
 أحراراً .

وهكذا حافظ رسول الله على الخلق الكريم ، فوفى حليلة "رضي الله عنهم"  
 "يوم أتت إليه ، وأكرم أهلها وقومها" ﷺ ، يوم أن وقعوا أسرى عند المسلمين ،  
 وقد أسلموا بعد ذلك ، وحسن إسلامهم . .

\*\*\*

## المبحث الخامس

### شق الصدر

وتواصل إرهابيات النبوة مع رسول الله ﷺ وهو عند حليمة بعد عودته منها مرة ثانية، ومن هذه الإرهابيات حادثة شق الصدر، الثابتة بالروايات الصحيحة . يروي مسلم بسنده عن أنس بن مالك " ﷺ : ( أن رسول الله " ﷺ " أتاه جبريل " عليه السلام " وهو يلعب مع الغلمان ، فأخذه فصرعه فشق عن قلبه ، فاستخرج القلب ، واستخرج منه علقة سوداء ، فقال : هذا حظ الشيطان ، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ، ثم لأمه ، ثم أعاده في مكانه ، وجاء الغلمان يسعون إلى أمه — يعني : ظنوه — فقالوا : إن محمداً قد قتل ، فاستقبلوه ، وهو منتقع اللون ، قال أنس : وقد كنت أرى ذلك المخيط في صدره ) (١) .

وروى ابن إسحاق عن نفر من أصحاب رسول الله " ﷺ " .

قالوا له : يا رسول الله ! أخبرنا عن نفسك .

قال : نعم، أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخى عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه يخرج منها نور أضاء لها قصور الشام .

واسترضعت في بني سعد بن بكر، فينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعي بهما لنا، إذ أتاني رجلان — عليهما ثياب بيض — بطست من ذهب، مملوء ثلجاً، ثم أخذاني فشقا بطني، واستخرجوا قلبي فشقاها، فاستخرجوا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلوا قلبي، ويطئوا بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال: زنه بمئة من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، ثم قال زنه بألف من أمته، فوزنني بهم فوزنتهم، فقال: دعه عنك ، فوالله لو وزنته بأمتة لوزنها ،

(١) صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب الإسرائاء ج ١ ص ٣٩٢ .

وإسناد هذا الأثر جيد قوى <sup>(١)</sup> .

ويروي أحمد وأبو نعيم في الدلائل عن عتبة بن عبد : أن رجلاً سأل النبي  
 " فقال : كيف كان أول شأنك يا رسول الله ؟

قال : كانت حاضنتي من بني سعد بن بكر ، فانطلقت أنا وابن لها في هم لنا ،  
 نأخذ معنا زاداً ، فقلت : يا أخي ! اذهب فأتنا بزاد من عند أمنا ، فانطلقنا  
 وكنت عند البهم ، فأقبل طائوان أبيهضان كأنهما نسران ، فقال أحدهما لصاحبه  
 أهو هو ؟

فقال : نعم ، فأقبلا بيئدراني ، فأخذاني فبطحاني للقفأ ، فشقا بطني ، ثم استخروا  
 قلبي فشقاها ، فأخرجوا منه علقتين سوداوين ، فقال أحدهما لصاحبه : التي نرى  
 وثليج ، فغسلنا به جوفي ، ثم قال : اتيني بماء بارد ، فغسلنا به قلبي ، ثم قال : التي  
 بالسكينة ، فذرها في قلبي ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خطه ، فحاطه ، ورحم قلبي  
 قلبي بخاتم النبوة ، فقال أحدهما لصاحبه : اجعله في كفة ، واجعل ألفاً من أمته في  
 كفة ، فإذا أنا أنظر إلى الألف فوق ، أشفق أن يخر علي بعضهم ، فقال : لو أن  
 أمته وزنت به لمال بهم ، ثم انطلقا فتركا ، وفرقت فرقاً شديداً ، ثم انطلقت  
 أمي ( حليلة ) فأخبرتها بالذي لقيت ، فأشفقت أن يكون قد لبس بي ، فقالت  
 أعينك بالله ، فرحلت بغيراً لها ، وحملتني على الرحل ، وركبت خلفي ، حتى جاءني  
 إلى أمي ، فقالت : أدبت أمانتي وذمتي ، وحدثتها بالذي لقيت ، فلم يرعها  
 وقالت : إني رأيت نوراً خرج مني أضواء قصور الشام <sup>(٢)</sup> .

وقد تناولت كتب السيرة حادثة شق الصدر ، فهي في سيرة ابن هشام  
 وطبقات ابن سعد ، ودلائل النبوة لأبي نعيم ، والبداية والنهاية ، والخصائص

(١) السيرة النبوية ج ١ ص ١٧٥ ورواه الحاكم وصححه .

(٢) تهذيب ابن عساکر ج ١ ص ٣٩ والحاكم في المستدرک ج ٢ ص ٦١٦ - ٦١٧ ، وقال : صحيح غير مشهور .

الكنسرى للسيوطي ، ودلائل النبوة للبيهقي ، وسير أعلام النبلاء ، وسائر المؤلفات  
 بالحدیث ، وأشارت إليه بعض كتب التفسير ، عند تفسير قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ  
 لَكَ صَدْرَكَ ﴾ <sup>(١)</sup> ، وعند تفسير أول الإسراء .

وهذه الحادثة التي وقعت لرسول الله ﷺ " منذ الطفولة المبكرة ، تكررت  
 معه بعد ذلك أكثر من مرة ، فقد روى الإمام أحمد ، وابن حبان ، وابن عساکر ،  
 عن أبي بن كعب أنا أبا هريرة سأل رسول الله ﷺ : " يا رسول الله ! ما أول  
 ما رأيت في أمر النبوة ؟

فقال النبي ﷺ : " إني لفي صحراء ، ابن عشر سنين وأشهر ، وإذا بكلام فوق  
 رأسي وإذا رجل يقول لرجل : أهو هو ؟ ، قال : نعم ، فاستقبلاني بوجوه لم أرها  
 لخلق قط ، وأرواح لم أجدها من خلق قط ، وثياب لم أرها على أحد قط ، فأقبلا  
 إلي بمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي ، لا أجد لأحدهما هامساً ، فقال  
 أحدهما للآخر : أضجعه ، فأضجعاني بلا قسر ولا هصر ، وقال أحدهما لصاحبه :  
 اطلق صدره ، فهوى أحدهما إلى صدري ففلقه فيما أرى بلا دم ، ولا وجع ، فقال  
 له : أدخل الرافة والرحمة ، فإذا مثل الذي أدخل يشبه الفضة ، ثم هنر إبهام رجلي  
 اليمنى ، فقال : اغد وأسلم ، فرجعت بها أغدو رقة على الصغير ، ورحمة للكبير ، وهذه  
 هي المرة الثانية .

وتكررت مرة ثالثة قبيل البعثة ، يروي أنس بن مالك ويقول : لما حان أن  
 نبأ رسول الله ﷺ " كان ينام حول الكعبة ، وكانت قريش تنام حولها فأتاه  
 جبريل وميكائيل ، فقالا بآيهم أمرنا ، فقالا أمرنا بسينهم ، ثم ذهبا وجاءا من  
 القابلة وهم ثلاثة ، فأنفوه وهو نائم فقلبوه لظهره ، وشقوا بطنه ، ثم جاءوا بماء  
 زمزم فغسلوا ما كان في بطنه ، ثم جاءوا بطست من ذهب قد ملئت إيماناً وحكمة

فملى بطنه وجوفه إيماناً وحكمة<sup>(١)</sup> .

وتكررت مرة رابعة لما جاوز النبي ﷺ " الخمسين من عمره ، فعن مالك

ابن صعصعة أن رسول الله ﷺ " حدثهم عن ليلة أسري به ، قال : ( بينما أنا في

الحطيم — أو قال في الحجر — قال : فاستخرج قلبي ، ثم أتيت بطست من ذهب

مملوءة إيماناً ، فغسل قلبي ، ثم أحشائي ، ثم أعيد .. )<sup>(٢)</sup> .

وقصة شق الصدر هذه تشير إلى تعهد الله — عز وجل — نبيه ﷺ " منذ

صغره ، وعلى امتداد عمره ﷺ " وإبعاده عن مزالق الطبع ، ووساوس الشيطان ،

وتلك حصانة حسية للرسول الكريم أصفها الله عليه ، ليعيش طاهر الظاهر والباطن

بتوفيق الله تعالى .

إن الله سبحانه وتعالى — وقد شاءت إرادته — منذ الأزل — أن يكون محمد

خاتم المرسلين ، أراد سبحانه أن يجعل منه المثل الأعلى ، للإنسان السوي ، الذي يسير

نحو الكمال بطهارة القلب ، وتصفية النفس .

ولما شب رسول الله ﷺ " كانت مكة تعج بمختلف أنواع اللهو ، والفساد

والملاذ الشهوانية الدنسة .

كانت حانات الخمر منتشرة ، وبيوت الريبة وعليها علامات تعرف بها ،

ووجود المغنيات ، والمأجنات ، والراقصات ، من الأمور العادية الموجودة في ذلك

الاجتماع تتوجها عبادة الأصنام والأوثان .

وكان الاجتماع المكي يومذاك يقر ذلك ، ويعتبره جزءاً من حياة الناس ..

والله سبحانه وتعالى برأ رسوله ، واختاره من أكرم معادن الإنسانية ، ثم

اختاره لحمل أكمل رسالات السماء إلى أمم الأرض ، ولذلك أحاطه بكل أنواع

الرعاية والحفظ .

(١) حجة الله على العالمين ص ٢٧٢ .

(٢) أخرجه مسلم ، وأحمد ج ٣ ص ١٢١ ، والحاكم ج ٢ ص ٦١٦ .



وأحاديث شق الصدر صحيحة بالسند ، أجمعت عليها سائر مؤلفات السيرة  
بلا مجال للشك في سندها .

وأحاديث شق الصدر مروية عن رسول الله " ﷺ " بعد مبعثه ، فهي بذلك  
من الوحي المنزل على رسول الله " ﷺ " الذي لا ينطق عن الهوى أبداً .  
ولا يصح لمسلم أن يشكك في هذه الروايات الصحيحة ، ويدعى أن محمداً  
قال بها ، وهو طفل صغير لا يتحمل الرواية .

إن شق صدر النبي " ﷺ " كان لإخراج حظ النفس ، والشيطان من قلبه ،  
لقد كان بوسع القدر الإلهي أن يضع في محمد ما يشاء الله له من فضل ، وخير ، بصورة  
معنوية ، غير مدركة بالحواس ، لكن الله أراد له هذه الصورة الحسية ، ليشهد الناس  
على هذه العجوبة الخالدة التي جعلت من محمد إنساناً قوياً ، شجاعاً ، طاهراً ، نظيف  
الظاهر والباطن ... ولا نستطيع القول بأن حظ الشيطان مرتبط في النفس بجزء مادي  
أو عدة معينة ، لأن هذا مما يستحيل تحديده .

وكل ما يمكن الإشارة إليه أن شق صدر محمد " ﷺ " من عناية الله به ليترقى  
في الظهر ، ويسمو في السلوك ، ويعلو في روحانيته وشفافيته ، ويقترب في نورانيته  
من الروح ، والملا الأعلى .

ومن العجب أن رأينا من ينكر حادثة شق الصدر من العلماء المسلمين ، فهذا  
هو الدكتور / محمود مراد يتحدث عن طفولة النبي " ﷺ " وشق صدره وغيرها من  
الإرهاصات فيقول : ( يغلب ذكر الأعاجيب فيها ذكر الواقع ، في قصص ساذجة لا  
تشبه ما ورد في النص من أحاديث محكمة عن عبد المطلب ) <sup>(١)</sup> .

فشق الصدر في رأيه كلام ساذج يتضمن أعجوبة لا يتصورها الواقع ، ولا  
يسلم بها ، فهي عنده قصة مردودة .

<sup>(١)</sup> محمد رسول الله " ﷺ " للدكتور / محمود مراد ص ٤٦ .

والدكتور / محمد حسنين هيكل يرد حادثة شق الصدر بضعف السند ،  
محمد رواها وهو طفل صغير ، وبأنه لا حاجة إليها في إثبات الرسالة ، وبأن الإسلام  
أقام دعوته على العقل الذى يتعارض مع تصور هذه الحادثة <sup>(١)</sup> .

والمتكبرون لشق الصدر فريقان ، **فريق** ينكره إنكاراً تاماً ، وينحرف  
مبررات تؤيد إنكاره ، فإن كان مسلماً يذهب إلى ضعف سند روايات شق الصدر  
وعدم تحمل الصغير للرواية ، وإن لم يكن مسلماً لجأ إلى التحليل العقلي ، والمناقشة  
التحريبي ليصل الجميع إلى إنكار وقوع شق الصدر ، ويرى هذا الفريق أن شق الصدر  
ليس ضرورياً ، لأن الله قادر على إنفاذ ما يرى ؛ بدون هذه التصورات المزعومة .  
وبخاصة أن حفظ الشيطان في النفس لا يسكن في عضو ما ، وإنما هو يجرى في الجسد  
كله مجرى الدم .

**والفريق الثانى** ينظر إلى حادثة شق الصدر ، ويرى صحة الأحاديث  
الواردة التى يؤكدونها قوله تعالى : ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴾ فقد تركت هذه  
الآية لتأكيد شق الصدر كما يقول الإمام الخازن في تفسيره <sup>(٢)</sup> ، ولذا يتجمل أمر  
مخرج لإنكاره بعدما سلم بصحة أحاديث شق الصدر .

رأى هذا الفريق صحة الأحاديث ، وعلم أنها كانت بعد البعثة ، إذ تحدث  
" ﷺ " حين سئل عنها ، فذهب إلى تأويل شق الصدر ، بأنه يعنى التطهير المعنوي  
لرسول الله " ﷺ " .

إن حادثة شق الصدر وقعت بصورة حسية ، وتكررت مع رسول الله " ﷺ "  
والروايات الصحيحة تؤكد ذلك ، فقد جاء في بعضها : فشق من النحر إلى مرق  
البطن .

(١) أنظر : حياة محمد ص ١٢٨ - ١٢٩ بتصرف .

(٢) تفسير الخازن ج ٧ ص ٢٦٢ ، وذكر الخازن أن الشق أحد معاني شرح الصدر .

وفي بعضها : إلى أسفل بطنه .

وجاء في إحداها : فشق جبريل ما بين شجرة إلى لبته .

وفوق ذلك كله فأنس بن مالك — رضي الله عنه " يقول : وقد كنت أرى أثر ذلك

الخييط ، في صدره <sup>(١)</sup> .

يقول الدكتور / محمد سعيد البوطي في رده على كلا الفريقين : رويت هذه

الحادثة بطرق صحيحة وعن كثير من الصحابة .

وليست الحكمة من هذه الحادثة — والله أعلم — استئصال غدة الشر في

جسم رسول الله ﷺ " إذ لو كان الشر منبعه غدة في الجسم ، أو علقه في بعض

أغنامه لأمكن أن يصبح الشرير خيراً بعملية جراحية ، ولكن يبدو أن الحكمة هي

إعلاء أمر الرسول ﷺ " وهئئته للعصمة ، والوحي ، منذ صغره بوسائل مادية ،

ليكون ذلك أقرب إلى إيمان الناس به ، وتصديقهم برسالاته .

إنها إذاً عملية تطهير معنوي ، ولكنها اتخذت هذا الشكل المادي الحسي ،

ليكون ذلك الإعلان الإلهي ظاهراً بين أسماع الناس وأبصارهم ، وعلى مستوى

نصورتهم .

وأما كانت الحكمة ، فلا ينبغي — وقد ثبت الخبر ثبوتاً صحيحاً — محاولة

البحث عن مخارج لصرف الحديث عن ظاهرة ، وحقيقته ، والذهاب إلى التأويلات

المحوجة البعيدة ، المتكلفة ، ولن نجد مسوغاً لمن يحاول هذا — رغم ثبوت الخبر

وصحته — إلا ضعف الإيمان بالله عز وجل .

ينبغي أن نعلم بأن ميزان قبولنا للخبر إنما هو صدق الرواية ، وصحتها ، فإذا

ثبت ذلك ثبوتاً بيناً فلا مناص من قبوله ، موضوعاً على الرأس ، وميزاننا لفهمه حينئذ

دلالات اللغة العربية وأحكامها ، والأصل في الكلام الحقيقة ، ولو أنه جاز لكل

باحث وقارئ أن يصف الكلام عن حقيقته إلى مختلف الدلالات الخوارقية التي  
بينها ما يروى له ، لأشادت قيمة اللغة وفقدت دلالتها وناء الناس في عبادتها  
إن الدكتور / محمود مراد يصف رواية الإرهابيات بالساذجة ويصفها  
عبد المطلب بالإحكام ، مع أنه لا فرق بينهما في الشكوك المعوية . أو الدلالات الخوارقية  
والمعوية .. لكنه الغرض والموضع ! !

وكلام الدكتور / هيكمل مردود ، الصفحة المسد التي جاء بتق العصار على  
ما أوردته بهذا قال النبي أشادت شق الصدر وهو من مرسى - حين سئل عنها -  
فإن خوارق العادات جاءت للناس ليسلموا لما جاءهم به الرسول " <sup>(١)</sup> " يوم من الأيام  
أن يخلق الله في عباده التسليم والإيمان من غير وعجزه أو خوارق العادات وذلك <sup>(٢)</sup>  
ولو فرضنا أن هذه الخوارق لم تقع لأرباب من يحال ، هذا ليكون دليله  
على التصديق ، كما حدث من أهل مكة ، فلقد دعاهم النبي " <sup>(٣)</sup> " القرآن الكريم  
وبكافة السحج الموجودة فيه ، إلا أنهم طالبوا بخوارق العادات : <sup>(٤)</sup> " ولله تعالى  
﴿ وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَٰسُوءًا ﴾ <sup>(٥)</sup> " أَوْ تَكُونَ لَكُمُ الْجِبَالُ  
مِّنْ عُجْلٍ وَعَنْبٍ فَتَفْجِرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا <sup>(٦)</sup> " أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا رَأَيْتَ  
عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَيْكَةِ قِيلًا <sup>(٧)</sup> " أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرٍ أَوْ  
تَرْقَىٰ فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُفَيْكَ حَتَّىٰ تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا يَقْرَوُهُ قُلُوبُ سُبْحَانَ رَبِّكَ  
هَلْ كُنْتَ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا <sup>(٨)</sup> " <sup>(٩)</sup> .

إن إرهابيات النبوة لم تكن ليؤمن الناس بالإسلام ، فقد ظهرت قبل الإسلام  
بزمن طويل ، ولم يبرزها النبي للناس بعد ، فبعده ليجعلها دليلاً لهم ، وإنما جاءت بعد

<sup>(١)</sup> فقه السيرة للوطي ص ٥٣ .

<sup>(٢)</sup> سورة الإسراء الآيات ( ٩٠ - ٩٣ ) .

الإلهامات فيها للعقلاء ، ليروا عجائب القدرة : وليعلموا أن الله خبط خلقه . وله الأمر كله ، ولتعت في عقولهم البحث عن أسرار ما يشاهدون .

إن الأمر في النهاية عقل ونبوة . وفكر بشري ووحى إلهي ، والفرق بينهما كبير . . . والمؤمن يعطي كل جانب حقه . . . أما غيره فإنه ينادي بسيادة العقل ، وليس له في تصور النبوة والوحى نصيب .

يقول ابن حجر : ( إن جميع ما ورد في شق الصدر واستحراح القلب : وغير ذلك مما يجب التسليم له ، دون التعرض لصرفه عن حقيقته لصلاحيته القدرة ، فلا يستحيل شيء من ذلك )<sup>(١)</sup> .

والبشرية كلها تعلم أن السوابع قائمة على حوارات العادات ، الخارجة عن ما في العقول ، وطلبائع الأشياء ، فمن آمن بالنبوة لزمه الإيمان بالحوارات ، ومن أنكر الحوار أنكر النبوة من أساسها . . والله أعلم .

\*\*\*

## المبحث السادس

محمد " ﷺ "

## في مرحلة الصبا

عاد محمد " ﷺ " من ديار بني سعد بعدما بلغ خمس سنوات للمزة<sup>(١)</sup> والآن الأخيرة، وسرت أمه بقدومه، وأخذت في توجيهه، وتنشئته، تساعد أمه في رعايته ويعاونه حده عبد المطلب الذي رأى في محمد صورة ابنه عبد الله.

لاحظت أمه أن محمداً يتمتع بقوة بدنية وعقلية، تفوق أقرانه من الأطفال ورأت أن تذهب به لزيارة أحوال أبيه من بني عدي بن النجار، وليعرفهم الذي دخن في دارهم، وليعلم أصوله من جهة أمه كما علمها من جهة أبيه. وأخذته " ﷺ " ورحلت به على ناقتين لها، ومعهما أم أيمن، ومكنت في المدينة بأكملها، ليتمكن ولدها الصغير من التعرف بالمكان، وأدبه، ويرى ما هم عليه عادات، وأديان، وأعمال، من خلال لعبه مع الصغار، أو جلوسه مع الكبار. وعسى عودة أمه من المدينة إلى مكة ماتت في الطريق عند الأبواء<sup>(٢)</sup> ودفنت... ورجعت القافلة مرة أخرى إلى مكة بلا أمه، واستقبلها عبد المطلب، وحفيده إليه، فكنى محمداً " ﷺ " ومعه حاصته " أم أيمن " لخدمته.

وقيت ذكريات رحلة المدينة مع رسول الله " ﷺ " طوال حياته لأنه " ﷺ " هاجر في الإسلام إلى المدينة المنورة بعد سبع وأربعين سنة، نظر إلى أطم<sup>(٣)</sup> بني النجار وقال: ( كنت ألاعب " أنيسة " ( وهي جارية من الأنصار ) على هذه الأطم وكنت مع الغلمان أبناء أحوالي نظير طائر كان يقع علينا، وأحسنت العوم في بني عدي بن النجار، وقال: وفي دار بني عدي نزلت مع أمي، وفيها قبر أبي<sup>(٤)</sup>.

<sup>(١)</sup> الأبواء: قرية صغيرة بين مكة والمدينة، بينها وبين المدينة ثلاثة وعشرون ميلاً.

<sup>(٢)</sup> الأطم: الحسرون، ومفردها أطم.

<sup>(٣)</sup> الطلحة: الكثرى ج ١ ص ١١٦.

إما ذكريات باقية بصورها ، وحقيقتها ... وكان " ﷺ " يذكر حاله فيه ثم

أعين ويقول : ( أم يمن أمي بعد أمي ) <sup>(١)</sup> .

وقد زار النبي " ﷺ " بعد البعثة أيضاً قبر أمه فيكي ، وأبكي ، فلما سئل

بما يبكيك يا رسول الله ، قال : تذكرت رحمتها فيكي <sup>(٢)</sup> .

وعموت أمة فقد الرسول أبويه ، ووجد نفسه وحيداً ، هريداً ، حرم من الأبناء

والإحبة : ولو كان غير محمد لأصابه الكثير ، إلا أن الرعاية الإلهية كانت معه " ﷺ "

" حيث قام عبد المطلب بكفافته بعد رجوعه إلى مكة مباشرة ، وشغلته عنايته

والعناية ، وكان يرعاه أكثر من أبنائه .

كما أحاطته أم أيمن " رضي الله عنها " بالرعاية والخدمة ، وكانت تضاف

عليه من أي أذى يلحق به ، وبخاصة أنها رأت من يهود المدينة ما جعلها تنافس عليه

منهم ، تقول " رضي الله عنها " : ( وكان قوم من اليهود يختلفون إليه ، وينظرونه

ويتفرون فيه ، تقول أم أيمن : فسمعت أحدهم يقول : هو نبي هذه الأمة ، وهذه

دار هجرته ، فوعيت ذلك كله من كلامهم ) <sup>(٣)</sup> ، وبقيت هذه الحادثة في ذاكرتها

وذلك نراها بعد عودتها إلى مكة : تذهب به إلى جده عبد المطلب ليكفله ، فكفاه

مرحله به ، وقربه منه ، ولما فارق أحله ، وصي ابنه " أما طالب " ليكفله من بعده ،

وهكذا عاش " ﷺ " مع جده ، ومن بعده مع عمه ، مكرماً ، محبباً .

### عناية عبد المطلب بحفيده :

عند محمد " ﷺ " وحيداً إلى جده ، فضمه إليه ، وقربه من نفسه ، ورفق

عليه رقة لم يراها أحد من ولده : وكان يتفقده إذا حثلاً ، وإذا نام .

قال ترمذ من نبي مدح لعبد المطلب : احتفظ بملك هذا فإن له شأناً ، وإنا لم

<sup>(١)</sup> صحاح تكملة ج ١ ص ٢١٦ .

<sup>(٢)</sup> صحاح تكملة ج ١ ص ٢١٢ .

<sup>(٣)</sup> ترمذ ج ١ ص ٢١٨ .

نسر قدماً أشبه بقدم إبراهيم الذي في المقام منه : فسر كثيراً ، وأني بولده أبي بكر  
وقال له : إسمع ما يقول هؤلاء : فسبح منهم : واحتفظت ما سمع إقراراً بغير  
الاهتمام بمحمد " ﷺ " .

وجاء عبد المطلب لحاضنته " أم أيمن " وكان اسمها " بركة " وقال  
يا بركة لا تغفلي عن أبي هذا ، فإني وجدته مع غلمان قريباً من السدرة ، وإن  
الكتاب يرون أن له شأناً .

وفسد عهد عبد المطلب أن يشيخ حميدة بشاذ الرجال الكبار : يقول  
إسحاق : ( وكان رسول الله " ﷺ " مع جده عبد المطلب بن هاشم : وكان يوصي  
لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة ، فكان يتوه يجلسون حول فراشه ذلك ، حتى يخرج  
إليه ، لا يجلس عليه أحد من بنيه إجلالاً له ، يقول ابن إسحاق : فكان رسول  
الله " ﷺ " يأتي ، وهو غلام جفرا ، يجلس عليه ، فيأخذه أعمامه ، فيؤخروه عن  
فيقول لهم عبد المطلب حين رأى ذلك منهم : دعوا ابني ، فوالله إن له لشأناً  
يجلسه معه على الفراش ، ويمسح ظهره بيده ، ويسره ما يراه يصنع ) .

ويبدو أن هذه الواقعة تكررت مع غير أسماء عبد المطلب ، فقد روي  
حريج : قال : ( كنا مع عطاء ، فقال : سمعت ابن عباس يقول : سمعت أبي يقول  
كان عبد المطلب أطول الناس قامه ، وأحسنهم وجهاً ، ما رآه أحد قط إلا أحن  
وكان له مفرش في الحجر لا يجلس عليه غيره ، ولا يجلس عليه معه أحد ، وكان  
الأنداد من قريش ، حوب بن أمية فمن دونه ، يجلسون حوله دون المفرش ، فقال  
رسول الله " ﷺ " وهو غلام لم يبلغ ، فجلس على المفرش ، فحبذه رجل بيكي .  
فقال عبد المطلب ، وذلك بعد ما كف بهره : ما لابني بيكي !

قالوا له : إنه أراد أن يجلس على المفرش فمنعوه .



فقال : دعوا ابني يجلس عليه ، فإنه يحس من نفسه شرفاً ، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده <sup>(١)</sup>.

وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلا ناداه ليأكل معه ، ويقول لمن حوله : على أي ، فيؤتى إليه ، ويأكل معه .

سروى كسندر بن سعيد عن أبيه قال : حججت في الجاهلية ، فإذا رجل يطوف بالبيت ، ويرتحل ، ويقول : —

يارب رد لي راكبي محمداً يارب رده واسطع عدي بدا

فقلت : من هذا .

قالوا : هذا عبد المطلب ، ذهب إبل له ، فأرسل ابن ابنه محمد في طلبها ، ولم ير سلة في أحد فوط إلا جاء بها ، وقد احتبس عليه هذه المرة ... يقول الراوى : فما برحت حتى أنظر ما يحدث ، فلما جاء محمد ﷺ " بالإبل ، قال له جده : يا بني لقد حزن عليك حزناً ، لا تفارقني أبداً <sup>(٢)</sup> .

وكان هذا الاهتمام بمحمد هو شأن عبد المطلب منذ مولد رسول الله ، حتى عرف ذلك عنه ، ولذلك حينما افتقده حليمة السعدية مرة ، لم تجد سوي جده ، فأنت إليه ، وأحمرته بضيقه ليبحث عنه ..

يقول ابن إسحاق : ( إن أمه السعدية لما قدمت به مكة أضلها في الناس ، وهي مفلسة به نحو أهله ، فالتهمته فلم تجده ، فأنت عبد المطلب ، فقالت له : إن قد قدمت بمحمد هذه الليلة ، فلما كنت بأعلى مكة أضلني ، هو الله ما أدري أين هو ؟ ! فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده ، يقول ابن إسحاق : وجده ورقة بن نوفل بن أسد - ورجل آخر من قريش ، فأثبته عبد المطلب ، وقال له : هذا لك

<sup>(١)</sup> من عظام بني عبد المطلب ، ج ١ ص ٥٦ .

<sup>(٢)</sup> من عظام بني عبد المطلب ، ج ١ ص ٥٥ .

وجدناه بأعني مكة ، فأخذه عبد المطلب ، فحمله على عنقه ، وهو يطوف بالكعبة يعوده ، ويدعو له ، ثم أرسل به إلى أمه آمنة <sup>(١)</sup> .

ولما شعر عبد المطلب بذنو أجله ، وصي إليه أبا طالب كفالة <sup>(٢)</sup> .

عمه أبو طالب بعد وفاة جده عبد المطلب ، وعمر النبي " ﷺ " ثمانين سنة .

اشترك في دفن جده ، وسار خلفه وهو يبكي ، وقد دفن عبد المطلب بالحجون <sup>(٣)</sup> .

يقول أبي سعد : ( ومات عبد المطلب فدفن بالحجون ، وهو يومئذ ابن

اثنين وثمانين سنة ، ويقال : ابن مائة وعشر سنين .

وسئل رسول الله " ﷺ " : أتذكر موت عبد المطلب ؟

قال : نعم أنا يومئذ ابن ثمانين سنين .

قالت أم أيمن : رأيت رسول الله " ﷺ " يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب <sup>(٤)</sup> .

### عناية أبي طالب بابن أخيه :

عاش النبي " ﷺ " في كفالة عمه أبي طالب ، أحبطه رعاية الله الذي حفظ

من ذل اليتيم ، وضرر الفقر .

وكفيلة أبي طالب لكفالة محمد قدر إلهي حاله ، لأن أبا طالب كان ذو

العيال ، فقير الحال ، وكان الطعام يقدم لأولاده ، فيتناولون عليه لقمته ، وكان يفر

بإدائهم ، يقول السهيلي : كانوا يصبحون غمضاً ، رمضاً ، مصفرة ألوانهم من

الجوع .

ومع هذا الحال فإن أبا طالب أهتم بوصية أبيه : وضم محمداً لأبنائه ، وخصص

بالرعاية والتوجيه ، وكان يجالسه ، ويتناقشه .

<sup>(١)</sup> سيرة النبي لابن هشام ج ١ ص ١٦٧ .

<sup>(٢)</sup> البداية والنهاية ج ٢ ص ٢٨٢ .

<sup>(٣)</sup> سير أعلام النبلاء ج ١ ص ٥٦ .

<sup>(٤)</sup> اختار عبد المطلب ولده أبا طالب ووصاه محمد بن عبد الله ، لأن أبا طالب هو المشيخ لعبد الله من الأب والجد

والجد فأنتمت عندهم من عائلته من بني فخرهم ، وكان جميع أبناء عبد المطلب يهتمون بمحمد " ﷺ " .

ومن رعاية الله محمد ﷺ " وهو في بيت أبي طالب أقد كان إذا نزع الطعام لأولاد أبي طالب سبغوه إليه ، ويتقاصروا هو ، وتمتد أيديهم ، وتنقص ماله بكرماً . واستجباء ، وقناعة ، ومع ذلك يصبح صقلاً ، دهباً ، كأبه في أنعم عيش ، وأعز كفاية . اطعنا من الله عز وجل .

رأى محمد رغم صغره حاجة عمه أبي طالب للمال ، فأخذ على عاتقه أن يعمل ، ويكتسب شيئاً يعين به عمه .

وإراد الله محمد ﷺ " أن يخرج إلى الناس ، ويختلط بهم ، ويتعامل معهم . في مكة : وبعيداً عنها .. لينال أهلية الرسالة بصورة عملية ، تطبيقية .

إن التجربة العملية لها دور رئيسي في بروز الشخصية السوية ، وكما اختلط الصغير بالناس اكتسب حيرة ، ومعرفة .. وكما سافر ، ورحل عرف المزيد .

لما نرى : - والله أعلم - أن الله هباً لحبيب محمد ﷺ " مجالاً روحاً هذه التشنج .. لقد عاش في بادية بني سعد خمس سنوات ، اختلط بالناس وقام بالعمل والنشاط

تقول حنيفة : ( بينما هو ﷺ " يلعب وأخوه خلف البيوت يرعيان بهما لهما ) <sup>(١)</sup> .. ورحل إلى المدينة برفقة أمه في رحلتها التي ماتت فيها .. وأقام بالمدينة شهراً .

وفي كفالة جده اختلط بحكماء مكة ، ورجالها ..

ومع عمه أبي طالب رأى حنان الأب ، واهتمامه ، حيث كان يصطحبه معه أينما ذهب . وكان يحبه حباً شديداً ، لا يتركه ينام إلا بجواره ، ولا يخرج إلا في معية ، ولا يظلم أبناءه إلا وهو معهم .

وكان عمه لا يعطس عليه إلا وهو معه ، ولذلك كانت ملازمته له دائماً

ومستمرة .

وهيأ الله لمحمد ﷺ " أسباب الاتصال بالناس ، والالتقاء بهم ، مع أهل  
المذاهب ، والاتجاهات ، والعادات ، فقام بأعمال عديدة ذكرها مؤرخو السيرة  
ومنها ما يلي : —

### « أولاً »

## الرحلة الأولى إلى الشام

### وقصة بحيرى الراهب

أراد أبو طالب أن يسير في ركب الشام للتجارة ، فلما غزم على السفر  
به محمد ﷺ " قاتلاً له : أى عم إلى من تخلصي ها هنا ؟ فرق له قات عمه : وأخذ  
معه ، وأردفه خلفه على بعيره ، وانتهوا صوب الشام مع القافلة .

وكان للتصاري عدد من الأديرة في الطريق - يسكنها الرهبان المقلدون  
للعبادات ، وهم الذين يعلمون ما بقى من دين عيسى ﷺ " - ويبدوا أن هؤلاء  
الرهبان كانوا على علم بأوصاف النبي المنتظر ، هو الذي تجدونه مكتوباً عندهم

التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ ﴿ ١٠٠ 〉 وكما يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ  
كَمَا يَعْرِفُونَ آبَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُسُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ﴿ ١٠١ 〉

لقد وصلت هذه المعرفة لديهم أن علموا ضرورة أن يكون النبي شياً ، وأن  
يكون موسوماً بخاتم النبوة ، وأن خوارق الطبيعة تحيط به ، وكانوا يعلمون أن هذا  
النبي سيلقى كراهية اليهود لأهم يرغبون في أن تكون النبوة لهم ، ومنهم .

ويبدوا أن هذه المسألة كانت معلومة لعديد من الرهبان والقسس ، لأن  
ركب أبو طالب ومحمد نزل أولاً في دير قريب بشمال الحجاز ، فالتفوا مع صاحب  
الدير صاحب الدير محمد ، وقال لأبي طالب : ما هذا الغلام منك ؟

١٠٠ سورة الأنعام آية ( ١٥٧ ) .

١٠١ سورة الفرقان آية ( ١٤٦ ) .

فقال أبو طالب : هو ابني .

فقال الراهب : ما هو ابنك ، وما ينبغي أن يكون له أب حي .

فان أبو طالب : ولم ؟

فان الراهب : لأن وجهه وجه نبي ، وعينه عين نبي .

فقال أبو طالب : وما النبي ؟

فقال له الراهب : الذي يوحى إليه من السماء فينبئ أهل الأرض ، فانق عليه من اليهود .

لقد كانت هذه الأديرة أماكن يستريح بخوارها النارة ، المذهبون إلى الشام ، أو العائدون منها . ففيها من أسباب الحياة ما يشجع على الراحة عندها .

وكان أبو طالب يسمع من راهب الدير الذي ينزل عنده ما سمعه من غيره ،

فقال لنفسه " لَعَلَّه " : يا ابن أخي ، ألا تسمع ما يقولون ؟

فقال له محمد : أي علم لا تنكر لله قلعة ! !

وكان الوقفة الكبرى حين بلغ الركب مدينة بصرى ، فزل الجميع وجسوا تحت شجرة مريضة من دير " بحيرى " .

يقول ابن إسحاق : ( فلما نزل الركب أرض الشام ، وها راهب يقال له ،

بحيرى في صومعة له ، وكان إليه علم أهل النصرانية ، ولم يزل في تلك الصومعة منذ

فطر راهب ، إليه يسمعون علمهم عن كتاب فيها ، يتوارثونه كباراً عن كبار ، فلما نزلوا

ذلك العام بحيرى ، وكانوا كثيراً ما يمرون به قبل ذلك ، فلا يكلمهم ، ولا يعرفون

هم ، حتى كان ذلك العام : فلما نزلوا به قريباً من صومعته صنع لهم طعاماً كثيراً .

وذلك عن نسي راء ، يذكرون أنه رأى رسول الله " ﷺ " وهو في صومعته في الركب

حين أقبلوا . وعسامة نظده من بين القوم ، تتحرك بحركته ، ثم أقبلوا فنزلوا في ظل

شجرة قريبة من بحيرى ، فنظر إلى العسامة حين أظلمت الشجرة ، وتقصرت أعصان

الشجرة على رسول الله " ﷺ " حتى استظل ثمنها .

فلما رأى ذلك بحيرى نزل من صومعته ، وقد أمر بالطعام مصنع . ثم أرسل إليهم فقال : إن قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش ، وأحب أن توفروا كلكم ، صنع لكم وكبيركم ، وعدكم وحرركم .

فقال له رجل منهم : والله يا بحيرى إن لك لشأناً اليوم ! ما كنت تصنع هذا يوماً وقد كنا نمر بك كثيراً ، فما شأنك اليوم ؟

قال له بحيرى : صدقت ، قد كان ما تقول ، ولكنكم ضيف . وقد أحببت أن أكرمكم ، وأصنع لكم طعاماً ، فتأكلوا منه كلكم .

فاجتمعوا إليه وتخلف رسول الله " ﷺ " من بين القوم ، لخدمته ، فبقي في رحال القوم تحت الشجرة ، فلما نظر بحيرى في القوم لم ير الصفة التي يعرف ، وأجدها عنده فقال : يا معشر قريش ! لا يتخلفن أحد منكم عن طعامي .

قالوا له : يا بحيرى ، ما تخلف عنك أحد ينبغي له أن يأتيت إلا غلام ، وهو أخذنا القوم سنأ . فتخلف في الرحال .

فقال : لا تفعلوا ، أدعوه ، فليحضر هذا الطعام معكم .

فقال رجل من قريش مع القوم : واللوات والعزى ، أن كان للقوم بنا أن يتخلف من عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام إليه فاحتضه ، وأحصره ، وأخبره مع القوم .

فلما رآه بحيرى ، جعل يلحظه لحظاً شديداً ، وينظر إلى أشياء من حسده ، وقد كان يجدها عنده من صفتة ، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا ، قام إليه بحيرى ، فقال : يا غلام ، أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه ، وإنا قال له بحيرى ذلك وحلف باللات والعزى ، لأنه سمع قومه يحلفون هكذا .

فقال له رسول الله " ﷺ " : لا تسألني باللات والعزى شيئاً ، فوالله ما أعضت شيئاً قط بعنقهما .

فقال له بحيرى : فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه .

فقال له : سلمي عما بدا لك .

فجعل يسأله عن أشياء من حاله من قومه ، وهيئته ، وأموره ، فجعل رسول الله ﷺ ينبره ، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من صفته ، ثم نظر إلى ظهره ، فرأى خاتم السود على كتفه على موضعه من صفته التي عنده .

قال ابن إسحاق : فلما فرغ ، أقبل على عمه أبي طالب ، فقال له : ما هذا

الغلام منك ؟

قال : أبى -

قال له بحيرى : ما هو بابنك ، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً .

قال : فإنه ابن أخي .

قال : فلما فعل أبوه ؟

قال : مات وأمه حليبي به .

قال : صدقت ، فأرجع بابن أخيك إلى بلده ، واحذر عليه يهود ، فوالله لئن رأوه : وعرفوا منه ما عرفت ليبغنه شراً ، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم ، فأسرع به إلى بلاده <sup>(١)</sup> .

وقد أورد الإمام الترمذى هذه الحادثة وزاد فيه ، حين سأله أشياء من قريش عن سبب ما فعل قال لهم : إنكم حين أشرفتكم من العقبة لم يبق شجر ، ولا حجر ، إلا خر ساجداً ، ولا يسجدان إلا لتي ، وإلى أعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل المنقحة ، ثم رجع فصنع لهم طعاماً ، فلما أتاهاهم به وكان هو في رعي الإبل قال : أرسلوا إليه ، فأقبل وعليه غمامة تظله ، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى منى الشجرة ، فلما جلس مال في الشجرة عليه .

<sup>(١)</sup> سيرة النبي ﷺ ج ١ ص ١ ، يقول البيهقي هذه القصة مشهورة عند أهل المغازي ، ويقول ابن حجر : رواها

فقال : انظروا إلى في الشجرة مال عليه ، وبينما هو قائم عليهم ، ينشدونهم أن يذهبوا به إلى الروم ، فإن الروم إذا رأوه عرفوه بالصفة فيقتلوه ، فالتفت فإذا قد أقبلوا من الروم فاستقبلتهم فقال : ما جاء بكم ؟

قالوا : جننا لهذا النبي الذي أنزلنا زمانه ، فلم يبق طريق (لا يعب) إلى بالناس منا ، وإنا قد بعثنا إلى طريقك هذا .

فقال : هل خلفكم أحد هو خير منكم ؟

قالوا : إنما اخترنا خيرتنا لك ، لطريقك هذا .

قال : أفأريتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده ؟ قالوا : لا .

فلما رد الرومان قال لأبي طالب ومن معه : أنشدكم الله أيكم وليه ؟

قالوا : أبو طالب ، فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب (١) .

ويبدو أنها حادثة أخرى ، لأن رواية ابن إسحاق كان التحذير من اليهود

والتحذير في هذه الحادثة كان من الروم ، وأيضاً فإن الحادثة الأولى حدثت في الراهب وهو بحيرى ، بينما هذه الحادثة لم تذكر اسماً معيناً .

وخلاصة هذه الرويات تثبت هذه الرحلة لرسول الله " ﷺ " ومضاهي

لعمده، ومعرفة أهل الكتاب بقرب مبعده، وكراهيتهم لعروية هذا النبي المبعوث الذي

تمنوه منهم، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانَ فِيهِ

قَبْلُ يُسَمِّفِيحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ، فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى

الْكُفَّارِينَ ﴿٨٩﴾ ١١٠

١١٠ الجامع الصحيح سنن الترمذي ج ٤ ص ٥٩١ .

١١١ سورة البقرة آية ( ٨٩ ) .



وفد روى الهيثمي عدداً من الآثار تشهد على علم أهل الكتاب بأمر سوره بعد " سورة " ، وهذا تأكيد لما جاء في القرآن الكريم .

يروى سلمة ابن سلامة بن وقش ، وكان من أصحاب بدر ، قال : كان لنا جار من اليهود في بي عبد الأشهل ، فخرج علينا يوماً من بيته ، قبل مبعث النبي " ﷺ " بغير ، فوقف على مجلس عبد الأشهل ، وأنا يومئذ أحدث من فيه سناً ، على برده ، مضطجع فيها دفناء أهلى هذا ذكر البعث ، والقيامة ، والحساب ، والميزان ، والجنة ، والنار .

قال ذلك تقوم أهل أو ثمان وأصحاب شرك ، لا يرون أن بعثاً كائناً بعد الموت .  
فقالوا له : ويحك يا فلان ، ترى هذا كائناً ، إن الناس يبعثون بعد موتهم ، إلى دار منها جنة ودار . يخرجون فيها بأعمالهم .

قال : نعم ، والذي يحلف به ، لو دأن له بدل تلك النار أعظم تنور في الدنيا بحمونه ، ثم يدخلونه إياه فيطهرونه عليه ، وإنه ينجو من تلك النار غداً .  
قالوا : ويحك وما آية ذلك ؟

قال : بي يبعث من نحو هذه البلاد ، وأشار بيده نحو مكة واليمن .  
قالوا : ومبى نراه ؟

فظهر إلى وأنا من أحدثهم سناً فقال : إن يستنفذ هذا الغلام عمره يدركه .  
قال سفيان : هو الله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله تعالى نبيه " ﷺ " وهو حي بين أظهرنا ، فامنا به ، وكفر به بعباً وحسداً ، فقلنا له ، وينك يا فلان اليس قلت لنا فيه ما قلنا ؟

قال : بلى وليس به أو من (١) .

و كان عمر رسول الله " ﷺ " يوم أن سافر مع عمه اثني عشرة سنة (٢) .

(١) بعد ما روى في بعض الروايات ج ٨ ص ٤٦١ .

(٢) بعد ما روى في بعض الروايات ج ١ ص ٩٦ .

الأمر الذى مكّنه من استيعاب كل ما رأى ، وما سمع ، مما جعل الرحلة تربية عميقة واستفادة فخرية من المعاشرة والاختلاط ، والنظر ، والتحليل ، والفهم ، والتدبر .  
 في هذه الرحلة وقعت عينا محمد على فسحة الصحراء الممتدة الواسعة وتعلقنا بالنجوم اللامعة في سمائها الصافية البديعة ، وحلّل بحر عميق ، ووادى الشرى ودبار غمود ، ونستمع أذناه إلى حديث العرب ، وأهل البادية ، وأحبا تأمل هذه المنازل ، وأخبارها ، وماضى نبتها .

وفي هذه الرحلة وقف في بلاد الشام عند الحدائق الغناء ، وعرف أخبار الروم ونصرانيتهم ، وسمع عن كتابهم ، وعن مناوأة الفرس ( عباد النار ) لهم ، وانظروهم الموقعة بهم .

لقد كان له " **الملك** " من عظمة الروح ، وذكاء القلب ، ورجحان العقل ودقة الملاحظة ، وقوة الذاكرة ، وغير ذلك من صفات حبه القدير بها ما مكّنه من معرفة الواقع الحياتى لكل من قابله ، ثمهيداً للرسالة العظيمة التى أعده الله لها ، الأمر الذى جعله ينظر إلى ما حوله نظرة الفاحص الخقيق ، فلا يستريح إلى كل ما يسمع ويرى ، فيرجع إلى نفسه يسألها : أين الحق من ذلك كله ؟ .

ويبدو أن أنا طالب لم يستفد من رحلته مالا كثيراً ، فعاد إلى مكة ، ولم يرجع لمثلها بعد ذلك ، وبقي في مكة ، يقنع بالقليل يغمقه على أبنائه الكثيري العدد .

## ٢١٥ - ثانياً -

### رعي الغنم

داد النبي ﷺ إلى مكة ، ورأى قلة مال عمه ، وكثرة أولاده ، فرغب في مساعدتهم ، فهداه الله فليعمل بأجرة لأهل مكة . فرعي لهم غنمهم .

عن أبي هريرة " ﷺ " أنه قال : ( قال رسول الله " ﷺ " : ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ، فقال له أصحابه : وأنت يا رسول الله ؟ قال : نعم ، كنت أراعيها على قراريط لأهل مكة ) (١) .

والقراريط عملة فضية تمثل جزءاً من الدينار ، أو الدرهم .. ومن قال بلغا جزءاً من الأرض فقد وهم ، لأن قراريط الأرض لم يعرف إلا في مصر .

عن أبي سعيد الخدري قال : ( أفصح أهل الإبل والشاة ، فقال رسول الله " ﷺ " : بعث موسى وهو راعي غنم ، وبعث داود وهو راعي غنم ، وبعث وأنا راعي غنم ، أراعيها لأهلي بأجساد ) (٢) .

وعن جابر بن عبد الله " ﷺ " قال : ( كنا مع النبي " ﷺ " بحر الطهران ، ونحن نجني الكباش ، فقال النبي " ﷺ " عليكم بالأسود منه ، فإني كنت أجنده إذ كنت أراعي الغنم ، فقلنا يا رسول الله : كأنك رعى الغنم ، قال : نعم ، وهب من نبي إلا وقد رعاها ! ) (٣) .

ومن أئمتنا أن محمداً " ﷺ " رعى الغنم خليمة مع غلام لها . كما سنرى في حديث شقيق الصمد ، حين جاءه الملكان وشقا صباه .

وليس من أن يسأله ، وما الحكمة في رعي الغنم؟ حتى يقدروها الله لأنبيائه جميعاً ؟ ..

(١) صحيح البخاري ، ج ١ ، فتح الباري ، كتاب الإجارة ، باب رعي الغنم على قراريط ، ص ٤٤١ .

(٢) صحيح البخاري ، ج ١ ، فتح الباري ، ج ٤ ، ص ٤٤١ .

(٣) صحيح البخاري ، ج ١ ، فتح الباري ، كتاب الأضحية ، باب فضيلة الأسود من الكباش ، ج ٤ ، ص ٤٤١ ، والكباش من قراريط الغنم .

أرى — والله أعلم — أن الحكمة في رعي الغنم هي تربية الأنبياء عليهم السلام  
سيكونون عليه حين تكليفهم بالنبوة ، وليتعلموا حسن التعامل مع الناس ،  
وأهم هذه الفوائد ما يلي : —

## ١ . التعود على المسئولية :

إن ثقل التكليف يحتاج إلى طاقات بشرية تتحملها - والنبوة تكليف شاق  
لأنها تعني إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وإيقاظ البشر من ضلالاتهم  
ليسمعوا بنور الإيمان ، ويرد اليقين ، إن النبوة قمة الأمانة ، والمسئولية ، وحاجتها إلى  
رسول يتحمل مشاقها ، ومصاعبها ضرورة لا بد منها .

ورعي الغنم عمل شاق ، يكفي في تصور مسبقته أن الراعي يعيش في  
ومذبح كائن طوال الوقت ، حيث تسرح الغنم ، وتشرح ، وهذه أعمال في حد ذاتها تحتاج  
قوة ، وطاقة ، ولذلك كان رعي الغنم مقدمة للنبوة لما فيهما معاً من مشقة وعناء .

## ٢ . تعليم الصبر والتحمل :

نحتاج النبوة إلى التخلق بالخلق الكريم ، والاتصاف بالخلق العظيم ، وذلك  
أمر يتطلب رعي الغنم ، لأن القطيع يرعى وهو مطلق السراح ، فيتوزع هنا وهناك ،  
وكما يجمعه الراعي يعود من حيث أتى ، وذلك أمر يحتاج إلى الصبر ، والتحمل ،  
وتكون ذلك لا يمكن الراعي رعي الغنم ..

ومن رعي الغنم إذا تعلم الأنبياء الصبر والتحمل في دعوة الناس ، لأن  
المدعوين ليسوا على اتجاه واحد ، وإنما لكل اتجاه ، ومدة ، وحل ، ولهم  
مسئول عن تبليغ الدعوة للناس على الوجه الصحيح ، لذلك يجب أن يكون صابراً  
حليماً .

يقول ابن حجر : ( إن مخالطة الغنم يحقق الحلم ، والشفقة ، لأن البهي إذا ضل  
على رعيها ، وجمعها بعد تفرقها في المرعى ، ونقلها من مسرح إلى مسرح ، ودفع  
عديها من سبع ، وسارق وغير ذلك : ألف من ذلك الصبر على الأمة ، وتحملها

الخلافا للطبع ، وتفاوت العقول ، ويكون تحصيله لمشقة ذلك أسهل بعد تدريبه عليه .

## ٣ . شمول الرعاية :

راعي الغنم يحتاج إلى سعة الأفق وهو يدير أمر غنمه ، لتعدد جوانب العناية التي تحتاج إليها ، ففيها الصغير المحتاج للرعاية ، وفيها الذكر ، وفيها الأنثى . كما لها تحتاج دائماً إلى البحث عن مصادر أكلها ، وغذائها ، ولا يد لها من حراسة غنمها من اللصوص ، والنصوص ، ومن الضروري المحافظة عليها من شدة الحر ، وقسوة البرد ، وكثرة مساكنها الآلام والأوجاع ، وعلى الراعي متابعة ذلك ، ومن مسئوليات الراعي تدبير أمر مبيتها في الخلاء ، أو في البناء .

إنها مسئوليات عديدة ، لا يصلح لها ضيق الأفق ، العاجز عن حمايتها ، وإعداد كافة الجوانب التي تحتاج إليها .

ولذلك كان راعي الغنم تدريباً عملياً على مباشرة أعمال النوبة لتعدد المسئوليات الدورية ، فعلى النبي أن يعلم حدود ما تكلف به ، ويحسن فهم من سيدعوهم ، ولغة من سيخاطبهم ، حتى إذا سئل أجاب ، وإن عورض رد ، وإن واجه عدواً قاومه بالحسن . كل ذلك في قوالب عديدة ، وصور كثيرة .

إن تعدد المسئولية في رعي الغنم باب يعلم النبي ضرورة قيامه بالأمر ، والدعوة إليه بصورة كاملة ، تامة ، شاملة .

## ٤ . المسؤولية والعادل بين الناس :

نحتاج النبي إلى تبليغ الدعوة لسائر الناس على وجه يتناسب مع كل واحد منهم ، لا يقدم واحداً ، ويترك غيره ، ولا يهتم بغني على حساب فقير ، ولا يصور أن الخير في هذا أو في ذلك فيفضله على غيره .

ورعى الغنم يحقق هذا الخلق ، لأن الراعي عليه أن يرهق بالضعيف ، يعانته ، ولو ولدت نعجة في الطريق فعليه حمل المولود بيده ، وكذلك يراه يمشي على القطيع ليكون في عون الضعفاء ، ويراعى الأقوياء .

### ٥ . تعليم التواضع :

إن قيام الأنبياء برعى الغنم يعود لهم التواضع ، وترك الكبر . لأن رعاية الغنم والحرص عليها يحتاج إلى العمل الدؤوب بعيداً عن الحيلاء ، حيث لا فخر بعمل كل تعب ، ومشقة ، تحت حر الشمس ، أو في برد الشتاء ، واللبوة في حانجة إلى هذا التواضع السذي يجعل الأنبياء يتعاملون بالخلق الكريم مع كافة الناس . مع الرجال والنساء ، مع الأغنياء والفقراء ، مع الكبير والصغير ، مع العظيم والحقير ، وبذلك كانوا أمثلة علياً ، وقدوة سامية .

وفي ذكر النبي " ﷺ " بعد أن علم كونه أكرم الخلق على الله أنه رعى الغنم دليل على عظيم تواضعه ، واعتراؤه بفضل ما من الله عليه به .

### ٦ . التعامل مع الناس :

يقتني الغنم عديد من الناس ، ورعاها كثيرون ، وكل واحد يجد نفسه يتغافل بالضرورة مع كثير من أقرانه الرعاة ، حيث يجلسون في وقت الراحة ، ويتسامحون ويتساقشون ، وفي ذلك فرصة للأنبياء يتعرفون بها على الناس ، لنتم دعوتهم بعد ذلك بما يناسبهم ، ويفيدهم .

### ٧ . الشجاعة :

الراعي يعمل على حماية غنمه من الذئاب والمصوص ، وحبرها ، وهو لذلك يحتاج إلى شجاعة تعينه على هذه الحماية لبلاً ، وكهاراً ، والأنبياء بهم يقومون بالدعوة يتصدى لهم الأعداء من شياطين الأسس والجن ، وهم يحتاجون للشجاعة والحكمة ، حتى يتمكنهم القيام بواجب الدعوة .

## ٤٠ التامل والتفكير :

و راعي الغنم الذكي القلب يجد في فسحة الجو الطلق أثناء النهار ، وفي تلالو النجوم إذا جئ الليل موضعاً لتفكيره وتأمله يسبح منه في هذه العوالم ، يتغنى أن يرى ما رواهها : وينتمس في مختلف مظاهر الطبيعة تفسيراً لهذا الكون وحلقه .

ليس هو يتنفس هواءه ولو لم يتنفسه مات ! ..

ليس تخبئه أشعة الشمس ، ويغمره ضياء القمر ، ويتصل وجوده بالأفلاك والعوالم جميعاً ! ! ..

هذه الأفلاك والعوالم التي يراها في فسحة الكون أمامه : متصلاً بعضها ببعض

في نظام محكم ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ ! !

وإذا كان نظام هذا القطيع من الغنم أمام محمد يقتضي انتباهه وينتظته حتى لا

يعذو الدب على شاة منها : وحتى لا تضل إحداها في مهامه البادية . فأى انشاء

وأية قوة لحافظ على نظام العالم كله مع إحكامه الموجود ! ! ..

إن راعي الغنم مدرسة تحتاج إلى قوة البدن ، وقوة العزيمة ، والحدوء والأناة :

مع الصدق والإخلاص ، وقصد الاستفادة ، والتعلم .

وقد جعل الله رساله رعاة للغنم ليتعلموا منها الكثير ، في إظهار معونة الله

ورعايته لهم .

## ولكن :

لم كانت الثوائد في رعي الغنم خاصة دون سائر الأنعام كالإبل ، والبقر وغيرها ؟ ..

وأرى أن السر في اختيار الغنم لذلك — والله أعلم — ، كثرة عددها ،

وسهولة تفرغها ، لعدم ربطها أو تقييدها ، أما الإبل ، والبقر ،

والخيل ، فعددها قليل وربطها وتقييدها بالجبال أمر عادي ، وكأن الله تعالى يعلم

رساله " عليهم السلام " حسن التعامل مع الناس ، وهم أحرار .

وأيضاً فإن السيطرة على الغنم المتصرفه سهل ، وإقيادها للراعي لا يحتاج  
 لجهد كبير : لأنها تبدأ واحد أو بإشارة بالعصا تعود لمكانها ، أما البقر ، والحمير ، والإبل فلا .

ومن هنا كان اختيار الغنم يرعاها الأنبياء ليتعلموا قيادة أشتات من الماشية  
 ومخاطبة العديد من العنقود ، والتفاهم مع كافة لغات ، وهججات المدعوين ، الذين  
 يصيحون للتحق ، ويؤمنون به .  
 وهكذا رعى النبي ﷺ " الغنم في مكة ..

\* \* \*



## ثالثاً .

### حرب الفجار

الإحسار عند العرب عهد لا يمكن التكاك منه ، وهو عهد يعطيه العربي للضعيف ينجا إليه ، ويتنرم بإنفاده له ، وكان الضعفاء ، أو المحتاجون يلجأون إلى من لديه قوة الحماية ، والنصرة فيحترهم ، ويعان ذلك للناس ، ويعدها تلتزم قبيلته معه في اتخاذ ما وعد به مهما كلفهم ذلك ، وبخاصة إذا كان من المتقدمين فيهم .

وقد تنبع الحرب بين القبائل بسبب هذه الحماية ، وكثيراً ما وقعت .

وحروب العرب هي أيامهم التي كانوا يتواعدون عليها ، وكثيراً ما جعلوها فريسة من اليأس مع أوقات أسواقهم وتجاراتهم .

ومن أشهر أيام الحرب التي وقعت بسبب الإجارة حرب الفجار ( بكسر الفاء وفتح الحيم الممدودة ) التي هاجت بين العرب ، واستمرت خمسة أعوام ، واشترك فيها محمد " ﷺ " وعمره خمسة عشر عاماً .

وسبب وقوعها أن النعمان بن المنذر أتى مكة بإبل تحمل الحرير والعطر ، ويسمونها العرب " لطيمة " ، أتى بها لبيعها في سوق عكاظ ، فلما نزلت عند بشر " أواره " أراد البراض بن قيس ، وكان صعلوكاً ، خليعاً ، أن يستولي على اللطيمة لضعف صاحبها المنذري ، وبعد قومه عن مكة ، فاستجار النعمان بـ " عروة " الرحال بن ربيعة " ليقوي ضعفه ، ويصد عنه عدوان كنانة ، فأجار عروة اللطيمة ، وأصبح العدو ان عليها عدواناً على عروة ، وقبيلته .

فجاء السراض بن قيس أحد بني ضمرة يعاتب عروة ، ويقول له : أشعر اللطيمة على كنانة ؟ ! !

فقال عروة : نعم ، وأجبرهم على الخلق كلهم .

وأدت هذه المواجهة الساخنة بين الرجلين إلى أن خرج عروة الرحال في سره فتبعه البراض بن قيس ، يطلب غفلته لينال منه ، حتى إذا وصلا إلى " نيسب ذي

ضلال " وهو واد بعلية بعد <sup>(١)</sup> غفل عروة ، وهو ابن ربيعة بن جعفر بن كلاب  
 فوثب عليه البراض ، وقتله في شهر شوال ، وهو من الأشهر الحرم ، وتعرف في  
 الحرب بـ " فجار البراض " .

أدى مقتل عروة إلى قيام حرب الفجار ( بكسر الفاء ، وفتح الحين )  
 وسماها العرب بهذا الاسم بسبب وقوعها في الأشهر الحرم ، لأنهم لما قاتلوا لم يأمنوا  
 بحرمه الأيام ، ولا بحرمه المكان وقالوا : قد فحشنا وأرتكبنا ذنباً عظيماً ، وبذلك  
 سميت الحرب بهذا الاسم <sup>(٢)</sup> .

وقيل إنما سميت بذلك لأن كلا الطرفين استحلا من الشارح بينهم ما لم يكن  
 يقع في أيام العرب الأخرى <sup>(٣)</sup> .

وقد جاء خبر مقتل عروة إلى قريش ، وهي بعكاظ فتركت السوق ، ودخلت  
 حيث عروة ، وهو أذن لا تشعر ، وانفض السوق ولم يبق بعكاظ سوق هذا العام .  
 علمت هوازن بعد ذلك أن قريشاً ذهب تيمم ذي ذلال ، فاتبعها وراى  
 راجعة إلى مكة ، وأدركتها قبل أن تدخل الحرم ، فاقبلوها حتى جاء الليل .

فلما دخلت قريش الحرم أمسكت هوازن فوقفت الحرب ، ولكنهم تواصلوا  
 على اللقاء في عكاظ من العام القادم حيث كان يوم شطة ، وقد استمرت أيامهم بعد  
 ذلك مدة طويلة .

وانتظم الفريقان خلال اقتناهما تحت قيادة واحدة لكل قبيلة ، حيث كان  
 لكل بطن من قريش ، وكنانة رئيس منهم ، ولكل قبيلة من فليس رئيس متهم ؛ وعلى  
 القبائل جميعاً عند كل طرف رئيس واحد ، وهذا التنظيم يلتزم كل فرد بما يوحى به  
 العرف القبلي ، حفاظاً على وضع القبيلة ، وحماية لها من الذل والهوان .

<sup>(١)</sup> معجم البلدان ج ٢ ص ٦٨ ، وتسمى ذي طغلول ؛ ليس من الناحية الجغرافية ، بل من حيث النسب .

<sup>(٢)</sup> انظر : لسف العرب - مادة فجار ج ٦ ص ٣٥٤ - ط : دار المعارف القاهرة .

<sup>(٣)</sup> تاريخ الألف ج ١ ص ٢١١ .

<sup>(٤)</sup> سيرة ابن هشام ج ١ ص ١٨٦ .

ولذلك أشرك أبناء عبد المطلب ثلثاً " <sup>(١)</sup> معهم في حرب الفجار ، وكانت هذه المشاركة تجربة عملية ، عاشها مع أعمامه ، وأقرانه من غير أن يكون منه عنوان أو ظلم ، ولخاصة إذا علمنا أن أيام العرب كانت فادرة الدم ، فهي غابرة عن تدريب ويقظة ، وحراسة مستمرة ، ومواجعة يشغل بها أبناء القبيلة جميعاً . حين لا يشركونا عقلية الخصوم ، وكانوا يحددون لجروهم أياماً يتقابلون فيها في مكان معين . وفي موعد معين وكانها مباراة دورية ، ومبارزة تنتهي بانتصار طرف ، والانسحاب الفريق المهزوم ، وبعدها يحددون موعداً جديداً في مكان يتفقون عليه ، وأنت أيام الفجار كانت في عكاظ .

بعد ذلك علي ندرة الدم في أيام العرب أن هوازد حين عرض الصلح عليها ، تحدث أربعين رجلاً من قريش رهينة لديها حتى تأخذ دية قتلاها ، الذين بدعوا هذا العدد طوال أيام الفجار التي استمرت خمسة أعوام .

إن حرباً تقع بين قريش وكنانة بقياتلهمما ، وبطونهما ، وبين هوازد وكل ما يستل عليه ، وتستمر خمسة أعوام ، ويقتل من هوازد أربعون رجلاً ويقتل من قريش عثمرون رجلاً فقط ، لذلك علي قلة القتلى في أيام العرب .

والجانب الضعيف هو جانب هوازد ، حيث انتصر القرشيون في يوم الشد أكبر أيامهم ، واستمرت هوازد في يوم الحرية انتصاراً جزئياً لأن بني نصر من قريش نزلوا فيها ، ولم ينسحبوا ، مع أن هذه الأيام كانت تقع قرب ديار هوازد عند عكاظ ، قد دفعت قريش هوازد دية عشرين قتيلاً وهو العدد الزائد عن قتلاهم .

وأيام حرب فجار البراض هذه <sup>(٢)</sup> ستة هي : —

<sup>(١)</sup> "ساريت العرب أربعة : الفجار الأول : بين كنانة وهوازن ، وكان ثلثي صلح أو بدر من عشرة ، ثلثي من عشرة من كنانة ، جعل له كنانة ، وكان جديداً متبعاً في نفسه ، ثم كان أن انتصر في أشهر ، انتصر في الأشهر بين مارن أحمد بن دهمان ، ثم تهاوز ، الحيان عن ذلك حتى كان أن تكون بينهما المهادنة ، ثم تهاوز ، أو الحيلت بغير

(۱) یوم نخله : وہ سو یوم مقتل عمروہ بنت دھبہ قریشی ہوا۔  
 فتبعوہم ہوازن ، وأدرکتہم قبل دخولہم الحرم ، فاقبلوا حتی ہو  
 اللیل ، فلما دخلت قریش الحرم أمسکت ہوازن ، فکان کفلاً  
 علی ہولاء ، ولا علی ہولاء .

(٢) يوم شطة : وهي الوقعة الثانية للمجاهدين والمؤرخون يسمونها الأولى ، لأن اليوم الأول تم بصورة قلقانية كرد فعل على فشلهم وأتصورهم يعدون الأيام التي يتم التواعد فيها ، وكان النصر في شطة لقريش ، وكنانة ، أول الأمر ثم انقلب الموازين الحرد .

(٣) يوم العباد : وهو جبل صغير قرب عكاظ ، صخره أبيق وقعت فيه الواقعة ، وكان النضر هو الزيد .

(٤) يوم الشرب : يفتح الشين مشددة و كسر الراء ، و بها كانت يفتح  
 الفجار العظمى التي يقع للقرب مثلها ، وفي هذا اليوم فبد حررت في  
 أمية ، وسفيان ، وأبو سفيان أنفسهم أديلا يفروا ، ولما نسف  
 يد ( العنابس ) أي الأسود استجاعتهم ، و كان النصر في هذا اليوم  
 لقريش .

(٥) يوم الخريزة : والخريزة تصغير حرة - واد بين الأبهاء ومكة ثمرة  
 نخلة : وفيه انخرمت قريش ما عدا بني النضير ، فقد ثبتت ولم يبق لهم

.....  
النجار الثاني : وكان من تريتس وهوارث ، وكان الذي صاحبه فيه ان فريش ، يعرسلوا الامرأة من بني  
 ميمونة ، وهاجت الخراف ، وكان بينهم قتال ، وقاتل بينهم فاحلها حرم من النجم كسليح منهم .  
النجار الثالث : كان من كداعة وهوارث ، وكان الذي صاحبه في رحلته من بني كداعة كان ، ايداه اربع  
 ، في يمينه ، واغصم الكلي ، فغير النصارى ذلك فوجه اسود عكاسه ، فقال ابن كداعة ، فغيره ، فغيره فغيره فغيره  
 يكون بينهم قتال ، فم تراضوا .

الفجار الرابع : ويعرف بفجار النصارى ، وهي التي اختلص فيها رسول الله ﷺ " قيل قدمت ، من أظفار  
 لأن الفجارات الأربع لم يحدث فيها قتال ، وإنما كانت سببا في هدمهم ، ولهم ما شهدوا هذا رسول الله ﷺ الفجار الرابع

(٦) **يوم عكاظ** : وهو اليوم الذي تصالحوا فيه .

وقد استغرقت تلك الأيام خمس سنوات <sup>(١)</sup> .

### ثمة الصلح بعد هذه الفجار :

واعادت هوازن وكنانة على التقابل في عكاظ ، وحضروا في الموعد المحدد ،  
وفصل الراشدين بالسهم ، وجد الصفاة بينهما عتمة بن ربيعة ، وكان حرب بن أمية  
رئيس قريش ، وكنانة ، قد ضربته ، ومنعه من الخروج شفقة عليه لئلا يصغره ، لأنه  
لم يكن قد أتم الثلاثين بعد ، إلا أنه خرج سراً ، لم يشعر به أحد ، وفوجئ به حرب  
على بعيره بين الصنين ينادي : **يا معشر مضر علام تفانون ؟** .. وإنما ناداهم باسم  
مضر لأنه الجند الجامع لقريش وهوازن وكنانة .

فقات هوازن : ما تدعو إليده ؟ .

قال عتبة : ادعوكم إلى الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم ، وتعفوا عن دمائنا

قائوا : وكيف ذلك ؟

قال : ندفع لكم رهناً منا .

قائوا : ومن لنا بهذا ؟

قال : أنا .

قائوا : ومن أنت ؟

قال : أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس .

فرضوا ، ورخصت كنانة ، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً ، منهم حكيم بن حزام ،  
بعد أن عدوا قتلاهم وقتلى قريش وكنانة ، وجعلوا رجلاً برجل ، ثم أخذوا دية من  
رأسهم ، فأخذوا دية عشرين رجلاً .

فلما رأت سبيعة بنت صمصة البرهن في أيديهم عفا عن الدماء ، وانقضت حرب الفجار <sup>(٢)</sup>

<sup>(١)</sup> التاريخ الخلفاء ج ١ ص ٢١٢ . <sup>(٢)</sup> الرويحي الأدي ج ١ ص ٢١١ . <sup>(٣)</sup> سورة ابن هشام ج ١ ص ٢١٠ .

## إشتراك محمد " ﷺ " في حرب الفجار :

هاجرت حرب الفجار وعمر محمد " ﷺ " خمسة عشر عاماً - وانتهت في العشرين من عمره .

والروايات عن إشتراك محمد " ﷺ " في هذه الحرب كثيرة ، نذكر ابن عباس أن رسول الله " ﷺ " إشتراك في هذه الحرب دفاعاً عن أعمامه ، حيث يقول " ( كنت أنبل علي أعمامي ) أي أرد عنهم نبل عدوهم إذا رموهم بها " .  
ويقول ابن سعد : إن محمد حضر الحرب مع أعمامه . ورمي بالسهم (١) وأري - والله أعلم - أن إشتراك النبي " ﷺ " في حرب الفجار لم يسأله أعمامه بإعداد النبال لهم ، والدفاع عنهم ، من غير عدوان علي أحد من خصوم قومه ، أو محاولة النيل منهم علي غرة : ومع ذلك كان " ﷺ " يقول : ( أحب أني لم أكن فعلت ) (٢) .

إن الله الذي صرف محمداً " ﷺ " في شبابه عن كل ما كانت الجاهلية تنهيه هو سبحانه الذي أبعدته عن الفجور في هذه الأيام ، وإنما كان إشتراكه - والله أعلم - لتحقيق بعض الفوائد ، ومن أهمها : -

- (١) محاربة قبائل العرب - بسائر أفرادها ، الكبار والصغار ، حين تجمعهم للحرب والقتال - لمعرفة أحوالهم ، وطبائعهم ، وطرفي تفكيرهم في فناء الظروف العvisية .
- (٢) معرفة كيفية نظم الحرب التي يياشرها العرب ، حيث سبحانه إلى زيادة المعرفة فيما بعد .

(١) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ .

(٢) الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٢٨ .

انتدرب علي أعمال الحرب الشاقة ، حيث الحاجة إلي جهد كبير ، في الليل والنهار ، و تحت ظروف مناخية متقلبة ، وفي ظروف قد يندم فيها الطعام ، ويندر الماء .

المساهمة مع قومه في أعمالهم ، وأداء حق القرابة لهم ، لأنه قريباً سيطلب منهم اتق القرابة له ، والحفاظ على ما للقرابي من مودة ، وتعاون ، وبمسرة .

هنا بعض مما يمكن تصوره في مجال الفوائد التي اكتسبها النبي ﷺ

ياشترأكه في حرب الفجار ... مع ملاحظة أن الله سبحانه وتعالى أعان من العدوان والظلم فيها ، ... وقصر نشاطه علي خدمة أعمامه والنبا عنهم .

\*\*\*

## • رابعاً •

### حلف الفضول

من أعظم ما فعل العرب قبل الإسلام حلف الفضول ( يضم الفاء ) ، وقد شاهده النبي ﷺ " وعمره عشرون سنة ، لأنه كان في ذي القعدة بعد انتهاء حرب الفجار في شوال ، قبل المبعث بعشرين عاماً ، والحلف يعني العهد ، والبيعة ، وأصل الميثاق بين أفراد ، أو جماعات ، حول موضوع ما .

وأول من تكلم في هذا الحلف ، ودعا إليه الزبير بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ ، وكان سببه أن رجلاً من زبيد ، قدم مكة بضاعة ، فاشترافها العاصي بن وائل السهمي وكان ذا قدر وشرف بمكة ، فحبس عنه حقه ، فاستعذ به الزبيدي الأحلاف عبد الدار ، ومخزوماً ، وجمحا ، وسهساً ، فأبوا أن يغفروا الزبيدي علي العاصي بن وائل ، وزبروه ، وفرووه ، فلما رأى الزبيدي الشر ، رآه علي بن أبي قيس عند طلوع الشمس ، وقريش في أنديتهم حول الكعبة ، فقال بأعلى صوته :

يا آل فهر المظلوم بضاعتهم

بطن مكة نائي الدار والفرا

ومحرم أشعث لم يقض عمرته

يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت مكارمه

ولا حرام لقوت الفاجر الغدر

فقام في ذلك الزبير بن عبد المطلب ، وقال : ما هذا مترك ؟

فاجتمعت بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأسيد بن عبد العزي ، وزهرة بن كلاب ، وتيم بن مرة في دار عبد الله بن جدعان ، فصنع لهم طعاماً ، فتحالفوا في ذي القعدة في شهر حرام ، قياماً ، فتعاقدوا ، وتعاهدوا ، ليكونن يوماً واحدة مع المظلوم علي الظالم ، حتى يؤدي إليه حقه ، ما بل بحر صوفته ، وما رساحراء ، وتبر مكارمها ، وعفي الناس في المعاش ، فسمت قريش ذلك الحلف " حلف الفضول " ، ثم مشوا إلى بني



## ٥. خامسا .

### الرحلة الثانية إلى الشام

#### التجارة لخديجة

بلغ محمد ﷺ "خمسا وعشرين سنة" ، وكان يهتم بأحوال عمه أبي طالب ، وبكسرة عماله ، لما بلغ هذا السن وجد أن رعي الغنم لم يعد يناسبه ، ودخل من الرعي قلس ، لا يفي حاجته وعمله . فأخذ يفكر في عمل آخر يحقق له ما يتصلي .

لم يطل به البحث إذ قال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي ، وقد أشد الزمان علينا ، وأخذت علينا سنون منكرا ، وليس لنا مادة ولا تجارة .

وهذه هي قومك قد حضر أوان خروجها إلى الشام ، وخذجة بنت خويلد نعت ، رجلا من قومك في غيراتها ، فيتجرون هنا في مالها . ويصيرون منافع ، فذو حنيتها .

وعربك همست عليها ، لأسرعت إليك ، وفصلت علي غيرك ، لما يبلغها عنك من طهارتك .

فقال الرسول ﷺ " لعمري : فبعانها ترسل إلي في ذلك " (١) .

وعندئذ " رضي الله عنها " امرأة قرشية ، كثيرة المال ، عريضة الأصل ، حميدة ، سيدة ، كانت تتجر بمالها ، وترسل غيرها مع القوافل برجال تسأحروهم ، أو تصارهم نحر ، من الربح ، وقد اشتهرت مكة بالتجارة حيث لا زرع فيها . ولا صناع ، وكل ما فيها من صناعة فهو مستورد من الشام ، أو من اليمن ، أو من غيرها . وعادة التجار البحث عن الرجل الأمين ، يتعاملون معه ، صيانة للمال ، وتحفظ له نفسه من الخسايح . . وقد رغب أبو طالب من محمد ابن أخيه أن يذهب خذجة بناحر لها في مالها ، لشدة ثقته في ابن أخيه ، ولم اشتهر به في مكة بالأمانة ، والصدق ، ولما عرف عن خديجة من حسن المعاملة ، والمصارعة في إعطاء الخلف في

و كان يرى أن خديجة ستعطي محمداً من الأجر الكثير بعدما ترى منه الصدق والأمانة ، وحسن المعاملة .

لكن محمداً " ﷺ " أنفت نفسه أن يذهب لخديجة ، باحثاً عن عمل في أنوم .  
ولذلك قال لعمه : لعلها ترسل إلي .

لم ينتظر أبو طالب أن ترسل خديجة لمحمد مخافة أن تولي رجلاً آخر ، أو تظن لا يقبل العمل لديها ، ولذلك ذهب بنفسه إلى خديجة وقل لها : يا خديجة : هل لك أن تستأجري محمداً ؟

فقد بلغها أنك استأجرت فلاناً بيكرين ، ولن ترضي لمحمد دون ذلك .  
فما لت خديجة : لو سألت ذلك لبعيد بغض عننا ، فكيف وقد سألت لفرس حبيب <sup>(١)</sup> ! ! .

عاد أبو طالب لمحمد ، وأخبره بما جرى مع خديجة ، وقال له : هذا رزق ساقه الله إليك .

وقالت خديجة لميسرة لما تأهب ومحمد للسفر : قالت له : لا تنقص له أنوم ولا تخالف له رأياً ، لعلها تحسن إدارته ، وقوة شخصيته ، وإثبات ما يقوم به من عمل وأخذ عمومته يوصون أهل العير بابن أخيههم : ولولا الحاجة ما أخرجوه <sup>(٢)</sup> .  
لكن الله تعالى أخرجهم من مكة تاجراً هذه المرة ، ليحوب أرض الله مكتسفاً ، وليخرج من تجارتهم تلك بما يغنونه ، ويرضيه .

و كانت رحلة مباركة امتلأت بالاعجائب التي قدرها الله لحبيبه : ومصطفاه .  
فقد توالت الإرهاسات ، وكان ميسرة يرى رسول الله " ﷺ " إذا أشتت المهاجرة ، ويقوي الحر ، يظله ملكان وهو علي بعيره ، ولما دخل مكة في وقت الظهيرة ذهب إلى خديجة فرأت المالكين فوقه .

<sup>(١)</sup> الطهقات الكبرى ج ١ ص ١٣٠ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ج ١ ص ١٣١ .

وقتايل النبي ﷺ " في هذه الرحلة مع عدد من رهبان أهل الكتاب ،  
وكلهم يظفروا إليه ، وعلسوا بحره . وماله .

نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريباً من صومعة راهب يستقيال له  
استظوا " فلما رآه الراهب قال ميسرة : يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت هذه  
الشجرة ؟ .

قال ميسرة : رجل من قريش .

فقال الراهب : ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي ، أفي عينة حمرة يا ميسرة ؟ .

يقال ميسرة : نعم لا تفارقه .

فقال الراهب : هو ، هو ، هو <sup>(١)</sup> ! ! .

• أحلف مرة مع أحد التجار حيول سلعة ، فقال الرجل : أحلف

باللات والعزى . .

فقال رسول الله ﷺ : ما حلفت بهذا قط .

فقال الرجل : الحق قولك . . ثم نظر إلى ميسرة ، وقال له : هذا نبي هذه الأمة .

وبالنسبة للتجارة فقد ربحا ربحاً كبيراً ولم تره خديجة منذ أربعين سنة ، فأخبره

ميسرة وأخبره ، كأنه عبده ، وقدرته خديجة لمهارته ، وأمانته .

ولما كانا ( محمد وميسرة ) عائدتين بمر الظهران ، قال ميسرة للنبي ﷺ :

هل لك أن تسقيني إلى خديجة ، فتخبرها بالذي جرى لعلها تزيدك بكرة إلى بكراتك ،

فركب النبي ﷺ " فعوداً أحمر ، فتقدم حين دخل مكة في ساعة الظهر ، وخديجة

في عينة لها ، معها سقاء فيهن نفيسة بنت منية ، فرأت رسول الله ﷺ " حين دخل

وهو راكب علي بعيره ، وملكها يظلال عليه ، فأرته نساها ففحين لذلك ! ! .

ودخل عندها رسول الله ﷺ " وأخبرها بما ربحوا ، فسرت بذلك .

وقالت : أين ميسرة ؟

<sup>(١)</sup> ... قاله ابن جرير ... ج ١ ص ١٨٨ .

قال : خلفته في البادية .

قالت : عجل إليه ليعجل ما لإقبال ، وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره .  
فركب رسول الله ﷺ " وصعدت خديجة تنظر ، فرأته على الحالة الأولى ، فانبسط  
أنسه هو ، فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت ، وأخبرها بقول الراهب مسطور  
وبقول الآخر الذي خالفه في البيع .

يقول ابن إسحاق : فلما رأت خديجة أن تجارها قد ربحوا أصبحت له ما سبقت  
البكرات .

وأخبرت ابن عمها ورقة بن نوفل بما رأت . وبما سمعت ، فقال لها ورقة  
يا خديجة إن محمداً نبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كان هذه الأمة أمر ينتظر  
وهكذا مرت الرحلة بركاتها مع محمد ﷺ ، فماد بالبكرات إلى عمه  
سعيداً راضياً ، وقد أحبه ميسرة حباً جما .

لقد أدت هذه الرحلة عدداً من النتائج الطامسة ، التي أرادها الله تعالى  
محمد ﷺ .

\*\*\*

## المبحث السابع

### زواج محمد ﷺ

#### خديجة رضي الله عنها

سميت خديجة " رضي الله عنها " ما وقع ل محمد ﷺ في رحلة التجاره ، وشهدته بنفسها ، فعادت بذاكرتها إلى ما قاله اليهودي لنساء مكة ، يوم أن احتشم به في المسجد الحرام ، قال هن : يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي ، وأبكر استماعه أن تكون فرأى أنه فافعل ، فحصبه نساء ، وقبحه ، وأغلظ له ، ما عدا خديجة فأما مكرت فبسا سمعت ، ووقر في نفسها صدقه ، فلما ناجر محمداً في ملأها برأت منه الأمانات والبركات تذكرت ما قاله اليهودي وقالت : ما ذلك إلا هذا <sup>(١)</sup> . وخديجة امرأة قريش ، اشتهرت بين قومها ، بالمال ، والجمال ، والحسن ، والسب ، ومكارم الأخلاق ... وهي من النكيات القليلات اللاتي غسلن بالشحرة ، حتى سمارت من أرباب مكة الكبار ، تزوجت قبل رسول الله ﷺ من رحاب بن مخزوم <sup>(٢)</sup> .

**الأول :** هو عتيق بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم ، وولدت له عبد مناف ،

وهذا .

**الثاني :** هو أبو هانئ ، وهو زرارة بن العباس من بني عدي ، وولدت له

هالة ، وهذا : والظاهر <sup>(٣)</sup> .

وبعد نزل خديجة بوفاة زوجها الثاني ، رفضت الزواج ، فلما أولادها ، وقد

حسرت الأمر عسى ، وأبي لها يرجل يكافئها ، عقلاً ، وخلقاً ، وأمانته ! ! ، وقد

رغبها صناديد مكة فأبت .. لكنها بعدما رأيت محمداً ﷺ ، وتذكرت ما سمعت

<sup>(١)</sup> تاريخ ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

<sup>(٢)</sup> ابن كثير ج ٢ ص ٣١٥ ، ٣١٦ .

عنده من اليهودي ، ومن ابن عمها ورقة ، ثمنه روحا ، وسعت في ذلك بحكمته  
وهذوء ، وعمت عنّي اختبار التعامل معه ، والتأكد من المراتب التي تصورها فيه  
وحيث لها القدر ما أرادت حين أنها أم طالب يطلب منها أن يتاجر ذاتي مالا ، وقد  
رحبت بهذا الطلب ترحيباً كبيراً ، وقالت لعد المطلب : لقد سألته لقرب حبيب  
وتاجر محمد " عليه السلام " في مال خديجة وهو في قوة الشباب ، ورشد الرجال  
إلا أنه لم يفكر في الزواج بعد بصورة مطلقة لما هو فيه من فقر ، وعبد .. فإنه يقين  
ليسد رمقه ، ويعين عمة ، وما مثله أن يفكر في الزواج .

وإذا فكر في الزواج كشأن الشباب ، هل يفكر في الزواج من خديجة لما  
بينهما من فروق ، ولأنها رفضت الزواج من كبار القوم ، وأغنيائهم ..  
إن فسار في السن بينهما خمسة عشر عاماً ، فهي في الأربعين ، وهو في الخامسة  
والعشرين ، ولها أولادها من زوجها السابقين .

والفارق المالي كبير فهي من أغنياء مكة ، ومحمد يعمل بالأجرة ليعيش  
وتحتضنها ، وتجارها ، وحبها العسبة ، وسيرتها الشريفة جعلها في مكان  
كبار مكة ، وعظمتها .

إن غديداً من عظماء مكة حاولوا الزواج منها ، فرفضتهم جميعاً ، وليس  
لمحمد " عليه السلام " أن يفكر في زواجها ، والكل يعظم موقعها من الزواج ..  
لهذا لم يفكر النبي " عليه السلام " في الزواج منها .. وما دري أن القدر يحسن  
ما قدره الله تعالى .

وعزمت خديجة علي أن تزوج محمداً " عليه السلام " مع صهره ، وهرة ، لئلا تنمو  
الشرف العظيم ، وتفضل به سائر الناس ، فاحتالت لذلك بأكثر من طريق ، وكان قلبها  
سفر بينهما وبين محمد " عليه السلام " نفيسة بنت مية ، وهي ابنة أمية بن عبيدة الخطلي ، كما  
سفر بينهما مسرة ، وأختها ، ومولاة مولدة ، وإحدى الكاهنات في قريش <sup>(١)</sup> .

(١) ابن الأثير في التفسير ج ١ ص ١٠ .

• معي معتمر بن سليمان قال : سمعت أبي يذكر أن أبا حمزة حدث أن خديجة قالت لأختها : أنطلقني إلى محمد فاذكريني له <sup>(١)</sup> ، وأخبرنا نواظراً أن يتزوجها محمد " <sup>(٢)</sup> .

• وأرسلت مرة أخرى ابنة خالتها **نفيسة بنت منية** لتوجه محمد بن عمرو الزواج من خديجة ، وتزيل من أمامه العقبات التي تمنع من الزواج منها ، ومن غيرها ..

تقول نفيسة : كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة ، جليدة ، شريفة مع ما أراد الله بها من الكرامة ، والخير ، وهي يومئذ من أوسط قريتين سباً ، وأعظمهم شرفاً ، وأكثرهم مالاً ، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها ، لو قدر على ذلك ، قد طلبوها ، وبذلوا لها الأموال ، فأرسلني دسيسة إلى محمد ، بعد أن رجع في غيرها من النساء .

فبنت : يا محمد ما يمنعك أن تتزوج ؟

فقال : ما بيدي ما أتزوج به .

قلت له : فإن كنيت ذلك ، ودعيت إلى الجمال ، والمال ، والشرف ، والكفاية ، ألا تحب ؟

قال : ففس هي ؟

قلت : خديجة .

فأل : وكيف لي بذلك ؟

فبنت : علي .

قال : فإنا أفعل <sup>(٣)</sup> .

• يروي النبي موقفاً له مع ميسرة : يقول " <sup>(٤)</sup> " : قلت لصاحبي :

<sup>(١)</sup> الطهطاب الكبير ج ١ ص ١٢٢ .

<sup>(٢)</sup> الطهطاب الكبير ج ١ ص ١٢١ .

انطلق بنا فتحدثت معاً عند خديجة ، فحجتها ، فبينما نحن عندها إذ دخلت  
 كاهنة من مولدات قريش : فقالت : أ محمد هذا ؟ والذي تحلف به إن جاء لحاطماً ؟  
 قلت : كلا ... حياءً ونحلاً !!

فسلمنا خرجت أنا وصاحبي ، قال لي : أمن خطبة خديجة تستحي ؟ فوالله ما من  
 قرشية إلا تراك لها كفوفاً .

مررت أنا وصاحبي مرة أخرى ، فدخلت علينا تلك الكاهنة ، فقالت : أ محمد  
 هذا ؟ والذي تحلف به إن جاء لحاطماً .

فقلت على حياء : أجل ، .. ولم تحالف خديجة ولا أختها<sup>(١)</sup> .

إن المرء ليحار أمام هذا التوافق الذي وضع القدر حيوطه : حتى التأم وتم  
 وهل كانت رحلة التجارة اختباراً من خديجة ؟ أم إظهاراً أمام محمد ؟  
 وهل رفض خديجة للزواج قبل ذلك جعلها تنتظر الشرف العظيم الذي ظهر  
 لها في محمد<sup>(٢)</sup> ؟ فرغبت في الاقتران به .

وما الذي جعل محمداً يرحب بالزواج من خديجة مع أنه كان لا يعلن  
 مطالب الزواج ونفقات الحياة ؟ !!

وما الذي جعل خديجة الراضية للزواج أن تبحث عنه في شباب يصغر عنها  
 خمسة عشر عاماً ؟

إنها أسئلة تؤكد الحكمة الإلهية التي حبأها الله سبحانه وتعالى لخدين الزوجين  
 الكريمين ..

إن القادر الذي دفع كلاً من خديجة ومحمد لبسعي كل لفساحته لتتكون  
 حبر أسرة ظهرت في حياة المسلمين .

زوجة شهاد لزوجها بالعظمة، وهي تقول : ((والله لا يخزيك الله أبداً ..))

<sup>(١)</sup> دلائل النبوة ج ١ ص ٦٠ .

<sup>(٢)</sup> السيرة النبوة ج ١ ص ١٨٨ .



وزوج بشهد لزوجته بعد مماتها ويقول: ( والله ما رزقني الله خيراً منها . )  
ويقول " ﷺ " عنها : ( لقد رزقت حبها ) (١) .

وبذهب محمد " ﷺ " إلى أعمامه يحبرهم بنبا خطبة خديجة فيسرون جميعاً ،  
ويحضر محمد " ﷺ " مع عمه أبي طالب ، وعشرة رجال من قومه ، ويخطبها محمد  
أبو طالب في عنفها عمرو بن أسد ، فيقول وهو يخطبها : الحمد لله الذي جعلنا من  
ذرية إبراهيم . وزرع إسماعيل ، وضئضئ معد ، وعنصر مضر ، وجعلنا حصنة بيته  
وسواس حرمه . وجعل لنا بيتاً محجوباً ، وحرمناً آمناً ، وجعلنا حكام الناس ، ثم إن  
ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفاً ، ونبلاً ، وفضلاً ،  
وعقلاً وإن كان في المال قل ، فإن المال ظل زائل ، وأمر حافل ، وعارية مسترجعة ،  
وهو والله بعد هذا له نباعظيم ، وخطر جليل ، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم  
خديجة وقد بذل لها من الصداق ، حكمكم عاجله وآجله اثنتا عشرة أوقية ونشاً .  
فقال عمرو بن أسد عمها : هو الفحل لا يقدر أنفه ، وأنكحها منه .. (٢)

ومما روي من أن أباها هو الذي زوجها ، وهو لا يدري لسكره مردود :  
لأن أباها حبيب ، هنك قيل حرب الفجار .

ويقال إن الذي أنكحها هو ورقة بن نوفل ، وقيل هو أخوها عمرو بن  
حزبل ... والأظهر أنه عمها .

يذكر الله تعالى علي محمد " ﷺ " بزواجه من خديجة ، حيث يقول له سبحانه  
بعد المبعث : ﴿ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ﴾ (٣) .

حيث كنت فقيراً فأغناك بحال خديجة الذي تنازلت عنه لك راضية ، سعيدة .. لتخرج  
لجميع الكري ، وتعيش الأسرة معك راضية ، مطمئنة ، ويرزقكم الله الأبناء عدداً ..

وأول من ولد لرسول الله ﷺ " القاسم " ، وبه كان يكنى " أبو القاسم " ، ولدت له " زينب " ، ثم رقية ، ثم فاطمة ، ثم أم كلثوم ، وكلهم ولدوا في الإسلام ، أما عبد الله فقد ولد في الإسلام ، فسمي بالطاهر ، والطيب ، وكل هؤلاء من خديجة .

وكانت خديجة تعق عن كل مولود لها ، عن الذكر بشاتين ، وعن الأنثى بشاة واحدة ..

وقد مات القاسم بعد ولادته بعامين ..

ومات عبد الله قبل الحجرة ..

أما رقية وأم كلثوم فخطبهما عتبة ، وعتيبة ابنا حذافا أبي لهب ( شقيق عبد الله ) ، لكنهما تركاهما بعد بعثة محمد ﷺ " كفرة برسالة الله ، فتزوجهما عثمان بن عفان " ﷺ " الواحدة بعد الأخرى ، حيث تزوج أم كلثوم بعد وفاة رقية ، أما فاطمة فقد تزوجت علي بن أبي طالب " رضي الله عنهم أجمعين " ، وتزوج عمر العاص بن الربيع بن عبد شمس ابن خالتها زينب بنت رسول الله ﷺ " رضي الله عنهم " ..

وأولاده " ﷺ " كلهم من خديجة : ما عدا إبراهيم فأمه مارية القبطية التي أهداها المقوقس للنبي ﷺ " فأسلمت ، وتزوجها " ﷺ " .. وولدت له في المدينة المنورة بعد الحجرة .

\*\*\*

## المبحث الثامن

### بناء الكعبة

الكعبة المشرفة هي البناء المربع الخوف المقام وسط المسجد الحرام ، وهي  
توسط العالم كله .

وهي أول بناء وضع في الأرض ، بنتها الملائكة بصورة بسيطة ، وكثيراً  
ما كانت تتأثر بالنار فتحترق ، وبالسيل فتتصدع ، وبغير ذلك من عدوان الناس .  
ولذلك تكرر بناؤها قبل الإسلام وبعده ، فلقد بنتها الملائكة أولاً ، فعن أبي  
در رضي الله عنه " قال : ( قلت يا رسول الله : أي مسجد وضع في الأرض أولاً ؟ قال  
المسجد الحرام ، قلت ثم أي ؟ قال المسجد الأقصى ، قلت كم بينها ؟  
قال : أربعون سنة ) <sup>(١)</sup> .

ثم نوالي النساء فبلغ عدداً ذكرها المؤرخون علي اختلاف بينهم ، إلا أنهم  
يجمعون علي مرات ثلاث لثبوت أدلتها ، وهي بناء إبراهيم عليه السلام ، وبناء قريش .  
وبناء عبد الله بن الربيع " رضي الله عنهم " .

وفي إطلاق عبارة البناء تجوز واضح ، فإن بعضها كان جداراً واحداً كبناء  
الحجاج ، وبعضها كان ترميماً وإصلاحاً .. وهكذا .  
والسنايات التي ذكرها المؤرخون للكعبة كثيرة ..

#### منها بناء الملائكة عليهم السلام :

ومنها : بناء آدم عليه السلام .

ومنها : بناء أولاد آدم عليهم السلام .

ومنها : بناء العمالقة .

ومنها : بناء جبرهم .

ومنها : بناء فتحي بن كلاب .

<sup>(١)</sup> صحيح مسلم ، ١ - كتاب بدء الخلق ، ج ١ ، ص ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ .

**ومنها :** بناء الخليل إبراهيم عليه السلام .

**ومنها :** بناء قريش .

**ومنها :** بناء عبد الله بن الزبير بن العوام الأسدي عليه السلام .

**ومنها :** بناء الحجاج بن يوسف الثقفي .

**فأما بناء الملائكة للكعبة :** فذكره الأزرقى في تاريخه ، وذكر أن ذلك كان

قبل خلق آدم عليه السلام واستدل على ذلك بحديث رواه عن ربي العائدين ، وحديث رواه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وكلاهما يدل على بناء الملائكة للكعبة .

**وأما بناء آدم عليه السلام :** فقد ذكره البيهقي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

( بعث الله جبريل إلى آدم وحواء فقال لهما : ابني لي بيتاً ، فخط لهما جبريل فجعل آدم يحفر ، وحواء تنقل التراب ، حتى أجابه الماء فتودي من تحته : حسنة يا آدم ، فلما بنياه أوصي الله إليهما أن طوقا به ) (١) .

**وأما بناء أولاد آدم للكعبة :** فذكره الأزرقى ، حيث روى عنه إلى ربي

ابن ميه قال : رفعت الخيمة التي عري الله — عز وجل — بها آدم عليه السلام من عند الجنة ، حين وضعت له محكمة في موضع البيت ، وبعد ما مات آدم عليه السلام بنى أولاده من بعدهم بيتاً بالطين والحجارة ، فلم يزل معمرين يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فسفه العرف ، وغير مكانه حتى بنى إبراهيم عليه السلام .

**وأما بناء الخليل عليه السلام :** فهو ثابت كما في السرايا العظمى ، والبيان

المشرفة ، وهو أول من بنى البيت بعد نوح عليه السلام ، وحدد قواعد ، ورفع ، ونظمه عن ابن إسحاق عليه السلام أن الخليل لما بنى البيت جعل طوله في الشمال تسعة أفراس وعرضه في الأرض اثنين وثلاثين ذراعاً ، من الركن الأسود إلى الركن الشمالي ، الذي

عنده الحجر من وجهه ، وجعل عرض ما بين الركن الشمالي إلى الركن الغربي  
اثنين وعشرين ذراعاً ، وجعل طول ظهرها من الركن الغربي إلى الركن الشمالي  
أحدًا وثلاثين ذراعاً ، وجعل عرض سقفها الشمالي من الركن الأسود إلى الركن  
البيضاء عشرين ذراعاً ، وجعل ما بينهما بالأرض ، وحفر حاً في بطن البيت على خمس من  
دخله يكون حزامه للبيت ، وكان إبراهيم عليه السلام بين وإسماعيل يمثل له الحجارة على  
رأسه ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ  
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ .

**وأما بناء العمالة وجرهم للكعبة :** فذكر الأزرقي : لأنه روي عنه  
عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال في حجر بناء إبراهيم عليه السلام للكعبة : ثم اخدم  
بيت العمالة ، ثم اخدم بيته قبلة من جرهم ، ثم اخدم بيته قريش .  
**وأما بناء قصي بن كلاب :** فقد جزم به الخوارزمي في " الأحكام السلطانية " ،  
لأنه قال : فكان أول من جدد بناء الكعبة من قريش بعد إبراهيم عليه السلام قصي بن  
كلاب ، وسقفها الخشب الدوم وحديد النخل .

**وأما بناء قريش الكعبة :** فهو ثابت كما في السنة الشريفة الصحيحة عن  
السني عليه السلام ، وحضره عليه السلام ، وهو ابن خمس وثلاثين سنة : كما جزم به ابن  
إسحاق وشعر واحد من العلماء .

**وأما بناء ابن الزبير عليه السلام :** للكعبة فإنه ثابت مشهور ، ويرجع عنه  
اهتمامه سائرنا إلى ما حدث فيها من خدم لسين : —

**السبب الأول :** تودن الكعبة من حجارة المنحرف التي أصابها حين حوصره  
البحر ثم " رُمي بثقل عظيم " تمكده في قوائم سنة أربع ومئتين من الحجارة . فاعلم  
أنه من الحجارة ، ومما يحد هذه مكة والمدينة له خليفة للمسلمين .

## السبب الثاني : احتراق الكعبة : بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب

ابن الزبير "رضي الله عنهما" في خيمة له : حيث طارت الرياح نلهم نكت النار فأحرقت كسوة الكعبة ، كما أحرقت الساج الذي بني في الكعبة حين عمرتها قريش ، فضعفت جدران الكعبة ، حتى إنها لتنفض من أعلاها إلى أسفلها ، وبتقع الجص عليها فتتأثر حجارها من الوهن ، والضعف .

ولما زال الحصار عن ابن الزبير "رضي الله عنهما" لإدبار الحصين بن ثوير من مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير "رضي الله عنهما" أن يهدم الكعبة وينبئها ، فوافق علي ذلك نفر منهم جابر بن عبد الله : وذكره ذلك نفر : منهم ابن عباس "رضي الله عنهما" .

وكان هدم ابن الزبير للكعبة في يوم السبت في التاسع الأول من جمادى الآخرة سنة أربع وستين للهجرة .

وقد بناها ابن الزبير علي قواعد إبراهيم "عليه السلام" وأدخل فيها ما أخرجه منها قريش في الحجر ، وراد في ارتفاعها علي بناء قريش نظير ما رادته قريش علي بناء الخليل "عليه السلام" وذلك تسعة أذرع ، فصار ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً وهي سبعة وعشرون مدماكاً ، وجعل لها بايين لاصقين بالأرض : أحدهما باباً الموحدة اليوم ، والآخر المقابل له من الجهة الغربية المسدود الآن ، واعتمد في ذلك علي ابن أخيرته به حالته عائشة "رضي الله عنها" .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها الثاني يصعد منها إلي سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها رواقاً للضيوف<sup>(١)</sup> .

والبناء المقصود من هذا المبحث ، هو البناء الذي قامت به قريش ، والذي

(١) شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام ج ١ ص ١٨٦ .

اشترك فيه محمد " ﷺ " يوم أن كان عمره خمساً وثلاثين سنة .

والكعبة ليست هي المسجد الحرام، وليس هي الحرم، لأن المراد بالمسجد الإنساع المحيط بالكعبة، الذي يصلي فيه الناس ، والحرم هو المكان الذي يشمل مكة وما حوله من جميع الجهات إلى الأماكن المعروفة المحددة، التي تفصل بين الحل والحرم ، من كافة بواحي مكة، وهي المعروفة بالمواقيت المكابية، التي يحرم منها أهل مكة بالعسرة وبنات قريش للكعبة كان قبل الإسلام بخمس سنوات : وهي المرة التي اشترك فيها النبي " ﷺ " ، وعمره خمس وثلاثون سنة <sup>(١)</sup> .

وسبب قيام قريش ببنائها ما أصابها من حريق نال منها بسبب شرارة صدرت من امرأة عاربة ، وهي تقوم بتحصير الكعبة، ولدخول السيل فيها، وتصدع جدرانها ، ولأنهم لاحظوا أن نفراً تمكنوا من الدخول فيها ، وسرقوا حلياً وذهباً منها .

أرادت قريش أن تغلب علي هذه المثلث فاتفقوا علي بناء الكعبة سوياً ، وقاموا بنفسهم حذر الكعبة أجزاء ، ووزعوها علي سائر القبائل، لتنال كل قبيلة شرف المساحة في بناء الكعبة .

فكان شق الباب لبني عبد مناف ، وزهرة ، وهو الجدار الشرقي ..

وكان ما بين الركن الأسود والركن اليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وهو الجدار الجنوبي .

وكان ظهر الكعبة لبني جمع وبني سهم ، وهو الجدار الغربي .

وكان شق الحجر لبني عبد الدار بن قصي ، ولبني أسد بن عبد العزي بن

قصي ولبي عدي بن كعب ، وهو الحطيم <sup>(٢)</sup> الواقع في الجهة الشمالية .

وقد اشترك النبي " ﷺ " مع قومه في بناء الكعبة فكان ينقل معهم الحجارة ، وهم ينشعون أزهرهم علي عواقبهم، ويحملون الحجارة ، ففعل محمد مثلهم ، فبانت عورة

<sup>(١)</sup> تاريخ الإسلام - ج ١١ ص ٢١١ ، ومعجم الأنوال .

<sup>(٢)</sup> سيرة النبي - ج ١ ص ٢٧٥ ، تاريخ الخلفاء .

فهودي ، عورتك ، عورتك ، فما رؤي لرسول الله عورة بعد ذلك (١).

وجاء في صحيح البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه " قال : ( لما بنى

الكعبة ذهب النبي ﷺ " وعمه العباس ينفلان الحجارة ، فقال العباس للنبي ﷺ :

اجعل إزارك على رقبتك ، فخر إلى الأرض ، وطسحت عيناه إلى السماء ، فقال :

أرى إزارى ، فشد عليه (٢).

وتجمع قبائل مكة في بناء الكعبة ، وانتشرك الزكارة والصغار دليل على منزل

الكعبة في قلوب ، وعقول سائر القبائل ، لأنهم كانوا يرون أنها بيت الله تعالى

والذي بناها هو إبراهيم عليه السلام ، وإسماعيل عليه السلام ، وأنها وديعة الله في أرض

للناس ، وهم مسئولون عنها .

وإن المسرة ليحار وهو يرى هذا الاهتمام بالكعبة ، ويرى في نفس الوقت

الأصنام وقد وضعوها حولها ...

فهذه هذا اهتمام بالأصنام حيث وضعوها في هذا المكان المقدس ؟ !

أم هو اهتمام بالكعبة أملى أن تفيض على أصنامهم بعض ما فيها من خير ، ويركعوا

لقد أدت روح العصبية في القبائل إلى أن تبحث كل منها عن تميزها بعبادة

علي غيرها من القبائل .. فلعب الشيطان بهم ، وجههم إلى تعدد الآلهة ، وأنهم

عقودهم عن الحق ، والصواب .

لقد كانت هذه العصبية أن توقع الحرب بين القبائل يوم بناء الكعبة ..

فبرغم أنهم جزأوا حدران الكعبة ، وجعلوا لكل قبيلة حصة ، تقوم ببنائه ، إلا

أنهم لما ارتفعوا بالبناء إلى مستوى الحجر الأسود ، ويسمونه بالركن ، من باب تيمم

الشيء باسم الله ، لأنهم يتجمعون لخدمته في ركن الكعبة ، لما بلغوا هذا المستوى اختلصوا

فسيمن يرفع يده ، ويقضه في مكانه .. يقول ابن إسحاق : ثم إن القبائل من قريش

(١) البخاري . كتاب الحج . باب فصل بناء الكعبة ج ٣ ص ٤٣٦ .

(٢) صحيح البخاري ج ١ ص ١٠٠ كتاب الحج باب فصل مكة ، بنائها ج ٣ ص ٤٤٢ .



جمعت الحجارة لسانها ، كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها ، حتى بلغ السيلان موضع  
الحجر الأسود ، واحتصصوا فيه : كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ،  
حتى لا يوروا ، وحالفوا ، وأعدوا للقتال .

وواصل الأمر بهم إلى أن بين عبد الدار أعدت حفنة ، وملاؤها دماً ، ثم  
عاقفوا هم وبنو عدي بن كعب على الموت ، وأدخلوا أيديهم في حفنة الدم ، إيماناً  
بما ساعدتهم القتال حتى الموت .. ولذلك سموا " لعنة الدم " ، وكل ذلك من حمية  
العشيرة .

ثم إن أهل مكة هكروا في مصير مكة إذا وقعت الحرب ، واشتركت فيها  
القبائل جميعاً ، وأخذوا في تدبير الأمر ، والبحث عن حل مقبول .

وتوقف العمل خمس ليالٍ بسبب هذا التنافس ، إلا أنهم في النهاية احتضروا في  
المسجد الحرام ، ورأوا تحكيم أستاذهم ، وهو أبو حذيفة بن المغيرة بن عبد الله  
المعزومي : فسير في الأمر ، ثم قال لهم : يا معشر قريش ، اجعلوا بينكم فيما  
تختلفون أول من يدخل من باب هذا المسجد ، يفتحي بينكم مد ، يريد به باب  
"بني شيبه" ، وكان يسمى في الجاهلية "باب عبد شمس" ، وهو في الإسلام "باب  
السلام" ، فوافقه على رأيه وانتظروا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ﷺ .

فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما انتهى إليهم ، وأخبروه الخبر  
قال " ﷺ " : هلموا إلي ثوباً ، فأتي به ، فأخذ الخجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم  
قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ولئمتلها شيخها ، ولما فعلوا كان في ربع  
عبد مناف غبرة بن ربيعة ، وكان في الربع الثاني أبو زمعة بن الأسود بن المطلب ،  
وفي الثالث أبو حذيفة بن المغيرة ، وفي الرابع أبو قيس بن عدي<sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> انظر الديلمية ج ١ ص ٣-٣ - ط: دار الفكر العربي .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ج ١ ص ١٩٦ ، ويرى معاوية أنه العاص بن دنانير .

فجاء الأربعة ، وحمّلوا الثوب ، ورفعوه حتى إذا بلغ الحجر الأسود ، وضعه  
 عليه " بيده " ووضعوه حيث هم الآن ، وبني حليد ، واستنبروا في البناء  
 في جهته حتى ارتفع البناء ثمالي أذرع ، ثم كسوها بالقباطي والبرود<sup>(١)</sup> .

يصور الأزرقى ما حدث يوم بناء الكعبة في حوار واضح تذكر فيه يوم  
 الصحابة ما كان يوم بناء الكعبة ، يقول الأزرقى : ( اجتمع مع عبد معاوية  
 أبي سفيان وهو حليفة ، نزل من قريش منهم جعدة بن هير ، وعبد الرحمن بن  
 الحارث بن هشام ، والحارث بن عبد الله بن أبي ربيعة ، وعبد الله بن ربيعة بن الأسود  
 فتذاكروا أحاديث العرب .

فقال معاوية : من قال حين اختلقت قريش في بنيان معبد البيت : يا معشر  
 قريش لا تنافسوا ، ولا تباغضوا ، فيطمع فيكم غيركم ، ولكن جرعوا البيت أربعة  
 أجزاء ، ثم ربعوا القبائل فتكن أربعاً ؟ .

قالوا : إنه أبو أمية بن المغيرة .

قال : هكذا كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن القائل حين اختلقت قريش في وضع الركن حكموا بينكم أول  
 من بطلع من هذا الباب ؟

قال : أبو حذيفة بن المغيرة .

قال : نعم .

قال : فمن الذين رفعوا الثوب حين وضعه رسول الله " ﷺ " ؟

قال : جدك عتبة ابن ربيعة أحدهم ، في الربع الأول .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمن كان من الربع الثاني ؟

قالوا : أبو زمعة بن الأسود بن المطلب .

<sup>(١)</sup> القباطي : ثياب مصنوعة من القطن ، والبرود : الثياب المصنوعة من الصوف .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمسي كان في الربع الثالث ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المعيرة .

قال : كذلك كنت أسمع أبي يقول .

قال : فمسي كان في الربع الرابع ؟

قالوا : أم ليس من عدي السهمي .

قال : هذه واحدة قد أخذتها عليكم ، إنما هو العاصمي بن وائل .

قال : فمسي قال يا معشر قريش لا تدخلوا في عمارة بيت ربكم إلا نبياً منكم ؟

قالوا : أبو حذيفة بن المعيرة .

قال : هذه أخرى قد أخذتها عليكم ، إنما القاتل هذا ، والمتكلم به أبو أحبيحة سعيد بن العاصمي .

قال : فأسكت القوم ( ١ ) .

وهذه الحادثة تدل علي ما تميز به محمد بالصدق ، والأمانة في قومه ، وقد سمع فيهم بالصدق الأبرز . حتى أن هذه الأسماء إذا أطلقت بينهم تنصرف في أذهانهم تلقائياً إلى محمد " ﷺ " ، وتدل كذلك علي ما قدسره الله لمحمد " ﷺ " فلقد رآه الناس الذي نبت عنه الجميع ، فهو الذي وضع الحجر الأسود علي الثوب ، وهو الذي رفعه من فوق الثوب ، ووضع في موضعه ، وهو الذي بني فوقه ... وقد رآه في الجميع ، وأطسأناوا إلي تنصرف محمد " ﷺ " فيهم ..

ولم يعب إبليس عن هذا الحدث ، فلقد حاول إفساد خطة الصلح ، فجاء في صورة رجل أعدي ، وحاول مناولة النبي " ﷺ " حجةً يشد به الركن .

فقال العاصمي بن عبد المطلب : لا ، ونحاه ، وناول العباس رسول " ﷺ " حجةً أعشد

به الركن .

فغضب النجدي حيث نحي .

فقال النبي " ﷺ " : إنه ليس بيي معنا في البيت إلا واحد ما .

فقال النجدي : يا عجبا أقوم أهل شرف ، وعقول ، وسن ، وأموال ، عملوا لي  
أصغرهم سناً ، وأقلهم مالاً ، وأأسوه عليهم في مكر متهم ، وحررهم ، كأهم خديم لي ،  
أما والله ليخوتهم سبقاً ، وليقسم بينهم حظوظاً وجدوداً ! <sup>(١)</sup> ..

ولما بيي الترشيون الكعبة قصرت بهم النفقة ، ولم يتسكروا من بنائها على  
قواعد إبراهيم : وأهم التغييرات في بناء قريش للكعبة ما يلي : —

(١) كان باب الكعبة على الأرض ، فلما هدمتها قريش وأعادوا بناءها ، زدوا  
وسط الكعبة بمخلفات الهدم ، فارتفعت أرض الكعبة ، وبالتالي ارتفع بابها ،  
وقد استحسوا ذلك حتى لا يدخلها إلا من أرادوا له الدخول ، وبخاصة أن  
بعض اللصوص كان يدخلون الكعبة لسرقة بعض الجواهرات التي أهديت  
إليها ، يروي الأزرقى بسنده عن أبي جعفر أنه قال : كان باب الكعبة على  
عهد إبراهيم وجرهم بالأرض حين بنتها الملائكة ، كما يروي أن أبا جعفر  
بن المغيرة قال : يا معشر قريش ارفعوا باب الكعبة حتى لا يدخل عليكم  
أحد إلا بسلم ، فإنه لا يدخل عليكم إلا من أردتم ، ففعلت قريش ذلك ،  
وردموا الردم الأعلى ، وصرفوا السيل عن الكعبة وكسوها <sup>(٢)</sup> .

(٢) جعلوا للكعبة باباً واحداً ، هو الباب الشرقي ، وهو الموجود الآن وجعلوا  
الباب الغربي .

(٣) تسركوا بناء الحجر بطول ستة أذرع ونصف ، مع أنه جزء من الكعبة ، لأن  
النفقة الطيبة قصرت بهم ، فأبوا أن يدخلوا في بنائها مالا غنياً ، وأطاعوا

<sup>(١)</sup> الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٤٦

<sup>(٢)</sup> أخبار مكة للأزرقي ج ١ ص ١٧٣ .

تسجد أبي أحيحة سعيد بن العاص حين قال لهم : لا تدخلوا في بيت ربكم إلا طيباً من كسبكم <sup>(١)</sup> .

أُرتفع سور البناء تسعة أذرع ، فصار إرتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعاً ، حيث رُميوا في إحاطتها ، رمزاً لرفعيتها .

قاموا تنسيقها ، حيث كرهوا أن تكون بغير سقف ، ولعلهم لاحظوا أهمية السقف في حمايتها من الأتربة ، والفضلات التي تنملأها الرياح إلى جوف الكعبة .

قاموا داخل الكعبة ست دعائم في صفين يجاوران الجانب الشرقي ، والجانب الغربي لتكون أساساً يقوم عليه السقف ، وقد بيت هذه الدعائم من الحجر والخشب .

قاموا داخل الكعبة من ناحية شرق الحجر سلماً حلزونياً يمكن بواسطته الصعود إلى سطح الكعبة .

جعلوا سطح الكعبة مستوياً يميل نحو الحجر ، وأحاطوا السطح بسور يبلغ إرتفاعه ذراعاً ، وجعلوا فيه ميزاباً يصب ماء المطر في الحجر .

أدخلوا جميع جدران الكعبة بعيداً عن قواعد إبراهيم " عليه السلام " بمقدار نصف ذراع ، حيث أقيم عليه " الشاذوران " فيما بعد وهو البناء البارز الموجود أسفل الجدر حالياً ، ويشبه الوزرة ، وهو حجارة مائلة متصلة بجدر الكعبة من خارجها ، والشاذوران من بناء السلطان مراد العثماني عام ١٠٤٠ هـ وقد جعل إرتفاعه أحد عشر ستيترأ من الأرض ، وعرضه أربعين ستيترأ . وهو بناء مائل على هيئة مثلث قائم الزاوية إرتفاعه ملاصق للكعبة من جهاتها الثلاث ، أما جهة الحجر فهو على هيئة درجة واحدة مسطحة .

وجمهور الفقهاء أجمعوا على أن الشاذوران من البيت خلافاً لأبي حنيفة <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> في رحاب البيت الخراج ص ١٢٩ : ١٢٧ .

<sup>(٢)</sup> أئمة مكة ثلاث ، في ج ١ ص ١٧٣ .

وفد أخبر النبي ﷺ " عائشة " رضي الله عنها " بأن قومها لم يقبلوا النبي علي قواعده إبراهيم " التيمي " .

— عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : قال رسول الله ﷺ " ألم تروا قومك حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعده إبراهيم " التيمي " قلت يا رسول الله أفلا تردها علي قواعده إبراهيم ؟

قال عبد الله بن عمر : فو الله لن كانت عائشة سمعت ذلك من رسول الله ﷺ ما أري رسول الله ﷺ " ترك الركبتين اللذين يليان الحجر إلا أن البيت لم يقم علي قواعده إبراهيم " التيمي " إرادة أن يستوعب الناس العلوف بالبيت كنه من وراء قواعده إبراهيم " التيمي " (١) .

— عن عائشة " رضي الله عنه " قالت : كنت أحب أن أدخل البيت فأصلي فيه ، قال رسول الله ﷺ " يدي فأدخلني في الحجر فقال لي صلي في الحجر إذا أردت دخول البيت فإنما هو قطعة من البيت ولكن قومك استقصروا حين بنوا الكعبة فأخرجوه من البيت " (٢) .

— عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : إن رسول الله ﷺ " قال لما بنوا أن قومك حديث عهد بشرك أو بجاهلية هدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، وجعلت ما بين باباً شرقياً ، وباباً غربياً ، وزدت فيها من الحجر ستة أذرع ، وإن قرشاً اقتصر ما حين بنت الكعبة " (٣) .

### عبد الله بن الزبير وبناء الكعبة :

قام عبد الله بن الزبير حين ولي أمر مكة والمدينة ، معارضاً ليزيد بن معاوية

(١) الفتوح الرباعي ج ١٢ ص ٤٩ .

(٢) الفتوح الرباعي ج ١٢ ص ٥٠ .

(٣) الفتوح الرباعي ج ١٢ ص ٥١ .

بناء الكعبة : وسبب بنائه لها برجع لأمرين : —

**الأول :** نوهى الكعبة من حجارة المصطفى التي أصابته حين حوصر ابن الزبير "رضي الله عنهما" بمكة في أوائل سنة أربع وستين من الهجرة . لمعادته يزيد بن معاوية .

**الثاني :** ما أصابها مع ذلك من الحريق ، بسبب النار التي أوقدها بعض أصحاب ابن الزبير "رضي الله عنهما" في حيمة له ، فطارأت الرياح بنهب تلك النار وأحرقت كسوة الكعبة ، والساج الذي بيني في الكعبة حين عمرتها فريش . وضعت جدران الكعبة ، حتى إذا لتنفذ من أعلاها إلى أسفلها ، ويقع الحسام عليها فتنتثر جدرانها (١) .

ولما رآه الخصار عن ابن الزبير "رضي الله عنهما" لإدبار الحصين بن نمير من مكة بعد أن بلغه موت يزيد بن معاوية ، رأى ابن الزبير "رضي الله عنهما" أن يهدم الكعبة ويبنيها ، فوافق به علي ذلك نفر قليل ، وكره ذلك نفر كثير . منهم ابن عباس "رضي الله عنه" .

فلما رأى ابن الزبير هذا الخلاف بين الصحابة قال لهم : لو أن بيت أحدكم احترق لا يرضى أنه إلا بأكمل صلاح ، ولا يكمل صلاح الكعبة إلا بدمها وإقامتها على قواعد إبراهيم "عليه السلام" كما بينها النبي "ﷺ" لعائشة وسمعها ابن الزبير منها "رضي الله عنها" ، فهدمها اجتهاداً منه بناء على أحاديث رسول الله "ﷺ" لأن المنفعة موحدة . وقد بعد الناس عن الجاهلية ، وما أرى رسول الله "ﷺ" قواعد البيت لعائشة إلا لحكمة فهم ابن الزبير منها جواز بناء البيت على قواعد إبراهيم "عليه السلام" ، وقد وافقه بعض الصحابة في هذا الاجتهاد .

وكان هدم ابن الزبير "رضي الله عنه" لها يوم السبت في النصف الأول من جمادى

الأخرى سنة أربع وستين ، وبعد هدمها ثامناً بناها علي قواعد إبراهيم <sup>عليه السلام</sup> وأدخل فيها ما أخرجته منها قريش في الحجر ، وزاد في ارتفاعها علي بناء قريش ما رادته قريش في ارتفاعها علي بناء الخليل " <sup>عليه السلام</sup> وذلك سبعة أذرع ، فجعل ارتفاعها سبعة وعشرين ذراعاً ، وهي سبعة وعشرون مائة كذا ، وجعل ثمانية آلاف لاصقين بالأرض ، أحدهما بالأمم الموحود اليوم ، والآخر المقابل له المستودع خالٍ واعتمد في ذلك ، وفي إدخاله في الكعبة ما أخرجته قريش منها في الحجر عشرين ما أخرجته به حالته عائشة رضي الله عنها .

وجعل فيها ثلاث دعائم في صف واحد ، وجعل لها درجاً في ركنها القبلي يفضع منها إلى سطحها ، وجعل فيها ميزاباً يصب في الحجر ، وجعل فيها رواقاً للصوة <sup>(١)</sup> .

فلما قتل ابن الزبير ، وكانت ولاية عبد الملك بن مروان أمر بإعادة البيت إلى ما كان عليه في بناء قريش ، ظناً منه أن ابن الزبير أخطأ في اجتهاده ، أو شك في الأحاديث التي اعتمد عليها ابن الزبير ، ولذلك قام الحجاج بأمر من الخليفة عبد الملك بإخراج الحجر من الكعبة ، وإلغاء الباب العربي ، وأبقى علي ما عدا ذلك من بناء ابن الزبير ، ولما أتم الحجاج ما أمر به عبد الملك وود علي عبد الملك الحارث بن عبد الله ابن أبي ربيعة المحزومي ، فقال له عبد الملك : ما أظن أبا حبيب <sup>عليه السلام</sup> يعني ابن الزبير — سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمع منها في أمر الكعبة .

فقال الحارث : أنا سمعته من عائشة .

قال عبد الملك : سمعتها تقول ماذا ؟

قال الحارث : سمعتها تقول : وذكر الأحاديث .

قال عبد الملك بن مروان : أنت سمعتها تقول هذا ، قال : نسعهم يا أمير المؤمنين الله





- (٧) ﴿أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(١)</sup> .
- (٨) ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(٢)</sup> .
- (٩) ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(٣)</sup> .
- (١٠) ﴿وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(٤)</sup> .
- (١١) ﴿فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ <sup>(٥)</sup> .
- (١٢) ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(٦)</sup> .
- (١٣) ﴿وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ﴾ <sup>(٧)</sup> .
- (١٤) ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ <sup>(٨)</sup> .
- (١٥) ﴿لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ <sup>(٩)</sup> .

وحين ننظر في هذه الآيات نرى أن المراد ببعضها الكعبة خاصة وهي قوله تعالى

﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ ويراد ببعضها الآخر مكة ، وهي قول

تعالى : ﴿سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

<sup>(١)</sup> سورة انفطار آية (٢) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأعراف آية ( ٣٤ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة التوبة آية ( ٧ ) .

<sup>(٤)</sup> سورة التوبة آية ( ١٩ ) .

<sup>(٥)</sup> سورة التوبة آية ( ٢٨ ) .


<sup>(٦)</sup> سورة الإسراء آية ( ١ ) .


<sup>(٧)</sup> سورة الحج آية ( ٢٥ ) .

<sup>(٨)</sup> سورة الحج آية ( ٢٥ ) .

<sup>(٩)</sup> سورة الفتح آية ( ٢٧ ) .



وهدمها ، وبني سوراً للمسجد وفتح في السور أبواباً في أماكن الدارق التي كانت الدور ، وسمي كل باب باسم الطريق المقابل له ، وهذا تعددت الأبواب في السور ولما ولي عثمان "  " ، اشترى دوراً أخرى ، وأعلى في ثمنها ، وزاد سعة المسجد <sup>(١)</sup> ، وزاد في عدد الأبواب .

فلما كانت خلافة ابن الزبير "  " عسر المسجد الحرام بعد أن انتهى من عماره الكعبة المعظمة وزاد فيه زيادة كبيرة من الجهة الشرقية والجنوبية والشمالية واشترى دوراً كثيرة وسقف المسجد أيضاً <sup>(٢)</sup> .

وتوالى الزيادة في المسجد الحرام ، وأشهرها الزيادة العثمانية حيث نرى مكاناً خالياً للطواف ، وأحاطوه ببناء دائري ، مقام على أعمدة رخامية ، ومبني بقباب في جميع نواحيه .

وكان آخرها في العصر الحديث حيث الزيادة السعودية في عهد الملك سعود بن عبد العزيز وفي عهد أخيه الملك فهد بن عبد العزيز ، جزاهم الله خير الجزاء .

\*\*\*

<sup>(١)</sup> الروض الأنف ج ١ ص ٢٢٤ .

<sup>(٢)</sup> في رحاب البيت الحرام ص ١٩٩ .

## المبحث التاسع

### المقدمات العملية للبعثة النبوية

عندما تزوج محمد ﷺ " من خديجة " رضي الله عنها " لم يعد محتاجاً لما كان يسعى لتحقيقه ، أو يتشغل في العمل من أجل كسبه ، فلقد أغناه الله تعالى خديجة " رضي الله عنها " ، وأغناه كذلك برضى النفس ، وهدوء البال ، وأغناه بالميل نحو الزمان ، والتفكير ، أكثر من ميله للكسب المادي ، وبذل الجهد والعمل . ولذلك برآه " ﷺ " يبدأ حياة التأمل ، ويتفرغ للتحنن بعيداً عن مشغبات الحياة ، ووضيحه العمل ، وفي فترة ما قبل البعثة عاش محمد ﷺ " ، وعاش العالم كله ، مقدمات البعثة ، المتمثلة في النقاط التالية : —

### أولاً .

#### كثرة المبشرات

تحتل كتب السيرة والتاريخ بالمبشرات الكونية والإنسانية ، التي أشارت إلى قرب ظهور نبي في بلاد العرب ، يبعث للعالم كله ، لنشر العدل ، وتحقيق الأمن والسلام ، وقد أتت أغلب هذه المبشرات من أحنبار اليهود ، ورهبان النصارى ، وكهنة العرب .

وسوف نورد هنا شيئاً منها ، لثبوتها بتصديق القرآن الكريم لها ، ولأن ثبوت صدقها إثباتات لإرهاصات العديدة التي صاحبت مولد محمد ﷺ " ، ونشأته ، وحياته كلها .

إن مبشرات أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، هي مبشرات صحيحة لتسهادة القرآن الكريم ، حيث بين الله تعالى بصورة قاطعة معرفة الأحنبار، والرهبان، برسالة محمد ﷺ " ، وتحديد مواصفاته ، ومكان ظهوره ، وطبيعة رسالته العالمية .

يقول الله تعالى : ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ ﴾<sup>(١)</sup> ،  
 فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٥٥﴾ ﴿<sup>(٢)</sup> ودلالة الآية صريحة في أن أهل  
 الكتاب ، وهم اليهود والنصارى ، يعرفون محمداً ، ورسائله معرفة تفصيلية ، ومع ذلك  
 فقد جحد فريق منهم نبوة محمد " ﷺ " ، وكنتم ما يعرفه ، وأنكم ما هو صحيح لديكم  
 جاء في تفسير الطبري أن أخبار اليهود ، وعلماء النصارى كتبوا أمر محمداً  
 " ﷺ " وهم يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فأحبر الله بيده محمداً " ﷺ " ،  
 وأمتهم بكسافهم ذلك عن علم ومعرفة ، وليس لهم ذلك<sup>(٣)</sup> .

وإنما شبه معرفتهم له " ﷺ " بمعرفتهم بأنبيائهم ، ولم يشبهه معرفتهم بأنفسهم  
 لأن الوالد يعرف ابنه في كل وقت ، وفي كل حال ، وقد يغفل عن نفسه أحياناً ،  
 وأيضاً فإن المعرفة الكاملة للنفس أمر مستحيل بينما المعرفة للولد تكون أكمل .

قيل لعبد الله بن سلام : أتعرف محمداً كما تعرف إنيك ؟

قال : نعم وأكثر ، بعث الله أمينه في سمائه ، إلى أمينه في أرضه ، بنعته ، فعرفته ، وإنني  
 لا أدري ما كان من أمه<sup>(٤)</sup> ! ! .

ويقول الله تعالى ﴿ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَكْتُوبًا عَنْدهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ﴾

فهو " ﷺ " موجود في التوراة ، والإنجيل بوصفه ورسالته .

يروى البخاري بسنده أن عطاء ابن يسار لقي عبد الله بن عمرو بن العاص

" ﷺ " وقال له : أخبرني عن صفة رسول الله " ﷺ " في التوراة .

(١) سورة البقرة آية ( ١٤٦ ) .

(٢) تفسير الطبري ج ٣ ص ١٤٦ ط: دار المعارف .

(٣) تفسير القرطبي ج ٢ ص ١٦٣ ط: دار الكتب .

(٤) سورة الأعراف آية ( ١٥٧ ) .

فقال عطاء : أجل ، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن ، يا أيها النبي  
 إنا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، : أنت عهدي ، ورسولي ، سميتك  
 القرآن ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا سخاب في الأسواق : ولا يدفع السيئة بالسيئة .  
 ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله .  
 وينفتح به أعينا عمياً ، واذناً صماً ، وقلوباً غلفاً <sup>(١)</sup> .

ويقول سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَسْنِي إِسْرَءِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ  
 إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ  
 إِحْمَدٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، والآية تبين أن عيسى  
 " <sup>(٣)</sup> " بشر أتباعه ، وعلى رأسهم الخواريون برسالة محمد " <sup>(٤)</sup> " ، وحدد لهم اسمه  
 وصفه .

ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ تَحْمَدُ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ  
 رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ  
 مِنْ أَمْرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ  
 فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا  
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ <sup>(٥)</sup> ، والآية صريحة في أن الله تعالى بين  
 لأهل الكتاب رسالة محمد ووضحه لهم بالتبثيل والتشبيه الذي يقرب المعنى ، ويسهل  
 التفاهيم السعبة ، فمثل محمد وأصحابه في التوراة أنهم متعاونون ، يحب بعضهم بعضاً ،  
 يواجهون الكفار بقوة وشدة ، وأهم عابدون للهِ ، راكعون ، ساجدون ، في وجوههم

<sup>(١)</sup> - صحيح البخاري - كتاب البيوع - باب كراهية السحب في السوق ج ١ ص ٤٦ .

<sup>(٢)</sup> - سورة الحديد آية ( ٦ ) .

<sup>(٣)</sup> - سورة الصبح آية ( ٢٩ ) .





كانت لا تزال بينا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون ، قالوا لنا : إنه  
قد تقارب زمان نبي يبعث الآن تقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فكننا كثيرا ما نسمع ذلك  
منهم ، فبما بعث الله رسوله " ﷺ " أجبناه ، حين دعانا إلى الله تعالى ، وعمرهم  
ما كانوا يتوعدونا به ، فبادرناهم إليه فأمنوا به ، وكنوا به ، فبينما وفيهم نزل منزل  
من ربنا : هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَتَيْنَهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا  
مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٠﴾ ..

وإعلامه المبحث هو تأكيد صادق أخبار اليهود، ورهسان النصاري في  
النبأات العديدة التي نعتوها عنها ، وأكثروا ضرورتها وقوعها في شخص رسول الله  
ﷺ مع أكبر لم يؤمنوا بدعوة محمد " ﷺ " حين جاءهم : حقدًا ، وحسدًا ..  
— يقول سلمان بن حرب : إن أمية بن أبي الصلت ذهب إلى غلام من علماء

النصارى ، أسهب إليه عنهم الكتاب ، وسأله عن النبي المنتظر .

فقال له : أخبرني عن هذا النبي الذي ينتظر .

فأجاب : هو رجل من العرب .

فقال له : من أي العرب ؟

فأجاب : من أهل بيت أئمتنا العرب من إخوانكم من قريش .

قال له : صفه لي .

فأجاب : رجل شاب حين دخل في الكهولة ، بده أمره تنسب المظالم ، والخارجية ويصلي  
الرحم ، ويأمر بسمتها ، وهو مروح ، كريم الطرفين ، متوسط في العتيرة ، أكثر جنادة  
اللائكة ..

— وروى ابن عساكر عن عبد الرحمن بن عوف : قال : سألني أبي عيسى

قبل بعث النبي ﷺ " بسنة ، فترلت علي عثكلان بن عواكس الحميري ، وكان شيخاً كبيراً ، وكنت لا أزال إذا قدمت اليمن أنزل عليه ، فيسألني عن مكة وعن الكعبة ، وزمزم ويقول : هل ظهر فيكم رجل له ذكر ؟ هل تحالف أحد منكم بكم في دينكم ؟ فأقول : لا ، حتى قدمت المرة التي بعث فيها رسول الله ﷺ " فوافيته ، فضعف ، وثقل سمعه ، فترلت عليه ، فاجتمع عليه ولده ، وولد ولده ، فأحبروه بمكالمات وتولي له ، وقد شدت عصابة علي عينيه ، وأسند فقعد ، فقال لي : انشئت يا أخا قريش .

فقلت : أنا عبد الرحمن بن عوف بن عبد عوف بن عدي بن الحارث بن زهرة . قال : حسبك يا أخا زهرة ألا أبشرك ببشارة هي خير لك من التجارة ؟ قلت : بلي .

قال : أنشك بالمعجبة ، وأبشرك بالمرعة ، إن الله تعالى بعث في الشهر الأول من قومه نبياً ارتضاه صفياً ، وأنزل عليه كتاباً ، وجعل له ثواباً ، ينهي عن الأصنام ، ويدعو إلى الإسلام ، يأمر بالحق ويفعله ، وينهي عن الباطل ويبطله . فقلت : ممن هو ؟

قال : لا من الأزدي ولا من الغمالي ، ولا من سرو ولا من تباله ، هو من بني هاشم ، وأنتم أخوة الله . يا عبد الرحمن أحسن الواقعة ، وعجل الرجعة ، ثم امض وأرره ، وسلفه . — ويقول عروة بن مسعود الثقفي : بلغت خمران وكان أسقفها صديقاً لي فلما رأي ، قال لي : يا أبا يعفور هذا حين خروج نبي من أهل حرمكم ، يهدي إلى الحق ، وحق المسيح إنه خير الأنبياء ، وآخرهم ، فإن ظهر فكن أول من يؤمن به . — ويروي أن أبا ثور عمرو بن معدى كرب " عليه السلام " قال : فرعنا إلى كاهن

(١) سبل الحدي ج ٢ ص ٢٥٨ .

(٢) سبل الحدي ج ٢ ص ٢٥٩ .

قال في أمر رل بنا ، فقال الكاهن : أقسم بالسماء ذات الأبراج ، والأرض ذات  
الأدراج ، والريح ذات السجاج : إن هذا لإمراج ، ولتأاج دي نتاج .

قالوا : وما نتاجه ؟

قال : ظهور بي صادق ، بكتاب باطق ، وحسام ذائق .

قالوا : أين بظهير ؟ وإلام يدعو ؟

قال : بظهير بصلاح ، ويدعو إلي فلاح : وينتهي عن الراح ، والسفاح : وعن كل أمر

فياح .

قالوا : ممن هو ؟

قال : من ولد الشيخ الأكرم ، حافر زمزم ، ومطعم الطير الخوم ، والسباع الضرم .

قالوا : وما اسمه ؟

قال : محمد ، وعزه سرمد ، وحصمه مكمد <sup>(١)</sup> .

— وبيروي ابن هشام : أن رؤساء إعران كانوا يتوارثون كتباً عندهم ، فكتبوا

مات رئيس منهم وأفضت الرئاسة إلى غيره ، ختم غني تلك الكتب خاتماً مع الخواتم

التي قبله ، ولم يكسرها : فخرج الرئيس الذي كان علي عهد النبي ﷺ " بمشي بعشر

فقال الله : تعس الأبعد : يريد النبي ﷺ " ، فقال له أبوه : لا تفعل ، فإنه نبي ، والله

في الوضائع . . يعني الكتب ، فلما مات لم يكن همه إلا أن شد فكسر الخواتم فوجد

ذكر النبي ﷺ " فأسلم وحسن إسلامه <sup>(٢)</sup> .

وهكذا بري كثرة المشتريات ، وانتشارها في كل أرجاء الأرض . وكلها تشير

إلى نبوة محمد ﷺ " .

وكان الأمل أن يسارع أهل الكتاب إلى الإيمان والتصديق برسالة محمد ﷺ " فهم

تعارفون ها ، وبصدقها ، وقد بشروا الناس بها ، لكن الحق أقبح قلوبهم ، وصرفهم —

<sup>(١)</sup> سيرة بني ج ٢ ص ٢٦٠ ، وصلاح اسم من أسماء مكة .

<sup>(٢)</sup> سيرة بني ج ٢ ص ٢٦٢ .

عن اتباع الحق، وكبر في نفوسهم أن يكونوا تابعين لغيرهم ..

ومع أنهم لم يؤمنوا برسالة محمد ﷺ " فقد أبقوا في أفهام الناس هذا الخبر وهموا بالعقول الصالحة للإيمان، مما جعل الكثير ينتظر هذا النبي المبعوث بدین الله تعالى .  
وقد سبق ذكر ما قاله كاهن عمورية لسلطان الفارسي : وما قاله بحري طالب ، وما قاله نستورا ليسرة <sup>(١)</sup> .

هذا بعض ما قاله الرهبان ..

ومما قاله الأحرار ما رواه ابن سعد بسنده عن أبي س كعب ، قال : لما أتت مع المدينة، ونزل يفتاد، بعث إلى أحرار اليهود وقال لهم : إني مخرب هذا البلد حتى تقوم به يهودية، ويرجع الأمر إلى دين العرب . فقال له سامون اليهودي ، وهو من أعلمهم : أيها الملك إن هذا بلد يكون إليه مهاجر نبي من بني إسماعيل، مولد له اسم أحمد ، وهذه دار هجرته <sup>(٢)</sup> .

— وعن عبد الحميد بن جعفر عن أبيه قال : كان الزبير بن باطاء ، وكان أعلم اليهود ، يقول : إني وجدت سراً كان أبي يختمه عليّ ، فيه ذكر أحمد نبي يخرج بأرض القرظ صفت كذا وكذا <sup>(٣)</sup> .

— وعن ابن عباس " رض " قال : كانت يهود قريظة والنضير، وذلك وحير يجدون صفة النبي " ﷺ " ، عندهم قيل أن يبعث ، ويعلمون أن دار هجرته بالمدينة ، فلما ولد رسول الله " ﷺ " ، قالت أحرار اليهود ، ولد أحمد، تليد يهود الكوكب قد طلع ، فلما نبي قالوا ، قد نبي أحمد ، قد طلع الكوكب الذي يطلع كانوا يعرفون ذلك، ويقولون به، ويصفونه لولا الحسد والبغى <sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> أنظر ص ٨٧ ،

<sup>(٢)</sup> الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

<sup>(٣)</sup> الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

<sup>(٤)</sup> الطبقات الكبرى ج ١ ص ١٥٩ .

— وعن عامر بن ربيعة قال : سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يقول : أنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من بني عبد المطلب ، ولا أراي أدركه ، وأنا أؤمن به وأصدقّه وأشهد أنه نبي ، فإن طالت بك مدة فرأيتني ، فأقرته مني السلام ، وسأخبرك ما نعتني حتى لا تخفي عليّك .

قلت : هم !

قال : هو رجل ليس بالطويل ، ولا بالقصير ، ولا بكثير الشعر ، ولا يقليله ، وليس بمزرق عيون ، وحمرة ، وخاتم النبوة بين كتفيه ، واسمه أحمد ، وهذا البلد موأله ومبعثه ، ثم يخرج قومه معه ، ويكرهون ما جاء به ، حتى يهاجر إلي يثرب فيظهر أمره ، وإياك أن تدخل عنه فإني طأمت البلاد كلها أحلب دين إبراهيم ، فكل من أسألت من اليهود والنصارى ، والمجوس ، يقولون : هذا الذي وراءك ، وينعتونه مثل ما نعتته لك . ويقولون لم يبق بي غيره ، يقول عامر بن ربيعة : فلما أسألت أخبرت رسول الله ﷺ فوال زيد ابن عمرو وأقراته مني السلام ، فرد عليّ السلام ورحمة الله عليه ونال . قد رأيتني في الجنة بسحب ذيولاً<sup>(١)</sup> .

\*\*\*

## « ثانياً »

## انتشار العلم

## بخاتم النبوة

من مقدمات البعثة أن محمداً " ﷺ " جمع بعلامات عرفت بخاتم النبوة <sup>(١)</sup> ،  
 وأما أهل الكتاب وغيرهم قبل بعثته " ﷺ " وأكثروا الحديث عنها .

وخاتم النبوة عبارة عن بضعة لحم مرتفعة عن الجسد ، وجدت في ظهره  
 الشريف " ﷺ " عند أسفل عظم كتفه اليسرى ، وقد تكلم العلماء عن الحكمة في  
 وضعه مع الخاتم خلف ظهره ، وفي هذا المكان المواجه للقلب .

يقول ابن دحية — رحمه الله — : الحكمة في وضع الخاتم بين كتفي رسول  
 الله " ﷺ " : إشارة إلى أنه لا شيء بعدك يأتي من وراءك <sup>(٢)</sup> .

وقال في الفتح : السر في ذلك أن القلب في تلك الجهة <sup>(٣)</sup> .

وقال العلامة السهيلي في الروض الأنف : وحكمة وضعه — أي الخاتم — على  
 المغض — من الكتف اليسرى — عصمته من وسوسة الشيطان ، ولأن ذلك الموضع  
 منه يدخل الشيطان ، فكان ذلك حفظاً له من الشيطان <sup>(٤)</sup> .

وروي ابن عبد البر بسند قوي إلى ميمون بن مهران عن عمر بن عبد العزيز  
 أن رجلاً سأل ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم ، فأري جسده مهي (أي  
 داخله من خارجه ) وأري الشيطان في صورة ضفدع ، عند كتفه خذاع فضله  
 خسر طوم كخر طوم البعوضة ، وقد أدخله في منكب الأيسر إلى قلبه ، يوسوس إليه  
 فإذا ذكر الله تعالى العبد خنس .

قال في الفتح : وهو مقطوع ، وله شاهد مرفوع عن أنس عند أبي يعلى <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري شرح فتح الباري — كتاب المقاتل — باب دلائل النبوة ج ٦ ص ٥٦١ .

<sup>(٢)</sup> فتح الباري على صحيح البخاري ج ٦ ص ٥٦٢ .

<sup>(٣)</sup> الروض الأنف ج ١ ص ١٩١ .

عدي ولغظه : ( إن الشيطان وضاع عطشه على قلب ابن آدم ) (١) .

### ختم النبي بهذا الخاتم :

احترف العلماء في موعد ختم النبي ﷺ " بخاتم النبوة وذكروا أوقاتاً تنفق

فيها مع الأوقات التي ذكروها لشفق صدره " ﷺ " وهي : —

— قال بعضهم : ختم حين مولده " ﷺ " .

— وقال الآخرون : ختم يوم شق صدره عند حنيفة .

— وقال غيرهم : ختم قبيل المبعث .

— وقيل : ختم ليلة الإسراء والمعراج .

ولكل دليل ، وحجته .

ورجح ابن حجر أن الختم كان يوم شق صدره عند حنيفة ، وقطع به

القاضي عياض ، لأن الذين رأوه وشاهدوه ذكروا أن رؤيتهم للخاتم كانت قبل

إنعاده بوقت طويل .

ولا مانع من القول بأن الله تعالى كرر الختم لرسول الله في كل هذه المرات

إيماناً بالأحاديث كلها ، وزيادة في البركة والنعون .

وسميت هذه العلامة بالخاتم جرياً على عادة الناس في إثبات صدق ما يكتبون

بخاتم معين ، فكان هذا الخاتم دليل على صدق محمد " ﷺ " .

والأحاديث المثبتة لخاتم النبوة كثيرة منها : —

— عن المسائب بن يزيد " رحمه الله " يقول : ذهبت لي خالتي إلى النبي " ﷺ "

فقال يا رسول الله : إن ابن أخي وجمع، فمسح " ﷺ " رأسي، ودعا لي

بالبركة، وتوضأ، فشربت من وضوئه ، ثم قمت خلف ظهره فنظرت إلى الخاتم بين

كثير، فإذا هو مثل زر الحجة (٢) .

(١) صحيح البخاري ج ٢ ص ٥٦٢ .

(٢) صحيح البخاري صحيح أبي داود — كتاب الوضوء — باب فضل الاستئصال وضوء الناس ج ١ ص ٢٩٦ .

— وعن سماك قال : حدثني جابر بن سمرة " رضي الله عنه " قال : رأيت خاتماً في رداء رسول الله " ﷺ " كأنه بيضة حمام .

— وفي رواية أخرى قال : رأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة حمام حسده <sup>(١)</sup> .

— وعن ابن زيد الأنصاري " رضي الله عنه " قال : قال لي رسول الله " ﷺ " يا أبا زيد أدن مني فامسح ظهري ، فمسحت ظهره ، فوقع أصابعي على الخاتم قلت : وما الخاتم ؟ قال : شعرات بختمعات <sup>(٢)</sup> .

— عن عبد الله بن سرجس " رضي الله عنه " قال : رأيت النبي " ﷺ " وأكثرت مني خبزاً ولحماً أو قال ثريداً ، فقلت له : هل استغفر لك النبي " ﷺ " ؟ ! .

قال : نعم ولك ، ثم تلا هذه الآية : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ . قال : ثم درت حلقه فغلظت إلي خاتم النبوة بين كتفيه ، عند بعض كتفه اليسرى فمدت عليه حيلان كأمثال الناليل <sup>(٣)</sup> .

— وعن أبي نضرة العوفي " رضي الله عنه " قال : سألت أبا سعيد الخدري عن خاتم رسول الله " ﷺ " ، يعني : خاتم النبوة ، فقال : كان في ظهره بضعة باشرة <sup>(٤)</sup> . وللعلماء في وصف خاتم النبوة أقوال : —  
— يصفها الحاكم في كتابه بأنها شعر مجتمع .

<sup>(١)</sup> صحيح مسلم شرح النووي — كتاب الفضائل — باب قبيلة النبي " ﷺ " ج ١ ص ٩٧ .

<sup>(٢)</sup> قال الألباني في الشمائل : رواه الترمذي والبيهقي وابن حبان — بسند صحيح رقم ( ١٧ ) .

<sup>(٣)</sup> الناليل : جمع نوال ، وهو شعر صغير صلب مستدير ، يظهر على الخاتم كالحصاة السوداء ، والحديث رواه

مسلم — كتاب الفضائل — باب إثبات خاتم النبوة ج ١ ص ٩٩ .

<sup>(٤)</sup> باشرة : مرادها : والحديث قال الألباني عنه في الشمائل : رواه الترمذي — بسند حسن رقم ( ١٩ ) .



- وفي كتاب البيهقي : تصفة فائمه .
- وفي حديث عمرو بن الخطيب ( كتمني فتم به ) .
- وفي تاريخ ابن عساکر ( مثل البقرة ) .
- وفي شرح مدني ( كالتفاحة ) .
- وفي الترمذي كراس الحنجم الغانص على الحنجم .
- وفي تاريخ ابن أبي عيثة شامة خضراء مشفرة في اللحم .
- وفيه أيضا شامة سوداء تضرب إلى الصفرة حولها شعرات متراكبات كأنها عرف الثور .

- وفي تاريخ القضاعي ثلاث مجتمعات .
- سدوسي عائدة " رضى الله عنها " كنية صغيرة تضرب إلى الدخمة <sup>(١)</sup> .
- واختلاف العلماء في وصف خاتم النبوة ليس من قبيل التناقض والتضاد ؛ وإنما هي باعتبار أن كلا منهم شبه الخاتم ؛ بما صنع له ، وبما ظهر أمامه ؛ لأنه "  $\text{بَيِّنَات}$  " كان سنده بقره ، هو وصف الخاتم رآه بنظرة خاطئة ؛ أو أرى له فجأة ؛ مع وجود عوامل كثيرة في هذا الموقف العجيب ، ومن الملاحظ أن الأقوال متقاربة في وصف الخاتم من ناحية صوره ، وحجمه ومكانه .
- ووجود الخاتم النبوي مندرج في حوار في العادات التي أحاط الله بها النسوات .
- وأحب التسليم لها .

\*\*\*

## ثالثاً .

### منع الجن من الاستماع

الجن خلق الله تعالى أوحدهم من النار ، وقدر لهم أن يعيشوا على نحو الإنسان .  
 لهم : فهم أحسام معنوية ، هائسة في الدنيا ، سريعة التنقل والحركة ، قوية الإدراك .  
 يرون الناس من حيث لا يرونهم .

وهم خلق مكلفون برسالات الله ، منهم المؤمن ، ومنهم الكافر ، ومنهم  
 وجودهم تبدأ بقصة إبليس مع آدم " عليه السلام " حيث أخرجهما الله من الجنة .  
 طمس التناسل والتكاثر ، وأهبطهما الأرض ليعيش كل طرف وذريته في عداء بين  
 الطرف الثاني وذريته إلى يوم القيامة .

وقد تمكن كل طرف بالاستعانة بأفراد من الطرف الآخر ، والتعاون معهم  
 فيما هو عليه من اتجاه وعمل .

واستطاع كهان الإنس أن يستعينوا بأفراد من الجن فزادوهم ضللاً ، ونحو  
 ، يقول تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ  
 رَهَقًا ﴾ <sup>(١)</sup> وذلك أن الرجل من الإنس كان إذا نزل بمكان مخوف يقول : أستعين  
 بسيد هذا المكان من شر سفهائه ، فزادوهم طغياناً ، وضلالاً ، وبعداً عن الله تعالى .  
 وكان الجن يقومون باستماع الخبر من السماء ، وما يسمع الكهان من الناس ،  
 فيضيفون إليه من عندهم ، ويتحدثون به كذباً وهتاناً ، تقول السيدة عائشة  
 رضي الله عنها : " سأل أناس رسول الله " ﷺ " عن الكهان .

فقال لهم رسول الله " ﷺ " : ( ليسوا بشيء ) .

قالوا : يا رسول الله ، فإنهم يحدثون أحياناً بالشئ يكون حقاً .

فقال رسول الله " ﷺ " : ( تلك الكلمة من الحق يخطئها الجني ، فيقرئنا في أذن وليلة

فر الرجاجة ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة <sup>(١)</sup> .

ويروى البخاري بسنده عن عائشة " رضي الله عنها " قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن الملائكة تنزل في العنان — السحاب — فتذكر الأمر نفي في السماء ، فتسترق الشياطين السمع ، فتوحيه إل الكهان فيتحدثون به <sup>(٢)</sup> .  
و هذا الطريق علم الكهان خير مبعث محمد ﷺ " فتحدثوا بها أناس ..

ومن أفعال الكهان ما قاتله خطر بن مالك وهو أعلم كهان العرب : قال :

أرى لقومي ما أرى لنفسى أن يتبعوا خير بني الإنس

مرهاته مثل شعاع الشمس يبعث في مكة دار الحسن

بحكم التنزيل غير اللبس

فقال له : يا حطر ، ومن هو ؟

فقال : واخباة والعيش ، إنه لم قريش ، ما في حلمه طيش ، ولا في خلقه هيش .  
يكون في هيش : وأى هيش ! من آل قحطان وال أبش .

فقال له : من لنا : من أي قريش هو ؟

فقال : والبيت ذي الدعائم ، والركن والأحاطم ، إنه لم نحل هاشم ، من معشر أكرام  
يبت بالملاحم ، وقتل كل ظالم .

ثم قال : هذا هو الياف ، أخبرني به رئيس الجان ، ثم قال : الله أكبر ، جاء الجن وظهور ، وانقطع عن الجن الخير ثم سكوت وأغمي عليه ، فما أفاق إلا بعد ثلاثة <sup>(٣)</sup> .

— يقول عبد الله بن كعب : سمعت عمر بن الخطاب يحدث الناس ويقول :

والله إني أجد وثن من أوثان الجاهلية ، في نفر من قريش ، قد دبح له رجل من العرب  
عجلاً ، فحين ينظر قسمه ، ليقسم لنا منه ، إذ سمعت من جوف العبد —

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري — كتاب الطب — باب الكهانة ج ٧ ص ٢٠٨ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب بدء الخلق ج ٤ ص ٧٩ .

<sup>(٣)</sup> تاريخ الأندلس ج ١ ص ٢٢٠ ، ٢٤١ .

صوتاً ما سمعت صوتاً قط أفد منه . وذلك قبيل الإسلام بشهر أو شهرين ،

يا ذريح أمر ذريح ، رجل بصيح ، يقول : لا إله إلا الله (١) .

— ويقول الكاهن " سطيج " لربيعة بن نصر ملك اليمس لما سأله عن

رؤياه قال له الكاهن : رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت أرضي ففتت

فأكلت منها كل ذات حممة ، فقال الملك ما أخطأت بها شيئاً يا سطيج ،

عندك في تأويلها ؟

قال : أحلف ما بين الخرتين من حش . . لتهيطن أرضكم الحيش ، فليملكن

أبين إلي جرش .

فقال الملك : وأبيك يا سطيج ، إن هذا لنا لغائظ موجه ، فمتي هو كائن ؟ أو

أم بعده ؟

قال : لا ، بل بعده بخين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، بمضين من السنين .

قال : أيدوم ذلك في ملكهم أم ينقطع ؟

قال : لا ، بل ينقطع لبضع وسبع من السنين ، ثم يفتنون ويخرجون منها هاربين

قال : ومن يلي ذلك من أمر قتلهم وإحراجهم ؟

قال : يليه إرم ذو يزن ، يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك منهم أحداً باليمن !

قال : أيدوم ذلك من سلطانه أم ينقطع !

قال : بل ينقطع ؟

قال : من يقطعه ؟

قال : نبي زكي ، يأتيه الوحي من قبل العلى !

قال : ومن هذا النبي ؟

قال : رجل من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه إلى

الندهر .

قال : وهل للندهر من آخر ؟

قال : نعم ، يوم تجمع فيه الأولون والآخرين ، يسعد فيه الحسنون ، ويشقى فيه

المسيئون .

قال : الحق ما تخبرني ؟

قال : نعم ، والشفق والغسق ، والفلق إذا اتسق ، إن ما أتيتك به لحق ! <sup>(١)</sup> .

— وسأل ربيعة بن نصر كاهناً آخر هو " شق " فأجابه مثل ما أجاب سطيح . .

— ويروي التويري في نهاية الإرب أن سفيان بن محاشم بن دارم احتل

دوات دماء كانت من قومه ، فخرج يستعين فيها ، فدفع إلى حي من نعيم ، فإذا هم

يتمنون إلى كاهنه تقول : العزيز من والآه ، والذليل من نخالاه ، والموفور من ماله ،

والفقر من عاداه . .

قال سفيان : من تذكرين . . لله أبوك ؟

فقال : صاحب حل وحرم ، وهدى وعلم ، ويطش وحلم ، وحر وسلم ، رأس

رعوس ، ورانص يسوس ، وماحي بوس ، وماهد وعوس . .

قال سفيان : من هو ؟ . . لله أبوك ؟

قال : نبي مؤيد ، قد أنحن يوجد ، ودعا أوان يولد ، يبعث إلى الأحمر والأسود

كتاب لا يقبل اسمه محمد .

قال سفيان : لله أبوك ! أعربي هو أم عجمي ؟

فالت : أما والسماء ذات العنان ، والشجر ذات الأفنان ، إنه لمن معد بن عدنان ،

فقدك يا سفيان <sup>(٢)</sup> .

(١) من محمد " بنك " ص ٢١٨ .

(٢) فراجع السقمي ص ٢٢١ — ٢٢٢ ، عوس أي المؤنس ، والوعوس أي الضعف .

إن أخبار الكهان تشبه أنباء الأخبار والرهبان في أنها جميعاً تدخل في صنف  
المبهمات الخسبة التي تسبق الأمور الهامة ، لتتوقف العقول لهذا الجديد القادم .  
إنها ليست دعوة إلى دين الله ، وليست تكليفاً بشريعة ، ولكنها مقدمة  
له شأنه، ينبه الأفهام ، ويوقظ العقول ، وقد فطر الله الناس على أن عظماء الأمور تسبق  
بشمهيد يتشبه إليهم ، ويغذب الأفهام نحوها .

وقد عرفنا الله تعالى بما كانت تقوم به الجن من استماع حديث الملائكة  
وحديث الله عنهم حيث يقول تعالى : ﴿ وَأَنَا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقْعِدًا لِّلسَّمْعِ ﴾<sup>(١)</sup>  
وذلك حين كان يمكن للجن أن يجلس في السماء في مكان يسمع فيه ، وفيما هم  
الحال ، وتبدل ونظرت الجن إلى السماء التي كانوا يتحركون خلالها لتتصتت  
والاستماع ، فلا عائق ، أو مانع ، فوجدوها على غير ما كانت عليها ، يصور الله  
ذلك فيقول سبحانه : ﴿ وَأَنَا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتَأَتٍ حَرَسًا شَدِيدًا وَكُنَّا  
﴿ ٢٧٨ ﴾ لقد امتلأت السماء بالحرس القوي من الملائكة تجمع الجن من الإقتراب .  
أقرب أحدهم يرمي بالشهب المتهمة .

وقد كان الجن يتحایل في الاستماع ، حيث كانوا يجلسون واحداً فوق الآخر  
فإذا احترق الأعني طلع الذي تحته ، حتى يتمكنوا من استماع شيء ، فإذا ما استمعوا  
كلمة ألقوها إلى الكهان أشياعهم ليتحدثوا بها مع إضافة مائة كلمة إلى الكلمة  
الواحدة المسروقة<sup>(٢)</sup> .

فلما كانت بعثة محمد ﷺ " منع الجن من الاستراق : يقول الله تعالى عن  
لسان الجن : ﴿ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ حَيْثُ لَهُ شَيْئًا رَّصَدًا ﴾<sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة الجن آية ( ٩ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الجن آية ( ٨ ) .

<sup>(٣)</sup> فتح الباري - كتاب التفسير - باب من أوحى إلى ج ٨ من ٦٧١

الحديث مقدمة ضرورية لأمر ضروري يقع وقالوا عن ذلك ﴿ وَأَنَا لَا تَدْرِي أَشَرُّ  
إِلَيْهِ بَنِي فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا ﴾ (١) إلهم لم يحددوا ما سيحدث للناس ،  
ولكنهم أكدوا حطو رتبته وأهميته .

وإذا رأت قريش الشهب في السماء توقعوا أمراً جليلاً حتى تصوره الفناء ،  
يقول أبي س كعب : رأيت قريش أمراً لم تكن تراه فجعلوا يسيرون أنعامهم ، ويعتقون  
أزواجهم ، يظنون أنه الفناء ، وفعلت ثقيف مثل ذلك .

فبلغ عبد بنيل فقال : لا تعجلوا ، وانظروا ، فإن تكن نجوماً تعرف فهو عند فناء  
الناس ، وإن كانت نجوماً لا تعرف ، فهو عند أمر قد حدث .

ففتروا فإذا هي لا تعرف فأخبروه فقال : هذا عند ظهور نبي .

فما مكثوا إلا يسيراً حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال : ظهر محمد  
ابن عبد الله يدعى أنه نبي مرسل .

فقال عبد بنيل : فعند ذلك رمي بها (٢) .

يروى ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال لهم : ما كنتم تقولون في هذا

الحجم الذي يرمي به في الجاهلية ؟

قالوا : يا نبي الله كنا نقول حين رأيناها يرمي بها : مات ملك ، ملك ملك ، ولد  
مولود ، مات مولود .

فقال رسول الله ﷺ : ليس ذلك كذلك ، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا  
قضى في خلقه أمراً سمعه حملة العرش ، فسبحوا فسبح من تحتهم لتسبحهم ، فسبح  
من تحت ذلك ، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا .

ثم يقول بعضهم لبعض : مم سبحتم ؟

فيقولون : سبح من فوقنا فسبحنا لتسبحهم .

فيقولون : ألا تسألون من فوقكم من سيحوا ؟

فيقولون مثل ذلك حتي ينتهوا إلى حملة العرش فيقال لهم : من سيستم ؟

فيقولون : قضى الله تعالى في خلقه كذا ، وكذا ، لأمر الذي كان فيهبط به الجحش من سماء إلى سماء حتي ينتهي إلى السساء الدنيا ، فيتحدثون به ، فتسرقه الشياطين بالنسبة علي توهم ، واحتلاف ، ثم يأتون به الكهان فيحدثونهم فيخطئون بعداً ، ثم يأتون تعالى حجب الشياطين هذه الحجوم التي يقدسون بها ، فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة<sup>(١)</sup>.

### وهكذا ..

كثرت البشائر : والمنبهات مقدمة لبعثة محمد ﷺ وإرسال بدين الله تعالى للبشر أجمعين . .

\*\*\*

<sup>(١)</sup> صريح مسلم . . كتاب السلام — باب نحر الكهانة ج ٢ رقم ١٧٥٠ ، ١٧٥١



## • رابعاً •

## تكميل شخصية

## محمد " ﷺ "

نشرح الموضع محمد " ﷺ " من الأربعين <sup>(١)</sup> ، تكاملت شخصيته في كونه  
جوانبها البشرية ، فوصل إلى التمام في سمورته ، وحكمته ، وعقله ، وروحه ، ودانته  
بفضل الله ، وعانيته .

بن الدعوة تكليفه إلهي ، يصنع الله خاتماً لرجال من خلفه . علي نحو يريد  
سبحانه ونهالي ، ويوحى إليهم ، وبذلك توجد النبوة في النبي ، وتتلاقى الرسالة  
والرسول في إنسانهم ، وتناغم ، وتوازن .

إن النبي حسنة إلهية ، يقول الله عن موسى " ﷺ " : ﴿ وَأَصْطَلَعْتَكَ

لنفسى ﴾ <sup>(٢)</sup> ، ويقول سبحانه علي لسان عيسى : ﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي

لَكُتُبَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴾ <sup>(٣)</sup> ، وهكذا الأنبياء جميعاً في تكويتهم ، وتشتيتهم ،  
وحياهم ، حيث بلغهم جميعاً محاطين بالرعاية ، والعناية ، لخصهم بخوارق العادات التي  
تمثل جزءاً من حياتهم وشاغلهم قبل النبوة .

هذه هي بعض من الناس حيث يقفون أمام الإلهامات ، والمبشرات موفين  
الإنكار ، والدمية ، لأنها خوارق للعادة حرت قبل البعثة ، ويسلمون بخوارق العادات  
بعد النبوة لأنها معجزة تصدق الرسول في نبوته .

وهذه من الآخر من الناس ينكر هذه المبشرات لخروجها عن مألوف عقولهم .

ومعاً صحتها فيصور انهم ليكونوا الحياة .

<sup>(١)</sup> شرح الأربعين عن مخرج السلم ج ١ ص ٩٩ .

<sup>(٢)</sup> سورة القصص ( ٢٨ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة القصص ( ٢٨ ) .

والواجب أن يدرك الجميع أن عوارق العادات تليط الرسول قبل بعثه وقبل مولده ، كما تكون معه بعد مبعثه ، لأنها جميعاً من الله ، ولكل منها دور ودوره .

والخارق للعادة مطلقاً لا دخل للعقل فيه ، فما زال فريق من الناس يصر بالاعتراض ، ويكفر ببعض الآخر .

إن العقل عاجز لا يمكنه تغيير مسار الأمور العادية القدرية كحركة الأقدار وتكوين الجنين ... وغيرها ، والعقل حين يعجز عليه أن يسلم بما يرى . هذا في الأمور العادية . . .

وواجب أن يكون التسليم في كل قدر الله وبخاصة ما جاء خارقاً للعادة مطلقاً .

لقد أحاطت عناية الله محمداً ﷺ " من كافة النواحي ، من ناحية نشأته وحمل أمه به ، وإرضاعه ، ونشاطه ، ورحلاته ، وقد سبق ذكر عموم هذه العناية التي أثرت شخصية متكاملة في واحد من الناس يريد الله له أن يكون رسولا نبياً . وقد تحلى هذا الكمال البشري في شخصية محمد ﷺ " قبل مبعثه .  
الجواب التالية : —

### ١ - سمو السلوك :

عاش محمد ﷺ " حياته كلها في أعمال فاضلة ، وسلوك سليم ، ولم يترك عنه ريبة قط ، بل كان في كل حالته ، وأحواله رجلاً فاضلاً ، ممتازاً ، حتى عرفته في مكة بحسن العمل ، وسمو السلوك .

ومع خروج النبي ﷺ " إلى مجتمع مكة ، واحتلاطه بشاها ، وتعامده مع رجالها كانت عناية الله معه ، فصار رجلاً أفضل قومه مروءة ، وأحسبهم خلفاً ، وأكرمهم حسباً ، وأحبهم جواراً ، وأعظمهم حمداً ، وأصدقهم حديثاً ، وأكرمهم أملاً .

وأبغضهم من الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال . ما رثي ملاحياً ولا تمارياً أحداً ، حتى عرفه فومه بالأمس ، الصادق ، لما جمع الله فيه من الأمور الصالحة .

صرف الله عنه كل ما يسعى ، ويشين ، فعن علي بن أبي طالب " عليه السلام " عنه قال : ( سمعت رسول الله " ﷺ " يقول : ما هممت بشئ مما كان أهل الجاهلية يهيمون به من الغناء إلا ليلتين ، كلتا هما عصمني الله منهما ، قلت ليلة لبعض فتيان مكة . ونحن في رعاية غنم أهلنا ، هيا بنا تسمر كما يسمر الشباب ، وقلت لصاحبي : أبصر لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر بها كما يسمر الفتيان .

فقال : بلى ، فدخلت حتى إذا جئت أول دار من دور مكة ، سمعت عزفاً ، وغواييل ، ونزاعيم .

قلت : ما هذا ؟

فيس : تزوج فلان فلانة ، فجلست أنظر ، وضرب الله علي أذني ، فـوالله ما أبغطني إلا مس الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت ؟

فقلت : ما فعلت شيئاً ثم أخبرته بالذي رأيت .

ثم قلت له لسبيلة أخوي : أبصر لي غنمي حتى أسمر بمكة ، ففعل فدخلت ، فلما جئت مكة سمعت مثل الذي سمعت تلك الليلة فجلست أنظر ، وضرب الله علي

أذني فوالله ما أبغطني إلا مس الشمس

فرجعت إلى صاحبي فقال : ما فعلت .

فقلت : لا شيء ، ثم أخبرته بالذي رأيت .

فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشئ من ذلك حتى أكرمني الله بنبوته ( ١ ) .

<sup>(١)</sup> السيرة النبوية لابن كثير ج ١ ص ٢٥١ .

وعن أم أيمن " رضي الله عنها " قالت : ( كان بوانة حينما يحضره قريش يوماً في السنة ، فكان أبو طالب يحضره مع قومه ، وكان يكلمهم رسول الله ﷺ أن يحضر ذلك معه ، فيأبي حتى رأيت أبا طالب غضب عليه ، ورأيت عماته عليه وعلى رقلن : يا محمد ما تريد أن تحضر نقومك عيداً ، ولا تكثر لهم جمعاً ، فلم يزالوا به حتى ذهب ، فغاب ما شاء الله ، ثم رجع مرعوباً ، فزعاً .

فقلت عماته : ما دهالك ؟

قال : إني أخشي أن يكون بي لم

فقلن : ما كان الله يبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك ، فيما الذي رأيت ؟

قال : إني كلما دعوت من صنم منها تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح لي : ورائك يا محمد لا تمسه .

قالت : فما عاد إلى عيد لهم ( ١ ) .

وعن علي " رضي الله عنه " قال : ( قيل لنبي " ﷺ " : هل عبدت وثاقط ؟ .

قال : لا .

قالوا : فهل شربت خمرأ قط ؟

قال : لا ، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر ، وما كنت أدري ما الكهان ولا الإيمان .. ( ٢ ) .

يقول ابن إسحاق : وكان رسول الله " ﷺ " — فيما ذكر لي — يحدث

عمن كان يحفظه الله به في صغره ، وأمر جاهليته ، أنه قال : لقد رأيتني في غلمان قريش ننقل حجارة لبعض ما يلعب به الغلمان ، كلنا قد تعري ، وأخذ إزاراً

( ١ ) الخصائص الكبرى ج ١ ص ٢٢١ .

( ٢ ) دلائل النبوة لأبي نعيم ص ١٤٦ .

فجعلته على رقبتة ، يحمل عليه الحجارة ، فإني لأقبل معهم كذلك ، وأدبر ، إذ لكمي لاكم نكمة وجيعة ، ثم قال : شد عليك إزارك .

فأخذته وشدته على ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبي وإزاري على من بين أصحالي .

يقول السهيلي : ورد مثل هذا الحديث الصحيح في بيان الكعبة ، وفيه أن رسول الله " ﷺ " كان ينقل الحجارة مع قومه ، وكانوا يحملون أروهم على عواتقهم لنفسيهم فسوء الحجارة ، وكان رسول الله " ﷺ " يحملها على عاتقه ، وإزاره مشدود عليه ، فقال له العباس " ﷺ " : يا ابن أخي لو جعلت إزارك على عتقك ، ففعل فسقط معتبياً عليه ، ثم قال إزاري ، إزاري ، فشدد عليه إزاره ، وقام يحمل الحجارة <sup>(١)</sup> . ولا مانع من تكرار هذا التوجيه القدرى ليقى محمد " ﷺ " في طهارته وسموه .

بروي ابن سعد أن رسول الله " ﷺ " كان يتحاكم إليه في الجاهلية قبل الإسلام لما عرف عنه من العقل ، والحكمة ، ولذلك لما بعث ناداهم ، وسأهم عن حقه ، وصدقه ، فأقروا له بما علموا منه .

بروي البخاري بسنده عن ابن عباس " رضي الله عنهما " قال : ( لما نزلت ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> ، خرج رسول الله " ﷺ " حني صعد الصفا فهتف : يا صباحاه .

فقالوا : من هذا ؟ فاجتمعوا إليه .

فقال : أوأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سفح هذا الجبل أكنتم مصدقي ؟ فأنوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال : فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

قال أبو طيب : تباً لك ، ما جمعنا إلا لهذا ؟ <sup>(٣)</sup> .

<sup>١</sup> سورة النجم لاسيما ج ١ ص ١٨٣

<sup>٢</sup> سورة النجم ، آية ٢١٤ . <sup>٣</sup> صحيح البخاري بشرح فتح الباري — كتاب التفسير — باب تمت هذا ج ٨ ص ١٣٧

ولقد اشتهر رسول الله ﷺ " قبل مبعثه بالأخلاق الكريمة ، وشتت بالصفات  
الفاضلة ، وجاء قول الله تعالى في وصف خلقه : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝ ﴾<sup>(١)</sup>  
لتصف أخلاقه بالعظمة التي اتصف بها بصورة شاملة قبل المبعث ، حتى سماه قوم  
بالأمين ، ووصفته السيدة خديجة بما كان فيه يوم أن جاءها مرتعاً . حائفاً ، قالت  
له : والله لا يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعروف  
، وتقري الضيف ، وتعين علي نوائب الحق<sup>(٢)</sup> .

وصدقت السيدة " رضي الله عنها " في شهادتها ، وطلعت بالحق ، وكانت  
تعبيراً ناطقاً عن المستقل ، إذ أكرم الله محمداً ﷺ ، واختاره رسولا للعالم كله .

## ٢ - جمال الخلقة :

أضفى الله تعالى بفضله ، وكرمه علي رسوله محمد ﷺ " الحسن والجمال  
الذي تميز به قبل النبوة . . . وحين نورد شيئاً من جمال خلقه ﷺ " فليس أماناً  
مصادر السيرة ، والحديث نقل عنها .

يروى البخاري بسنده عن أبي هريرة أنه قال : ( كان النبي ﷺ " أحسن  
الناس وجهاً ، حتى قال أنس " ﷺ " : لم أر بعده ولا قبله مثله )<sup>(٣)</sup> .  
ولما سئل " البراء " ﷺ : أكان وجه النبي ﷺ " مثل السيف ؟  
قال : لا ، بل مثل القمر ، وكان مستديراً ، وورد أنه كان " ﷺ " مليح الوجه<sup>(٤)</sup>  
وكان عظيم الفم ، طويل شق العين<sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة الدلم أية ( ٤ ) .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب المناقب .

<sup>(٣)</sup> البخاري ٥٨٧٧ . كتاب الناس — باب المحدث ، ومسلم ٥١٩٠٩ . كتاب الفضائل . باب من سمع النبي ﷺ " .

<sup>(٤)</sup> صحيح البخاري — كتاب الفضائل — باب كان النبي ﷺ " أحسن مليح الوجه . ج ٦ من ٢٨ .

<sup>(٥)</sup> صحيح البخاري — كتاب الفضائل . — باب صفة فم النبي ﷺ " وعينه وعقبه . ج ٦ من ٢٨ .

أما شعره فليس بالجعد القَطَط ، ولا بالنسب ، بل كان رجلاً <sup>(١)</sup> .  
 كان له جهة عظيمة تصل إلى شحمة أذنيه وأحياناً تضرب منكبيه وأحياناً  
 ثلاثة تكون بين أذنيه وعاتقه ، كما كان " عنه " كثير شعر اللحية <sup>(٢)</sup> .  
 وإذا كان البياض في شعره قد شمل العنفة ، والصدغين ، وفي الرأس نبت ، فلم  
 يكن ذلك البياض كله يبلغ عشرين شعرة <sup>(٣)</sup> .  
 أما الحمرة في بعض شعره فكانت من آثار الطيب <sup>(٤)</sup> .  
 وكان أبيض اللون ، ولكنه لم يكن بالأبيض الأمهق ، ولا بالأدم ، وإنما كان أزهر اللون <sup>(٥)</sup> .  
 ولم يكن " عنه " بالملطويل البائن ، ولا بالقصير ، بل كان مربعاً ، وكان مقصداً <sup>(٦)</sup> .  
 وكان " عنه " بعيد ما بين المنكبين ، وكان ضخم اليدين والقدمين ، وبسط  
 الكفين ، وكان لين الكف ، حتى قال أنس : ما مسست حنوة ولا حريرة ألين

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ من ١٩١ . ومسلم ج ١٥ من ٩٢ ، كتاب المغاسل  
 — باب في جعد الرأس " عنه " وصحته سنة ، ومعنى ( رجل ) أي لم يكن شديد المعردة ، ولا اليسوفة ، بل بينهما  
 وبالصحيح ج ٢٣ من ٢٠٣ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ من ١٩١ رواية البراء ، وابن عمر ، وأنس " ومنه الله  
 عموماً " . وصحيح مسلم ج ١٥ من ٩٢ — كتاب المغاسل .

<sup>(٣)</sup> صحيح مسلم ج ١٥ من ٩٦ ، ٩٥ . باب شبة " عنه " ، صحيح البخاري — كتاب المغاسل — باب صبغة  
 شمس " عنه " ج ٢١ من ٢٦ — باب الأوقاف ، العنفة : هي ما تحت الشعبة شملي .

<sup>(٤)</sup> صحيح البخاري ج ٩ من ٢٧ — باب الأوقاف .

<sup>(٥)</sup> صحيح البخاري — كتاب اللباس — باب الجعد ج ٩ من ١٩٠ .

<sup>(٦)</sup> الصحيح مسلم ج ١٥ من ١٩٠ ، ١٩١ ، فإن في النهاية : كان أبيض مقصداً ، هو الذي ليس بطويل ، ولا قصير ،  
 ولا حسيب ، ولا سكر حلقه يعني لا يقصر من الأمور ، والمعتدل الذي لا يحيل إلى أحد طرفي الشريعة والإمام  
 الحنفية في باب الحبيبات والآثار ج ٤ من ٦٧ .









## ٢. عظمة الخلق :

كما أنصف " ﷺ " بجمال الخلقة أنصف بعظمة الخلق ، يصفه أنس بن مالك " ﷺ " ويقول : خدمت النبي " ﷺ " عشر سنين فما قال لي : أف قط ١ ! ولا لم صنعت كذا ؟ ، ولا ألا صنعت كذا ؟ (١) .

وهذه الخدمة والملازمة من أنس لنبي " ﷺ " لم تكن في الخضر وحده ، أو في السفر وحده ، وإنما كانت — كما يقول أنس — في الخضر والسفر (٢) . ولم يكن هذا الخلق الحسن قصراً عبي خدمه ، وإنما كان هذا ديدنه مع كل من كان يأتي إليه ، ويتعامل معه ، فكان مثلاً للنصير ، والحلم ، والرفق ، والتعليم ، وبخايل ، وهذه غداج منها : —

عن أنس قال : كنت أمشي مع النبي " ﷺ " وعليه برد أعرابي غليظ الحاشية فأدركه أعرابي ، فجذبه بردائه جذبة شديدة ، قال أنس : فنظرت إلى صفحة عاتق النبي " ﷺ " ، قد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبه ، ثم قال : يا محمد ، مر لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه فضحكت ، ثم أمر له بعطاء ١ ! (٣) .

وجاء أعرابي ، ورسول الله " ﷺ " وأصحابه في المسجد ، فقسام يقول في المسجد . فزجره الصحابة ( مه مه ) فنهأهم عن ذلك ، وقال : ( لا ترموه ، دعوه ) فمكروه حتى بال .

ثم دعاه النبي " ﷺ " ، فقال له : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من هذا البول ، ولا الخمر ، إنما هي للذكر الله عز وجل ، والصلاة ، وقراءة القرآن ، ثم دحبا بملو من ماء فحشاه حنيه (٤) .

(١) صحيح مسلم — كتاب المصالح — باب حسن الخلق والسياسة ج ١ ص ٦٩ .

(٢) صحيح مسلم — كتاب المصالح — باب حسن الخلقة " ﷺ " ج ١ ص ٧٠ .

(٣) صحيح البخاري — كتاب غرض الحسن — باب ما كان النبي " ﷺ " يعطي المؤلفة فلوهم وغيرهم من الحسن ج ٥ ص ٢٢٤ .

(٤) صحيح مسلم — كتاب الطهارة — باب وضوء غسل الثوب وغيره من التجهيزات إذا حدثت في المسجد ج ٢ ص ١٦١ .

اسم من تعي دبه ، لا ترموه : أي لا تطعوه ، وهذا أثر — .

وحسبنا في إحدى روايات البخاري في آخرها : ( .. فإنما بعثتم ميسرين )<sup>(١)</sup> .

وعن أنس قال : كان رسول الله " ﷺ " من أحسن الناس خلقاً فأرسلني يوم الحاجة ، فقلت : والله لا أذهب ، وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به من الله " ﷻ " فخرجت من طريق حتى أمرت علي صبيان وهم يلعبون في السوق ، فإذا رسول الله " ﷺ " قد قبض بقفاي من ورائي ، فنظرت إليه وهو يضحك . فقال : يا أنيس ! أذهبت حيث أمرتك ؟ . قلت : نعم أنا أذهب يا رسول الله " ﷺ " .

وهذا الصبر والرفق يرينه التواضع في خلقه ، والمزاج — أحياناً — مع أصحابه ، فالأمة من إماء المدينة كانت تأخذ بيد النبي " ﷺ " ، فتطش به حيث شاءت<sup>(٢)</sup> ، والقاصد إليه في بيته لا يجد على بابه نوابين<sup>(٣)</sup> .

أما مزاحه " ﷺ " : فكان تسرية لأصحابه عند همومهم أحياناً ، ومداخلة لأطفالهم أحياناً أخرى ، إلى غير ذلك من مقاصده الحميدة في هذا المزاج ، ونذكر من كسائل علي ذلك موقفه مع علي — " ﷺ " حينما عاضب زوجته فاطمة " رضي الله عنها " فخرج علي " ﷺ " قاضطجع إلى حدار المسجد ، ف تبعه النبي " ﷺ " ، فإذا هو مضطجع ، وقد امتلأ ظهره تراباً ، فجعل النبي " ﷺ " يمسح التراب عن ظهره ، ويقول : ( اجلس يا أبا تراب )<sup>(٤)</sup> .

ويقول أنس " ﷺ " : إن كان النبي " ﷺ " ليخاطبنا حتى يقول لأخ صغير

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري — كتاب الوضوء — باب صب الماء على البول في المسجد ج ١ ص ١٦٤ .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم — كتاب المناقب — باب حسن خلقه " ﷺ " ج ١ ص ٧٠ ، ٧١ .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب الكبر ج ٩ ص ٢٤٣ .

<sup>(٤)</sup> صحيح البخاري — كتاب الأحكام — باب ما ذكر أن النبي " ﷺ " لم يكن له نواب .

<sup>(٥)</sup> البخاري — كتاب الأدب — باب الشكي بأبي تراب ، وإن كانت له كنية أخرى ج ١ ص ٣٨ .

في إداراه : ( يا أبا عمير : ما فعل النغير ؟ ) <sup>(١)</sup> .

وإن جانب صفاته في الرفق : والتواضع ، والمزاح ، فهو موصوف بالشجاعة في السلم والحرب ، وشجاعته " ﷺ " في الحرب معروفة ، أما في السلم فذكر منها قصة الفتح الذي أصاب أهل المدينة ذات ليلة ، فخرجوا نحو الصوت فإذا رسول الله " ﷺ " فد سبغهم إليه ، وتلقاهم راجعاً ، وهو على فرس أبي طلحة عري ، وفي عنقه السيف ، وهو يهذي ثائرهم ويقول : ( لم تراعوا ، لم تراعوا ما رأينا من شيء ) <sup>(٢)</sup> .  
وكان من خلقه " ﷺ " حسن التعامل ، وحسن القضاء ، فقد استقرض من رجل سناً من الإبل ، فجاءه يتقاضاه ، فقال : ( أعطوه ) ، فطلبوا منه ، فلم يجدها له إلا سناً جوفها ، فقال : ( أعطوه ) ، حي قال الرجل : أوفيتني أوتي الله منك ، ثم قال " ﷺ " : ( إن خياركم أحسنكم قضاء ) <sup>(٣)</sup> .

وفي رواية : إن ذلك لرجل أغلظ للنبي " ﷺ " القول : فهم به أصحابه فقال لهم : ( إن لأصحاب الحق مقالاً ) ، ثم قال لهم : ( اشترُوا له سناً ، فأعطوه إياه فقالوا : إنا لا نجد إلا سناً هو خير من سته ، قال : ( اشتروه وأعطوه إياه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء ) <sup>(٤)</sup> .

**وصفي صفاته :** الجود ، والكرم ، فهو أجود الناس <sup>(٥)</sup> ، وما مثل رسول الله " ﷺ " شيئاً قط ، فقال لا <sup>(٦)</sup> ، ولهذا غضب الصحابة " رضوان الله عليهم " من ذلك الرجل الذي طلب من النبي " ﷺ " أن يكسوه البردة التي أهدتها إليه امرأة

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب الانسياط إلى الناس — وباب الكفة للنبي ، وفيه أن يولد ثم يجلح . ج ١ ص ٢٩٦ . والغير : تصغير ، وهو طائر صغير كالغصنور .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب الجهاد والسير — باب الحمايل وتعلق النبي ، ص ٩٩ .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخاري — كتاب الوكالة — باب وكالة الشاهد والغائب ج ٤ ص ١٤٠ .

<sup>(٤)</sup> صحيح البخاري — كتاب الاستقراض — باب لصاحب الحق مقال ج ٤ ص ٦٠٠ .

<sup>(٥)</sup> صحيح البخاري — كتاب الوحي — باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله " ﷺ " ج ١ ص ١١٠ .

<sup>(٦)</sup> صحيح البخاري ج ٤ ص ٢٩ .

وكانت قد نسجتها بيدها ، وكان " ﷺ " محتاجاً إليها ، ومع ذلك طواها وأرسلها إليه ، فقال له الصحابة : ما أحسنت ، سألتها إياه ، وقد علمت أنه لا يرد سائلاً (١) . وهذه الجود والكرم منه " ﷺ " كان سبباً في دخول أقوام في دين الله ، ومن ذلك :

قصة مع الرجل الذي جاءه يسأله ، فأعطاه غنماً بين جبلي ، فرجع إلى قومه فقال : يا قوم ، أسلموا ، فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر (٢) .

ولهذا قال أنس : إن كان الرجل ليسلم ما يريد إلا الدنيا ، فما يستلم حتى يكون الإسلام أحب إليه من الدنيا وما عليها ! ! (٣) .

بل لقد كان هذا الجود منه " ﷺ " مثار عجب ، وسبب مودة ، وخير لأعدائه ، يقول صفوان بن أمية بعد أن أعطاه النبي " ﷺ " مائة من النعم ، ثم مائة من غنائم حنين : والله لقد أعطاني رسول الله " ﷺ " ما أعطاني ، وإنه لأبغض الناس إلي ، فما برح يعطيني ، حتى إنه لأحب الناس إلي ! ! (٤) .

ولفرط جوده " ﷺ " ، ومعرفة الناس به علفت الأعراب — متصرفين — حسنين — يسألونه حتى اضطروه إلى سمره فخطفت ردائه ، فوقف وقال : ( أعطوني ردائي ، فلو كان عدد هذه العضاة نعماً لقسمته بينكم ، ثم لا تشكروني بخيلاً ، ولا كذوباً ، ولا جباناً ) (٥) .

وقال عمر " رضه " : قسم رسول الله " ﷺ " فسمياً ، فقلت : والله يا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منهم ، قال : ( إهم خيروني أن يسألوني بالفحش ، أو يخلوني ، فليست بياخل ) (٦) .

(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب ذكر النساء ج ٤ ص ٢٩ .

(٢) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب في صحابه " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٢ .

(٣) صحيح مسلم — كتاب الفضائل ج ١٥ ص ٧٢ .

(٤) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب سماته " ﷺ " ج ١٥ ص ٧٣ .

(٥) صحيح البخاري كتاب الجهاد — باب ما كان يعطي المؤلفة ج ٥ ص ٢٣٤ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب الزكاة — باب إعطاء المؤلفة ج ٧ ص ١٤٦ .

و لم يقصّر ذلك الخود على المؤلفات قلوبهم : ومن يطمع في إسلامهم ، ان عمل  
 حدوده ، كرمه صحابته المؤمنين ، فعبد الله بن عمر " ﷺ " كان مع النبي " ﷺ " في  
 عمر ، و كان على بكر صعب لأبيه ( عمر ) ، و كان هذا النكر يغلب عبد الله ،  
 فيقدم أمام القوم ، فيزجره عمر ، ويرده ، ثم يتقدم فيزجره عمر ، ويرده ، فقال النبي  
 " ﷺ " لعمر : ( يعنيه ) ، فقال : هو لك يا رسول الله ( أى هبة ) ، قال رسول الله  
 " ﷺ " : بعته ، فباعه من رسول الله " ﷺ " ، فقال " ﷺ " : ( هو لك يا عبد الله بن  
 عمر - تصنع به ما شئت ) ! ! (١) .

و جابر بن عبد الله " ﷺ " يكون مع النبي " ﷺ " في غزاة ن ومعه حمل فقال  
 يا أبا به ، و خلفه في أخريات القوم ، حتى زجره النبي " ﷺ " ، وأمر به ، فطأه ،  
 من بعد عليه فقال : هو لك يا رسول الله ، قال : ( يعنيه ) فاشتراه منه ، وقال  
 : ( لك ظهره إلى المدينة ) ، فلما قدم المدينة أوصى بلالاً أن يقضيه ، ويزيد له عن  
 ثمنه ، ثم رد عليه جملة والثلث ! ! (٢) .

و فوق ما تقدم من كريم خلقه " ﷺ " : قلم يكن بفظ ، ولا غليظ ،  
 ولا سحاب بالأسواق ، ولا يدفع السيئة بالسيئة ، ولكن يعفو . ويصفح (٣) .  
 و لم يكن " ﷺ " سباباً ، ولا فحاشاً ، ولا لعاناً (٤) ، وهو القائل لعائشة  
 'رضي الله عنها' : ( يا عائشة ، متى عهدتني فحاشاً ) ؟ ! (٥) .

وهو الموصوف بالتوراة ببعض صفته في القرآن : ( يا أيها النبي إنا أرسلناك  
 شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وحرزاً للأميين ، أنت عبدي ورسولي ، سميتك المتوكل —

(١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب إذا اشترى شيئاً فوهب من ساعته قبل أن يبيع قال — ج ٤ ص ٤١ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب شراء الثوب والخمر ج ٤ ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٣) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب كراهة السحب في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(٤) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب لم يكن النبي " ﷺ " فاحشاً ولا متفحشاً ج ٩ ص ٢٢٨ .

(٥) صحيح البخاري — كتاب الأدب — باب لم يكن فاحشاً — ج ٩ ص ٢٢٨ .

ليس بنظ ولا غليظ .. (١١) .

وكان الصديق في الحديث خلقاً من أخلافه " عليه السلام " ، عرفه بذلك العبد والصديق ، فأمية بن حنبل حينما قال له سعد بن معاذ : سمعت محمداً يزعم أنك فأتلك .

قال : إياي ؟

قال : نعم .

قال : والله ما يكذب محمد إذا حدث .

وكذا روجة أمية لما أعتقها بالخير قالت : فوالله ما يكذب محمد ! ! (١٢) .

وأبو سفيان لما سأله هرقل : هل كنتم تتهمون به بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أخبره قائلاً : لا ، وعندنا ردّ هرقل ، لم يكن ليذكر الكذب على الناس ، ويكذب على الله (١٣) .

ومشركو قريش كانوا يعرفون هذا الخلق للنبي " عليه السلام " فحينما صعد الصفا

واجتمع إليه الملائكة بطون قريش قال لهم : ( أرايكم لو أخبرتكم أن نبياً بالوادي

تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ) ؟ قالوا : ما جربنا عليك إلا صدقاً (١٤) .

وفي رواية ، قالوا : ما جربنا عليك كذباً (١٥) .

ولم يكن من خلفه " عليه السلام " الغدر والخيانة ، بل كان من حلقه الأمانة والوفاء

بالعهد ، وهذه أيضاً اعترف بها أبو سفيان للنبي " عليه السلام " أمام هرقل (١٦) .

(١١) صحيح البخاري — كتاب البيوع — باب السخف في السوق ج ٤ ص ٤٦ .

(١٢) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب علامات النبوة في الإسلام ج ٦ ص ٦٦ .

(١٣) صحيح البخاري — كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .

(١٤) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب ( وأندز غمير ذلك الأقرين ) ج ٧ ص ٣٦٠ .

(١٥) صحيح البخاري — كتاب التفسير — باب أنت يدا ج ٨ ص ٩٣ .

(١٦) صحيح البخاري — باب بدء الوحي ج ١ ص ١١ .



والسنة راجع النبي " ﷺ " هذا الخلق جعله يرد أما يصور ، وأما جندل عام الحاديية : —  
مع كرهه والمسلمين لذلك — لأنه عاهد قريشا علي رد من يأتي إليهم منهم <sup>(١)</sup> .

### ٤. خلاوة المنطق

تدبر " **يَا أَيُّهَا** " تحسن اللفظ ، وحمل المطلق وحلاوة الحديث ، يقول أبو هانئ  
 كان رسول الله " **يَا أَيُّهَا** " متواصل الأجزاء <sup>(٦٦)</sup> ، دائم الفكرة ، ليست له راحة <sup>(٦٧)</sup>  
 طويلاً السكوت ، لا يشكلم في غير حاجة <sup>(٦٨)</sup> ، يفتح الكلام ويختمه باسم الله تعالى <sup>(٦٩)</sup>  
 ويكلمهم بجمع الكلم <sup>(٧٠)</sup> ، كلامه فصل لا فصول ولا تقصير <sup>(٧١)</sup> ، ليس بخفي ولا  
 انبهي <sup>(٧٢)</sup> ، يعظم النعمة وإن دقت ، لا يذم منها شيئاً ، غير أنه لم يكن يذم ذواقاً ،  
 ولا يذم <sup>(٧٣)</sup> : ولا تعصبه الدنيا ولا ما كان لها ، فإذا تعدى الحق <sup>(٧٤)</sup> لم يقم

المرجع الثاني — كتاب الصلح — باب الصلح مع الخصم كقوله ج ٤ ص ٢٠١

والله اعلم بالصواب : " **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا** " من أعمالهم الفاسدة ، وويلنا كائنات تنوارد الأسماء ، الأسماء متعددة ، ثم جمع إليّ في الله تعالى بالجمع ، على حلق الله تعالى : وويلنا كائنات الأبيات تجل في تسليته " **الْمَلَأَ** " وخصصه بشدة الأسس عند .

"المسلمون : نحن " هؤلاء هم الصالح في أمور الأمة وما يصالح شؤونكم ويصنعهم في الدنيا والآخرة : ومن لم

تجدوا منكم فاعلموا أنكم ميتة"

تبيين : ان الآية تدل على ان كل من لم يزل يخطئ في حياجه دينية او دنيوية ، فيحرق عن الكلام الذي لا ينفعه الله تعالى : عو والذين هم عن الآخرة معرضون ﴿١٠٠﴾ .

“وَأَمَّا بَعْدُ فَإِنَّ خَيْرَ عَمَلٍ بَعْدَ الْإِسْلَامِ الْقِيَامُ بِأَمْرِ الْمَدِينَةِ”

$$- \frac{1}{2} \epsilon_{\mu\nu} \partial_\mu \partial_\nu \phi = \frac{1}{2} \epsilon_{\mu\nu} \partial_\mu \partial_\nu \phi = \frac{1}{2} \epsilon_{\mu\nu} \partial_\mu \partial_\nu \phi = \frac{1}{2} \epsilon_{\mu\nu} \partial_\mu \partial_\nu \phi$$
[illegible]

أقول : هو " **الخيال** " الخافي الغليظ الطبع ، السبي الخلق ، ولا يفتين خلق الله تعالى . ولا يفتون . أي : لا يفتون .

﴿ص ١٠٠﴾ عظم نعم الله تعالى الكثيرة والصعيرة ، الظاهرة والباطنة . ولا ينم منها شيئاً ، كما وأنه لا يحصى .

ذلك المشيئة الطاهرة من "كبرياء الله" لا يحذر خوفًا، لأن ذلك مشيئة ذوي النعمة والنعمة الطاهرة

المراد من تعديلي أحد الحق وحجابه إلى الباطل ، غطيت " **الغيب** " غطاءً لا يخالطه شيء ولا يبدع عنه شيء .

لغضبه شيء حتى يتنصر له ، ولا يخفض لنفسه ، ولا يتنصر لها ، إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تعجب قلبها <sup>(١)</sup> ، وإذا تحدث اتصل بها وضرب راحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى <sup>(٢)</sup> .

وإذا غضب أعرض وأشاح ، وإذا فرح غص طرفه <sup>(٣)</sup> . حل ضحكته التيمم يفتر عن مثل حب الغمام <sup>(٤)</sup> .

**٥٥ كمال العقل** : لما بلغ النبي ﷺ " سن الأربعين تميز بكمال العقل ، وحسن تدبير الأمور ، واتخاذ القرار السديد ، ولعل فيما حباه الله به من عمل ونحوه ، وأحاديث وأحسان ، أثرا في تكامل عقله " ﷺ .

ومما يدل على هذا الكمال قراره يوم بناء الكعبة ، إذ حكم بين اثنين اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود ويضعه في موضعه حكماً أَرْضاهم جميعاً مع ساططه ، ويسره ، ومن رجاحة عقله " ﷺ " أنه تمكن من التعامل مع كافة طبقات الناس وأنواعهم ، وأجناسهم ، في البيئات المختلفة ، فأقروا له جميعاً بكمال عقله ، وبهم خلقه .

<sup>(١)</sup> والمعنى : أنه " ﷺ " كان إذا أشار إلى شيء : إنسان أو غيره ، أشار بكفه كلها ، ولا يتنصر على الإنسان ببعض الأصابع ، لأنه شأن التكبر في المنكرين والمخففين لغيرهم ، وإذا تعجب " ﷺ " من أمر ، ضحك كفه ، كما هو شأن كل من تعجب .

<sup>(٢)</sup> يعني أنه " ﷺ " إذا تحدث اتصل حديثه بكفه اليمنى ، وذلك لتأكيد الكلام وثبوته في السمع ، وإذا أشار أشار بكفه ، وضرب راحته اليمنى بطن إبهامه اليسرى ، معناه بذلك التأكيد ، ودفعاً لما يعترض نفس السامع من الفتور أو الغفلة عن الحديث .

<sup>(٣)</sup> أي إذا غص من أحد أمر من عند . فلا زيادة عما يقتضيه الغضب ، امتثالاً لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آلِهَتِهِمْ كَاتِبُونَ وَإِشْرَاقِ أَيُّهَا عَنِ الْإِعْرَاضِ وَعَدَلِ عَنْ رُوحِهِ " ﷺ " وإذا فرح " ﷺ " من شيء ، غص طرفه ، ولا يتنصر لغيره .

<sup>(٤)</sup> أي : معظم ضحكته " ﷺ " إنما هو التيمم . ويفتر : أي يفترق . ضحكاً حسياً فاسماً عن من مثل جبريل الغمام في البياض والصفاء ، وحسب الغمام هو البرد . مفتوحين — الذي يشبه النوار ، فكان " ﷺ " إذا تيمم بدت أسنانه الشريفة كاللؤلؤ الملمع .

وكان " ﷺ " صاحب دين ومبدأ لم يفعل شيئاً سوى الله عنه فيما بعد أبداً .  
 ولم يترك شيئاً أمر به .  
 ولو تأملنا سائر أعماله " ﷺ " قبل النبوة وبعدها ، نرى كل واحدة منها  
 تشهد بكمال العقل ، وحسن التقدير .  
 وباتصاف محمد " ﷺ " بهذه الصفات التي أكرم الله بها ، صار مؤهلاً ليكون  
 رسولاً للناس أجمعين ..

\*\*\*

## « خامساً »

### تحبيب الخلاء

#### لحمده " ﷺ "

لم تغب ذكريات الماضي عن فكر محمد " ﷺ " ، بل كان اختزنها في باطنه ، ويغفل عنها لانشغاله بأعماله ، وأسفاره ، فلما تزوج خديجة " رضى الله عنها " ورفع الله تعالى عن كاهله عناء الفقر ، ومسئوليات المعاش ، بدأ يعيش حياة الراحة الهادئة ، والطمأنينة السعيدة ، ويشهد للمستوليات الجسم .

ومن خصائص النفس أنها تكون مشغولة مع صاحبها دائماً ، فهي فعلة في مسئولياته ، وقضاياها ... فإن استراح وسكن ، وغلا من المهام شغله هي بما يحركها ويشغلها .

إن النفس البشرية قادرة على التذكر ، والتخيل ، والتفكير ، وهي في حركتها لا تعرف حدود الزمان ، والمكان ، ولا توقفها حواجز السلطة ، والضيق ويساعدها في حركتها الدائمة السريعة ما يأتيها من عالم الشعور ، وعالم اللاشعور . وعلماء التربية يربطون إلى ضرورة إشغال النفس بالخلق وتوجيهها نحو النافع المفيد ، وذلك بإيجاد حيز من الذوايق التي تادع النفس نحو فكر معين مفهوماً .

لقد بدأ الماضي يعاود محمداً بعد رواجه من خديجة ، وأخذت الذكريات تتحرك أمامه ، وتشغل فكره ، وتدعوه إلى التأمل فيها ، وفيما وراءها .

لقد عاش في ديار بني سعد ، وشرق صدره .. ورعي العنم .. وعاش الرعاة وعاش الخلاء ، وسمع كلام الأنصار ، والرهبان ، والكهان ، وسامر المدينة والمدائن ، وباع ، واشترى .

وقابل أشعثاً من الناس ، وسمع ألواناً عديدة من الأفكار والمذاهب .

والأديان .

ورأي في مكة بعض الخفاء ينكرون علي العرب ما هم فيه من بعد حسن  
 ليس إبراهيم " الخليل " ، لقد عاش " ﷺ " حياة عملية ممتلئة بالحوادث ،  
 والإنجازات ، وقد عادت نفسه لذلك كله ، وتذكره عقله " ﷻ " في تحليل نظري ،  
 وتأمل فكري لتوصل إلى شيء من أسرار ذلك كله .

والخلاوة ، والبعد عن الناس من الأمور غير المحببة في حياة المشرك لأن  
 الإنسان مبدئي بطبعه ، يحب الأنس ، ويعشق ملاقات الآخرين ، ويجب التعامل  
 والسر معهم ، وما سمي الإنسان إنساناً إلا لوجود هذا الطبع فيه .

والخلاوة مع هذا عامل تربوي ، يعلم الصمت والسكون ، ويدفع إلى التأمل  
 والتفكير ، ويساعد على الظهارة والسمو ، ولذلك كانت العبادة في جوف الليل من  
 عظماء الأمور ، وكان قرآن الفجر مشهوداً ، وذلك لمن جعل خلوته لخدمة القيم  
 والحق .

وقد حسب الله لحمد الخلاء ، فكان يخرج من مكة بعيداً عن المسح  
 بالدمحج . ويحكي وحيداً في غار حراء ، ومعه زاده وعدته ، مدة تضم الليالي  
 ذوات العباد ، حيث يقضي شهر رمضان في خلوته ، وانقطاعه عن الناس .

يقول الخطابي : والخلوة يكون معها فراغ القلب ، وهي معينة على الفكر .  
 وفادله له لدعاوى الشغل الفطري ، والبتس لا ينفلك عن طباعه ، ولا يترك مألوفه من  
 عاداته إلا بالرياضة البليغة ، والمعالجة الشديدة ، ملطف الله تعالى ببيه محمد " ﷺ " في  
 بداية أمره وحسب إليه الخلوة ، وقطعه عن مخالطة البشر ، ليتناسى المألوف من عاداتهم  
 ويستمر على هجران مالا ينسب من أخلاقهم ، وألزمه شعار التقوى ، وأقامه في مقام  
 التمسك بين يديه ، ليخضع قلبه ، وتلين عريكته ، فيحد الوحي منه حين وروده مراداً  
 سهلاً ، ولا يصادفه حزناً وغماً : فجعلت هذه الأسباب مقدمات لما أريد . أنه من  
 هنا الشبان ليرتاحوا بها ، ويستعد لما نلذ إليه ، ثم جاء التوفيق والتيسير . وأحدثه

القوة الإلهية ، فجبرت منه القائص البشرية ، وجمعت له الفضائل النبوية <sup>(١)</sup> .

وقد كان من عادة مفكري أهل مكة أن ينقطعوا عن الناس مدة كلما جد لهم أمر يلجأون خلاله إلى اهتهم ، وإلى عقلهم بحثاً عن حل لهذا الأمر الذي يشغلهم .

ووجد محمد " ﷺ " في هذا المسلك طريقاً يعيشه في خلوته ، يتشمس الشمس

إشباع ما يتسنى الوصول إليه ، ووجد في جبل حراء شمال مكة عاراً يأتيه المكنون

فأحبه ، وأخذ يقطع فيه وحيداً ، يتعبد فيه الليالي ذوات العدد ، فكان إذا جاء

رمضان يحمل طعامه وشرابه ، ويمكث فيه ، بعيداً عن الصخب والضوضاء ، في

الحق ..

وحراء جبل بأعلى مكة ، على بعد ثلاثة أميال منها ، على يسار المنار إلى

مكة ، ولهذا الجبل قمة مشرفة على الكعبة ، وفي قمة الجبل غار عرف بـ (( غار حراء ))

وهو على هيئة حجرة ضيقة ، مستطيلة منحوتة داخل قمة الجبل ، أرضها مسطحة

وسقفها مقوس ، والغار مفتوح من جهتيه الشمالية والجنوبية ، ويمكن للمجالس فيه أن

يري الكعبة ، وبخاصة قبل وجود البنايات الحديثة العالية .

إن الخلوة في غار حراء تؤدي إلى القرب من الله ، والنظر إلى الكعبة ، ولذلك كان أهل

مكة يعظمون هذا الغار ، ويقصدونه بين الحين والحين ، ويربطون بينه وبين الكعبة

وكما أن " ﷺ " يطوف بالبيت قبل أن يذهب إلى الخلاء ، وكان أول ما يبدأ به إذا

انصرف من خلوته أن يطوف بالبيت قبل أن يدخل بيته <sup>(٢)</sup> .

إن حياة التأمل والتفكير تعرف الإنسان بنفسه ، وترقق مشاعره ، وتبعده عن

شواغل المادة ، وتجعله يتشمس القوة في غير سائر المخلوقات ، لأن كل مخلوق ضعيف

ومحتاج .

<sup>(١)</sup> - ابن كثير ، ورواه ج ٢ ص ٣١٩ . <sup>(٢)</sup> - لم تدرج فريضة محمد في طوته غار حراء ، ذكر عبد الجبار أن من كان في مكة

إن حبيب النبي ﷺ " في الخلاء تدريب علي ثقله عن الناس ، واتصاله بالمال  
الأعلى ، وهو يتلقى وحى الله تعالى ، والذي سوف يتكرر كثيراً ، ويدوم طويلاً  
والخلاء بعلم الإنسان المنعرج عن الماديات ، والشهوات المتصلة بها ، ونشعره  
نخمة العيون والروحانيات الغائبة عن الخواس .

يقول أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " : ر ... ثم حبيب إليه الخلاء ،  
وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه الليالي ذوات العدد ، قبل أن ينزع إلى أهله ،  
ويتزود لذلك <sup>(١)</sup> وجاء تعبير الحديث بلفظ ( حبيب ) المبنى للمجهول إشارة إلى أن  
حب محمد ﷺ لم يكن من بواعثه البشرية ، وإنما كان من الوحي والإلهام <sup>(٢)</sup> .

يقول ابن هشام : كان رسول الله ﷺ " يجاور ذلك الشهر من كل سنة ،  
يطعم من حاءه من المساكين ، فإذا قضى رسول الله ﷺ " جواره من شهره ذلك ،  
كان أول ما يبدأ به ، إذا انصرف من جواره الذهاب إلى الكعبة ، قبل أن يدخل بيته  
ويطوف بها سبعا أو ما شاء الله من ذلك ، ثم يرجع إلى بيته <sup>(٣)</sup> .

وكان ﷺ " يطيل النظر في الكون المحيط به في السماء ولحومها ، وفسرها  
وتقسها ، وأماكها ، ومجراها ، وصورتها في الليل ، وفي النهار .

ويتأمل الصحراء ساعات لمبها المحرق تحت ضوء الشمس الباهرة اللآلء ،  
وساعات صفوها النديع إذ تكسوها أشعة القمر ، أو أضمواء النجوم بلباسها المظلم  
البارى .

وينظر في أهل مكة والحياة تشعلهم ، ويتأمل في الآتين لمكة ، وهم يطوفون  
بالبيت ، والأصنام أمامهم ! ١ ..

كان ﷺ " يتأمل في كل ذلك وفي غيره يتمس معرفة هذا السجود ، وما

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٢١ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري على صحيح البخاري ج ١ ص ٢٢ .

<sup>(٣)</sup> السيرة النبوية ج ١ ص ٢٣٦ .

وراءه من سبب وغاية !!! ..

في هذا الكون المتحرك كان يتمس الحقيقة العليا ، وكان انشاء إدراكها يسمى بساعات خلوته ليتصل بهذا الكون : وليحترق المحجب وصولاً إلى مكان سره . ولم يكس في حاجة إلى كثير من التأمل ليرى أن ما يباشره فريده من شغل الحياة وما يتقربون به إلى أختهم ليس حقاً .

فما هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تخلق ولا ترزق . ولا تدفع عن أحد عائلة شر تصيبه !

وما هيل والذلات ، والعزى ؟ !! ..

وكيف تكون آلهة ، وهي مصنوعة بأيديهم ؟ !!

وما كل هذه الأنصاب والأصنام القائمة في جوف الكعبة أو حولها ، إنما تخلق يوماً ذبابة ، ولا جادت مكة بخير !

ولكن !

أين الحق إذا ؟

أين الحق في هذا الكون الفسيح بأرضه ، وسماواته ، وبحومه ؟

أهو في هذه الكواكب المضيئة التي تبعث إلى الناس النور ، والدواء . ومن عندها ينحدر ماء المطر ، وتأتي للناس ، ولأهل الأرض كافة من حلاتق . أسباب الحياة من الماء ، والهواء ، والنور ، والدفء ؟

كلا ! فما هذه الكواكب إلا أفلاك كالأرض سواء .

أهو فيما يتصوره وراء هذه الأفلاك من أثر لا حد له ، ولا نهاية له ؟ ولكن ما الأثر ؟

وما هذه الحياة التي آتيا اليوم فتقضي غداً ، ما أصلها ؟ وما مصدرها ؟

أمصادفة تلك التي أوجدت الأرض لا ! وأوجدتنا عليها ؟

لكن للأرض وللحياة سنناً ثابتة لا تبدل لها ، ولا يمكن أن تكون المصادفة أساسها .



وما يسانى الكسالى من حير أو شر ، أفيأتونه طواعية واختياراً ؟ ! ! أم هو بعض  
سيفهم ولا سلطان لاختيارهم عليه ؟ ! !

لقد رأى محمد " ﷺ " بثاقب فكره أن عناصر الكون خاضعة لقوة مجتهدة  
هى أقوى من أن تقهر ، وأسمى من أن تعرف ، وأعلى من أن تتصور ، واحدة هى  
بالضرورة لا تعدد ، عالمية ، شاملة .. لأن الوجود كله واحد .

إن عناصر الكون تشغل فكره ، ودهومتها المستمرة تدفعه إلى النظر ، والتدبر  
فبأنفسه . ويعاود النظر : هنا تارة ، وهناك تارة أخرى .

ها هى الشمس ، ترسل أول أشعتها على الخصى المنثور هنا وهناك ، فتصير  
جواهر نلأ . وأصواء ترفى ، وجمالاً ينساب بين الكائنات ، فيشغل بها ! ! .

ثم ها هى الشمس فى كبد السماء ، جبارة طاغية ، ترسل أثواب الضوء  
البراقة لتشرها على الأرض فى حس ، وشمول ، فيأخذها بها ! ! .

وها هى دى الأرض هامدة ، ساكنة ، مستسلمة ، كجثة لا حياة فيها .. ثم  
هنا ! ! ..

وها هى أمواج الذهب ترسلها الشمس على الكون عند غروبها ، في سناء ،  
وهلوه ، وتمسح كأكفا تريد أن توحى إليه بالأسف لغيها بلا استئذان .. وننتهى ! !

ثم ها هو ذا طوف القمر الناهر ، يشبه طوف الحمامة ، تسبح فيه ألوان  
الطيف السعد ، ويتألق في وسطه القمر الذى يزهر عما يصدر عنه من شرر ، يتحول

إلى الآلاف المؤلفة من النجوم ، والكواكب ، ليختلف القمر حتى الصباح ! ! .

وها هى تلك الأعمدة المختلفة تنهى بها الرمال ، عند هلول الجو ، بإقامتها  
التيهات القبة الزرقاء ، حتى إذا ما ثارت الأعاصير ، وبعثت بالآتربة من بطون  
الوديان فادوناها فى هجوم عنيف ، على الغيوم السوداء المفعمة بالبرق ، هكذا بعد

الهدوء ! ! !

وهي ذى قوافل العيم ، تشبه الخراف البيض ، تطاردها الرياح حتى  
تبعدها عن قمم الجبال ، فتضطر إلى الهجرة قبل أن تسيل عبراتها على مسقط رأسها  
بلا خبار ، ولا قصد ، ولا معرفة ! ! ..

وهي تلك العواصف الممطرة تنفجر شائيبها الخطالة ، فتصب على الجبال  
العريانة أثماراً من المياه ، عذبة جارفة ، لها دوى ، ولها زئير .

أمام هذه العناصر الكونية الهائلة ، العاتية ، التي لم تحرف قط ، رغم خرونها  
على عدم الخضوع ، ولو شروى نقيير ، للقوانين التي تسيرها والتي فرضتها عليها القوى  
السامية العليا .. إن كل عنصر في فلكه يسبح ، وكل عنصر لا يملك إلا الاستسلام  
والخضوع ... وهكذا رأى الكون في جلته قوياً ، شديداً ، وفي نفس الوقت وجهاً  
حاشعاً ، ذليلاً .

لشد ما بدا لمحمد من ضعف الإنسانية وهواتها ! ! ..

ولكم بدا له غرور العقل ، وضلاله ! ! ..

ولكم رأى خداع الحبس بالخصوس ، وخيبة الاستدلال بالماديات ! ! ..

أجل ، وكم من سخرية في أن تنق الإنسانية بالخصوسات ، مع أنها ترى

السراب صورة براءة من موجات الأثير الضائر ليشهدها بذلك على غرورها المطلق ! !

في مثل هذه الأمور النفسية وغيرها كان محمد ﷺ يفكر أثناء انقطاعه

وتعبده بغار حراء ، إذ ليس أمامه إلا هذا التدبير .

وكان يتمنى رؤية الحق فيها ، وفي الحياة جميعاً ، وكان تفكيره تملأ نفسه

وفؤاده ، وضميره ، وكل ما في وجوده ، ويتغله لذلك عن هذه الحياة ، وصحبها

ومسائلها فإذا انقضى شهر رمضان عاد إلى خديجة ، وبه من أثر التفكير ما يجعلها

تسأله ، تريد أن تطمئن إلي أنه بخير وعافية .

**ولكن ..**

بأي نسك كان محمد يتعبد أثناء تحته ذاك ، وعلى أي شرع بذاته كان يعمل ؟

جزاء أمر احتلف العلماء فيه ، وقد روى ابن كثير في تاريخه طرماً من أرائهم في الشرع الذي كان يتعبد عليه .

وقيل : كان " ﷺ " يتعبد بشرع نوح " عليه السلام " وقيل كان يتعبد بشرع إبراهيم " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع موسى " عليه السلام " .

وقيل : كان يتعبد بشرع عيسى " عليه السلام " .

وقيل : كل ما ثبت أنه شرع عنده اتبعه وعمل به .

والعل هذا القول الأخير أقوم من غيره ، فهو الذي يتفق ، وما شغف محمد به من التأمل ، ومن التفكير ، وما عرف عن غياب الشرائع يومذاك ، حتى أن كثيراً من الخلفاء لم يصلوا إلى شيء رغم ما بذلوا من جهد للوصول إلى دين حقيقي .

وأشهر محمد على عاداته تلك في حب الخلاء ، والانعطاف له ، ومداومة البحث عن الحقيقة حتى هداه الله إليه نزول الوحي ، وبدء الرسالة ، وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴾ (١) .

ذهب المفسرون في بيان المعنى المراد من الضلال إلى معان كثيرة : —

— فهو بمعنى الغفلة عما يراد بك من أمر النبوة .

— وتعني عدم معرفة دين وشرع ما ، فهذاك الله للإسلام وشريعته .

— وتعني في وسط ضلال قومك وكفرهم فهداهم الله بك .

— ومعنى الخبرة فيما ترى ، فعرفك بالصواب والحق (٢) .

وهذه المعاني تلتقي في معنى عام واحد ، وهو أن الرسول " ﷺ " كان يبحث عن طريق الحق والهدى : وسط قومه الغافلين ، ولم يكن يتصور أن النبوة ستأتيه ،

(١) سورة القصص (٧) .

(٢) انظر : تفسير القرطبي ج ٢٠ ص ٩٦ ، ٩٧ .

و كثيراً ما أضنته الحيرة ، والقلق حتى جاءه جبريل " عليه السلام " فأرشده إلى مسرانه  
المستقيم .

والمعالي تدور مع أحوال محمد " ﷺ " قبل المبعث ، ومع نته الدعوة  
الحقيقة التي هداه الله إليها ، وعرفه بها ، فكانت الرسالة والمبعث .

\* \* \*

## المبحث العاشر

### بدايات الوحي

ويأتي محمد " ﷺ " سن الأربعين ، وكميل في ذاته . وأصبح مستعداً لتكميل  
الإعتراف . وهنا جاءه وحى الله ، كما هو الشأن مع جميع الأنبياء ، والمرسلين (١)  
يروي البخاري عن ابن عباس " ﷺ " أنه قال : ( أنزل الوحي عني رسول الله " ﷺ "  
أوهو ابن أربعين سنة ) (٢) .

لقد حاول محمد " ﷺ " الوصول إلى الحقيقة المتصلة بالوجود ، والحياة .  
وكان تفكيره وتدريبه ، ولم يصل إلى ما يسمي : ويريد .  
إليه سماع عن دين الله ، وأنبياء الله ، لكنه لا يعرف حقيقة الأنوذية ،  
وحنوئها ، وجهول كل ما ينصل بالنبوة ، والرسالة ، وإدراكه للحلا الأعلى سادح  
وبسيط . والأسرار من حوله تتكاثر ، وتعدد ، وكلما طال تأمله تشعبت مباحث  
العلم ، وتعددت عنه الأسرار ، والغايات .

والتفكير مهملاً سيما إدراكه ، ومهملاً دق فكره ، ومهملاً تعسفت تأملاته ،  
وذلك أنه لا يمكنه أن يدخل إلى شيء من حقائق هذا الوجود ، ولا يد له من وحى الله  
يكشف له الأسرار التي تحتاج إليها .

ومحمد " ﷺ " مع صفاء نفسه ، وكمائن عقله ، وهو روحه يحتاج إلى  
توسلات الله فلهذه المنحى . وتعدد عن الخبرة ، وتعرفه بالخفايق الباطنية التي لا يمكن  
للغافل أن يصل إليها .

كذلك يحتاج لرحمة الله مراعاة الخائب البشرية فيه ، حتى لا تفاحته روحانية  
هو وحى . وغير تلك الغلا الأعلى .

(١) تاريخ الإسلام ج ١ ص ١٥٠ ج ٢ ص ٩٩ .

(٢) تاريخ الإسلام ج ١ ص ١٥٠ ج ٢ ص ٩٩ .

ونحتاج كذلك إلى تعلم كيفية الاتصال بخالفه، والتعامل مع الملائكة واستقبال الوحي بمختلف صورته وأشكاله .

وقد نجلست فيوضات الله تعالى علي محمد " ﷺ " بصورة رفيقة ، سائلة عما فيها الرحمة والمودة ، وعناصرها الترقى بشريعة محمد ليكون نبياً ورسولاً . وكانت رحمة الله مع محمد " ﷺ " حين جاءه وحى الله تعالى ، إثر كلفه بالنبوة أولاً ، وجاءه الوحي ينبهه ، ومن المعروف أن النبوة لا تنزل طباع البشر كلها ، فلما خير " ﷺ " الوحي ، ورأى صورته ، وأنواعه ، وأصبح متألفاً مع لقائه جاءته الرسالة ، فصار رسولاً نبياً .

والنبوة أخص من الرسالة ، لأن النبوة تعني نزول الوحي من عند الله إلى من يختاره الله تعالى من الناس ، ليعلمهم ، ويعمل بما أوحى به ، وهي تعليم لمن نبأ خافته ، أما الرسالة فإنها الوحي يأتي للشخص المختار علي أن يعلمه ويقوم بتبليغه للناس ويعمل به ، فهو رسول الله إليهم .

وعلي هذا فكل رسول نبي ، وليس يلزم أن يكون النبي رسولاً ... ولقد نبى محمد " ﷺ " وجاءه الوحي من عند الله ، واستمر علي ذلك مدة تعدد تمهيداً لإرساله ، أراد الله أن يهيئه خلالها للتعامل مع الملائكة ، والاتصال بالله ويعرفه كذلك بكل ما تحتاجه الرسالة من أمور لا بد منها للرسول المختار .

إن الرسول بشر يتصل بالله ، وبالناس ، ولا بد له أن يتصف بصفات عالية ترتقي به إلي درجة الكمال البشري ، والسمو الروحي ليسهل عليه الاتصال بالأعالي سبحانه الروحي ، والتعامل مع الناس بخفيه الشري في توازن ، وإسجام . وقد بدأت نبوة محمد بأوليات الوحي كما أرادها الله تعالى ، ولم يكلف بالرسالة إلا بعد أن أصبح مؤهلاً لها ، مستعداً للقيام بواجبها <sup>(١)</sup> .

(١) أنظر : أعلام النبوة للمؤيد ص ١٧٥ - ١٨٠ : ويرى المؤيد أن الرحي تدرج مع رسول الله ﷺ .  
أنظر : هذا بالرواية المندرجة ، ثم بالرسالة ... الخ .

لقد كان " ﷺ " في مرحلة النبوة يخاف من الوحي بأنه بإحدى صورته ، ولذلك كان بالحدسية تاركياً ، ويقول لنا : " خشيت علي نفسي " ويصف الرجل الذي يظهر أمامه ( ويقول : سطا على الرجل ) وكان يجري منه محاولاً الهرب من أمامه ، أما في مرحلة الرسالة فكان بأنس بالوحي ، ويتعجله ، ويخاف أن يتركه ولا يأتيه ..  
ولقد اختلف الوحي مع محمد " ﷺ " في فترة النبوة عن الوحي في فترة الرسالة . يقول الغفافي عياض : وإنما بدأ الوحي مع رسول الله " ﷺ " بالرؤيا ، لكلا نفعائه الملك ، ويأتيه بصريح النبوة بغتة : فلا تتحملها قواه البشرية ، فدى بأوتل اتصال النبوة ، وتياشير الكرامة ، من صدق الرؤيا ، وما جاء من رؤية الضوء ، وسماع الصوت ، وتسنيم الحجر ، والشجر ، عليه بالنبوة ، حتى يستشرف عظيم ما يراد به ، ويستعد لما ينتظره ، فلم يأتيه الملك إلا بأمر عنده مقدماته <sup>(١)</sup> .  
يقول ابن كثير : وبدء الوحي بصورة التدرج يهدي القلب ، ويعلمن النفس ..  
ومن صور الوحي في بدايته ما يلي : —

### ١. الرؤيا الصادقة :

إذا نام الإنسان انقطع عن عالم الناس ، وعاش مع باطنه ، وإدراكاته اللاشعورية ، وخلال النوم فيم نفس النائم في رؤى تتضمن أفكاراً ، وأحداثاً ، لا يمكن له أن تتصور حدوثها في حالة اليقظة ، ولذا كتبت الرؤى المنامية تدريباً للإنسان وهو في عالم اللاشعور ، على ما سوف يراه في عالم الإدراك والشعور .

إن علماء النفس المعاصرين يزرعون في الإنسان مبادئهم الضارة ، وقيمهم المنادية . وهو نائم ، وذلك بوضع تسجيل صوتي تحت رأسه وهو نائم فحينما يرغبون . وتحدث عن مزايا ما يدعون إليه ، فإذا ما استيقظ الإنسان يجد عقله مشغولاً بما سمعه روحه أثناء نومه ، من غير إدراك سبب هذا الانشغال .

إن هذه المقدمة بيان لأهمية الرؤى ، وإبراز لدورها في كَيْفِيَّة الإنسان <sup>الخالق</sup> لعالم اليقظة ، وخاصة إذا كانت الأحداث غريبة مذهشة .

ولقد كان من رحمة الله برسوله محمد ﷺ " أن بدأه الوحي بالرؤيا الصالحة <sup>الصالحة</sup> تقول السيدة عائشة " رضي الله عنها : ( أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ) (١) وبذلك كان الوحي يعلم رسول الله وهو نائم بما يريد الله تعالى في رؤى صالحة صالحة ، خالية من الضعف ، والوهم ، وكانت رؤى الوحي في وعو حها ، وظهورها تشبه ضوء الصبح في بيانه ، وسطوعه .

حاء في فتح الباري أنه ثبت في مراسيل عبيد بن عمير أنه " ﷺ " أوحى إليه أولاً في المنام حتى أتاه الملك بعد ذلك في اليقظة على الصورة التي أتاه بها في المنام (٢) وقد تعددت الرؤى المنامة لرسول الله ﷺ ، وكان يندهر لذلك ... ومنها (٣) — رأي أن أتاه ، ومعها صاحبان له ، فنظروا إليه فقالوا : هو - هو - ثم ذهبوا فهاهنا ذلك ، وتساءل عما رأى ، وعن حديثهم أمامه ، فقال له عمه أبو طالب : يا ابن أخي ليس بشئ .

— وأتاه هذا الآتي مرة أخرى ، فحاء لعمه ، وقال له : يا عم سجد لي الرجل الذي ذكرت لك ، فأدخل يده في جوفي حتى أتى أحد بردها ، فخرج به محمد إلى رجل من أهل الكتاب ينطيب بمكة ، فحدثه حديثه ، وقال عاجله ، فصوب به ، وصعد ، وكشف عن قدميه ، ونظر بين كتفيه ، وقال : يا ابن عبد مناف ابنك هذا طيب طيب الخبير فسيه علامات ، إن ظفرت به يهود قتله ، وليس الرائي شيطاناً ، ولكنه من الأنبياء الذين يتحسسون بما القلوب للنبوة ، فرجع به .

(١) - فتح الباري - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ١٠٠ .

(٢) - فتح الباري - كتاب الوحي ج ١ ص ٢٢ .

(٣) - انظر : عبد القادي والبرهان ج ٢ ص ٣١٠ - ٣١٢ .



فَرَأَى فِي مَنَامِهِ أَنَّ سَفَفَ بَيْتِهِ مَزَعَتْ مِنْهُ حَشِيبَةٌ ، وَأَدْخَلَ فِيهِ سَلَمٌ مِنْ فِضَّةٍ ، ثُمَّ بَرَأَ  
 إِلَيْهِ رَجُلَانِ ، وَأَرَادَ أَنْ يَسْتَعِينَهُ فَمَنَعَ مِنَ الْكَلَامِ ، فَقَعَدَ أَحَدُهُمَا إِلَيْهِ : وَالْآخَرُ إِلَى  
 الْخَلْفِ ، وَأَدْخَلَ أَحَدُهُمَا يَدَهُ فِي حَنْبِهِ فَتَرَعَ ضَلْعَيْنِ مِنْهُ ، وَأَدْخَلَ يَدَهُ فِي جَوْفِهِ وَرَسُولُ  
 اللَّهِ ﷺ يَبْكُ ، فَأَخْرَجَ قَلْبَهُ ، فَوَضَعَهُ عَلَى كَفِّهِ ، وَقَالَ لِمُصَاحِبِهِ : نَعَمْ الْقَلْبُ  
 قَلْبُ رَجُلٍ سَالِحٍ ، فَطَهَّرَ قَلْبَهُ وَغَسَلَهُ ، ثُمَّ أَدْخَلَ الْقَلْبَ مَكَانَهُ ، وَرَدَ الضَّعْعَيْنِ ، ثُمَّ  
 ارْتَفَعَا وَرَهْبًا سَلَمَتِيئِمَا ، فَإِذَا السَّفَفُ كَمَا هُوَ ، فَذَكَرَ ذَلِكَ الْخُدَيْجَةُ بِنْتُ خُوَيْلِدٍ  
 فَقَالَتْ لَهُ : أَبَشِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَصْنَعُ بَنَاتٍ إِلَّا خَيْرًا ، هَذَا خَيْرٌ فَأَبَشِّرْ .

— وَرَأَى فِي مَنَامِهِ حَبْرِيْلَ وَمَعَهُ خُمُطٌ مِنْ دِيْبَاجٍ فِيهِ كِتَابٌ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأ .  
 فَقَالَ لَهُ : مَا أَقْرَأ .

بَعَثَهُ بِهِ حَبْرِيْلُ رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ " أَنَّهُ الْمَوْتُ ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ : اقْرَأ .  
 قَالَ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" : مَا أَقْرَأ .

فَعَثَهُ بِهِ حَبْرِيْلُ رَسُوْلَ اللَّهِ ﷺ " أَنَّهُ الْمَوْتُ ، ثُمَّ أَرْسَلَهُ فَقَالَ لَهُ : اقْرَأ .

قَالَ "يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ" : مَاذَا أَقْرَأ ، مَا قَالَ ذَلِكَ إِلَّا اقْتِدَاءً مِنْهُ أَنْ يَعُوْدَ إِلَيْهِ بِمِثْلِ مَا صَنَعَ .

قَالَ : ﴿ أَوْ اقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾ .

فَقَرَأَهَا رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ " ثُمَّ انْتَهَى فَانْتَصَرَ فَحَبْرِيْلُ ، وَهَبَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ مِنْ نَوْمِهِ ،  
 قَالَ : فَكَاتَمَا كِتَابِي فِي قَلْبِي كِتَابًا فَذَكَرَ ذَلِكَ الْخُدَيْجَةُ فَقَالَتْ : أَبَشِّرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَصْنَعُ  
 بَنَاتٍ إِلَّا خَيْرًا .

وهكذا . . .

تعددت الروايات ، وركزت علي قضية إعلام الرسول بنبوته ، وتطهيره ،  
 وإعلامه ما ينتظره من أحوال ، وأعمال ، حتى لا يفجئه الملك علي صورته الحقيقية ،  
 فيصاب بالحوادث ، والاضطراب .

## ٢ - نداءات الملائكة :

من صور الوحي الذي بدأ برسول الله " ﷺ " نداء الملائكة عليه ، وإحدى آياته ببوته ، وهو لا يعرف المنادى ولا يمكنه تحديد مصدر النداء . .

من ذلك ما رواه ابن كثير بسنده أن رسول الله " ﷺ " قال لحديث : **إِذَا خَلُوتَ وَحْدَى سَمِعْتَ نَدَاءً ، وَقَدْ حَشَيْتَ وَاللَّهِ أَنْ يَكُونَ لِهَذَا أَمْرٌ .**

قالت : معاد الله ما كان الله ليفعل ذلك بك ، فو الله إنك لتؤدى الأمانة ، وتصل الرحم ، وتقصدى الحديث .

فلما دخل أبو بكر ، قالت له خديجة : يا عتيق أذهب مع محمد إلى ورقة <sup>(١)</sup>

فلما دخل رسول الله " ﷺ " أخذ أبو بكر بيده - فقال : انطلق بنا إلى ورقة .

قال : ومن أخبرك ؟

قال : خديجة .

فانطلقا إليه ، وقال رسول الله " ﷺ " له : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء خفي يا محمد ، يا محمد ، فأنطلق هارباً في الأرض .

فقال له : لا تفعل إذا أنك فاقبت ، حتى تسمع ما يقول لك ، ثم انني فأخبرن .

فلما حلا ناداه يا محمد قل ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١﴾

حتى تسبح ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ قل لا إله إلا الله ، فأتى خمد ورقة فذكر له ذلك

فقال له ورقة : أبشر ثم أبشر ، فأنا أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم ، وإنك علي

مثل نamos موسى ، وإنك نبي مرسل <sup>(٢)</sup> .

ويقول النبي " ﷺ " : ( خرجت مرة حتى إذا كنت في وسط الجبل سمعت

صوتاً من السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل ، فرفعت رأسي إلى

<sup>(١)</sup> ورقة بن نوفل بن أمية بن عبد المطلب بن قصي ، وهو ابن عم خديجة " رضى الله عنها " . آمن محمد ، يوم أن جاءه بسند ، فلهذا قوله

لرسول " ﷺ " عدا . لقد رأيت النفس في الجنة عداً أعاد بها ، لأنه أمر . . . . . لا سيما ورقة بن نوفل .

حديث : مسند ابن كثير ج ١ ص ٢٩٨ .

<sup>(٢)</sup> النبوة والولاية ج ٣ ص ٩ .

السما، أنظر، فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء، فرفعت أنظر إليه فما أتقدم، وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً ما أتقدم، أمامي، وما أتأخر ورائي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلي فبلغوا مكة، ورجعوا إليها، وأنا واقف في مكان ذلك، ثم انصرفت راجعاً إلى أهلي .

حينئذ أتيت خديجة فجلست إليها فقالت : يا أبا القاسم أين كنت ؟ فوالله لقد بعثت رسلني في طلبك، فبلغوا مكة، ورجعوا إلى !! .

ثم حدثتها بالذي رأيت فقالت : أبشر يا ابن عم وأخت ، فوالذي نفسي بيده إن أرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

ثم قامت فجمعت عليها ثيابها، ثم انطلقت إلى ورقة، فأخبرته بما أخبرتها به . فقال ورقة : قدوس قدوس ! ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتينني يا خديجة لقد جاءه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة ، فقلولي له فليثبت . فرجعت خديجة إلى رسول الله ﷺ " فأخبرته بقول ورقة .

وفي مرز تالية قضى رسول الله ﷺ " جوارده، وانصرف يصنع كما كان يصنع : حبت بدأ بالكعبة فطاف، فلقبه ورقة عند الكعبة، قال له : يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت .

فلما أخبره قال له ورقة : والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ولتكذبه ولتقاتله ولتؤذنه ، ولئن أدركت ذلك لأخبرن الله نصراً يعلمه ، ثم أدنى رأسه منه فقبل يافوخه .

ويقول " ﷺ " لخديجة : لما قضيت جواردي، هبطت فتوديت، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً بين السماء والأرض فقلت : دثروني دثروني : وصبوا علي ماء بارداً <sup>(١)</sup> ..

(١) دثروني الدثروني - كتاب التفسير - باب سورة المدثر ج ٨ ص ٦٢ ، البداية والنهاية ج ٣ ص ١٢ - ١٣

إن نداءات الملائكة لرسول الله ، وتعجبه مما يسمع دفعه إلى معرفة ما في أسرار ما يسمع ، ولذلك كان يرجع خديجه يقص عليها ما رأى .

وكانت خديجة " رضي الله عنها " خير معين لرسول الله " ﷺ " ، تسمع منه وتجتهد في معرفة أسباب ذلك ، وتسأل أهل الكتاب عن حير ما يسمع ، وتخبر زوجها رسول الله " ﷺ " بما يرى عنه ، ويعلمه .

وكانت تبحث عن أسرار ما يرى لتطمئن عليه ، وتطمئنه " رضي الله عنها " قالت له مرة : يا ابن عم أنتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك ؟ قال : نعم .

قالت : فإذا جاءك فأخبرني به .

فجاءه جبريل ، فقال رسول الله " ﷺ " : يا خديجة هذا جبريل قد جاءني .

فقالت : قم يا ابن عمي فأجلس على فخذي اليسرى .

فقام رسول الله " ﷺ " فجلس عليها ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

قالت : فتحول فأقعد على فخذي اليسرى ، فتحول رسول الله " ﷺ " فجلس على

فخذها اليمين ، فقالت : هل تراه ؟

قال : نعم .

فحسرت فألقت حمارها ورسول الله " ﷺ " جالس في حجرها ثم قالت : هل تراه ؟

قال : لا .

قالت : يا ابن عم أثبت وأبشر فوالله إنه ملك ، ما هذا شيطان <sup>(١)</sup> .

### ٣ - كلام الشجر والحجر :

يروى ابن سعد بسنده أن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله كرامته ، وأتاه

بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى لا يرى بيتاً ، ويفضي إلى الشعاب ، ويطلب

<sup>(١)</sup> من المدي والرشاد ج ٢ ص ٣١٤ - البداية والنهاية ج ٣ ص ١٥ ، ١٦ .

الأودية ، فلا تمر بحجر ولا شجر إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، وكان يلتفت عن يمينه ، وشماله ، وخلفه ، فلا يرى أحداً<sup>(١)</sup> .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سمرة " رضي الله عنه " قال : قال رسول الله " ﷺ " :  
إن أعرف حجراً كان بسلم عليّ قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن<sup>(٢)</sup> .

وفال محمد بن عمر بسنده عن برة بنت جحاة قالت : إن رسول الله " ﷺ " حين أراد الله تعالى كرامته ، وابتدأه بالنبوة ، كان إذا خرج لحاجته أبعد ، حتى نحس عنه البيوت ، ويفضي إلى شعاب مكة ، ويطون أوديتها ، فلا يمر بشجر ، ولا شجر ، إلا قال : السلام عليك يا رسول الله ، فيلتفت رسول الله " ﷺ " خلفه ، وعن يمينه ، وعن شماله فلا يرى إلا الشجر ، وما حوله من الحجارة ، وهي تحيه بتحية النبوة : السلام عليك يا رسول الله<sup>(٣)</sup> .

وروى ابن سعد عن هشام بن عروة عن أبيه رحمهما الله تعالى أن رسول الله " ﷺ " قال : يا حديجة إني أرى ضوءاً ، وأسمع صوتاً ، لقد خشيت أن أكون كاهناً ، فقالت : إن الله تعالى لا يفعل بك ذلك يا ابن عبد الله ، إنك تصدق الحديث ، (نودي الأمانة) وتصل الرحم<sup>(٤)</sup> .

#### ٤ . لقاء الملائكة :

من رحمة الله برسوله محمد " ﷺ " أن أخذ بهيئة للقاء ملك الوحي ، وذلك برسائل الملائكة إليه ، تعلمه كلمة ، أو شيئاً ما ، ليستعد بذلك علمي ملائكة حرازل " عليه السلام " .

<sup>(١)</sup> طبقات ابن سعد : ١٥٧ / .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم - كتاب الفضائل باب تسليم الحجر عليه ج ١٥ ص ٢٦ .

<sup>(٣)</sup> طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٥٧ .

<sup>(٤)</sup> المصنف السابق ج ١ ص ١٩٥ .

بروي ابن سعد أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه النبوة كسب  
 يأتيه " إسرائيل " واستمر معه يعلمه الكلمة ، والشئ ، ولم ينزل شئ من القرآن  
 على لسانه <sup>(١)</sup> ، يقول أبو شامة : إن " إسرائيل " كان يأتي النبي وهو في غار حراء  
 فكان ينقي إليه الكلمة بسرعة ، ولا يقيم معه ، تدرجاً وتمريناً ..

وأحياناً كان يأتيه جبريل بصحبة ملك آخر ، يقول ابن عباس " عليه السلام " :  
 كان رسول الله ﷺ ذات يوم وجبريل علي الصفا فقال رسول الله ﷺ :  
 يا جبريل والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفة دقيق ، ولا كف من سويق  
 فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدة من السماء أفرعته .

فقال رسول الله ﷺ : " أأمر الله القيامة أن تقوم ؟  
 فقال جبريل : لا ولكن أمر الله إسرائيل فتزل إليك ، حتى يسمع كلامك .  
 وأتاه إسرائيل فقال : إن الله تعالى بعثني إليك بمفاتيح خزان الأرض ، وأمرني أن  
 أنرض إليك أن أسير معك جمال هامة زمرداً ، وياقوتاً ، وذهباً ، وفضة ، فإن شئت بنا  
 ملكاً ، وإن شئت نبياً عبداً ؟ فأوما إليه جبريل : أن تواضع .  
 فقال رسول الله ﷺ : بل نبياً عبداً ، ثلاثاً <sup>(٢)</sup> .

ويقول البراء بن عازب " عليه السلام " : أتاه جبريل وميكائيل ، فنسزل جبريل  
 وبقي ميكائيل واقفاً بين السماء والأرض ، فقال أحدهما لصاحبه ، أهو هو ؟  
 قال : هو هو .

قال : فزنه برحل ، فوزنه به فرححه رسول الله ﷺ .

قال : زنه بعشرة ، فوزنه فرححهم .

قال : زنه بمائة ، فوزنه فرححهم .

قال : زنه بألف ، فوزنه فرححهم .

<sup>(١)</sup> طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٩١ .

<sup>(٢)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٣١٠ .

ثم جعلوا يتساقطون عليه من كفة الميزان .

فقال ميكائيل : تبعته أمته ورب الكعبة ، ثم اجلسني على بساط كهنة الدريوك ، فيه  
السيفوت ، والنولو ، فقال أحدهما لصاحبه : شق بطنه ، فشق ، فأخرج منه معسر  
الشميطان ، وعلق الدم فطرحها ، فقال أحدهما لصاحبه : أغسل بطنه غسل الإناث ،  
وأغسل قلبه غسل الملاء ، ثم قال أحدهما لصاحبه : خط بطنه ، فخطه ، ثم أجلساه  
فشمه جبريل برسالة ربه حتى اطمأن النبي " ﷺ " <sup>(١)</sup> .

وفي ما روي مسلم عن ابن عباس " رضه " قال : بينما النبي " ﷺ " جالس ،  
وعنده جبريل ، إذ سمع نقيضاً من السماء من فوق ، فرفع جبريل بصره إلى السماء  
فقال : يا محمد هذا ملك قد نزل ، لم ينزل إلى الأرض قط .

فأناب النبي " ﷺ " فقال : أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤكما لي قبلك : واحدة  
الكتاب ، وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفاً منها إلا أوتيته <sup>(٢)</sup> .

### وه جبريل بالقرآن :

استمير الوحي بمقدماته مع رسول الله " ﷺ " على النحو المبين ، وأدرك محمد  
" ﷺ " أن أمراً عظيماً ينتظره ، وسمع من زوجته ، ومن ورقة ، ومن غيرهما أن الذي  
يراه . ومحمد هو الوحي الذي كان يأتي موسى ، وعيسى والأنبياء من قبله " عليهم  
صلوات الله وسلامه " .

ومنا عشيتنا بدأ يطمن لما يرى ، ويشق فيما يسمع حتى جاءه جبريل " ﷺ " <sup>(٣)</sup>  
أول آية قرآنية أمره الله تعالى أن يقرته بها ، تصور السيدة عائشة " رضي الله عنها " <sup>(٤)</sup>  
نزل جبريل أول آية قرآنية على رسول الله " ﷺ " فتقول " رضي الله عنها " : جاءه  
الملك ( أي جبريل ) وهو في غار حراء ، فقال : اقرأ .

قال : ما أنا بقارئ .

<sup>(١)</sup> انظر سورة البقرة آيات ١٢٩-١٣٠

<sup>(٢)</sup> انظر سورة البقرة آيات ١٢٩-١٣٠

يقول النبي ﷺ : " فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ .  
قلت : ما أنا بقارئ .

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ .  
فقلت : ما أنا بقارئ .

فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ : ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ  
الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا  
لَمْ يَعْلَمْ ﴾ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَافٍ ﴿٥﴾ .

فرجع بها رسول الله ﷺ " ترحف فواده ، فدخل علي خديجة بنت خويلد  
" رضي الله عنها " فقال : زملوني زملوني ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .

ثم قال : يا خديجة مالي ؟ وأخبرها الخبر ، لقد خشيت على نفسي .

ف قالت خديجة له : كلاً ، أبشر ، فوالله لا يضر بك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم  
وتصدق الحديث ، وتعلم الكل ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

ثم انطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى بن قصي  
وهو ابن عم خديجة لأبيها ، وكان امرأً تنصر في الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب  
العبري والعبراني فيكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء الله أن يكتب ، وقد علم  
شيئاً من نبوته .

ف قالت له خديجة : أي ابن عم ، اسمع من ابن أخيك .

فقال ورقة : يا ابن أخي ماذا ترى ؟

فأخبره النبي ﷺ " خبر ما رأي .

فقال له ورقة : هذا الناموس الذي أنزل الله على موسى ، يا ليتني فيها جذعاً ، ليتني أكون  
حياً إذ يخرجك قومك .

فقال رسول الله ﷺ : " أو يخرجني هم ؟



فقال ورقة : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ، وإن يدركني يومك  
العهدي فسرأ مؤزرا ، ثم لم ينشب ورقة أن توفي <sup>(١)</sup> .

ومع أن النبي ﷺ كان يبحث عن الهداية التي جاءته ، ومع أنه كان على  
يقين بالفرع العظيم محيى جبريل ، ولذلك قال لخديجة : أرايتك الذي كنت أحبرتاك  
أن رأيتني في المنام ؟ فإنه جبريل ، استعلن لي ، وأرسله إل ربي . . . ومع كل ذلك  
فإنه ﷺ أصيب بالروع ، وحشى على نفسه .

وهذا الخوف الذي عاشه النبي ﷺ " في لقاء جبريل " ﷺ " جعل البعض  
يسأل عن سبب هذا الخوف لأن المقام مقام سرو، ورضي، وليس مقام رهبة، وهلع .  
وقد تناول العلماء هذه المسألة، ورأوا أن الخوف لم يكن من النبوة ، أو من  
الوحي . وإنما كان من تصويره أدى يأتي من الغم الشديد . . أو من ثقل المسؤولية .  
أو لأن الحوار لم يكن عادياً . . فلقد أمر جبريل ﷺ " محمداً " ﷺ بالقراءة ثلاث  
مرات، وغفله بشدة ثلاث مرات أيضاً، والرسول يقول له : ما أنا بقارئ، وينتشر  
خبر ذلك عند خديجة، وأبي بكر، ورقة ، ويشحدث عنه أهل مكة ، ليكون حديثهم  
تعريفاً بمحمد ، وتنبهاً على منزلته عند الله ، والناس ، فضلاً من الله ونعمة .

يقول الإسماعيلي : إن العادة جرت بأن الأمر بالخليل إذا قضى الله تعالى  
بإرساله إلى الخلق أن يتقدمه ترشيح وتأسيس ، وكان ما يراه النبي ﷺ " من  
الرؤيا الصادقة ، ومحبة الخلوة والتعب من ذلك ، فلما جاءه الملك فجاء بفتنة بصورة  
تحالف العادة والمألوف ، نفر طبعه البشري منه ، وهاله ذلك ، ولم يتمكن من التأمل  
في تلك الحال ، لأن النبوة لا تزيل طباع البشرية كلها ، فلا يتعجب أن يبرز مما لم  
يألفه ، وينفر طبعه منه ، حتى إذا اندرج عليه ، وألفه استمر عليه ، فلذلك رجع إلى  
خديجة التي آمن، تأنيبها له ، فأعلمها بما وقع له ، فهونت عليه خشيته ، مما عرفته من

أخلاقه الكريمة، وطريقته الحسنة : فأرادت الاستظهار بحسبها به إلى ورفقه، لمعها بصافته، ومعرفته، وقراءته الكتب القديمة ، فلما سمع كلامه أيقن بالفن، واعترف له وأشار الإستماعيلي كذلك إلى أن الحكمة في ذكره " ﷺ " ما اتفق له في هذه المقام أن يكون سبباً في انتشار خبره : في بطائنه ، ومن يستمع لقوله : وبصغى إليه ، طريقته في معرفتهم صائنة من سواه في أحواله لينهوا على محله (١) ويعرفوا مقامه " ﷺ " ومع إلقاء حبريل برسول الله " ﷺ " وإفراجه أول سورة العنق يلاحظ بعض الملاحظين

### الأولى :

فقط حبريل رسول الله " ﷺ " ثلاث مرات ، ليجعل التفاته ، ويذكر إليه وحده ، دون الانشغال بغيره ، ويعرفه بثقل الرسالة ، وضخامة المسئولية : ويعود على التفتي من الوحي فقط .

ولكن صوراً حين التبليغ .

ويعلم أن تكرار الطلب منهج في سائر دين الله تعالى .

وليتأكد " ﷺ " بتكرار الغط أن ما يحدث حقيقة واقعية ملموسة ، وليس حياً أو وهمياً .

لقد كان حبريل " ﷺ " في أشد الاشتياق للقاء محمد " ﷺ " ولذلك حضر إليه ، وقبله أكثر من مرة .

كان من الممكن أن يلقي حبريل " ﷺ " محمداً " ﷺ " بما يقدر شعاعه من بعد . ويمضي ، لكنه فعل ذلك بأمر الله تعالى . ليقدر خطورة الأمر ، وأهمية وضروية بذل الجهد : وتحمّل المشاق في أداء الواجبات الخطيرة ، وهل هناك أخطر من مهمة الرسالة والدعوة ؟ ! ! .

وكان من الممكن أن يتم اللقاء ماماً . لكن الله تعالى أراد أن يتطلع رسول الأمين محمد " ﷺ " على صورة روجه الأمين ، كما أراد له أن يعرف أهم

الوحي بعد أن عاش الرؤى ، وسمع النداء ، وشاهد الجمادات تناجيه ، وعاش الخلوة  
فكسره ، أراد الله له بعد ذلك أن يعود على صورة الوحي التي سنسبر معه . وقد  
كان ، وجاء جبريل وأقرأ أول سورة العلق .

**الثانية :** في بدء الوحي بـ : " اقرأ " بيان لموقف الإسلام من القراءة ،  
ومن العلم كله ، والقراءة أساس معرفة الدين ، بها يحفظ القرآن ، وتصلح السنة ،  
وتنهم الشريعة . وهذا تكون الدعوة ، وحماية الإسلام ... وبالعلم تحيا الأمة ، وتحافظ  
على الضرورات الشرعية جميعاً ، وتنظم كافة جوانب الحياة .

**الثالثة :** قدمت خديجة " رضي الله عنها " مع رسول الله " ﷺ " صورة  
للزوجة العظيمة المثالية ، فلقد كانت تعيش حياة رسول الله لحظة ، بلحظة ، تمنى له  
الحرم ، تشاركه في كل ما يعن له ، وتتم بكل ما يهمه .

لقد أعطته ما لها فأغنته " ﷺ " به ، وأبعدته عن متاعب الفقر ، ومشاغله ،  
ولما بدأ الوحي مناماً ، ونداء ، وضوءاً كانت تطمئنه ، ولكنها من وراءه كانت  
تبحث عن حقيقته ما يرى " ﷺ " خوفاً عليه ، وحذراً .

وكان " رضي الله عنها " إذا غاب عنها ترسل في طلبه من يبحث عنه <sup>(١)</sup> .  
كما ذهبت وحدها إلى ورقة ، وأخبرته بخبر زوجها ، تريد أن تعرف شيئاً  
عنه ، فقال لها ورقة : قدوس ، قدوس ، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقتين يا  
خديجة لقد جاءه السماوس الأكبر الذي كان يأتي موسى ، وإنه لنبي هذه الأمة <sup>(٢)</sup> .

ولم تكف بما سمعت من ابن عمها ورقة ، بل ذهبت مرة أخرى إلى غلام  
لعبه من ربيعة بن عبد شمس ، بصري من أهل نينوى يقال له عداس ، فقالت له :  
يا عداس ، أذكرك الله إلا ما أخبرتني : هل عندكم علم عن جبريل ؟

قال عداس : قدوس ، قدوس ، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان .

<sup>(١)</sup> الدنيا والنهاية ج ٣ ص ١٣ .

<sup>(٢)</sup> أنظر ص ٣١٢ .

فقال : أخبرني بعلمك فيه .

قال عداس : هو أمين الله بينه وبين البين ، وهو صاحب موسى وعيسى " عليهما السلام " <sup>(١)</sup> .

لقد تميزت خديجة " رضي الله عنها " بكمال الخلقة ، والخلق ، يقول عنها

" ﷺ " : ( خير نساءها خديجة بنت خويلد ) <sup>(٢)</sup> وقد جعلت عقمتها الكامل في خدي

محمد " ﷺ " ودعوته ، وكانت " رضي الله عنها " خير معين لمحمد " ﷺ " ولما

بشرها الله ببيت في الجنة <sup>(٣)</sup> ..

ونلاحظ مدى ملاطفتها ، وتقديرها لزوجها في مآداته يا ابن عم . . . ولذلك

فقد استحققت التقدير من رسول الله " ﷺ " ، يقول " ﷺ " : " إلى رزقت حبها " <sup>(٤)</sup>

### فتور الوحي :

واطمأن محمد " ﷺ " لصدق ما رأى ، وما سمع ، وتيقن أن الذي كان يأتيه

هو وحي الله . وتأكد أنه فاز بذلك فوزاً عظيماً .

وحين يستوعب كل ما رأى ، وتبدأ نفسه فتر الوحي ، وانقطع عنه جبريل

" ﷺ " فمكث " ﷺ " أياماً لا يرى جبريل ، فحزن حزماً شديداً ، وأخذ يدور بين

بين رعوس الجبال عساه يراه ، ويحدثه ، وحاول أن يتردى من رعوس شواطئ الجبال

من شدة ألمه لانقطاع جبريل عنه .

وقد شق هذا الفتور على رسول الله " ﷺ " لأنه لم يكن خوطب بعد من الله

بأنه رسول الله ، ومبعوثه إلى العباد ، فحاف أن يكون ذلك أمراً بدئ به ثم لا يزال

استتمامه ، فحزن لذلك ، ولذلك أتاه جبريل بعد ذلك وأخبره بأنه رسول الله .

<sup>(١)</sup> البداية والنهاية ج ٣ ص ١٣ .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم ... كتاب فضائل خديجة ج ١٥ ص ١٩٨ .

<sup>(٣)</sup> المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

<sup>(٤)</sup> المصدر السابق ج ١٥ ص ٢٠١ .

يقول الزهري : فكئنا وافي ذروة جبل لكي يلقي نفسه منه تبدي له جبريل  
فقال له : يا محمد أنت رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك حاشته ، وتقر عينه ويرجع ،  
فإذا طالت فترة الوحي غداً لمثل ذلك ، فإذا أوفى ذروة الجبل تبدي له جبريل ،  
فقال له مثل ذلك (١) .

سأله البعض : كيف يجوز للنبي " ﷺ " أن يفكر في إلقاء نفسه من ذروة

الجبل ؟

**والجواب :** أن ذلك كان هماً ، لا قراراً .

وكان يظن أن قوته عاجزة عن تحمل ما يتوقعه من أعباء النبوة .

ووفقاً لما قد جعل له " ﷺ " حين القيام بها من مبالغة الخلق جميعاً ، وعداوتهم .

وذلك كما يطلب الرجل الراحة من غم يناله في العاجل ، مما يكون فيه رواله

عنه ، ولو أفضى إلى إهلاك نفسه عاجلاً ، حتى إذا تفكر فيما سيكون من

العقبي الخسودة صبر ، واستقرت نفسه .

والعلاء يتلفون في تحديد مدة انقطاع الوحي ، فبعضهم يذهب إلى أن الوحي

انقطع مدة قاربت الستين ونصف ، وبعضهم يرى أنها كانت أياماً ، إلى غير ذلك

من الآراء ، يسري ابن إسحاق : أنها كانت ثلاث سنوات ، ويرى ابن كثير : أنها

كانت ستين ونصف ، ويرى ابن عباس : أنها كانت أربعين يوماً ، ويذهب ابن

الجوزي : إلى أنها كانت خمسة عشر يوماً ، ويرى مقاتل : أنها كانت ثلاثة أيام ،

والرأي الأول بالاعتبار هو في تفسير مدة الانقطاع لمناسبة مقام الرسول عند ربه ،

ولأنه من الأمور التي إذا طالت انتشرت ، وعرفت ، واشتهرت ، كما أن الانقطاع

مدة طويلة يؤدي إلى ضياع كثير مما تم بناؤه في دنيا الناس ، وحياة رسول الله " ﷺ "

\* \* \*

## المبحث الحادي عشر

### صور الوحي

تعتبر مدة انقطاع الوحي فاصلاً بين النبوة والرسالة، فلقد نبى ﷺ لثمان مئتين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعين من عام الفيل، ونزل عليه القرآن الكريم في شهر رمضان من نفس العام، والمدة بينهما هي فترة النبوة . وبعدها كان الرسالة ولقد كان الوحي إلى رسول الله ﷺ " يأتيه بصور عديدة منها : —

**الأول :** الرؤيا الصادقة في المنام ومثاله رؤية إبراهيم " **الثاني :** كما يقول

تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْكُرُ ۚ مَاذَا تَرَى ؟ ۚ قَالَ يَأْتِيَتِ أَحْمَدُ بْنُ

تُومَرٍ <sup>(١)</sup> فدل على أن الوحي كان يأتيهم في المنام كما كان يأتيهم في اليقظة، وما

رأى رسول الله ﷺ " لما بعث رؤيا ألا جاءت مثل فلق الصبح .

يروى البخاري بسنده عن عبيد بن عمير : رؤيا الأنبياء وحي <sup>(٢)</sup> .

**الثاني :** أن ينفت الملك في روعه وقلبه من غير أن يراه ، كما قال " **الثالث :**

: إن روح القدس نفث في روعي ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله

وأجملوا في الطلب ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله فإن ما يحظون

الله لن ينال إلا بطاعته <sup>(٣)</sup> .

يقول المفسرون في قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ۚ ﴾ <sup>(٤)</sup>

هو أن ينفت في روعه بالوحي الذي يخص القلب دون السمع .

<sup>(١)</sup> سورة الصفات آية ( ١٠٢ ) .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب الوحي ج ١ ص ١١ .

<sup>(٣)</sup> سنن أبي داود والرشاد ج ٢ ص ٢٥٢ .

<sup>(٤)</sup> سورة النور آية ( ٥١ ) .

**الثالث :** أن يأتيه مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليه ، فيتلبس به الملك حي

إن جئته ليفصم عرقاً في اليوم الشديد البرد ، وحتى إن راحته لتترك على الأرض .

يروى الشيخان عن عائشة " رضي الله عنها " أن الحارث بن هشام " رضي الله عنه

سأل رسول الله " ﷺ " : كيف يأتيك الوحي ؟ فقال رسول الله " ﷺ " : أحياناً

يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال ، وأحياناً

يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول <sup>(١)</sup> .

وروى ابن سعد بسند رجاله ثقات عن أبي سلمة الماجنون أنه بلغه أن رسول

الله " ﷺ " كان يقول : ( كان الوحي يأتيني على نحوين : يأتيني به جبريل فيلقيه

علي كما يلقي الرجل الرجل فذاك يتفلسف مني ، ويأتيني في شيء مثل صلصلة

الجرس حتى يخالط قلبي فذاك لا يتفلسف مني ) <sup>(٢)</sup> .

**الرابع :** أن يكلمه الله تعالى بلا واسطة من وراء حجاب في اليقظة كما في

ليلة الإسراء على القول بعدم الرؤية .

**الخامس :** أن يكلمه الله تعالى كفاحاً غير حجاب على القول بالرؤية ليلة

الإسراء .

**السادس :** أن يكلمه الله تعالى في النوم ، كما في حديث معاذ عند الترمذي

: أني ربي في أحسن صورة فقال : ( فيم يختصم الملا الأعلى ) <sup>(٣)</sup> . وهذا النوع

يختلف عن الرؤية المنامية ، لأن هذا كلام الله تعالى .

وذكر بعضهم أن من هذا النوع نزول سورة الكوثر لما رواه مسلم عن أنس

قال : بينما رسول الله " ﷺ " بين أظهرنا إذ أغفى إغفاءة ثم رفع بصره مبسماً

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري ، كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٤ .

<sup>(٢)</sup> طبقات ابن سعد ٢ / ١٩٧ .

<sup>(٣)</sup> سنن الترمذي ، باب رقم ( ١٢ ) .

فقرا : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ﴾ ﴿ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ ﴾ ﴿ إِنِّي شَانِئٌكَ هُوَ الْإِنْتَرَى ﴾<sup>(١)</sup>  
وكانت قد نزلت عليه قبل ذلك ، على الأصبغ ، وهذه مرة أخرى تنزل فيها  
المسورة لأن القرآن الكريم نزل كله في البقعة .

**السابع :** يحيى الوحي كدوى النحل .

روى الإمام أحمد والمحاكم . عن عمر بن الخطاب " رضي الله عنه " قال : كان  
رسول الله " ﷺ " : ( إذا أنزل عليه يسمع عند وجهه دوى كدوى النحل )<sup>(٢)</sup>

**الثامن :** العلم الذي يلقيه الله تعالى في قلبه وعلى لسانه ، عند الاجتهاد في  
الأحكام .

لأنه اتفق على أنه " ﷺ " إذا اجتهد أصاب قطعاً ، وكان معصوماً من الخطأ  
وهذا خرق للعادة في حقه " ﷺ " دون الأمة ، وهو يفارق النفس في البرع من حيث  
حصوله بالاجتهاد ، والنفس بدونه .

ولقد كان الوحي ثقيلاً كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾<sup>(٣)</sup>  
ويرجع ثقل الوحي إلى ما يتضمنه من عقيدة ، وشرعة ، وأخلاق ، بحيث لا يقدر  
على حملها ، والعمل بها سوى العتلاء ، الذين يحكمون عقولهم ، وسيطرون على  
هواهم ونفوسهم .

ومن دلالات ثقل الوحي ما كان يحدث لرسول الله " ﷺ " حين ينزل  
الوحي عليه الآثار التي رواها أصحابه " رضوان الله عليهم " ، ومنها : —  
— يقول زيد بن ثابت " رضي الله عنه " عن عائشة " رضي الله عنها " أنها قالت : أنزل على  
رسول الله " ﷺ " وفخذه على فخذي فكادت فخذه ترض فخذي .

<sup>(١)</sup> مسند أحمد ١ / ٢٤٦ .

<sup>(٢)</sup> سورة الزمر ( ٥١ ) .



— وقالت عائشة "رعى الله عنها" : إن كان ليوحي إلى رسول الله ﷺ " وهو على راحته فتضرب بجراهما فما تستطيع أن تتحرك حتى يسرى عنه ، وتلت الآية <sup>(١)</sup> ويقول أبو هريرة الدوسي " ﷺ " : رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ " وإنه على راحته فترغوا ، وتفتل يديها ، حتى أظن أن ذراعها تنقص ، فرجما بركت ورجما قامت مؤتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي ، وإنه ليتحدر منه مثل الجمان <sup>(٢)</sup> .

— ويقول عاصدة بن الصامت " ﷺ " : كان رسول الله ﷺ " إذا نزل عليه الوحي كرب لذلك وتربد وجهه وغمض عينيه <sup>(٣)</sup> .

— ويقول أبو هريرة " ﷺ " : كان رسول الله ﷺ " إذا أوحى إليه لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى يقضى الوحي <sup>(٤)</sup> .

— ويقول عائشة "رعى الله عنها" : ( ولقد رأيتني ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً ) <sup>(٥)</sup> .

— وتقول أسماء بنت يزيد " ﷺ " : كنت آخذة بزمام ناقة رسول الله ﷺ " حين أنزلت عليه سورة المائدة فكاد يتكسر عضدها من ثقل السورة <sup>(٦)</sup> .

— وفيه قول ابن عمر " ﷺ " : أنزلت على رسول الله ﷺ " سورة المائدة وهو راكب على راحته فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها <sup>(٧)</sup> .

﴿ إِنَّا سَأَلْنَا عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا ﴾

<sup>(١)</sup> حاشية ابن سعد ١ / ١٩٧ .

<sup>(٢)</sup> تاريخ الإسلام - شرح النووي - كتاب الفضائل - ج ٢ ص ٣٤٤ .

<sup>(٣)</sup> صحيح مسلم - شرح النووي - كتاب الجهاد - باب فتح مكة ج ١٢ ص ١٢٨ .

<sup>(٤)</sup> صحيح البخاري - باب بدء الوحي ج ١ ص ٤٠ ومعنى يتفصد : يفضل .

<sup>(٥)</sup> حاشية ابن سعد ١ / ٢٤٤ .

<sup>(٦)</sup> حاشية ابن سعد ١ / ٢٤٤ .



**وفي الآية الثانية :** ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ ﴾ أمر بالقيام والنهوض : وترك النوم ،

والكسل . وضرورة التصميم الجاد ، والسعي المستمر في الدعوة لدين الله تعالى .  
ولكن الإنذار أول الأمر مع الناس ، وهو المناسب لهم ، تنبيهاً لعقولهم ، وتعريفهم  
بالخطر الذي يترصد الغافلين ، الساترين في الضلال ، وهذا الإنذار رحمة من الله للناس ،  
لأنه يعطيهم الفرصة لينقذوا أنفسهم من ضلال الدنيا ، وعذاب الآخرة .

وتجنى الرحمة في هذا الإنذار بأنه يأتيهم بواسطة رسول ، بدعو ويبين ،  
ويكرر ، ويصبر ، ويستمر طويلاً في دعوتهم ، عساهم يستجيبون : ويتأثرون .  
والرسول " ﷺ " كما هو منذر فهو مبشر إلا أن المقام أكتفى بالإنذار مراعاة  
لأحوال المحاطين .

**والآية الثالثة :** ﴿ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ۚ ﴾ توجه رسول الله خاصة لمعرفة مقام الله

وعظمته التي تصغر أمامه سائر القوى ، فهو وحده الكبير المتعال ، وهذا التصور  
يعيش الرسول " ﷺ " في دعوته الناس أمناً ، لا يتأثر بمعارضاتهم ، أو عداوتهم ، لأنه  
مع الله القوى العزيز .

يقول سيد قطب : ليوافقه بذرة البشرية ، ومتاعبها ، وأهوالها ، وأنتابها ، هذا  
التصور ، وهذا الشعور ، هيستصغر كل كيد ، وكل قوة ، وكل عقبة . وهو  
يستشعر أن ربه الذي دعاه ليقوم بهذه النذارة ، هو الكبير : وكما أن مشاق الدعوة ،  
وأهوالها في حاجة دائمة إلى استحضار هذا التصور ومعايشة هذا الشعور <sup>(١)</sup> .

**والآية الرابعة :** ﴿ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۚ ﴾ توجه الرسول " ﷺ " للمحافظة

على طهارة الظاهر والباطن ، لأن التقى عن الملا الأعلى يتناسب مع هذه الطهارة .  
وطهارة الثوب كناية عن طهارة القلب ، والعسل ، والسلوك .  
والخشب للطهارة ، المتعود عليها ، يعمل أن لا يقع في غيرها .

والطهارة عموماً ضرورة لمزاولة مهام الرسالة والدعوة وسد الفجوات  
المنحرفين ، وبذلك يدعوهم الرسول ﷺ ، ولا يتأثر بهم ، وبخاصة أن أهل الباطل  
وأنصار الشيطان يحاولون التغلب على أهل الحق بأخذهم إليهم ، مستعينين بوسائل  
الهوى ، ومغريات الشهوات ، وبكافة ما يمكنهم من إغراء .  
ولذلك كانت الطهارة ضرورة للرسول والدعاة ..

### والآية الخامسة : ﴿ وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ۖ ﴾ والرجز شامل للشرك ، ولسائر

المعاصي ، والرجز معناه العذاب ، أطلق على مسيئاته للإشارة إلى أن العقوبة ملازمة  
للمعصية ، وقد أمر الله تعالى النبي ﷺ " بالهجر وليس بالترك فقط ، لما في الهجر من  
ترك ونفور ، وكراهية ، وتباعد ، والرسول ﷺ " كان هاجراً للشرك  
ولوجبات العذاب حتى قبل النبوة ، فقد عافت فطرته السليمة الانحراف ، وبعد عن  
أنواع المعتفادات الشائنة ، وترك الرجس من الأخلاق والعادات ، ولم يعرف عنه أنه  
شارك في صن من هوس الجاهلية وأخطائهم ، ومع كل هذا كان هذا التوجيه الذي  
يعني ضرورة المفاصلة ، وأهمية إعلان التميز الذي لا صلح فيه ، ولا هوادة معه ، فيها  
طريقان مفترقان لا يلتقيان ، كما يعني التحرز من دس هذا الرجز ، ودواعيه ..

### والآية السادسة : ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۖ ﴾ توجه الرسول ﷺ " إلى علم

المن على الناس ، وعدم استكثار ما سوف يعطيه لهم ، فهو مكذب بالغطاء  
وسيعطي الكثير في إصلاح الحياة للناس أجمعين ، فعليه البذل ، والعطاء ، بلا من  
وبلا عدد ، وبذلك يعظم العطاء ، ويعظم صاحبه .

إن النبوة فضل إلهي ، وعلى الرسول أن يدوم تذكراً ، عابداً متحياً بمكارم  
الأخلاق ، وليس المن من الخلق الكريم أبداً .

### والآية السابعة : ﴿ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۖ ﴾ تشمل على أمر كريم يحتاجه الرسول في

سيرته مع النبوة ، والدعوة ، وعليه أن يصبر مع نفسه وهو يقاوم شهواتها ، ومع الوخا

وهو يسمعه وينظفه، ومع الناس وهو يعلمهم، ومع الأعداء وهو يقاومهم .

إن المعركة طويلة، والصبر هو الزاد الذي يلائمها ، وهو الذي يحقق الفوز في النهاية .  
وهذه الآيات السبعة الأولى في سورة المدثر نزلت في أول الوحي بالرسالة بعد  
فتور الوحي متضمنة الأسس الرئيسية للحركة بدين الله تعالى ، ولذلك جاءت إعلاناً  
واضحاً عن أساسيات القيام بالرسالة ، وأهم ما يجب أن يتحلى به الرسول والدعاة .  
وأما أول سورة العلق فقد نزل في مرحلة الوحي بالنبوة التي استمرت سنة  
أشهر : ليعرف النبي ﷺ " ربه " ، ويقف على كمال صفاته ، وحقائقها ، وبألف  
لقاء الملائكة ، وتلقي الوحي من ربه .

يذهب البعض إلى أن أول المدثر نزل أولاً استناداً إلى حديث البخاري الذي  
رواه عنه عن يحيى بن أبي كثير قال : سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن عن أول  
ما نزل من القرآن ؟

قال : ﴿ يَتَّخِذُ الْمُدَّثِّرُ ﴾ ..

قلت : يقولون : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾

فقال أبو سلمة : سألت جابر بن عبد الله " رضى الله عنه " عن ذلك . وقلت له مثل ما قلت  
ن ، فقال جابر : لا أحدثك إلا ما حدثنا رسول الله " ﷺ " قال : ( جاورت بحراء  
فلما قضيت جوارى ، هبطت ، فتوديت ، فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ، ونظرت  
عن شمالي فلم أر شيئاً ، ونظرت أمامي فلم أر شيئاً ، ونظرت خلفي فلم أر شيئاً ،  
فرفعت رأسي فראيت شيئاً ، فأثيت خديجة فقلت : ( دثروني وصبوا عليّ ماء بارداً )  
قال " ﷺ " : فداثروني وصبوا عليّ ماء بارداً ، قال ، فنزلت : ﴿ يَتَّخِذُ الْمُدَّثِّرُ ﴾  
قَمْ فَأَنْذِرْ ﴿١﴾ وَرَبُّكَ فَكَبِيرٌ ﴿٢﴾ ..

ويروى مسلم حديثاً يشير كذلك إلى أن أول المدثر نزل أولاً ، فلقد روى بسنده عن أبي سلمة قال : أخبرني جابر بن عبد الله ، أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث عن فترة الوحي ، فقال في حديثه : **فَإِنَّمَا أَنَا آمُشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي قَبْلَ السَّمَاءِ ، فَإِذَا الْمَلِكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحُرَاءَ ، جَالِسًا عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، فَجِئْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتَ إِلَى الْأَرْضِ ، فَجِئْتُ إِلَى أَهْلِي فَقُلْتُ : ( زَمَلُونِي ، زَمَلُونِي ، فَدَثَرُونِي ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿ يَتْلُوهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ ﴿ ١ 〉 قُمْ فَأَنْذِرْ ﴾ ﴿ ٢ 〉 وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴾ ﴿ ٣ 〉 وَتَبَارَكَ فَطَهِّرْ ﴾ ﴿ ٤ 〉 وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾ ﴿ ٥ 〉 》 قال أبو سلمة : والرجز الأوثان ، ثم حمسى الوحي بعد ذلك وتتابع ( <sup>(١)</sup> ) ، ورواه البخاري من هذا الوجه أيضاً ( <sup>(٢)</sup> ) .**

يعلق ابن كثير في تفسيره على هذا الاختلاف فيقول ، والأول القول بأن جبريل نزل بأول سورة العلق في بداية النبوة ، وأن نزول أول سورة المدثر كان في بداية الرسالة ، لأن في حديث نزول أول سورة المدثر الذي رواه مسلم وغيره إشارة إلى المنجي السابق لجبريل ، حيث يقول : ( فإذا الملك الذي جاءني بحرأه ) يوم أن جاءني بأول سورة العلق : وهذا يفيد أن أول سورة نزلت بعد فتور الوحي هي المدثر ، وهي أول وحي الرسالة ، وعلى هذا فأولية نزول أول العلق أولية مطلقة ، وأولية أول سورة المدثر مفيدة بما بعد فتور الوحي ، وبداية الرسالة ( <sup>(٣)</sup> ) .

ويذهب البعض إلى أن أول سورة المزمل نزل قبل المدثر ، لكن هذا الرأي مردود لأن أول سورة المدثر فيه أمر بالإنذار ، وهذا يكون في أول المبعث ، أما أول سورة المزمل ففيها الأمر بقيام الليل ، وترتيل القرآن ، وهذا يقتضي تقديم بشرى

<sup>(١)</sup> صحيح مسلم — كتاب الإيمان — باب بدء الوحي ج ٢ ص ٢٠٦ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري : شرح فتح الباري ، — كتاب التفسير — باب وربك فذكر ج ٨ ص ١٧٧ ، ١٧٨ .

<sup>(٣)</sup> تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٠ .

الصلاة ، ونزول كثير من آيات القرآن الكريم ينلوها النبي في الصلاة ، وفي سبب  
الصلاة ، حب أمر بذلك .

ويذهب البعض إلى أن سورة الضحى هي التي نزلت أولاً بعد فترة الوحي ،

مسنداً بقوله تعالى : ﴿ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى ﴾ (١)

لأن أم جميل بنت حرب امرأة أبي لهب ، لما تباطأ الوحي عن رسول الله "

ﷺ" لينير أو تلاتاً قالت للنبي " ﷺ" ودعك ربك وقلاك ، فنزلت ..

يرد الحافظ ابن حجر هذا فيقول : الحق أن الفترة المذكورة في سبب نزول

والضحى غير الفترة المذكورة في ابتداء الوحي ، فإن تلك دامت أياماً وهذه لم تكن

إلا لينير أو تلاتاً ، فاحتلطنا على بعض الرواة .

وقد ست أن الوحي كان يفتر عن النبي " ﷺ" أحياناً كما حدث قبل نزول

سورة الكهف، فإن النبي لما سئل عن أصحاب الكهف، قال : سأحدثكم بها غداً ولم

يستثن مفر عنه الوحي -خمسة عشر يوماً<sup>(١)</sup>، فقال الله له : ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي

فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ۖ (٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي

رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ (٣) ﴾ فسدل ذلك على أن القول بالأولية فيه اختلاف

كبير بين العلماء ، بسبب اختلاف اعتبار كل قول<sup>(٢)</sup> .

وبعد نزول أوائل سورة المدثر تتابع الوحي ، واستمر في مكة والمدينة ، حتى

لحق الرسول ربه .

\* \* \*

<sup>(١)</sup> انظر : تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٩٠ ، ٥٢٢ تفسير .

<sup>(٢)</sup> انظر : ابن كثير ج ٣ ص ٧٢ .

## المبحث الثاني عشر

### السيرة الحمديدية

#### من الرسالة حتى الهجرة

بعد أن كلف رسول الله ﷺ بالرسالة تحول نشاطه إلى العمل بالتبليغ وسيطرت عليه جوانب الرسالة سيطرة كاملة .

فهو " ﷺ " يتلقى الوحي من الله ، ويبلغه لمن حوله ، ويدعو به كل من سمع ويبدل في سبيل هذا وقته ، وجهده ، ونشاطه كله .

وكانت زوجته معه خير رفيق لهذه الرحلة الكريمة الشاقة ..

وحيث أن الفصل التالي خاص بحركة الرسول " ﷺ " بالدعوة إلى الناس

وهو بذلك متضمن للرسول محمد ، ورسالته في الفترة المكية ، فإن أورد هنا أهم الأحداث المتصلة بالسيرة الحمديدية موضوع الفصل .

وتتبعاً لجوانب السيرة الشخصية لمحمد " ﷺ " في الفترة المكية فإننا سأورد

الملامح العامة لسيرة محمد " ﷺ " خلال هذه الفترة مع التركيز على ما له صلة بالجانب الشخصي عند " ﷺ " ، وبذلك نقدم السيرة لتتقل إلى حركته " ﷺ " بالدعوة بعد ذلك .

وهذا سوف يتضمن هذا المبحث عدداً من المواقف التي تحدد مسار السيرة

النسوية ، وهي : —

#### • أولاً •

#### المرحلة السرية والسابقون إلى الإسلام

عاش النبي " ﷺ " بعد الرسالة في بيئة متألقة ، متحابة ، غلقت كان " ﷺ " يربي

عليها ، وينفق عليه ، وكان معه مولاه زيد بن حارثة ، بالإضافة إلى زوجته وأولاده ، فتكونت بذلك جماعة متألقة تجعل حركة الحياة في إطارها سهلة ، ميسرة

وهذا من فضل الله على محمد " ﷺ " ليقوم بمهام الرسالة على وجهها .



فقد امتت خديجة "رضي الله عنها" بالرسالة من لحظتها الأولى، وأخبرت  
 طمئناً محمداً "ﷺ" "وتسرى عنه، وتفسر له ما يرى في المعارف ويرضيه .  
 وتشاركه في مشاغبه ، ومسافله ، يقول ابن إسحاق : وأمت به خديجة بنت خويلد  
 وصلفت عما جاء به من الله ، وآزرته على أمره ، فكانت أول من آمن بالله ورسوله  
 وصلفت عما جاء به ، فخفف الله بذلك عن رسوله ، لا يسمع بشيء يكرهه من رد  
 عليه، وتكذيب له فيحتره ذلك إلا فرح الله عنه بها، إذا رجع إليها، تثبت، وتخفف  
 عليه ، وتصلقه ، ويحون عليه أمر الناس ، برحمها الله تعالى (١) .

وكانت "رضي الله عنها" عاقلة ، حكيمة ، تكون حيث يكون ، وتحب  
 ما يحب، وتتبع ما يتناه ، امتت بالدعوة، وعبدت ما كان يعبد في صدف وإخلاص .  
 جاء جبريل "الملك" إلى رسول الله "ﷺ" يعلمه الوضوء والصلاة بطريقة  
 عليه ، ففى الخبر أن جبريل أتى محمداً "ﷺ" وهو بأعلى مكة، فهمز له بعقبه في  
 ناحية الوادي، فأنفذت له منه عين، فتوضأ جبريل ، ورسول الله "ﷺ" ينظر إليه  
 ليريه كيفية الظهور للصلاة ، ثم توضأ رسول الله "ﷺ" كما رأى جبريل يتوضأ ،  
 ثم أقام به جبريل فصلى به، وصلى رسول الله "ﷺ" بصلاته .

وبما أنصرف جبريل جاء رسول الله "ﷺ" إلى خديجة ، فتوضأ أمامها، يريها  
 كيفية الظهور للصلاة، كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ لها رسول الله "ﷺ"  
 ثم صلى لها كما صلى به جبريل ، فصارت بصلاته (٢) .

ثم إن على من أن طالب رأى رسول الله وخديجة يصليان فقال : هذا يا محمد ؟  
 فقال رسول الله "ﷺ" : دين الله الذي اصطفى لنفسه، وبعث به رسوله، فأدعوك  
 إلى الله وحده، لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر بالآلات والعزى .

(١) سنن الترمذي، ج ١، ص ٤٠٢ .

(٢) سنن الترمذي، ج ١، ص ٣٦٨ .

فقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فليست بقاض أمراً حتى أحسدك به  
أبا طالب ليأذن لي فيه .

وكره رسول الله " ﷺ " أن يفشى علي سره قبل أن يستعلن أمره .  
فقال له : يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا .

فمكث علي تلك الليلة ، ثم إن الله تبارك وتعالى أوقع في قلب علي  
الإسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله " ﷺ " حتى جاءه فقال : ماذا عرضت علي  
يا محمد ؟

فقال له رسول الله " ﷺ " : تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وتكفر  
باللات والعزى وتبرأ من الأنداد .

ففعل علي " ﷺ " وأسلم <sup>(١)</sup> .

وأما زيد بن حارثة فقد كان مع رسول الله " ﷺ " منذ صغره ، مولى له  
لأن خديجة اشتريته ، ووهبته للنبي " ﷺ " وعمره ثمانى سنوات ، وهو من أوائل من  
أسلم حتى قال بعضهم : إنه أسلم قبل علي بن أبي طالب ، وبقي في كنف رسول  
الله " ﷺ " ، ونزل القرآن باسمه في قصة زواجه بزينب بنت جحش <sup>(٢)</sup> يقول تعالى :

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ  
وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ

مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا  
قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ۗ ﴾ <sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> سبل الهدى والرشاد ج ٢ ص ٤٠٣ .

<sup>(٢)</sup> أنظر : أسد الغابة في معرفة الصحابة ج ٢ ص ١٤٠ — ١٤٢ بصرف .

<sup>(٣)</sup> سورة الأعراف آية ( ٣٧ ) .

وإنما كانت الصلاة ، وكان الوضوء في أول المبعث على وجه الإباحة ،  
السنية ، فلما فرضت الصلاة في ليلة الإسراء : جاء الأمر بالوضوء في القرآن الكريم  
لأداء الصلاة المفروضة .

وهكذا تألفت هذه الجماعة بالإسلام ، وتوحد عملها ، وهدفها ، مما جعل  
السعادة تعرف على محمد " ﷺ " في بيته الكريم .

وسارت به الحياة هادئة في مرحلة الدعوة السرية : ومدتها سنتان ونصف  
على الأرجح ، لأن كفار مكة تصوروا محمداً واحداً من الخفء الذين يتكلمون من  
غير أن يؤثروا في غيرهم ، وبخاصة أنه لا يتكلم مع كل الناس ، وإنما كان يتخير أفراداً  
فليين متميزين بلبس الجناح ، والتواضع مع التروى والهدوء .

كما تصوروا أن محمداً سيفتر عن دعوته ، ويتركها بعد مدة حين ينصرف  
إلى الوحهاء عنه ، وصدفوا أنفسهم حينما رأوا أتباع محمد " ﷺ " من الفقراء ،  
والخفء . فلما جهر محمد " ﷺ " بالدعوة ، ودخل في الإسلام عدد يزيد كل يوم  
شعروا بالخطر ، وبدأوا في المواجهة والمقاومة ، والعدوان .

## • ثانياً •

### صلته بأعمامه

أعمام النبي " ﷺ " هم أبناء عبد المطلب ، وكانوا جميعاً يحبون محمداً ويرون  
فيه أحلامهم عبد الله ، الذي استسلم للمذبح فداء لهم ، ومات ، ومحمد حمل في بطن أمه  
حتى أن عمه أبا لهب أعترف جاريته " ثويبة " فرحاً بمولده " ﷺ " .

وقد أنزله حده منزلة خاصة ، فلما مات عبد المطلب ، كفله عمه الشقيق  
" أبو طالب " ، كان أعمامه جميعاً يهتمون بشأنه ، فإذا رحل للتجارة أو صورا القافلة به .  
وفي يوم زواجه من خديجة كانوا معه ، وشاركوه هذا الحادث السعيد .. فلما  
وُلد له " ﷺ " البنين والبنات خطب عمه أبو لهب لولديه عتبة وعتيبة بنتي رسول  
الله رقية وأم كلثوم .

وبعد أن أعلن محمد ﷺ "رسالته"، ونادى في مكة بدين الله تعالى ظل من  
أبو طالب على دين قومه ، ولم يدخل في الإسلام، ومع ذلك بقى يدافع عن محمد  
ويرد من يقصده بسوء .

ثم إن قريشاً حين عرفوا أن أبا طالب أبى خذلان رسول الله ﷺ وأعلن  
وقوفه بجانبه ، مشوا إليه بعسارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له : قد بلغنا يا أبا طالب  
الكثير عن ابن أخيك محمد : هذا عسارة بن الوليد ، أخذ فتى ثي قريش وأخذ  
فخذة فلتك عقلة ونصره ، واتخذه ولداً فهو لك ، وأسلم إلينا ابن أخيك هذا الذي  
قد خالف دينك ودين آبائك ، وفرق جماعة قومك ، وسفه أحلامهم ، فنقلته ، ففما  
هو رجل برجل .

فقال لهم أبو طالب : والله لبئس ما تسوموني ! أتعطوني انكم أغنوه لكم  
وأعطىكم ابني تقتلونه ؟ ! هذا والله مالا يكون أبداً .

فقال المطعم بن عدى بن نوفل بن عبد مناف بن قصي : والله يا أبا طالب انك  
أنصفك قومك ، وجهدوا على التحلص مما تكرهه ، فما أراك تريد أن تفعل منهم شيئاً .  
فقال أبو طالب للمطعم : والله ما أنصفوني ، ولكنك قد أجمعت خذلان  
ومظاهرة القوم على : فاصنع ما بدا لك <sup>(١)</sup> .

وقد تجمع أعمامه حوله " ﷺ " حماية له ما عدا آل طي ، فقد أعماه الله عن  
الحق ، وأخذ في عداوة محمد ﷺ " والصد عن الدعوة حتى أنه أمر ولديه بقتل  
بنات النبي ﷺ " ، وأخذت أمهاته في وضع الشوك ، والخطب : والقدر أمامهم  
محمد ﷺ " .

ولما عزم قريش على قتل محمد جاءوا يستأذنون قومه ، وهم بنو هاشم  
وبنو المطلب ، لأخذه ، وقتله برضى قومه ، فأبوا ذلك عليهم ، ورفضوا تسليمه  
مع أنهم لم يدخلوا في الإسلام يومذاك ، وعصية ، وخوفاً من العار .

إن أعمام النبي ﷺ " ظنوا معه عصبية ، حتى أن عمه حمزة أسلم بسبب دفاعه عن محمد ﷺ " ..

فقد حدثوا أن أبا جهل مر على محمد ﷺ " وهو عند الصفا فأذاه ، وشتمه ، وقال منه بعض ما يكره من العيب لديه ، والتضعيف لأمره ، فلم يرد عليه رسول الله ﷺ " ولم يكلمه ، وكانت مولاة لعبد الله بن جدعان ، في مسكن لها تسمى ما قاله أبو جهل ، وشاء الله تعالى أن يمر حمزة راجعاً من قنص له ، متوشحاً فوسد ، فقالت له المرأة يا أبا عماره : لو رأيت ما لقي ابن أخي محمد انسا من أبي انحكمت عمرو بن هشام ، وجدده هنا جالساً فأذاه ، وسبه ، وبلغ منه ما يكره . ثم انصرف ، ولم يكلمه محمد ﷺ " فاحتمل حمزة الغضب ، فخرج يسعي ، ولم يثقت إلى أحد حتى أتى أبا جهل ، وهو حابس ، في نادى القوم حول المسجد ، فصرخ بالقوم ، فشح رأسه شحة منكراً ، ثم قال : أتشتبه وأنا على دينه ، أقول ما يقول . فرد ذلك على إن استطعت .

فقام رجال من بني مخزوم ليصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل دعوا أبا عماره فقال والله قد سببت ابن أخيه سباً فبيحاً .

ونسبت حمزة من ساعدته على ما قاله : فأسلم وحسن إسلامه ، ويومئذ عرفنا قرين أن رسول الله ﷺ " قد عزز والمسلمين معه ، بإسلام عمه حمزة المعروف بينهم بأنه أعز حتى في قريش <sup>(١)</sup> .

وهكذا دافع عمه أعمامه ، لمؤلفته بينهم ، وحسن تعامله ، وكرم خلقه ، ولو كان غير ذلك لخلعوه ، وتركوه .. أما عمه أبو لهب فقد استمر مع أعداء محمد ﷺ " ، يصد عن سبيل الله تعالى .

## ثالثاً .

### الجهر بالدعوة

#### ومواجهة متاعب أهل مكة

استمرت الدعوة سرية مدة عامين وتصف ، ويعدها أمر الله رسوله بالجهر بالدعوة — وهنا أخذ كفار مكة في صرف النبي عن دعوته : وبدلوا لهذا الغرض كل ما أمكنهم ، وأهم ما لاقاه الرسول "ﷺ" منهم ما يلي : —

#### ١ - السؤال عن مدى صدق محمد "ﷺ" :

أخذ كفار مكة يبحثون عن مطعن يوجهونه لمحمد "ﷺ" ، فأرسلوا رسلاً إلى أهل الكتاب يسألون عن مدى علمهم بصدق محمد ، وكيفية كشف مزاعمهم يقول محمد بن إسحاق بسنده عن ابن عباس قال : بعثت قريش النضر بن الحارث ، وعقبة بن أبي معيط ، إلى أخبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم سلوهم عن محمد ووصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله ، فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء ، فخرجنا ، حتى أتينا المدينة ، فسألوا الأخبار عن رسول الله "ﷺ" ، ووصفوا لهم أمره ، وبعض قوله .

وقالوا : إنكم أهل التوراة ، وقد بحثناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا ..

فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث نأمركم بهن ، فإن أخبركم بهن فهو بين مرسل ، وإلا فرجل متقول ، فتروا فيه رأيكم .

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ، ما كان من أمرهم ، فإنهم قد كان لهم حديث عجب وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان يقول .

وسلوه عن الروح ما هي ؟

فإن أخبركم بذلك فهو نبي فاتبعوه ، وإن لم يخبركم فإنه رجل متقول ، فاصنعوا في أمر ما بدا لكم .

بأنبل النصر ، وعقدت حينئذ على قريش عقالا : يا معشر قريش قد حشاكم بتقصي ما بينكم وبين محمد ، قد أمرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أمورهم وأخبارهم بها .  
فصاعوا رسول الله ﷺ : فقالوا : يا محمد أخبرنا ، عن كذا وكذا . وسأله عن الأمور التي حشدوها لأحبار .

فقال لهم رسول الله ﷺ : أخبركم غدا عما سألتكم عنه ، ولم يستثن فأنصرفوا عنه .  
ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا ينزل عليه من الله وحى ، ولا يأتيه خبر من السماء .

حينئذ خرج أهل مكة ، وقالوا : قد مات محمد غدا ، واليوم خمس عشرة قد أصبحتنا فيها ولم يخبرنا مني عما سألناه عنه .

وبأنام رسول الله ﷺ من انقضاء الوحي عنه ، وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .  
وبعد خمسة عشر يوما جاءه جبريل " عليه السلام " من الله عز وجل سورة أصحاب الكعب ، وفيها بعثت الله على حزنه عليهم ، وأخبره عما سأله عنه من أمر الفتية ،  
والرجل الطوف وقول الله عز وجل : ﴿ وَاسْأَلُوهُمْ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ .

فلما أخبرهم بنبا ما سألوا عنه ، رجعوا إلى أنفسهم ، وعلموا أنه لا طاقة لهم بمواجهة رسول الله ﷺ ، فواجهه عقلية ، فكرية ، ولذا لجأوا إلى العدوان ، والإيذاء الشديد ، ومسر الكاديب ، والمفتريات حول محمد ودعوته .

٢ - موقفه الذي ذهب فيه : لما نزل قول الله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾

﴿ ١٠٠ ﴾ " خرج رسول الله ﷺ حتى صعد النبي " ﷺ " على الصفا فهتف : يا صباحاه .  
فقالوا : من هذا ؟

فَجَعَلَ ﷺ ينادى : يا بني فھر ! يا بني عدی ! وهكذا لبطون قريش جميعاً ،  
اجتمعوا ، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟ .  
فقال النبي ﷺ : " أرأيتم إن أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم  
أكنتم مصدقني ؟ " .

قالوا : نعم ، ما جربنا عليك كذباً قط .

قال ﷺ : " فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

فقال أبو هب : تبا لك سائر اليوم ، ألهذا جمعتنا ؟ فترأس ﷺ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ  
وَتَبَّتْ يَدَا أَبِي سَلَمَةَ .

و لم يكتف أبو لهب بهذا الموقف ، بل أخذ في التصدي لرسول الله ﷺ  
فكان يسير خلفه ويقول : إنه كاذب وأنا أعلم بحيره ، فهو ابن أخي ... وأخذ  
وزوجته في وضع الشوك والمخيط أمام بيت النبي ﷺ ليعجزه عن الخروج  
والحركة ، وفي روجته نزل قول الله تعالى : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ  
أُغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ۖ سَمَصَلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۚ وَأَمْرَأَتُهُ خَمَلَةٌ  
الْحَطْبِ ۚ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿١﴾

## ٢ . السخرية والإستهزاء بمحمد ﷺ :

أخذ كفار مكة يستهزئون برسول الله ﷺ " توهيناً لنفسه ، وتصرفاً للآخرين  
عنه ، فكانوا ينادونه بالجنون ، يقول الله تعالى : وَقَالُوا يَتَّبِعُنَا الَّذِي نَزَّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ

١١ - صحيح البخاري ، تاريخ فتح الباري ، كتاب التفسير ، باب سورة مائدة ، ج ٤ ، ص ٧٣٧ ، والكتاب المختار

والنعمان .

١٢ - سورة المسد .



إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿١٠﴾ ۞ وَيَصِفُونَهُ بِالسَّحَرِ وَالْكَذِبِ يَقُولُ سِحَابُهُ : ﴿١١﴾ وَعَجَبُوا أَنْ  
 جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿١٢﴾ ۞ وَكَانُوا بِشَيْعُونِهِ  
 يُسْتَفْلِكُونَهُ بِفُتْرَاتٍ نَّاقِمَةٍ ، وَغَوَّاطِفٍ هَائِجَةٍ ، وَكَرَاهِيَةٍ ظَاهِرَةٍ ، يَقُولُ تَعَالَى : ﴿١٣﴾ وَإِنْ يَكَادُ  
 الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُوكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ ﴿١٤﴾ ۞  
 وَكَانَ إِذَا حُلِسَ . وَحَوْلَهُ الْمُسْتَضْعِفُونَ مِنْ أَصْحَابِهِ اسْتَهْزَأُوا بِهِمْ ، وَقَالُوا هَؤُلَاءِ  
 حِلْسَاوَدُ الَّذِينَ هُمْ مِّنْ آلَ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِّنْ يَّبِينَا ۖ ﴿١٥﴾ فَرَدَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ بِأَنَّهُ وَحْدَهُ الْعَلِيمُ  
 يُخَفِّقُ النَّاسَ وَقُلُوبَهُمْ ، وَلَيْسَ لَهُمْ أَنْ يَقُولُوا عَلَيْهِمْ : وَذَلِكَ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿١٦﴾ أَلَيْسَ  
 اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ۖ ﴿١٧﴾ ، فَانْكَرَ عَلَيْهِمْ بِأَسْلُوبٍ يَبْرُزُ جَهْلَهُمْ ، وَخِيَتَهُمْ .

إِنْ كَفَّارُ مَكَّةَ كَانُوا بِتَصَرُّفِهِمْ بِاسْتِعْلَاءِ وَحَيْرَاتِ ، وَهُمْ يَتَعَامَلُونَ مَعَ رَسُولِ  
 اللَّهِ ، وَسَائِرِ أَصْحَابِهِ ، حَتَّى أَهْمَ جَعَلُوا الْمُؤْمِنِينَ مَادَّةَ سَحَرِيَّتِهِمْ ، وَدَعَايَةَ مُخَالَسَتِهِمْ ،  
 يَتَضَحَّكُونَ مِنْ عَقِيدَتِهِمْ ، وَيَتَغَامَزُونَ إِذَا رَأَوْهُمْ ، وَإِذَا رَجَعُوا إِلَى أَهْلِيهِمْ تَفَكَّهُوا  
 بِسِرِّهِمْ . مَعْتَمِدِينَ أَنَّهُمْ ضَلُّوا عَنِ الْحَقِّ ، بَتَرَكَهُمْ عِبَادَةُ الْأَوْثَانِ ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿١٨﴾ إِنَّ  
 الَّذِينَ أُجْرِمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يَضْحَكُونَ ﴿١٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ  
 ﴿٢٠﴾ وَإِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ انْقَلَبُوا فَكِهِينَ ﴿٢١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوا إِنَّ هَؤُلَاءِ  
 لَضَالُّونَ ﴿٢٢﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَافِظِينَ ﴿٢٣﴾ ۞

<sup>(١١)</sup> سورة السحر الآية ( ٢٦ ) .

<sup>(١٢)</sup> سورة مريم الآية ( ٤٠ ) .

<sup>(١٣)</sup> سورة النمل الآية ( ٥١ ) .

<sup>(١٤)</sup> سورة الأنعام الآية ( ٥٣ ) .

<sup>(١٥)</sup> سورة الأنعام الآية ( ٥٣ ) .

<sup>(١٦)</sup> سورة المائدة الآية ( ٢٩ - ٣٣ ) .

## ٤ . بحث الدعائية الكاذبة عنه :

أخذ الكفار يثبون الدعايات الكاذبة حول شخصية محمد " ﷺ " وعن القرآن الكريم الذى ينزل عليه حتى لا يصدقوه أحد، فقالوا عن القرآن ما حكاه الله تعالى فى قوله : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا ﴾ (١) وَقَالُوا أَسْطِطِرُّ الْأَوَّلِينَ أَسْخَتْهَا فِي تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٢) ﴿ ١٠ ﴾ وقالوا عن الرسول : ﴿ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُكَذِّبُ الْغُلَامَ وَيَمَّسُّ فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا (٣) ﴾ (٤) .

وكل ما قالوه ظاهر البهتان ، لأن القرآن الكريم كلام الله ، ولو كان من عند محمد كما زعموا فما بالهم يعجزون عن الإتيان بأقصر سورة منه ؟ ؟

ومن هم هؤلاء الآخرون الذين يعينون محمدًا ؟ ؟ ! إلههم بشر كما يزعمون .

فام نازككم دفعائون ؟ ولم لا يواجهوكم بالجدى ؟ ؟

وهل يكتب محمد عنهم وهو أمى ؟ ؟ لقد جاءوا بالزور والبهتان ! !

ولم يعترضون على بشرية محمد " ﷺ " أيريدونه ملكًا ؟ وكيف يتعاملون مع الملك ؟

إن قلوبكم قد عميت ، وكل اعتراضهم تبريرات لكفرهم وعنوهم . . .

رأيانهم يبحثون عن أى علة تساعدكم على كفرهم .

ذكروا أن الوليد بن المغيرة قال مرة لقريش : يا معشر قريش ! والله لقد أنزل عليكم أمر ما أوتيتم له بعيلة بعد ، قد كان عند فيكم غلاماً حديثاً أرضاكم خطاً ومسلماً ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى مسامعهم الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قاتلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر ، لقد رأيتم السحرة وقتلتمهم ، وعقدتمهم .

(١) سورة الفرقان آية ( ٥ ، ٦ ) .

(٢) سورة الفرقان آية ( ٧ ) .

كاهن ، لا والله ما هو بكاهن ، قد رأينا الكهنة ، وتخالجهم وسمعنا سجعهم .  
 شاعر ، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها ،  
 فزجه ، ورجزه ...

مجنون ، لا والله ما هو بمجنون لقد رأينا الجنون فما هو بخنقه ، ولا وسوسته ،  
 لا تليطه ، يا معشر فريش أنظروا في شأنكم فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم .  
 ثم ذهب الوليد إلى الخيرة بحثاً عن حل يريده ، فتعلم بها أحاديث ملوك الفرس  
 روقف على أخبار رستم ، وأسفنديار ، فكان إذا جلس رسول الله " ﷺ " جلساً  
 للذكر بالله والتحذير من نعمته ، خلفه البصر ، وهو يقول : والله ما محمد بأحسن  
 حديثاً مني ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ، ورستم وأسفنديار ، ثم يقول : بماذا يكون  
 عند أحسن حديثاً مني <sup>(١)</sup> .

وما درى الوليد أن حديث محمد " ﷺ " مع جماله يتضمن ديناً صالحاً ،  
 ومنهجاً طيباً ، وطريقاً لتحقيق سعادة الدنيا والآخرة وهو كلام الله . . وأما حديثه فهو  
 عيال كاذب . وإظهار لفظي لا حقيقة فيه ، ولا غاية له . . ولا فائدة معه .

وفي الوليد من الغيرة المخزومية نزل قول الله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ  
 وَحِيدًا ۖ وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا ۖ  
 ثُمَّ يَصْمَعُ أَنْ أُزِيدَ ۖ كَلَّا ۖ إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ  
 إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۖ فَقَبَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قَبَلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ  
 عَبَسَ وَبَسَرَ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا  
 قَوْلُ الْبَشَرِ ۖ ۞ ۱۲ ۖ وقصته مع القرآن الكريم ، ومع محمد " ﷺ " تشبه ما فعله النضر

<sup>(١)</sup> "تقدم القرآن" ج ٩ ص ٩ .

<sup>(٢)</sup> سورة النازعات ( ١١ - ٢٥ ) .

ابن الحارث فليقد ذكروا أن النضر قال : والله لقد نظرت فيما قال محمد ، فإني لم  
 ليس بشعر ، وإن له خللاوة ، وإن عليه لظلاوة ، وإنه ليعلو ما يعلى عليه ، وإنه  
 أنه مسحر ، فكأنه رقى له .

فلنخ ذلك أبا جهل بن هشام فأتاه فقال : أي عم إن قومك يريدون أن  
 ييسعوا لك مالا .

قال : لم ؟

قال : يعطونك فإنت أنيت محمداً تعرض لما قبله .

قال : قد علمت قریش أن أكثرها مالا .

قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك منه أنك منكر لما قال ، وأنت كارد له .

قال : فماذا أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجز  
 ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجني ، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله إن  
 لقوله الذي يقوله لخللاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو وما يعلى .

قال أبو جهل : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه .

قال : فدعني حتى أتفكر فيه ، فلما فكر قال : إن هذا إلا سحر يؤثره عن غيره (١)

#### ٥ . مساومات وتخليط :

حاول الكفار مرات عديدة أن يتعاون معهم محمد " ﷺ " في خلط الإسلام  
 بالكفر ، ليكونا سوياً ديباً خليطاً من هذا وذاك ، وأن يعبدوا الله يوماً ، ويعبد  
 أصنامهم يوماً آخر وهكذا .

يروى ابن إسحاق بسنده أن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى  
 والوليد بن المغيرة ، وأمية ابن خلف ، والعاص بن وائل السهمي — وكانوا ذوى أسلحة  
 في قومهم — اعترضوا محمداً وهو يطوف بالكعبة ، وقالوا له : يا محمد هلم فلنعبد  
 ما تعبد ، وتعبد ما نعبد ، فنشرك نحن وأنت في الأمر ، فإن كان الذي نعبد نجراً

(١) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٤٤٣ .

تعبداً كما قد أخذنا بحظنا منه ، وإن كان ما تعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذت بحظك منه ، فأنزل الله تعالى فيهم : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَتُمِّمُ عِبَادَتَكُمْ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عِبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عِبَادُونَ مَّا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ ، فكانت المفصلة الكاملة بين الإيمان والكفر .

### ١. الاضطهاد البدني :

كان أشد الناس إيذاء لرسول الله جيرانه ، وعلى رأسهم عمه أبو لهب ، يقول ابن إسحاق : كان نفر الذين يؤذون رسول الله " ﷺ " في بيته أبا لهب ، والحكم بن أبي العاص بن أمية ، وعقبة بن أبي معيط ، وعدى بن حمراء الثقفي ، وإن الأعداء المشركين — وكانوا جيرانه — لم يسلم منهم أحد إلا الحكم بن أبي العاص فإنه أسلم فيما بعد ، فكان أحدهم يطرح عليه " ﷺ " رحم الشاه ، وهو يصلي ، وكان أحدهم يطمحها في برمته إذا نصبت له ، حتى اتخذ رسول الله " ﷺ " حصراً ليستتر به منهم إذا صلى ، فكان رسول الله " ﷺ " إذا طرحوا عليه ذلك الأذى يخرج به على العود فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بني عبد مناف أي جوار هذا ؟ ثم يلقيه الطريق (١) .

وزاد عقبة بن أبي معيط في شقاوته وخبثته ، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود " رضى الله عنه " : أن النبي " ﷺ " كان يصلي عند البيت ، وأبو جهل وأصحاب له خلوس ، إذ قال بعضهم لبعض : أيكم يحب بسلا حزور بني فلان ، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد ، فانبعث أشقى القوم ( وهو عقبة بن أبي معيط ) فجاء به ، فنظر ،

(١) سورة الكافرون .

(٢) سورة النبي لآل منام ج ١ ص ٣٦١ .

(٣) سورة النبي ج ١ ص ٤١٦ .

حتى إذا سجد النبي ﷺ " وضعه على ظهره بين كتفيه ، وأنا أنظر : لا أغنى شيئا فجعلوا يضحكون ، ويعيل بعضهم على بعض ، مرحاً ، ورسول الله ﷺ " ساجداً لا يرفع رأسه حتى جاءت ابنته فاطمة ، فطرحته عن ظهره ، فرفع رأسه ، ثم قال : اللهم عليك بقريش ثلاث مرات ، قشق ذلك عليهم إذ دعا عليهم ، وكانوا يزولون أن الدعوة في ذلك البلد مستجابة . وقد سمى الرسول في دعائه فقال : اللهم عليك بأبي جهل ، وعليك بعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، والوليد بن عتبة ، وأمية بن خلف ، وعقبة بن أبي معيط ، وعد السابيع فلم تحفظه ، فو الذي نفسي بيده لقد رأيت الدين عبد رسول الله ﷺ " صرعى في القليب ، قليب بدر <sup>(١)</sup> .

وكان أمية بن خلف إذا رأى رسول الله ﷺ " حمزه ولمزه ، وفيه قول الله تعالى : ﴿ وَيَلْ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٌ ۖ ﴾ <sup>(٢)</sup> قال ابن هشام : الهماز : الذي يشتم الرجل علانية ، ويكسر عينيه ، ويغمز به ، والهمزة هو الشتم لنفسه ، واللماز الذي يعيب الناس سراً ويؤذيهم <sup>(٣)</sup> واللمزة هي العيب والأذى .

أما أخوه أبي بن خلف فكان هو وعقبة بن أبي معيط متصافيين ، جلس عقبة مرة إلى النبي ﷺ " وسمع منه ، فلما بلغ ذلك أبيا أمه ، وعاتبه ، وطلب منه أن ينزل في وجه رسول الله ﷺ " ففعل ، وأبي بن خلف نفسه هو الذي هتف عظماً رميماً ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ " <sup>(٤)</sup> .

وكان الأخنس بن شريق الثقفي ممن ينال من رسول الله ﷺ " ، وقد وصفه القرآن بشتم صفات تدل على ما كان عليه من خلق ردي ، وهي في قوله تعالى : وَلَا تُطْعَمُونَ مَهِينًا ۖ حَلَّافٌ ۖ هَمَّازٌ مَشَّاءٌ بِنَمِيمٍ ۖ مُنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُغْتَدٍ أَثِيمٌ ۖ عُتْلٌ بَعْدَ ذَلِكَ رَنِيمٌ <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري شرح فتح الباري - كتاب الموضوء - باب إذا أتى على المسلمي قار لو جرحه ٣٧ / ١

<sup>(٢)</sup> سورة المزة آية ( ١ )

<sup>(٣)</sup> سورة النور ج ١ ص ٣٥٦ - ٣٥٧ .

<sup>(٤)</sup> نفس المصدر ١ / ٣٦١ - ٣٦٢ .

<sup>(٥)</sup> سورة القلم ( الآيات : ١٠ - ١٣ ) .

وكان أبو جهل يحث أحياناً إلى رسول الله " ﷺ " يسمع منه القرآن ، ثم يذهب عنه فلا يؤمن . ولا يطيع ، ولا يخشى ، ويؤذى رسول الله " ﷺ " بالقول ، ويصد عن سبيل الله ، ثم يذهب مثلاً بما يفعل ، فخوراً بما ارتكب من الشر ، كما فعل شيئا يذكر ، وفيه نزل قول الله تعالى : ﴿ فَلَا صَدَقَ وَلَا صَلَّى ﴾ (١) وَلَكِنْ كَذَبَ وَتَوَلَّى ﴿٢﴾ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَمُطِّئُ ﴿٣﴾ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴿٤﴾ ثُمَّ أَوَّلَى لَكَ فَأَوَّلَى ﴿٥﴾ ﴿٦﴾ وكان يسمع النبي " ﷺ " عن الصلاة منذ أول يوم رآه يصلي في الحرم ، ومرة مر به وهو يصلي عند المقام فقال : يا محمد ألم أهلك عن هذا ، وتوعده فأعطاك رسول الله " ﷺ " وانتهره ، فقال : يا محمد بأي شيء تهددني ؟ أما والله إن لأكثر هذا الوادي نادياً ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴾ (٧) ﴿٨﴾ .

ولم يكن أبو جهل ليفيق من غباوته بعد هذا الانتهاز ، بل ازداد شقاوة فيما بعد . أخرج مسلم عن أبي هريرة قال : قال أبو جهل : هلي يعفر محمد وجهه بين أظهركم ؟

ف قيل : نعم !

فقال : والآلات والعزى ، لمن رأيت لأطان علي رقبتك ولأعفرن وجهك في التراب . فأتى رسول الله " ﷺ " وهو يصلي ، ليطأ رقبتك ، فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه وهو ولا ، وينتفي بيديه .

فقالوا : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : إن بيني وبينه لخدقاً من نار ، وهولاً ، وأجنحة .

فقال رسول الله " ﷺ " : لو دنا مني لاختطفته الملائكة عضواً عضواً (٩) .

(١) سورة النمل الآية ٣١ و ٣٥ .

(٢) سورة النمل الآية ٣٢ .

(٣) صحيح مسلم في رسول الله " ﷺ " من ١٦٦ .

## ٧ - محاولة قتل محمد " ﷺ " :

وصل حد كراهية القوم لرسول الله " ﷺ " أن كفار مكة حاولوا قتله من ذلك أن عتية بن أبي حُب أتى يوماً إلى رسول الله " ﷺ " فقال : يا أكرم مني : ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴾ <sup>(١)</sup> و ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى ﴾ <sup>(٢)</sup> ثم تسلط على الرسول بالأذى ، وشفق قميصه ، وتقل في وجهه " ﷺ " ، إلا أن البراق لم يقع عليه وحينئذ دعا عليه " ﷺ " وقال : اللهم سلط عليه كلباً من كلابك .

وقد استجيب دعاؤه " ﷺ " فقد خرج عتية مرة في نفر من قريش ، حتى نزلوا في مكان من الشام يقال له الزرقاء ، فطاف بهم الأسد تلك الليلة ، فجعل يحلهم يقول : يا ويل أخى هو والله آكلى كما دعا محمد عليّ ، فقتلني وهو بمكة ، فأتوا بالشام ، فغدا عليه الأسد من بين القوم وأخذ برأسه فذبحه <sup>(٣)</sup> .

وفي رواية هشام عن عروة عن أبيه ، أنه لما طاف الأسد بهم تلك الليلة انصرف عنهم ، فجعلوا عتية وسطهم ، فأقبل الأسد يتحفظهم حتى أخذ برأس عتية فذبحه <sup>(٤)</sup> .

ومنها ما ذكر أن عقبة بن أبي معيط وطلح علي رقبته الشريفة " ﷺ " وهو ساحد حتى كادت عيناه تبرزان <sup>(٥)</sup> .

ومما يدل على أن طعاقم كانوا يريدون قتله " ﷺ " ما رواه ابن إسحاق في حديث طويل ، قال : قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً قد أبى إلا ما نريد من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وشتم أمتنا : وإني أعاهد الله لأجلبن

<sup>(١)</sup> سورة النجم آية ( ١ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة النجم آية ( ٨ ) .

<sup>(٣)</sup> مختصرة سورة الرسول " ﷺ " ص ١٣٥ .

<sup>(٤)</sup> المرجع السابق ص ١٣٦ .

<sup>(٥)</sup> المصدر السابق ص ١٣٣ .



له غداً بحجر ما أطيقت حمله ، فإذا سجد في صلاته فضخت به رأسه ، فأسلموا عند ذلك ، أو امعوا ، فليصنع بعد ذلك ينو عبد مناف ما بدا لهم ، قالوا : والله لا نسلمك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فما أصبح أبو جهل ، أخذ حجراً كما وصف ، ثم جلس لرسول الله ﷺ " يتظره ، وغدا رسول الله ﷺ " كما كان يغدو ، فقام يصلي ، وقد غدت قريش فجلسوا في أنديةهم ، ينتظرون ما يفعله أبو جهل ، فلما سجد رسول الله ﷺ " ، احتل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه ، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً متنعماً لونه . برعوباً قد يست يداه على حجره ، حتى قذف الحجر من يده .

وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : ما لك يا أبا الحكم ؟

قال : فمت إليه لأفعل به ما قلت لكم البارحة ، فلما دغوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل ، لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قصرته ولا أنيابه لفحل قط ، فهم لي أن يأكلي .

قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله ﷺ " قال : ذلك جبريل ﷺ " لو دنا لأخذه (١) .

أما طلحة قريش فلم تزل فكرة قتل النبي ﷺ " تنضج في قلوبهم ، وتكبر في عقولهم ، وتفكيرهم : روى ابن إسحاق بسنده عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : حضرهم وقد اجتمع أشرفهم في الحجر ، فذكروا رسول الله ﷺ " ، فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط ، سفه أحلامنا ، وشتم آبائنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وشب آلهتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم ، فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ " فأقبل يمشي حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت ، فغمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك من وجه رسول الله ﷺ " .

فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك من وجهه ﷺ " .

ثم مر بهم الثالثة ، فغسروه بمثلها ، فوقف ثم قال : أنتم سمعون يا معشر قريش  
أما والذي نفسي بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته ، حتى ما منهم  
رجل إلا كأنما على رأسه طائر ، واقع ، حتى إن أشدهم فيه وصاة ليرفؤه بأجنس ما  
، ويقول : انصرف يا أيها القاسم ، فوالله ما كنت جهولاً .

فلما كان الغد اجتمعوا كذلك يذكرون أمره إذ طلع عليهم ، فوثبوا إليه  
وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به : فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع رداءه ، ومثله  
أبو بكر دونه ، وهو يبكي ويقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم انصرفوا عنه  
، قال ابن عمرو : فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشاً نالوا منه قط <sup>(١)</sup> .

وفي رواية البخاري عن عروة بن الزبير قال : سألت ابن عمرو بن العاص  
أخبرني بأشد شيء صنعه المشركون بالنبي ﷺ ، قال : بينما النبي ﷺ يصلي في  
حجر الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط ، فوضع ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً  
فأقبل أبو بكر حتى أخذ بمنكبيه ، ودفعه عن النبي ﷺ ، وقال : أقتلون رجلاً أن  
يقول ربي الله ؟ <sup>(٢)</sup> .

وفي حديث أسماء : فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقال : أدرك صاحبك ، فخرج  
من عنده ، وعليه غدائر أربع ، فخرج وهو يقول : أقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟  
فأقبلوا على أبي بكر ، فرجع إلينا لا نلمس شيئاً من غدائره إلا رجع معنا <sup>(٣)</sup>  
ولم تغادر فكرة قتله ﷺ عقولهم ، وبخاصة بعدما رأوا انتشار الإسلام ، وصالح  
المسلمين ، وتأكدوا أن بقاء محمد ﷺ سوف يؤدي إلى القضاء على عبادة  
الأصنام ، وحرمانهم من السيادة ، والتمسك به وكان أحرر محاولتهم مؤامرة ليلة الحجرة

<sup>(١)</sup> مسند الإمام أحمد ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، والعمدة القاض والسيوطي ، وصلة المسند ، ١١٣ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — باب ذكر ما فعل النبي ﷺ وأصحابه من طعن مكة ١ / ٢٤٤ .

<sup>(٣)</sup> مختصر سيرة الرسول ﷺ ج ١ ص ١١٣ .

## ٨. نتائج الاضطهاد :

مع الجهر بالدعوة، وخروج الرسول للعلن والمواجهة بدأ كفار مكة في إيذاء رسول الله وأصحابه .

وكان الاضطهاد في بدايته قليلاً ، ضعيفاً ، ثم أخذ يشتد شيئاً فشيئاً ، حتى وصل إلى حد النامر ، والتخطيط لقتل رسول الله ﷺ ، ونتيجة لهذا التصعيد في الاضطهاد أخذ رسول الله ﷺ يجمع أصحابه في دار الأرقم ليعلمهم الإسلام بعدا عن كفار مكة: كما أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة ، فهاجر إليها كثير من أصحابه . وقد حاول كفار مكة اعتقال المهاجرين ، والفنك بهم ، لكنهم فشلوا . ورأى المشركون والكفار أن أغلب المسلمين تركوا مكة ، وتركوا محمداً ﷺ مع قلة قليلة من أصحابه في مكة، وهاجروا إلى الحبشة، وغاظهم أن محمداً لم يضعف، ولم يترك دعوته ...

فذهبوا إلى عمه أبي طالب : وقالوا له : يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومروة فينا ، وإننا قد استهينناك من ابن أخيك فلم تنتهه ، وإننا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، وعيب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين .

عظم على أبي طالب هذا الوعيد، والتهديد الشديد ، فبعث إلى رسول الله ﷺ وقال له : يا ابن أخى إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا كذا فأيق على وعلى نفسك ، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله ، وأنه ضعف عن نصرته ، فقال : يا عم ! والله لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته — حتى يظهره الله أو أهلك فيه — ثم استعير وبكى ، وقام .

فلما ولي ناداه أبو طالب ، فلما أقبل قال له : اذهب يا ابن أخى فقل ما

أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبداً <sup>(١)</sup> ، وأنشد :

والله لن يصلوا إليك بجمعهم

حتى أوسد في التراب دفناً

فأصدع بأمرك ما عليك غضاضة

وأبشر وقر بذلك ملك عيوناً <sup>(٢)</sup>

فلما لم يحقق ذهابهم نتيجة يرجونها من أبي طالب، رجعوا بحيلة أخرى حيث ذهبوا

إليه بعمارة بن الوليد، ليأخذهم ويعطيهم محمداً، فأبى وقال لهم: والله ليس ما تسومونني

أعطوني ابنكم أغنوه لكم، وأعطيتكم ابني تقتلونه، هذا والله ما لا يكون أبداً <sup>(٣)</sup> .

وذهبوا إلى محمد " ﷺ " محاولين مساومته ، يقول ابن إسحاق : حدثني الوليد

ابن زياد عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً

قال يوماً ، وهو في نادى قريش ، ورسول الله " ﷺ " جالس في المسجد وحده

يا معشر قريش ألا أقوم إلى محمد ؟ فأكلمه وأعرض عليه أموراً نعله يقبل بعضها

فيعطيه أيها شاء ويكف عنا ؟

وذلك حين أسلم حمزة " ﷺ " ورأوا أصحاب رسول الله " ﷺ " يكتفون ويريدون

فقالوا : بلى ، يا أبا الوليد قم إليه ، فكلّمه ..

فقام إليه عتبة ، حتى جلس إلى رسول الله " ﷺ " فقال : يا ابن أخي إلك منا خير

قد علمت من السطوة في العشيرة ، والمكان في النسب ، وإنك قد آتيت قومك بأمر

عظيم ، فرقت به جماعتهم ، وسفّهت به أحلامهم ، وعبت به أختهم ، ودينهم

وكفرت بمن مضى من آباءهم ، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها، لعلك تقبل

منها بعضها.

فقال رسول الله " ﷺ " : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال عتبة: يا ابن أخي، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعا لك من

(١) سيرة النبي لآمن هشام ج ١ ص ٢٦٥ ، ٢٦٦ .

(٢) مختصر سيرة الرسول " ﷺ " ص ٦٨ .

(٣) وقد سبق ذكر هذه المحاولة في ص ٣٣١ .

من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لا تقطع أمراً دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك رؤيا تراه ، لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الضرب ،

وبلنا فيه أموالنا حتى نبرئت منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه .

ولما فرغ عتبة من حديثه .

قال له رسول الله " ﷺ " : أوقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم ، قال رسول الله " ﷺ " : فاسمع مني .

قال : أعمل .

فقال " ﷺ " : ﴿ حم ﴿ تنزيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾ كَتَبْتُ فَصَّلْتُ ءَايَتُهُ

قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٣﴾

وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِيْ أَكْمَةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِيْ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ

حِجَابٌ فَأَعْمَلْ إِنَّا عَمِلُونَا ﴿٤﴾ ۝ ثم مضى رسول الله " ﷺ " في السورة يقرأها عليه

فلما سمعها منه عتبة ، أنصت لها ، وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما بسمع منه ،

ثم انتهى رسول الله " ﷺ " إلى السجدة منها فسجد ثم قال : قد سمعت

يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك .

فلما رجع عتبة إلى قومه رأوا عليه مالا يريدون ، فقال بعضهم لبعض : نكف يا الله أفد

جناكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به .

فلما جنس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا

بالسحر ، ولا بالكهانة ، يا معشر قريش أطيعوني ، واجعلوها بي ، وحلوا بين هذا

الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم ،

فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب ، فملكه ملككم وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأي فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم <sup>(١)</sup> ، وماذا أقول فيه ؟ والله إنه ليس من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن .

فقال له أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

قال : دعني أفكر فيه ، فلما اجتمع بقومه قال وقد حضر الموسم : يا معشر قريش

إنه قد حضر هذا الموسم ، وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه ، وقد سمعوا بأمر

صاحبكم هذا ، فأجمعوا فيه رأياً واحداً ، ولا تختلفوا ، فيكذب بعضكم بعضاً .

قالوا : فانت يا أبا عبد شمس أقم لنا رأياً نقول فيه .

قال : بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا : نقول كاهن .

قال : والله ما هو بكاهن ، فقد رأينا الكهان فما هو بزمزم الكاهن ، ولا

سجعه .

قالوا : فنقول محنون .

قال : والله ما هو بمحنون فقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بخنعة ، ولا تخالعة .

ولا وسوسته .

قالوا : فنقول شاعر .

قال : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كله رجراً ، وهزجاً ، وقريضاً ، ومقبوطة

ومبسوطة . فما هو بشاعر .

قالوا : فنقول ساحر .

قال : والله ما هو بساحر ، لقد رأيت الساحر وسحرهم ، فما هو بنفثه ، ولا

فعلوا : فما تقول يا أبا عبد شمس ؟

قال : والله إن لقولك حلاوة ، وإن عليه طلاوة ، وإن أصله لمعدى : وإن لم عد  
شعر ، ومع اسم متانين من هذا شرفاً إلا وإن أعرف أنه باطل : وإن أقرب القول فيه  
أن تقولوا ساحر . فما تقول من سحر يفرق بين المرء وابنه ، وبين المرء وأخيه ، وبين  
المرء وزوجه ، وبين المرء وعشيرته .

فصرفوا عنه بذلك ، وجعلوا يجلسون بسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر  
بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروه لهم .

وأمر الله تعالى في الوليد قوله تعالى : ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ۚ ﴾  
وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا ۖ وَبَنِينَ شُهُودًا ۖ وَمَهْدَتْ لَهُ تَمْهيدًا ۖ ثُمَّ  
يَضْمَعُ أَنْ أُرِيدَ ۖ كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَبِيدًا ۖ سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ۖ إِنَّهُ  
فَكَرَ وَقَدَّرَ ۖ فَفَعَلْ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ قَبْلَ كَيْفَ قَدَّرَ ۖ ثُمَّ نَظَرَ ۖ ثُمَّ عَبَسَ  
وَسَرَّ ۖ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ۖ فَفَعَلْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ  
الْبَشَرِ ۖ

#### ٩ . أبي طالب يستأجر الكفار :

رأى أبو طالب أن الكفار والمشركين قد اشتدت عدائهم لـ محمد " ﷺ " ،  
ورأى أنهم من بينهم من مكائدهم إلا إذا تخلصوا من محمد " ﷺ " بأي وسيلة ممكنة  
ولهذا عمل ليحق بين عبد مناف ، يتحدث به العرب كلهم ، فجمع أبناء عبد مناف  
وهم أبو تالسة ، وبنو عبد شمس ، وبنو المطلب ، وبنو نوفل ، وبنو هاشم ، وعرض  
عليهم حطيرة الأمر ، وضرورة التكاتف ، والالتحاد في مواجهة عدوان كفار مكة

على ابن أخيه محمد " ﷺ " ، فوافق بنو هاشم ، وبنو المطلب ، وأبجدوا على أنفسهم الميثاق على حماية محمد " ﷺ " والدفاع عنه ، وعدم تسليمه إلى الكفار أقلاً ، واتفقوا على ذلك مسلمتهم وكافرتهم ، ولم يشذ من هذين البطين إلا أبو نهب فانه انماز مع كفار مكة ، ضد محمد ، ودعوته ، ولذلك يقول النبي " ﷺ " : كفار بنو المطلب معاً في الجاهلية والإسلام .

### ١٠ . المقاطعة العامة :

لما رأى كفار مكة أن بنى هاشم وبنى المطلب تواتقوا ، وتعاهدوا جميعاً على حماية محمد " ﷺ " عملوا على مقاطعتهم ، وعدم التعامل معهم مطلقاً . وتحالفوا على أن لا يبالسواهم ، ولا يبيعوهم ، ولا يشترون منهم ، ولا يدخلون بيوتهم ، ولا يكلموهم ، ولا يتزوجون منهم ، ولا يزوجوهم حتى يسلموا محمداً لقتله ، والاشهاد من أمره ، وكتبوا بذلك ميثاقاً علقوه في جوف الكعبة .

واستمرت المقاطعة ثلاث سنوات ، واشتد الأمر على بنى هاشم وبنى المطلب حتى أكلوا ورق الشجر ، وحوصروا في شعبهم ، لا يخرجون منه إلا في الأشهر الحرم للتعامل مع وفود الحج والعمره ، وكان أهل مكة يزایدون عليهم الحرمات من كل حير ، حيث منعوا أن يتصل بهم أحد من القبائل البعيدة عن مكة ، وكانوا إذا زاروا بجارة قادمة يسارعوا بشرائها قبل أن تصل إلى المحاصرين في الشعب ، مبالعين في منها ، ودام الحال على ذلك حتى قضى الله بنقض المقاطعة ، وتمزيق الميثاق المكنون (١)



(١) سيأتي حديث مفصل عن انتهاء المقاطعة في الفصل التالي .



## المبحث الثالث عشر

### عام الحزن

وبسأه الله تعالى أن يتعرض محمد ﷺ " لامتحان شديد .. فبعد مضي عشر سنوات من بعده يموت عمه أبو طالب ، وثوب زوجته خديجة بعده بأيام قليلة . كان النبي ﷺ يجد من كل منهما العون والمساعدة ، ولقد قام عمه بحمايته والتجدي لأعدائه ، وتحمل من أجل ذلك ، ومعه بنو هاشم ، وبنو المطلب مقاطعة قريش العامة ، وقد كان من ورائها الضرر الكبير .

وروي عنه خديجة نعم الزوجة ، أمانة ووفاء ، كانت عاقلة ، وكانت كاملة ، عاشت النبي خمساً وعشرين سنة ، وعاملته بكل الرقة والحنان ، والحب ، وكانت تابع أخباره ، ونسليه ، وتحاول إرضاءه بعقلها ، وحكمتها ، وتعاونته بما لها ، وبكل ما يمكنها .

يروى أنس بن مالك " ﷺ " حادثة تدل على حكمة خديجة ، وحسن تصرفها . وكسالى عقلها .

يقول أنس " ﷺ " : أن النبي ﷺ " كان عند أبي طالب ، فاستأذنه أن يوجه إلى خديجة فأذن له ، وبعث أبو طالب بعده جارية له يقال لها "نبعة" فقال لها : انظري ما تقول له خديجة ؟ .. وما تقول لها ؟ .. بحثاً عن سر ما يراه بينهما من مودة وما يمسسه من ترابط .

قالت نبعة : فرأيت عجباً ، ما هو إلا أن سمعت به خديجة ، فخرجت إلى الباب ، فأحدث بيده فضمتها ، إلى صدرها وأخرها ، ثم قالت : بأني وأمي ، والله ما أفعل هذا لنبي ، ولكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سمعت ، فإن تكن هو فأعرف حفي . وسراي ، وأدع الإله الذي يبعث لي .

فقال لها " ﷺ " : والله لئن كنت أنا هو ، فقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً ،  
وأن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً (١) .

يفقد الرسول " ﷺ " أبا طالب هذا ، وعديجة هذه ، في عام واحد ، بل في  
أسبوع واحد .

ولذلك تألم كثيراً ، وسمى هذا العام عام الحزن ..

والموت قدر الله على جميع الخلق فـ ﴿ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ﴾ .

ورسول الله " ﷺ " أول المؤمنين بقدر الله تعالى ، وهو أول الصابرين ، وكان حزيناً  
في حدود القدر المشروع .

وقضاء الله في موت أبي طالب وعديجة يتضمن حكماً جليلة منها : -

\* بيان أن حبيب " ﷺ " قدوة كاملة في الصبر الأمثل ، والتأسي الجميل ، فقد  
ابتلى النبي " ﷺ " بأقصى ما يتلى به الإنسان فلم يجزع ، ولم يفرق ، ولكنه كان  
خير معصم بحباب ربه ، وأفضل لأنذ بحمي مولاه ، وليس غريباً على الذي فقد  
أباه قبل أن يولد ، وأمه وهو في الخامسة ، وجدته الذي كان عوضاً عن والده وهو  
في الثامنة ، وأولاده الذين يعتبرهم الناس زينة الحياة الدنيا وعزاء الله عن ذلك  
عزاء جميلاً ، ليس غريباً أن يعزيه الله أيضاً عن فقد العم وفقد الزوجة ، وعزاء الله  
خير عزاء .

\* أراد الله أن تقوم أعمدة الإسلام على كواهل المسلمين أنفسهم ،  
فلما كان أبو طالب ينصر المسلمين مع احتفاظه بشركه ، فربما لو امتدت حياته  
حتى انتصار الإسلام ، وقيام دولة المسلمين ، لنسب الناس ذلك إلى زعامة هذا العم  
ومعاضدته ، ولكن الله كان أغير على دينه ، وأحرص على توطيده بجنود الإيمان ،  
وأبناء الإسلام ، ولذلك كانت الوفاة قبيل الهجرة بزمان وجيز .

أما إطلاق عام الحزن على هذا العام فليس مرده إلى حزن النبي " ﷺ " على فقد عمه ، وروحه ، فالنبي " ﷺ " أصبح من آن تهره أحداث الموت ، ولو كانت مزلة ، وهو أعرف الناس بالله ، وأقربهم منه ، وما شغل قلبه إلا بالدعوة الإسلامية ، والحرص على إبلاغها للناس ، والحرص على هدايتهم .. هذا هو الذي أحزنه ، أحزنه أن هذه الوفاة سيكون لها أثر في إطلاق وحوش قريش ، يقطعون الطريق في وجه الدعوة ويضطرون بكل من يعلن إسلامه .

إن حزن الرسول " ﷺ " كان من أجل انتصار الإسلام ، ونجاح الدعوة ، وكان يتألم كثيراً حينما يرى كفر قومه ، وإنصرافهم عن دين الله ، يقول تعالى : ﴿ فَلَعَلَّكَ بِنَجْعِ نَفْسِكَ عَلَىٰ أَثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ (١) .

ويقول سبحانه ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزَنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ

وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِبَغْيَتِهِمْ إِلَهُ تَحْدُونَ ﴾ (٢) .

وقد حاول النبي " ﷺ " أن يستعين بغير أهل مكة بعد وفاة عمه فقام بمحاولتين داعياً إلى الله تعالى : —

### المحاولة الأولى :

ذهب النبي " ﷺ " إلى ثقيف في الطائف ، واصطحب معه زيد بن حارثة " رضي الله عنه " مولاه .

والطائف بلدة لطيفة ، كثيرة الثمر ، معتدلة المناخ ، تقع شرقي مكة على مرتفع عال ، وهي مشهورة بعنبتها : وتينها ، ورماتها ، وتمرها ، وأزهارها ، وحدائقها الفسحاء . وقد وصل الرسول إليها ومعه زيد بن حارثة عند إلى حيث يجتمع سادة

(١) سورة الكهف : آية ( ٦ ) .

(٢) سورة الأعراف : آية ( ٣٣ ) .

ثقيف ، فجلس إليهم ، وكنتمهم فيما جاء له ، من طلب نصرته للإسلام ، والقائم معه على من خالفه ، على أن يعيش بينهم .

بدأ حديثه يأخذ بأفئدة أغلب الحاضرين ، ويؤثر — كعادته — فيمن يلقونه إليه . وإذا بثلاثة إخوة من أشرف ثقيف ، ممن لهم الرأي المسموع فيها ، يقطعون عليه حديثه ، وهم عبد ياليل ، ومسعود ، وحبيب ، أبناء عمرو بن عمرو . فقال أحدهما مكذبا : أقطع ثياب الكعبة إن كان الله قد أرسلت يا محمد !

وقال الثاني : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبداً ، لأن كنت رسول الله كما تقول لأنك أعظم قدراً من أن أرد عليك ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغي لي أن أكلمك<sup>(١)</sup> .

فقام رسول الله ﷺ من عندهم ، وقد ينس من إيمان ثقيف ، وقد قال لهم إذا فعلتم ما فعلتم فاكنموا عني ، وكره رسول الله ﷺ أن يبلغ قوم مد عنه ، فيشبههم

ذلك عليه ، فلم يفعلوا ، وأغروا به سفهاءهم وعبيداهم ، يسبوناه ويضيقون به حتى اجتمع عليه الناس ، وألحوا به إلى حائط لعبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة ، وهما فيه

فدخله ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه ، فعمد إلى ظل شجرة من غابة

فجلس تحته ، وابنا ربيعة ينظران إليه ، ويريان ما لقي من سفهاء أهل الطوائف . فلما اطمأن رسول الله ﷺ قال : ( اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي

وهواني على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربّي ، إلى من تكلني ؟ إلى بعيد يتجهمني ؟ أم إلى عدو ملكته امرى ؟ إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي ، ولكن عافيتك هي أوسع لي ، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت

له الظلمات ، وصلاح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك ، أو يحل علي سخطك ، لك العتي حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك )<sup>(٢)</sup> .

(١) سيرة ابن هشام ج ١ ص ٤١٩ .

(٢) الكامل في التاريخ ج ١ ص ٣٤٥ .

بصور الحديث الصحيح الوارد في البخاري فعل ثقيف وقسوقهم على النبي ﷺ " .  
 وقد روى البخاري بسنده عن عروة بن الزبير : أن عائشة " رضي الله عنها " حدثته  
 أنها قالت للنبي ﷺ : " هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من يوم أحد ؟  
 قال : لقيت من قومك ما لقيت ، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة ، إذ عرضت  
 نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال ، فلم يجبي إلى ما أردت ، فانطلقت — وأنا  
 مهسوم — على وجهي ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب — وهو المسنى بقرن  
 السارل — فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ،  
 فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث الله  
 إليك ملك الخيال بأمره بما شئت فيهم ، فناداني ملك الخيال ، فسلم علي ثم قال :  
 يا محمد ، لك ماتت فيهم ، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشيش — ففعلت .  
 رواه الأئمة : هما جملا مكة : أبو فيس والذي يقابله وهو قيقعان ) — قال النبي ﷺ :  
 " بسل أرجو أن يخرج الله عز وجل من أصلاهم من بعد الله عز وجل وحده  
 لا يشرك به شيئا (١) .

وهكذا كانت رحمة رسول الله ﷺ مع الناس ، فبرغم ما لاقاه من ثقيف ،  
 ومن أبناء عمرو بن عمرو لم يدع عليهم ، وإنما دعا لهم " ﷺ " .

### المحاولة الثانية : عرض نفسه على قبائل :

أخذ رسول الله ﷺ " عرض نفسه على قبائل العرب الآتين للمواسم  
 حاجين أو معتمرين ، وكان يطلب منهم أن يؤمنوا بالله تعالى ، ويتركوا عبادة الأصنام  
 والأوثان على أن يخرج معهم إلى ديارهم ، ليمنعوا من غدر قريش ، وعداؤها ، حتى  
 يتمكن من تبليغ رسالة الله ، وتوصيل دينه إلى الناس .

فمنهم من لم يؤمن بدعوته ، وردده ردا قبيحا .

ومنهم من لم يؤمن به . . . ولكنه وعد بحمايته .

ومنهم من كان بينه وبين الفرس موافق تمنعه من الإيمان ، ونصرة الرسول " ﷺ " .  
 وكان على رأس من لم يؤمن بدعوته من القبائل ، ورد عليه ردًا قبيحاً  
 قبائل كندة ، وكلب ، وبنى حنيفة .

بتكلم محمد بن عمر الأسدي عن بني حنيفة فيقول : سألت الله أن لا يجرمنا  
 الجنة ، لقد رأيت رسول الله " ﷺ " جاءنا ثلاثة أعوام بعكاظ ، وبالجحفة ، ولدى الحارث  
 بدعونا إلى الله — عز وجل — على أن تمنع له ظهوره ، حتى يبلغ رسالات الله  
 ويشترط لنا الجنة ، فما استجبنا له ، ولا رددنا عليه ردًا جميلًا ، فغضبنا عليه وحنمنا  
 يروى مدرك بن منيب عن أبيه عن جده فيقول : رأيت رسول الله " ﷺ " في  
 مكة وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تغلحوا ، فحنمنا من قبل  
 وجهه ، ومنهم من حنأ عليه التراب ، ومنهم من سبه ، حتى انتصف النهار ، فأولت  
 جارية بعض من ماء ففسل وجهه ، ويديه ، وقال : يا بنية لا تخشى على أهلك غلبة ولا  
 ذلة فقلت : من هذه ؟

قالوا : رب جنت رسول الله " ﷺ " ، وهي جارية وضيفة<sup>(١)</sup>

ومن القبائل التي أحسنت لقاء النبي " ﷺ " بنو شيبان بن ثعلبة ، فعن علي  
 ابن أبي طالب " عليه السلام " أنه قال : لما أمر الله عز وجل نبيه " ﷺ " أن يعرض نفسه على  
 قبائل العرب خرج وأنا معه ، ومعا أبو بكر ... ثم ذهبنا إلى مجلس آخر عيدهم  
 السكنية والوقار ، فتقدم أبو بكر فسلم فقال : من القوم ؟  
 قالوا : من شيبان بن ثعلبة .

فالتفت أبو بكر إلى رسول الله " ﷺ " وقال : بأبي وأمي هؤلاء عرب الناس ، وفيهم  
 مغروق بن عمرو ، وهاني بن قبيصة ، والمثنى بن حارثة ، والنعمان بن شريك  
 وكان مغروق قد غلبهم لساناً ، وجمالاً ، وكانت له غديرة تان تسفلان على ثريته ،

(١) سنن أبي داود والترمذي ج ٢ ص ٥٩٥ .

(٢) سنن أبي داود والترمذي ج ٢ ص ٥٩٤ .

وكان أدنى القوم مجلساً من أبي بكر .

فقال أبو بكر : كيف العدد فيكم ؟

فقال معروف : إنا لا نزيد على الألف وإن تغلب ألف من قلة .

فقال أبو بكر : وكيف المنعة فيكم ؟

فقال معروف : إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى ، وأشد ما نكون لقاء حين

نغضب . وإنا لنؤثر الجياد على الولاد ، والسلاح على التفاح ، والتعبر من عند الله

بدليلاً مرة ، ويدبل علينا أخرى ، لعلك أخا قريش ؟

فقال أبو بكر : إن كان بلغكم أنه رسول الله ﷺ " فهذا هو ذا .

فقال معروف : إلام تدعوننا يا أخا قريش ؟

فقال رسول الله ﷺ : أدعوكم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ،

وأن عبد الله ورسوله ، وإلى أن تؤوؤوا ، وتنصروا ، فإن قريشاً قد تظاهرت على الله

وكانت رسوله ، واستعنت بالباطل عن الحق ، والله هو الغني الحميد .

فقال معروف : وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش ؟ فو الله ما سمعت كلاماً أحسن من هذا

فلا رسول الله ﷺ : ﴿ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ إِلَّا نُشْرِكُوا بِهِ

شَيْئًا ۚ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ ۖ إِنَّكُمْ أَنفُسَكُمْ مَبْنِي ۖ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا

تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ

ذَٰلِكُمْ وَضَعَتْ لَكُمْ لَعَنُكُمْ تَعْقِلُونَ ۖ ﴾ .

فقال معروف : دعوت — والله — إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال .

ولقد أفنت قوم كذبيك ، وظاهروا عليك .

ثم رد الأمر إلى هاني بن قبيصة فقال : وهذا هاني شيخنا ، وصاحب ديننا .

فقال هاني : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، وإن أرى تركنا ديننا ، وإتباعنا دينك  
 الخمس واحد جئست إليهما فيه ، لا أول له ولا آخر ، لذل في الرأي ، وقلنا نظر في  
 العاقبة ، إن ثلثة مع المعجدة ، وإننا نكره أن نعقد على من وراءنا عقداً ، ولكن ترجع  
 وترجع ، وننظر ، وننظر .

ثم كأنه أحب أن يشركه المثنى بن حارثة فقال : وهذا المثنى شيخنا ، وصاحب خريزنا  
 فقال المثنى : قد سمعت مقاتلك يا أخا قريش ، والجواب فيه جواب هاني بن قبيصة ، إن  
 تركنا ديننا ، ومتابعنا دينك وإننا إنما نزلنا بين صريين : أحدهما التيسامية ، والآخر السماوية  
 فقال له رسول الله " ﷺ " : ما هذان الصريان ؟ قال : أمار كسرى ، ومياه العرب ،  
 وأما ما كان من أمار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور ، وعذره غير مقبول ، وأما  
 ما كان مما يلي مياه العرب فذنب صاحبه مغفور ، وعذره مقبول ، وإننا إنما نزلنا على  
 عهد أخذنا علينا كسرى ، أن لا نحدث حدثاً ، ولا نقوى ثبداً ، ( إلى أرى هذا  
 الأمر الذي تدعوننا إليه يا أخا قريش ، فما تكرهه فلتك ، فإن أحببت أن نؤويك  
 ونصرك ، مما يلي مياه العرب فعلنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : ما أسأتم في الرد إذا أفصحتم بالعقدى ، وإن دين  
 الله عز وجل لن ينصره إلا من حاضه من جميع جوانبه ، أرايتم إن لم تلبثوا إلا قليلاً  
 حتى يورثكم الله تعالى أرضهم ، وديارهم ، وأموالهم ، أتحبون الله تعالى وتقدسونه ؟  
 فقال النعمان : اللهم فئت ذلك .

فقال عليهم رسول الله " ﷺ " : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا  
 ﴿١٠٠﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ ، وَسِرَاجًا مُبِينًا ﴿١٠١﴾ ۝ ١٠٢ ۝ ١٠٣ ۝ ١٠٤ ۝ ١٠٥ ۝ ١٠٦ ۝ ١٠٧ ۝ ١٠٨ ۝ ١٠٩ ۝ ١١٠ ۝ ١١١ ۝ ١١٢ ۝ ١١٣ ۝ ١١٤ ۝ ١١٥ ۝ ١١٦ ۝ ١١٧ ۝ ١١٨ ۝ ١١٩ ۝ ١٢٠ ۝ ١٢١ ۝ ١٢٢ ۝ ١٢٣ ۝ ١٢٤ ۝ ١٢٥ ۝ ١٢٦ ۝ ١٢٧ ۝ ١٢٨ ۝ ١٢٩ ۝ ١٣٠ ۝ ١٣١ ۝ ١٣٢ ۝ ١٣٣ ۝ ١٣٤ ۝ ١٣٥ ۝ ١٣٦ ۝ ١٣٧ ۝ ١٣٨ ۝ ١٣٩ ۝ ١٤٠ ۝ ١٤١ ۝ ١٤٢ ۝ ١٤٣ ۝ ١٤٤ ۝ ١٤٥ ۝ ١٤٦ ۝ ١٤٧ ۝ ١٤٨ ۝ ١٤٩ ۝ ١٥٠ ۝ ١٥١ ۝ ١٥٢ ۝ ١٥٣ ۝ ١٥٤ ۝ ١٥٥ ۝ ١٥٦ ۝ ١٥٧ ۝ ١٥٨ ۝ ١٥٩ ۝ ١٦٠ ۝ ١٦١ ۝ ١٦٢ ۝ ١٦٣ ۝ ١٦٤ ۝ ١٦٥ ۝ ١٦٦ ۝ ١٦٧ ۝ ١٦٨ ۝ ١٦٩ ۝ ١٧٠ ۝ ١٧١ ۝ ١٧٢ ۝ ١٧٣ ۝ ١٧٤ ۝ ١٧٥ ۝ ١٧٦ ۝ ١٧٧ ۝ ١٧٨ ۝ ١٧٩ ۝ ١٨٠ ۝ ١٨١ ۝ ١٨٢ ۝ ١٨٣ ۝ ١٨٤ ۝ ١٨٥ ۝ ١٨٦ ۝ ١٨٧ ۝ ١٨٨ ۝ ١٨٩ ۝ ١٩٠ ۝ ١٩١ ۝ ١٩٢ ۝ ١٩٣ ۝ ١٩٤ ۝ ١٩٥ ۝ ١٩٦ ۝ ١٩٧ ۝ ١٩٨ ۝ ١٩٩ ۝ ٢٠٠ ۝ ٢٠١ ۝ ٢٠٢ ۝ ٢٠٣ ۝ ٢٠٤ ۝ ٢٠٥ ۝ ٢٠٦ ۝ ٢٠٧ ۝ ٢٠٨ ۝ ٢٠٩ ۝ ٢١٠ ۝ ٢١١ ۝ ٢١٢ ۝ ٢١٣ ۝ ٢١٤ ۝ ٢١٥ ۝ ٢١٦ ۝ ٢١٧ ۝ ٢١٨ ۝ ٢١٩ ۝ ٢٢٠ ۝ ٢٢١ ۝ ٢٢٢ ۝ ٢٢٣ ۝ ٢٢٤ ۝ ٢٢٥ ۝ ٢٢٦ ۝ ٢٢٧ ۝ ٢٢٨ ۝ ٢٢٩ ۝ ٢٣٠ ۝ ٢٣١ ۝ ٢٣٢ ۝ ٢٣٣ ۝ ٢٣٤ ۝ ٢٣٥ ۝ ٢٣٦ ۝ ٢٣٧ ۝ ٢٣٨ ۝ ٢٣٩ ۝ ٢٤٠ ۝ ٢٤١ ۝ ٢٤٢ ۝ ٢٤٣ ۝ ٢٤٤ ۝ ٢٤٥ ۝ ٢٤٦ ۝ ٢٤٧ ۝ ٢٤٨ ۝ ٢٤٩ ۝ ٢٥٠ ۝ ٢٥١ ۝ ٢٥٢ ۝ ٢٥٣ ۝ ٢٥٤ ۝ ٢٥٥ ۝ ٢٥٦ ۝ ٢٥٧ ۝ ٢٥٨ ۝ ٢٥٩ ۝ ٢٦٠ ۝ ٢٦١ ۝ ٢٦٢ ۝ ٢٦٣ ۝ ٢٦٤ ۝ ٢٦٥ ۝ ٢٦٦ ۝ ٢٦٧ ۝ ٢٦٨ ۝ ٢٦٩ ۝ ٢٧٠ ۝ ٢٧١ ۝ ٢٧٢ ۝ ٢٧٣ ۝ ٢٧٤ ۝ ٢٧٥ ۝ ٢٧٦ ۝ ٢٧٧ ۝ ٢٧٨ ۝ ٢٧٩ ۝ ٢٨٠ ۝ ٢٨١ ۝ ٢٨٢ ۝ ٢٨٣ ۝ ٢٨٤ ۝ ٢٨٥ ۝ ٢٨٦ ۝ ٢٨٧ ۝ ٢٨٨ ۝ ٢٨٩ ۝ ٢٩٠ ۝ ٢٩١ ۝ ٢٩٢ ۝ ٢٩٣ ۝ ٢٩٤ ۝ ٢٩٥ ۝ ٢٩٦ ۝ ٢٩٧ ۝ ٢٩٨ ۝ ٢٩٩ ۝ ٣٠٠ ۝ ٣٠١ ۝ ٣٠٢ ۝ ٣٠٣ ۝ ٣٠٤ ۝ ٣٠٥ ۝ ٣٠٦ ۝ ٣٠٧ ۝ ٣٠٨ ۝ ٣٠٩ ۝ ٣١٠ ۝ ٣١١ ۝ ٣١٢ ۝ ٣١٣ ۝ ٣١٤ ۝ ٣١٥ ۝ ٣١٦ ۝ ٣١٧ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢٥ ۝ ٣٢٦ ۝ ٣٢٧ ۝ ٣٢٨ ۝ ٣٢٩ ۝ ٣٣٠ ۝ ٣٣١ ۝ ٣٣٢ ۝ ٣٣٣ ۝ ٣٣٤ ۝ ٣٣٥ ۝ ٣٣٦ ۝ ٣٣٧ ۝ ٣٣٨ ۝ ٣٣٩ ۝ ٣٤٠ ۝ ٣٤١ ۝ ٣٤٢ ۝ ٣٤٣ ۝ ٣٤٤ ۝ ٣٤٥ ۝ ٣٤٦ ۝ ٣٤٧ ۝ ٣٤٨ ۝ ٣٤٩ ۝ ٣٥٠ ۝ ٣٥١ ۝ ٣٥٢ ۝ ٣٥٣ ۝ ٣٥٤ ۝ ٣٥٥ ۝ ٣٥٦ ۝ ٣٥٧ ۝ ٣٥٨ ۝ ٣٥٩ ۝ ٣٦٠ ۝ ٣٦١ ۝ ٣٦٢ ۝ ٣٦٣ ۝ ٣٦٤ ۝ ٣٦٥ ۝ ٣٦٦ ۝ ٣٦٧ ۝ ٣٦٨ ۝ ٣٦٩ ۝ ٣٧٠ ۝ ٣٧١ ۝ ٣٧٢ ۝ ٣٧٣ ۝ ٣٧٤ ۝ ٣٧٥ ۝ ٣٧٦ ۝ ٣٧٧ ۝ ٣٧٨ ۝ ٣٧٩ ۝ ٣٨٠ ۝ ٣٨١ ۝ ٣٨٢ ۝ ٣٨٣ ۝ ٣٨٤ ۝ ٣٨٥ ۝ ٣٨٦ ۝ ٣٨٧ ۝ ٣٨٨ ۝ ٣٨٩ ۝ ٣٩٠ ۝ ٣٩١ ۝ ٣٩٢ ۝ ٣٩٣ ۝ ٣٩٤ ۝ ٣٩٥ ۝ ٣٩٦ ۝ ٣٩٧ ۝ ٣٩٨ ۝ ٣٩٩ ۝ ٤٠٠ ۝ ٤٠١ ۝ ٤٠٢ ۝ ٤٠٣ ۝ ٤٠٤ ۝ ٤٠٥ ۝ ٤٠٦ ۝ ٤٠٧ ۝ ٤٠٨ ۝ ٤٠٩ ۝ ٤١٠ ۝ ٤١١ ۝ ٤١٢ ۝ ٤١٣ ۝ ٤١٤ ۝ ٤١٥ ۝ ٤١٦ ۝ ٤١٧ ۝ ٤١٨ ۝ ٤١٩ ۝ ٤٢٠ ۝ ٤٢١ ۝ ٤٢٢ ۝ ٤٢٣ ۝ ٤٢٤ ۝ ٤٢٥ ۝ ٤٢٦ ۝ ٤٢٧ ۝ ٤٢٨ ۝ ٤٢٩ ۝ ٤٣٠ ۝ ٤٣١ ۝ ٤٣٢ ۝ ٤٣٣ ۝ ٤٣٤ ۝ ٤٣٥ ۝ ٤٣٦ ۝ ٤٣٧ ۝ ٤٣٨ ۝ ٤٣٩ ۝ ٤٤٠ ۝ ٤٤١ ۝ ٤٤٢ ۝ ٤٤٣ ۝ ٤٤٤ ۝ ٤٤٥ ۝ ٤٤٦ ۝ ٤٤٧ ۝ ٤٤٨ ۝ ٤٤٩ ۝ ٤٥٠ ۝ ٤٥١ ۝ ٤٥٢ ۝ ٤٥٣ ۝ ٤٥٤ ۝ ٤٥٥ ۝ ٤٥٦ ۝ ٤٥٧ ۝ ٤٥٨ ۝ ٤٥٩ ۝ ٤٦٠ ۝ ٤٦١ ۝ ٤٦٢ ۝ ٤٦٣ ۝ ٤٦٤ ۝ ٤٦٥ ۝ ٤٦٦ ۝ ٤٦٧ ۝ ٤٦٨ ۝ ٤٦٩ ۝ ٤٧٠ ۝ ٤٧١ ۝ ٤٧٢ ۝ ٤٧٣ ۝ ٤٧٤ ۝ ٤٧٥ ۝ ٤٧٦ ۝ ٤٧٧ ۝ ٤٧٨ ۝ ٤٧٩ ۝ ٤٨٠ ۝ ٤٨١ ۝ ٤٨٢ ۝ ٤٨٣ ۝ ٤٨٤ ۝ ٤٨٥ ۝ ٤٨٦ ۝ ٤٨٧ ۝ ٤٨٨ ۝ ٤٨٩ ۝ ٤٩٠ ۝ ٤٩١ ۝ ٤٩٢ ۝ ٤٩٣ ۝ ٤٩٤ ۝ ٤٩٥ ۝ ٤٩٦ ۝ ٤٩٧ ۝ ٤٩٨ ۝ ٤٩٩ ۝ ٥٠٠ ۝ ٥٠١ ۝ ٥٠٢ ۝ ٥٠٣ ۝ ٥٠٤ ۝ ٥٠٥ ۝ ٥٠٦ ۝ ٥٠٧ ۝ ٥٠٨ ۝ ٥٠٩ ۝ ٥١٠ ۝ ٥١١ ۝ ٥١٢ ۝ ٥١٣ ۝ ٥١٤ ۝ ٥١٥ ۝ ٥١٦ ۝ ٥١٧ ۝ ٥١٨ ۝ ٥١٩ ۝ ٥٢٠ ۝ ٥٢١ ۝ ٥٢٢ ۝ ٥٢٣ ۝ ٥٢٤ ۝ ٥٢٥ ۝ ٥٢٦ ۝ ٥٢٧ ۝ ٥٢٨ ۝ ٥٢٩ ۝ ٥٣٠ ۝ ٥٣١ ۝ ٥٣٢ ۝ ٥٣٣ ۝ ٥٣٤ ۝ ٥٣٥ ۝ ٥٣٦ ۝ ٥٣٧ ۝ ٥٣٨ ۝ ٥٣٩ ۝ ٥٤٠ ۝ ٥٤١ ۝ ٥٤٢ ۝ ٥٤٣ ۝ ٥٤٤ ۝ ٥٤٥ ۝ ٥٤٦ ۝ ٥٤٧ ۝ ٥٤٨ ۝ ٥٤٩ ۝ ٥٥٠ ۝ ٥٥١ ۝ ٥٥٢ ۝ ٥٥٣ ۝ ٥٥٤ ۝ ٥٥٥ ۝ ٥٥٦ ۝ ٥٥٧ ۝ ٥٥٨ ۝ ٥٥٩ ۝ ٥٦٠ ۝ ٥٦١ ۝ ٥٦٢ ۝ ٥٦٣ ۝ ٥٦٤ ۝ ٥٦٥ ۝ ٥٦٦ ۝ ٥٦٧ ۝ ٥٦٨ ۝ ٥٦٩ ۝ ٥٧٠ ۝ ٥٧١ ۝ ٥٧٢ ۝ ٥٧٣ ۝ ٥٧٤ ۝ ٥٧٥ ۝ ٥٧٦ ۝ ٥٧٧ ۝ ٥٧٨ ۝ ٥٧٩ ۝ ٥٨٠ ۝ ٥٨١ ۝ ٥٨٢ ۝ ٥٨٣ ۝ ٥٨٤ ۝ ٥٨٥ ۝ ٥٨٦ ۝ ٥٨٧ ۝ ٥٨٨ ۝ ٥٨٩ ۝ ٥٩٠ ۝ ٥٩١ ۝ ٥٩٢ ۝ ٥٩٣ ۝ ٥٩٤ ۝ ٥٩٥ ۝ ٥٩٦ ۝ ٥٩٧ ۝ ٥٩٨ ۝ ٥٩٩ ۝ ٦٠٠ ۝ ٦٠١ ۝ ٦٠٢ ۝ ٦٠٣ ۝ ٦٠٤ ۝ ٦٠٥ ۝ ٦٠٦ ۝ ٦٠٧ ۝ ٦٠٨ ۝ ٦٠٩ ۝ ٦١٠ ۝ ٦١١ ۝ ٦١٢ ۝ ٦١٣ ۝ ٦١٤ ۝ ٦١٥ ۝ ٦١٦ ۝ ٦١٧ ۝ ٦١٨ ۝ ٦١٩ ۝ ٦٢٠ ۝ ٦٢١ ۝ ٦٢٢ ۝ ٦٢٣ ۝ ٦٢٤ ۝ ٦٢٥ ۝ ٦٢٦ ۝ ٦٢٧ ۝ ٦٢٨ ۝ ٦٢٩ ۝ ٦٣٠ ۝ ٦٣١ ۝ ٦٣٢ ۝ ٦٣٣ ۝ ٦٣٤ ۝ ٦٣٥ ۝ ٦٣٦ ۝ ٦٣٧ ۝ ٦٣٨ ۝ ٦٣٩ ۝ ٦٤٠ ۝ ٦٤١ ۝ ٦٤٢ ۝ ٦٤٣ ۝ ٦٤٤ ۝ ٦٤٥ ۝ ٦٤٦ ۝ ٦٤٧ ۝ ٦٤٨ ۝ ٦٤٩ ۝ ٦٥٠ ۝ ٦٥١ ۝ ٦٥٢ ۝ ٦٥٣ ۝ ٦٥٤ ۝ ٦٥٥ ۝ ٦٥٦ ۝ ٦٥٧ ۝ ٦٥٨ ۝ ٦٥٩ ۝ ٦٦٠ ۝ ٦٦١ ۝ ٦٦٢ ۝ ٦٦٣ ۝ ٦٦٤ ۝ ٦٦٥ ۝ ٦٦٦ ۝ ٦٦٧ ۝ ٦٦٨ ۝ ٦٦٩ ۝ ٦٧٠ ۝ ٦٧١ ۝ ٦٧٢ ۝ ٦٧٣ ۝ ٦٧٤ ۝ ٦٧٥ ۝ ٦٧٦ ۝ ٦٧٧ ۝ ٦٧٨ ۝ ٦٧٩ ۝ ٦٨٠ ۝ ٦٨١ ۝ ٦٨٢ ۝ ٦٨٣ ۝ ٦٨٤ ۝ ٦٨٥ ۝ ٦٨٦ ۝ ٦٨٧ ۝ ٦٨٨ ۝ ٦٨٩ ۝ ٦٩٠ ۝ ٦٩١ ۝ ٦٩٢ ۝ ٦٩٣ ۝ ٦٩٤ ۝ ٦٩٥ ۝ ٦٩٦ ۝ ٦٩٧ ۝ ٦٩٨ ۝ ٦٩٩ ۝ ٧٠٠ ۝ ٧٠١ ۝ ٧٠٢ ۝ ٧٠٣ ۝ ٧٠٤ ۝ ٧٠٥ ۝ ٧٠٦ ۝ ٧٠٧ ۝ ٧٠٨ ۝ ٧٠٩ ۝ ٧١٠ ۝ ٧١١ ۝ ٧١٢ ۝ ٧١٣ ۝ ٧١٤ ۝ ٧١٥ ۝ ٧١٦ ۝ ٧١٧ ۝ ٧١٨ ۝ ٧١٩ ۝ ٧٢٠ ۝ ٧٢١ ۝ ٧٢٢ ۝ ٧٢٣ ۝ ٧٢٤ ۝ ٧٢٥ ۝ ٧٢٦ ۝ ٧٢٧ ۝ ٧٢٨ ۝ ٧٢٩ ۝ ٧٣٠ ۝ ٧٣١ ۝ ٧٣٢ ۝ ٧٣٣ ۝ ٧٣٤ ۝ ٧٣٥ ۝ ٧٣٦ ۝ ٧٣٧ ۝ ٧٣٨ ۝ ٧٣٩ ۝ ٧٤٠ ۝ ٧٤١ ۝ ٧٤٢ ۝ ٧٤٣ ۝ ٧٤٤ ۝ ٧٤٥ ۝ ٧٤٦ ۝ ٧٤٧ ۝ ٧٤٨ ۝ ٧٤٩ ۝ ٧٥٠ ۝ ٧٥١ ۝ ٧٥٢ ۝ ٧٥٣ ۝ ٧٥٤ ۝ ٧٥٥ ۝ ٧٥٦ ۝ ٧٥٧ ۝ ٧٥٨ ۝ ٧٥٩ ۝ ٧٦٠ ۝ ٧٦١ ۝ ٧٦٢ ۝ ٧٦٣ ۝ ٧٦٤ ۝ ٧٦٥ ۝ ٧٦٦ ۝ ٧٦٧ ۝ ٧٦٨ ۝ ٧٦٩ ۝ ٧٧٠ ۝ ٧٧١ ۝ ٧٧٢ ۝ ٧٧٣ ۝ ٧٧٤ ۝ ٧٧٥ ۝ ٧٧٦ ۝ ٧٧٧ ۝ ٧٧٨ ۝ ٧٧٩ ۝ ٧٨٠ ۝ ٧٨١ ۝ ٧٨٢ ۝ ٧٨٣ ۝ ٧٨٤ ۝ ٧٨٥ ۝ ٧٨٦ ۝ ٧٨٧ ۝ ٧٨٨ ۝ ٧٨٩ ۝ ٧٩٠ ۝ ٧٩١ ۝ ٧٩٢ ۝ ٧٩٣ ۝ ٧٩٤ ۝ ٧٩٥ ۝ ٧٩٦ ۝ ٧٩٧ ۝ ٧٩٨ ۝ ٧٩٩ ۝ ٨٠٠ ۝ ٨٠١ ۝ ٨٠٢ ۝ ٨٠٣ ۝ ٨٠٤ ۝ ٨٠٥ ۝ ٨٠٦ ۝ ٨٠٧ ۝ ٨٠٨ ۝ ٨٠٩ ۝ ٨١٠ ۝ ٨١١ ۝ ٨١٢ ۝ ٨١٣ ۝ ٨١٤ ۝ ٨١٥ ۝ ٨١٦ ۝ ٨١٧ ۝ ٨١٨ ۝ ٨١٩ ۝ ٨٢٠ ۝ ٨٢١ ۝ ٨٢٢ ۝ ٨٢٣ ۝ ٨٢٤ ۝ ٨٢٥ ۝ ٨٢٦ ۝ ٨٢٧ ۝ ٨٢٨ ۝ ٨٢٩ ۝ ٨٣٠ ۝ ٨٣١ ۝ ٨٣٢ ۝ ٨٣٣ ۝ ٨٣٤ ۝ ٨٣٥ ۝ ٨٣٦ ۝ ٨٣٧ ۝ ٨٣٨ ۝ ٨٣٩ ۝ ٨٤٠ ۝ ٨٤١ ۝ ٨٤٢ ۝ ٨٤٣ ۝ ٨٤٤ ۝ ٨٤٥ ۝ ٨٤٦ ۝ ٨٤٧ ۝ ٨٤٨ ۝ ٨٤٩ ۝ ٨٥٠ ۝ ٨٥١ ۝ ٨٥٢ ۝ ٨٥٣ ۝ ٨٥٤ ۝ ٨٥٥ ۝ ٨٥٦ ۝ ٨٥٧ ۝ ٨٥٨ ۝ ٨٥٩ ۝ ٨٦٠ ۝ ٨٦١ ۝ ٨٦٢ ۝ ٨٦٣ ۝ ٨٦٤ ۝ ٨٦٥ ۝ ٨٦٦ ۝ ٨٦٧ ۝ ٨٦٨ ۝ ٨٦٩ ۝ ٨٧٠ ۝ ٨٧١ ۝ ٨٧٢ ۝ ٨٧٣ ۝ ٨٧٤ ۝ ٨٧٥ ۝ ٨٧٦ ۝ ٨٧٧ ۝ ٨٧٨ ۝ ٨٧٩ ۝ ٨٨٠ ۝ ٨٨١ ۝ ٨٨٢ ۝ ٨٨٣ ۝ ٨٨٤ ۝ ٨٨٥ ۝ ٨٨٦ ۝ ٨٨٧ ۝ ٨٨٨ ۝ ٨٨٩ ۝ ٨٩٠ ۝ ٨٩١ ۝ ٨٩٢ ۝ ٨٩٣ ۝ ٨٩٤ ۝ ٨٩٥ ۝ ٨٩٦ ۝ ٨٩٧ ۝ ٨٩٨ ۝ ٨٩٩ ۝ ٩٠٠ ۝ ٩٠١ ۝ ٩٠٢ ۝ ٩٠٣ ۝ ٩٠٤ ۝ ٩٠٥ ۝ ٩٠٦ ۝ ٩٠٧ ۝ ٩٠٨ ۝ ٩٠٩ ۝ ٩١٠ ۝ ٩١١ ۝ ٩١٢ ۝ ٩١٣ ۝ ٩١٤ ۝ ٩١٥ ۝ ٩١٦ ۝ ٩١٧ ۝ ٩١٨ ۝ ٩١٩ ۝ ٩٢٠ ۝ ٩٢١ ۝ ٩٢٢ ۝ ٩٢٣ ۝ ٩٢٤ ۝ ٩٢٥ ۝ ٩٢٦ ۝ ٩٢٧ ۝ ٩٢٨ ۝ ٩٢٩ ۝ ٩٣٠ ۝ ٩٣١ ۝ ٩٣٢ ۝ ٩٣٣ ۝ ٩٣٤ ۝ ٩٣٥ ۝ ٩٣٦ ۝ ٩٣٧ ۝ ٩٣٨ ۝ ٩٣٩ ۝ ٩٤٠ ۝ ٩٤١ ۝ ٩٤٢ ۝ ٩٤٣ ۝ ٩٤٤ ۝ ٩٤٥ ۝ ٩٤٦ ۝ ٩٤٧ ۝ ٩٤٨ ۝ ٩٤٩ ۝ ٩٥٠ ۝ ٩٥١ ۝ ٩٥٢ ۝ ٩٥٣ ۝ ٩٥٤ ۝ ٩٥٥ ۝ ٩٥٦ ۝ ٩٥٧ ۝ ٩٥٨ ۝ ٩٥٩ ۝ ٩٦٠ ۝ ٩٦١ ۝ ٩٦٢ ۝ ٩٦٣ ۝ ٩٦٤ ۝ ٩٦٥ ۝ ٩٦٦ ۝ ٩٦٧ ۝ ٩٦٨ ۝ ٩٦٩ ۝ ٩٧٠ ۝ ٩٧١ ۝ ٩٧٢ ۝ ٩٧٣ ۝ ٩٧٤ ۝ ٩٧٥ ۝ ٩٧٦ ۝ ٩٧٧ ۝ ٩٧٨ ۝ ٩٧٩ ۝ ٩٨٠ ۝ ٩٨١ ۝ ٩٨٢ ۝ ٩٨٣ ۝ ٩٨٤ ۝ ٩٨٥ ۝ ٩٨٦ ۝ ٩٨٧ ۝ ٩٨٨ ۝ ٩٨٩ ۝ ٩٩٠ ۝ ٩٩١ ۝ ٩٩٢ ۝ ٩٩٣ ۝ ٩٩٤ ۝ ٩٩٥ ۝ ٩٩٦ ۝ ٩٩٧ ۝ ٩٩٨ ۝ ٩٩٩ ۝ ١٠٠٠ ۝ ١٠٠١ ۝ ١٠٠٢ ۝ ١٠٠٣ ۝ ١٠٠٤ ۝ ١٠٠٥ ۝ ١٠٠٦ ۝ ١٠٠٧ ۝ ١٠٠٨ ۝ ١٠٠٩ ۝ ١٠١٠ ۝ ١٠١١ ۝ ١٠١٢ ۝ ١٠١٣ ۝ ١٠١٤ ۝ ١٠١٥ ۝ ١٠١٦ ۝ ١٠١٧ ۝ ١٠١٨ ۝ ١٠١٩ ۝ ١٠٢٠ ۝ ١٠٢١ ۝ ١٠٢٢ ۝ ١٠٢٣ ۝ ١٠٢٤ ۝ ١٠٢٥ ۝ ١٠٢٦ ۝ ١٠٢٧ ۝ ١٠٢٨ ۝ ١٠٢٩ ۝ ١٠٣٠ ۝ ١٠٣١ ۝ ١٠٣٢ ۝ ١٠٣٣ ۝ ١٠٣٤ ۝ ١٠٣٥ ۝ ١٠٣٦ ۝ ١٠٣٧ ۝ ١٠٣٨ ۝ ١٠٣٩ ۝ ١٠٤٠ ۝ ١٠٤١ ۝ ١٠٤٢ ۝ ١٠٤٣ ۝ ١٠٤٤ ۝ ١٠٤٥ ۝ ١٠٤٦ ۝ ١٠٤٧ ۝ ١٠٤٨ ۝ ١٠٤٩ ۝ ١٠٥٠ ۝ ١٠٥١ ۝ ١٠٥٢ ۝ ١٠٥٣ ۝ ١٠٥٤ ۝ ١٠٥٥ ۝ ١٠٥٦ ۝ ١٠٥٧ ۝ ١٠٥٨ ۝ ١٠٥٩ ۝ ١٠٦٠ ۝ ١٠٦١ ۝ ١٠٦٢ ۝ ١٠٦٣ ۝ ١٠٦٤ ۝ ١٠٦٥ ۝ ١٠٦٦ ۝ ١٠٦٧ ۝ ١٠٦٨ ۝ ١٠٦٩ ۝ ١٠٧٠ ۝ ١٠٧١ ۝ ١٠٧٢ ۝ ١٠٧٣ ۝ ١٠٧٤ ۝ ١٠٧٥ ۝ ١٠٧٦ ۝ ١٠٧٧ ۝ ١٠٧٨ ۝ ١٠٧٩ ۝ ١٠٨٠ ۝ ١٠٨١ ۝ ١٠٨٢ ۝ ١٠٨٣ ۝ ١٠٨٤ ۝ ١٠٨٥ ۝ ١٠٨٦ ۝ ١٠٨٧ ۝ ١٠٨٨ ۝ ١٠٨٩ ۝ ١٠٩٠ ۝ ١٠٩١ ۝ ١٠٩٢ ۝ ١٠٩٣ ۝ ١٠٩٤ ۝ ١٠٩٥ ۝ ١٠٩٦ ۝ ١٠٩٧ ۝ ١٠٩٨ ۝ ١٠٩٩ ۝ ١١٠٠ ۝ ١١٠١ ۝ ١١٠٢ ۝ ١١٠٣ ۝ ١١٠٤ ۝ ١١٠٥ ۝ ١١٠٦ ۝ ١١٠٧ ۝ ١١٠٨ ۝ ١١٠٩ ۝ ١١١٠ ۝ ١١١١ ۝ ١١١٢ ۝ ١١١٣ ۝ ١١١٤ ۝ ١١١٥ ۝ ١١١٦ ۝ ١١١٧ ۝ ١١١٨ ۝ ١١١٩ ۝ ١١٢٠ ۝ ١١٢١ ۝ ١١٢٢ ۝ ١١٢٣ ۝ ١١٢٤ ۝ ١١٢٥ ۝ ١١٢٦ ۝ ١١٢٧ ۝ ١١٢٨ ۝ ١١٢٩ ۝ ١١٣٠ ۝ ١١٣١ ۝ ١١٣٢ ۝ ١١٣٣ ۝ ١١٣٤ ۝ ١١٣٥ ۝ ١١٣٦ ۝ ١١٣٧ ۝ ١١٣٨ ۝ ١١٣٩ ۝ ١١٤٠ ۝ ١١٤١ ۝ ١١٤٢ ۝ ١١٤٣ ۝ ١١٤٤ ۝ ١١٤٥ ۝ ١١٤٦ ۝ ١١٤٧ ۝ ١١٤٨ ۝ ١١٤٩ ۝ ١١٥٠ ۝ ١١٥١ ۝ ١١٥٢ ۝ ١١٥٣ ۝ ١١٥٤ ۝ ١١٥٥ ۝ ١١٥٦ ۝ ١١٥٧ ۝ ١١٥٨ ۝ ١١٥٩ ۝ ١١٦٠ ۝ ١١٦١ ۝ ١١٦٢ ۝ ١١٦٣ ۝ ١١٦٤ ۝ ١١٦٥ ۝ ١١٦٦ ۝ ١١٦٧ ۝ ١١٦٨ ۝ ١١٦٩ ۝ ١١٧٠ ۝ ١١٧١ ۝ ١١٧٢ ۝ ١١٧٣ ۝ ١١٧٤ ۝ ١١٧٥ ۝ ١١٧٦ ۝ ١١٧٧ ۝ ١١٧٨ ۝ ١١٧٩ ۝ ١١٨٠ ۝ ١١٨١ ۝ ١١٨٢ ۝ ١١٨٣ ۝ ١١٨٤ ۝ ١١٨٥ ۝ ١١٨٦ ۝ ١١٨٧ ۝ ١١٨٨ ۝ ١١٨٩ ۝ ١١٩٠ ۝ ١١٩١ ۝ ١١٩٢ ۝ ١١٩٣ ۝ ١١٩٤ ۝ ١١٩٥ ۝ ١١٩٦ ۝ ١١٩٧ ۝ ١١٩٨ ۝ ١١٩٩ ۝ ١٢٠٠ ۝ ١٢٠١ ۝ ١٢٠٢ ۝ ١٢٠٣ ۝ ١٢٠٤ ۝ ١٢٠٥ ۝ ١٢٠٦ ۝ ١٢٠٧ ۝ ١٢٠٨ ۝ ١٢٠٩ ۝ ١٢١٠ ۝ ١٢١١ ۝ ١٢١٢ ۝ ١٢١٣ ۝ ١٢١٤ ۝ ١٢١٥ ۝ ١٢١٦ ۝ ١٢١٧ ۝ ١٢١٨ ۝ ١٢١٩ ۝ ١٢٢



ومن القبائل التي أعلنت استعدادها لإيواء النبي " ﷺ " مع عدم الإيمان به  
 بنو كعب بن ربيعة ، وكاد الرسول " ﷺ " أن يذهب معهم لولا طائفة من طعا  
 البئر ردهم عما عزموا عليه .

يروى أبو يعيم عبد الرحمن العافري عن أشياخ من قومه قالوا : أئانا رسول  
 الله " ﷺ " ونحن بسوق عكاظ فقال : من القوم ؟

قالوا : من بني عاهر بن صعصعة بنو كعب بن ربيعة .  
 فقال : إن رسول الله إليكم ، أتيتكم لتمنعوني حتى أبلغ رسالة ربي ، ولا أكره أحد  
 منكم على شيء .

قالوا : لا تؤمن بك ، وسنمنعك حتى تبلغ رسالة ربك .  
 فأتاهم ببحرة بن فراس القشيري فقال : من هذا الرجل الذي أراه عندكم أنكره ؟  
 قالوا : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب .

قال : فما لكم وله ؟  
 قالوا : ونعم أنه رسول الله ، فطلب إلينا أن تمنعه حتى يبلغ رسالة ربه .  
 قال : ما رددم عليه ؟

قالوا : بالرحب والسعة نخرجه إلى بلادنا وتمنعنا مما تمنع منه أنفسنا .  
 فقال ببحرة : ما أعلم أحداً من أهل هذه السوق يرجع بشيء أشد من شيء ترجعون  
 به ! أتعمدون إلى رهيق قوم طردوه ، وكذبوه فتؤووه ، وتنصروه ، تناشدوا العرب  
 عن غوس واحد ، قومه أعلم به ، فينس الرأي رأيكم ، ثم أقبل على رسول الله " ﷺ "  
 فقال : قم فالحق بقومك فوالله لو لا أنك عند قومي لطربت عنقك <sup>(١)</sup> .

ولاحظ أن أهل مكة لم يتركوا محمداً يتصل بالناس ، بل سلطوا عمه  
 أبا هب وأنا جهل بغير أن خلفه ، أحدهما بعد الآخر بالتناوب ، وكلما خاطب قوماً

ودعاهم إلى الله يقول أبو حنبل، ويقول أبو جهل : يا بني فلان ، إن هذا الرجل قد بدعوكم إلى أن تسلكوا اللات والعزى من أعناقكم، وتركوا حلفاءكم من آل لحي ، إلى ما جاء به من البدعة ، والضلالة ، فلا تطيعوا ، ولا تسمعوا منه .

يقول طارق بن عبد الله : إلى بسوق ذي الحجاز ، إذ مر رجل بي عليه حلة من بصرى حمراء ، وهو يقول : يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، ورجل خلفه آدمى عرقوبيه وساقيه يقول : يا أيها الناس إنه كذاب فلا تطيعوه .

فقلت : من هذا ؟ قالوا : غلام بني هاشم الذي يزعم أنه رسول الله ، وهذا عبد العزى<sup>(١)</sup> ( أبو حنبل ) .

ويروى الإمام أحمد بسنده عن رجل من كنانة يقول : رأيت رسول الله ﷺ بسوق ذي الحجاز وهو يقول : يا أيها الناس قولوا : لا إله إلا الله تفلحوا .

وإذا رجل خلفه يسفى عليه التراب ، وإذا هو أبو جهل ، يقول : يا أيها الناس لا يفرنكم هذا عن دينكم ، فإنما يريد أن تتركوا عبادة اللات والعزى .

يتبعه حيث ذهب ورسول الله ﷺ " يفر منه ، وما يلتفت رسول الله ﷺ " إليه<sup>(٢)</sup> .

\* \* \*

<sup>(١)</sup> سورة البقرة الآية ١٧٥ ، ج ١ ، ص ٤٢٣ .

<sup>(٢)</sup> سورة البقرة الآية ٢٦٠ ، ج ٢ ، ص ١٥٦ .

## المبحث الرابع عشر

## زواج النبی " ﷺ "

## بعد وفاة خديجة

بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها " تزوج النبي " ﷺ " غيرها ، وهو في مكة قبل أن يهاجر إلى المدينة ، فعقد على عائشة في مكة ، ودخل بها في المدينة ، وتزوج سودة بنت زمعة ، ودخل بها في مكة ، وتزوج أيضاً أم حبيبة بنت أبي سفيان " رضي الله عنهم أجمعين " حيث عقد عليها وهي في الحبشة ، ودخل بها بعد عودها إلى المدينة بعد الهجرة .

وهذا تعريف بمؤلاء الزوجات : —

أولاً : سودة بنت زمعة " رضي الله عنها " :

روى ابن إسحاق — من طريق يونس بن بكير — أن النبي " ﷺ " تزوجها بعد خديجة ودخل بها في مكة قبل الهجرة ، ثم يصب منها ولداً ، وكانت غانمة — " رضي الله عنها " تقول عنها : ما رأيت من امرأة أحب إلي أن أكون في مساحتها من سودة بنت زمعة <sup>(١)</sup> .

يورد ابن كثير قصة زواج النبي " ﷺ " بسودة ، وعائشة ، فيقول : لما ماتت خديجة جاءت خولة بنت حكيم ، امرأة عثمان بن مظعون إلى رسول الله " ﷺ " ، فقالت : يا رسول الله ألا تتزوج ؟

قال : من ؟

قالت : إن كنت بكراً ، وإن شئت ثيباً .

فقال : فخير البكر ؟

قالت : أحب خلق الله إليك عائشة بنت أبي بكر .

فقال : ومن النبي ؟

قالت : سودة بنت زمعة ، قد أمنت بك واتبعتك .

قال : فاذهي فاذهبي فاذهبي علي ، فدخلت بيت أبي بكر فقالت : يا أم رومان ،  
أدخل الله عليك من الخير والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قالت : انظري أنا بكر حتى يأتي ، فجاء أبو بكر ، فقالت : يا أبا بكر ، ماذا أرسل  
الله عليك من الخير والبركة ؟

قال : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطب عليه عائشة .

قال : وهل تصلح له ، إنما هي ابنة أخيه ، فرجعت إلى رسول الله " ﷺ " ، فذكرت  
ذلك له .

قال : أرجعي إليه ، فقولي له : أنا أخوك وأنت أختي في الإسلام ، وأنت تصلح له ،  
فرجعت فذكرت ذلك له ، قال انتظري ، وخرج ، ثم رجع فقال لحوالة : ادعي  
رسول الله " ﷺ " فدعته ، فزوجها إياه ، وعائشة يومئذ بنت ست سنين .

ثم خرجت فدخلت على سودة بنت زمعة فقالت لها : ما أدخل الله عليك من الخير  
والبركة ؟

قالت : وما ذاك ؟

قالت : أرسلني رسول الله " ﷺ " أخطبك إليه .

قالت : وددت ، أدخلني إلى أبي بكر ( والسودة ) فاذكرني ذلك له . وكان  
كبيراً قد أدركه السن ، فدخلت عليه وحيته ، فقال : من هذه ؟

قالت : حوالة بنت حكيم .

قال : فما شأنك ؟

قالت : أرسلني محمد بن عبد الله أخطب عليه سودة .

يقال : كفو كرم ، ماذا تقول صاحبك ؟

قلت : قريب ذلك .

قال : ادعها إلى ، فدعتها ، قال : أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب قد أرسل بخطبك ، وهو كفو ، كرم ، اتعيب أن أزوحك به ؟

قلت : نعم .

قال : ادعه إلى فجاء رسول الله ﷺ " فزوجها إياه <sup>(١)</sup> .

وقد شككت سودة ظروفها لرسول الله ﷺ " ، وحاولت أن تعانس عمر

الزواج به ، فمساها رسول الله ﷺ " : ما يمنعك مني ؟

فأنت زواجي يا بني الله ما يمنعني منك أن لا تكون أحب البرية إلي ، ولكني أكرمتك أن تمنعوا هذلاء العنيفة عند رأسك بكرة ، وعشيرة .

قال : ففعلت معك مني غير ذلك ؟

قلت : لا والله ، قال لها رسول الله ﷺ " : يرحمك الله ، إن خير نساء ركب أعجاز الإبل ما هو نساء فريش ، أحناه علي ولده في صغره ، وأرعاه علي بآلات يده <sup>(٢)</sup> .

وهي التي وهبت يومها من رسول الله ﷺ " لعائشة ، وذلك حينما كبرت

وكان رسول الله ﷺ " يقسم لعائشة يومين : يومها ، ويوم سودة <sup>(٣)</sup> .

( فيهم من رواية الصحيحين أنها كانت امرأة — مع كثير منها قصة بعد —

سنة الخسب حتى أنها لتعرف وتميز بين النساء إذا مشيت ، حتى قال عمر ذات يوم —

بعد حرمه سودة ثيلاً — : إنك والله يا سودة ما تفتين عليا <sup>(٤)</sup> .

وتصلها بعض الروايات بأنها كانت ثقيلة ، تنطع ، يظلمها الحر كله ، وهذا

مسألة من الذين " ليلة جمع ( مزدلفة ) في الدفع قبل حطمة الناس فأذن لها <sup>(٥)</sup> .

<sup>(١)</sup> أخرجه الشيخان في الصحيحين ج ٢ ص ١٢٢

<sup>(٢)</sup> أخرجه الشيخان في الصحيحين ج ٢ ص ١٢٢

<sup>(٣)</sup> أخرجه الشيخان في الصحيحين ج ٢ ص ١٢٧

<sup>(٤)</sup> أخرجه الشيخان في الصحيحين ج ٢ ص ١٢٧

<sup>(٥)</sup> أخرجه الشيخان في الصحيحين ج ٢ ص ١٢٧

**فانيسيا : عائشة بنت أبي بكر " رضي الله عنها " :**

تزوج النبي ﷺ عائشة " رضي الله عنها " بعد وفاة خديجة بثلاث سنين (١) والذي يظهر من غالبية الروايات أن عقد " ﷺ " عليها كان بمكة وعشرها ست سنوات ، أما الدخول بها فكان بالمدينة وهي بنت تسع سنين (٢) .

ومما يؤكد صغر سنها حين الزواج لعبها مع البنات عند رسول الله ، وحين صواحبها ينقمعن من رسول الله ، فيسرنهن إليها (٣) .

وقد خطبها النبي ﷺ " من أبي بكر ، فقال أبو بكر : إنما أنا أخوك ! فقال له النبي ﷺ " : أنت أخي في دين الله و كتابه ، وهي لي حلال .

أما عن كيفية دخوله " ﷺ " بها : فنحدثنا عائشة ونقول : تزوجني النبي ﷺ " وأنا بنت ست سنين ، فقدمنا المدينة ، فترلنا في بيت الحبيب بن حزن .

فوعكست ، فتمرق شعري فوق جيمي ، فأنتني أمي أم رومان ، وإلى نفسي أرجو حبي . ومعنى صواحب لي ، فصرحت بي ، فأنتيتها لا أدري ما تريد بي ، فأخذت يدي عني .

أوقفتني على باب الدار ، وإلى لتهيج حتى سكن بعض نفسي ، ثم أخذت شيئاً من فاني فمسحت به وجهي ورأسي ، ثم أدخلتني الدار ، فإذا نسوة من الأنصار في البيت .

فقلن : على الخير والبركة ، وعلى خير طائر ، فأسلمتني إليهن ، فأصلحن من فاني فلم يرعني إلا رسول الله ﷺ " ، فأسلمتني إليه وأنا يومئذ بنت تسع سنين (٤) .

وزواج النبي ﷺ " بعائشة كان بعد رؤيا رآها في المنام تكررت مرتين كما في البخاري (٥) ، أو ثلاث مرات كما في مسلم (٦) .

(١) صحيح البخاري — كتاب المناقب — باب تزويج النبي ﷺ " خديجة ج ٦ ص ١٦٣ .

(٢) صحيح البخاري — كتاب مناقب الأنصار — باب تزويج عائشة ج ٦ ص ٢٠١ .

(٣) صحيح مسلم — كتاب فضائل الصحابة — باب فضل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٤ .

(٤) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب البناء بالأنوار ج ٨ ص ١٦٦ .

(٥) صحيح البخاري — كتاب النكاح — باب نكاح الإيثار ج ٨ ص ١٣١ .

(٦) صحيح مسلم — كتاب الفضائل — باب فضائل عائشة ج ١٥ ص ٢٠٢ .

يقول "عليه السلام" : جاءني بك الملك في سرقة من حرير، فقال لي : هذه امرأتك ، فكشفت عن وجهك الثوب ، فإذا أنت هي ، فقلت : إن بك هذا من عند الله يحضه <sup>(١)</sup> .

وعائشة " رضي الله عنها " هي الوحيدة من بين أزواجه "عليه السلام" التي تزوجها وهي بكر ، ولهذا كانت تظهر هذا الفضل ، وتقول للنبي "عليه السلام" يا رسول الله ، أرايت لو زلت وادياً وفيه شجرة قد أكل منها ، ووجدت شجرة لم يؤكل منها : في أيها كنت ترتع بعيرك ؟ ! قال : في التي لم يرتع منها ، تعني أن رسول الله "عليه السلام" لم يتزوج بكراً غيرها <sup>(٢)</sup> .

وكان ابن عباس " رضي الله عنهما " يقول لعائشة : لم ينكح النبي "عليه السلام" بكراً غيرك .

مكنت عائشة " رضي الله عنها " مع النبي "عليه السلام" تسع سنين ، ومات عنها النبي "عليه السلام" وهي بنت ثمان عشرة سنة .

وفي فضلها قال "عليه السلام" : فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام <sup>(٣)</sup> ، وأخيرها النبي "عليه السلام" : أن حبريل يقرئها السلام <sup>(٤)</sup> .

وقد اختصت من بين سائر زوجات النبي "عليه السلام" بعزل الوحي عليه وهو في لحافها . أخبر عن ذلك المصطفى "عليه السلام" وهو يقول لأُم سلمة : يا أُم سلمة لا تؤذي لي عائشة ، فإنه والله ما نزل علي الوحي وأنا في لحاف امرأة منك غيرها <sup>(٥)</sup> .

ومحبة النبي "عليه السلام" لعائشة لم تكن تخفي على المسلمين ، حتى لقد كانوا يحرمون هداياهم اليوم الذي يكون فيه النبي "عليه السلام" عند عائشة <sup>(٦)</sup> .

<sup>(١)</sup> "الشيء الذي يحضره الله تعالى".

<sup>(٢)</sup> "معجم الإسلام" - كتاب النكاح - كتاب الإكراه ج ٨ ص ١٣١ .

<sup>(٣)</sup> "معجم الإسلام" - كتاب النكاح ج ٨ ص ١٩٩ .

<sup>(٤)</sup> "معجم الإسلام" - كتاب النكاح ج ٨ ص ٢١٠ .

<sup>(٥)</sup> "معجم الإسلام" - كتاب النكاح ج ٨ ص ١٩٢ .

وعائشة " رضي الله عنها " هي التي قبض النبي ﷺ " بين سحرها وسحرها " — كما كانت تقول — <sup>(١)</sup> لأنه " ﷺ " لقي ربه وهو في حجرها ، وكان آخر عهده أن يل ريقها ريقه " رضي الله عنها " .

### ثالثاً - أم حبيبة بنت أبي سفيان :

أم حبيبة هي رملة بنت أبي سفيان ، هاجرت إلى الحبشة مع زوجها عبد الله بن جحش الأسدي ، وفارقتة بعدما تنصر ، وارتد ، فعقد عليها النبي ﷺ " وهي بأرض الحبشة ، وأبكرها النجاشي للنبي ﷺ " وأصدقها أربع مائة دينار ذهباً . ودخل لها " ﷺ " في المدينة بعد أن عادت من هجرتها <sup>(٢)</sup> . وهي التي عرضت على النبي ﷺ " الزواج بأختها " عزة بنت أبي سفيان فحسب النبي ﷺ " لذلك ، وقال : أو تحبين ذلك ؟ ! قالت : نعم . وتعلل ذلك ، وتقول : لست لك بمحلية ، وأحب من شاركني في الحبس أختي ، هرد عليها ، إن ذلك لا يجل لي . وإنما عقد النبي ﷺ " على أم حبيبة تكريماً لها ، وتقديراً لتمسكها بالإسلام ، وعوضاً لها عن مفارقة زوجها .

\* \* \*

<sup>(١)</sup> صحيح مسلم — كتاب النكاح ج ١ ص ١٠٥ .

<sup>(٢)</sup> المرجع السابق ج ١ ص ٢٠٨ .

<sup>(٣)</sup> تراجم السيرة ص ٣٥ .



## المبحث الخامس عشر

### تتابع مجي نصر الله تعالى

هذا النبي " ﷺ " جهده في دعوة أهل الطوائف، وفي عرض نفسه على القبائل . ومع ذلك لم يتحقق له ما يمتنى حيث رده أهل الطوائف رداً قبيحاً، ولم تؤمن القبائل بدعوته، ورفضت إجارته خوفاً من عداة قريش، وتأثراً بما كان أبو حطب وأبو جهل يذكران عنه .

وكانت معونة الله مع عبده ورسوله محمد " ﷺ " حيث يسر له من أمره رشداً . ولم يخرج من جهاده مع الناس خالي الوفاض ، فحقق له عدداً من الانتصارات التي ترضيه ، رحمة من الله ، وفضلاً ، وأهمها ما يلي : —

### النصر الأول

#### إسلام عداس

بعد ما ردت ثقيف رسول الله " ﷺ " بهذه الصورة السيئة، التي ذكرناها آنفاً . " ﷺ " في العودة إلى مكة مرة أخرى .

وعندئذ وصل إلى بستان بين ربيعة جلس تحت ظل شجرة ليستريح، وأحد بدعو به ، ويستغيب به ... فاستجاب الله له، وجاءه نصر الله : حتى لا يعود لمكة حاوياً الوفاض ، فكان إسلام عداس .

وقصة إسلام عداس أنه " ﷺ " لما جلس تحت الشجرة راه عتبة ، وعتيبة ابنا ربيعة وعنسا ما وقع له : فتحركت له راحتهما ، فدعوا غلاماً لهما نصرانياً : يقال له عداس ليعطيه شيئاً من الفاكهة تعينه على هذه المتاعب وقالوا له : خذ قطعاً ( من هذا ) العنب فضعه في هذا الطبق ، ثم اذهب به إلى ذلك الرجل ، فقل له يأكل منه .

فقبل عداس : ثم أقبل به حتى وضعه بين يدي رسول الله " ﷺ " ثم قال له : كل . فلما وضع رسول الله " ﷺ " فيه يده ، قال : بسم الله : ثم أكل .

فخطب عداس في وجهه ، ثم قال : والله إن هذا الكلام ما يقوله أهلي هذه الليلة  
فقال له رسول الله ﷺ : " ومن أهل أي البلاد أنت يا عداس ؟ ، وما دينك ؟  
قال عداس : نصراني ، وأنا رجل من أهل نينوى .

فقال رسول الله ﷺ : " من قرية الرجل الصالح يونس بن ميثى .

فقال له عداس : وما يدريتك ما يونس بن ميثى ؟

فقال رسول الله ﷺ : " ذاك أخي كان نبياً وأنا نبى ، فأترك عداس على رسول الله  
" ﷺ " يقبل رأسه ، ويديه ، وقدميه ، وأسلم .

وهكذا أسلم عداس في أثناء عودة النبي ﷺ من رحلته إلى الطائف

وأما أبناء ربيعة فقد قالوا لعداس : ويحك يا عداس ؟ ما لك تقبل رأس هذا الرجل  
ويديه ، وقدميه ؟ !

فقال لهما : لقد أخبرني بأمر لا يعلمه إلا نبي (١) .

## النصر الثاني

### إسلام الجني

حين إنصرفه " ﷺ " من الطائف ، راجعاً إلى مكة ، وعند واد في طريق مكة

يسمى " نخلة " قام " ﷺ " في خوف الليل يصلي ، فأثابه سبعة من جن نصيبين

استمعوا لقراءته " ﷺ " ، وهو يصلي ، فلما فرغ من صلاته ، أعلنوا إسلامهم وإسلامهم

ثم انصرفوا إلى قومهم دعاء : يمسكون الإسلام إليهم : ويوضحون تعاليمه ، ومزاياه

وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ

الْقُرْآنَ إِن فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصَبُوا<sup>١</sup> فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُّندِرِينَ ﴿٥٦﴾ قَالُوا

يَنْقُومَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كُتُبًا أُتِرَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى

الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقِ مُسْتَقِيمٍ ﴿٣١﴾ يَتَقَوَّمَتْنَا أٰجِبُونَ دَاعِيَ ٱللَّهِ وَءَامِنُونَ بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُم مِّنْ عَذَابِ ٱلْإِمْرِ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ ٱولِيَاءُ ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٣﴾ ۝ "وقد نزلت فصحتهم كاملة في سورة النحل .

وهكذا بدأ خلق آخر يدخلون في الإسلام، ويهتدون بالدعوة إليه .

ومن سياق الآيات يتضح أن الرسول " ﷺ " لم يكن يعلم بحضور هذا النفر من الجحش لقد كان إيمان الجحش نصراً آخر، أمده الله به، من كنوز غيبه المكنون . والله جود لا يعلوها إلا هو .

ثم إن الآيات التي نزلت بصدد هذا الحادث تحمل في طياتها بشارات لنجاح دعوة النبي " ﷺ " ، وتؤكد أن سائر قوى الكون لا تستطيع أن تحول بينها وبين نجاحها يقول الله تعالى : ﴿ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ ٱولِيَاءُ ۖ أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ﴿٣٣﴾ ، ويقول سبحانه : ﴿ وَأَنَا ظَنَّا أَن لَّنْ نَّعْجِزَ ٱللَّهَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَن نَّعْجِزَهُ هَرَبًا ﴾ ﴿٣٤﴾ .

### النصر الثالث

#### إجارة المطعم بن عدي

لما خرج محمد " ﷺ " إلى الطائف عزمت قريش على منعه من العودة إلى مكة . حتى لا يجد مكاناً يأوي به ، أو أناساً يحمونه . . ومع ذلك نوى رسول الله العودة إلى مكة .

<sup>(١)</sup> سورة الأحقاف الآيات ( ٢٩ — ٣٢ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الأحقاف آية ( ٣٢ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة النحل آية ( ٦٢ ) .

قال له زيد بن حارثة " ﷺ " رفيقة في رحلة الطائف : كيف تدخل عليهم

وقد أخرجوك ؟

فقال " ﷺ " : يا زيد إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجاً ، وأن الله ناصر دينه ومظهر سيده .

وسار رسول الله " ﷺ " صوب مكة ، حتى وصل حراء فمكث بها ، وأنزل

يبحث عن شخص يجيره ، وينصره ..

فأرسل رجلاً من خزاعة إلى الأخنس بن شريق ليجيره ، فقال الأخنس

حليف ، والحليف لا يجير .

فبعث الرجل إلى سهيل بن عمرو ، فقال سهيل : إن بني عامر لا يجير علي بن كعب

فبعث الرجل إلى المطعم بن عدى ، فرد المطعم ردّاً جميلاً وقال : نعم ، ثم

تسلح ، ودعا بنيه ، وقومه ، وقال لهم : إلبسوا السلاح ، وكونوا عند أركان البيت

فإن قد أجرت محمداً ، ثم بعث إلى رسول الله " ﷺ " : أن ادخل ، فدخل رسول الله

" ﷺ " ومعه زيد بن حارثة حتى انتهى إلى المسجد الحرام ، فقام المطعم بن عدى على

راحلته فنادى يا معشر قريش ، إني قد أجرت محمداً فلا يهجم أحد منكم .

وانتهى رسول الله " ﷺ " إلى الركن فاستلمه ، وصلى ركعتين ، وانصرف

إلى بيته ، ومطعم بن عدى وولده ممدون به ، بالسلاح حتى دخل بيته .

وقيل : إن أبا جهل سأل مطعماً : أيجير أنت أم متابع — مسلم — . قال

بل محير ، قال : قد أجرتنا من أجرت . .

وقد حفظ رسول الله " ﷺ " للمطعم هذا الصنيع ، فقال في أسارى بني

كان المطعم بن عدى حياً ثم كلمني في هؤلاء التني لتركهم له <sup>(١)</sup> .

## النصر الرابع

### أضواء وسط ظلام القبائل

ظلت القبائل على كفرها ، وردوا على رسول الله حين عرض نفسه عليهم ردوداً مختلفة وكان لموقف القبائل أثر مؤلم على نفس رسول الله " ﷺ " .  
ويأتى الله إلا أن يكرم محمداً " ﷺ " ببعض الخير : فتشرق عليها أضواء من بين هذه القبائل ، وذلك بإسلام أفراد منهم : ودخولهم في دين الله تعالى ، وعلى رأس هؤلاء المسلمين : —

#### ١ - سويد بن الصامت " رضى الله عنه " :

وهو رجل من بني عوف بن مالك الأوسى ، جاء إلى مكة حاجاً أو معتمراً ، فتصدى له رسول الله " ﷺ " حين سمع به ، فدعاه إلى الله ، وإلى الإسلام .  
فقال له سويد : فاعل الذى معك هو الذى معنى .  
فقال له رسول الله " ﷺ " : وما الذى معك ؟  
قال : معنى ثمة لقمان — يعنى حكمة لقمان — .  
فقال له رسول الله " ﷺ " : أعرضها على .

فعرضها عليه ، فقال له " ﷺ " : إن هذا الكلام حسن ، والذى معنى أفضل من هذا نيران أمره الله تعالى على ، هو هدى ونور : فتلا عليه رسول الله " ﷺ " القرآن ، ودعاه إلى الإسلام ، فلم يبعد منه ، وقال : إن هذا لقول حسن وأسلم ، ثم انصرف عنه <sup>(١)</sup>

#### ٢ - إبليس بن معاذ " رضى الله عنه " :

إبليس بن معاذ من بني عبد الأشهل وهم من الأوس ، جاء وهو صغير مع قومهم يتنصرون الحلف مع قريش لينتصروا بهم على الخزرج ، فلما سمع بهم رسول الله " ﷺ " أتاهم ، وجلس معهم وقال لهم : هل لكم فى خير مما جئتم له ؟

(١) سورة النور : آيتين ستم ج ١ ص ٤٢٧ .

فقالوا له : وما ذاك ؟

قال : أنا رسول الله بعثني إلى العباد ، أَدْعُوهم إلى أن يعبدوا الله ولا يشركوا به شيئاً ، وأنزل عليّ الكتاب ، ثم ذكر لهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن .

فقال إياس بن معاذ : هذا والله خير مما جئتم له ، فأخذ أبو الخيسر ، أنس بن رافع ، حفنة من تراب البطحاء ، فضرب بها وجه إياس بن معاذ ، وقال : دعنا منك فلمصرى لقد جئنا لغير هذا ، فصست إياس ، وقام رسول الله ﷺ " عنهم ، وانصرفوا إلى المدينة ، وكانت وقعة بعث بين الأوس والخزرج .

ثم لم يلبس إياس بن معاذ أن هنك ، يقول محمود بن لبيد ، فأخبرني عن حضره من قومه عند موته : أنهم لم يزألوا يسمعون بهال الله تعالى ، ويكبره ، ويحمله ، ويسبحه حتى مات ، فما كانوا يشكون أنه قد مات مسلماً ، لقد استشعر الإسلام في ذلك المجلس ، حين سمع من رسول الله ﷺ " ما سمع <sup>(١)</sup> .

### ٣ - أبو ذر الغفاري " رضي الله عنه " :

لما بلغ يثرب خير سويد ، وإياس " رضي الله عنهما " ، وإثما سمعا محمداً ﷺ " وأما بدعوته ، بدأ أهلها في التفكير في أمر محمد ، وبخاصة أهل الرأي فيهم ، ومنهم أبو ذر الغفاري ، أخذ أبو ذر يفكر في الإسلام ، وهو في يثرب ، فقال لأخيه : اركب إلى هذا الوادي فاعلمني علم هذا الرجل ، الذي يزعم أنه نبي ، بأنه خير من النساء ، واسمع من قوله ، ثم ائتني .

فانطلق أخوه حتى قدم مكة ، ولقي محمداً ﷺ " ، وسمع من قوله ، ثم رجع إلى أبي ذر ، فقال له : رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ، وكلاماً ما هو بالشعر .

فقال أبو ذر : ما شفيتني مما أردت ، فتزود أبو ذر ، وحمل شاة فيها ماء ، حتى قدم مكة ، فأثني المسجد ، فالتمس التي " ﷺ " وكان لا يعرفه ، وكره أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فراه على " ﷺ " فعرف أنه غريب ، فلما رآه تبعه ، فلحقه

يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

فلما أصبح أبو ذر : احتمل قريته وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ينظر

إلى النبي " ﷺ " والنبي لا يراه حتى أمسى ، فعاد إلى مضجعه .

مر به علي في مضجعه فقال له : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟ فأقامه عنده .

فذهب به معه ، لا يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء .

حين إذا كان يوم الثالث ، فعاد علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال : ألا

تحدثني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني ففعلت ، ، ففعل . فأخبره .

قال علي : فإنه حق ، وهو رسول الله " ﷺ " : فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن رأيت

شيئاً أخاف عليك فمت كأني أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، حتى تدخل مدخلين ،

فدخل . فاستلق بشفوه ، حتى دخل علي " ﷺ " علي النبي " ﷺ " ، ودخل أبو ذر معه .

فسمع من هو له : وأسلم مكانه ، فقال له النبي " ﷺ " : ارجع إلى قومك : فأخبرهم

حين يأتيتك أمري .

قال أبو ذر : والذي نفسي بيده لأصرعن بها بين ظهرانيهم ، فخرج حتى أتى المسجد

فنادى بأعلى صوته : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، ثم قام الفوم

فظم يده حتى أصححوه .

وأتى العباس فأكب عليه ثم قال : ويلكم ! أستم تعلمون أنه من غفار ؟ وأن طريق

تخاريكم إلى الشام لا فأنتقد منهم . ثم عاد من الغد مثليها : فضربوه ، وتاروا إليه ،

فأكب العباس عليه <sup>(١)</sup> .

#### ٤- الحفيل ابن عمرو الدوسي " ﷺ " :

الحفيل شيخ من شيوخ قبيلة دوس ، إحدى قبائل اليمن ، قدم الحفيل مكة

ارسول الله " ﷺ " بها ، فمضى إليه رجال من قريش ، فقالوا له : يا حفيل : إنك

قدمت بلاديا ، وهذا الرجل الذى بين أظهرنا قد فرق جماعتنا ، وشئت أمرنا ،  
قوله كالتسحر يفرق بين الرجل وبين أبيه ، وبين الرجل وبين أخيه ، وبين الرجل وبين  
زوجته ، وأنا فخشي عليك ، وعلى قومك ، ما قد دخل علينا ، فلا تكلمنا ،  
تسمع منه شيئا .

يقول الطفيل : فو الله ما زالوا حتى آجعت أن لا أسمع منه شيئا ولا أكله  
وحشوت في أذى حين غدوت إلى المسجد كرسفا خوفا من أن يلعبني شئ من فوائده  
وأنا لا أريد أن أسمع ، فغدوت إلى المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ " قائم يصلي على  
الكعبة ، فقصت منه قريبا ، فأبى الله إلا أن يسمعني بعض قوله ، فسمعت كلاما حسنا  
فقلت في نفسي : وأكل أمي ، والله إنى لرجل لبيب ، شاعر ، ما يغنى عن الحسن بن  
القيبح ، فما بمنعني أن أسمع من هذا الرجل ما يقول ! فإن كان الذى يأتى به خبيثا  
قبلته ، وإن كان قبيحا تركته .

فمكثت حتى انصرف رسول الله ﷺ " إلى بيته فاتبعته ، حتى إذا دخل  
لبيته دخلت عليه .

فقلت : يا محمد ، إن قومك قد قالوا لي كذا وكذا ، للذى قالوا : هو الله ما برحوا  
لخوفوني أمرك حتى سددت أذني بكرسف لكي أسمع قولك ، ثم أبى الله إلا أن  
يسمعني قولك ، فسمعت قوله حسنا ، فاعرض عليّ أمرك ، فعرض عليّ رسول الله ﷺ  
" الإسلام ، وتلا عليّ القرآن ، فلا والله ما سمعت قولاً قط أحسن منه ، إلا  
أمراً أعدل منه ، قال : فأسلمت وشهدت شهادة الحق <sup>(١)</sup> .

### ٥ - ضماد الأزدي " :

ضماد رجل من اليمن ، كان يعمل بالرقيا من الجن ، قدم مكة ، فسمع  
أهلها يقولون : إن محمداً مجنون .  
فقال : لو أن أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي .



يقال : يا محمد ، إلى أرقى من هذا الريح ، فهل لك ؟  
 يقال رسول الله ﷺ : إن الحمد لله نحمده ونستعينه ، من يهده الله فلا مضى له ،  
 ومن ضلله فلا هادى له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن  
 محمداً عبده ورسوله . . أما بعد .

وقال حماد : أعد عنى كسائك هؤلاء ، فأعادهن عليه رسول الله ﷺ

بلائ مرافقه .

يقال حماد: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثلاً  
 ككسائك هؤلاء، ولقد بلغن قاموس البحر، هات يدك أبا يعك عنى الإسلام ، فما بعد ؟

### النصر الخامس

#### الإسراء والمعراج

وأكرم الله نبيه محمداً ﷺ " برحلة الإسراء والمعراج ، ليؤنس به ، ويعرفه  
 بمزله عبده ، وليبدأ " ﷺ " بها مرحلة جديدة في الدعوة إلى الله تعالى .  
 والحديث عن الإسراء والمعراج يحتاج إلى تناول نقاط معينة وهي : —

#### ١ - مفهوم الإسراء والمعراج

يراد بالإسراء تلك الرحلة التي صحب فيها جبريل " عليه السلام " محمداً ﷺ " ليلاً من البيت  
 الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى ، وهو بيت المقدس بإثيوباء حيث ركبا معاً المراق .  
 ويراد بمرحلة المعراج صعود جبريل بمحمد ﷺ " من بيت المقدس إلى  
 السماوات العليا ، في معراج أحضره معه جبريل " عليه السلام " .

#### ٢ - ثبوت الإسراء والمعراج

والإسراء والمعراج ثبت وقوعهما لرسول الله ﷺ " بالقرآن الكريم ، وبالسنة  
 النبوية وبشهادة الصحابة " رضوان الله عليهم " .



فيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه ، ففتح لنا فإذا أنا بآدم " عليه السلام " فرحنا به ودعنا إلى خير .

ثم عرج بها إلى السماء الثانية فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

فقال : من أنت ؟ ؟

قال : جبريل .

فيل : ومن معك .

قال : محمد .

فيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة عيسى ابن مريم ، ويحيى بن زكريا

" صلوات الله عليهم " فرحنا ودعوا إلى خير .

ثم عرج به إلى السماء الثالثة فاستفتح جبريل .

فقال : من أنت ؟ .

قال : جبريل .

فيل : ومن معك ؟

قال : محمد " صلى الله عليه وسلم " .

فيل : وقد بعث إليه ؟

قال : قد بعث إليه .

ففتح لنا فإذا أنا بيوسف " عليه السلام " إذا هو قد أعطي شطر الحسن فرحنا ودعنا إلى خير

ثم عرج بها إلى السماء الرابعة فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

فيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

فيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قال : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بإدريس ، فرحب ودعانا لي بخير ، قال الله عز وجل : ﴿ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾ ﴿١١٢﴾ ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فاستفتح جبريل .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا فإذا أنا بهارون " عليه السلام " ، فرحب ودعانا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السادسة ، فاستفتح جبريل " عليه السلام " .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ففتح لنا ، فإذا أنا بموسى " عليه السلام " ، فرحب ودعانا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل .

قيل : من هذا ؟ .

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟ .

قال : محمد " ﷺ " .

قيل : وقد بعث إليه ؟ .

قال : قد بعث إليه ، وفتح لنا ، فإذا أنا بإبراهيم " عليه السلام " مسنداً ظهره إلى البيت المعمور . وإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه ، ثم ذهب في إلى سدة المشعر . وإذا ورقها كآذان الفيلة وإذا ثمرها كالقلال .  
فلما غشيها من أمر الله ما غشى تغيرت ، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها .

فأوحى الله إلى ما أوحى ففرض على خمسين صلاة في كل يوم وليلة ، فزلب إلى موسى " عليه السلام " ، فقال : ما فرض ربك علي أمتك .  
قلت : خمسين صلاة .

قال موسى " عليه السلام " : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف ، فإن أمتك لا يطيقون ذلك ، فإن قد بلوت بين إسرائيل وخيركم .

فرجعت إلى ربي ، فقلت يا رب خفف علي أمتي فحط عني خمسا .  
فرجعت إلى موسى ، فقلت حط عني خمسا .

قال موسى " عليه السلام " : إن أمتك لا يطيقون ذلك ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .  
يقول " عليه السلام " : فلم أزل أرجع بين ربي تبارك وتعالى وبين موسى " عليه السلام " ، حتى قال الله تعالى : يا محمد إنهم خمس صلوات كل يوم وليلة لكل صلاة عشر ، فذلك خمسون صلاة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً ، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا ، فإن عملها كتبت سيئة واحدة .  
فزلت حتى انتهيت إلى موسى " عليه السلام " فأخبرته ، فقال : ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف .

فقال رسول الله " صلى الله عليه وسلم " : فقلت قد رجعت إلى ربي حتى استجيبت منه <sup>(١)</sup> .

<sup>(١)</sup> صحیح مسلم بشرح النووي — باب الإسرائء برسول الله " صلى الله عليه وسلم " ج ٢ ص ٢١٠ — ٢١٥ ، يقول القاضى عياض عن هذا الحديث : لم يأت أحد بأصوب من هذا الحديث ( الشفا ج ١ ص ١٧٩ ) .

وقد روى حديث الإسراء والمعراج ثمان وثلاثون صحابياً وصحابة، وبعضهم ذكره مطولاً ، وبعضهم ذكره مختصراً ، وبعضهم زاد جوانب لم تذكر عند الآخرين .. ووقعت بينهم اختلافات ، والقادر الجسع عليه هو أنه " ﷺ " أسرى به من مكة إلى بيت المقدس ، ركباً البراق ، فلما انتهى إلى باب المسجد ، ربط الدابة عند الباب ودخله فصلى في قبلته ثنية المسجد ركعتين .

ثم أتى بالمعراج ، وهو كالسلم ، ذو درج يرفى فيها : فصعد فيه ، إلى السماء الدنيا ، ثم إلى بقية السموات السبع ، فلقاه من كل سماء مقربوها .

ثم سلم على الأنبياء الذين في السموات ، بحسب منازلهم ، ودرجاتهم ، حتى مر موسى الكليم ، وإبراهيم الخليل في السادسة والسابعة ، ثم جاوز منزلتهما " ﷺ " وعلى سائر الأنبياء ، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقدام ، أي لفلان القدر بما هو كائن .

ورأى سدرة المنتهى ، وغشيتها من أمر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب ، وألوان متعددة ، وغشيتها الملائكة .

ورأى هناك جبريل على صورته ، وله ستائة جناح ، ورأى ربه رافعاً أخضر قد سد الأفق ، ورأى البيت المعمور ، يدخله كل يوم سبعون ألفاً من الملائكة ، يتعبدون فيه ، ثم لا يعودون منه إلى يوم القيامة .

ورأى الجنة والنار ، وفرض الله عليه هناك الصلوات خمس ، ثم خففها إلى خمس ، رحمة منه ، ولطفاً بعباده ، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها ، ثم هبط إلى بيت المقدس ، وهبط معه الأنبياء فصلى بهم فيه . لما حانت الصلاة ، وانحلت أكنها الصبح من يومئذ ، بعد رجوعه إليه ، لأنه لما مر بهم في منازلهم ، جعل يسأل عنهم جبريل واحداً ، واحداً ، فيخبره بهم وكان الأنبياء أنفسهم يسألون جبريل ﷺ " عن المصاحب له ، وعن بعثته .

والقول بأن الصلاة كانت بعد العودة من الخروج هو اللاحق، لأنه " ﷺ " كان أولاً مطبوعاً إلى الجناح القدسي ليتشرف بالمقام العلوي ، وتعرف منزله عند ربه ، وحيث يفرض عليه ، وعلى أمته ما يشاء الله تعالى ، ثم لما فرغ من الذي أريد به اجتماع به هو وإخوانه من النسيين ، وأظهر شرفه ، وفضله عليهم ، بتقديمه في الإمامة واتسامهم جميعاً " صلوات الله عليهم " به، وذلك بوحي جبريل " عليه السلام " لهم في ذلك . ثم خرج " ﷺ " من بيت المقدس فركب البراق، وعاد إلى مكة بغلس ، والله سبحانه وتعالى أعلم<sup>(١)</sup> .

وحيث تقدم على ما بين هذه الروايات من اتفاق، أو اختلاف أبين ما يلي : —

### أولاً : رواية حديث الإسراء :

بلغ عدد رواية حديث الإسراء من الصحابة ثمان وثلاثين صحابياً ، وصحابة

وهم : —

- |                                   |                                       |
|-----------------------------------|---------------------------------------|
| ١ — آل بن كعب " ﷺ " .             | ٢ — أبو ذر الغفاري " ﷺ " .            |
| ٣ — بريقة بن عبد الله " ﷺ " .     | ٤ — أسامة بن زيد " ﷺ " .              |
| ٥ — أنس بن مالك " ﷺ " .           | ٦ — جابر بن عبد الله " ﷺ " .          |
| ٧ — حذيفة بن اليمان " ﷺ " .       | ٨ — سمرة بن جندب " ﷺ " .              |
| ٩ — سهل بن سعد " ﷺ " .            | ١٠ — شداد بن أوس " ﷺ " .              |
| ١١ — حمزة بن سنان " ﷺ " .         | ١٢ — عبد الله بن عباس " ﷺ " .         |
| ١٣ — عبد الله بن عمر " ﷺ " .      | ١٤ — عبد الله بن الزبير " ﷺ " .       |
| ١٥ — عبد الله بن أبي أوفى " ﷺ " . | ١٦ — عبد الله بن سعد بن زرارة " ﷺ " . |
| ١٧ — عبد الله بن مسعود " ﷺ " .    | ١٨ — العباس بن عبد المطلب " ﷺ " .     |
| ١٩ — عثمان بن عفان " ﷺ " .        | ٢٠ — عتي بن أبي طالب " ﷺ " .          |
| ٢١ — عمر بن الخطاب " ﷺ " .        | ٢٢ — مالك بن صعصعة " ﷺ " .            |

- ٢٣— أبو بكر الصديق " رضي الله عنه " .  
 ٢٤— أبو أيوب الأنصاري " رضي الله عنه " .  
 ٢٥— أبو الحمراء " رضي الله عنه " .  
 ٢٦— أبو الدرداء " رضي الله عنه " .  
 ٢٧— أبو سعيد الخدري " رضي الله عنه " .  
 ٢٨— زيد بن حكيم " رضي الله عنه " .  
 ٢٩— أبو سفيان بن حرب " رضي الله عنه " .  
 ٣٠— أبو سلمة بن دحية " رضي الله عنه " .  
 ٣١— أبو ليلى الأنصاري " رضي الله عنه " .  
 ٣٢— أبو سلمى راعى رسول الله " رضي الله عنه " .  
 ٣٣— أبو هريرة " رضي الله عنه " .  
 ٣٤— أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " .

- ٣٥— أسماء بنت أبي بكر " رضي الله عنها " .  
 ٣٦— أم كلثوم بنت رسول الله " رضي الله عنه " .  
 ٣٧— أم سلمة أم المؤمنين " رضي الله عنها " .  
 ٣٨— أم هانئ " رضي الله عنها " (١) .

وقد أورد السيوطي مختلف الروايات بأسانيدها في كتابه "الخصائص الكبرى" ونقلها عنه العلامة الشيخ / يوسف النبهاني في كتابه "حجة الله على العالمين" فليرجع إلى أيهما من أراد الاطلاع عليها .

### ثانياً : الزيادات الواردة عن رواية أنس المذكورة :

وردت زيادات في بعض الروايات زائدة عن رواية أنس بن مالك " رضي الله عنه " التي نقلتها من صحيح مسلم وجعلتها أساساً لسائر الروايات، وسأحاول هنا ذكر هذه الزيادات لتتضح صورة الإسراء والمخراج كاملة ، وهي : —

أ — أخرج البخاري بسنده عن أنس، قال : ( ليلة أسرى برسول الله " ﷺ " من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحى إليه بالإسراء وهو نائم في المسجد الحرام ، فقال أولهم : أيهم هو ؟  
 فقال أوسطهم : هو خيرهم .

فقال أحدهم : خذوا خيرهم .. وفي ليلة أخرى أتوه وهو نائم فحملوه ، ووضعوه عند بئر زمزم ، فتلواهم منهم جبريل ، فشق ما بين بئرهم إلى بئرته ، حتى فرغ من صدره

(١) أورد ابن كثير حصر هذه الأسماء في تفسيره ج ٢ ص ٢٤ كما ذكرهم صاحب كتاب "حجة الله على العالمين" ص ٣٣٧ .



وجوفسه فغسله بماء زمزم بيده ، حتى ألقى جوفه ، ثم أتى بطشت من ذهب ، فحشو  
إيماناً ، وحكمت ، فحشنى به صدره ، ولعاد يده ( عروق حلقه ) (١) .

ب - وأخرج أحمد عن طريق أنس أن النبي أثر بالبراق ليلة أسرى به ، فسر حاك ،  
محمداً ، ليركبه ، فاستصعب عليه ، فقال له جبريل : أيا محمد تفعل هذا ؟ غو الله ما  
ركبت حتى فطأ أكرم علي الله منه فأرفض البراق عرفاً ، ثم قر حتى ركبه " ﴿ ١٠١ 〉 " (٢)

ج - وأخرج ابن عساکر ، والبيهقي بسندهما عن حديث أبي سعيد الخدري يقول  
النبي " ﴿ ١٠٢ 〉 " : فإذا أنا بآدم كهيئته يوم خلقه الله على صورته ، تعرض عليه أرواح  
ذريته المؤمنين ، فيقول : روح طيبة ، ونفيس طيبة ، فاحملوها في خليتين ، ثم تعرض  
عليه أرواح ذريته الفسحار ، فيقول : روح خبيثة ، ونفيس خبيثة فاحملوها في سحير .

ثم تمسك هيبته فإذا أنا بأخوته عليها لحم ، قد أروح ، وأنت : احملها ناس  
يأكلون منها ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يتركون الحلال ، ويأتون الحرام .

ثم تمسكت هيبته فإذا بأقوام بطوهم أمثال البيوت : كلما لمس أحدهم خر  
يقول : اللهم لا تقم الساعة ، وهم على سابلة آل فرعون ، فتجزع السابلة فتسلوهم ،  
فسمعتهم يضحون إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟

قال : هؤلاء من أمتك الذين يأكلون الربا : ﴿ ١٠٣ 〉 لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي  
سَخَطَ عَلَيْهِ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴿ ١٠٤ 〉 .

ثم تمسكت هيبته فإذا أنا بأقوام مشافرهم كمشافر الإنبل : فنفخ أفواههم  
ويضجون صجراً . ثم يرضخ من أسافلهم : فسمعتهم يضحون إلى الله ، قلت : يا جبريل  
من هؤلاء ؟

(١) صحيح ابن أبي شيبة ، كتاب الميراث ج ٦ ص ١٩٠ ، نسخة .

(٢) صحيح ابن أبي شيبة ج ١ ص ٤٠٥ - ٤٠٦ .

قال : هؤلاء من أمّك ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ لَبُؤًا مِنْهُمْ نَارًا ﴾ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١﴾ .

ثم مضت هنيئة فإذا أنا بنساء تعفنن بظاههن : ونساء منكسات بأرجلهن ، فسبحتهن يضحجن إلى الله ، قلت : يا جبريل من هؤلاء النساء ؟  
قال : هؤلاء اللاتي يزني ويغسل أولادهن .

ثم مضت هنيئة فإذا أنا بأفواهم يقطع من جنوبهم اللحم ، فيلقون ، فيقال له كل كما كنت تأكل من لحم أخيك : قلت : يا جبريل من هؤلاء ؟  
قال : هؤلاء الممازون من أمّك الممازون <sup>(١)</sup> .

د — وأخرج البيهقي ، وابن جرير بسندهما ، عن أبي هريرة " رضي الله عنه " قال :  
وسار معه جبريل فأتى على قوم يزرعون في يوم ، ويحصدون في يوم ، كلما حصلوا  
عاد كما كان ، فقال النبي " ﷺ " : يا جبريل ما هذا ؟  
قال : هؤلاء الجاهلون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنات سبعمئة ضعف ، وما أنفقوا  
من شيء فهو يخلفه .

ثم أتى على قوم ترضخ رؤسهم بالصخر ، كلما رضخت عادت كما كانت ، ولا  
يفتر عنهم من ذلك شيء .

فقال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين تشغل رؤسهم عن الصلاة المكملة .

ثم أتى على قوم على إقبالهم رفاع ، وعلى أدبارهم رفاع ، يسرحون كما تسرح  
الإبل ، والنعم ، ويأكلون السريع والزقوم ، ورضف جهنم ، وحجارتهما .

قال : ما هؤلاء ؟ يا جبريل ؟

قال : هؤلاء الذين لا يؤدّون حلفات أموالهم ، وما ظلمهم الله شيئاً .

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نصيح في قدر ، ولحم آخر نبي خبيث ، فجعلوا  
ياكفون من اثنين الخبيث ويدعون النصيح الطيب .

قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمثلك تكون عنده المرأة الحلال الطيب ، فيأتي امرأة خبيثة ،  
فيبيت عندها حتى يصبح ، والمرأة تقوم من عند زوجها حلالاً طيباً فتأتي رجلاً خبيثاً  
فيبيت معه . حتى تصبح .

ثم أتى على خشبة على الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ، ولا شيء إلا خرقة .

يقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا مثل أقوام من أمثلك يتعدون على الطريق فيقتلعونه .

ثم أتى على رجل قد جمع حزمة عظيمة لا يستطيع حملها وهو يزيد عليها .

فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل من أمثلك يكون عليه أمانات الناس لا يندر على أدائها ، وهو يريد  
أن يجمع عدوها .

ثم أتى على قوم تقرض المستهم وشفاههم بمقار يض من حديد ، كلما قرضت عادت

كما كانت لا يفتر عنهم من ذلك شيء ، قال : ما هؤلاء يا جبريل ؟

قال : هؤلاء حطبباء الغتة .

ثم أتى على جحر صغير يخرج منه ثور عظيم ، فجعل الثور يريد أن يرجع من حيث

خرج ، لا يستطيع ، فقال : ما هذا يا جبريل ؟

قال : هذا الرجل يتكلم بالكلمة العظيمة ثم يندم عليها فلا يستطيع أن يردّها .

ثم أتى على واد فوجد راحاً طيبة باردة ، وريح مسك ، وسمع صسوساً . فقال :

يا جبريل ما هذا ؟

قال : ههنا صوامع الجنة تقول يا رب اتني ما وعدتني ، فقد كثرت غرقي ، وإسارقي

وحريري ، وسندي ، وعبقري ، ولؤلؤي ، وسمجاني ، وفضي ، وذهبي ، وأكواني ، وصبحي .

وأبارقني، ومراكي، وعسلي، ومائي، ولبي، وخمري، فأتني ما وعدتني : فقال : لك كل مسلم ومسلمة ومؤمن ومؤمنة ، قالت : رضيت .

ثم أتني عباي واد فسمع صوتاً منكراً ، ووجد ريحاً متنتة ، فقال : ما هذا يا حبريل ؟ قال : هذا صوت جهنم تقول يارب أتني ما وعدتني ، فلقد كثرت سلاسلي ، وأغلالي وسعيري ، وحميمي ، وخضريعي ، وغساقني ، وعذايي ، وقد بعد قعري ، واشتد حمري ، فأتني ما وعدتني ، قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة ، وكل خبيث وخبيثة ، وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب ، قالت : قد رضيت <sup>(١)</sup> .

هـ — وأخرج الإمام أحمد بسنده عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال :

رسول الله ﷺ " رأيت ليلة أسرى في لما انتهينا إلى السماء السابعة ، فنظرت فوق فإذا رعد ، وبرق وصواعق ، وأتيت على قوم يطوفهم كالبيوت فيها الخببات ترى من خارج يطوفهم ، فقلت : من هؤلاء يا حبريل ؟

قال : هؤلاء أكفة الربا ، فلما نزلت إلى السماء الدنيا نظرت أسفل مني ، فإذا إناس يرهج ، ودخان ، وأصوات ، فقلت : ما هذا يا حبريل ؟

قال : هذه الشياطين يحومون على أعين بني آدم ، لتلا يتفكروا في ملكوت السموات والأرض ، ولولا ذلك لראوا العجائب <sup>(٢)</sup> .

و — جاء في حديث أبي هريرة ذكر كلام كل من إبراهيم وموسى وعيسى

وداود وسليمان " عليهم السلام " ، ثم ذكر كلام النبي ﷺ " فقال : وأن محمداً ﷺ " أتني على ربه عز وجل ، فقال : كللكم أتني على ربه : وأنا أتني على ربي الخلد لله الذي أرسلني رحمة للعالمين : وكافة للناس ، بشيراً ، ونذيراً ، وأنزل على الفرقان فيه تبيان كل شيء ، وجعل أمي حير أمة : وجعل أمي آمة وسطا وجعل أمي لهم

<sup>(١)</sup> نسخة الله على البخاري من ٣٥٨ .

<sup>(٢)</sup> نسخة الساجي من ٣٦٢ .

الأولون ، وهم الآخرون ، وشرح لي صدرى ، ووضع عني وزرى ، ورفع لي ذكرك ،  
وجعلني ناساً ، وحياً ، فقال إبراهيم خيراً فضيلكم محمد <sup>(١)</sup> .

و جاء في حديث أبى هريرة من طريق الربيع بن أنس ، أن رسول الله  
ﷺ لما انتهى إلى سدره المنهى قال له الله تعالى : سل : فقال " ﷺ " : إني أريد  
إبراهيم خيلاً ، وأعطيته ملكاً عظيماً ، وكلمت موسى نكليماً ، وأعطيته داود ملكاً  
عظيماً ، وأنت له الحديد ، وسخرت له الخيال ، وأعطيته سليمان ملكاً عظيماً ،  
وسخرت له الحص ، والإنس ، والشياطين ، والرياح ، وأعطيته ملكاً لا ينبغي لأحد  
من بعده ، وعلمت عيسى التوراة والإنجيل ، وجعلته يورئ الحكمة ، والآبرمين ،  
وأعدته وأمه ، من الشيطان الرجيم ، فثم يكن له عليهما سبيل .

فقال له ربه تعالى : قد آتيتك خيلاً ، وحياً ، فهو مكتوب في التوراة محمد حبيب  
الرحم ، وأرسلتك إلى الناس كافة ، وجعلت أمته هم الأولون . وهم الآخرون ،  
وجعلت أمته لا يجوز لهم خشيته حتى يشهدوا أنك عبدى ورسول ، وجعلت أول  
رسول ، خيلاً ، وأحرهم معاً ، وأعطيته سبعا من المنان ، ولم أعطها نبياً قبلك .  
وأعطيته حواتيم سورة البقرة من كنز تحت عرشى لم أعطيها نبياً قبلك ، وجعلت  
فاناً ، وحياً <sup>(٢)</sup> .

وهذه الزوائد مع حديث أنس الذى أورده ، تقدم صورة كاملة للإسراء  
والمعراج فدينا من طبق جوده " ﷺ " قبيل الإسراء به ، وحتى عاد إلى مكة .

### الثالث : أحاديث مستعارة في روایات حديث الإسراء

مراجعة روایات أحاديث الإسراء نلاحظ فيها المعارضات التالية : —

(١) في حديث أنس الوارد في القصة ( أ ) السابقة أن ثلاثة نفر جاءوا إلى رسول  
الله قبل أن يوحى إليه ، مع أن الإسراء كان بعد المبعث . وقيل المحقرة ، حيث جاء

<sup>(١)</sup> " تاريخ الإسلام " ج ١ ص ١٨٤ .

<sup>(٢)</sup> " تاريخ الإسلام " ج ١ ص ١٨٤ ، ١٨٥ .

في الحديث أن كثيراً ممن أسلم ارتد .

- (٢) في رواية أنس الأولى أنه " ﷺ " لقى إبراهيم " عليه السلام " في السماء السابعة عند البيت المعمور، ولقى موسى " عليه السلام " في السماء السادسة، وفي بعض الروايات أنه " ﷺ " رأى إبراهيم " عليه السلام " في السماء السادسة، ولقى موسى " عليه السلام " في السماء السابعة (١).
- (٣) في رواية ابن إسحاق أن الرسول " ﷺ " أتى بثلاث أوان ، أحدها ماء ، فقال قائل : إن أخذ الماء غرق ، وغرفت أمته ، وفي إحدى روايات البخاري : أتى بثلاث أوان ، ولم يذكر فيها الماء (٢).

- (٤) يقول الله تعالى : ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (٣) ورؤية الفؤاد تشبه رؤية أنس من أن الرؤية كانت قلبية ، وعين الرسول " ﷺ " نائمة ، وفي الآية الثانية يقول الله تعالى : ﴿ أَفْتَمَرُوتَهُمْ عَلَىٰ مَا يَرَى ﴾ (٤) فجاءت الرؤية بصيغة المضارع ، ولم يقل على ما رأى كالأية الأولى ، فدل ذلك على الرؤية الثانية ليست هي الرؤية الأولى .

- (٥) في قوله تعالى : ﴿ مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى ﴾ (٥) دلالة على أنها رؤيا قلبية ، وفي قوله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٦) دلالة على أنها رؤيا بالعين ، ولذلك رأى فيها : ﴿ مِنْ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٧) أما الآيات التي ترى في النوم فليست بهذا القدر من العظمة ، والفتخامة .

(١) أنظر : صحيح مسلم في حديث أبي ذر يشوح النوى ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) أنظر : سورة ابن هشام ج ١ ص ٣٩٧ ، وصحيح البخاري ج ٦ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

(٣) سورة النجم آية ( ١ ) .

(٤) سورة النجم آية ( ١٢ ) .

(٥) سورة النجم آية ( ١٧ ) .

(٦) سورة النجم آية ( ١٨ ) .

في تفسير قوله تعالى : ﴿ إِذْ يَغْشَى السَّدْرَةَ مَا يَغْشَى ﴾ (٦٦) قال المفسرون (٦) : رواية يعشاهما مراث من ذهب ، وفي رواية أخرى قالوا ، ينثر منها الياقوت ولحمها مثل قلال هجر .

حاء في أحاديث الإسراء ، أنه " ﷺ " رأى عند سدرة المنتهى نهرين ظاهرين (٧) ونهرين باطنين ، وأحبره جبريل " عليه السلام " بأن النهرين الظاهرين هما النيل والفرات . وذكر حديث أنس أن هذين النهرين في السماء الدنيا ، وقال له الملك : هما النيل ، والفرات : أصلهما ، وختصرهما .

#### رابعاً : فلت تعارض الأحاديث :

والسؤال هنا : كيف نقت هذا التعارض ؟ ونجمع بين هذه الآراء ؟

نظر العلماء إلى هذا التعارض الظاهري ، وذهبوا إلى أن الإسراء وقع مرتين ، مرة في المنام ، ومرة ثانية في اليقظة .

بقول الإمام / محمد الشافعي : ( ذهب جماعة منهم المهلب شارح البحار إلى هذا الرأي : وحكاه عن طائفة ، منهم أبو نصر القشيري ، والخافض البغوي ، والحدث أبو القاسم عبد الرحمن الخثعمي ، المعروف بالسهيلى ، وبين أن النووي حزم به في فتاويه ، وهؤلاء وغيرهم من العلماء ذهبوا إلى تكرار الإسراء مرتين ، مرة في المنام ، ومرة في اليقظة ، وكانت مرة النوم توطئة له ، وتيسيراً عليه ، كما كان في بدء نبوته " ﷺ " من الرؤيا الصادقة ، ليسهل عليه أمر النبوة ، لأمر عظيم تضعف عنه القوى البشرية ، وكذلك الإسراء سهلاً عليه بالرؤيا أولاً لأن هوله عظيم ، فحاء في اليقظة بعد توطئة ، وتقديم ، رفقا من الله تعالى بعبده ، وتسهلاً عليه (٨) .

(٦) سورة النجم آية ( ١٩ ) .

(٧) من الألف ج ١ ص ١٤٩ ، ١٥٠ ، سبل الأخفى والرشاد ج ٣ ص ١٠٦ .

وعلى هذا فإن حدوث الإسراء مرتين ، مرة على صورة ، ومرة أخرى على صورة أخرى لا تعارض فيه ، وبذلك ينتهي تعارض الروايات .

ولا مانع من تكرار الوحي إلى رسول الله " ﷺ " بالموضوع الواحد لحكمة يريد بها الله ، كما هو ثابت في حالات عديدة . .

### ٣ .

## كيفية وقوع الإسراء والمعراج

أورد العلماء عدة آراء في كيفية وقوع الإسراء والمعراج ، حيث ذهبوا في تحديد كيفيةها إلى ثلاثة آراء : —

### الرأى الأول

#### الإسراء والمعراج كانا في النوم وبالعروج

يذهب أصحاب هذا الرأى إلى أن الإسراء كانت رؤيا لرسول الله " ﷺ " رآها وهو نائم ، وعلى رأس القائمين بهذا الرأى أم المؤمنين عائشة " رضي الله عنها " ومعاوية بن أبي سفيان " رضي الله عنه " ، ويستدلون على رأيهم بما يلي : —

١ — رؤيا الأنبياء وحى : لأن قلوبهم لا تنام ، يقول " ﷺ " : الأنبياء تنام أعينهم ، ولا تنام قلوبهم <sup>(١)</sup> ، وبذلك يتحقق في المنام ما يقصد في الحقيقة .

٢ — يقول الله تعالى ﴿ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْتَكَ إِلَّا فَتْنَةً لِّلنَّاسِ ﴾ <sup>(٢)</sup> فقوله تعالى " الرؤيا " دليل على أنها كانت مناماً ، لأنها لو كانت يقظة لقال " رؤية " .

٣ — جاء في حديث أنس في رواية شريك عنه : ( وهو " ﷺ " نائم بالمسجد الحرام ... واستيقظت من منامي ، وأنا في المسجد الحرام ) <sup>(٣)</sup> وذلك دليل على وقوع الإسراء في أثناء نوم النبي " ﷺ " .

<sup>(١)</sup> الإسراء والمعراج شرح الشيخ العلامة — كتاب المناقب ج ١ ص ٤٤

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم شرح النووي — كتاب المناقب ج ١ ص ٢١٧ .





وعلى هذا يثبت أن الإسراء كان بالجسد والروح ، أما المعراج فكان بالروح فقط لأن كفار مكة لم يعترضوا عليه مع كثرة المشاهد التي حكاها الرسول ﷺ حين رؤيته لها في معراجه ، ولو كان المعراج بالجسد لكثير الاعتراض .

### الرأى الثالث

#### الإسراء والمعراج كانا بالجسد والروح

يذهب جمهور علماء السلف والخلف من الفقهاء ، والمفسرين ، والمحدثين إلى أن الإسراء والمعراج كانا نقطة بالجسد والروح ، ويستدلون على ذلك بما يلي : —  
 ١ — يقول الله تعالى : ﴿ سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (١) فقد ذكرت الآية أن الإسراء كان بعينه المكون من الجسد والروح ، لأنها حقيقة العبد ، وظاهر اللفظ يدل على هذه الحقيقة ، ومن المعلوم أنه لا يعدل عن الظاهر والحقيقة إلى التأويل إلا عند استحالة حقيقة الظاهر ، ولا استحالة في قدرة الله أن يسرى بعبده : روحاً وجسداً ، فلزم أن يكون الإسراء بهما .

٢ — يقول الله تعالى : ﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ﴾ (٢) ففى الآية إثبات واضح على أن الرؤية كانت بالبصر ، وأسندها الله للبصر احترازاً عن رؤية القلب .  
 ٣ — يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى ﴾ (٣) ففى الآية دلالة على الرؤية البصرية لأنها لو كانت ماماً ما كانت كبرى ، وأسلم بها من سمعها من كفار مكة .

(١) سورة النجم آية ( ١٧ ) .

(٢) سورة النجم آية ( ١٨ ) .

٤ - بروى البخارى فى صحيحه عن ابن عباس عند قوله تعالى : ﴿ وَمَا

جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ ﴾ هى رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ " ليلة الإسراء <sup>(١)</sup> .

وقد رد الجمهور وهم أصحاب رأى الثالث ، القائلون بأن الإسراء والمعراج كان بالجسد والروح معاً على الرأين السابقين باطلان أدلتهم ، وردّها .

### رد أدلة أصحاب رأى الأول :

قال أصحاب رأى الثالث إن رؤيا الأنبياء وحى ، وهى تثبت الخدائق والمعلومات ، إلا أن الإعجاز فى الإسراء والمعراج لا يتم إلا إذا كان بالجسد مع الروح ، لأن المقصود إثبات ما شاهدته النبى ﷺ " بطريقة حسية ، حقيقية .. وبذلك لا يتحقق بإسراء الروح ما قصد بإسراء الجسد .

وأيضاً فإن الرؤيا تأتى بمعنى الرؤية ، ومن ذلك قول الشاعر :

وكبر للرؤيا وهش فؤاده      وبشر قلباً كان جماً بلائله

وما كانت الرؤيا فتنة للناس ، إلا لأنها رؤيا بالبصر ، وقد قال الكفار : يرعم محمد أنه أتى بيت المقدس ، ورجع إلى مكة فى ليلته ، والعر ترد إليها شهراً مفبلة وشهراً مدبرة ، ولو كانت رؤيا نوم لم يستبعد أحد منهم هذا ، فمعلوم أن النائم قد يرى نفسه فى السماء ، وفى المشرق ، وفى المغرب ، ولا يستبعد منه ذلك .

وأما استشهادهم بقوله ﷺ " بين النائم واليقظان ، ثم استيفظت ، فالظاهر أن تلك الأقوال كان فى أول وصول الملك ، وبعد يقظته كان الإسراء .

وأيضاً فإن أحاديث الإسراء تتضمن ألفاظاً صريحة تؤكد أن الإسراء والمعراج

كانا بالجسد والروح .

## رد أدلة أصحاب الرأي الثاني :

يرد الجمهور أدلة الرأي الثاني أيضاً ، ويرون أن آية الإسراء ذكرت الإسراء بالمسجد الأقصى مراعاة لحال المستمعين ، حتى يؤمنوا بالإسراء لأنه الأقرب إليهم ، وأيسر لهم في التصور عن المعراج ، لأنهم إذا صدقوا بالإسراء ، وسلموا بصدق محمد ﷺ " أن خبرهم بعد ذلك إنما هو أعظم منه ، وهو " المعراج " ، ولذلك نزلت آيات المعراج في سورة النجم بعد آية الإسراء .

وهكذا يرد الجمهور أدلة مخالفيهم ، فيترجح رأيهم بترجح أدلتهم ..

## التوفيق بين الآراء ورد الاختلاف :

ونحب أن أشير هنا إلى ما ذكرته سلفاً في ص ٣٩٦ من أن الإسراء وقع لرسول الله ﷺ مرتين ، مرة في القنطرة ، ومرة في المنام يرفع التعارض الظاهر في الأقوال الثلاثة ، يقول الحافظ ابن حجر : إن قيل بتكرر الإسراء فلا إشكال ، وأن المرة الأولى كانت مناماً لتسهيله ، وتخفيف وصائه ، وأن المرة الثانية كانت بقظة بعد التوطئة والتقديم ، رفقا من الله بعبده ، وتسهيلاً عليه ، كما حدث في أول الوجي في إذ بدأ بالنسوة وثني بالرسالة .

وعلى هذا تصدق الآراء الثلاثة ، فمن قال بالإسراء الروحاني ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الأولى ، ومن قال بالإسراء الجسدي ، أعتمد على وقوع الإسراء في المرة الثانية ، ومن قال بالإسراء البدني ، والمعراج الروحاني أخذ من المرة الأولى المعراج ، ومن المرة الثانية الإسراء .

يقول السهيلي : وهذا القول هو الذي يصح ، وبه تنفق الأحبار : فالرواية جميعاً ثقة غداول ، لا سبيل إلى تكذيب بعضهم أو توهينه <sup>(١)</sup> .

يقول ابن كثير : ونحن لا نشكر وقوع منام قبل الإسراء ، فيه مسورة ما وقع بعد ذلك ، فإنه " ﷺ " كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، وقد تقدم مثل

ذلك من حديث بدء الوحي ، أنه رأى في منامه مثل ما وقع له يقظة بعد ذلك ، من باب الإيهام ، والتوسط ، والتثبت ، والإيناس <sup>(١)</sup> .

وهكذا كان الإسراء والمعراج رحلة علوية ، سامية ، خففت عن رسول الله ﷺ إنما كان يعانيه من إنصراف الناس عن الإيمان ، واستهزائهم به ، وغزو مقامه ، وقدره ، وهزلته ، وهذا كاف في عونه على متاعب الناس ، وصموده أمام عتوهم وظلمهم .

## النصر السادس

### إسلام الأنصار

لما أراد الله تعالى إظهار دينه وإعزاز رسوله ، وإيصال الدعوة إلى العالم كله ، نعى بأن يترك المسلمون مكة ، ويهاجروا منها إلى مكان آمن ، يعيش أهله للإسلام . ويهاجر إليه المسلمون ليكونوا قوة تحمي الحق ، وتدافع عنه ، وترد كيد المعتدين . لما أراد الله ذلك خرج رسول الله ﷺ إلى قبائل العرب كما كان يفعل في كل موسم ، وذلك في العام العاشر من المبعث ، وقد وفقه الله تعالى ، ووفق الأنصار معه فتلاقوا في ثلاثة مواسم متتابعة ، عند العقبة ، حيث كان اللقاء الأول فهبت ليرجي العقبة الثنتين تمتا في اللقاءين الثاني ، والثالث .

• بيان هذه اللقاءات فيما يلي : —

### اللقاء الأول

#### إسلام نفر من الأنصار

حين خرج الرسول ﷺ في العام العاشر للقاء القبائل لضيءفروا من الخروج

وهو : —

١ — أسعد بن زرارة . من بني النجار .

٢ — عوف بن الحارث بن رفاعه . من بني النجار .

٣ — رافع بن مالك بن العجلان .. من بني زريق .

٤ — قطبة بن عامر بن حديدة .. من بني سلمة .

٥ — عقبة بن عامر بن ناتي .. من بني حرام بن كعب .

٦ — جابر بن عبد الله بن وئاب .. من بني عبيد بن غنم .

فلما لقىهم الرسول ﷺ قال لهم : من أنتم ؟

قالوا : نفر من الخزرج .

قال : أمن موالي يهود ؟

قالوا : نعم .

قال : أفلا تجلسون أكلمكم ؟

قالوا : بلى ، من أنت ؟

فانتسب لهم ، وأخبرهم خبره ، فجلسوا معه ، ودعاهم إلى الله عز وجل ، وعرض عليهم الإسلام ، وتلا عليهم القرآن ، وكان ثلثا حبشهم في الإسلام أن اليهود كانوا معهم في بلادهم ، كثيراً ما قالوا لهم : إن نبياً أظننا زمانه ، سنؤمن به ، ونقتنكم وهم معنا قتل عاد وإرم ، فلما كلم رسول الله ﷺ أولئك النفر ، ودعاهم إلى الله أيقنوا به ، واطمأننت قلوبهم إلى ما سمعوا ، وعرفوا صدق ما كانوا يسعون من أهل الكتاب عن صفته .

فقال بعضهم لبعض : يا قوم تعلمون والله إنه للنبي الذي توعدكم به يهود قريظة تسبقنكم إليه ، فأجابوه إلى ما دعاهم بأن صدقوه ، وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام .

ثم قالوا : قد علمت الذي بيننا ( يعنون الأوس والخزرج ) من الاختلاف ، وسلمنا الدماء ، ونحن حراس على ما أرسلك الله به ، مجتهدون لك بالصيحة ، دعائنا عليك برأينا ، فامكث على رسلك باسم الله ، حتى نرجع إلى قومنا ، فنذكرهم شأنك ، وندعوهم إلى الله ورسوله . فلعل الله يصلح ذات بينهم ، ويجمع لك أمهم .

إنما اليوم مباغضون مباغضون : ولكننا نواعدك الموسم من العام المقبل ، قرضى بذلك رسول الله ﷺ " ، وانصرفوا راجعين إلى بلادهم ، وقد آمنوا ، وصمدقوا <sup>(١)</sup> .

ويعد هذا الاتفاق عهداً بين رسول الله ﷺ " وهؤلاء النفر وحدهم على أن يأتوا جهدهم لإصلاح ذات البين ، بين الأوس والخزرج ، ليأتوا في العام القادم سوياً ويشتركو في عهد رسول الله ﷺ " معاً .

وكثير من المؤرخين : وكتاب السيرة لا يعدون إيمان هؤلاء النفر ببيعة ، ويقترونه مقدمة للبيعة بعد ذلك ، إلا أن الشيخ / محمد الشامي عدها بيعة ، وتحدث عن ثلاث بيع بعد اللقاء الأول اتفاقاً متكاملاً ، وتم عند العقبة ، بعد رسول عبد الله بن أبي بكر : لا أدري ما العقبة الأولى ، ويقول ابن إسحاق : قد كانت عقبة ، وعقبة : إشارة إلى اللقاء الأول والثاني ، لأنهما كانا في مكان واحد ، بجوار العقبة التي سبقت البيع إليها ، لأن المبايعة كانت تتم بشعب بجوار العقبة ، يقع بشار الشام من مكة إلى منى ، وقد أقيم في هذا المكان مسجد يعرف بـ " مسجد البيعة " وموقعه في أول شعب يعرف بـ " شعب العقبة " و " شعب الأنصار " <sup>(٢)</sup> .

ومع جمال وجهة نظر الشيخ إلا أني سأعتبر اللقاء الأول تمهيداً للبيعة بعده تبعاً لجمهور مؤلفي السير والتاريخ .

## اللقاء الثاني

### بيعة العقبة الأولى

رجع النفر الذين قابلوا رسول الله ﷺ " إلى يثرب ، وأحاطوا قومهم بحبر لغاتهم ، وإسلامهم ، ودعوا أهل المدينة جميعاً من الأوس والخزرج إلى الإيمان ، فدشا الإسلام في دور الأنصار جميعاً ، فلم يبق بيت من بيوت الأوس والخزرج إلا وفيه ذكر لرسول الله ﷺ " .

<sup>(١)</sup> سيرة النبي ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٤٢٩ .

ج ٢ ص ١٦٦ ، ١٦٧ .

ووضعت الحرب أوزارها ، وانتهى يوم بعثت ، آخر أيام الأوس والخزرج  
والكل يتسنى أن لا يعودوا إليها مرة ثانية ... ولذلك أقبلوا على الإيمان بدعوة محمد  
ﷺ ، ليتوحدوا بالإسلام . وحتى لا يستهكم اليهود إليه ، يروى البخاري  
صحيحه بسنده أن عائشة " رضي الله عنها " قالت : ( كان يوم بعثت يوماً قدومه  
لرسوله ، فقدم رسول الله ﷺ إلى المدينة ، وقد افترق ملوهم ، وقتل سرورهم  
، وخرجوا فقتلهم الله لرسوله ﷺ ) ( وجعله سبياً ) في دخولهم الإسلام ) (١)  
ودلت يشير إلى أنها كانت وقعة عظيمة ، أحتاحوا بعدها إلى حبل ما انقطع  
وتعويض ما فقدوه ، فوحدوا الإسلام ، فصالحوا به ، وأمنوا بمحمد ﷺ ، وكان  
كل من الأوس ، والخزرج يأنف من سيد صاحبه عليه ، وأملوا في أن يكون الزائد  
من غيرهم ، ولذلك كانت سعادتهم غامرة بمقدم مصعب بن عمير " رضي الله عنه " ليكون  
لجميع .

والذين حضروا اللقاء الثاني : وبايعوا هذه البيعة اثنا عشر رجلاً هم :

- ١ — أسعد بن زرارة .
- ٢ — عوف بن الحارث .
- ٣ — معاذ بن الحارث .
- ٤ — ذكوان بن قيس .
- ٥ — عبادة بن الصامت .
- ٦ — يزيد بن ثعلبة .
- ٧ — العباس بن عباد .
- ٨ — أبا أفيثم بن التيهان .
- ٩ — عويس بن ساعدة .
- ١٠ — رافع بن مالك .
- ١١ — قطبة بن عامر .
- ١٢ — عقبة ابن عامر .

وقد بايعهم رسول الله ﷺ بيعة عرفت بيعة النساء ، فخلوها من التصرف  
والجهاد ، وأيضاً لأنها جاءت موافقة لما نزل القرآن الكريم لها بعد ذلك ، وهو يشترط  
تلكي " ﷺ " ما يبايع النساء عليه ، وذلك في صالح الحادية .

(١) صحيح البخاري — باب مناقب الأنصار ج ٦ ص ١٤٤ .



يسروى البخاري بسنده عن عبادة بن الصامت أن رسول الله ﷺ قال :  
 وحسب الله عصاة من أصحابه : تعالوا بايعوني ، على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا  
 تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم  
 وأرجلكم ، ولا تعصوني في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن  
 أصاب من ذلك شيئاً فعوقب به في الدنيا فهو له كفارة ، ومن أصاب من ذلك  
 شيئاً فستره الله فأمره إلى الله : إن شاء عاقبه ، وإن شاء عفا عنه <sup>(١)</sup> .

ولما هم القوم بالرحوع إلى المدينة طلبوا من رسول الله ﷺ أن يرسل  
 معهم من يقرئهم القرآن ، ويعلمهم ما نزل من الإسلام ، فأرسل ﷺ " معهم " مصعب بن  
 عمير ، وأمره الرسول ﷺ أن يعلمهم الإسلام ، ويقرئهم القرآن .  
 وبفتحهم في الدين .. وكان اختيار مصعب بن عمير لهذه المهمة اختياراً موفقاً ، لأنه  
 استطاع بفضل الله أن يدخل الإسلام في كل بيوت المدينة خلال عام واحد ، وصار  
 الجميع يهتفون بما يتلى عليهم من كتاب الله تعالى — حتى عرف مصعب " ﷺ " باسم  
 القارئ ، والمقرئ .

ونالت بي الأوس والخزرج مصعباً بالترحيب ليؤمهم حيث كره كل منهم أن  
 يؤمه واحد من القبيلة الأخرى <sup>(٢)</sup> .

### اللقاء الثالث

#### بيعة العقبة الثانية

عاد أصحاب العقبة الأولى إلى المدينة ، ومعهم مصعب بن عمير ، ولم يقترب  
 موعد الحج من العام القادم حتى هيات قلوب أهل المدينة للحج ، وانتشر الإسلام  
 بينهم . حتى لم تبقى دار من دور يثرب إلا وفيها رهط من المسلمين : يظهرون إيمانهم ،  
 (يشربون مما عاهدوا الله عليه .

<sup>(١)</sup> صحيح البخاري ج ٦ ص ٢٠٠ .

<sup>(٢)</sup> السيرة والتهذيب ج ٣ ص ١٥١ .

وقد تعلق قلب أهل المدينة برسول الله ﷺ " حيا - وتقديراً - وثباتاً .  
 لموقف أهل مكة من الإسلام والرسول ، ولذلك اجتمعوا ، ودرسوا الموقف ، وقال  
 بعضهم لبعض : إلى متى نذر رسول الله يطوف في جبال مكة ؟ ويخاف ؟ ويعتدي  
 عليه المشركون ؟ !

فكان أن رحل عدد غفير من الأوس والخزرج إلى الحج تأدية للمسئولية  
 وحياءاً للقاء رسول الله ﷺ ، فلما وصلوا إلى منى ، وفي ثلث أيام التشريق واعدوا  
 لقاء رسول الله في الشعب الجاور للعقبة .

يقول كعب بن مالك : ثم خرجنا إلى الحج ، وواعدنا رسول الله ﷺ  
 العقبة من أوسط أيام التشريق أن نوافيه في الشعب الأيمن إذا انحدرنا من منى بأسفل  
 العقبة ، على ألا يشه نائماً ، ولا نتظاهر غائباً .

فلما فرغنا من الحج ، وكانت الليلة التي واعدنا رسول الله ﷺ لها ، ومعنا  
 عبد الله بن عمرو بن حرام أبو جابر ، سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ،  
 معنا ، وكنا نكتم على من معنا من قومنا من المشركين أمرنا ، فكلمناه ، وقتلنا لهم  
 يا أبا جابر إنك سيد من ساداتنا ، وشريف من أشرافنا ، وإنا نرغب بك عما أنت فيه  
 أن تكون خطيباً للنار غداً ، ثم دعونا إلى الإسلام ، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ  
 إيانا في العقبة ، فأسلم وشهد معنا العقبة .

فمنا تلك الليلة مع قومنا في رحلتنا ، حتى إذا مضى ثلث الليل ، خرجنا من  
 رحلتنا لميعاد رسول الله ﷺ " تسلياً تسلياً القطة ، مستخفين ، حتى اجتمعنا في  
 الشعب ، عند العقبة ، ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ، ومعنا امرأتان من سائنا : نسيت  
 بنت كعب - أم عمارة - ، إحدى نساء بني مازن من بني النجار ، وأسما بنت  
 عمرو بن عدى ، فاجتمعنا في الشعب نتظر رسول الله ﷺ " حتى جاءنا ، ومعنا  
 العباس بن عبد المطلب وهو يومئذ على دين قومه ، إلا أنه أحب أن يحضر أمرنا  
 أحبه ، ويتوثق له كما حضر معه " أبو بكر ، وعفي ابن أبي طالب .

فلما جلس كان أول من تكلم العباس بن عبد المطلب فقال : يا معشر  
الخزرج <sup>(١)</sup> إن محمداً منا حيث قد علمتم ، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل  
رأسنا : فهو في عز من قومه ، ومنعة في بلده ، وإنه قد أوى إلا الاشتياز إليكم  
والخروج بكم ، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتوه إليه ، وما بعوه ممن خالفه ،  
فإنهم وما فعلتم من ذلك ، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه ، وحاذلوه بعد الخروج به  
إيكم : فس الآن فدعوه ، فإنه في عز ومنعة من قومه وبلده .

وقال العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري أخو بني سالم بن عوف : يا معشر  
الخزرج : هل تدررون علام تبايعون هذا الرجل ؟

قالوا : نعم .

قال : إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس ، فإن كنتم تريدون أنكم  
إذا همت أموالكم مضيئة ، وأشرافكم قتل ، أسلمتموه فمن الآن ، فهو والله إن فعلتم  
عسرى الدنيا والآخرة ، وإن كنتم تريدون أنكم وافون له بما عاهدتموه على فكة  
أموالكم . فقبل الأشراف ، فمخذولوه فهو والله خير الدنيا والآخرة .

ثم تكلم رسول الله " ﷺ " فقال لهم : ليتكلم متكلمكم ، ولا يطيل ، فإن عليكم من  
المشركين عيباً ، وإن تعلموا بكم يفضحواكم ..

فنادوا يا رسول الله : قد سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، وخذ لنفسك ولربك  
ما أحيت .

فكلم رسول الله " ﷺ " : فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب في الإسلام ، ثم قال :  
أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأبنائكم .

فأخذ القراء من معرور بيله ، ثم قال : نعم فو الله الذي بعثك بالحق لنمنعك مما تمنع  
معه أبداً ، فبايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحرب ، وأهل الحلقة ، ورثناها  
كأبائنا عن كبار .

<sup>(١)</sup> قال : وانما العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها .

فاعترض القول أبو الهيثم بن النيهان ، فقال : يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرسل حباً لا دينا قاطعوها — يعنى اليهود — فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ، ثم أشهرنا إلى أن ترجع إلى قومك وتدعنا .

فتبسم رسول الله " ﷺ " ثم قال : بل الدم الدم ، والهدم الهدم — أى دمي ذمكم وحرمتي حرمتكم — أنا منكم ، وأنتم مني ، أحارب من حاربتهم وأسالم من سالمهم (١) .

ثم قال أبو أمامة : ( يا محمد : سل لربك ما شئت ، ثم سل لنفسك بعد ذلك ما شئت ، ثم أخبرنا ما لنا من الثواب على الله ، وعليكم ، إذا فعلنا ذلك ) قال " ﷺ " : أسألكم لربي أن تعبدوه ، ولا تشركوا به شيئاً ، وأسألكم لأنفسهم وأصحابي أن تؤوؤنا ، وتصلحونا ، وتنبهونا ، مما تمنعون منه أنفسكم .

قالوا : فما لنا إذا فعلنا ذلك ؟

قال " ﷺ " : لكم الجنة .

قالوا : فلك ذلك (٢) .

وهنا قال رسول الله " ﷺ " : أخرجوا إلى منكم اثني عشر نقيباً ليكونوا على قومهم بما فيهم ، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيباً تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس .

فمن الخزرج : أبو أمامة أسعد بن زرارة نقيب بني النجار ، ورافع بن مالك ابن العجلان نقيب بني زريق ، وسعد بن الربيع ، وعبد الله بن رواحة نقيب بني الحارث بن الخزرج ، وسعد بن عباد ، والمنذر بن عمرو نقيب بني ساعدة ، والرافع بن معرور ، وعبد الله بن عمرو بن حرام ، وعباد بن الصامت .

ومن الأوس : أسيد بن خضير نقيب بني عبد الأشهل ، ورافعة بن عبد المنذر وسعد بن خيثمة نقيب بني عمرو بن عوف .

(١) البدايد والنهاية ج ٣ ص ١٦٠ ، ١٦١ .

(٢) المرجع السابق ج ٣ ص ١٦٣ .

وسأل ابن إسحاق : حدثني عبد الله بن أبي بكر أن رسول الله " ﷺ " قال :  
 " لئن لم يأتكم مني قومكم بما فيههم كفلاء ككفالة الجواريين لعيسى بن مريم ، ولئن  
 كذب علي قوم من — يعني المسلمين — قالوا : نعم " (١).

وقد روى البيهقي عن الإمام مالك " رحمه الله " قال : حدثني شيخ من الأنصار  
 أن حربيل كان يشير إلى رسول الله " ﷺ " إلى من يجعله نقيبا لبلدة العقبة (٢).

وفي حديث كعب بن مالك قال : كان أول من ضرب علي يد رسول الله  
 " ﷺ " ، السراء بن معرور ، ثم بايع القوم (٣) ، فلما بايعنا رسول الله " ﷺ " صرح  
 بسيفه من رأس العقبة بأنفذ صوت " سمعته قط : يا أهل الجباغب : هل لكم في  
 مدغم والتمسنا معه قد اجتمعوا علي حربكم ؟

فقال رسول الله " ﷺ " : هذا أرب العقبة ، هذا ابن أرب ، استمع أي عدو الله ،  
 إن والله لأفرغن لك .

ثم قال رسول الله " ﷺ " : إرجعوا إلى رجالكم ، فقال له العباس بن عباد  
 بن نضلة ، والله الذي بعثك بالحق إن شئت لتميلن علي أهل مني غدا بأسيفنا .

فقال رسول الله " ﷺ " : لم نؤمر بذلك ، ولكن ارجعوا إلى رجالكم ، قال : فرجعنا  
 إلى أصحابنا ممنا عليها حتى أصبحنا ... فلما علم أهل مكة جاءوا إلى الأنصار ،

فقالوا : يا معشر الخزرج ، إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى أصحابنا هذا لتخرجوه من  
 بين أظهرنا وتبايعوه علي حربنا ، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن  
 ننتب الحرب بيننا وبينهم منكم ، فانبعث من هناك من مشركي قوما يخلفون بالله  
 ما كان من هذا شيء ، وما علمناه ، وقد صدقوا لم يعلموه (٤).

(١) مسند أبي " ﷺ " ج ١ ص ٤٤٢ .

(٢) مسند أبي " ﷺ " ج ٣ ص ٢٨١ .

(٣) مسند أبي " ﷺ " ج ٢ ص ١٦٢ .

(٤) مسند أبي " ﷺ " ج ٤ ص ١٦٤ .

وكذلك أراد الله بالأنصار خيراً ، وأراد الله بدينه أن يظهره على أيدي هذا  
 الخي من العرب ، وقضى بأن يكون للأنصار اليد الطولى في نصرة الإسلام ، بعد أن  
 أعم الله عليهم بنعمة التوحيد ، والتوحيد ، ومما كان بينهم من العداء والتنافس ،  
 فخطبوا سالت الدماء غزيرة بين الأوس والخزرج ، وكان آخر يوم شهدوه هو يوم  
 بعث الذي ذهب ضحيته العديد من رجالها ، وكان اليهود وراء هذه الدماء الغزيرة  
 التي تسيل ضماناً لسيادتهم ، وانتزاعاً لأموال المتحاربين ، عن طريق بيعهم الأسلحة  
 وما تحتاج إليه الحروب .

لقد قامت هذه المبايعة على المصارحة ، فقد اشترط العباس لنبى " ﷺ " ،  
 كما اشترط أبو الهيثم لقومه وعلم كل طرف ما له ، وما عليه ، وبذلك لم تكن بيعة  
 قائمة على مجرد العاطفة فقط ، ولكنها قامت على التفهم للموقف ، والنظرة البعيدة  
 للمستقبل .

وتجلست حكمة النبى " ﷺ " حين طلب من الأنصار أن يكتموا أسرهم حين  
 يتوافدون إليه في المكان الذي واعدتهم فيه وقد أخطأوه ، فلم يوقظوا نائماً ، ولم  
 ينتظروا غائماً ، ذلك أنه كان يراقبهم في هذا الموسم من لم يدخل نور الإسلام في قلبه  
 وأراد الله تعالى تضليل أهل مكة فتولى هؤلاء الذين لم يسلموا عبء الرد فيما بعد  
 على مشركي قريش حين عاثوا بالثريين على مبايعتهم الرسول " ﷺ " ، وسلم  
 الأنصار المبايعون من عناء مجادلة المشركين والتعرض للكذب إن أنكروا .

وبعد تمام البيعة الكبرى عاد الأنصار إلى مدينتهم : وأخذ المشركون يشتدون  
 في أذى المسلمين ، ومنعهم من الخروج .

فشكا الصحابة أحوالهم إلى رسول الله " ﷺ " ، واستأذنه في الخروج من  
 مكة ، فأذن لهم ، وقال لهم : ( أريت دار هجرتكم ، أرض سبخة ذات نخل بين

لا يفتنكم ، اللهم مكث أياماً ، وخرج لأصحابه مسروراً ، وقال لهم : ( قد أخبرت  
بدار هجرتكم ، وهي يشوب ، فمن أراد الخروج فليخرج إليها )<sup>(١)</sup> ، فأخذ  
أصحابه تسرعون متخافين ، مهاجرين إلى المدينة لتبدأ مرحلة جديدة في مسيرة  
رسول الله ﷺ ، وفي الدعوة الإسلامية .

\* \* \*

<sup>(١)</sup> التوبة ، سورة ج ٢ ، ص ١٦٨ .

<sup>(٢)</sup> سورة التوبة ، سورة ج ١ ، ص ٤٦٨ .





## الفصل الثالث

حركة النبي ﷺ

بالدعوة إلى الله تعالى

في مكة



المحمد

نزل الوحي على رسول الله ﷺ " أولاً تعليماً وتهيئة ، وبعد مرور ستة أشهر نزل جبريل " القرآن " بأول سورة المدثر لينقل محمد " ﷺ " من مرحلة النبوة إلى مرحلة الرسالة ، كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿ قُمْ فَأَنْذِرْ ۚ ﴾ فهو أمر بالقيام بأمر الدعوة بما يعنيه من الثبات ، والإخلاص ، والملازمة ، والاستقامة ، والشمول ، وحسن الخلق والتوجيه .. لأن القيام يشمل ذلك كله <sup>(١)</sup> .

وبهذا الأمر (قُمْ) أخذ النبي " ﷺ " يتحرك بالدعوة ، لإيصالها إلى البشر أجمعين ، بطريقة منهجية تراعى أحوال الناس ، وبالحركة الممكنة ، وبقدر ما تسمح به الأحوال .

وقد اقتضت منهجية الحركة بالدعوة أن تمر بعدد من المراحل في مكة ، حيث تغير التوجيه والبلاغ في صورته ، وأسلوبه ، في كل مرحلة عن سابقتها ، وعسى ما يدعى كما .

وهذا التغير بين مراحل الدعوة ضرورة واقعية ليتعامل الرسول " ﷺ " والدعاة معه ، ومن بعده ، مع الواقع بما يناسبه ، وبما يحقق الغاية المقصودة منه .

إن هدف الدعوة معروف منذ اللحظة الأولى ، لكن تحقيق هذا الهدف يحتاج إلى وسائل عديدة تتعامل مع واقع الحياة ، والأحياء ، ويحتاج كذلك إلى أسلوب يتفق مع أفهام المخاطبين ، ويتلائم مع أفكارهم ، وثقافتهم ..

إن ثبات المعايير ، وتغيير الأسلوب ، والوسيلة ، مسألة تعطي الدعوة الحيوية والمرونة ، والتجديد . ومن المعلوم أن جمود الوسيلة لا يتفق مع تطور الحياة ، وتقدم المدنية ، وطبائع الناس ، كما أن جمود الأسلوب تخلف يؤدي إلى وضع الأفكار في قوالب غامضة تخنق الفكر ، وتعجز عن إيصالها إلى عديد من الناس .

<sup>(١)</sup> انظر: دروس التفسير ج ١ ص ٣٠٧ - ٣١٣ بتصرف .

وقد نعرى الرسول ﷺ بالدعوة إلى الإسلام بوسائل متعددة ، وأساليب كثيرة من خلال تعامله مع عديد من البشر ، في بيئات مختلفة ، وبين أطر مذهبية كثيرة . وفي هذا الفصل سيكون الحديث عن حركة النبي " ﷺ " بالدعوة ، في الشريعة المكية . ولذلك رأيت أن أقسمه على عدد من المراحل لتمييز كل منها بخصائص معينة ، لا توجد في غيرها .

ومن خلال تناول الفترة المكية بمراحلها أجدى التعامل مع مصطلحات عديدة من أهمها مصطلحات المنهج ، والوسيلة ، والأسلوب . وحتى لا تتداخل المعاني ، أرى أهمية تحديد مفاهيم هذه المصطلحات ، وبعدها سأتناول مراحل الدعوة في الفترة المكية ليشمل الحديث كل مرحلة بمنهجها ووسائلها ، وأساليبها ، وبذلك يتضح الأمر ، ويفهم المقصود . وبذلك سيكون هذا الفصل من المباحث التالية : -

- المبحث الأول : تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة .
- المبحث الثاني : حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة في المرحلة السرية .
- المبحث الثالث : الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية .
- المبحث الرابع : المسلمون خلال المرحلة السرية .
- المبحث الخامس : المرحلة الأولى للجهر بالدعوة .
- المبحث السادس : مرحلة الجهر العام بالدعوة .
- المبحث السابع : الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام .
- المبحث الثامن : توافق الأسلوب مع الموضوع .
- المبحث التاسع : مواجهة عدوان الكفار .
- المبحث العاشر : استمرار الحركة بالدعوة .
- المبحث الحادي عشر : المسلمون في نهاية المرحلة المكية .

وذلك فيما يلي ...

## المبحث الأول

### تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة

تسلط الأمر على من يقرأ في الدعوة الإسلامية حين يرى استعمال كلمات مكان كلمات أخرى ظناً من المؤلف أنها متشعبة المعنى ، مع أنها ليست بمعنى واحد ، كوضع كلمة المنهج مكان كلمة الأسلوب ، واستعمال الأسلوب في موضع التوسيلة . . . وهكذا ، الأمر الذي من أجله أعقد هذا المبحث لتحديد مفاهيم الحركة بالدعوة الإسلامية ، ولأنه أن كل مصطلح بدأ في أن يكون علماً على علم خاص ، من علوم الدعوة العديدة ، التي يحتاجها الدعاة إلى الله تعالى في العصر الحديث .

وإني أن تحديد مفاهيم مصطلحات الدعوة لها أهمية في دراسة فحسب التي " لا تعرف القضايا ، وتعدد معاني المصطلحات ، وتفهم بوجه يحقق الاستفادة الدقيقة لها ، وتكون الأسوة برسول الله ﷺ " حيث يريد الله تعالى .

### أولاً

#### منهج الدعوة

تتخذ الدعوة على منهج يحدد مسائلها ، ويوضح طرقها ، ويعرف وسائلها . ويضع الفروقات العنسية التي تقع المدعو ، وتحقيق الغايات المقصودة من بعثة النبي ﷺ . لا كل ما فيها من خير ، وأمن ، وسعادة ، لناس أجمعين ، في الدنيا ، وفي الآخرة .

إن المنهج نظرية متكاملة تتناول كافة جوانب عملية الدعوة ، كما تتحدد مهام كل جانب ، وطريقة قيامه بدوره في الدعوة إلى الله تعالى .

إن الدعوة إلى الله تعالى تقوم على عدة جوانب هي : —

أ — مضمون فكري هو الإسلام بما حوى من عقيدة ، وشريعة ، وأخلاق .

ب — أسلوب يحتوي على الفكرة ، ويتحرك كما ، ويوصلها لمن يستقبلها من

الناس ، وهذا يكون الأسلوب قولاً ، أو عملاً ، أو حالة معبرة ، أو غير ذلك .

ج — أدوات تحصيل الأسلوب بمضمونه ، ومحتواه .

د — شخصية عاقلة تجمع الأجزاء المذكورة في صورة حسنة لتصل بها إلى

المدعويين ، رجاء إيمانهم ، وهدايتهم .

هـ — أناس يتوجه إليهم الدعاة بالفكرة ، واضحة ، مفهومة ، بأسلوب

مناسب ، وأدوات ملائمة ، رجاء تحقيق ما تريده الدعوة منهم .

إن هذه الجوانب علوم للدعوة إلى الله ، ويجب أن يهتم العلماء بها ، بوضع

القواعد ، وإعداد الدراسات التي يحتاجها كل علم منها .

ومنهج الدعوة هو الخطة الكلية ، والنظام العام الذي يحدد الإطار لكل هذه

الجوانب ، ولكل هذه العلوم لتتربط وتتكامل .

إن منهج الدعوة بصورة عامة هو النظام الذي يجمع كافة جزئيات عملية

الدعوة ، وينسق بينها ، لتتكامل ، وتحقيق للدعوة ما يراد منها على وجه صحيح .

وقد بين العلماء أن المنهج كمصطلح علمي يدل على ما ذكرت . . .

**تقول اللغة :** إن المنهج يعني الخطة المرسومة ، والنظام الموضوع ، والتحدد

للسير عليه ، واتباعه لتحقيق هدف معين ، والوصول إلى غاية محددة <sup>(١)</sup> .

وعلماء التفسير والمحدثون يذهبون في معنى المنهج إلى ما ذكرناه ويرون أن

المنهج هو الطريق الواضح : البين <sup>(٢)</sup> .

يقول الدكتور / أحمد بدر، وهو يتحدث عن مفهوم مناهج العلوم : إن المنهج

هو الطريق المؤدى إلى الكشف عن الحقيقة في العلوم ، بواسطة طائفة من القواعد

العامّة التي تهيمن على سير العقل، وتحدد عملياته حتى يصل إلى نتيجة معلومة <sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> . منهج الدعوة إلى الله ... د/ جلال البشار في ٢٩ ، وهذا المعنى استنبط من كتاب الله وهي تبرز معنى منهج : الدخول في العلم

الدعوة ... د/ أحمد الباشا في ٤٥

<sup>(٢)</sup> انظر معنى : ( كل ما جعلنا بكم شرعة ومنهاجاً ) في تفسير الطبري ، والباري ، وفي كتاب المنهج لما ذكرناه في "المنهج" ١١٠

تذكر (ملاحق على : مناهج الشريعة) مناج الباري ج ١ ص ١٠ ، وناج الباري ج ٢٢ ص ١٠ .

<sup>(٣)</sup> انظر البشير في ١٥ .

إن المنهج خطة كاملة ، ونظرية تامة ، تحدد الدعوة ومسارها ، وطرق الإقناع بها ، وأساليب الخطاب لها ، وتحقيق أهدافها في كافة جوانب الحياة .

وعلى هذا فمنهج الدعوة كمصطلح ، أو كعلم خاص ، يشتمل على نظرية شاملة للدعوة بكل جوانبها ، وحينئذ لا يصح إطلاق مسمى المنهج على الأسلوب ، أو على الوسيلة ، أو على الموضوع ، أو غير ذلك ، إلا على وجه الجار من باب تسمية الجزء باسم الكل ، ومع وجود قرينة تمنع من إرادة حقيقة المفهوم .

ومنهج الدعوة رباني كله ، ويمكن أخذه من تعاليم الله تعالى من كافة جوانبها ، لأن الجوانب الثابتة كموضوع الدعوة ، وغايتها ، ثابتة مفصلة .

أما الجوانب غير الثابتة كالوسائل ، والأساليب ، وصفات القائم بالدعوة ، وإحوال المدعوين ، فإن تعاليم الله تعالى تضع الأسس ، والشروط مع ترك التفاصيل للاحتهاد والبحث .

ومنهج الدعوة ليس هو الحركة بالدعوة ، لأن الحركة تعني الصورة العملية التي تظهر حين يقوم الرسل والدعاة بتبليغ دين الله للناس ، والمنهج أعم من ذلك .

### ثانياً

## المضمون الفكري للحركة

الإسلام هو الموضوع التي تحرك به الدعوة ، وهو المضمون الفكري الذي يتجسد الأسلوب ، ويحركه بوسائله ، وأدواته .

والإسلام أساسه العقيدة ، ولذلك تدور حركة الدعوة مع تبليغ العقيدة ، وتنشئها في القلوب ، وربطها بكافة أنشطة الإنسان .

إن العقيدة الإسلامية تتمثل في " شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمداً رسول الله " . وهذه الشهادة تتكون من شطرين : —

**الشرط الأول :** وهو شهادة أن لا إله إلا الله ، وبه تتحدد للإنسان عبوديته لله

العبود ، ليقر به بالوحدانية المطلقة ، ويتجهله وحده سبحانه وتعالى بالعبادة كلها ، ويحصر

التلقى منه سبحانه وتعالى .

فليس عبداً لله من لا يعتقد بوحديته سبحانه وتعالى ، بكل اليقين والإخلاص .

وليس عبداً لله وحده من يخضع ، ويخشع ، ويتجه بالعبادة لغير الله تعالى ! !

وليس عبداً لله من يرتضي لنفسه مصدراً غير الله ، يأخذ منه النظام والتشريع ! !

وليس عبداً لله من يعلن العبودية ظاهراً ، وعند حاجته للإعلان فقط ، يخالف لوازمه عند العمل والتطبيق ! !

**ويؤكد الشطر الثاني :** وهو أشهد أن محمداً رسول الله ، أن محمداً

هو طريق التلقى الوحيد عن الله تعالى ، فهو رسول الله " ﷺ " الذي نزل عليه الوحي ، وبلغه للناس ، ليسدهم بكل ما يحتاجون إليه في حياتهم ، وينظم لهم جميع أعمالهم ، وأنشطتهم .

وليس مؤمناً من لا يضع الرسول " ﷺ " في موضعه الواجب ..

وليس مسلماً من يهمل ما جاء به رسول الله " ﷺ " ، ويعمل كما جاء من عند غيره ! ! ..

إن العقيدة الإلهية تقوم على كلمة الشهادة بركنها ، لأن الشهادة تشمل الإسلام كله : ولذلك كان اهتمام الرسول " ﷺ " بها منذ البداية ..

يقول سيد قطب : والقلب المؤمن المسلم يتمثل هذه القاعدة بشطريها : بصدق وإخلاص ، وبذلك يكون مؤمناً ، لأن كل ما بعدهما من مقومات الإيمان ، وأركان الإسلام ، يتحقق بما ، فالإيمان بملائكة الله ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر ، خيره ، وشره ، يقوم على هذه القاعدة .

وكذلك الصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج يعتمد عليها .

ثم الحدود ، والتعازير ، والحل ، والحرم ، والمعاملات ، والتشريعات ، والتوجيهات الإسلامية ، إنما تقوم كلها على قاعدة العبودية لله وحده ، كما أن المرجع فيها كلها هو ما بلغه لنا رسول الله " ﷺ " عن ربه .



والجـمـع المـسـتـمـر هو الذى تتمثل فيه تلك القاعدة ومقتضاها جميعاً ، مثلاً :  
 عسباً ، وعسبياً ، لأنه بعير تمثل تلك القاعدة ومقتضاها فيه لا يكون المجتمع مستمراً .  
 ومن ثم تصبح شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، قاعدة لتصور  
 كامل ، تقوم عليه حياة الأمة المسلمة بخلافها ، فلا تقوم هذه الحياة قبل أن تقوم  
 هذه القاعدة : كما أنها لا تكون حياة إسلامية إذا قامت على غير هذه القاعدة ، أو  
 قامت على قاعدة أخرى معها ، أو عدة قواعد أجنبية بعيدة عنها <sup>(١١)</sup> .

يقول الله تعالى : ﴿ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهُ وَاحِدٌ  
 فَإِنِّى فَارِهُبُونَ ﴾ <sup>(١٢)</sup> .

ويقول سبحانه : ﴿ قُلْ إِن صَّلَاتى وَنُسُكى وَمَحَايَ وَمَمَاتى لِلَّهِ رَبِّ  
 الْعَالَمِينَ ﴾ <sup>(١٣)</sup> لَا شَرِيكَ لَهُ <sup>(١٤)</sup> وَيَذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ <sup>(١٥)</sup> .

ويقول سبحانه : ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنَ بِهِ  
 اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَفُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ <sup>(١٦)</sup> .

ويقول سبحانه : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا  
 وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ <sup>(١٧)</sup> .

من هذه الآيات وغيرها كثير فى القرآن الكريم ، تعرف وحدانية الله تعالى ،  
 وتحدد واحداً العبودية ، وتتأكد ضرورة حصر الأعداء والتفنى من الله تعالى .

<sup>(١١)</sup> معادى الطوبى من ١١٥ ، ١١٦ .

<sup>(١٢)</sup> سورة الحج الآية ( ٥١ ) .

<sup>(١٣)</sup> سورة الاعراف الآيات ( ١٦٢ ، ١٦٣ ) .

<sup>(١٤)</sup> سورة مائدة الآية ( ٢١ ) .

<sup>(١٥)</sup> سورة المائدة الآية ( ٦ ) .

لقد ركز رسول الله " ﷺ " دعوته في مكة على تثبيت العقيدة في القلوب  
ليعيش الناس الإسلام كله بعدما تملأ قلوبهم بالإيمان .

إن المجتمع المسلم ، والفرد المسلم ، يجعل الإسلام دستور الحياة على أساس  
تعالى ، خافض ، وبعبارة بكامله ، وقامه ، على أساس أنه منطوق إيمان ، نافع من  
عقيدة " لا إله إلا الله " التي هيست على قلبه ، وعقله ، وسواطه . وأصبحت هي  
الموجه الوحيد لسلوكه عن طواعية واختيار .

إن مقتضى شهادة التوحيد ، يشمل أركان الإيمان ، وسائر العبادات  
والتوجيهات التشريعية ، والأخلاقية . . وغيرها (١) .

إن مقتضى هذا التوحيد يشمل الحياة كلها . ولذلك كان البدء بتعليم  
العقيدة ، وكان الجهد المبذول في تثبيتها ضخماً لئلا يمتد مع أهميتها ، ودورها في تطبيق  
الإسلام كله .

إن مقتضى التوحيد يؤدي إلى إنباد الفرد المسلم ، والمجتمع المسلم في عالم  
الواقع ، وبذلك يتحول الكون كله عابداً لله تعالى ، ويصير الناس ربانيين ، مخلصين ،  
صالحين ، أعمالهم كلها لله يتحرون بها طاعة الله والإمتثال لأمره ، واجتناب نواهيه ،  
وأمانتهم كسب رضي الله ، ومن أجلها يتحرون مناهل الرضخ ، ويركزون  
على عوامل القربى ، ليستمعوا برحمة الله ، ورضوانه ، ووجه .

وتنارهم الرئيسية مع الله ، وأغني أرباحهم ينظرونها يوم أن يتجلي الله  
عليهم بعزته ، وهم في النعيم ، فيروته ، ويسعدون بعبادته ، ويعيشون في الخيرات  
خالدين لهم فيها ما يشاءون .

إن النطق بالشهادة ، يعبر عن حقيقة اليقين ، ويؤدي إلى التمسك بلوازمها  
ومقتضاها ، ويوجد المؤمن السعيد ، ويحقق المجتمع العظيم ، في عالم الناس .

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " بالشهادة مجتمعا متحررا من سلطان الشهوة ،  
وسلطان الشهوة ، مجتمعا قائما على العدل ، وتقدير كرامة الإنسان ، مجتمعا طاهر  
مخلو ، زكي الروح ، يفظ الضمير ، متألفا ، متحابا ، يوالي الفرد الفرد أخاه ،  
ويعمل لتجساده كما يعمل لنفسه .

ولقد صنع رسول الله " ﷺ " هذا المجتمع السعيد لأن أفرادهم أقاموا هذا الدين  
( قولا ) في قلوبهم ، وضمائرهم ، وطبقوه ( تابعا ) في حياتهم وأعمالهم ، وبعد ذلك  
كانوا رجالا يحون لغيرهم ما يحونه لأنفسهم ، ويحافظون على حقوق الآخرين قبل  
أن ينالوا حشمتهم .

إن هذا المجتمع هو الإسلام كله ، وهو الجزء الرئيسي في منهج الدعوة .  
إن غاية المنهج هو تحلئة الإسلام ، وتبليغه للناس ، وتحقيقه في عالم التطبيق والسلوك .

### ثالثا

#### أسلوب الدعوة

الفكرة في حقيقتها معلومات عقلية لا تظهر للناس إلا في قوالب لغوية ،  
يألفها حامل الفكرة أو المؤلف له . ويمكن بواسطتها من إيصال فكرته ومعارفه لغيره .  
كما أن المستمع والمتلقي يفهم الفكرة ، ويتصورها ويتجاوب معها من خلال  
الكلمات التي سمعها ، أو قرأها .

والقوالب اللغوية الحاملة للمضمون هي الأساليب اللفظية ..

والأسلوب أحد أركان منهج الدعوة ، ويعرفه العلماء بأنه المحتوى اللفظي  
الذي يحمله الطريق لتصل الدعوة إلى المدعوين ، وقد يكون هذا المحتوى قولا منطوقا  
أو مكتوبا ، أو صورة ، أو عملا وهكذا ..

والأسلوب أهميته في إيصال المضمون للناس ، لأن الإنسان لا يستوعب  
الفكر ، ولا يفهمها جيدا إلا إذا وصلت إليه بأسلوب مفهوم ، مرتب على قواعد  
علوم اللغة ، والبلاغة التي لا بد منها لدقة المعنى ، والتأثير به ، ولذلك دعا الرسل

" عليهم السلام " ندسان المدعويين ، ووجب تبليغ الدين على نحو بين ، ومفهوم ودينهم  
 إن الخطاب الديني يتجه إلى الإنسان ، ويعيش مع طاقاته العقلية والوجدانية ،  
 وأسفوكية ... ووجب لذلك أن يتنوع مع دقة المعنى ، وجهان العبارة ، وحلاوة  
 الأسلوب على نمط القرآن الكريم الذي شهد له أعداؤه ، وقالوا عنه : إن له حلاوة  
 وإن عليه لطلاوة <sup>(١)</sup> .

إن أسلوب القرآن الكريم يتضمن الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ،  
 والجناب الروحي ، لأنه يخاطب في الإنسان شعوره ، ومشاعره ، ويتحدث مع عقله  
 وعواطفه ، ويأخذه بالآثبات ، والأرواح .

لقد كان كفار مكة وعلي رأسهم قاذمهم يتأثرون بالقرآن حين سمعوه  
 ولذلك كانوا يأتون سرا لسماع محمد ﷺ " في الليل إتحافاً بأسلوب القرآن الكريم .  
 يروي ابن هشام عن ابن عباس إسحاق أن محمداً بن شهاب الزهري قال : إن  
 أبا سفيان بن حرب : وأبا جهل بن هشام ، والأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب  
 الثقفي : حليف بني زهرة ، خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ " ، وهو يقضي  
 من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه ، وكل لا يعلم مكان  
 صاحبه ، فباتوا يستمعون له : حتى إذا طلع الفجر تفرقوا : فجمعهم الطريق :  
 فتلاوموا .

وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا ، فلو راكم بعض منبهاتكم لأوقعتم في  
 أنفسه شيئاً ، ثم انصرفوا .

حين إذا كانت الليلة الثانية ، عاد كل رجل منهم إلى مجلسه ، فباتوا  
 يستمعون له ، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض  
 مثل ما قالوا أولى مرة : ثم انصرفوا .

حين إذا كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له ،  
حين بدأ طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا تخرج حين  
تعاهد ألا تعود : فتعاهدوا على ذلك ، ثم تفرقوا .

فلما أصبح الأحسن بن شريق أخذ عصاه . وخرج حتى أتى أبا سفيان في بيته  
، فقال : أحبرني يا أبا حنظلة عن رأيك فيما سمعت من محمد ؟  
فقال : يا أبا ثعلبة ، والله لقد سمعت أشياء أعرفها ، وأعرف ما يراد بها ، وسمعت  
أنباء ما عرفت معناها ، ولا ما يراد بها .  
قال الأحسن : وأنا والذي حلفت به كذلك .

ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل ، فدخل عليه بيته . فقال : يا أبا الحكم ،  
ما رأيك فيما سمعت من محمد ؟

فقال : تباركنا نحن وبنو عبد مناف الشرف ، أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ،  
وأعطوا فأعطينا ، حين إذا تمادينا على الركب ، وكنا كفرسي رهان ، فأتوا : منا  
بي بأبي الوحي من السماء : فمضى نذرك مثل هذه ، والله لا نؤمن به أبداً ، ولا  
نصالحه .

فنام عنه الأحسن وتركه <sup>(١)</sup> .

لقد كان لأسلوب القرآن الكريم التأثير العظيم في عقول من يفهمه ، ووجدان  
من يسمعه ، حين رأينا كفار مكة يشخفون للسمع بالاستماع إليه ، وما صددهم عن  
الإيمان إلا التعصب ، والحقد ، والحسد .

إن كثيراً من أهل الكتاب دخلوا في الإسلام بسماعهم القرآن الكريم ، يقول  
نعتي : ﴿ وَذَا سَمِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَى الرُّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا  
عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> وما ذلك إلا لما

<sup>(١)</sup> أي تركه ، أي لم يهتم به ، أي لم يرد عليه .

<sup>(٢)</sup> أي الشاهدين .

فيه من أصالة الموضوع وبساطة المعنى ، وجمال الأسلوب ، ولما فيه من سلامة  
القطرة ، وصدق التوجه ، واتباع الحق ، والتسليم بالدليل ، وشأن القرآن الكريم دائماً  
أن يرداد به الإيمان ، وتفتح القلوب ، وتذرف العيون ، يقول تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ

الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ ذِكْرِ

يَتَوَكَّلُونَ ﴾ (١١) .

ويقول سبحانه : ﴿ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴾ (١٢) .  
ويصف الله تعالى تأثير القرآن الكريم في النفوس المؤمنة ، ويبين ما يصيب القلوب من  
حسية ولين ، وما يظهر على خلودهم من قشعريرة واضطراب ، يقول تعالى : ﴿ اللَّهُ

تَزَّلَ أَحْسَنَ الْخَبِيثِ كِتَابًا مُّتَشَبِّهًا مِّثْلَىٰ نَقْشِيعُرٍ مِّنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ تَخْشَوْنَ رَبَّهُم

ثُمَّ تَلِيْنٌ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَىٰ اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن

يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ ﴾ (١٣) .

وحين يقوم الأسلوب بدوره أرسل الله الرسل " عليهم السلام " بلغة أرواحهم  
ليتضح المعنى ، ويعرف المطلوب ، يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا

بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ

الْحَكِيمُ ﴾ (١٤) .

والأساليب تتنوع مراعاة لحال المدعوين ، لأن من الناس طائفة ذات نفوس  
مشرقة ، وعقول ذكية ، وإدراك سريع ، وهؤلاء تكفيهم الإشارة ، ويناسبهم الإيجاز ،

(١١) سورة المؤمنون آية ( ١٢ ) .

(١٢) سورة مريم آية ( ٢٨ ) .

(١٣) سورة الرعد آية ( ٢٣ ) .

(١٤) سورة البقرة آية ( ١٣٠ ) .

ونزاهتهم الكلمات القليلة ذات الدلالات الموحدة ، والمعاني الدقيقة .

ومن الناس طائفة ذات عقول متوسطة ، ونفوس خاملة ، وطباع لا تتحرك إلا إذا استثارت ، وانفعلت ، وهؤلاء يناسبهم بسط الكلام ، وتكرار العبارة ، وسوق المعنى بأكثر من طريق .

ومن الناس طائفة ذات عقل وفهم ، لكنها محبة للنجدل والحوار ، كثيره السؤال والاعتراض ، مرة لتفهم ، وأخرى لتظهر ذاتها في حوار ونقاش <sup>(١١)</sup> .

وقد أدى تنوع الناس إلى تنوع الأساليب ، مع أن المعني والمقصد واحد . ولذلك رأى العلماء أن الأسلوب بصورة عامة يتنوع إلى ثلاث صور كلية وبعدها تأتي الأساليب الفرعية العديدة ، المناسبة للمدعوين ، تعبيراً عن إحدى هذه الصور الكلية .

والصور الكلية للأسلوب ثلاثة : أمر الله بها في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ <sup>ط</sup> وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ <sup>ط</sup> إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ <sup>ط</sup> بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ <sup>١٢</sup> ، وبيانها فيما يلي : —

### الصورة الأولى : الحكمة : —

وهي مشتقة من الإحكام والإتقان ، ومرجعها إلى العلم الدقيق ، والحقيقة الخردة ، الخالية من الاطناب ، والتكرار . وتطلق الحكمة على مسميات عديدة كالعقل ، والفهم ، والنبوة ، والحديث ، وعلى بعض أساليب الدعوة .

والحكمة في أساليب الدعوة تعني اللفظ المحكم ، الدقيق ، الدال على معناه المقصود بلفظ موجز ، وعبارة جميلة .. يقول أبو السعود : ( الحكمة هي الدليل الموضح

<sup>(١١)</sup> انظر : تفسير القرطبي ، ج ٥ ص ٥١٥ ، ص ٥١٦ .

<sup>(١٢)</sup> سورة النحل الآية ( ٣٠ ) .

للمحقق، المزيل للشبهة، المتوجه إلى العقل مباشرة، من غير إثارة وجدان، أو تحسيس (١) .

ويقول الإمام النووي : الحكمة عبارة عن العلم المنصف بالإحكام ، المشتمل على المعرفة بالله تبارك وتعالى المسحوب بنفاذ البصيرة ، وتهديب النفس ، وتحقيق الحق ، والعمل به ، والصد عن اتباع الهوى والباطل ، والحكيم من له ذلك ، فقال أبو بكر بن ديد : كل كلمة وعظمتك ، ورجرتك ، أو دعوتك إلى مكرمة ، أو نهي عن قبيح فهي حكمة ، وحكم (٢) .

ويقول ابن القيم : الحكمة جامع مانع لأنه يشمل الإتقان ، والإحكام للأقوال ، وتزيل جميع الأمور في مواضعها المناسبة ، وفي أوقاتها الملائمة للإفادة بها (٣) .

### الصورة الثانية : الموعظة الحسنة :

والموعظة تعني النصيح ، والإرشاد ، ومخاطبة وجدان ، وإثارة العواطف ، من خلال التنوع البياني الذي يعرض المعنى بأساليب مختلفة ، مع التذكير بالعواقب ، والترغيب في الفعل ، والتخويف من الترك .

والموعظة يشمل الوصية الحسنة : والأمر بالحسني ..

وعلى الجملة فإن الموعظة عبارة عن مجموعة من العبر النافعة ، والخطابات المفيدة ، والإرشادات المعبرة .

وإنما وصفت الموعظة بأنها حسنة للإشارة إلى أن الموعظة تعني النصيح الخير ، وتدور حول فعل المعروف ، وترك المنكر ، وتحاول إقناع العقل ، وإرضاء العاطفة ، وإن لا لم تكن حسنة .

(١) مسند أبي السمر ج ٢ ص ٢٠٠ .

(٢) تربية النبي لأصحابه ص ٣١٩ .

(٣) نفس المعرج السابق ص ٣٢٠ .



## الصورة الثالثة : المجادلة بالتي هي أحسن :

المجادلة أدلة كلامية يوردها الداعي ليترجم الخصم ، ويصححه ، ويحلله ، ويؤس بالمعنى ، وانصبت المجادلة بالحسي إبعاداً لها عن مفهوم المجادلة الاصطلاحي الذي يعرف المجادلة المنطقية ، والمكابرة ، والمعادلة ، بأنها ليست لإظهار الصواب ، بل لإلزام الخصم ، وتعالى وإثبات الذات ، ذلك أن حملة الدعوة يقصدون إظهار الصواب دعماً ، ويوقوف على الحق باستمرار ، وإغناء الخصم بالحسي .

يقول صاحب مختار المسحاح : ( جادل مجادلة جديلاً إذا خصم عما يشغل عن ظهور الحق ، ووضوح الصواب ، هذا أصله ثم استعمل على لسان حملة الشرح في بداية الأدلة لظهور أرجحها ، وهو محمود حسن إن كان للموقوف على الحق وإلا فمدموح )<sup>(١)</sup> .

ويقول الرازي : الجدل المذموم محمول على الجدل في تقرير الباطل ، وحلقت ثنائ : وإغناء ، والجدل الممدوح محمول على الجدل في تقرير الحق ، ودعوة الخلق إلى سبيل الله . والمذهب عن دين الله تعالى<sup>(٢)</sup> .

وهكذا قيد الله الجدل بالذي هو أحسن حتى يكون هادفاً ، ومقنعاً ، ومناقشاً لشيء المدعوى .

والفرق بين الجدلي ، والموعظة ، أن المجادلة منازعة بين طرفين متعارضين ، والخصم فيها ليس صامتاً ، وإنما يناقش ، ويرد - عما رشح في نفسه من أوهام وشبهات - اختلاف الموعظة ، فإن المدعو بها يستمع إليها ، ويستشار بها ، وينفعل معها ، بلا إيراد المنازعة الكلامية ..

وعند أمر الله رسوله أن يدعو الناس بالحكمة، والموعظة الحسنة والمجادلة بالحسي نفع المائدة سائر الخلائق المختلفين ، مكاناً ، وزماناً ، وفكراً ، وطبيعة .

<sup>(١)</sup> مختار المسحاح معناه ( جدي ) .

<sup>(٢)</sup> صحيح التلخيص ج ٢ ص ٢٥٢ .

وقد بين الرازي تنوع الناس ، وذكر أنهم بالنسبة لكمال الطبع ، طرفان :

وواسطة

والطائفة الأولى التي تتجه إليها الحكمة هي طرف الكمال .

والطائفة الثالثة المتعادلة هي طرف النقصان .

والطائفة الثانية صاحبة الموعظة هي الوسطة وهم الذين لم يبلغوا في الكمال

إلى حد الحكماء الخائفين ، كما لم يبلغوا في النقصان والردالة إلى حد المشاغبيين

المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، ويقولون : إن

معنى الآية أدع الأقوياء الكاملين إلى الدين بالحكمة ، وهي البراهين القطعية اليقينية ،

وعوام الخلق بالموعظة الحسنة ، وهي الدلائل اليقينية الإقناعية ، والتكلم مع المشاغبيين

بالمجادل على الطريق الأحسن الأكمل <sup>(١)</sup> .

ونقسم الناس إلى هذه الطوائف الثلاث تقسيم يتفق مع الواقع البشري ، لأن

من الناس من يريد التعقيد ويكره السطحية ، ولا يهدأ له بال إلا باليقين الحقيقي

القائم على الفكر والتدبر ، ومنهم من يستهويه موضوع منير ، وفطرة طيبة ، فيقف أمام

اللفظة الجميلة ، والمثل النادر ، والفصحة الشيقة ، والتكرار المؤكد ، ويسهر منتظر بالنس

ورؤية مسكين ، ومنهم من يهوى السجع ، ويعشقه ، وينازع ، ويجادل .

لكن ليس معنى هذا التقسيم أن كل طائفة تغاير الأخرى تماماً ، وتسايز تماماً

كذباً ، إذ من الناس من يجمع في طبعه أكثر من صفة ، ولذا كان تنوع الأسلوب

ضرورة لمخاطبة كافة الناس ، ولإرضاء كافة عناصر الإنسان .

حاء في الظلال : والدعوة بالحكمة تراعى أحوال المخاطبين وظروفهم .

والعذر المختار لهم في كل مرة حتي لا يتقل عليه ، ولا يشق عليهم بالتكاليف قبل

استعداد النفوس لها . والطريقة التي مخاطبتهم بها ، والتنويع في هذه الطريقة حسب

مقتضاها .

والدعوة بالموعظة الحسنة تدخل إلى القلوب برفق ، وتعشق المشاعر بدهشة ،  
لا بالزجر والتأنيب في غير موجب ، ولا بفضح الأخطاء التي تقع عن جهل . أو  
حس نية ، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة ، ويؤلف القلوب  
النافرة ، ويأتي بحجر أكثر من الزجر ، والتأنيب ، والتوبيخ .

والدعوة بالجدل بالتي هي أحسن تكون بلا تعامل ، على المخالف ، ولا  
ترذيل له وتضييع ، حتى يطمئن إلى الداعي ، ويشعر أن ليس هدفه الغلبة في الجدل ،  
والنفس البشرية لها كبرياؤها وعنادها ، وهي لا تنزل عن الرأي الذي تدافع عنه إلا  
بإرفق حسني لا تسرع بالمزعة ، والجدل بالحسني هو الذي يظلم من هذه الكبرياء  
الحسنة<sup>(١)</sup> .

### ويلاحظ :

أن كلاً من صور الأسلوب الثلاث لا تنحصر في شكل بياني محدد، لأن  
الصورة الواحدة تظهر في صور فرعية عديدة ، فمن الحكمة الإيجاز ، والإشارة ،  
والتأكيد الخرد .

ومن الموعظة الاستفهام ، وضرب المثال ، والتشبيه وإيراد القصص ، والتأثير الصوتي  
ومن الجدل ، المخادعة ، وحلقات النقاش ، وعقد الاجتماعات ، والمناظرات .

ولذلك اعتبرت هذه الصور الثلاث أصولاً للأساليب تنفرع منها صور  
عديدة قابلة للزيادة كلما تقدم الناس ، وتطورت العلوم ، وتنوعت الحضارات .

**وهكذا ..**

تكون الأسلوب ، ويكون دوره مع البلاغ والدعوة ..

\* \* \*

<sup>(١)</sup> من دلائل القرآن ج ٤ ص ٢٢٠٦ .

## رابعاً

### وسائل الدعوة

وسائل الدعوة عديدة ، ووظيفتها حمل الأسلوب بمضمونه ، وتوصيله إلى المدعوين .

ويخلط كثير من الناس بين الوسيلة ، والأسلوب ، ويرون المقالة ، والخطبة ، والدرس وسائل للدعوة ، مع أنها تشتمل على أساليب تنقل الفكرة إلى المستمعين بواسطة الاتصال الشفهي الذي هو الوسيلة .

ويرجع سبب الخلط إلى تداخل النظرة إلى هذه الموضوعات ، لأنها تكون وسائل أو أساليب باعتبار الجانب المنظور إليه .

إن الخطابة ، والكتابة وغيرها قد تكون وسائل للدعوة ، إذا نظر إليها من ناحية هيكلها العام ، وشكلها الفني ، وتكون أساليب إذا نظر إلى الكلمات المنقولة من خلالهما ، المتضمنة للمعاني المقصودة .

إن الأسلوب الواحد تنقله الوسائل العديدة ، كما أن الأسلوب يوجد في عالم الواقع بعد إعداده ، بينما الوسيلة توجد قبل الإعداد أو بعده ، وتظهر أهميتها وقت استخدامها ، فالخطابة وسيلة ، والخطبة أسلوب .. وهكذا .

إن القرآن الكريم أسلوب للدعوة ، يتقل إلى الناس بوسائل عديدة مثل المشافهة ، والكتابة ، وآلة تكبير الصوت ، وهكذا .

وأيضاً فإن القرآن الكريم وهو أسلوب للدعوة موجود قبل عملية توصيله للناس ، وقد تعطل الوسيلة ، وننتهي ولا يتعطل القرآن الكريم ، لأنه محفوظ بأمر الله تعالى .

ولهذا كانت أهمية التمييز بين الوسيلة والأسلوب ..

وأهم أساليب الدعوة ما يلي : —

**أولاً : وسائل المواجهة ( المشافهة ) : ■**

يعتمد هذا النوع من الاتصال ، على المواجهة المباشرة بين الداعي والمدعو ، حيث تنقل الرسالة ، بواسطة هذه الوسيلة .

والاتصال المواجهي أقدم أنواع الوسائل ، وأكثرها تأثيراً ، وهو يشمل الاتصال الذي يتم بين فرد وفرد ، أو بين فرد وجماعة ، أو بين جماعة وجماعة ، مادام كل منها يتم بصورة شفوية مباشرة .

ومن صور الاتصال المواجهي ما يلي : —

( أ ) **المحادثة البسيطة** : وتكون بين عدد قليل من الناس بينهم معرفة سابقة حيث يتحدث كل منهم مع الآخر سائلاً أو يجيباً ، كأفراد الأسرة ، والحيوان ، وزملاء الدراسة والعمل .. وهكذا .

( ب ) **المنافشة** : وهي فن من فنون التربية والدعوة ، ويتم مشافهة بين عدد من الأشخاص ، حيث يعرض كل منهم رأيه من الموضوع محل النقاش ، وتختلف المناقشة عن المناظرة لأن المناقشين يسبرون في اتجاه واحد ، بينما المتناظرون يسبرون في خطوط متعارضة . كما أن المناقشة تتم أحياناً بلا إعداد ، بينما المناظرة تقوم على الإعداد دائماً .

( ج ) **الخطبة** : بكافة أنواعها ، لها دورها في الحضارات القديمة وما زال لها هذا الدور . وتتميز الخطبة بتأثيرها الواضح لأنها تخاطب العواطف والوجدان وتدور حول موضوعها ، وتقدم العديد من البراهين ، في صور بيانية مؤثرة .

والخطبة تلقى من جانب واحد فقط هو الخطيب ، ولذلك وجب على من يقدم بالخطبة أن يهتم بجوانبها الفنية ، وقواعدها العلمية لكي يحقق الهدف الذي يرموه من وراء عمله .

( د ) **السندوة** : وتقوم على الاتصال المباشر إلا أنها تختلف عن الخطبة بأن الاتصال فيها يتم بمشاركة عدد من الاتجاهات تدور حول موضوع واحد .

ونحتاج الندوة إلى جمهور مثقف متمكن من المتابعة ، والمشاركة في الحوار ، لأن بعض الندوات يفتح فيها للجمهور باب التعليق ليسامحوا بأرائهم مع المتحدثين الأساسيين في الندوة .

( هـ ) **المحاضرة** : وهي لون من الاتصال المتواجهى يعتمد على التحليل العلمى ، والبراهين القوية ، وهي وسط بين الخطبة والندوة لأنها تأخذ من الخطبة أن المتحدث فيها واحد ، والمستمع جمهور عريض ، وتأخذ من الندوة فتح باب المناقشة حول موضوع المحاضرة .

( و ) **الدروس الدينية** : وهو لون من الاتصال الدينى يتم في المساجد غالباً ، وهو اتصال يتسع الموضوع فيه ، ويفتح المجال أمام المستمع للسؤال والمناقشة ، وله أثره الكبير في نشر الدين ، والتعريف بقضاياه .

## ٢ - الوسائل المكتوبة والمطبوعة :

استعمل الإنسان هذا النوع قديماً ولكن بصورة بدائية ، فحينما اخترعت الكتابة كان الإنسان يكتب على الجلد ، وورق الشجر ، وورق البردى ، وما شاكل ذلك ، وهذه الطريقة استفاد الإنسان منذ القدم بالكتابة حيث ضمنها ما أراد من آراء وأخبار ، وأوصلها إلى غيره ، أو تركها للأجيال المتعاقبة من بعده .

وهذه الوسيلة هي التي عرفت الناس حديثاً بالحضارات القديمة ، وما وقع لها من حروب وأحداث ، وما كان فيها من ممالك ودول .

وفي عام ١٤٥٤م تمكن الإنسان من اختراع المطبعة ، الأمر الذي ساعد على إخطاء صور عديدة للرسالة الواحدة ، وفي أشكال متعددة ، إذ يمكن إيراد الرسالة في شكل كتاب ، أو في نشرة ، أو في صحيفة ، أو في خريطة ، وهكذا .

وتتميز الوسائل المطبوعة بما يلي : —

( أ ) تقصوم على الرأى المدروس ، لأن المصدر لا يكتب رسالته إلا بعد بحث وتأمل ، ويحاول أن يصوغها في قالب يلقى مشوق ، دال على معناه ، بسيط وسهولة .

( ب ) تسمح المقارئ بتكرار قراءتها ، والتحكم في ظروف التعرض لها مكاناً وزماناً . وبذلك يتمكن من فهمها ، واستيعاب المراد منها ، ولذا نادى بعض الباحثين بأن تقدم الرسائل المعقدة في صورة مطبوعة لتحقيق الهدف منها .

( ج ) تمكن الرسالة المطبوعة من الوصول إلى الجماهير المتجمعة ، والبعيدة الحجم لثقل تكلفتها إذا قورنت بالوسائل الأخرى .

( د ) تساعد الرسالة المطبوعة على الاقتناع ، لأنها لا تخترق السمع ، ولا تلامس العين ، وإنما يقدم المتلقي عليها مختاراً راضياً مما يجعله جزءاً من موضوعها يتسجل ، ويفسر ، ويرضى أو يرفض ، وتلك هي مراحل الاقتناع .

( هـ ) تؤدي الرسالة المطبوعة إلى الفهم الدقيق ، الخادى : لأن القارئ يمكنه أن يقرأها عدداً من المرات ، ويمكنه أن يجزئ قراءتها ، وله أن يتأكد من صواب ما جاء فيها بالبحث والتجريب والتأمل .

وقد أدى التطور بالوسائل المطبوعة إلى قيام مؤسسات ضخمة ساعدت على تساعيد النشر ، واستخدام التوزيع مما جعلها تقي وسيلة للاتصال الجماهيري .

### ٣ الوسائل المسموعة :

وبقصد هما الوسائل التي توصل الكلمة إلى الجماهير العريضة عبر المسافات البعيدة وهي الراديو : تلك الوسيلة العجيبة التي تحمل الكلمة المذاعة مختلف أشكالها وفهمها إلى أي مكان في العالم في ثوان قليلة .

وتتميز هذه الوسيلة بما يلي : —

( أ ) يتميز الراديو بقدرته على اختراق أي مكان في الكرة الأرضية في رس

وحس بلا عائق أو حاجز .

( ب ) يتميز الراديو بقدرته على مخاطبة كافة القنات مهما اختلفت لغاتهم

وأصنافهم وأجناسهم .

( ج ) لا يحتاج الراديو إلى التفريغ التام من المتلقى لأن من الممكن الاستماع إلى الراديو خلال الاشتغال بعمل آخر ، يقول إيريك بارنو : ( إن الراديو هو الوسيلة الوحيدة التي لا تستحوذ علي العين ، أي أنه يمكن أن يخدم جمهوراً نشطاً أثناء تناول الطعام . وقيامه بالعمل المنزلي ، وأثناء فوضه من النوم ، واستحمامه وأثناء أداء متطلباته وهكذا <sup>(١)</sup> .

( د ) تتميز الرسالة المرسله بالراديو باشتغالها علي المؤثرات الصوتية ، والحوار البناء ، وهذا يجذب المستمع ويربطه بالرسالة الإعلامية .

( هـ ) يتميز الراديو بنقل رسائله فور وقوعها ، ولذلك فهو الوسيلة الأساسية في وقت الأزمات ، وحين وقوع حروب وصراعات .

( و ) التكرار في الرسالة الإعلامية بواسطة الراديو تكون مقبولة غير مثله لأنها تتخذ صوراً متعددة ، كل منها له جاذبيته الخاصة للمستمع .

وقد أدى التطور الحضاري إلي قيام الراديو بالترفيه بجانب قيامه بالخبر والتنقيف .

#### ٤ . الوسائل المسموعة الرئيسية : ■

ويشتمل هذه الوسيلة أهم العناصر المؤثرة في المستمع وهي الصوت ، والحركة ، والصورة ، وبذلك تمكن من جذب أكثر من حاسة لدى الجمهور ، ولولا ما في هذه الوسيلة من صور غير مشروعة ، وبرامج مثيرة للشهوة : لكانت أهم وأكبر وسيلة إعلامية معاصرة ، وأكثرها فائدة للدعوة إلى الله تعالى .

والأمل معاصر بالمسلمين أن يستفيدوا بكافة الوسائل ، ووجعها في الأطر الشرعية : لتكون طريقاً لإيصال الإسلام كما نزل من عند الله إلى كل مكان في العالم أداء للأمانه وتحقيقاً للذات ، وتأسيساً للحضارة التي يعمل الإسلام لتحقيقها .



واليس من المقبول في عالم اليوم أن يعيش المسلمون — وهم مسلمون — تابعين لغيرهم مقلدين ، وهم يملكون الأصالة ، والحياة .  
إن الرؤية تدفع المشاهد إلى التنوع ، وتقدم الحدث نابضاً بالحركة والحيوية .

\*\*\*

## خامساً

### الداعي والمدعو

الداعي والمدعو هما طرفان في العملية الدعوية ، لأن الداعي هو حامل الدعوة ومبلغها ، والمدعوون هم غاية الدعوة ، والمقصودون بعملية الدعوة كلها ، وعلى الداعي أن يتصف ببعض المزايا التي تمكنه من القيام بواجباته ، ومنها أن يتعامل مع المدعوين بما يناسب واقعهم ، وأحوالهم ، ويؤدي إلى إقتناعهم بما يعرض لهم ، وهذه تحتاج إلى دراسات عديدة ، سوف نذكر بعضها بإذن الله تعالى حين نستنطج أهم ركائز الدعوة المستفادة من المرحلة المكية .

والرسول " ﷺ " هو إمام الدعوة ، ورائدهم ، وهو أسوة الدعاة على الزمن كله <sup>(١)</sup> .

إن تحديد المفاهيم المتصلة بحركة الدعوة النبوية عمل أرجو من ورائه متابعة حركة النبي " ﷺ " بالدعوة إلى الله تعالى ، لاستفيد بها ، ونضع كل جانب في موضعه . ونحن نتحرك بالدعوة اقتداء برسول الله " ﷺ " .

\*\*\*

## المبحث الثاني

### حركة الرسول ﷺ " بالدعوة

#### خلال المرحلة السرية

في مرحلة النبوة التي استمرت ستة أشهر ، ألف النبي ﷺ " ملاقاته جبريل " ﷺ ، ونهيات نفسه للمحافظة على ما يوحي إليه ، والقيام بما يكلف به ، والقدرة على تبليغه ، والدعوة إليه .

وهنا نزل عليه جبريل " ﷺ " بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ ۝ ﴾ (١) . حيث كلفه بالهوض ، وبذل الجهد ، والإنذار ، والدعوة ، والقيام بواجبات الرسالة ، وبذلك بدأ النبي ﷺ " أولى مراحل الدعوة التي استمرت حتى نزل قول الله تعالى : ﴿ فَأَصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢) ، وبلغت ما لها غايات ونصفاً لتبدأ مرحلة الجهر بالدعوة بعد ثلاث سنوات من بداية الوحي (٣) وقد عرفت هذه المرحلة بـ " مرحلة الدعوة السرية " .

ومفهوم السرية التي وصفت بها الدعوة لا يعني الكتمان ، لأن الدعوة بطبيعتها تعني تبليغ الغير أسراً ليتبعه ، مع ترغيبه في الاتباع ، وتخويفه من الترتك ، كما تفيد الدعوة الطلب المتكرر ، والنصح المؤكد ، وإظهار الخير ، والمستحقة الساعدين ، بأساليب متعددة ، وبوسائل مختلفة .

إن أبا بكر " رضى الله عنه " من السابقين الأول إلى الإسلام ، ومع ذلك سمع قبل إسلامه من قريش أعداء الإسلام حديثهم عن الدعوة ، مما يؤكد أن الدعوة لم تكن أسراً مكموماً يروى ابن كثير أن أبا بكر الصديق " رضى الله عنه " " لقي رسول الله ﷺ " فقال :

(١) سورة المدثر آية ( ١ - ٢ ) .

(٢) سورة الحجر آية ( ٩٤ ) .

(٣) السيرة النبوية ج ١ ص ٢٤٢ ، وبذلك تكون فترة هيبة النبي ﷺ رسالة ستة أشهر .

أحق ما يقول قريش يا محمد ؟ من تركك ألفتنا ، وتسفيتها عقولنا ، وتكفيرك أباؤنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : " بلى إني رسول الله ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، هو الله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره . والموالاته على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فلم يقر ، ولم ينكر ، فأسلم وكفر بالأصنام ، وحنع الأنداد ، وأقر بحق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدقاً <sup>(١)</sup> " .  
وهذا بيان وصف الدعوة بالسرية خلال هذه المرحلة كان للسرية النسبية التي ظهرت خلال الحركة بالدعوة .

ومن ملامح الحركة بالدعوة خلال هذه المرحلة ما يلي : —

#### أولاً : إقتصار الدعوة على العقيدة :

دعا النبي ﷺ " إلى الإيمان بالله تعالى ، والإيمان بالرسول ، والإيمان باليوم الآخر ، والإيمان بهذه الأركان لا يتم إلا بترك الشرك ، ونبتذ عبادة الأصنام .  
يقول " ﷺ " لعلي بن أبي طالب " : ( أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر بالثلاث والعزي ) .  
ويقول لأبي بكر " ﷺ " : ( إني رسول الله ، ونبيه ، بعثني لأبلغ رسالته ، وإن أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى ترك عبادة غيره .. ) .  
وكان " ﷺ " يخرج متخفياً لعبادة الله مع علي في شعاب مكة ، لا يعلم أحد عنهما شيئاً إلا الله تعالى ، وذات يوم عشر عليهما أبو طالب ، وهما يصليان .  
فقال أبو طالب لرسول الله ﷺ : " يا ابن أخي ! ما هذا الدين الذي أراك تدين به ؟  
قال : أي عم ، هذا دين الله ، ودين ملائكته ، ودين رسله ، ودين أيينا إبراهيم <sup>(٢)</sup> " بعثني الله به رسولاً إلى العباد ، وأنت أي عم ، أحق من بذلت له النصيحة ، ودعوتك إلى الهدى ، وأحق من آجاني إليه ، وأعاني عليه .

فقال أبو طالب : أي ابن أخي ، إي لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه ، ولكن والله لا يخلص إليك بشي تكرهه ما بقيت .

وذكروا أنه قال لعلي : أي بني ، ما هذا الدين الذي أنت عليه ؟

فقال عني " ﷺ " : ياأبت ، أمنت بالله وبرسول الله ، وصدقته بما جاء به ، ووصليت معه الله ، واتبعته .

فذكروا أنه قال له : أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه <sup>(١)</sup> .

فجده " ﷺ " في حوار مع عمه يورد الكلمات الموجزة ، الجامعة للنيجاني الكثيرة ، مع التركيز علي القضايا المسلمة عند العرب ، والانطلاق منها إلى ضرورة الإيمان بالله تعالى .

فالعرب جميعاً يعرفون الله تعالى ، ويسلمون له بالقدرة ، ومع ذلك يشركون معه في العبادة آلهة أخرى ... ويعتزون بأبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .. ولذلك وضع النبي " ﷺ " لعنه أنه يدعو الدين الله ، ودين إبراهيم " ﷺ " ودين الأنبياء السابقين ، ولم يغيب عن رسول الله " ﷺ " مخاطبة عمه بالحسين فيقول له : أي عم ، أنت أحق من بذلت له النصيحة ، ورجوت له الهداية .

ومع أن أبا طالب لم يستجب للدعوة إلا أنه طأن محمداً " ﷺ " على حمايته ، ولم يعترض علي إيمان ابنه علي " ﷺ " .

وكان مجرد إعلان الصحابي ( أي صحابي ) الإيمان بدعوة رسول الله " ﷺ " بداية لتبدل حياته كلها ، ليظهر جديداً في كل شيء ، ويتغير تغيراً تاماً ، وتلك إحدى العجائب التي صنعها محمد " ﷺ " في الذين آمنوا بدعوته .

يقول سيد قطب : ولقد كنت ، وأنا أراجع سيرة الجساسة المسلمة الأولى أقف أمام شعور هذه الجماعة بوجود الله سبحانه ، وحقوره في قلوبهم وفي حياتهم ،

فلا أكاد أدرك كيف تم هذا ؟

كيف أصبحت حقيقة الألوهية حاضرة في قلوبهم وفي حياتهم على هذا النحو العجيب ؟

كيف امتلأت قلوبهم وحياتهم بهذه الحقيقة هذا الامتلاء ؟

كيف أصبحت هذه الحقيقة تأخذ عليهم الفجاء والمسالك والاتجاهات والآفاق ، بحيث تواجههم حيثما اتجهوا ، وتكون معهم أينما كانوا ، وكيفما كانوا ؟

كنت أدرك طبيعة وجود هذه الحقيقة ، وحضورها في قلوبهم وفي حياتهم ،

ولكني لم أكن أدرك كيف تم هذا ؟

عدت إلى القرآن أقرأه على ضوء موضوعه الأصيل ، وعرفت منهج القرآن في بحلة حقيقة الألوهية ، وتعيد الناس لها وحدها ، بعد معرفتها ، وهنا فقط أدركت كيف تم هذا كله .

أدركت سر الصناعة ، عرفت أين صنع ذلك الجليل المتفرد في تاريخ البشرية

وكيف صنع ، إلهم صناعة قرآنية ، صنعوا في هذا المنهج الرباني على يدي رسول الله ﷺ " الذي غرس في نفوسهم معرفة أن الله هو الأول ، والآخر ، والله هو الظاهر والباطن ، والله هو الخالق والرازق ، والله هو المسيطر والمدير ، والله هو الرافع والخافض ، والله هو المعز والمذل ، والله هو القابض والباسط ، والله هو المحيي والمميت ، والله هو الدافع والضار ، والله هو المنتقم الجبار ، والله هو الغفور الودود ، والله هو العلي الكبير ، والله هو القريب الخيب ، والله هو الذي يحول بين المرء وقبيله ، والله هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ، والله هو العليم بذات الصدور ، وهو معهم أينما كانوا ، وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ، وهو الذي ينزل العيب من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الذي يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ، ويخرج الميت من الحي ، ولا ملجأ من الله إلا إليه ، وما لهم من دونه من وال ، وكلهم آتية يوم القيامة فرداً .

وهكذا ...

وهكذا ...

جعلت هذه الحقيقة نملاً على الناس حياتهم ، وتواضعهم في كل درب ، وسراءى لهم في كل صوب ، وتأخذ على أنفسهم أقطارها ، وتعائشهم ، وتساكنهم بالليل والنهار ، وبالغدو ، والأسحار ، وحين يستغشون ثيابهم ، وحين تهجس سرائرهم ، وحين يستخفون من الناس ، بل حين يستخفون من نفوسهم التي بين جنوبهم <sup>(١)</sup> ، حتى خرجت منهم أناساً يذكرون الله قياماً ، وقعوداً ، وعلى جنوبهم ، ويتيقنون بأن النار الآخرة هي الحياة الصحيحة ، ويعيشون العبادة والعبودية في خواطر النفس ، وهمسات الروح ، وقول اللسان ، وعمل الجوارح .

ولا عجب بعد أن كانوا هكذا فلقد تعلموا في مدرسة النبوة ، وتكونوا بمنهج الله ، وكانوا الجماعة الإسلامية الأولى .

### ثانياً : قيام الدعوة على الاتصال الفردي <sup>(٢)</sup> :

قام الرسول " ﷺ " بتوجيه الدعوة إلى الناس بصورة فردية ، فلقد ثبت أنه " ﷺ " دعا السابقين إلى الإسلام كلا على حدة ، وأحياناً كانت الدعوة تبدأ بسؤال موجه من الصحابي إلى رسول الله " ﷺ " ، وأحياناً آمن البعض اقتناعاً بما كان يسمع ، ويرى وخلاصة " رضي الله عنها " أول من دخلت في الإسلام ، آمنت بالرسالة قبل أن يطلب الرسول " ﷺ " منها أن تؤمن ، لأنها كانت تبشر بالرسالة ، وتنتظرها ،

(١) معلومات التصور الإسلامي ص ١٩٠ ، ١٩١ .

(٢) يسمى علماء الإعلام الاتصال الفردي بالاتصال الشخصي ويذكرون أنه الاتصال المباشر الذي يتم مرارته بين فرد أو بين فرد وجماعة صغيرة بين أعضائها علاقة ما .

وهو يتم عادة بطريقة تلقائية كالنحية والرد عليها ، وإجابة سؤال ، والتحدث حول أمر ما .

ومحيط الاتصال المواجهة ، والاحتكاك المباشر ، ورد الفعل فيه يكون واضحاً .

و يفسر هذا النوع بأنه يتم في اتجاهين بصورة مباشرة مما يؤدي إلى فهم كل طرف الآخر وهذا يساعد على

الفهم ، وسرعة القضاء على المواقف التي تظهر أثناء العملية .

فلما جاء جبريل بالوحي صدقت بما كانت تتوقعه ، وأخذت تعبد الله كما يتعد رسول الله " ﷺ " . فلما تعلم الرسول الوضوء والصلاة وعاد الخديجة . فخصات كوتوبه . وصلت بصلاته ، فلما رآهما علي بن أبي طالب " ﷺ " يصليان سألهما علي : ما هذا ؟

قال له رسول الله " ﷺ " : هذا دين الله الذي اصطفى لنفسه وبعث به رسوله . يدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، وإلى عبادته ، وأن تكفر باللات والعزى . يقال علي : هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم ، فليست بقاض أمراً حتى أحدث به . أي طالب .

فكره رسول الله " ﷺ " أن يفشي عنه سره قبل أن يستعلن أمره ، فقال له : يا علي . لم نسلم فآتكم : فمكث علي تلك الليلة : ثم إن الله أوقع في قلب علي الإسلام ، فأصبح حادياً إلى رسول الله " ﷺ " حين جاءه فقال : ماذا عرضت علي يا محمد ؟ فقال له رسول الله " ﷺ " : نشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك ، ونكفر باللات والعزى . ونبرا من الأنداد ، ففعل علي وأسلم ، ومكث يأتيه على حروف من أبي طالب . وآتكم علي إسلامه ولم يظهره <sup>(١)</sup> .

وكان من علي " ﷺ " يوم أسلم عشر سنوات ، وكان من فضل الله علي علي " ﷺ " في إسلامه أن جعله سبحانه وتعالى حجة رسول الله " ﷺ " قبل الإسلام ، يكفله " ﷺ " ، ويرببه كأنه ابنه .

وأسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله " ﷺ " وصلى بصلاة رسول الله " ﷺ " وأخذ بمشقة القرآن معه .

وفرد الله بأبي بكر خيراً ، فسمع عن دعوة محمد " ﷺ " فجاء إليه مسرعاً يسأله فأناب : أحق ما تقول فريش يا محمد من تركت ألفتاً وتسميهاك عقولنا ، ونكفرك أناباً ؟

فقال رسول الله ﷺ : بلي ، إلى رسول الله ونيبه بعثني لأبذل رسالته ، وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، أدعوك يا أبا بكر إلى الله وحده لا شريك له ، ولا تعبد غيره ، والموالاتة على طاعته ، وقرأ عليه القرآن ، فأسلم ، وكفر بالأصنام ، وخلع الأنداد ، وأقر بخلق الإسلام ، ورجع أبو بكر وهو مؤمن مصدق <sup>(١)</sup> .

وهكذا أسلم أبو بكر ، وعليّ ، وزيد " رضي الله عنهم " وهم أول من دخل في الإسلام بعد خديجة ، والعلماء مختلفون في أسبق الثلاثة إلى الإسلام ، فمنهم من قال : أولهم أبو بكر ، ومنهم من قال : أولهم عليّ ، ومنهم من قال : أولهم زيد بن حارثة .

والأولي بالصحة أن أولهم علي بن أبي طالب ، لقول النبي ﷺ " لقاطمة ، أما ترضين أبي زوجتك أقدم أمي سلماً ، وأكثرهم علماً ، وأعظمهم حليماً " <sup>(٢)</sup> .  
يجمع أبو حنيفة الآراء المذكورة ، ويؤكد صحتها جميعاً ، ويرى أن أول من أسلم من النساء خديجة ، وأول من آمن من العبيد الأرقاء زيد بن حارثة ، وأول من آمن من الصبيان عليّ بن أبي طالب ، وأول من آمن من الرجال الأحرار الكبار أبو بكر " رضي الله عنهم جميعاً " <sup>(٣)</sup> .

ويروي ابن عساكر عن سعد بن أبي وقاص ومحمد بن الحنفية أن أبا بكر لم يكن أول المسلمين إسلاماً ، بل أفضلهم ، وأكثرهم فائدة للدعوة إلى الإسلام <sup>(٤)</sup> .  
وعلي الحملة فإن إسلام هؤلاء السابقين إلى الإسلام تم بالدعوة الفردية ..

### ثالثاً : تخيير المدعوين :

لم يكن التوجه إلى الأفراد يتم مع جميع الأفراد بصورة مطلقة ، وإنما كان " ﷺ " يتخير من يدعوهم ، وهم المتصفون بالهدوء ، وقلة الحديث ،

<sup>(١)</sup> المرجع السابق ج ٦ ص ٤٦ .

<sup>(٢)</sup> لغة الزائد في تحقيق مجمع الزوائد ج ٩ ص ١٢٣ .

<sup>(٣)</sup> البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٩ .

<sup>(٤)</sup> المرجع السابق ج ٣ ص ٣١ .



والسامح . وحب الخير ، لأن هؤلاء الأشخاص إن أسلموا لن يظهروا بإسلامهم ، ولن يظهروا لصناديد مكة : وشيوخها ، ولن يتحدثوا عنه إلا مع أفراد على نخطهم ، وصانهم .. وإذ لم يسلموا ، فالصمت ديدنهم ، ولن يناولوا إيذاء محمد " ﷺ " بالحدائق عنه ، والتكلم فيما دعاهم إليه .. ولذلك نرى المسلمين الأول كانوا من أمثال أبي بكر الصديق ، وعثمان بن عفان ، وعبد الرحمن بن عوف ، أما غير من الخطاب . وخالد بن الوليد ، وعسرو بن العاص فقد تم عرض الإسلام عليهم في مرحلة تالية .

وهكذا بقيت الدعوة منهجرة بين أفراد معينين ، ولم يصل إلى أهل مكة إلا معارف قليلة عن الدعوة لا تحرك فيهم ساكناً ، ولا تثير غضبهم : ولا تهيج مشاعرهم إن هذا التخير والاصطفاء للمدعوين إجراء حكيم قام به النبي " ﷺ " لضمان بداية سليمة وموفقة للدعوة ، حيث كان " ﷺ " يركز على المعرفة الشخصية لتأهيلات " الأفراد من جهة ، ومدى استعدادهم للتجاوب مع الدعوة والانخراط في موكبها من جهة أخرى ، حتى لا يتسرب إليها من ليس في مستواها ، من لا يصلحون لطبيعة قيادية يؤسس عليها صرح الدعوة في هذه المرحلة <sup>(١)</sup> .

#### رابعاً : نجائب ضلالات القوم :

أحد النبي " ﷺ " يدعو ، ويعلم أصحابه العقيدة المطلوبة منهم ، مع تجنب الحديث عن آلهة القوم وضلالهم مع الأصنام ، فلم يذم الآلهة ، ولم ينقد عبدها ، وإنما اكتفى بعرض أركان العقيدة ، وبين مدى أحقيتها في ذاتها ، وأخذ يظهر للناس ما في أنفسهم . وفي الكون من دلالات علي وحدانية الله واستحقاقه وحده للعبادة .

والآيات التي نزلت في هذه المرحلة شاهدة على مدى ابتعاد النبي " ﷺ " عن نقد ضلالات القوم ، والاكتفاء بتربية المسلمين ، وتقوية إيمانهم ، ومن هذه الآيات أوائل سورة المزمل ، وأوائل سورة القلم ، وهما آيات تحدد منهج التربية الإيمانية ،

وبناء عقيدة قوية متصلة بالله تعالى عن طريق قيام الليل ، وقراءة القرآن ، حيث يتحول المسلم بالقرآن ، وقيام الليل على نقطة القلب : وقوة التأمل ، وتربية الإرادة ، وبذلك يتحول العبد إلى طاقة قوية : تستفيد مما في الليل من فوائد ، وتستعد لما في النهار من عمل ، كل ذلك في عبودية ذاكرة ، وقلب مثبت منيب .

وتؤكد الآيات عظمة رسول الله " ﷺ " وهي تتحدث عن كمال عقله وكرم خلقه وعلو شأنه في الدنيا وفي الآخرة ، يقول تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي مَخْلَقَ الْمَاءَ أَنتَ بَيِّنَةٌ لِّدِينِكَ إِنَّا لَبَرِّئُونَ مِنْ آلِ عَادٍ فَاتَّبَعْنَاهُمْ جُنُودًا وَمَا أَمْطَرْنَا مِنْهُمْ بَيْتًا وَلَا مَنَافِعَ لَهُمْ إِنَّا لَنَاصِرُونَ الْبَرَّاءِينَ مِنَ الْيَاسْرِ إِنَّهُمْ لَأَبْغَضُونَ إِلَى الْبَرِّاءِينَ مِنَ الْيَاسْرِ فَاصْلًا إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [١١] .

#### خامسا : دعوة الأقربين الذين يعاشرهم " ﷺ " .

بدأ الرسول " ﷺ " يعرض الإسلام على الناس المختارين ، وكان في خبره من يدعوهم ، بكفني بالأقرب إليه الذي يعاشره ، ويعاشره فدعا علي بن أبي طالب . ويريد من حارثة ، وأخذ بطبق تعاليم النوحى مع هؤلاء الأقربين تاركاً الآخرين لوقت يقدره الله تعالى ... يقول يحيى بن عفيف : جئت من الجاهلية إلى مكة : فزلت علي العباس بن عبد المطلب ، فلما طلعت الشمس ، وحلقت في السماء ، وأنا أنظر إلى الكعبة ، أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ، ثم استقل الكعبة ، فقام مستقبلاً ، فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ، فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما . فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ، فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة . فركع الشاب ساجداً فسجدوا معه .

فقلت يا عباس : أمر عظيم !

فقال العباس : أتدري من هذا ؟

فقلت : لا .

فقال العباس : هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي .

قال : أتدرى من الغلام ؟

قلت : لا .

قال : هذا علي ابن أبي طالب " عليه السلام " .

قال : أتدرى من هذه المرأة التي خلفهما ؟

قلت : لا .

قال : هذه خديجة بن خويلد زوجة ابن أخي ، وقد حدثني محمد أن ربك

رب السماء والأرض ، أمره بهذا الذي تراهم عليه ، وأمر الله ما أعلم على

ظهور الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة <sup>(١)</sup> .

وبقيت الدعوة منحصرة في هذا العدد القليل حتى أسلم أبو بكر " عليه السلام " فظهر

الإسلام ، ودعا أصحابه إليه ملتزماً بأهمية التخير في الدعوة كما نعلم من رسول " عليه السلام " .

### بيان : إسلام الضعفاء فقط : هـ

كان السابقون إلى الإسلام من الضعفاء ، الفقراء الذين لا جاه لهم في مكة ،

ولا سطوة ، وهذا أمر جعل أشرف مكة لا يهتمون بالإسلام أول أمره ، استهانة

بفئة أمتاعه ، وهؤلاءهم بين الناس ، يروى البخاري بسنده عن همام قال : سمعت عمراً

يقول : رأيت رسول الله " عليه السلام " وما معه إلا خمسة أعبد ، وامرأتان ، وأبو بكر <sup>(٢)</sup> .

والعبيد هم : زيد بن حارثة ، وبلال بن رباح ، وعامر بن فهيرة ، وأبو

كعبته مولى صفوان بن أمية ، وعبيد بن زيد الحبشي ، والمرأتان هما : خديجة ، وأم

تميم . نظر أهل مكة إلى هؤلاء الضعفاء ، فاستصغروا شأنهم ، وتصغروهم ظاهرة

عارضة ، لا تلبث أن تنتهي وتزول .

<sup>(١)</sup> البداية ، النهاية ج ٣ ص ٢٥ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري . . كتاب المناقب . . باب فضل أبي بكر ج ٦ ص ٨١ .

وساعدتهم علي هذه النظرة أن العبيد من هؤلاء الضعفاء لم يقصروا في أعمالهم ، ولم يرتكبوا خيانة لسيادتهم ، مع أنهم لم يسلموا .

وقد قضى الله تعالى بأن يكون أتباع الدعوة الأول من الضعفاء الفقراء لتتم الدعوة علي سنة البشر في التطور والتقدم ، وليعلم المسلمون دائماً حاجتهم الملحة للتصبر ، والتحمل ، ومواجهة الطغيان بالعفو ، والتسامح .

إن هؤلاء الضعفاء هم القوة العنصرية في مجتمعهم فمنهم العمال ، والأجراء ، والعبيد ، ولا بد أن يعملوا ليعيشوا فليس معهم المال الذي يدفعهم إلي الترفه ، والكسل ، وتلك خاصية أفادت الدعوة الإسلامية لأهم لما آمنوا بها وضحوا طاقاتهم واستعدادهم في خدمتها ، ولذلك هاحروا بها ، وواصلوا الدعوة إليها ، وتحملوا في سبيلها الكثير ، فقدموا بذلك النماذج الرائدة للمسلمين بعدهم ، ولو كانوا من المترفين المعسرين ما تحملوا أذى ، وما صبروا علي مشقة ، ولعجزوا عن أداء ما كلفوا به . وأحب أن أبين قضية لها أهميتها وهي أن ضعف هؤلاء كانت في الجانب المادي فقط ، أما في الجانب المعنوي فكانوا هم الأقوياء ، وهم العقلاء ، فقد دخلوا في الإسلام مخالفين أسيادهم ، ولم يعأوا بأي أذى يناههم ، وتحملوا ، صابرين ، كل ما أصابهم من ظلم وعدوان ، وحصل أحياناً إلى حد القتل ، والفناء .

### **سابعاً : قصور الدعوة علي أهل مكة ومن يأتيه :**

أكتفي الرسول " ﷺ " بالدعوة خلال هذه المرحلة علي أفراد من الأقربين إليه في مكة ، ولم يخرج عن هذا الإطار في دعوته ، اللهم إلا مع من قصد رسول الله " ﷺ " من خارج مكة وجاء يبحث عن دين الله تعالى .

ولذلك بقيت الدعوة في نطاق محدود ، لم يؤمن بتعاليمها أحد خارج مكة ، ولم يشغل كفار مكة بتتبعها ، ولم يحدث صدام بين المؤمنين وغيرهم .

واستمر الأمر هكذا حتي قويت هذه الجماعة الأولى وأسلم أبو بكر " ﷺ " فأعلن الأمر ، وجاهر به ، بعد إصرار منه علي ذلك .

وكان " ﷺ " حريصاً في هذه المرحلة على عدم إثارة كفار مكة منعا  
لتصادم معهم ، فكان إذا جاءه من يسلم بدعوته ، وهو من غير مكة يأمره بكم  
إسلامه والامتنان لأمر الله ، والعمل به بعيداً عن الناس ، وهذا من الحكمة في الدعوة ،  
لأن كفار مكة لو بدأوا يعملون ضد المسلمين في هذه المرحلة لتمسكوا منهم لقله  
عددهم ، وضعف وجودهم ، وهذا قدر أراد الله للمؤمنين في هذه المرحلة لينصر  
دينهم .

يروى ابن سعد بسنده عن شداد بن عبد الله أن أبا أمامة سأل عمرو بن  
عبسة : يا أي شيء تدعي أنك ربيع الإسلام ؟  
قال : إن كنت في الجاهلية أرى الناس على ضلالة ولا أرى الأوثان بشيء ، ثم سمعت  
عن رجل خبر أخباراً بمكة ، ويحدث بأحاديث ، فركبت راحتي ، حتى قدمت مكة  
وإدا أنا برسول الله " ﷺ " ، مستخفياً ، وإذا قومه عليه جراء .  
فلما كنت حي دخلت عليه فقلت : من أنت ؟  
قال : أنا نبي .

قلت : وما نبي ؟

قال : رسول الله .

قلت : الله أرسلك ؟

قال : نعم .

قلت : بأي شيء ؟

قال : بأن يوحد الله ، ولا يشرك به شيء ، وتكسر الأوثان ، وتوصل الأرحام .

فقلت له : من معك على هذا ؟

قال : حر وعبد ، يقصد أبا بكر ، وبلال بن رباح .

فقلت له : إني متبعك .

قال : إنك لا تستطيع ذلك يومك هذا ، ولكن أرجع إلي أهلكت ، فإذا سمعت بي قد ظهرت فألحق بي .

فرجعت إلي أهلي وخرج النبي ﷺ " مهاجراً إلى المدينة وقد أسلمت ، فجعلت أنحدر الأنهار حتى جاء ركبته من يثرب فقلت : ما فعل هذا الرجل المكي الذي أتاكم ؟ فقالوا : أراد قومه قتله فلم يستطيعوا ذلك : وحيل بينهم وبينه ، وتركت الناس إليه سراحاً ، فركبت راحلتي ، حتى قدمت عليه المدينة .

فدخلت عليه فقلت : يا رسول الله أتعرفني ؟

قال : نعم ، أأنت الذي أتيتني بمكة ؟

فقلت : بلي ، يا رسول الله علمني مما علمك الله وأجهله .

( ثم ذكر الحديث بطوله وفيه تفصيل مواقيت الصلاة والوضوء وغير ذلك ) <sup>(١)</sup> .

وهكذا وجه النبي ﷺ " هذا الصحابي الجليل إلى عدم البقاء في مكة والرجوع إلى قومه ، وملازمة الصمت والسكوت حتى يظهر أمر الإسلام ، وبعدها يتمكن من الحركة ، والجهر ، والدعوة ، في ظلال حفظ الله ، ونصر إخوانه له .

ويبدو أن عمرو بن عبسة " كان من الخفاء ، الذين أظهروا فساد آفة القوم ، وأخذوا في البحث عن الدين الحق ، ولذلك كان توجيهه إلى التخصي أمراً ضرورياً في هذه المرحلة من مراحل الدعوة ، لأن الخفاء تعودوا نقد ما عليه الناس ، واحتقار آهنتهم ، من غير تقديم دعوة جديدة ، تتضمن معالم دين صحيح ، فلو استمر عمرو بن عبسة في المقدم مع إسلامه فإنه يمثل خطورة لأهل مكة تشعل غضبهم في هذه المرحلة التي لا تتحمل هذا .

يُخبر شهر بن حوشب عن عمرو بن عبسة قال : رغبت عن أمة قومي في الجاهلية ، وذلك أنها باطل ، فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء فقلت : إن امرؤ ممن يعبد الحجارة ، فيزل الحي ليس معهم إله .

يخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار ، فينصب ثلاثة لفدرة ، ويجعل أحسنها خلفاً بعبد .

ثم نعله بعد ما هو أحسن منه ، قبل أن يرتحل ، فيتركة ، ويأخذ غيره إذا نزل منزلاً سواه .

فرايت أنه والله باطل ، لا ينفع ، ولا يضر ، فدلني على خير من هذا .

يقال : خرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه ، ويدعو إلى غيرها ، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ، فإنه يأتي بأفضل الدين ، فلم تكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة فاني سألت : هل حدث فيها حدث ؟ فيقال : لا ، ثم قدمت مرة فسألت ، فقالوا : حدث فيها رضى يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها ، فرجعت إلى أهلي . فاستدعت راحلي ، ثم قدمت منزلي الذي كنت أقوله بمكة ، فسألت عنه فوجدته مستخدماً ووجدت قريشاً عليه أشداء ، فتلطفت حتى دخلت عليه فسألته .

فقلت : أي شيء أنت ؟

يقال : نبي .

قلت : ومن أرسلك ؟

قال : الله . قلت : ومن أرسلك ؟

قال : بعاده الله وحده لا شريك له وحقن الدماء ، وبكسر الأوثان ، وصلة الرحم ، وأمان السبيل .

فقلت : نعم ما أرسلت به قد أمنت بك ، وصدقتك ، أتأمرني أمكث معك أو أنصرف ؟ فقال : لا ترى كراهة الناس ما جئت به ؟ فلا تستطيع أن تمكث ، كني في أهلك فإذا سمعت بي قد خرجت فأتبعني <sup>(١)</sup> . . . وساق الحديث السابق بطوله ، وبالتمام متقاربة .

### ثامناً : التخفي في العبادة والتوجيه :

أخذ "عليه السلام" يتخفي عن أعين أهل مكة وهو يوجه أتباعه ، ويطبق معهم تعاليم الإسلام . وقد اختار "عليه السلام" للتخفي أماكن لا تكشف بسهولة ، ومن ذلك الشعاب البعيدة عن بيوت أهل مكة ، وكان "عليه السلام" يخرج إلى الشعاب ، ومعه علي بن أبي طالب ، وزيد بن حارثة لنصلاة فيها بعيداً عن أعين الناس <sup>(١)</sup> .

يقول ابن إسحاق : وذكر بعض أهل العلم أن رسول الله "عليه السلام" كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ، ومن جميع أئمنائه . وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها ، فإذا أمسيا رجعا ، فمكنا كذلك ما شاء الله أن يمكنا <sup>(٢)</sup> . ولما كثر عدد المسلمين كانوا يذهبون إلى الشعاب فرادى ، أو مشي ، محافظة على السرية ، وعدم التقصام .

ومن طرق التخفي إنشاء دار الأرقم بن أبي الأرقم مكاناً يختص فيه المسلمون مع رسول الله "عليه السلام" للتعليم ، والعمل ... وكان اختيار دار الأرقم ملائماً للتخفي والاستتار لعدة أسباب : —

( أ ) تقع دار الأرقم عند الصفا ، وهو مكان يتجه إليه كثير من أبناء مكة ، وتوجه المسلمين إلى هذا المكان أمر عادي لا يثير تساؤلاً ، ولا يوقعهم في شبهة .

( ب ) لم يتوقع أحد من أهل مكة أن يجتمع محمد "عليه السلام" مع أصحابه في دار الأرقم ولا يمكن لهم أن يتصوروا ذلك ، لأن الأرقم من بني مخزوم ، وهي قبيلة تنافس بني هاشم في السلم والحرب ، ولا يتصور أن تنشأ دعوة هاشمية في دار مخزومية .

( ج ) أسلم الأرقم وهو صغير لم يبلغ السادسة عشرة ، وصي في هذا العمر لا يجرؤ أن يجعل بيته مكاناً لتجمع المسلمين ، فلقد جرت عادة القرشيين أن يكون اجتماعهم في بيوت كبار القوم ، وأغنيائهم ، وشيوخهم .

<sup>(١)</sup> امتاع الاسحاق ج ١ ص ١٧ .

<sup>(٢)</sup> سيرة النبي "عليه السلام" ج ١ ص ٢٤٦ .



( د ) إسلام الأرقم نفسه كان سرا على قبيلته ، وعلى غيرهم ، ولا يمكن تصور مجيء  
 بهذا مكانا لاجتماع المسلمين : لأن صاحبه — لم يدخل في الإسلام — في نظرهم .  
**والحكمة في بدء الدعوة بالاستخفاء** عديدة منها : —

- ( ١ ) أثره ، ريثما تتكون ثبات قوية المزج : شديدة التماسك ، في جو بعيد عن  
 آثار المعوقات في طريق سير الدعوة ، لأن هذه الثبات هي القوة الدافعة التي  
 سيعتمد عليها بناء المجتمع الإسلامي الجديد ، في مواجهة قوى الظلم ، واليأس  
 المترتبة كلما الدين ، في صير لا يعرف الوهن ، وجهاد لا يعرف الناس .
- ( ٢ ) ضرورة المسألة في البداية ، لأن مواجهته هذا المجتمع بتفارق في شروبه  
 بمواجهته بضلاله وساف الدعوة لم يشو بعد ، يؤذن بتدمير تلك دوافع المفارقة  
 له ، عودة في نفوس المستكبرين ، والدعوة لا تزال في أول خطواتها ، تستمر في  
 سيرها ، وهي لا تزال وليدة طريقة .

لذلك امر النبي " ﷺ " الاستمرار بدعوته بتوزيع رسالته ، حرصا منه أن يكون سيرها  
 مطردا ، وسادا هادئا ، تسير إلى القلوب الخشعي نابتة ، حينئذ تمكن من الإعلان عن  
 نفسها في الوقت المناسب <sup>(١)</sup> ، بعد أن يؤمن لها عدد من الناس يضحون في سبيلها  
 بالغنى والنفوس ، مما يضمن استمرارها وبقائها .

- ( ٣ ) إتاحة الفرصة للدعوة حتى تصل إلى مسامع العرب في مواسمهم ، ومحافلهم  
 وأمهاتهم ومضارب مزارعهم ، فأدت هذه الخطوة أكلها ، حيث أقبل إلى  
 مكة فريق منهم ، يتحسس أخبارها ، ويعرف مكانها في حنية وحذر . حين  
 بدء بلوغ أمتها في مفرها ( دار الأرقم ) أسلموا لله تعالى ، وانبعوا رسوله " ﷺ " :  
 " واهتدوا هديته ، وأمنوا بما جاء به من الحق " <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> انظر : تاريخ محمد رسول الله " ﷺ " — ج ١ ص ٦٠٥ .

<sup>(٢)</sup> انظر : " تاريخ " — ج ١ ص ١٤٩ .

(٤) المساهمة في تكوين قاعدة إيمانية صلبة ، ومثالية في هدمه ، وأناة لشؤونها في المراحل التالية ، ولتقدم أسوة راقية لمن بعدهم في الخلق والسلوك ، وإداء الواجب .

### تاسعا : حمل المسلمين مسئولية الدعوة : -

قام الرسول " ﷺ " بأمر الدعوة إلى الله تعالى . ونبهه نضر قليل ، فأخذ يعلمهم تعاليم الله التي ينزل بها الوحي .. وأخذ المسلمون يعيشون حياة جديدة ، طيبة ، وتكون منهم أناس ربانيون خرج حظ الشيطان من نفوسهم ، وتابع الرسول " ﷺ " تغلبتهم بالقرآن وتكوينهم بالإيمان حتى صاروا - بحق - عبيداً لله ، لا يريدون في الأرض علواً ، ولا فساداً .. ورأوا أن أعظم العمل هو الدعوة لدين الله ، والعمل به ... ولذلت رأيتنا أبا بكر " ﷺ " لم يكف بإسلامه شخصياً ، وإنما أظهر إسلامه ، ودعا إلى الله ، وإلى رسوله ، فأسلم بدعوته :

عثمان بن عفان .

والزبير بن العوام .

وعبد الرحمن بن عوف .

وسعد بن أبي وقاص .

وطاحنة بن عبيد الله بن عثمان . ... رضوان الله عليهم أجمعين .

فلما أسلم هؤلاء الخمسة ، قدم بهم أبو بكر إلى رسول الله " ﷺ " ، فصاروا معه ، وصدقوا برسالته ، وبلغ عدد المسلمين بهم ثمانية <sup>(١)</sup> وفي اليوم الثاني جاء أبو بكر بغير آخرين أسلموا بدعوته أيضاً وهم : عثمان بن مظعون . وأبو عبيدة بن الجراح . وأبو سلمة بن عبد الأسد ، والأرقم بن أبي الأرقم . ويرجع نجاح أبي بكر في الدعوة إلى عدة أسباب : -

(١) تاريخ الطبري ج ١ ص ٣١٧ .

أما ساطعة الدعوة إلى التوحيد كما هو ظاهر من قول رسول الله " ﷺ " :  
 " لأن بكراً : وأدعوك إلى الله بالحق ، فوالله إنه للحق ، " أدعوك إلى الله وحده لا  
 شريك له ، ولا تعبد غيره ، والمبالاة علي طاعته " (١) . وفي قوله " ﷺ " دلالة  
 على أن الله واحد ، وحقه أن يعبد وحده ، ونبت ما عداه من ألهة وشركاء .  
 وقد صدق أبو بكر بما سمع من رسول الله " ﷺ " ، وأمن به بلا تردد . أو  
 يرجعه . يقول النبي " ﷺ " : ( ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت له عنه  
 كبرة : وتردد ، ونظر ، إلا أبا بكر ما تردد فيه ) (٢) .

ب — اشتهر أبي بكر " رضى الله عنه " في مكة بحسن الخلق ، وسعة الأفق ، وتوخ  
 البساطة ، ودقة الأمانة : يقول ابن كثير : وكان أبو بكر رجلاً متأسلاً ، لقومه ، محباً ،  
 سهلاً ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعظم قريش بما كان فيها من خير وشر ،  
 وكان رجلاً تاجراً ذا خلق ، ومعروف ، وكان رجال قومه يأتونه ، ويألفونه ، لخير  
 واحد من الأمر ، لعلمه ، ونجارته ، وحسن مجالسته ، فجعل يدعو إلى الإسلام من  
 وثق به من قوم من بني بغيض ، وجلس إليه (٣) .

ج — الاقتداء برسول الله " ﷺ " في الاصطفاء ، وتخير من يدعوهم ، كما  
 هو واضح من الصحابة الذين آمنوا بدعوته لهم .

وغلبي مقال أبي بكر " رضى الله عنه " كان سائر الصحابة الذين دخلوا في الإسلام ،  
 فكان الواحد منهم إذا توسم الخير في إنسان دعاه برفق إلى الإسلام فإن استجاب  
 وجهه إلى دار الأرقم ، وإن لا تركه وانصرف عنه ، يروى ابن سعد في الطبقات قصة  
 إسلام عمار بن ياسر ، وصهيب بن سنان ، ومخيمتهما إلى دار الأرقم ، والتفتا تهما عند  
 ثياب ، والخوار الذي دار بينهما ، فيقول : قال عمار بن ياسر : فميت صهيب بن

(١) زاد المعاد لابن كثير ج ٢ ص ١٦٢ .

(٢) السيرة والتهذيب ج ٣ ص ٢٩ .

سنان علي باب دار الأرقم ، ورسول الله ﷺ " فيها ، فقلت له : ما تريد ؟

قال لي : ما تريد أنت ؟

فقلت : أردت أن أدخل علي محمد فأسمع كلامه .

قال : وأنا أريد ذلك .

فدخلنا عليه ، فعرض علينا الإسلام ، ثم مكثنا يوماً علي ذلك حتي أمسينا ، ثم خرجنا ونحن مستخفون <sup>(١)</sup> .

وكان مجيئهما إلى دار الأرقم بتوجيه بعض الصحابة الذين وثقوا من إيمانهم .

**وكان** " ﷺ " **يُحفظهم** الذين أسلموا في جماعات صغيرة ، لتتقى كل جموعة في بيت أحدهم ، يقرأون كلام الله ، ويتعاهدون الإسلام بالفهم ، والتطبيق ، وكان رسول الله ﷺ " يرسل إلي هذه الجموعات أحد الفراء ليحفظهم القرآن الكريم الذي نزل ، يروى ابن سعد أن عمر بن الخطاب لما ذهب إلي أخته مخاضيا وجد عندها حباب بن الأرت ، وكان يختلف إلي فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن مع زوجها <sup>(٢)</sup> .

وإذا كان أحد المسلمين يقرأ ويكتب فإن الرسول ﷺ " يرسل له القرآن مكتوباً ليقرأه علي إخوانه .

وكان المسلمون الأوائل حريصين علي حماية الإسلام ، وحماية رسول الله ﷺ " من ذلك ما فعله نعيم بن عبد الله النخعي : وكان " مستخفياً بإسلامه " فإنه لما رأى عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه شك في أمره وارتكك في مفرقه ، مما دفعه إلي سؤاله فقال : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً ، هذا الصابي الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها ، فأقتله .

<sup>(١)</sup> ابن سعد - الطبقات - ج ٢ ص ٢٢٧ .

<sup>(٢)</sup> صحيح مسلم .

فقال نعم : والله لقد عرفتك نفسك من نفسك يا عمر ، أتري بني عند مناف  
نار كيك تمشي علي الأرض وقد قتلت محمداً، أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ !  
قال : و أي أهل بيتي ؟

قال : حنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب (١) .  
ومن أعمال الصحابة التي بذلوها لحماية رسول الله ﷺ ، مراقبة الغرباء  
القادحين إلى مكة ، ومعرفة مقاصدهم ، ومساعدتهم في الوصول إلى رسول الله ﷺ .  
إن رغبتوا في ذلك في إطار من السرية المطلوبة .. يروى البخاري بسنده أن أبا ذر  
رضي الله عنه قدم مكة ، فأتى المسجد ، فالتبس رسول الله ﷺ ، وكان لا يعرفه ، وكره  
أن يسأل عنه ، حتى أدركه بعض الليل ، فراه علي رضي الله عنه ، فعرف أنه غريب ، فلما  
راه تبعه ، فلم يسأل واحد منهما صاحبه عن شيء حتى أصبح ، ثم قام ، واحتمل فريته  
وزاده إلى المسجد ، وظل ذلك اليوم ، ولا يراه النبي ﷺ ، حتى أمسى ، فعاد إلى  
منزله . فسر به علي رضي الله عنه " فقال : أما آن للرجل أن يعلم منزله ؟

وأقامه ، فذهب به معه ، لا يسأل أي واحد منهما صاحبه عن شيء .  
حتى إذا كان اليوم الثالث ، فعاد علي رضي الله عنه علي مثل ذلك ، فأقام معه ، ثم قال :  
ألا تخدثنني ما الذي أقدمك ؟

قال أبو ذر : إن أعطيتني عهداً وميثاقاً لترشدني فعلت .

ففعلى .

فأخبره .

وقال علي له : إنه حق ، وهو رسول الله ﷺ ، فإذا أصبحت فاتبعني ، فإني إن  
رأيت شيئاً أحاف عليك قمت كأي أريق الماء ، فإن مضيت فاتبعني ، حتى تدخل  
مدخلي . ففعلى ، فأنطلق يقفوه ، حتى دخل علي النبي ﷺ ، ودخل معه ، فسمع

من قوله ، وأسلم مكانه <sup>(١)</sup> .

وبهذا الخذر كان تصرف الصحابة حياً لرسول الله ﷺ " وحافضة عليه " .  
رضي الله عنهم أجمعين .

\* \* \*

<sup>(١)</sup> أخرجه البخاري في الجامع الصحيح . كتاب مناقب الأنبياء — باب إسلامه ، في حديثه ١٨٢١

## المبحث الثالث

### الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية

قام الرسول ﷺ " وأصحابه بدعوة الناس عن طريق الاتصال الشخصي ، والمواجهة المباشرة ، وهذه الوسيلة تحتاج إلى معرفة مسبقة بين الداعي ، والمُدْعَى .  
 يتمكن الداعي من تخير الوقت المناسب ، والحالة المناسبة ، والأسلوب المناسب : كما  
 يتمكن المدعو من السؤال ، والاعتراض ، والرد بحدوء وتعقل .

وعرجعة عدد المسلمين في المرحلة السرية ، ومعرفة طرق إسلامهم تسري  
 اتصال الدعوة بهم مباشرة على نحو ما سبق ذكره .

وأما أسلوب الدعوة فقد قام على عرض الأدلة الدقيقة، المحكمات، على صورة  
 سؤال، أو إجابة، من ذلك ما روي في قصة إسلام عمرو بن عبسة السلمي " ﷺ " .  
 السابق ذكرها ، حيث رأينا أن عمرو كان يبحث عن دين خال من الخرافات ،  
 والكاذب الموجودة في حياة العرب، ولم يرتضى لنفسه أن يتخير حجراً ، ويبعثه إليها ،  
 فلما سمع برسول الله جاءه ، وأخذ في سؤاله حتى تيقن من صدقه ، وأمس به . وكان  
 يقول " ﷺ " : لقد رأيتني وأنا ربيع الإسلام <sup>(١)</sup> .

ويبدو أن النبي ﷺ " لم يفره بكل من أسلموا ، حفاظاً على سلامتهم ،  
 بسلامة إيمانهم ، ولذلك قال : لقد رأيتني وأنا ربيع الإسلام .

وعلى هذا يمكن فهم التضارب الذي ظهر على السنة الصحابة، وهم يعدون السابقين  
 إلى الإسلام، لأن كلأروي حسب علمه، وسط جوا الاستخفاء والسرية المذكور، يعتمد  
 ذلك ما قاله كل من أبي ذر وسعد بن أبي وقاص من أنه ثلث الإسلام <sup>(٢)</sup> .

<sup>(١)</sup> صحيح مسلم .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري .

## المبحث الرابع

### المسلمون خلال المرحلة السرية

استمرت مرحلة الدعوة السرية سنتين وعشرين ، ودخل في الإسلام ستون مسلماً ومسلمة من كافة طبقات وقبائل المجتمع المكي ، حتى أنه لا تلتزم عشرة مكية من شخص أو أكثر أسلموا من بينها .

وقد ورد ذكرهم بالتفصيل في كتب السيرة<sup>(١)</sup> ، وهم : —

#### أولاً : بنو هاشم :

- ١ — علي بن أبي طالب .
- ٢ — جعفر بن أبي طالب .
- ٣ — أم الفضل بنت الحارث .
- ٤ — أسماء بن عميس ( زوج جعفر ) .
- ٥ — خديجة بنت خويلد .
- ٦ — ١٧ — أسماء زوجة عيش .
- ١٨ — ياسر بن عامر ( حليف ) .
- ١٩ — سمية بنت خياط ( زوج ياسر ) .
- ٢٠ — الأرقم بن أبي الأرقم .

#### رابعاً : بنو تميم :

- ٢١ — أبو بكر الصديق .
- ٢٢ — طلحة بن عبيد الله .
- ٢٣ — عامر بن فهيرة ( مولى ) .
- ٢٤ — بلال بن رباح ( مولى ) .
- ٢٥ — ٧ — عثمان بن عفان .
- ٨ — خالد بن سعيد .
- ٩ — أمية بنت خالد ( زوج خالد ) .

#### خامساً : بنو عدي :

- ٢٥ — سعيد بن زيد .
- ٢٦ — فاطمة بن الخطاب .
- ٢٧ — عامر بن أبي ربيعة ( حليف ) .
- ٢٨ — عيم بن عبد الله .
- ٢٩ — ١٠ — حاطب بن عمرو .
- ١١ — عبد الله بن جحش .
- ١٢ — أبو أحمد بن جحش .
- ١٣ — امرأته فاطمة .

#### ثالثاً : بنو مخزوم :

- ١٤ — أبو سنانة بن عبد الأسد .



- ١٥- عياض بن أبي ربيعة .  
 ١٦- عمار بن ياسر ( حليف ) .  
 ١٧- عاصم بن السكير ( حليف ) .

### تاسعاً : بنو أسد :

- ٤٦- الزبير بن العوام .

### عاشراً : بنو عامر :

- ٤٧- أبو عبيدة بن الجراح .  
 ٤٨- سبط بن عمرو .

### حادي عشر : قبائل متفرقة :

- ٤٩- صهيب بن سنان ( رومي ) .  
 ٥٠- مسعود بن ربيعة .  
 ٥١- معمر بن حبيب .  
 ٥٢- زيد بن حارثة .  
 ٥٣- عمرو بن عبسة ( سلمى ) .

- ٥٤- عثمان بن مظعون .

- ٥٥- قدامة بن مظعون .

- ٥٦- عبد الله بن مظعون .

- ٥٧- رملة زوجته .

### ثاني عشر : بنو زهرة :

- ٣٣- سعد بن أبي وقاص .  
 ٣٤- عبد الرحمن بن عوف .  
 ٣٥- عمير بن أبي وقاص .  
 ٣٦- عبد الله بن مسعود ( حليف ) .

- ٣٧- المطلب بن أزرع .

- ٣٨- خطاب بن الأرت ( حليف ) .

### ثالثاً : بنو ستم :

- ٣٩- حنيس بن حذافة .

- ٤٠- حفصة بن عمر ( زوجة ) .

### رابعاً : بنو جهج :

- ٤١- حاملت بن الحارث .

- ٤٢- امرأته فاطمة .

- ٤٣- خطاب بن الحارث .

- ٤٤- امرأته فكيهة .

- ٤٥- السائب بن عثمان .

وهؤلاء السابقون إلى الإسلام نماذج فريدة : عاشوا أخرج فترات البناء الإسلامي ، وواجهوا أصعب المواقف وكانوا بحق أمثلة عالية في الفداء : التضحية ، والإخلاص . والعبودية لله رب العالمين .

لقد جعلوا أنفسهم من مجتمعهم الجاهلي ، وكونوا جماعة الدعوة الأولى : التي تميزت  
بخصائصها وصفاتها ، إذ كان إيمانها يعني الخلوص التام من كل شرك ، والإنزمام المطلق  
لأمر الله تعالى ، فلا مهادنة في عقيدة ، ولا ضعف في القيام بإيجاب مع تحمل أى  
ضغط ، والتصر على أى أذى ، وكان دخول أحدهم في الإسلام يعني البراءة الشافقة  
من الشرك وأهله ، والبعد عن موالاة غير المؤمنين ولو كان من أقرب الناس إليه .

وكان المسلم يحب أخاه المسلم ، لا يحبه إلا الله ، ويلتزم بكل لوازم هذه المحبة  
من النصرة ، والتضيحة ، والمودة ، وحسن الأخلاق .

إن الإيمان كان يعني عند هؤلاء هجرًا كلياً عن كافة صور الجاهلية ، وانتقال  
المؤمن إلى منهج الإسلام بكامله وتامه ، وذلك هو الإيمان في الحقيقة .

وقد قام هؤلاء المسلمون بواجبهم إزاء الدعوة إلى الله تعالى ، إذ حملوا الإسلام إلى  
زوجاتهم ، وأبنائهم ، وأهاليهم ، وإلى كل من يعاشرونهم ، وله معهم ثقة ، وهم به معرفة ،  
وبواسطة هؤلاء الصحابة دخل الإسلام بيوتهم ، وأسلم عدد من الزوجات والأبناء .  
وساعد هؤلاء الصحابة في تبليغ الإسلام حسن الاتباع ، وسلامة التطبيق ،  
والتخلق بأخلاق الإسلام ، لأن ذلك يعد في ذاته دعوة عملية .

وساعدتهم كذلك أنهم تيقنوا أن الإيمان يعني العلم والعمل معاً ، فلم يقصروا  
في تعلم ، ولم يتهاونوا في تطبيق : وكان إيمانهم قائماً على اليقين التام ، والاقناع  
الصادق ، فلما تعرضوا للابتلاء لم يتأثروا ، ولم يضعفوا .

لقد كانوا قوة انتصروا لدينهم وارتفعوا به إلى مصاف العلا فكانوا الحق خير  
أمة أخرجت للناس ، واستحقوا أن يضعهم الرسول ﷺ " فوق الصحابة أجمعين ،  
وعندما اختلف أحدهم وهو عبد الرحمن بن عوف مع خالد بن الوليد بعد إسلامه  
قال الرسول ﷺ : " يا خالد ، دع عنك أصحابي ، فوالله لو كان لك أحد ذهباً  
ثم أنفقت في سبيل الله ما أدركت غداة رجل من أصحابي أو زوجته " (١) .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج ٤ ص ٧٤ .

ببإلزام من أن خالد من أصحاب رسول الله ﷺ ، وبالإلزام من أنه من  
 الذين أسلموا ، وأنفقوا قبل الفتح : بإلزام من ذلك كله ، فيلحق قيل أنه هذا القول  
 حين اختلف مع عبيد الرحمن بن عوف " ، أحد أفراد الطليعة السابقة ، والنواة  
 الأصلية التي قام البناء الإسلامي على اكتشافها ، ولا ننسى أبداً أن من هؤلاء بين السوءة  
 حسنة " رضي الله عنها " إحدى الكاملات في الدنيا ، وأسماء بنت عميس . وأم  
 الفضل بنت الحارث وغيرهن اللاتي كن النموذج الأعلى للنساء في التاريخ .

\* \* \*

## المبحث الخامس

### المرحلة الأولى للجهر بالدعوة

( جهر رسول الله " ﷺ " )

لم تبق الدعوة سرّاً مجهولاً علي أهل مكة، فلقد علموا كثيراً عن محمد " ﷺ " ودعوته لدين جديد ، ولم يتحركوا لذلك ، ولم يكثرثوا به ، لأن معلوماهم عن الإسلام كانت عامة ، وسيطة ، جعلت الدعوة في نظرهم أقل خطورة على معتقداتهم من الخنفاء الذين يجاهرون بظلال عبادة الأصنام ، والأوثان .

ومما يدل على علمهم بالدعوة أن أحد تجار مكة جاء إلى أبي طالب فرأى محمداً " ﷺ " يصلي ، وخلفه علي ، وخديجة ، وعلم أنهم بذلك يعبدون الله الذي يدعو إليه محمد " ﷺ " .

وسبق ذكر علم أبي طالب بإيمان علي بالإسلام ، ودعوة رسول الله " ﷺ " له ليسلم ، ومع إتساع موجه المعرفة بدعوة محمد " ﷺ " بقي أهل مكة علي إهمالهم شأن محمد ومن معه فسكنوا عن دعوته ، ولم يتصوروا خطورة علي أديانهم ، وأوضاعهم .

وكان صمت أهل مكة عن المسلمين في هذه الفترة فضلاً عن الله ، حيث تكونت النواة الصلبة التي يقوم عليها البناء ، وشأ جيل القصة الذي قبل استنولية الإسلام مع رسول الله " ﷺ " وبعده ، ويكفي أن نعرف أن تسعة من هؤلاء هم المبشرون بالجنة ، وعاشرهم هو عمر بن الخطاب " رضيه " ، وأن الرسول " ﷺ " اتخذ منهم أهل الشوري الستة ، ومات " ﷺ " وهو عنهم راض .

بعد هذا بدأت مراحل الجهر بالدعوة التي تعددت تبعاً لإعتبارات مختلفة . وقد رأيت بعض العلماء يعدها ثلاثاً باعتبار نوعية المدعوين . وهناك الجهر للأقربين ، وهناك جهر لأهل مكة ، وهناك جهر ثالث للناس أجمعين <sup>(١)</sup> . لكن هذا

التقسيم لم يلاحظ تدخل حضور الجهر بالدعوة لأن الرسول " ﷺ " وهو الجهر بالدعوة كان يدعو أقرباءه الأديين وأهل مكة ، وكلهم أقرانه ... وأيضاً كان يدعو من يأتي مكة من خارجها .. كلما أن الرسول " ﷺ " أعلن من أول الدعوة أنها للناس أجمعين .

وهناك من يقسم المرحلة الجهرية إلى مرحلتين باعتبار الشخص الذي جهر بالدعوة : ويرى هؤلاء أن الرسول " ﷺ " هو الذي جهر بالدعوة للناس في المرحلة الأولى .. وأن عمر بن الخطاب " رض " وحزرة بن عبد المطلب " رض " هما اللذان جهرا بالدعوة بعد المرحلة الأولى عامين <sup>(١)</sup> ، وكان جهرهما بداية المرحلة الجهرية الثانية .  
وأرى أن هذا التقسيم أكثر شمولاً من التقسيم الأول ، ولذلك سأتناول المرحلة الأولى هنا على أساس هذا التقسيم .

ويلاحظ هنا أن مراحل الدعوة تقسم منهجي لتسهيل المعرفة بالسيرة النبوية لأن المراحل كانت تتداخل أحياناً ، ففي المرحلة السرية جهر أبو بكر بالدعوة ، ومع حي الرسول " ﷺ " كان الصحابة يباشرون الدعوة أيضاً .

وبعد المرحلة الجهرية الأولى وسطاً بين المرحلة السرية ، ومرحلة الجهر العام . لأن المرحلة الجهرية الأولى قام بالجهر خلالها رسول الله " ﷺ " مع المحافظة على سرية أمره في الجميع ، والحركة نفسها تقسمين ، الأمر الذي يجعل هذه المرحلة انتقالاً من طبيعة المرحلة السرية إلى طبيعة الجهر العام .

هناك مرحلة جهر الرسول " ﷺ " بالدعوة بتزول قوله تعالى : ﴿ قَاصِدَعِ بِمَا تُؤْمَرُ وَالْمَرْضَىٰ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ <sup>(٢)</sup> إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ <sup>(٣)</sup> ﴿ وقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ غَشِيْتَنكَ الْأَفْرِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> وَأَخْفَضَ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ <sup>(٥)</sup> ﴿ <sup>(٦)</sup> .

<sup>(١)</sup> انظر : السيرة النبوية ، الجزء ١ ، ص ٣٧ ، ٧٨ .

<sup>(٢)</sup> سورة التيسر : ٢١٤ ، ٢١٥ .

<sup>(٣)</sup> سورة التيسر : ٢١٤ ، ٢١٥ .

والآيات تأمر رسول الله ﷺ بالجهر بالدعوة ، وترك المشركين في غيبتهم ، وعدم إثارتهم ، مع التركيز على دعوة الأقرين ، وتقوية العلاقة الطيبة مع المؤمنين ، وكانت هذه المرحلة جهرية لرسول الله ﷺ فقط ، حيث أمره الله تعالى بالجهر ، أما أصحاب النبي ﷺ المؤمنين فقد ظلوا على صمتهم ، واستخفائهم ، لأن الأمر بالجهر جاء مقترناً بالدعوة إلى الصبر ، والتحمل ، ونخب المشركين ، والبعد عن كل ما يؤدي إلى التصادم معهم .

ولأن حركة الصحابة كانت سرية بقي مكان تجمعهم في دار الأرقم سراً لا يعلمه كفار مكة إلا يوم أسلم عمر بن الخطاب ، وكانوا يخفون من أسلم حفاظاً عليهم ، ولذلك استمروا يؤدون مناسكهم ، وصلواتهم في الشعاب . ولم يتجمعوا عند الكعبة إلا بعد إسلام عمر .

رغب المسلمون مرة في إسماع القرآن الكريم أهل مكة عسا هم يتأثرون ببلاغته ، ومعانيه ، فاجتمعوا لتدبير هذا الأمر ، فقالوا : والله ما سمعت قريش هذا القرآن يجهر لنا به قط ، فمس رجل يسمعهموه ؟ .

فقال عبد الله بن مسعود : أنا .

قالوا : إنا نخشاهم عليك ، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم إن أرادوه . قال : دعوني فإن الله سيمعني . ، فغدا ابن مسعود حتى أتني المقام في الضحى ، وقريش في أنديتها ، ثم قرأ : ﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ . رافعاً بها

صوته ﴿ الرَّحْمَنُ ﴾ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴿ ﴾

فتأمنوه فجعلوا يقولون : ماذا قال ابن أم عيد ؟

ثم قالوا : إنه لينلوا بعض ما جاء به محمد ، فقاموا إليه ، فجعلوا يضررونه في وجهه ، وجعل يقرأ حتى بلغ منها ما شاء الله أن يبلغ .

ثم انصرف إلى أصحابه وقد آثروا في وجهه ، فقالوا له : هذا الذي خشينا عليك ،

يقال : ما كان أعداء الله أهون على منهم الآن ، ولئن شئت لأغادينهم بمثلها عدداً .  
قالوا : لا ، ، حسبك ، قد أسمعهم ما يكرهون <sup>(١)</sup> .

إن استضعاف المشركين لمن أسلم ، وإيذاء من يظهر منهم كان سبباً في التدرج بالجهل بالدعوة ، ولذلك اتخذ الجهر مرحلتين .

إن موضوع الدعوة متعدد بدقة منذ اللحظة الأولى ، وهو الدعوة إلى وحدانية الله ، وقصر العبادة له سبحانه وتعالى ، وكل ما جد في شأن الدعوة كان مع الوسائل ، والأساليب ، ولذا سأتناول في هذا المبحث الملامح التالية : —

### أولاً : ظهور الجماعة المؤمنة : —

ظهرت الجماعة الإسلامية الأولى في مكة ، وخرجت للعلن بعد أن جهر الرسول ﷺ بالدعوة ، وصارت تمثل كياناً له دينه ومرجعيته ، وخطبه ، وذاتيته .  
إن العقيدة التي صدق بها هؤلاء السابقون إلى الإسلام ، هي الدين الذي آمنوا به ، وهي القاعدة التي طهرتهم ، وصهرتهم نظرياً وعملياً : وجعلتهم يكونون المندمج الإيماني على قاعدة نظرية معرفية تحتم العمل والتطبيق .

إن التوحيد هو الحقيقة الكبرى في الكون ، فالخالق تعالى واحد ، والكون بسننه ، وبوأميسه واحد ، والإنسان في جوهره ، وغايته ، ووجوده واحد ، والكون بكامله ينحى إلى الله عز وجل اتجاهاً واحداً بالعبادة والطاعة : ﴿ وَلِلَّهِ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا ﴾ <sup>(٢)</sup> ، وينبغي للإنسان أن ينحى إلى نفس العادة والمهدف ، وإلا حصل التصادم والتمزق والضياخ في مسيرة الحياة .

ولذلك نص القرآن المكي على قاعدة الوجود الكوري ، وغاية الوجود

الإنساني في قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ <sup>(٣)</sup> حيث

<sup>(١)</sup> السيرة النبوية لأبي هاشم ج ١ ص ٣١٥ .

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران آية ( ٨٣ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة النازعات آية ( ٥٦ ) .

ترسم الآية الإطار العام للعقيدة، والدائرة الشاملة للحياة البشرية ، وجعل كل الأعمال الظاهرة ، والباطنة عبادة لله تعالى .

و لم يكن صدقة أن يبدأ رسول الله " ﷺ " بتربية المجموعة الأولى على تجريد التوحيد ، فرسح في قلوبهم المعرفة الحققة بالله تعالى التي تقتضي الاستسلام التام له ، والطاعة المطلقة له ، وعدم التقدم بين يديه ، والرضا والتسليم بفضائه وقدره <sup>(١)</sup> .  
ومرجعية هذه الجماعة هي الوحي الإلهي . والرسول " ﷺ " بينهم ، يعلمهم ، ويبين لهم طرق العمل به ، والهداية بمنهجهم ..

وقد تعلمت هذه الجماعة من القرآن الكريم الذي نزل عليهم أن هناك شيئاً أرادها الله تعالى لمسيرة الحياة والأحياء ، لابد من تعلّمها ، والتعامل معها ... ومن أهمها :-

### أ. الإبتلاء والتحصين :

إبتلاء المؤمنين بالأذى والاضطهاد سنة إلهية في الناس ، ليظهر الصليب والخيث ، ولذلك قال ورقة بن نوفل للنبي " ﷺ " : ( ما جاء رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودي ) <sup>(٢)</sup> ، ويقول الله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ <sup>(٣)</sup> .  
﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ <sup>١</sup> فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ <sup>(٤)</sup> .

وعلي هؤلاء المسلمين : ومن يأتي بعدهم ضرورة تحمل الإبتلاء ، والصبر علي الأذى تمييزاً لهم ، وإظهاراً لصلاتهم ، يقول الله تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ

<sup>(١)</sup> منهج النبي " ﷺ " ص ٣٢ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري - كتاب بدء الوحي ج ١ ص ٣ .

<sup>(٣)</sup> سورة العنكبوت الآيات ( ١ - ٣ ) .



الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴿١٦﴾ ، ليس دور الاسلام في اظهار صلاحية الرجال ، و بروز مزايا المؤمنين الصادق ، ويقول سبحانه : ﴿ وَلِيَتَّبِعِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ ﴿١٧﴾ .  
 انه ابتلاء يبرز الإيمان ، و يمحص الصادقين .

### ب . التفسير يبدأ من الباطن :

الإنسان عقل وجسد ، و باطن وظاهر ، و تعاليم الإسلام شاملة لهما .  
 الإنسان جمعاً ، و لذلك نرى الدعوة قد بدأت بالجزء الخاف في الإنسان وهو الباطن .  
 أسس التعبير ، يقول الله تعالى : ﴿ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ ۗ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾ ﴿١٨﴾ ، وإذا تغير الباطن تغير الظاهر ، و دائماً تأتي النتائج تبعاً لأسبابها .

### ج . أهمية الإعداد للنجاح :

يعتمد النجاح في أي مجال على مقدمات لا بد منها : و من هذه المقدمات الاستعداد للعمل ، و إعداد العدة المكافئة له حتى لا يضيع المسلم في بيداء الحياة .  
 و صيغتها ، و هذا الإعداد منوع تبعاً للعمل المطلوب ، و الغاية المقصودة . و لذلك يقول الله تعالى : ﴿ وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا أَشْتَبَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْغَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ ۗ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَغْلِبُونَ ﴾ ﴿١٩﴾ .

<sup>١٦</sup> سورة آل عمران آية ( ١٧٩ ) .

<sup>١٧</sup> سورة آل عمران آية ( ١٥٤ ) .

<sup>١٨</sup> سورة آل عمران آية ( ١٦ ) .

<sup>١٩</sup> سورة الأنفال آية ( ٦٠ ) .

إن سنة النصر لا تختلف متى استوفيت الشروط والإعداد ، وأهمها الاستعداد على منهج الله بطاعة أمره ، واتباع رسوله " ﷺ " ، قال تعالى : ﴿ إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ ۖ ﴾<sup>(١)</sup> وقال — جل ذكره ، : ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٠﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٠١﴾ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾<sup>(٢)</sup> .

وجاءت عوامل النصر حلية واضحة في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾<sup>(٣)</sup> وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَزَوَّعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِجَاكُمْ وَأَصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾<sup>(٤)</sup> .

ولكن إذا تخلفت هذه الأسباب تخلف النصر بطبيعته الحال ، وربما حلت الهزيمة ، لأن سنن الله تعالى لا تخابي ، ولا تحامل أحداً من الخلق ، ولا تخاري أهواء البشر ، وإنما تساير أعمالهم ، وإن الذين يرثون الكتاب ورثة بالاسم ، وشهادة الميلاد ، ولا يرجعون ما فيه من الأوامر والنواهي عملاً سلوكياً ثم يقولون : سيعمر لنا ! لا يستجيب الله عز وجل لهم ، حتى يعودوا إلى العمل بما أمرهم الله به في كتابه المنزل<sup>(٥)</sup>

### ثانياً ـ مواجهة الرسول قومه بالدعوة :

بعد أن أمر الله تعالى رسوله " ﷺ " بالجهار بالدعوة ، وأن يذر عشيرته القريظة منه ، على أن يبدأ بالأقرب إليه ، أخذ " ﷺ " يعد للأمر عدته ، ورأى أن أفضل وسيلة لذلك هي المواجهة المباشرة سواء بصورة فردية ، أو جماعية ، أو عامة . يروي ابن الأثير أن رسول الله " ﷺ " قال لعلي : يا علي إن الله أمرني أن أترك عشيرتي الأقربين ، فضقت ذرعاً ، وعلمت أني متى أبادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره<sup>(٦)</sup>

<sup>(١)</sup> سورة محمد آية ( ٧ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة انفصاف الآيات ( ١٧١ - ١٧٣ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة الأنفال آية ( ٤٥ ، ٤٦ ) .

<sup>(٤)</sup> حول التفسير الإسلامي للتاريخ ص ١٠٢ .

<sup>(٥)</sup> الكامل ج ٢ ص ٦١ .

رأى مرضاً ﷺ وجاءته عماته يعدنه، قال لمن: ما اشتكيت شيئاً، ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين .

فقلن له : فادعهم ولا تدع أباً لهب فيهم، فإنه غير محببك .

فأراه ﷺ " يخبر علياً وعماته بدعوته بصورة فردية ..

مرة يجمع أعمامه . ونقرأ من بني المطلب بن عبد مناف ، حيث دعاهم إلى طعام ، وبلغهم بدعوة الله تعالى مرتين لأنه لم يتمكن من الحديث في المرة الأولى بسبب معانعة أبي لخب له : ودعاهم في المرة الثانية .

جاء في الكامل لابن الأثير أنه لما أنزل الله علي رسوله : ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ استند ذلك عليه ﷺ " وضاق به ذرعاً ، فجلس في بيته كالمریقي ، فأنه عماته يعدنه، فقال : ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين . فقلن له : فادعهم ولا تدع أباً لخب فيهم فإنه غير محببك ، فدعاهم ﷺ " .

فحضرُوا ومعههم نفر من بني المطلب بن عبد مناف ، فكانوا خمسة وأربعين رجلاً . فبادره بنو لخب وقال : هؤلاء هم عمومك، وبنو عمك، فتكلم ودع الصباة ، وأعلم أنه ليس لقومك في العرب قاطبة طاقة ، وأن أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك ، وإن أقمتم على ما أنت عليه فهو أسير عليهم من أن يثب لك بطون قريش، وتذهب العرب ، فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به .

فصكت رسول الله ﷺ " ولم يتكلم في ذلك المجلس .

ثم دعاهم ثانية وقال : الحمد لله ، أحمدوه وأستعينه وأؤمن به وأتوكل عليه وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذي لا إله إلا هو إن رسول الله إليكم خاصة، وإلى الناس عامة ، والله لتموتن كما تنامون ، ولتعشن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنا الجنة أبداً ، أو النار أبداً .

فقال أبو طالب : ما أحب إلينا معاونتك، وأقبلنا لنصيحتك، وأشد تصديقنا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون ، وإنا أنا أحدهم ، غير أبي أسرعهم إلى ما نحب ، فامض

لما أمرت به، فو الله لا أزال أحوطك وأمنعك، غير أن نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب .

فقال أبو لهب : هذه والله السوأة ! خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم .  
فقال أبو طالب : والله لئمنعنه ما بقينا <sup>(١)</sup> .

فكانت له أخته صفينة — عمه رسول الله — " ﷺ " رضي الله تعالى عنها :  
أى أخى : أحسن بك خذلان ابن أخيك ، فو الله ما زال الناس يخبرون أنه يخرج من بني عبد المطلب نبي ، فهو هو .

قال أبو لهب : هذا والله الباطل، والأمان وكلام النساء في الحجال، إذا قامت بطون قريش، وقامت معها العرب، فما قوتنا بهم، فو الله ما نمن عندهم إلا أكله رأس .  
فقال أبو طالب : والله لئمنعنه ما بقينا <sup>(٢)</sup> .

وهكذا دعا النبي " ﷺ " عشيرته الأقربين في جو أسرى حالي، قائم على البردة، وروح القرابة... ودار نقاش في إطار هذا التجمع .  
كسا وجههم دعوة عامة بأن نادى عليهم جميعاً من فوق الصفا، فلما تحمضوا دعاهم إلى الله تعالى .

يروى المؤرخون أنه " ﷺ " لما نزل عليه قوله ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ <sup>(٣)</sup>  
صعد النبي " ﷺ " على الصفا، فجعل ينادى : يا بني فهر، يا بني عدى.. لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو ؟  
فجاء أبو لهب وفريش فقال : أرايتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقي ؟ .

فألوا : نعم ما جربنا عليك إلا صدقاً .

قال : أئني نذير لكم بين يدي عذاب شديد .

<sup>(١)</sup> الكلام لابن الأثير ج ٢ ص ٦٦ .

<sup>(٢)</sup> المدحمة الإسلامية و عصبها المكي ص ٢٤٠ .

فقال أبو بکر : تباً لک سائر الیوم أُلْهِدَا جَمْعًا ؟ ، فترجل فوله تعالی : ﴿ تَبَّتْ یَدَا أُمِّی  
لَهَبٍ وَتَبَّ ۚ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا کَسَبَ ۚ ۝۱۱ ﴾ (١) .

کما أن عدداً من أصحاب النبی " ﷺ " من الله علیه بالإسلام ، وهذاه إلى الحق یاخذی طرق الهدایة : فمنهم من أسلم بعدما رأى من رسول الله " ﷺ " معجزة بمرته ، أو موقفاً حركه ، أو دعوة من الرسول " ﷺ " استجیبت ، کما حدث مع عبد الله بن مسعود ، وخالد بن سعید بن العاص ، وعمر بن الخطاب ، وأم آی بکر " رضی الله عنهم " .

یفول عبد الله بن مسعود : كنت غلاماً یافعاً ، أرعني غنماً لعقبة بن أبی معیط نكته ، فأتی علی رسول الله " ﷺ " ، وأبو بکر " رضی الله عنهما " وقد فرأ من المشركین ، فقالا : أعندک یا غلام لبن تسقینا ؟

قلت : إلی مؤمن ، ولست بساقیکما .

فقال رسول الله " ﷺ " : هل عندک من جعدة لم ینر علیهما الفحل بعد ؟  
قلت : نعم ! فأتیتهما بها ، فاعتقلها أبو بکر ، وأخذ رسول الله " ﷺ " الصرع ، ودعا فحتم الصرع ، وأتاه أبو بکر بصخرة متقعة ، فحلب فیها ، ثم شرب هو ، وأبو بکر ، ثم سقیابی ، ثم قال للصرع أفلص فقلص .

فلما کان بعد أتیت رسول الله " ﷺ " فقلت علمنی من هذا القول الطیب — بعی القرآن الکریم — .

فقال له " ﷺ " : إنک غلام معلم ، یقول ابن مسعود " فأخذت من فیہ سبعین سورة ما ینار عینی فیها أحد " (٢) .

(١) سورة الشد ایة ( ٢ ، ١ ) .

(٢) صحیح البخاری ج ١ ص ١١٨ — ١٢٠ .

(٣) البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

وأما خالد بن سعيد بن العاص فلقد رأى في المنام أنه وقف به على شفير النار فذكر من سمعها ما الله أعلم ، ويرى في النوم كأن اتأتاه ، يدفعه فيها ، ويرى رسول الله ﷺ " اخذاً بمقويده ، لا يقع ، ففرغ من نومه ، فقال أحلف بالله أن هذه لرؤيا حق ، فلقى أبا بكر بن أبي قحافة فذكر ذلك له ، فقال أريد بك خير ، هذا رسول الله ﷺ " فاتبعه ، فإنت مستبعم وتدخل معه في الإسلام . والإسلام يحضرك أن تدخل فيها ، وأبوك واقع فيها فلقى رسول الله ﷺ " وهو بأحياد ، فاستأثر يا رسول الله ، يا محمد إني ما تدعو ؟

قال : أدعوك إلى الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، وانطع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ، ولا يبصر ، ولا ينفع ، ولا يدرى من عبده ممن لا عبده .

قال خالد : فإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فسر رسول الله ﷺ " بإسلامه ، وتغيب خالد وعلم أنه بإسلامه ، فأرسل في طلبه فأثر به ، فأنه وضربه بمقرعة في يده حتى كسرها على رأسه . وقال : والله لأمنعنك القوت . فقال خالد : إن منعني فإن الله يرزقني ما أعيش به ، وانصرف إلى رسول الله ﷺ " فكان يكرمه ويكون معه <sup>(١)</sup> .

وهكذا تكاثر المسلمون ، وأخذ عددهم يزداد يوماً بعد يوم لدرجة أن أبا بكر الصديق " أخذ يلح على رسول الله ﷺ " بإظهار الإسلام ، ونوسيع دائرة التحرك به ، وإعداد المؤمنين لتحمل ما يمسهم من الضرر والأذى .

ورؤية أبي بكر في الجاهلية والتواجعة لها ما يبررها ، فلقد أحس من كثرة فريش قلقاً من زيادة عدد المسلمين دفعهم لتشديد الأذى ، والتعنت مع كل من يسلم ، ومن المعلوم أن الطغاة يضاعفون عدوانهم كلما رأوا من حصومهم خنوعاً

<sup>(١)</sup> البداية والنهاية ج ٣ ص ٣٢ .

واستسلامها ، فأراد أبو بكر رضي الله عنه " أن يبرز لهم من نفسه قوة ، فسمعهم من العذوات  
وخرجهم من أدنى المسلمين .

وفي هذه الحالات تبرز أهمية المواجهة لأنها تعد من غلواء المعتدي ، وتظهر  
رجالاً ، يحسسون للحق ، ويدخلون في الإسلام فينتصر الإسلام بهم .

وقد أراد الله تعالى إظهار الإسلام كظلم أبي بكر رضي الله عنه " ، الأمر الذي أدى  
إلى إتياننا إلى إنتصار المسلمين ، وعزى الكافرين .

إن المسلمين الأول لم يكونوا على مستوى واحد من المواجهة ، فمنهم من  
كان اسمه قبيلته ، ومنهم المميز بالجرأة ، والصلابة ، وقوة الشكيلة ، والقدرة على  
المواجهة ... ولذلك أوحى أبو بكر رضي الله عنه " على رسول الله صلى الله عليه وسلم " في الظهور ،  
بقوله رسول الله صلى الله عليه وسلم " : يا أبا بكر إنا قليل .

فلم يزل أبو بكر يلح على رسول الله صلى الله عليه وسلم " ، حتى أدركه صلى الله عليه وسلم " ،  
فأظهره "عنه" وحده ، وتفرق المسلمون في نواحي المسجد كل رجل في عشرته .  
وقام أبو بكر في الناس خطيباً ورسول الله صلى الله عليه وسلم " حالك فكان أول خطيب  
دعا إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم " .

وإن المشركون على أبي بكر ، وعلى المسلمين ، فاضربوا من وحشاه في  
المسجد ضرباً شديداً ، ووطئ أبو بكر ، وضرب ضرباً شديداً ، ودنا منه الناس عتة  
لرابعة فجعل يضربه بعنق مخصوفتين . وعرفهما لوجهه ، وبرز على مظهر إلى  
عنه حين ما بعرف وجهه من أنفه ، وجاء بنو تميم يتعادون ، فأحلت المشركين عن  
أبي بكر ، وأحلت بنو تميم أبا بكر في ثوب ، حتى أدخلوه منزله ، ولا يشكون في  
موته .

ثم رجعت بنو تميم فدخلوا المسجد وقالوا : والله لئن مات أبو بكر لبقنا عتة  
إن أبيضنا ، فرجعوا إلى أبي بكر ، فجعل أبو قسافة وبنو تميم يكلمون أبا بكر حتى  
أصاب . فمكلم آخر النهار فقال : ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم " ؟

فمسوا منه بالنسبهم وعذلوهم ، ثم قاموا وقالوا لأمه أم الخير : أنظري أن نطعميه شيئاً ، أو تسقيه إياه . فلما حلت به آلت عليه وجعل يقول : ما فعل رسول الله ﷺ ؟ فقالت : والله مالي علم بصاحبك .

فقال : اذهبي إلي أم جميل بنت الخطاب فاسأليها عنه ، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت : يا أبا بكر يسألك عن محمد بن عبد الله ؟

فأنت : ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله وإن كنت تخين أن أذهب معك إلي ابنتك ! ! .

قالت : نعم ، فمضت معها حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً ، فلدت أم جميل وأعلنت بالصياح ، وقالت : والله إن قوماً بالوا هذا منك لأهل فسق ، كفر ، وإن لأرجو أن ينتقم الله لك منهم .

قال : فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالت : هذه أمك تسمع .

قال : فلا شيء عليك منها .

قالت : سالم صالح .

قال : أين هو ؟

قالت : في دار ابن الأرقم .

قال : فإن لله على أن لا أذوق طعاماً ولا أشرب شراباً حتى أرى رسول الله ﷺ ،

فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجل : وسكن الناس ، خرجنا به يتكئ عليهما ، حتى

أدخلناه على رسول الله ﷺ ، فأكب عليه رسول الله ﷺ " فقبله ، وأكب عليه

المسلمون ، ورف له رسول الله ﷺ " رقة شديدة ، فقال أبو بكر بأبي وأمي يا

رسول الله ، ليس لي بأس إلا ما نال الفاسق من وجهي ، وهذه أمي مرة بولدها ،

وأنت مبارك فادعها إلي الله ، وادع الله لها عسى الله أن يستقذها بك من النار ، فدعا



يا رسول الله ﷺ " ودعاهما إلى الله فأسلمت ، وأقاموا مع رسول الله ﷺ " في  
 شهر شهرته .

وأراد الله للمسلمين قوة ، فجعل من اشتداد أذى قريش للمسلمين سبباً في  
 إسلام حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب " ، وهما من فتيان مكة ، اللذين  
 انتسبوا بالجماعة ، والناس ، وكان القرشيون يهابانها لفرسها .

يسوف ابن إسحاق قصة إسلام حمزة فيقول : أن أبا جهل مر برسول الله ﷺ  
 عند الصفا ، فأذاه وشتمه ، ونال منه بعض ما يكره من العيب لديه ،  
 والصغير لأمره ، فلم يكلمه رسول الله ﷺ " ، ومولاة لعبد الله بن جدعان بن  
 مسكين لما سمع ذلك ، ثم انصرف عنه فعمد إلى ناد من قريش عند الكعبة ، فجالس  
 معهم ، فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب " أن أقبل متوشحاً قوسه ، راجعاً من  
 فتن له ، وكان صاحب فنص يرميه ويخرج له ، وكان إذا رجع من قنصه لم يسل  
 إلى أهله حتى يطوف بالكعبة ، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف  
 وشتم ، فحدث معهم . وكان أعز في قريش ، وأشد شكيمه ، فلما مر بالمولاة ،  
 وقد رجع رسول الله ﷺ " إلى بيته ، قالت له : يا أبا عمار ، لو رأيت ما لقي ابن  
 أخيتك حمزة انفاً من أبي الحكم بن هشام ، وجدده ها هنا جالساً فأذاه . وسبه ،  
 وشتمه ما يكره ، ثم انصرف عنه ، ولم يكلمه محمد ﷺ " .

واحتسب حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته ، فخرج يسعى ، ولم يفت  
 على أحد ، معداً لأن جهل إذا لقيه أن يوقع به ، فلما دخل المسجد نظر إليه جالساً  
 في الثوب ، فأقبل نحوه ، حتى إذا قام على رأسه ، رفع القوس فضربه بها ، فثبته شدة  
 مكره . ثم قال : أشتمه وأنا على دينه أقول ما يقول ؟ فرد ذلك على أن استطعت ،  
 فقامت رجال من بني مخزوم إلى حمزة لينصروا أبا جهل ، فقال أبو جهل " دعوا  
 أبا عمار ، فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً : واستمر حمزة " على

إسلامه ، وعلى ما تابع عليه رسول الله " ﷺ " من قوله : فلما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله " ﷺ " قد عر وامتنع ، وأن حمزة سيسعه ، فكفروا عن بعض ما كانوا ينالون منه <sup>(١)</sup> .

وزاد غير ابن إسحاق أن حمزة لما أسلم كان منفعلاً مندفعاً ، وأدركه الندم ، على تسرعه ، بقول حمزة " ﷺ " : أدركني الندم على فراق دين أبياتي وقومي ، وبت من التبت في أمر عظيم ، لا أكتحل بنوم ، ثم أتيت الكعبة ، ونضرعت إلى الله سبحانه أن يشرح صدري للحق ، ويذهب عني الريب ، فلما استتممت دعائي إنزاح عني الباطل . وامتلاً قلبي يقيناً ، فغدوت إلى رسول الله " ﷺ " فأخبرته عما كان من أمري ، فدعاني بأن يثبتني الله <sup>(٢)</sup> .

وأسلم عمر بن الخطاب " ﷺ " أيضاً في وسط التشدد والاضطهاد للمسلمين ، يروي ابن إسحاق بسنده قصة إسلام عمر فيقول : كان إسلام عمر فيما يلعبني أن أخته فاطمة بنت الخطاب : زوجة سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وكانت قد أسلمت ، وأسلم يعقها سعيد بن زيد ، وهما مستخفيان بإسلامهما من عمر ، وكان نعيم بن عبد الله النحام : رجل من قومه ، من بني عدى بن كعب قد أسلم ، وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه : وكان خباب بن الارت يخلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن ، فتخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله " ﷺ " ورهطاً من أصحابه ، قد ذكروا له ، أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا : وهم قريب من أربعين ، ما بين رجال ، ونساء ، ومع رسول الله " ﷺ " عسة حمزة بن عبد المطلب ، وأبو بكر بن أبي قحافة الصديق ، وعلى بن أبي طالب ، في رجال من المسلمين " رضي الله عنهم ، ممن كان أقام مع رسول الله " ﷺ " مكة . ولم يخرج ميمس خرج إلى أرض الحبشة .

<sup>(١)</sup> سيرة النجاشي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩١ .

<sup>(٢)</sup> سيرة النجاشي " ﷺ " لابن هشام ج ١ ص ٢٩٢ .

ولفیه نعیم بن عبد الله ، فقال له : أين تريد يا عمر ؟

فقال : أريد محمداً هذا الصابغ ، الذي فرق أمر قريش ، وسفه أحلامها ، وعاد دينها . ونسب ألفتها ، فأقبلته .

فقال له نعیم : والله لقد غررتك نفسك ممن نفسك يا عمر . أتري أبي عبد مناف ناركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمداً ! أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم ؟

قال : وأبي أهل بيتي ؟

قال : خنتك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو ، وأختك فاطمة بنت الخطاب ، فقد والله أسلما ، وتابعا محمداً على دينه ، فعليك بهما .

قال : فرجع عمر عامداً إلى أخته وخنته ، وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة ، فيها : ﴿ طه ﴾ ﴿ يقرئهما إياها ، فلما سمعوا حس عمر ، تغيب خباب في مخدع لهم . أتوفي بعض البيت ، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها . وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما .

فلما دخل قال : ما هذه الهيئة التي سمعت ؟

فإلا له : ما سمعت شيئاً .

قال : بني والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه ، وبطش خنته سعيد بن زيد : فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها ، فضر بها فشجها .

فلما فعل ذلك قالت له أخته وخنته : نعم ، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله ، فاصنع ما بدا لك .

فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع ، فارعوى ، وراجع نفسه ، وقال لأخته : أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرعون آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد ؟ ! ، وكان عمر كاتباً .

فلما قال ذلك ، قالت له أخته : إنا نخشاك عليها .

قال : لا تخاف ، وحلف لنا بأخته ليردّها إذا قرأها إليها .

فلما قال ذلك ، طمعت في إسلامه ، فقالت له : يا أحمي ، إنك أحسن ، عني شركك ، وأنه لا يحسها إلا الظاهر ، فقام عمر فاعتسل ، فأعطته الصحيفة ، وفيها ﴿ طه ﴾

فقرأها ، فلما قرأ منها صدراً ، قال : ما أحسن هذا الكلام وأكرمه !

فلما سمع ذلك خباب خرج إليه - فقال له : يا عمر ، والله إن لأرحو أن يكون الله قد حصن بدعوة نبيسه ، فإني سمعته " ﷺ " أمس وهو يقول : اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمر بن الخطاب ، فآله الله يا عمر .

فقال له عند ذلك عمر " فإني يا خباب على محمد حتى أتيه فأسلم .

فقال له خباب : هو في بيت عند الصفا ، معه فيه نفر من أصحابه . فأتاه عمر سيفه فتوشحه ، ثم عمداً إلى رسول الله " ﷺ " وأصحابه ، فضرب عليهم الأبواب ، فلما سمعوا صوته ، قام رجل من أصحاب رسول الله " ﷺ " ، فنظر من خلال الباب فراه متوشحاً بالسيف ، فرجع إلى رسول الله " ﷺ " وهو فرع ، فقال : يا رسول الله ، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً بالسيف .

فقال حمزة بن عبد المطلب : فأذن له ، فإن كان يريد خيراً بذلتاه له . وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه .

فقال رسول الله " ﷺ " : أذن له ، فأذن له الرجل ، وهنئ إليه رسول الله " ﷺ " حتى أتاه في الحجرة ، فأخذ حجرتة ، أو تجمع رذائه ، ثم جرده به جرده شديدة ، وقال : ما جاء بك يا ابن الخطاب ؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى يترى الله لك فارعه . فقال عمر : يا رسول الله ، جئتك لأؤمّن بالله وبرسوله ، وبما جاء من عند الله ، فكبر رسول الله " ﷺ " تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله " ﷺ " أن عمر قد أسلم <sup>(١)</sup> .

وبإسلام حمزة " ﷺ " وعمر " ﷺ " بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة ،  
 لأنهما لم يرتضيا لدينها هذا الاستمرار ما دام هو الحق .  
 وقد سأل عمر عن أكثر الناس قولاً ، وأفشاهم للحديث ، وعلم أنه جميل بن  
 معمر الجهمي فأتى إليه ، وأخبره بأنه أسلم ، فصاح جميل بأعلى صوته : إن ابن  
 الخطاب صبياً .  
 وذهب إلى أبي جهل وأخبره بإسلامه .

وأراد كفار مكة قتل عمر فأجازه العاص بن وائل السهمي ، يروي البخاري  
 بسنده أنه بينما كان عمر بن الخطاب في الدار خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل  
 السهمي — أبو عمرو ، وعليه حلة سيرة ، وقميص مكفوف بخير ، وهو من بني  
 سهم وهم حلفاؤنا في الجاهلية ، فقال له : مالك يا عمر ؟

قال عمر : زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت .

قال : لا سبيل إليك ، وبعد أن قالها أمنت .

فخرج العاص ، ففطن الناس فد سأل بهم الوادي ، فقال : أين تريدون ؟

فدأوا : هذا ابن الخطاب الذي قد صبيأ .

قال : لا سبيل إليه ، فكر الناس <sup>(١)</sup> .

وكان إسلام عمر بن الخطاب بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب بثلاثة أيام ،  
 وبذلك بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة إلى الله تعالى ..

لقد تم الانتقال إلى هذه المرحلة في وقت كان كفار مكة يخططون للقضاء  
 على الإسلام والمسلمين بعدما شعروا بخطورة الإسلام على وضعيتهم في مكة .

● هل كان يتصور كفار مكة أن ينقلب حمزة عليهم هذه الصورة

المفاجئة ؟ ! !

● وهل توقعوا أن يتبعه عمر ، ويعلن إسلامه بعده بثلاثة أيام فقط ؟ !

• وهل ظنوا مرة أن يعجز العاص بن وائل عسر وينقذه منهم ، وقد  
كادوا أن يفتكوا به ؟ !!

• وهل دار بخندهم أسرار هذه المواقف المفاجئة ، وفي هذا الوقت  
بالذات ؟ !!

لم يفكروا في شيء من ذلك ، ولم يتوقعوه ، لأنهم لم يتصوروا القدر الإلهي ،  
ونصره لعباده المؤمنين .

إن عقول البشر جميعاً تعجز عن تصور أي شيء من هذه القضايا ، ولا تقدر  
على اكتشاف شيء من أسرارها ، وكل ما تصوره أهل مكة ، عن محمد " ﷺ " ،  
ودعونه وعن المؤمنين به عكس ما حدث ، لأن المواجهة وقتها تصاعدت وتضخمت ،  
، والتحطيط لقتل محمد ومن معه أمر موجود .

لكن إرادة الله غالبة ، وقدرته لا حدود لها ، ففي وسط الضعف نبرز قوة ،  
ومن ثنايا الجيروت والطغيان يأتي العدل والحق ، والله غالب على أمره ، ولكن أكثر  
الناس لا يعلمون .

\*\*\*

## المبحث السادس

### مرحلة الجهر العام بالدعوة

أكرم الله تعالى المسلمين في مكة بإسلام حمزة بن عبد المطلب "رضي الله عنه" وعمر بن الخطاب "رضي الله عنه"، فلقد أعز الله بها الإسلام، وقوى المسلمون، يقول صهيب بن سنان "رضي الله عنه" : لما أسلم عمر ظهر الإسلام، ودعى إليه علانية ، وجلسنا حول البيت حفا ، وطفنا بالبيت، وانتصفنا ممن غلظ علينا ، ورددنا عليه بعض ما يأتي به <sup>(١)</sup> . ويقول عبد الله بن مسعود "رضي الله عنه" : مازلنا أعز منذ أن أسلم عمر <sup>(٢)</sup> ، يروي ابن إسحاق أنه لما أسلم عمر نزل جبريل وقال : يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر، وهو الفاروق ، لأنه كان سباً في التفريق بين عهدين ، لأنه لما أسلم قال لرسول الله "ﷺ" : آتينا على الحق ، وهم على الباطل ؟ قال "ﷺ" : بلى .

قال عمر : فقيم الاختفاء ؟ <sup>(٣)</sup> .

وأمر عمر "رضي الله عنه" على أن يخرج المسلمون من دار الأرقم جهاراً ، معلميهم إسلامهم ، فخرجوا في صفين في أول الصف الأول عمر ، وفي أول الثاني حمزة وهم يهتفون ، ويكبرون ، ولهم دوى كدوى الرحي ، حتى دخلوا المسجد الحرام بهذه الشهادة الجهرية الجماعية، ولذلك قال "ﷺ" : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه <sup>(٤)</sup> .

والفريق واضح بين إظهار أي بكر للإسلام وبين إظهاره بعد إسلام عمر ، لأن إظهار أي بكر كان فردياً ، أما بعد إسلام عمر فكان إظهاراً جماعياً قام به المسلمون

<sup>(١)</sup> "تذكرة البخاري ج ٣ ص ٢٦٩ .

<sup>(٢)</sup> "تذكرة البخاري ج ١٨ .

<sup>(٣)</sup> "تذكرة البخاري ج ١٨ .

<sup>(٤)</sup> "الإيمان في سنة صحيح ابن حبان ج ٦ ص ٢٥٢ .

وخرجوا من دار الأرقم يهللون ويكبرون .

### وهكذا

بدأت مرحلة الجهر العام بالدعوة، يصدع بها رسول الله ﷺ " وصحابته " رضوان الله عليهم " ، وينادون بها قولاً ، وعملاً ، في بيوتهم ، وفي كل مكان . وعند البيت . لقد حاول أبو بكر " رضي الله عنه " إظهار الدعوة بالبيت قبل ذلك فأودى، إبنه شديداً ، فلما أسلم حمزة وعمر حقق المسلمون ما تمناه أبو بكر قبل ذلك .

وشعر كفار مكة بخطورة الإسلام لما رأوا من قوة أتباعه ، وكثرة معتقيه ، وشدة إخلاصهم لما يؤمنون به ، وحيث شددوا في الاضطهاد ، والأذى .

ولم يرق بين الجهر الأول ، والجهر الثاني أن الجهر الأول كان عاماً بالدعوة يقوم به رسول الله ﷺ " علانية ، بينما الجهر الثاني صار عاماً يقوم به الرسول ﷺ " وأصحابه القادرون على التبليغ ، كما أن السرية ظلت ملازمة لتحرك المسلمين في المرحلة الأولى وهم يتعلمون الإسلام من رسول الله ﷺ " في دار الأرقم ، وفي الشعب ، أو في الأماكن النائية ، أما في المرحلة الثانية فقد أخذ المسلمون يظهر وناسكهم في الأماكن العامة ، عند الكعبة ، وفي أماكن العمل ، وصاروا يجتهدون في إقرار الإسلام في عملهم ، ونسبكمهم ، وخلقهم .

### ولهذا...

كانت الحركة بالدعوة في المرحلة الأولى أشبه بحركة المرحلة السرية ، أما مرحلة الجهر العام فكان لها طابعها الخاص في الدعوة إلى الله تعالى .

\* \* \*



## المبحث السابع

### الحركة بالدعوة

#### خلال مرحلة الجهر العام

أدى تعبير صورة الجهر العام عن المراحل السابقة إلى أن أخذ طابع الحركة بالدعوة صورا عديدة ، منها القديم ، وفيها الجديد .  
 فمع ثبات المشغول الفكري للدعوة إلا أن بقية الجوانب قد تغيرت . .  
 فلقد تنوعت الوسائل ، وأصبحت شاملة لكل وسيلة ممكنة ، وتغيرت الأساليب ، وصارت ملائمة للدعويين مع تعدد مذاهبهم ، وأماكنهم ، وحاجاتهم .  
 وقد اضطر رسول الله ﷺ والمسلمون معه إلى مواجهة الاضطهاد الذي يقع عليهم من أهل مكة بما أمكنهم في إطار ما هم فيه من قلة ، وضعف .

ودلت سيتناول هذا المبحث المسائل التالية : —

#### المسألة الأولى

##### نوع وسائل الدعوة

لم تعد وسائل الدعوة قاصرة على الاتصالات الشخصية، والمواجهة المباشرة ، وإنما رأيناها ظهرت في صور عديدة ، ومختلفة ، ومن أهمها :

##### أولاً : الاتصال بصورة مختلفة

يرى علماء الاتصال في العصر الحديث أن صور الاتصال التي يتم بها التوجه « بالدعوة » تنحصر في ثلاث صور رئيسية هي : —

##### أ- الاتصال الشخصي :

وهو الذي يحدث بين فرد وفرد ، أو بين فرد وعدد قليل ، وهذا الاتصال يتم بصورة تلقائية ، لما بين أفراد هذا الاتصال من معرفة مسبقة ، وتلاق عادي كالرحل وبين ، والإنسان وجاره ، والعامل وزملائه ، والطالب وإخوانه ، وهكذا ...

ويتميز هذا النوع بأنه اتصال هادئ ، يقوم على الثقة ، وتبادى الرأي فيه وضوح ، وبساطة ، ورد الفعل واضح عند الطرفين ، لأنه يتم مباشرة بين الأطراف من غير واسطة ، وبلا سابق إعداد ، وفي موضوعات شتى ، والدعاة إلى الله تعالى يستفيدون هذا الاتصال ، ويجعلونه طريقاً لدعوتهم التي يبررونها لمعاشرتهم بالقول أو بالعمل ، أو بالتأمل والتفكير المشترك ..

وهذا الاتصال يفيد في نطاق المجتمع الصغير ، والبدائي ، كالأُسرة ، ورفاق المسجد ، والقرية ، وجماعة العمل ، وفريق اللعب ، وهكذا ..

### **ب - الاتصال الجمعى :**

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم به وبين جماعة من الناس ، بعد إعداد ، وتنظيم يشمل المكان ، والزمان ، والموضوع .

ويتميز هذا النوع بأنه يتم مواجهة ، وبطريقة مباشرة ، لأن الإعداد والتنظيم يجتمع أفراداً تقاربت ثقافتهم ، واهتماماتهم ، ونشاطاتهم العام ، وكل هذا يساعد على وضوح الرؤية ، ومعرفة مدى استجابة الجماعة لتوجيهات القائم بالاتصال .. ومن أمثلة هذا الاتصال يجتمع الناس لخطبة الجمعة ، أو لسماع درس ، أو لمناقشة قضية مثارة ، أو لحل مشكلة تهم المجتمعين .

### **ج - الاتصال الجماهيرى :**

وهو الاتصال الذى يتم بين القائم بالاتصال وبين جمهور عريض غير محدد ، وبطريقة غير مباشرة ، ويتميز هذا الاتصال بسعته ، وسرعة انتشاره ، وبخطبه لاحتوائه المادية ، ووصوله لكل الناس فى مختلف أحوالهم ، وأماكنهم ، وأعمالهم ، ومن صور هذا الاتصال : النشرات التعليمية ، والكتب المؤلفة ، وتوجيهات الصحف وبرامج الإذاعة المسموعة والمرئية ، وأشرطة التسجيل ، وهكذا ..

ومع تميز هذا الاتصال بالسعة والتنوع فإنه يحتاج لبذل مال ، وعمل فى إعداد رسائله ، ومعرفة مدى استجابة الناس لما يطلب منهم ، والوقوف المباشر على تساقولهم

والاستفسار عنهم . والتأكد من وصول الأفكار إليهم على الصورة المطلوبة .

تلك هي صور الاتصال الممكنة ، التي تحدث عنها علماء الإعلام في العصر الحديث . وقد أحاطوها بحالة تفيد أنها من مستحدثات العصر ، ومشتريات الحضارة الحديثة ، برغم ذلك نقول : وبكل وضوح : إن رسول الله ﷺ " استخدم هذه الصور الثلاث وهو يدعو الناس خلال مرحلة الجهر بالدعوة . .

### في النسبة للصورة الأولى : نرى أنه " ﷺ " استخدم وسيلة الاتصال

الشخصي مع أهل بيته ، وأقربائه ، وأصحابه الذين أسلموا ، حيث كان يلتقيهم بصورة تلقائية ، عدداً من المرات ، في اليوم الواحد ، وكان " ﷺ " يستألفهم عن أحاطهم ، وأحب لهم عن ما بعن لهم : ويؤمهم في الصلاة ، ويبلغهم ما نزل من وحى ، ويقرأ عليهم القرآن الكريم : ويحثهم على الصبر والتحمل ، ويثبدهم في أزرهم .

وكان " ﷺ " يقابل غير المسلمين المعروفين له ، يدعوهم إلى الله تعالى ، ويستدور سابغهم في بيوتهم ، وأماكن تواجدهم في مكة ، أو حولها ، وكان كلنا قابله واحداً يعرفه في الطريق ، أو عند البيت ، حراً أو عبداً ، ضعيفاً أو قوياً ، غنياً أو فقيراً ، إلا أنهم كلهم عليه دعوة الله تعالى ، ويطلب منه الدخول في دين الله تعالى .

وكان " ﷺ " ينع الناس في مجالسهم ، ومخافتهم ، وفي المواسم ، والأسواق ليدعوهم إلى الله تعالى بالحنس ، وبالخلق الكريم .

وكان " ﷺ " يشرك من يدعوهم في تناول قضية الدعوة من أجل إقناعه بالحنس ، وذلك أمر مهم في حركة الدعوة ، لأن الدعوة ليست تسلطاً واستملاء : وليست بحذارة لعقل الناس ، ولا ببيت استنهاة بقدراتهم على الصور ، والحكم النظم .

أنظر إليه " ﷺ " وهو يدعو الحصين والد عمران ، حيث أراد يستدرجه إلى الحنس ، ويضعه أمام اعتراف صريح بالإيمان ، فقد أخرج ابن حزمجة عن عمران بن حصين قال : قال طلحة بن عمران بن حصين قال حدثني أبي عن أبيه عن جده أن فريسا قال : إن الحصين ، وكانت تعظمه .

وقالوا له : كلم لنا هذا الرجل فإنه يذكر أختنا ويسبهم ، فجادوا معه حتى جلسوا قريبا من باب النبي ﷺ .

فقال النبي ﷺ : أو سعوا للشيخ ، وعمران وأصحابه متوافرون .

فقال حصين : ما هذا الذي بلغنا عنك : إنك تنسب أختنا ، وتذكرهم ، وقد كان أبوك حصية وحيرا ؟

فقال ﷺ : يا حصين ! إن أبي وأباك في النار ، يا حصين ! كم تجد من إليه ؟

قال : سبعا في الأرض وواحدا في السماء .

قال ﷺ : فإذا أصابت الضر من تدعو ، قال : الذي في السماء .

قال ﷺ : فإذا هلك الخائف من تدعو ؟

قال : الذي في السماء .

قال ﷺ : فاستجب لك وحده ، وتشركه معهم ، أرميته في الشكر ، أم شاف

أن يعلب عليك ؟

فقال : ولا واحدا من هاتين ، وقد علمت أني لم أكلم عنده .

فقال ﷺ : يا حصين ! أسلم أسلم .

قال : إن لي قوما وعشيرة فإذا أقول ؟

فقال ﷺ : قل : اللهم ، أستهديك لأرشد امرئ وزدي علما ينفعني ، فلما لحق حصين

مهم يقيم حتى أسلم ، فقام إليه عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه ، فلما رأى ذلك النبي

ﷺ نكس وقال : بكيت من جميع عمران . دخل حصين وهو كافر ، وهم يقيم إليه

عمران . ولم يلبثت ناحيته ، فلما أسلم قضى حقه فدخلني من ذلك الرفقة ، فلما أراد

حصين أن يخرج قال ﷺ : لأصحابه : قوموا فشيعوه إلى منزله ، فلما خرج من سدة

الباب رآه فربش فقالوا : صبا وتفرقوا عنه <sup>(١)</sup> .

ومرأه ﷺ يعين مع واقع حصين ، ويسأله فيها إلى أن تفضل لدعوة من يريد .

إن الدعوة في حد ذاتها تقدير للإنسان ، وتوجيه أمين للفكر والعقل ، وإيقاظ  
للقدرة ، والإنسانية السليمة ، وبذلك يتم الإيمان بالإقتناع والفهم ، ويرتبط المستمع  
بدينه محبة وولاء وطاعة .

### وبالنسبة لصورة الاتصال الثانية : وهي الاتصال الجمعي نرى أنه " ﷺ "

استنادها ، فلقد كان " ﷺ " يتخير الجماعة القليلة العدد ، المتفقة اتجاهها ، الموحدة  
بهدفها ، وبعد لهم اجتماعاً منظماً ، في جو من الود والمحبة لما بين الرسول " ﷺ " و  
بين هذا الجمع من صلات القربى ، والمعاشرة ، والقومية وغير ذلك . . كما حدث  
بعد أن أمر بالظهور بالدعوة فإنه " ﷺ " أمر علياً ابن عمه ، بأن يعد طعاماً ، وشراياً  
لأعمامه ، وعمامته ، وقد تكرر هذا التجمع بين الرسول " ﷺ " وبين أعمامه ،  
وعشاته . ومن خلال هذا الاتصال اتضح مواقف كل طرف ، وظاهر خط كل فرد  
وقد أعلن أبو هب عضيانه ، وتصديه للدعوة ، وأعلن أبو طالب وقوفه مع الرسول  
" ﷺ " وحمايته له غير أنه سيستمر على دين أبيه ، ومن هذا المهيبل أن رسول الله " ﷺ " كان  
يعرض الإسلام على من يعرفهم ، ولو كانوا أعداء ، فلقد اجتمع عند ظهر  
الكعبة مع صناديد مكة : وهم عتبة ، وشيبة ابني ربيعة ، وأبا سفيان بن حرب ، ورجلا  
من بني عبد الدار ، وأبا البختري أخا بني الأسد ، والأسود بن عبد المطلب بن أسد .  
وربعة بن الأسود ، والوليد بن المغيرة ، وأبا جهل بن هشام ، وعبد الله بن أبي أمية ،  
وأمية بن خلف ، والعاص بن وائل ، ونبيها ومنبها ابني الحجاج السهميين <sup>(١)</sup> .

### والإتصال الجمعي : وسيلة مستحاجة إلى الإعداد الجيد ، لأن الرسول أو

السامع لا يعرف مقدماً الهدف الذي من أجله كان تنظيم هذا الاتصال ، ولذلك لم  
يعد الموضوع ، وعرضه بطريقة مقنعة ، ترضي المستمعين .

وعلى منظم هذا الاتصال أن يتوقع المعارضات العديدة لموضوعه ، ليستعد  
بالشرح ، والتفصيل ، وتفنيد المزايع التي قد تظهر في اجتماعه ، أنظر إلى رسول الله

"ﷺ" وهو يدعو أبا جهل ومعه المغيرة بن شعبه .... يقول المغيرة : إن أول ما عرفته فيه رسول الله "ﷺ" أني كنت أمشي أنا وأبو جهل بن هشام في بعض أودية مكة ، إذ لقينا رسول الله "ﷺ" فقال رسول الله "ﷺ" لأبي جهل : يا أبا الحكم ، هلم إلى الله وإلى رسوله أدعوك إلى الله .

فقال أبو جهل : يا محمد ، هل أنت متبني سب أختنا ؟ ... هل تريد إلا أن تشهد أنك قد بلغت ؟ ... فنهجن نشهد أن قد بلغت ، هو الله لو أني أعلم أن ما تقول حق لا تبعثك .

فانصرف رسول الله "ﷺ" وأقبل على أبي جهل فقال : والله إني لأعلم أن ما يقول حق ولكن يمنعني شيء : إن بني قصي قالوا : فينا الحجابة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا السقاية ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا الندوة ، فقلنا : نعم ، ثم قالوا : فينا اللواء ، فقلنا : نعم ، ثم أضعوا وأضعنا حتى إذا تماكت الركب قالوا : منا نبي ، والله لا أفعل<sup>(١)</sup> .

### وبالنسبة للصورة الثالثة :

وهي التي تعرف بالاتصال الجماهيري ، فقد استعملها النبي "ﷺ" ، ورجا من ورائها أن يصل الإسلام إلى الجماهير الصغيرة من الناس .

لما جهر الرسول "ﷺ" بالدعوة ، ورغب في دعوة أهل مكة جميعاً استعان بهذه الوسيلة الجماهيرية ، فصعد على الصفا ، وأخذ ينادي في الناس هع ، وهه ، ونادى بطسوان قريش بطناً بطناً ، فجعل الواحد منهم إذا لم يجد وقتاً ، أرسل من يعرف له الخير ... وهكذا تواجدهت مكة كلها عند الصفا<sup>(٢)</sup> .

وخرج "ﷺ" عند المروة بعد نزول قوله تعالى : ﴿ وَأَنْبِئْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾<sup>(٣)</sup> ثم قال : يا آل فهر ، فجاءته قريش فقال أبو لحب بن عبد المطلب : هده فهر عندك

(١) حياة النبي صلى الله عليه وآله ، ص ٦٥ .

(٢) انظر ص ٥٧٤ .

فقال : يا آل غالب ، فرجع بنو مخارث وبنو الحارث ابنا فخير ، فقال : يا آل  
 لؤى ابن غالب ، فرجع بنو عويم الأدرم بن غالب ، فقال : يا آل كعب بن لؤى ،  
 فرجع بنو عامر بن لؤى ، فقال : يا آل مرة بن كعب ، فرجع بنو عدي بن كعب  
 بنو سهم وبنو هاجع بن عسرو بن هصيص بن كعب بن لؤى ، فقال : يا آل كلاب  
 بن مرة . فرجع بنو مخزوم بن يقظة بن مرة وبنو تيم بن مرة ، فقال : يا آل قصي ،  
 فرجع بنو رهرة بن كلاب ، فقال : يا آل عبد مناف ، فرجع بنو عبد الدار بن قصي  
 بن أسد بن عبد العزى بن قصي وبنو عبد بن قصي ، فقال رسول الله ﷺ : " إن الله  
 أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم الأقربون من قريش ، وإني لا أملك لكم من  
 الله حظاً ، ولا من الآخرة نصيباً إلا أن تقولوا : ( لا إله إلا الله ) فأشهد بها لكم عند  
 ربكم ، وتدين لكم العرب وتذل لكم بها العجم ، فقال أبو هب : تبنا لك فلنهدا  
 دعوتنا ؟ فأنزل الله ﷻ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ﴿٢﴾ <sup>(١)</sup> .

ووصلت الدعوة إلى كل أهل مكة ... ولذلك عدت هذه الطريقة اتصالاً  
 جماهيرياً .

وكان " ﷺ " يوجه أصحابه إلى هذه الطريقة ويقول لهم : ليبلغ الشاهد  
 منكم الغائب .

\* \* \*

## ثانياً

## الدعوة بالحوار والمفاوضة

دعا الرسول " ﷺ " بهذه الوسيلة أملاً في إسلام من يفادهم ، وحوارهم .  
وهذه الوسيلة تختلف عن الاتصال الجمعي في أنها قد تكون تلقائية ، وقد تكون بإعداد وتوجيه من المدعوين لا من رسول الله " ﷺ " ، وحينئذ يأتي الرسول أو الداعية للمفاوضة : وهو لا يعرف موضوعها ، وكل ما في ذهنه ، وكل ما يأمله هو عرض الدعوة ، وإيمان الناس بها .

وكان رسول الله " ﷺ " يؤمل في المفاوضات ، ويرجو أن تكون سبباً في إسلام أهل مكة . .

يروى أن كثيراً من هذه المفاوضات ، ومنها أن أشراف مكة اجتمعوا عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعدوا إلى محمد فكأسوه ، وعاصمونه حتى تعذروا فيه ، فبعثوا إليه ، فجاءهم رسول الله " ﷺ " سريعاً ، وهو يظن أنه قد دأب لهم في أمره شيئاً ، وكان حريصاً ، لم يرد رشدهم ، ويعز عليه عنتهم ، حتى جلس إليهم .  
فقالوا : يا محمد إنا قد بعثنا إليك لنعذر فيك ، وإنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلك على قومك ، لقد شتمت الأباء ، وعيبت الدين ، وسفهت الأحلام ، وشتمت الآلهة ، وفرقت الجماعة ، وما بقي من خير إلا وقد جنته فيما بيننا وبينك <sup>(١)</sup> .

ثم عرضوا أن يحققوا له المال ، أو الملك ، أو الشرف ، أو الزوجة الحبيبة ، إن كان هو ما يعمل له . . فأجابهم " ﷺ " : ما لي ما تقولون ، ما حنتكم بما حنتكم به ، أطلب أموالكم ، ولا الشرف فيكم ، ولا الملك عليكم : ولكن الله يعطي إيمانكم رسولاً . وأنزل على كتابه وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً ، فهاأنتمكم رسالة ربي ،



ونفسحت لكم ، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم .

فقالوا : يا محمد ، فإن كنت غير قابل منا ما عرضنا عليك فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بالآل ، ولا أقل مالاً ، ولا أشد عيشاً منا <sup>(١)</sup> ، وحاجتنا شديدة إلى المال ، والماء ، والعتاء ، وأخذوا يطلبون أموراً حسية ناتيهم على وجه خارق المعادة ..

فمرة يقولون : سل لنا ربك الذي بعثك بما بعثك به ، فليسير عنا هذه الخصال إلى يد صيقت علينا ، وليسط لنا بلادنا ، وليجر فيها أكهاراً كأكهار الشام والعراف ، وليبعث لنا من مضي من أباتنا ، وليكن فيما يبعث لنا منهم قصي بن كلاب ، فإنه كان شيخاً مبدوفاً ، فتساقم عما تقول أحق هو أم باطل ؟ فإن فعلت ما سألناك ، وصدقك صدقتك ، وعرفنا به منزلتك عند الله ، وأنه بعثك رسولا كما تقول <sup>(٢)</sup> .

ومرة ثانية يقولون : سل ربك أن يبعث لنا ملكاً يصدقك عما تقول ، ويراحمنا عنك ، ويسأله فيجعل لنا جناتاً ، وكنوزاً ، وقصوراً من ذهب ، وفضة ، ويغنيك عما نراك تبتغي . فإننا نراك تقوم في الأسواق ، وتلتبس المعاش ، كما تلبسهم ، حتى يبرح فضل منزلتك من ربك إن كنت رسولا كما تزعم <sup>(٣)</sup> .

ومرة ثالثة يقولون : أسقط السماء كما رعت أن رأت إن شاء فعل ، فإننا لن نؤمن لك إلا أن تفعل .

واستمر أهل مكة في هذه العروض لا يقصدون من ورائها سوى السحرية ، وإضاعة الوقت ، والرسول يقول لهم في كل مرة : ما هذا جئت ، إنما جئتكم من عند الله بما بعثني به ، وقد بلغتكم ما أرسلت به إليكم ، فإن تقبلوه فهو حظكم من الدنيا والآخرة ، وإن تردوه علي أصير لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم <sup>(٤)</sup> .

<sup>(١)</sup> أي أشد عيشاً منا .

<sup>(٢)</sup> أي بعثك رسولا .

<sup>(٣)</sup> أي بعثك رسولا .

<sup>(٤)</sup> أي بعثك رسولا .

ورغم مقصد أهل مكة من هذا الحوار ، إلا أنه يعتمد على أسلوب بياني فواتيده ... فهم يعرضون قضيتهم ، ومزاعمهم ، مع شبههم ووجهة نظرهم ، والرسول " ﷺ " يسمع ، ويرد عليهم في حسم ، ورفق بما يرد طلبهم ، ويحدد لهم ما يدعونه إليه .

إن وسيلة المفاوضة تتميز بإظهار مراد كل طرف منها ، ونظراته إلى الطرف الثاني ، ومنهجها في العرض والرد ... ولذلك اتخذها الرسول " ﷺ " وسيلة لعرض الإسلام .

ويبدو أن هذه المفاوضات تعددت مع النبي " ﷺ " ، وقام بها غير واحد من القرشيين ، وكلها تتجه وجهة معينة ، فريش تبرز ما حل لها سبب الدعوة ، وتناول تصرف النبي " ﷺ " عنها باغرائه بكافة ألوان الإغراء ، مع تهديده ، وتخويفه ، إن لم يتفق معهم ، والنبي " ﷺ " يرد بالوحي المنزل عليه ، ويقرأ عليهم من القرآن ما يناسب المقام ، ليبين حقيقة الدين الإلهي ، في أنه منزل من الله ، وحقيقة القرآن العربي المبين ، وحقيقة الرسول الداعية ، مع إنذارهم بالويل ، والنبوءة إن لم يؤمنوا بالإسلام ، وتذكيرهم بما حل بمن سبقهم ، وهم على علم به .

لقد قام الرسول " ﷺ " خلال هذه اللقاءات بالدعوة إلى دينه ، حيث كان يسمع لمقالة القوم ، وشبههم ، ومزاعمهم ، ثم يكرر بالنقص والرد .

إنه رسول يحمل رسالة ، وكتاب ربه معه يهدي به من ضلال ، وينقذه من حبال ، وإذا كان الله يطلب من عباده أن يستقيموا ، ويستغفروا فمحمد الرسول عبد شر ، وهو أول من يستقيم لربه ، ويستغفر ، إنه لا يحتاج لمال ، ولا لملك ، ولا لجاه ، فقد استبان له الطريق ، ووضحت أمامه معالم الهدى ، وتيقن من كل ما نزل عليه .

إنه " ﷺ " متمسك برسالته ، ومستمر في الدعوة كما بالحيي ، والحيي ، والحجة ، والبرهان ، والبصيرة ، والوضوح .

وهكذا كانت المفاوضات وسيلة للدعوة إلى الله تعالى ، يقول الإمام ابن كثير ( ر ) : تعرض النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أسباحتهم له ، حيث طُلبوا أنواغاً من الديارات ، ووجه أرفى العادات على وجه العناد ، لا على وجه الطلب والإرشاد ، وكان الرسول يسمع منهم ، ويرد عليهم ، بالرفق واللين ، وبينهم خطأ جادهم وعشيقهم ( ١ ) .

### ثالثاً

#### الدعوة بالانتقال إلى القبائل ودعوتهم

وكان رسول الله يذهب إلى قبائل العرب ، ويطوفهم ، يدعوهم إلى الله بالحكمة واللين ، وكان يتنزه في المواسم ، والآسواق ، ويذهب إلى القبائل في اجتماعهم ويدعوهم ، يقول الزهري : كان رسول الله ﷺ في تلك السنين يعرض دعواه على قبائل العرب في كل موسم ، ويكنم شريف كل قوم ، لا يسألهم مع ذلك إلا أن يؤدوه ويسمعوا له ويقول : ( لا آكروه أحداً منكم على شيء ، من رضى بالذي أدعوكم إليه فذلك ، ومن كرهه لم آكروه ) . فلم يقبل أحد منهم ، وما بات أحد من تلك القبائل إلا قال : قوم الرجل أعرف به ، أترون أن رجلاً يصلحنا وقد أفسد قومنا ، ولفظوه ( ٢ ) .

وقد ذكر الواقدي البصون والأفراد الذين ذهب إليهم رسول الله ﷺ ودعاهم إلى الإسلام ، وعددهم واحداً واحداً ، موضحاً مواقفهم .

وأهم هذه الانتقالات من أجل الدعوة ذات النبي ﷺ إلى الشانف لدعوة بني تميم إلى الإسلام حيث عرض عليهم أن يأوي إليهم ويكون معهم إذا أسلموا ، لكنهم ردوه رداً قبيحاً ، وسلبوا عليه سفهاءهم وأطفالهم ، فرموه بالحجارة . وقد روى من ديارهم وحيداً لا يجد لنفسه نصيراً من الناس ، ولا مأوى في ديارهم ( ٣ ) .

( ١ ) أنظر : شذوذ وإشهاد ج ٣ ص ٤٩ - ٥٣ .

( ٢ ) أنظر : شذوذ وإشهاد ج ٣ ص ٥٠ - ٥١ .

( ٣ ) أنظر : شذوذ وإشهاد ج ٣ ص ٥٢ .

فأجابه إلى الله قائلاً : ( اللهم إليك أشكو ضعف قوتي ، وقلة حيلتي وهواني على  
الناس .. أنت أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربي ، إلى من تكلني ؟ إلى  
إلى بعيد يتجهمني ! أم إلى عدو ملكته أمري ؟ !

إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي ، غير أن عافيتك هي أوسع لي !  
أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات ، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة ،  
أن يحل علي غضبك ، أو أن يزل في سخطك ، لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول  
ولا قوة إلا بك ) (١) .

وكان نصر الله مع رسول في هذه الشدة فاستجاب له الدعاء ، فأمن به  
" خداس " ، ولما اتجه إلى مكة أجاره " المطعم بن عدي " ، فدخل مكة في حواره (٢) .  
إن الانتقال بالفكرة برهان على أهميتها ، واهتمام صاحبها بها ، وهذا في حد  
ذاته يدفع العقلاء إلى الاستماع ، والمعرفة ، والنهم .

وهكذا استعمل رسول الله ﷺ " وسيلة الانتقال من أجل الدعوة وتليق  
الرسالة لما لها من أهمية في مباشرة التوجيه ، ومعرفة موقف المدعوين ، والرد على  
تساؤلاتهم واستفساراتهم ، وكان النبي لا يفرق بين قوم وقوم ، ولا بين مكان ومكان ،  
بل كان يتجه كلما أمكنه ذلك ، .. ولعل ذهابه إلى الطائف سيرا على قدميه ذهاباً  
ورجوعاً دليل على ذلك ، وعلى مدى ما تحملته الرسول للدعوة بهذه الوسيلة .

## رابعاً

### الدعوة بمقابلة الوفود

استقبال الوفود : لاحظتهم بالأمور التي وفدوا من أجلها ، أسلوب انتشار بعد  
صلح الحديبية لكثرة الوافدين ، حتى ظن كثير من الناس أن هذه الوسيلة لم تظهر قبل  
صلح الحديبية .

(١) التكملة ج ١ ص ٣٤٥ .

(٢) انظر ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ .

لكن ذلك ليس صحيحاً، فلقد ظهرت هذه الوسيلة قبل الهجرة ..

وأهية هذه الوسيلة تبرز في أنها تبلغ قوماً جاءوا يبحثون عن الحقيقة ،  
والذين هم رغبة في الاستماع إليها ، كما أن هؤلاء الواهدين لا يتفقون فيما لديهم من  
مذهب ، أو حبر : ويريدون أن يسمعون الحقيقة من مصدرها ، وخاصة أن أهل مكة ،  
وأبناء الدعوة أخذوا في ترويع الإشاعات ، ونشر الأكاذيب حول محمد ودعوته ..  
ولذلك جاءت الوفود لرسول نفسه بعيداً عن قالة السوء : ومروحي الإشاعات ،  
ونافلي الأخبار الكاذبة .

وعسى الوفد دليل على رحمان عقل أصحابه ومن وراءهم ، فهم من أهل  
الرسول الحق والصواب جاءوا متحسين للمشاق ، باذلين من وقتهم وجهدهم  
ومالهم الكثير في سبيله .

إن العالمية العظمى للوفود التي وفدت على رسول الله " ﷺ " ، في مكة أو في  
المدية . كانت خيراً لأصحابها ، إذ دخلوا في الإسلام بعد أن عرفوه ، وعلموا حقيقته .  
وأول وفد جاء للنبي " ﷺ " وهو في مكة ، وفد نصارى الحبشة حيث قدمه  
رسول الله " ﷺ " عشرون رجلاً أو قريباً من ذلك فكلّموه ، وسألوه ، وأخذوا معه  
من رجال من قريش يرفعونهم ، لما فرغوا من أسئلتهم ، واستفسارهم ، استمعوا لرسول  
الله صلواتهم مما أرادوا ، ويدعوهم إلى الإسلام ، ويقرأ عليهم القرآن ، حتى فاضت أعينهم  
من السمع ، وامتنوا ، وصدقوا ، ودخلوا في دين الله تعالى ، فلما قاموا من عنده " ﷺ " ، اعترضهم  
أبو جهل ونضر من قريش ، وقالوا لهم : خيبكم الله من ركب ، بعثكم من وراءكم من  
أهل دسكم ، ترنادون لهم ، فأتوهم بخير الرجل ، فلم تطعن بحالكم عنده حتى فاء بهم  
دسكم ، وسدكم ، فيما قال لكم ، ما نعلم ركبا أحق منكم .

فدعاهم عليهم : لا تخافكم ، سلام عليكم ، لنا أعمالنا ، ولكم أعمالكم ، لا نألوا أنفسنا  
خيراً .

ومن أشهر الوفود التي قدمت إلى مكة وفد الأوس والخزرج اللذين جاءوا إلى رسول الله وقابلوه عدداً من المرات وبايعوه بيعتين عند شعب العقبة ، تعرفان ببيعة العقبة الصغرى ، وبيعة العقبة الكبرى ، حيث اتفق النبي ﷺ " في البيعة الثانية على أن يهاجر المسلمون إلى المدينة ، على أن يمنع أهلها عما يمنعون به ساءهم ، وأبناءهم ، وأموالهم ، وأنحار منهم اثني عشر نقيباً ، تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس يكونون على قومهم بما بايعوا عليه <sup>(١)</sup> .

ويعد وفد الأوس هذا من أكثر الوفود تأثيراً في مسار حركة الدعوة، فد نشأت قوة الإسلام في المدينة ، وكانت الهجرة ، وكانت الدولة الإسلامية .

إن استقبال الباحث عن الحقيقة يحتاج لدعاية كفاء يفهم قضيتته ، ويعرف طرق عرضها الحسن ، ويجيد التعامل مع الوفاد ذى الثقافة المعينة ، والبيئة الخاصة ، والثقافة المتنوعة .

ولقد كان رسول الله ﷺ " بمعوة الله له يتعامل مع الوفاد بطريقة حكيمة حسنة تؤدي إلى النتائج التي يري حوها المخلصون ، والبحث عن الحقيقة مؤبداً ، وتصورات العقول بشء كما الشك كثيراً وهي تريد الوصول لليقين ، والمشكلة تكمن في وجود أشخاص يتعاملون مع الواقع ، ويطلعون القضايا ، ويوجهوها نحو الصواب ، ويجيدون فهم الدعوة ، وحسن عرضها على الأفهام .

ولقد كان ﷺ " نموجاً عالياً في الاستفادة بهذه الوسيلة ، لأن المسائل كانت تتخير أعلم أبنائها ، وأعتقدهم ، ويحددون له الهدف المقصود ، وكان الرسول ﷺ " يقابلهم وهو يرحوهم للإيمان .

لأنه من معرفة ذواقع الوفاد للحضور ، وكشف خصائص أفرادهم ، ومعرفة من وراءه ، ولذلك فالاستماع لأفرادهم ابتداء ضرورة لا بد منها ، وكان ﷺ " يستمع للوفاد ويجيب على تساؤلات أعضائهم ويكرم وفادتهم ويقدم لهم النصيح

<sup>(١)</sup> المأثر في قبائل بني النضير ، وفد الأوس من ص ١٤٩ إلى ص ١٧٠ .

ويدعونهم بالحسنى والهدوء ، ولذلك كان أعضاء الوفود يتأثرون بكرم الخلق ،  
ويصدقون بحلّاه الحق ، ويؤمنون بدين الله رب العالمين .

\* \* \*

### خامساً

#### الدعوة بإرسال الرسائل والدعاة

من الوسائل التي دعا بها رسول الله " ﷺ " في مرحلة ما قبل الهجرة إرسال  
الدعاة ، والرسائل ، وبخاصة إلى الأماكن البعيدة ،  
ومن الرسائل ما كتبه النبي " ﷺ " وأرسله إلى النجاشي وحمله عمرو بن أمية  
الضري وحاء فيه : ( من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحح ملك الحبشة ،  
سلام عليك ، فإني أحمد إليك الله الملك ، القدوس ، المؤمن ، المهيمن ، وأشهد أن  
عيسى روح الله ، وكلمته ، ألقاها إلى مريم البتول الطاهرة ، الطيبة ، الحسنة ،  
فحملت به عيسى " ﷺ " فخلقته من روحه ، ونفخته ، كما خلق آدم بيده ،  
ونفخته ، وإنني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له ، والموالة على طاعته ، وأن  
تبعني ، فتؤمن بي ، والذي جاءني ، فإني رسول الله وقد بعثت إليك ابن عمي  
جعفر ، ومعه نفر من المسلمين ، فإذا جاءوك فأقرهم ، ودع التجبر فإني أدعوك ،  
وجنودك إلى الله عز وجل ، وقد بلغت ونصحت ، فاقبلوا نصيحتي ، والسلام  
علي من اتبع الهدى ) (١) .

وقد أسلم النجاشي الأصحح ، وأرسل إلى النبي يخبره بذلك ، ويعرفه أنه  
لا يملك إلا نفسه ، وهو النجاشي الذي أكرم وفادة المسلمين إليه ، وصلى عليه  
رسول الله " ﷺ " حينما علم بوفاته .

(١) رسالة في البداية ج ٣ ص ٨٣ ، وفي المرجع عصمات واسعة عن أعمال مصعب في المدينة .

وكما أرسل النبي ﷺ " رسائله خلال هذه المرحلة بعث بعض الدعاة متميزين بالخصائص التي تؤهلهم للدعوة : ومن هؤلاء " مصعب بن عمير " فلقب أرسله النبي ﷺ " إبن المدينة عقب بيعة العقبة الأولى ، وأمره أن يقرئهم القرآن ، ويعلمهم الإسلام ، ويفقههم في الدين . ففرل مصعب على ( أسعد بن زرارة ) فكان يصلي عن أسلم ، ويدعو إلى الله تعالى ، وسمى " سمي " في المدينة بالقرائي والمقرئ . وسبب مصعب دخل الإسلام كل بيوت المدينة ، وعلى يديه أسلم زعيم الأوس والخزرج ، وخيرة رجال الأنصار .

ولما هاجر المسلمون إلى الحبشة المحجرة الثانية كان معهم جعفر بن أبي طالب أميراً مقدماً عليهم ، ومتحدثاً نيابة عنهم ، وقد قام جعفر بدوره كداعية مسلم ، يشرح دينه ، ويوضحه بالحنسي والحكمة ، ذلك أن قريشاً أرسلت وفداً من قبلها إلى النجاشي ليعيد المهاجرين إلى ديارهم .

حاول أعضاء وفد قريش إحداث وقيعة بين النجاشي وبين المسلمين المهاجرين إلى الحبشة إلا أنها قوبلت بحكمة جعفر الداعية.

يروى ابن إسحاق بروايته عن أبي موسى قال : أمرنا رسول الله ﷺ " أن نطلق مع جعفر بن أبي طالب إلى أرض النجاشي ، فبلغ ذلك قريشاً فبعثوا عمرو بن العاص وعمار بن الوليد ، وجمعوا للنجاشي هدية ، وقدموا على النجاشي ، فأتاه بالهدية فقبلها ، وسجد له ، ثم قال عمرو بن العاص : إن ناساً من أرضنا رغبوا عن ديننا ، وهم في أرضك .

قال النجاشي : في أرضي ؟ ! .

قالا : نعم .

فبعث النجاشي إلينا ، فقال لنا جعفر : لا يتكلم منكم أحد ، أنا أعطيتكم اليوم . فأنتهيا إلى النجاشي وهو جالس في مجلسه ، وعمرو عن يمينه . وعمار عن يساره . والتسييسون جلوس بمخاطرين ، وقد قال له عمرو وعمار : إنهم لا يسجدون لك .



فما اتجهينا بداننا من عنده من الرهبان قائمين : اسجدوا للملك .

فقال جعفر : إنا لا نسجد إلا لله عز وجل .

فما اتجهينا إلى النجاشي قال : ما منعك أن تسجد ؟ !

قال جعفر : لا نسجد إلا لله .

وقال له النجاشي : وما ذاك ؟

قال جعفر : (إن الله بعث فينا رسولاً وهو الذي بشر به عيسى بن مريم " المسيح " من

بعدد اسمه أحمد . فأمرنا أن نعبد الله ولا نشرك به شيئاً ، ونقيم الصلاة ، ونؤتي

الزكاة ، وأمرنا بالمعروف ونهانا عن المنكر ) .

واتعجب النجاشي بقول جعفر .

فقال عمرو بن العاص : أصلح الله الملك إنهم يخالفونك في عيسى بن مريم !

فقال النجاشي لجعفر : ما يقول صاحبكم في ابن مريم ؟

قال جعفر : يقول يقول الله فيه : ( هو روح الله وكلمته أخرجته من العذراء البتول

التي لم يقرها بشر ، ولم يفرضها ولد ) .

فتناول النجاشي عوداً من الأرض ورفعها وقال : يا معشر القسيسين والرهبان ما يزيد

هؤلاء على ما تقولون في ابن مريم ولا وزن هذه .. مرحباً بكم وبمن جئتم من عنده

فأنا أعتد أنه رسول الله ، وأنه الذي بشر به عيسى ، امكنوا في أرضي ما شئتم : ثم

رد هدية قريش<sup>(١)</sup> .

وتعد الحجرة إلى الحبشة عملاً إسلامياً رائداً ، تدخل في إطار التبليغ العام

للمدعوة ، لأن الإسلام بهذه الحجرة وصل إلى خارج الجزيرة العربية ، وبدأ انتشاره

عملياً في العالم .

ويخطئ من يتصور الحجرة إلى الحبشة فراراً من الأذى ، لأنها كانت في الأصل

حجرة للدعوة إلى الله تعالى ، وفي نفس الوقت راحة من عدوان قريش .

<sup>(١)</sup> البداية والنهاية ج ٣ ص ٧٠ .

بدل على أنها كانت هجرة للدعوة إلى الله في الأساس أن أغلب الذين هاجروا كانوا من ذوي القوة والمنعة في مكة، وظم من عصبيتهم من يدافعون عنهم وعلى رأسهم جعفر بن أبي طالب ، وله من أبيه وقومه قوة ومنعة وفي نفس الوقت نفى الموالى ، والمستضعفون ولم يهاجروا ، وبقوا في مكة صابرين ، متمسكين .  
وأيضا فلقد هاجر نسوة من أشرف مكة ، والنسوة لا يتعرضن للأذى كما هو عرف العرب في الجاهلية ..

ويلاحظ أن هذه الهجرة ضمت رجلا من اليمن كذلك .

وهؤلاء لا صلة لهم بما يجري في مكة لأنهم ليسوا منها ، وعلى رأس هؤلاء اليمنيين أبو موسى الأشعري ، الذي هاجر إلى الحبشة مع المهاجرين إليها .  
ولو كانت الهجرة إلى الحبشة هروبا ، وفرارا فقط ما حاول أهل مكة أن يستعيدوا هؤلاء المهاجرين الفارين ، لأنهم بقرارهم قد تخلصوا منهم ، ولو كانت الهجرة فرارا وخوفاً أعاد المهاجرون عقب الهجرة إلى المدينة مباشرة بعد زوال سب الخوف ، ولكنهم لم يرجعوا إلى المدينة إلا في العام السابع بعد الهجرة .  
إن الهجرة إلى الحبشة كانت دعوة ناحجة ، وكان أفرادها خير ممثلين للإسلام ، وخير دعاة إليه ، ولذلك حملوا رسالة النبي ﷺ إلى النجاشي ، وسلموها إليه بمجرد وصولهم إلى بلاده .

وهكذا كان دعاة الإسلام الذين أرسلهم رسول الله وهو في مكة إلى المدينة وإلى الحبشة ، كانوا قوة في الحق ، وصبرا على البلاء ، وحكمة في الدعوة ، وأفقا واسعا ، ودقة عالية في فهم الموقف ، والتعامل معه بما يفيد الدعوة ، ويؤدي إلى الإيمان ..  
لم يعرف مصعب "رضي الله عنه" الانفعال في مواجهة التعنت والإيذاء ، وإنما كان رقة في السلوك ، وسموا في الأخلاق ، وصبرا جميلا في عرض قضيتهم على الناس .

ولم يفقد جعفر "رضي الله عنه" رباطة جأشه حين رأى وفد قريش يتقدمون مع النجاشي ، ويوجهون له الأسئلة في تحد واستفزاز ، وإنما كان متخلقا بخلق الإسلام ،

يرد بما عده الله ، ويحبب وفق ما سمع من رسول الله ، وثقاً في علو الحق وانحصاره ، وقد كان له ما ينبغي .

إن الدعوة في المجتمعات غير الإسلامية تحتاج إلى مثل هذه النماذج الرائدة من الدعوة المختصين .

تلك هي أهم الوسائل التي دعا بها النبي ﷺ " خلال مرحلة البهر بالدعوة في مكة ، ويلاحظ أن وسائل المرحلة السرية لم تشمل وإنما كانت وسائل مستمرة بواقف تتناحها ، وهكذا سائر الوسائل تكون مع حركة الدعوة على طول الزمن .

\*\*\*

### سادساً

#### الدعوة بالعمل والتطبيق

حافظ الرسول ﷺ " على تطبيق ما يدعو إليه ، والالتزام به على وجه دقيق وبذلك قدم دعوته للناس بمنهج عملي .

ولذا كان من أوائل الذين عذبوا وأذوا ، وحين دعا المؤمنين إلى الصبر والنحمل كان من أوائل الصابرين ، وبقي ﷺ " مع قومه محاصراً في الشعب حين أتاهم الفرج وحين عرض عليه قومه الملك ، والمال ، والجاه ، رفض عرضهم ، وبين لهم أنه رسول الله إليهم ، وإلى الناس كافة ، يحمل لهم دين الله تعالى <sup>(١)</sup> .

واستمر يقيم في مكة مع كفارها في الوقت الذي وجه أصحابه " رضوان الله عليهم " بالحجرة إلى الحشمة حيث الأمن والهدوء .

لقد كان رسول الله ﷺ " مثلاً عملياً في التأسي ، والقُدوة ولذلك جعله الله تعالى ساط الأسماء والاتباع ، يقول الله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُمُوءٌ حَسَنَةٌ

لَمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۖ ﴾ <sup>(٢)</sup> .

(١) سورة الأحزاب آية ( ٢١ ) .

(٢) أنظر ص ١٤٢ وما بعدها .

إن حياة الرسول العملية كانت دعوة حكيمة ناضجة، لأن النفوس تتأثر بالأعمال أكثر من تأثيرها بالأقوال، لأن دلالة العمل على الصديق أوضح من دلالة القول المجرد فربما كان القول لكسب شخصي ، أو لغاية قاصرة ، أما عمل الرسول والدعاة فهو دليل على إيمانهم اليقيني بما يدعون إليه ، وينادون به .

### ■ سابعاً ■

#### الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي

أقام المجتمع القرشي قبل الإسلام عادة جاهلية : وحافظ عليها ، وهي عادة الحماية والحوار : ومعناها أن الضعيف إذا لجأ لقوى أحاره ، وأعلن حمايته ، بحيث لا يجرؤ أحد على التعدي عليه ، وإن لا قامت الحرب .  
ولذلك كان الحير قوى الشكيمة، عزيزاً في قومه، متمكناً من حماية من يحير .  
وهذه العادة لا صلة لها بفكر المستحير ، أو ثقافته ، ولذلك استفاد منها رسول الله ﷺ وهو يتحرك بالدعوة في مكة .

وقد عاش الرسول ﷺ في حماية عمه أبي طالب ، يقول ابن إسحاق :  
( وحارب علي رسول الله ﷺ عمه أبو طالب ومنعه وقام دونه ، ومضى رسول الله ﷺ على أمر إلى بله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء ، فلما رأت قريش أن رسول الله ﷺ لا يعينهم من شيء أنكروه عليه ، من هرافهم وعيب ألتهم ، ورأوا أن عمه أبا طالب قد حارب عليه ، وقام دونه فلم يسلمه لهم )<sup>(١)</sup> . وقد حاول كفار مكة عدة مرات صرف أبي طالب عن حماية محمد فلم يتمكنوا ، وكان لحماية أبي طالب أثر فعال في خدمة الدعوة حيث بقي رسول الله يدعو إلى دين الله تعالى وهو يقيم في مكة .

ومن صور الحماية والحوار التي استفاد بها المسلمون ما روته السيدة عائشة " رضي الله عنها " ، قالت : ( لم أعقل أبوي قط إلا وهما يدينان الدين ، ولم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار ، بكرة وعشية ، فلما ابتلى المسلمون خرج

أبو بكر مهاجراً إلى أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد لقيه ابن الدغنة وهو سيد القارة فقال : آين تريد يا أبا بكر ؟

فقال أبو بكر : أخرجني قومي : فأنا أريد أن أسيح في الأرض، فأعبد ربي .  
فقال ابن الدغنة : إن مثلك يا أبا بكر لا يخرج ولا يخرج ، فإنك تكسب المعدوم ، وتحمل الكل ، وتقري الضيف ، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار ، ارجع واعبد ربك ببندك .

فرجع أبو بكر ، وارثل معه ابن الدغنة ، وطاف ابن الدغنة عشية في أشراف قريش فقال لهم : إن أبا بكر لا يخرج مثله ولا يخرج ، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم ويحمل الرحم ، ويحمل الكل ، ويقري الضيف ، ويعين على نوائب الحق ؟  
لهم تكذب قريش بجوار ابن الدغنة وقالوا لابن الدغنة : فأمر أبا بكر ، فليعبد ربه في داره ، فليصل فيها ، وليقرأ ما شاء ، ولا يؤذيها بذلك ، ولا يستعلن ، فإننا نخشى أن يفتر نساءنا وأبناءنا .

فقال ذلك ابن الدغنة لأبي بكر .

مطفق أبو بكر بذلك يعبد ربه في داره ، ثم بدا لأبي بكر فابتنى مسجداً بفناء داره ، وورر فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن ، فتتقصص عليه نساء المشركين، وأبنائهم يحجون منه، وينظرون إليه ، وكان أبو بكر رجلاً بكاءً، لا يملك عينية إذا قرأ القرآن ، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين ، فأرسلوا إلى ابن الدغنة فقدم عليهم فقالوا : إنا كنا أجرة أبا بكر بجوارك على أن يعبد ربه في داره ، وقد جاوز ذلك ، وابتنى مسجداً بفناء داره ، فأعلن بالصلاة والقرآن فيه ، وإنا قد خشينا أن يفتر أبناءنا ونساءنا ، فاهله ، فإن أحب على أن يقتصر على أن يعبد ربه في داره فعل ، وإن أن إلا أن يعلن ذلك فسله أن يرد إليك دمتك ، فإننا قد كرهنا أن نخفر دمتك ، ولنا مقرين لأبي بكر الاستعلان .

قالت عائشة : فأتى ابن الدغنة ابن أبي بكر ، فقال : قد علمت الذي عاهدت لك عليه ، فإما أن تقتصر على ذلك ، وإما أن ترجع إلى ذمتي ، فإن لا أحب أن تسمع العرب أن خفرت في رجل عاهدت له .

فقال أبو بكر : فإن أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله (١) .

ومن صور الإجارة ما سبق ذكره حين عودة النبي ﷺ " من الطائف فلقد دخل مكة في جوار المطعم بن عدي على نحو ما سبق ذكره (٢) .

ومن المعلوم أن الاستفادة بالواقع الاجتماعي في جناح الدعوة أمر مباح ما دام لا يمس جوهر الدعوة بصورة ما .. أما إذا أدى إلى أي مساس ضار بالدعوة فإنه لا يجوز ، ولذلك صاح الرسول ﷺ في وجه عمه بأكبر حينما طلب منه أن يفتي الدعوة على نفسه ، قال له : يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني ، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ، ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه (٣) .

وكما فعل أبو بكر " ﷺ " فإنه رد جوار ابن الدغنة حين وجده قيداً عليه في الدعوة : واكتفى بحماية الله له .

## المسألة الثانية

### أساليب الدعوة

#### من خلال البلاغة القرآنية

تستغل الأفكار ، والمعلومات من طرف إلى آخر بواسطة ألفاظ ، وحمل ، تمثلت قوة التأثير ، والإفناع ، وتحقيق الغاية من إطلاقها منطوقة أو مكتوبة : أو مصورة . والبلاغة يبنونها المختلفة هي المورد الفيض الذي يقدم للدعوة أسلوبها المؤثر ومقولاتها السديدة .

(١) صحيح البخاري — باب الكفالة — باب جوار أبي بكر — ج ٤ ص ١٣٠ ط . الأوقاف .

(٢) أسطر ص ٣٧٦ .

(٣) منه ابن هشام ج ١ ص ٢٦٥ .

والقرآن الكريم هو الذروة الأعلى في البلاغة العربية ، وهو الأسلوب الذى  
 يسعد السمع " <sup>(١٧)</sup> في عرص دعوته ، وتبلغ دين الله تعالى ، ولذلك حين سمعت في  
 أساليب الدعوة في عصر الرسالة نجد أنفسنا تلقائياً أمام القرآن الكريم نستطيعه فيطبعنا  
 على أسلوب رسول الله في الدعوة ، ونستهديه فيهدينا .  
 ومن هنا ندرك أن القرآن الكريم هو دستور الدعوة موضوعاً ، ووسيلة ، وأسلوب ،  
 وغاية . .

والقرآن الكريم يقدم تفصيلاً العمالية البليغة . في أسلوبه ، وسلفه ، وصور  
 المعنى المفصود تصويراً حركياً ، حيث يعيد المعنى ، ويقدمه مشجعاً ، فاعلاً ،  
 حيث نجد بفضل الكنية المصورة للسعى أكمل تصويراً يشعرك به أتم شعور وأقواء ،  
 ونجد لذلك أمثلة : —

كلمة " يسكن " في قوله تعالى : ﴿ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلِلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظُهُورِهِ ﴾ <sup>(١٨)</sup> لما في السكون من الهدوء ، والثبات كأنها على الأرض .

كلمة " تسوروا " في قوله تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبُؤُا الْخَصَمِ إِذْ تُسَوِّرُوا  
 الْمُخْرِبَ ﴾ <sup>(١٩)</sup> لدلالة الكلمة على المفاجأة ، والمخالفة ، والاستعلاء .

وكلمة " يطوقون " في الآية الكرمة : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْغُلُونَ بِمَا  
 ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا كَانُوا بِمِ يَوْمِ  
 الْفَيْمَةِ ﴾ <sup>(٢٠)</sup> لأن الطوق يعم ويشمل ما بداخله في إحكام .

وكلمة " سعلت " في آية : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكِكَةِ إِنِّ جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ  
 فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ﴾ <sup>(٢١)</sup> ، لأن السفك

<sup>(١٧)</sup> سورة من آية ١٠٦ .

<sup>(١٨)</sup> سورة من آية ٢٣٣ .

<sup>(١٩)</sup> سورة البقرة آية ( ١٧٠ ) .

<sup>(٢٠)</sup> سورة من آية ١٨٠ .

يشير إلى كثرة إسالة الدم والعدوان .

وكلمة " انفجر " في قوله تعالى : ﴿ وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا

أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَصَرَ ۖ فَانْفَجَرَتْ بِهِ ذَاتَا عَشْرَةِ عَيْنٍ ۖ ﴾<sup>(١١)</sup> ، لما فيها من المفاجأة

والانطلاق ، والكثرة ، والدهشة .

وكلمة " يخرون " في الآية : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ

عَلَيْهِمْ حُكِرُونَ لِلَّذِينَ سَجِدَا ۖ ﴾<sup>(١٢)</sup> ويقولون سُبْحَنَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا

لَمَفْعُولًا ۖ ﴾<sup>(١٣)</sup> ، لدلالة يخرون على الاقتناع ، والخضوع ، وقوة الإعداد .

ومن بلاغة القرآن الكريم وتعمنه في التصوير الحركي ، براه بغير عن المعنى

المنقول بالألفاظ تدل على محسوسات ، تبين أثر ما يوحيه هذا النوع من الألفاظ في

النفوس ، ذلك أن تصوير الأمر المعنوي في صورة الشيء المحسوس يزيد ثقله من النفس

، وتأثيراً في الوجدان ، ويكفي أن نقرأ قوله تعالى : ﴿ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ

سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ۖ ﴾<sup>(١٤)</sup> وقوله تعالى : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ

وَأَخْلَصَ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَحَتَّمَ عَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَقُلُوبِهِمْ ۖ ﴾<sup>(١٥)</sup> لتري قدرة كلمة حَتَّمَ في تصوير

امتناع دخول الحق قلوب هؤلاء الناس ، وقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَثِيقٌ

الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ۚ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الظُّلُمَاتُ يُخْرِجُهُم

مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ۗ ﴾<sup>(١٦)</sup> لتري قيمة كلمتي الظلمات والنور ، في إثارة العاطفة

وتصوير الحق والباطل ، وتلمس من كلمة " يخرجوهم " ففيها دلالة على تصوير

<sup>(١١)</sup> سورة البقرة آية ( ٦٠ ) .

<sup>(١٢)</sup> سورة الإسراء الآيات ( ١٠٧ - ١٠٨ ) .

<sup>(١٣)</sup> سورة البقرة آية ( ٧ ) .

<sup>(١٤)</sup> سورة البقرة آية ( ٢٥٧ ) .

<sup>(١٥)</sup> سورة البقرة آية ( ٢٢ ) .



الإسراج بصورة حسية مع أنه من المعنويات التي يدر كها العقل المجرد .

وقوله تعالى : ﴿ صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾<sup>(١١)</sup> لترى قيمة هذه

الصفات التي تكاد تخرجهم عن دائرة البشر إلى عالم لا يسمع ، ولا يتكلم ولا يرى .  
سبب عتوهم وكفرهم .

وقوله سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَآ

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ ﴾<sup>(١٢)</sup> .. فكلمات ينقضون ويقطعون ويوصل ، تصور الأمور  
الاعتوائية في صور المحسوس ، وفي القرآن من أسأل ذلك عدد ضخم .

وقد بانى القرآن الكريم بكلمتين فيهما سر الإلحاء ومصدره ، كالجمع بين

الناس والحجارة ، في قوله تعالى : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي

وُقِدَتْهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾<sup>(١٣)</sup> فهذا الجمع يوحي إلى النفس  
بأنها كائنة بينهما ، والتشابه

وقد تكون العبارة بجملتها هي الموحية كما تجد ذلك في قوله تعالى :

﴿ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِنْ نَارٍ ﴾<sup>(١٤)</sup> أولاً تجد هذه الثياب من النار ،

موحيد لك بما يقاسيه هؤلاء القوم من عذاب آليم ، فقد خلقت الثياب بتقى ها  
اللابس الحر والقر ، فماذا يكون الحال إذا قدت الثياب من النيران .

ومن هذا الباب ، قوله تعالى : ﴿ هُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظِلٌّ مِنْ آلِهَةٍ وَمِنْ خَلْفِهِمْ ظِلٌّ مِنَ

مَخْرُفَتِ اللَّهِ بِهِمْ عِبَادَهُمْ يَتَّخِذُونَ ﴾<sup>(١٥)</sup> فإن الظلة إنما تكون ليتقى بها وهج الشمس

فكيف إذا كانت الظلة نفسها من النيران .

<sup>(١١)</sup> سورة البقرة آية ( ٢٧ ) .

<sup>(١٢)</sup> سورة البقرة آية ( ١٧٨ ) .

<sup>(١٣)</sup> سورة الحج آية ( ١٩ ) .

<sup>(١٤)</sup> سورة البقرة آية ( ٢٤ ) .

<sup>(١٥)</sup> سورة البقرة آية ( ٢٥ ) .

بقول السيوطي في الإتقان : المعنى الواحد قد يغير عنه بألفاظ بعضها أحسن من بعض ، وكذلك كل واحد من جزأى الجملة قد يعبر عنه بأفصح ما يلائم الجزء الآخر ، ولا بد من استحضار معاني الجمل ، واستحضار جميع ما يلائمها من الألفاظ ثم استعمال أنسبها وأفصحها ، واستحضار هذا متعذر على البشر ، في أكثر الأحوال ، وذلك ميسر حاصل في علم الله ، فلذلك كان القرآن الكريم أحسن الحديث وأفصح ، وإن كان مشتملاً على الفصيح والأفصح ، والمليح والأملح ، ولذلك أمثله منها قوله تعالى : ﴿ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ﴾ " " ، من جهة أن الذم لا يشعر بصيره إلى حال يبنى فيها ، ومن جهة موازنة الفواصل .

ومنها قوله تعالى : ﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كُتُبٍ ﴾ أحسن من التعبير بتقرأ لثقله بالهمزة .

ومنها : ﴿ لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ أحسن من ( لا شك فيه ) لثقل الإدغام ، ولهذا كثر ذكر الريب .

ومنها ﴿ وَلَا تَهِنُوا ﴾ أحسن من ( ولا تضعفوا ) لخفته .

ومنها ﴿ وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي ﴾ : أحسن من ( ضعف ) لأن الفتح أحق من الضمة .

ومنها " أمن " أحف من " صدق " ، ولذا كان ذكر الإيمان أكثر من ذكر التصديق .

ومنها ﴿ ءَاثَرَكَ اللَّهُ ﴾ أحف من ( فضلك ) .

ومنها ( آتى الدهر ) أحف من ( أعطى ) .

ومنها ( أنذر ) أحف من ( خوف ) .

ومنها ﴿ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ أخف من ( أفضل لكم ) والمصدر في نحو ﴿ هَذَا خَيْرٌ ﴾  
 الله : ﴿ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾ أخف من ( مخلوق ) و ( الغائب ) و ( مكبح ) أخف  
 من ( مزاح ) ، لأن فعل أخف من تفعل ، وهذا كان ذكر النكاح فيه أكثر .  
 ولأجل التخفيف والاختصار استعمل لفظ الرحمة ، الغضب ، والرضا ،  
 المحب ، والمقت ، في أوامره وأفواه الله تعالى مع أنه لا يوصف بها حقيقة ، لأنه لو حرر  
 عن ذلك بالفاظ الحقيقة لطال الكلام ، كأن يقال : يعامله معاملة المحب ، والمهاقت ،  
 فأخبر في مثل هذا أفضل من الحقيقة ، لحفته ، واختصاره ، وإثباته على التشبيه السريع  
 فإن قوله ﴿ فَلَمَّا ءَسَفُوكَ أَنتَقَمْنَا مِنْهُمْ ﴾ أحسن من ( فلما عاملونا معاملة  
 المعضب ) أو ( فلما أتوا إلينا بما يأتيه المعضب ) أ . هـ <sup>(١)</sup> .

ولم يزد مرور الزمن بالفاظ القرآن إلا حفظاً لإشراقها ، وسياجاً لجلالها ، لم  
 ينس لفظها ، ولم تتخل عن نصيبها ، في مكانها من الحسن ، وقد يقال : إن كلمة  
 الغائط من قوله سبحانه : ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ  
 الْغَائِطِ أَوْ لِمَسْتَمُّهُنَّ السَّاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا ﴾ <sup>(٢)</sup> قد أصابها  
 الزمن ، فجعلها مما تنفر النفس من استعمالها ، ولكنها إذا تأملنا الموقف ، وأنه موقف  
 شريع وترتيب أحكام ، وجدنا ، أن القرآن عبر أكرم تعبير عن المعنى ، وصاغه في  
 كناية بارعة ، فمعنى الغائط في اللغة المكان المنخفض ، وكان يمشون إليه في تلك  
 الحالة ، فتأمل أى كناية تستطيع استخدامها مكان هذه الكناية القرآنية البارعة ، وإن  
 سمعت أن تتبين ذلك فضع مكانها كلمة تبرزتم ، أو تبولتم ، لتري ما يشور في النفس  
 من مسور ترسمها هاتان الكلمتان ، ومن ذلك كله ترى كيف كان موقع هذه الكناية

<sup>(١)</sup> الإيضاح ج ٢ ص ١٢٥ .

<sup>(٢)</sup> سورة النساء آية ( ٦ ) .

يوم نزل القرآن ، وأنها لا تزال إلى يوم الناس هذا أسس ما يمكن أن يستخدم ، في هذا الموضوع التشريعي الصريح .

وتأتي الفاصلة في القرآن مستقرة في قرارها ، مطمئنة في موضعها ، غير نائرة ولا قلقة ، يتعلق معناها بمعنى الآية كلها ، تعلقاً تاماً ، بحيث لو طرحنا لاختلاف المعنى واضطرب الفهم ، فهي تؤدي في مكانها جزءاً من معنى الآية ، بنفسه ويختل بقصاها .

وقد يشهد تمكن الفاصلة في مكانها : حتى لنوحى الآيات بها ، قبل نطقها ، كما روى عن زيد بن ثابت أنه قال : أسلى على رسول الله " ﷺ " هذه الآية : ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ۝ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أُنشَأْنَاهُ خَلْقًا يَاحْرَ ۝ وَهَذَا قَالَ معاذ بن جبل : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ ، فضحك رسول الله " ﷺ " ، فقال له معاذ : مم ضحكك يا رسول الله ؟ قال : بها ختمت <sup>(١)</sup> .

وحتى ليأبى قبولها ، والإطمئنان إليها ، من له ذوق سليم ، إذا غيرت وأبدل بها سواها ، كما حكى أن أعرابياً سمع قارئاً يقرأ : ﴿ فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمْ الْبَيِّنَاتُ ﴾ ، ولم يكن يقرأ القرآن وختم بأن الله غفور رحيم ، فقال الأعرابي : إن كان هذا كلام الله فلا ، الحكيم لا يذكر الغفران عند الزلل ، لأنه إغراء عليه <sup>(٢)</sup> ، والآية إنما ختمت بقوله تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ .

وخذ الآيات التي تنتهي بوصفه تعالى بالعلم ، أو بالقدر ، أو بالعلم ، أو

(١) الإنشاد — ج ١ ص ١٠٤ .

(٢) المرجع السابق — ج ١ ص ١٠١ .

بالعمران ، بعد المناسبة في ذلك الختم واضحة جلية ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ  
وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(١١)</sup> فهو يعلم عما  
تسمى في المشرق والمغرب ، وقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ  
وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ <sup>(١٢)</sup> السميع ليعرفنا ،  
والعليم بما نضمرة أفئدتنا من الإخلاص لك ، وقوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ إِذَا حَضَرَ  
أَحَدُكُمْ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى  
الْمُتَّقِينَ ﴾ <sup>(١٣)</sup> فمن بدله بعد ما سمعه فإنها إثمه على الذين يبدلونه <sup>(١٤)</sup> إِنَّ اللَّهَ  
سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ <sup>(١٥)</sup> ، فهو سميع بما تم من وصية ، وعليم عن يبدلها ، وقوله تعالى :  
﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ  
إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ <sup>(١٦)</sup> فالجنى بالساعة في مثل لمح البصر أو أقرب  
يستدعي القدرة الفائقة ، وقوله تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتَى  
وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ <sup>(١٧)</sup> ، فإحياء الموتى يحتاج كذلك إلى قدرة عارقة ،  
وقوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ <sup>(١٨)</sup> ،  
فمالك السموات والأرض — لا ريب — يقدر على كل شيء .

<sup>(١١)</sup> سورة البقرة الآية ( ١١٥ ) .

<sup>(١٢)</sup> سورة النقرة الآية ( ١٢٧ ) .

<sup>(١٣)</sup> سورة البقرة الآيات ( ١٨٠ — ١٨١ ) .

<sup>(١٤)</sup> سورة النحل الآية ( ٧٧ ) .

<sup>(١٥)</sup> سورة الحج الآية ( ٦ ) .

<sup>(١٦)</sup> سورة آل عمران الآية ( ١٨٩ ) .

وقد تمتنع فواصل متنوعة ، في إطار غاية واحدة ، لحكمة يريد بها الله تعالى من هذا التنوع في هذا التنوع ، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿٦١﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمْ الَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ۚ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذْكُرُونَ ﴿٦٤﴾ ۝ ١١ ، فإن الموضوع عرض لإثبات أدلة وجود الله ، وقدرته ، ووحدانيته ، ومع ذلك تنوعت الفواصل ، حيث ختمت آية يبتفكرون ، لما أن الاستدلال بإثبات الزرع ، والتمر ، على وجود الله وقدرته ، يحتاج إلى فضل تأمل ، يرشد إلى أن حدوث هذه النوع يحتاج إلى إله قادر ، يحدته ، فناسب ذلك ختم الآية بما ختمت به ، وانتهت الثانية بـيعققلون ، لما أن تسخير الليل والنهار لخدمة الإنسان ، ليرتاح ليلاً ، ويعمل نهاراً ، وتسخير الشمس ، والقمر ، والنجوم ، فتمشرق وتغرب في دقة ونظام تامين ، يحتاج إلى عقل يهدي إلى أن ذلك لا بد أن يكون بيد خالق مدير ، فختم الآية بـيعققلون ، وختمت الآية الأخيرة بـيذكرون ، لأن الموقف فيها يستدعي تذكّر ألوان مختلفة بينها الله في الأرض ، للموازنة بين أنواعها ، بل الموازنة بين أصناف نوع منها ، فلا يلهيهم صنف عن سواه ، ولا يشغلهم نوع عن غيره ، وهذه الموازنة تقضي إلى الإيمان بقدرته الله ، خالق هذه الأنواع المختلفة المتباينة .

**هذا ..**

وقد أبرز القرآن الكريم مع فصاحة الكلمة ، وبلاغه الآيات : ودقة ألفاظه ،  
وعذبة التعبير صوراً تعد قمة في الفصاحة والبلاغة ، وتجعل القارئ أو المستمع أمام  
صوره حسية بارزة ، تصورها الكلمات ، وتقدمها للعقل في هيئة جميلة - مثبوتة ،  
تبعده عن التبحر يد العقلي الخالي من الإثارة ، والتوضيح .

إن الأسلوب التصويري يختلف عن الأسلوب التجريدي في أن التجريد يضع  
المعنى في صورة معنوية تحتاج لإدراكها إلى عقل واسع ، وفهم عالم ، أما التصوير  
الحسي فإنها تقدم المعنى في صورة متحركة تلتقي مع الحس ، وتثير الوجدان ، وتؤثر  
في النفس إفعالاً يدفعها إلى معاشة الحدث ، ومتابعته ، والتأثر به .

ومن أهم ما قدمه القرآن الكريم في مجال الأسلوب التصويري ما يلي : —

**١ - التصوير بالالفاظ والصورات**

الفاظ القرآن الكريم كلها مختارة ومقدرة لتحمل مكانها في الجملة حيث لا  
يعنى عنها سواها ، ولتنبض بدورها في تأدية المعنى على أكمل وجه ، وإتم بيان ، وأبلغ  
صفة .

والقرآن الكريم لم يبتكر اللفاظ كما كانت مجتهودة قبله ، بل الجليل في لغة القرآن  
أنه في كل شأن يتناول من شؤون القول يتخير فيه أشرف الموارد ، وأحسنها رحمة بالمعنى  
المراد ، وأجمعها للشوارد ، وأقبلها للأمتزاج ، ويضع كل متقال ذرة في موضعها الذي  
هو أحق بها ، وهي أحق به ، بحيث لا يجد المعنى في لفظة إلا مرآة الناصعة ، ومورقة  
الكاملة ، ولا يجد اللفظ في معناه إلا وطء الأمين ، وقراره المكين .

وقد مرر بسنا منذ قليل عدد من الأمثلة على كلمات قرآنية وضعت في  
موضعها ورأينا كيف أنها صورت معناها ، وقدمته جلياً ، ووضوحاً ، شاملاً لكل  
جزئيه وعناصره .

كما شاهدنا تميز الكلمة في موضعها عن سواها المشتغل على نفس المعنى .

وكما بدأت البلاغة القرآنية في الكلمة الواحدة : والجملة المركبة ، فإنها تسجق كذلك في الآيات الكثيرة وهي تتحدث عن موضوع ما .. ومن أمثلة ذلك السور نقرأ قوله تعالى : ﴿ فَتَنَادُوا مُضْجِعِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> أَنْ أَغْدُوا عَنِّي حَرْثُكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢﴾ فَأَنْطَلِقُوا وَهُمْ يَتَخَفَتُونَ ﴿٣﴾ أَنْ لَا يَدْخُلَهَا الْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مُسْكِينٌ ﴿٤﴾ <sup>(٢)</sup> وهذه الآيات جزء من قصة أصحاب الجنة التي ذكرها القرآن الكريم بياناً لعاقبة البخل ، ترهيباً منه ، وحثاً على البذل ، ونقف عند الكلمات ﴿ فَتَنَادُوا ﴾ و ﴿ مُضْجِعِينَ ﴾ و ﴿ فَأَنْطَلِقُوا ﴾ و ﴿ يَتَخَفَتُونَ ﴾ فيجدها تصور حركة أصحاب الجنة وهم يتنادون مبكرين قبل أن يستعطف الفقراء ، ثم وهم ينطلقون إلى جنتهم لا يشرفهم شيء عما احزموه ، ثم وهم يبالغون من التكرم زيادة في الحيلة ، ويتخافتون ويسرون بالكلام ، وهذا التصوير الذي قامت به الكلمات يثير الخيال ، ويجعله يتابع حركاتهم ، ويستثير في النفس حبها للاستطلاع ، ويستولي على مشاعر السامع فلا يستطيع التحول عن متابعتهم فيرى نهاية أمرهم ، ومن ثم يستقر في وجدانه المدرس القيم الذي سبقت القصة من أجله .

ومن أمثلة قوله تعالى : ﴿ فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴾ <sup>(٣)</sup> لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى <sup>(٤)</sup> الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى <sup>(٥)</sup> وَسُجِّنَ فِي الْأَثْقَى <sup>(٦)</sup> الَّذِي يُوَلَّى مَالَهُ يَتْرَكِي <sup>(٧)</sup> ﴿٨﴾ <sup>(٣)</sup> والآيات الكريمة تخوف من البخل وعاقبته ، ولذا نقف عند الكلمات ﴿ نَارًا ﴾ و ﴿ تَلَظَّى ﴾ و ﴿ الْأَشْقَى ﴾ و ﴿ وَتَوَلَّى ﴾ و ﴿ وَسُجِّنَ فِي الْأَثْقَى ﴾ ففيها من القدرة على التصوير ما يجعلها أبلغ في الترهيب ، فالمنذر بسوء نارا ، ومن ذا الذي لا يفرج عن النار ، ويعمل ما يقي نفسه شرها ، ثم هي نار ﴿ تَلَظَّى ﴾ أي تسعر ، ويشد طيها ثم

<sup>(١)</sup> سورة لقلم الآيات ( ٢١ - ٢٤ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الليل الآيات ( ١٤ - ١٨ ) .



استتار صيغة المضارع للمبالغة في تأثير التصوير باستحضار المشهد كأنه واقع وقت التكليم ، وما يليق به المشهد في الحس من الفرع والخوف .

ولو غير بالفاظ أخرى لا نستطيع هذا التصوير مثل " عذاباً شديداً " لما كان له من هذا الأثر المناسب للمقام .

وقوله ﴿الْأَشْقَى﴾ الذى يجعل المستحق لهذا العذاب في قمة الشقاء ونسك إصابته حادثة تزيد التعبير قدرة على الترهيب ، ثم لتأمل قوله ﴿وَتَوَلَّى﴾ الذى يترتب التكذب في عدم استجابته للدعوة وعناده كأنه مذهب بعيداً عن الدعوة مالمعه في وصفه بالكفر الذى استحق به العذاب .

أما قوله تعالى ﴿وَسَيَجْزِيهَا الْأَثْقَى﴾ فإنه يصور الأثقى وقد أبعد من بعد امر الخطر ، فلم يكتف بالوعد بعدم تعذيبه بل أخبر بأنه سيكون بعيداً عن النار زيادة في الاطمئنان ، وحثاً على البعد عن أسباب الشقاء .

وهكذا يبدو أثر التصوير بالكلمات في تقوية المعاني وزيادة تأثيرها في النفوس حيثما لما ير مى إليه الداعية ترهيباً أو ترغيباً .

## ٢ = التصوير بالتشبيه

أنشأت التشبيه من الأساليب القوية في التأثير لما تملكه من عناصر الحركة والتوضيح ، يدل الإمام عند القاهر الجرجاني : أن التشبيه يفتح إلى القالب طريقاً متصلاً بالعين .

وعلى ذلك فهو تحريك للعين ، والقلب ، والحواس ، ومثاله قوله تعالى : ﴿فَمَا

كُنْتُمْ عَنْ التَّذْكِيرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ﴾ ﴿فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ ﴿﴾

هذه جاءت هذه الآيات بعد آيات صورت مصير المؤمنين ، والكافرين بعد استقرارهم في الجنة والنار .

وفد بدأت الآيات باستفهام إنكارى عن سبب إعراضهم عن الإيمان مع وجود كل دواعي الاستجابة ليقولوا أنفسهم هذا المصير الذى ينتظرهم .

والقرآن يصورهم فى نفورهم من الدعوة، والإسراع فى إبعاد أنفسهم عنها أسراعاً بمضون فيه على غير هدى ، بالحمر المستنيرة التى تبالغ فى الحرب، وتحت نسيها علبه، فراراً من أسد هصور، يبغي اللحاق بما لا فتراسها ، فكلم نوحى هذه الصورة بالعجب من أمرهم، والسخرية منهم ، ثم ما أعظم ما أبرزته هذه الصورة من أحواضهم : فهم فى فرارهم هذا من الدعوة لا يلجأون إلى مأمن من الخطر، بل يفرون على غير هدى ولا بصيرة ، ثم إبراز ما فى نفوسهم من كراهيتهم الحقيقة للدعوة فى تلك الصورة البالغة التى تحملهم على المبالغة فى البعد عنها، وعدم الاستماع إليها ففضلاً عن تدبرها، وإذا كنا نركز هنا على أثر التصوير فى إبراز المعاني فإن ذلك لا يمنعنا من الإشارة إلى عوامل أخرى تضمنتها الصورة، ضاعفت ما بها من تأثير فإختيار لفظ " الحمر " وما يوحى به من دناءة، وخسة، مبالغة فى السخرية هم ثم اختيار لفظ " قسورة " من بين أسماء الأسد، لما يوحى به من القسور، والضعف مبالغة فى سبب فرارهم، وذلك إشارة إلى ما فى نفوسهم من مشاعر عدائية، أنفهم على الفرار من الدعوة، وهكذا يبرز التشبيه المعاني ويتبها فى النفوس، ويوحى بما يحقق الهدف منه، ويتضح هذا تحللاً إذا حاولنا أن نعبر عن هذا المعنى بأسلوب غير أسلوب التشبيه كأن نقول مثلاً : فما هم يعرضون عن الدعوة كل هذا الإعراض، أو هذا الإعراض الشديد ؟ ! !

### ٣ - التصوير بضرب المثل

يتعلق المثل ويراد به : القول السائر الذى يمثل مضمونه بحورده . وحيث لم يكن ذلك إلا قولاً بديعاً ، فيه غرابة، صيرته جديراً بالتفسير فى البلاد، وخلقنا بالشعور استعير لكل حال : أو صفة ، أو قصة ، لها شأن عجيب ، ونخطر غريب ، من غير أن

يلاحظ بينها وبين شيء آخر تشبيهه <sup>(١)</sup> .

ويطلق بالمعنى الأول على الاستعارة التمثيلية التي اشتهرت ، وصارت مثلاً وهي كثيرة في القرآن الكريم ، ومن المعنى الثاني قوله تعالى : ﴿ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ﴾ <sup>(٢)</sup> أي الموصف الذي له شأن عظيم وخطر جليل ، وقوله : ﴿ مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> أي قصتها العجيبة الشأن .

هذا وأسلوب المثل له خطره بين فنون القول وقدرته على التأثير التي يستمدّها من خصائصه المميزة : —

**أولها :** ما يعبر عنه السبوطى في الإتيان بقوله : ( ضرب الأمثال يستفاد منه أمور كثيرة ، ومنها تقريب المراد للعقل وتصويره بصورة المحسوس ، فإن الأمثال تصور المعاني بصورة الأشخاص لأنها أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس ومن ثم كان الغرض من المثل تشبيه الخفى بالجلي والغائب بالمشاهد ) <sup>(٤)</sup> .

ويقول عنه صاحب الكشف : ( ولضرب العرب الأمثال واستحضار العداء المثل والنظائر شأن ليس بالخفى في أبراز حبيثات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى يرياك المتخيل في صورة الحق والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأن مشاهد وفيه تكسيت للخصم الألد ، وقمع لسورة الجامع الأني ) <sup>(٥)</sup> .

**وثانيها :** أن للأمثال قدرة على الاستحواذ على المشاعر ، وإيقاظ النفوس ، وتحديد نشاطها . فالإنسان ميل بطبيعته إلى الاستشهاد بالأمثال لما يرى فيها من جمال

<sup>(١)</sup> نفس ابن السكوت . ج ١ ص ٤٠ .

<sup>(٢)</sup> سورة النحل الآية ( ٦٠ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة الرعد الآية ( ٣٥ ) .

<sup>(٤)</sup> الإتيان في علوم الفهم الآن . ج ٢ ص ١٣١ .

<sup>(٥)</sup> صمد الكشاف . ج ١ ص ١٩٥ .

حكمتها ورشاقة لفظها ، وإصابتها المعنى ، وطرافتها التي تشجده ولا تبلى . ثم نرى أثره في وجوه السامعين لما وإقناهم عليها وتسليمهم إنكسها .

**وثالثها :** أن المثال وسيلة من وسائل الإقناع ، فإن المورد للمثال إنما هو في الحقيقة بقرينة الأمر الذي يدعيه على أمر معروف عند من مخاطبه ، ومستمع لديه ، ومن ثم لزم التسوية بينهما في الحكم ، ونفخ الإلزام به .

تلك أهم عوامل التأثير في أسلوب ضرب المثال ، ولتورد بعض النماذج لها .  
يريد القرآن الكريم أن يبين للمشركين تفاهة ما يعبدونه من دون الله وعجزهم المزرى فلا يعبر عن ذلك بوصفهم بالعجز والتفاهة بل يصوره في هذا المثال المؤثر : **﴿ هُوَ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۖ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِيدُوا مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۚ ﴾** ١١ .

وأي عجز أبلغ من عجز من يزعمونهم آخرة من خلق أنفك المخلوقات وأحقها وهو الذبابة ، ولو اجتمعوا ، وتعاونوا في ذلك ، إنهم يعجزون عما هو أسير من الخلق ، وهو استنقاذ ما يسلبه منهم ذلك المخلوق الضعيف .

أبعد هذا دليل على الجهل والفساد ؟ وهكذا يتركهم القرآن الكريم هم وألتهم سحرية الأساطير ، وحديث المتنبرين .

#### ٤ ■ التصوير القصصى

القرآن في قصصه لا يعتمد إلى الحشد من الحوادث والمواقف فيسرد في كتابه ليأس عليه كذا ، بل أن القصص القرآنى مرتبط بالعرض الدين هو يسود القصة في مقام يقتضسيها ، وهدف شدد يرمى إليه ، ومن ثم يختار من الحوادث والمواقف ما يحتاجه المقام ويصيب به الهدف المقصود . حيث ترى القصة مركزة على أمر من

وأخرى على المكان ، وثالثة على الأشخاص ، ورابعة على الأحداث ، وخامسة على الحوار .. وهكذا تبعا لما يقتضيه مقام إبراد القصة .

ولهذا نرى القصة الواحدة تكرر مرات عديدة في مقامات مختلفة ، ويختار منها في كل مقام ما يناسب الغرض المذكورة من أجله ، وربما كان الاستثناء الوحيد من هذه القاعدة هو قصة يوسف " عليه السلام " ، إذ ذكرت تامة كاملة مرة واحدة .

ولأخذ للتصوير القرآني للمشاهد والمواقف ، وما يلابسها من برعات وعواطف ، مثالا من قصة مريم " عليها السلام " في السورة اسماء باسمها .

والغرض الذي سيقف له القصة هو بيان الحق في شأن عيسى " عليه السلام " وولادته من غير أب ، ونفى ما نسجه البصاري حوله من دعاوى زائفة ، رتبها عليها ادعاء الوهيته ، أو أنه ابن الإله إلى آخر ما قالوه .

وفد اختار القرآن الكريم في هذا المقام من المشاهد ما يفى هذا الغرض . معقباً عليه تقرير المهدف من القصة في قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ۚ ﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۚ ﴾ وَإِنَّ اللَّهَ أَتَىٰ وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿١١﴾ .

أما المشاهد التي اختارها القرآن الكريم فهي مرتبة على النحو التالي : تبدأ بمشاهد يمثل مريم بعد أن بلغت مبلغ السناء ، وقد اتحت مكاناً بعيداً وانفدت حجابها يسترها عن أعين الناس لشأن من شئونها ، يقتضي ألا يراها أحد ، ويفاجئها الملك وهي في خلوتها فيسأها الفرغ ويدور بينهما حوار يشتهي باستسلامها لأمر الله ويحدث الحمل .

﴿ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّخَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ﴾ ﴿١٢﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٣﴾ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ

إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿٢٧﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلِيُّ هَيْنٌ وَلَنَجْعَلَ لَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢٩﴾ ﴿٣٠﴾

المشهد الثاني : بصورها وقد حملت بابنها : وخافت أن يطلع أهلها على ما بها : فأثرت البعد عنهم ورحلت إلى مكان بعيد ، وهناك تعالى إلهاً لا قبل لها بها ، فهي تعلم أنها تؤدي دوراً اصطفاها الله ، ولكنها تدرك كذلك أن أحداً لن يصدقها فيما سنده من تفسير لحسلها بهذا الوليد بلا أب ، ثم يجتمع عليها الآلام الجسدية والنفسية عند الوضع فتكاد مقاومتها تنهار ، وتتمنى لو ماتت قبل أن تتعرض لكل ذلك ، ولكن الرحمن يفرج عنها ذلك كله في لحظة ويبرئ جراحها وترى من الآيات ما يملؤها ثقة به تستهين معها بكل شيء .

﴿ ٣١ ﴾ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٣٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنْتُ نَسِيًّا مَّسِيًّا ﴿٣٣﴾ فَدَادَهَا مِنْ تَحْتِهَا إِلَّا تَحْزَنُ قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٣٤﴾ وَهَرَى إِلَيْكَ يَجِدُكَ النَّخْلَةُ نُسُفًا عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٣٥﴾ فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَلَمَّا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ ﴿٣٧﴾

المشهد الثالث : يمثلها وقد عادت تحمل ابنها إلى قومها ، فيواجهونها بما هو متوقع منهم ، بالنأيب والسخرية ، ويفقونها موقف المسئول عن جريمة ارتكبتها ، ولكن المعجزة الإلهية تنهي الموقف كله ، وينطق الله الوليد ليخبر القوم بالحقيقة .

(١) سورة مريم الآيات ( ١٦ - ٢١ ) .

(٢) سورة مريم الآيات ( ٢٢ - ٢٦ ) .

﴿ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ﴾ ١٢٧ قَالُوا يَلَمْ يَرَوْا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿١٢٨﴾ يَسْأَلُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿١٢٩﴾ فَأُشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نَكُفُّ مِنْكَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿١٣٠﴾ قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَنِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿١٣١﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿١٣٢﴾ وَبِرَّ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ مَا مَنَعْتُ عَلَيْكُم مِّنْ شَيْءٍ مَّا لَمْ يَأْتَنِي بِحَبْرٍ شَيْئًا ﴿١٣٣﴾ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿١٣٤﴾ .

ونتهي المشهد عند هذا الحد : فقد استوفى العرض المسوفة له الشخصية ما سماحه من بيان لم يبق إلا أن يعقب القرآن عليها بما يساور مغزاها ويقرر ما دللت عليه .  
 وبالشاهد كما يرى تنقلنا إلى مسرح الأحداث وتعرضها علينا بعد أن منحها زينة ، وجعلتها تحرى تحت أنصارنا وبصائرنا .  
 ولتلق نظرة على قدرة النص على تصوير المشاعر التي صاحبت هذه الأحداث وجعلنا نشارك أصحابها إفعالهم وتجاوب معهم .

فها هي ذى مريم — تلك الفتاة العذراء المفاخرة — تريد الخيرة فتحدثنا ألا بها إسناد ، وتتخذ الحجاب ، ولكنها تفاجأ بشباب وسيم أدامها ، ولما أن تخيل إزاء ما أصابها من دعر وفزع ، وماذا ثلثت وهي فتاة لا حول لها ولا طول ، ماذا تفعل ؟ هل تستمع إلى القرآن يعبر عن فزعها في قوله : ﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ نَقِيًّا ﴾ ﴿١٣٥﴾ .

وعندما يجيئها الملك الكريم موضحاً مهمته لا يجدى ذلك في طاعتها ولا يخ  
 ذلك من نفسها ، فقد تكون حادثة دمرها الذي أقتحم عليها خلوتها فتردها

لَا تَسْتَسْلِمُ لَهُ بَلْ تَعْمِدْ إِلَى اسْتِثْنَاءٍ مِنَ الْأَمْرِ فَخُصَّالَهُ : ﴿وَأَنِّي يَكُونُ لِي عِلْمٌ وَلَمْ يَمَسَّسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ ؟

وعندما يقضى أمر الله وتتم استجابته بقضائهم، وترحل بعيداً عن قومها  
تشتاها أهواجس ، وتتداعى عليها الطسوم ، كيف ستواجه قومها ، وهم أهل عبادة  
وطاهر وغيره على الشرف والعرض ؟

و کیف مستفسر لهم ما حدث ؟

ثم يضاف إلى ألامها النفسية ألام جسدية مما يعسا حب الوضع فتتخور متواومتها ، وتغن عزيمتها ، ولتسمع إلى القرآن يعبر عن ذلك بقوله على لسانها : ﴿ يَلَيْتَنِي مَثُ قَبْلُ هَذَا وَكُنْتُ ذَسِيًا مَنَسِيًا ۝ ﴾ .

ولكن تطورا مفاجئا يبدل كل شيء ، وينتهي أزمتهما ، ويرى جراحهما المادية والمعنوية ، فتري من آيات الله ما يرد إليها يقينها ، ويعلموها ثقة تواجدها العالم ، وتتحدى الدنيا ، وإذا بها تعود غير مكترثة لشيء تعمل ابنها في اعتزاز وفخر ، مقصدة بأن الله الذي رأت فضله وقدرته لن يتخلى عنها مصدقة بوعد ، ملتزمة بامر ، وعندما تبدأ محاسبتها أمام قومها بالسحرية اللادعة ، والتوبيخ المهيمن ، لا تحرك ذلك ساكنا فيها ، ولا تهتز ثقتها في الله ولا تريد عن أن تشير إلى ابنها ﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ إنه الاطمئنان القلبي لنصر الله ورعايته .

ولكن قومها معذرون ، فهي تخدمهم بما لم يعهدوا ، فلا تقنعهم إحسانها بل يرون فيها حكماً لهم ، واحتقاراً لهم ، فيردون عليها وهم في ذروة انفعالهم منكسرين

ذلك عليها ﴿ كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴾

ثلث قدرة التمييز على إبراز المتاعر والتعير عن أعمق الانفعالات شعاعاً  
لشراك أساطال القديمة مناعرهم فنهجهم فهو مرمم بالإشفاق عليها ، والتعاطف معها في



منها . والإعظام لشأنها والإعجاب بقوة يقينها ، وتتمنى لو كنا هناك لندفع عنها  
الأذى ونرده على لائمتها .

ونلاحظ أن أسلوب القصة القرآنية يتضمن التشويق ، وتصوير المشهد ،  
وتخرج الجوانب الدينية بجوانب القصة ، ويبرز الحوار الحسن . ويكرر بلا مثل أو  
سامة .

### ٥ . التشويق والإشارة في الأسلوب

يتفحص أسلوب القرآن الكريم الإشارة والتشويق بعدة طرق فمرة يفصل بعد  
إجمال ، ويبين بعد إجمال ، لأن النفس مع الإجمال ، والإجمال تشويق إلى معرفة ما وراء  
ذلك ، وتنبه لما يأتي عساه يكون شارحاً ، موضحاً ومثاله قوله تعالى : ﴿ وَجَزَلْنَاهُمْ  
بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١١٠ ﴾<sup>١١</sup> هكذا عبر عن جزائهم في إجمال بأن مصيرهم الجنة  
ثم فصل ما في الجنة من ألوان النعيم فيقول ذاكرة أحوالهم فيها : ﴿ مُتَكَبِّرِينَ فِيهَا عَلَى  
الْأَرَابِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١١١ ﴾<sup>١٢</sup> وَذَانِيَّةٌ عَلَيْهِمْ ظِلُّهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا  
تَذْلِيلًا ۝١١٢ ﴾<sup>١٣</sup> .

ومثل قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ نَجْمًا كَبِيرًا ۝١١٣ ﴾<sup>١٤</sup> هكذا  
يمر في إجمال ثم يفصل بعض هذا الملك الكبير والنعيم فيقول سبحانه : ﴿ عَلَيْهِمْ  
ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ ۝١١٤ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقْنَاهُمْ زَبِيبًا شَرَابًا طَهُورًا  
۝١١٥ إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُمْ مَشْكُورًا ۝١١٦ ﴾<sup>١٥</sup> .

<sup>١١</sup> سورة الأنعام الآية ( ١١٠ ) .

<sup>١٢</sup> سورة الأنعام الآية ( ١١١ ) .

<sup>١٣</sup> سورة الأنعام الآية ( ١١٢ ) .

<sup>١٤</sup> سورة الأنعام الآية ( ١١٣ ) .

ومثل قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ <sup>١١</sup> فقد بين أن مساعي الناس في

الدنيا متنوعة ثم فصل ذلك بقوله : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ <sup>١٢</sup> وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ﴿١٣﴾  
فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى ﴿١٤﴾ وَأَمَّا مَنْ حِيلَ وَاسْتَعْنَى ﴿١٥﴾ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ﴿١٦﴾ فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى ﴿١٧﴾

ومثال الإلهام ثم التوضيح قوله تعالى : ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا

أَمْرَاتِ نُوحٍ وَأَمْرَاتِ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا  
فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّٰخِلِينَ ﴾ <sup>١٨</sup> فقد ذكر  
لفظاً ﴿ مَثَلًا ﴾ سبهماً تم فسرهما بما جاء بعده ليشير النفس إلى معرفة المراد وبشوقها إليه .

ومره بأسلوب التهييج ، ومثاله قوله تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِيعِ الْكَافِرِينَ  
وَالْمُشْفِقِينَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ <sup>١٩</sup> فحاشا لله أن يكون

المرسوم "يُفَقِّ" من لا يتقون الله حتى يؤمر بها ، أو أن يكون مطيعاً للكافرين فينهى عن  
طاعتهم ولكنه أسلوب الإلهاب والتهييج الذي يراد به الخث على زيادة التمسك  
والتصلب والثبات على ما هو عليه ، ويكون فضل هذه الطريقة في التعبير على قولنا :  
استسِر في التقوى أو ازدد منها وازدد تمسكاً بعدم طاعة الكافرين والمباغين : هي أنها  
تفيد مع ذلك الإلهاب والتهييج ، وتثير الشعور والوجدان ، فتكون النفس أحسن تلقياً  
وأكثر تمسكاً بما هو كائن ، ولذلك نجد هذا الفن من فنون القول مستعملاً في المعاني  
الهامية نقي هي أصول في هذا الدين <sup>(٢٠)</sup> .

<sup>١١</sup> سورة طه الآية ( ٤ ) .

<sup>١٢</sup> سورة طه الآية ( ٥ ) .

<sup>١٣</sup> سورة طه الآية ( ٦ ) .

<sup>١٤</sup> سورة طه الآية ( ٧ ) .

<sup>١٥</sup> سورة طه الآية ( ٨ ) .

## ٦ . التأثير الصوتي من خلال الترتيل

يقول الدكتور محمد دراز : أول ما يلاحظ ويسترعى انتباهك من أسلوب القرآن شاعبيته تأليف الصوتي في صورته ، وجوهه ، دج القارئ الخلود يقرأ القرآن برنقه حتى ترتيله ، نازلاً بنفسه على هوى القرآن ، لا نازلاً بالقرآن على هوى نفسه ، ثم أنتسمد مكاناً قصياً ، لا تسمع فيه جرس حروفه ، ولكن تسمع حركاتها . وسكناتها وديانها ، وغنائها ، واتصالها ، وسكناتها ، ثم ألقى بسمعك إلى هذه المجموعة الصوتية وقد حردت تجريدك وأرسلت سادجة . في الهواء فستجد نفسك منها بازاء نفس غريب لا تباد في كلام آخر ، ستجد اتساقاً واتساقاً يسترعي من سمعك ما تسترعيه الموشقي والتسمع على أنه ليس بأنعام ولا بأوران .

ثم يقول : وهذا الجمال التوقيعي في لغة القرآن لا ينفص على أحد ممن يسمع القرآن ، حتى الذين لا يعرفون لغة العرب <sup>(١)</sup> .

وقد تحدثنا من قبل عن الألفاظ المصورة لجرسها الخاص ، حتى أنها تكاد ترسم صورة للسمعي ينعشها المميز من أمثال : الصاعقة ، والصرصر وغيرهما .

ثم هو في بناء جملة يعسد إلى لون من التوافق تكاد تكون به متوافقة في الوزن ، فلنقرأ قوله تعالى : ﴿ وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى ﴾ وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى ﴾ وَمَا خَلَقَ

الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى ﴾ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ <sup>(٢)</sup> فنجد ذلك الإيقاع المميز الذي يسمع في هذه الجمل ، فيجعلها كأنها مضبوطة بنقاعيل ، وأوزان متحدة .

وهذه سمة أخرى للتعبير القرآني هي ذلك التشاكل الواقع بين الحروف في أواخر الآي يطلق عليه العلماء الفواصل ، وهي عند التعبير بميزة صوتية أخرى تزيد تأثيره - نغاب وظيفتها المعنوية . إذ تساعد على تلاوته مرتلاً مجوداً . بأنعام أسره :

<sup>(١)</sup> انظر في تفسيره : ج ١٠١ - ١٠٢ .

<sup>(٢)</sup> سورة النحل : الآيات ( ١ - ٤ ) .

ذات إيقاع يتناسب مع الموقف، واتجاه المشاعر التي تصاحبها، ولهذا يرى القرآن الكريم  
يشمل من فاصلة إلى أخرى تبعاً للموقف، وما يتطلبه من إيقاع يتناسب معه .

ولنقرأ قوله تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا الْمُدْثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾  
وَتَبَايَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴿٥﴾ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْبِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾ ١١  
فهنا يستخدم قافية الراء الساكنة التي يوحى إيقاعها بالحزم والجد الذي يستوحيه  
سياق هذه الأوامر إلى خيبة الكريم بعد انقطاع الوحي عنه .

فإذا انتقل إلى غرض آخر تغيرت الفاصلة بأخرى ذات إيقاع مغاير ﴿ فَإِذَا  
نُفِرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ عَسِيرٌ ﴿٩﴾ عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ١٢  
فهو هنا يذكر باليوم الآخر وما فيه من أهوال ، فيختار الألفاظ المتسمة بالشدة  
والقافية الموحية بالرهبة العميقة .

ومثل هذا نجد في قصة مريم : فقد التزم في القافية الياء المشددة ، ﴿ وَادْكُرْ  
فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ اتَّيَبَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَادًا شَرِيفًا ﴿١﴾ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا  
فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿٢﴾ ١٣ إلى آخر القصة فإذا انتهت  
وانتقل إلى تقرير معنى القصة وبيان العبرة من ذكرها نقرأ قوله تعالى : ﴿ ذَٰلِكَ  
عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ۖ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿١٩﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ  
سُبْحَنَهُ ۚ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ  
فَاعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٢١﴾ ١٤ فتغير القافية كما ترى : وكأنما هذه

١١ سورة النازعات ( ١ - ٧ ) .

١٢ سورة النازعات ( ٨ - ١٠ ) .

١٣ سورة مريم ( ١٦ - ١٧ ) .

١٤ سورة مريم ( ٢١ - ٢٦ ) .

الآيات الأخيرة تصادح حكماً مستمداً منها ، وللمجدة الحكم تقتضى أسلوباً موسيقياً غير أسلوب الاستعراض ، وتقتضى إيقاعاً رصيناً قوياً يدل إيقاع القصيدة الرضى المسترسل وكأنما لهذا السبب كان التعبير <sup>(١)</sup> .

وهكذا يستخدم القرآن الكريم الخصائص الصوتية كوسيلة للتأثير كما سبق أن بسا ، فيختار لكل مقام ما تتسوجبه البلاغة في التعبير عنه .

## ٧ - إظهار عوامل الطاعة

يعمل أسلوب القرآن الكريم على إبراز عوامل الطاعة في النفس البشرية .  
 « وردت لفظة عديدة من ألوان الترهيب والترهيب » <sup>(٢)</sup> .  
 ويخاطب الإنسان بمدى علم الله وقدرته ، ويدعو دائماً إلى النظر في الآيات الكونية ، والإنسانية .



<sup>(١)</sup> انظر : الذي في المجلد ١ - ص ٩٠ - ٩١ .

<sup>(٢)</sup> سوف نفضل هذا الجانب في الجزء التالي بإذن الله تعالى

## المبحث الثامن

### توافق الأسلوب والموضوع

حين نعيش مع أسلوب الدعوة في عصر الرسالة نلاحظ دقة التوافق بين الأسلوب والموضوع .

**الدعوة إلى العقيدة :** إذا كان الموضوع دعوة إلى العقيدة نرى الأسلوب يتجه إلى قدرات الإنسان المختلفة بالإقناع ، والدليل .

فمرة يتجه إلى العقل ، فيجاذله ليكشف له عن زيف ما هو عليه من عقيدة فاسدة ، وأنها متهافة لا تقوم على أساس ولا بقرها منطق سليم وليسوق له بعد ذلك الأدلة القاطعة على صحة العقيدة الجديدة : وشهادة المنطق لها ، واطمئنانه إليها ، وهم في جدله ذاك يسوقه في أسلوب يجتمع له جوانب الإقناع العقلي ، والتأثير الوجداني ، مما يجعله جديراً بأن يطلق عليه المنطق الوجداني كما سبق .

فقد جادل المشركين ، وركز في جدله على إثبات محجز هؤلاء المشركاء المزعومين ، وعرض ذلك في أساليب متعددة .

مرة بالتلطف ، والاستدراج : وإشراكهم في استنباط النتائج : والوصول إلى الحق كما فعل إبراهيم " عليه السلام " في إبطال عبادة الكواكب ، وكيف استعرضها إبراهيم " عليه السلام " واحداً واحداً ، ليثبت عدم أحقيتها للألوهية ، حتى إذا انتهى منها جميعاً صدع بالحق الذي يريده قائلاً : ﴿ يَنْقُومُ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ (٢١) إِنْ وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢٢) .

ومرة بأسلوب المواجهة الصريحة ، التي تقطع كل حجة ، وتنتهي كل جدل ، كما في تلك التجربة العملية التي قام بها إبراهيم ، ليثبت لقومه أن أصنامهم عاجزة ، لا عن النفع والضر فقط ، بل عاجزة أيضاً عن أن تدفع عن نفسها ، وذلك عندما

حفظها وجعلها جذاذاً متنازلاً تطوّر الأقدام .

ومرة بأسلوب التقرير الذي يعبرهم على النطق بالحق الذي لا يدع <sup>١١</sup> قول  
هل من شركاءكم من يمدوا الخلق ثم يعيده <sup>١٢</sup> قل الله يبدؤا الخلق ثم يعيده <sup>١٣</sup> فأنى  
تؤفكون <sup>١٤</sup> قل هل من شركاءكم من يهدي إلى الحق قل الله يهدي للحق <sup>١٥</sup> أفمن  
يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم لا يهدي إلا أن يهدي <sup>١٦</sup> فما لكم كيف  
تحكمون <sup>١٧</sup> ﴿١٨﴾

ومرة بالسحرية منهم وتصويرهم في صورة العاجز عن اتقاه الأمور ، كما  
 رآنا في قوله تعالى : ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ ۚ فَاذْكُمُوهُ لَهُ ۗ إِنَّ الَّذِينَ  
 تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۗ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْعًا  
 لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ۚ ﴾ .

ومرة تطلب إليهم بالدليل على دعواهم حتى إذا عجزوا كان ذلك قاطعاً في إطلاقها لأنها لا تعتمد على دليل .

ومرة لنتفهم على تدبر ما في الكون من دلائل على وحدانية الله وهو في هذا المجال يعرض عليهم صفحات ناطقة من كتاب الكون الدالة على ألوهية الله ووحدانيته، فليس عليهم إلا أن يعملوا عقولهم، ويتدبروا ويستبدوا الحقيقة لبصائرهم حانية لا تحتاج إلى دليل .

وينجده القرآن الكريم إلى الوجدان كذلك باعتباره وعاء الشعور الإنساني  
والمصحح لغيره وزيادته ، وحواجز إرادته حيث يراه :

$$(\tau_0 - \tau_1) \log \frac{1}{\epsilon} \leq \frac{1}{\epsilon} \log \frac{1}{\epsilon}.$$
$$r \in (V^{\text{op}}) \cap \mathbb{N} \mid \exists s \in \mathbb{N} \text{ s.t. } r \leq s \text{ and } s \in V^{\text{op}}$$

• يشير غريزة حب الذات بالترغيب ، فالإنسان يميل على سحب الخير لنفسه والسعى لما يشغفه ، فيعلمه بالخير في الدنيا والآخرة ، ويعرض عليه مسوراً وأهلاً مند ، مستخدماً كل وسائل التأثير ، من تصوير معجب ، وتأكيده قوى ، وسويقي يثير الكوامن ، فيريده الجنة كأنه يرى مباحثتها ، ويستروح مسامحتها ، ويبرز له ما يستعده الإيمان في القلوب من شعور باليمن وشعور بالرضا إلى آخر تلك المعاني التي تسمى الوجدان وتفتح معاليق القلوب .

• يشير غريزة الخوف بالترهيب مما سيترتب على عدم الاستجابة من هزل وبلاء في الدنيا والآخرة أيضاً ، فيعرض عليه صور العذاب في الآخرة ، ويذكره بما أصاب الأمم السابقة في الدنيا عندما نولت عن دعوة الله ، في أساليب تجعله يرى عسائر التوب ، ويسمع أناسهم ، مما يهز القلوب ، ويلزول النفوس لتبتاد وتلين .

• يشير غريزة التدين في الإنسان التي تدفعه إلى السجود عن الخلق ، فيبذل إياه ، في أسلوب اتحاد نجته فيه على التضر في آيات الله ، ويعرض عليه من ذلك ما يتمتع الخلق وتعتل بها .

• كما تثير فيه مشاعر الحمية والإجلال لله ، مما يعرضه لحديد من صفات جلاله ، وعظائم آياته الدالة على قدرته ، كما تثير مشاعر الحب لله ، ورجاء فضله والودود إليه والتوكل عليه ، والثقة في رعايته وحمايته ، مما يعرضه من ألوان نعمه ، وعظيم فضله ، وساخ رحمته ، فهو الرحمن الرحيم ، الودود ، الغني ، الباسط ، الجواد ، أوسع نعمه على الناس ظاهرة وباطنة .

تلك المعاني التي تحتل رباطاً روحياً شامكاً يشد الإنسان إلى ربه ، يكررها القرآن ويؤكدها حتى تستقر في النفوس فتترقق العواطف وتلين القلوب وتندمها في الحق حل وعلا .

كما يستنميش القرآن شعور الكرامة الإنسانية بهيباً ، أن يدل المخالف عليه ، وأن يعم وجهه ، لا تملك لنفسه شيئاً ، ويذكر في شعور الاعتزاز بما صنفي .



على سائر خلقه ، من اصطقاته للخلافة في الأرض وحمل الأمانة ، وتلك الميزة العالية لا يصح أن يهدرها الإنسان فيسجد للحجر ، أو يطلب العون من حماد .

هذه الغرائز وتلك المشاعر التي يتجه إليها القرآن ليحدد الحق طريقه إلى المطلوب من خلالها ، يختار في التعامل معها ما يناسبها من الأساليب المؤثرة التي توضح أوارها ، وتركى حميتها .

### الدعوة إلى العبادات :

إذا كانت الدعوة إلى العبادات ترى القرآن الكريم يتجه إلى غريزة حب الذات بالترغيب ، فبعرض ألواناً مما تحققه العبادات للمسلم في الدنيا ، فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر، وعند حديثه عن الحج يشير إلى أنه فريضة ليشهد المؤمنون منافع لهم والزكاة تطهر المال وتركى النفوس، وتحقق الخير للمجتمع كله، وتربط بين العبيد والتعبير برباط الحب والإخاء، ثم يسوق ألواناً من الجزاء في الدنيا بمضاعفة الخير، والتفريق الجزاء الأول في الآخرة ، ويعرض ذلك في سورة اسرة تدفع النفوس دفعاً للطاعة .

ويتوجه إلى غريزة الخوف بالترهيب ، فيوعد المقصرين بكل ألوان العذاب ويتوجه إلى غريزة الملكية فيقتل من حذنها ، كما في تسميته الصدقة قرمداً فهي لمن نضيع بل كضاعف ، ويؤكد أن ما ينفقه المسلم اليوم سيضاعفه له الله غداً ، ويذكر بأن المال الذي في يد الأغنياء إنما هو مال الله جعلهم مستخلفين فيه ، فهو بطالهم بإعطاء الفقراء بعض ما أعطاهم من مال .

ويتوجه إلى النفس الإنسانية فيعالج أدواءها من بخل وشح وحب للجاه والاستعلاء ، والمن والأذى .

كذلك لا حظ له الإسلام في دعوته للعبادات ، لأن طبيعة الموطوع تقتضيه . يساقه في أساليب زاهرة بألوان من وسائل التأثير .

### الدعوة إلى المعاملات :

إذا كانت الدعوة إلى المعاملات ترى القرآن يتجه إلى الألفاظ فيختار أدقها، وأحكمها في الدلالة على المعنى المراد، ويكون استعماله للألفاظ استعمالاً

حقيقياً ، فإذا أطلق لفظاً إطلاقاً مجازياً لغرض ما ، كان ذلك واضحاً المتأخذ قريباً ، شديد الظهور ، كما في تسميته المرضعة أمّاً ، والمشاركة للطفل في الرضاعة من الأم أختاً . وفي الصياغة القرآنية تقصد الآيات إلى تقرير الحقائق الدينية ، والأحكام الشرعية دون مبالغة أو تحوز ، فلا يستعمل الخيال في أصول المعاني المرادة ، وإنما يكون التعبير الحقيقي ، المفصل ، الواضح ، إذا كان المقام يستدعي التفصيل ، أو الجمل الجامع إذا كان المقام له .

ويؤثر غالباً المعاني الوجدانية لبعث الثقة فيها لأنها حكم الله العليم عما يصلح الناس : أو التذكير برقابة الله وإصلاحه على الأعمال أو التحذير من مخالفتها ، وإثارة شعور التقوى في النفس ، أو الترغيب في الطاعة ، والوعيد بعزيل الأجر ، وحسن المثوبة ، كما يستخدم وسائل التأثير الأخرى كالتوكيد ، وتكرير صفات الله في المواضع ، أو إثارة الشعور الأخلاقي في النفس ، وباللمسات الوجدانية التي توحى بها الألفاظ والتعبيرات .

### وهكذا ..

يتوافق أسلوب القرآن الكريم مع الموضوع الذي يدعو إليه ، بدقة بديهة تتفق المفصود من الأسلوب .

## المبحث التاسع

### مواجهه عدوان الكفار

نيقن كفار مكة أن دعوة محمد ﷺ تختلف عن ما سبقها من أفكار الخلفاء ، و امتاحهم من ناحية تحديد موضوعها ، و ثباتها ، و سمو أهدافها ..... و كان أكثر ما أثار انتباههم ازدياد قوة المسلمين يوماً بعد يوم ، و شدة تواصل المؤمنين ، و ترايبتهم ، و قوة حب المسلمين لله و رسوله ، و عظمه اعتزاز المسلمين بدينهم ، و تمسكهم بتطبيق تعاليمه بصدق و إخلاص .

وصل كفار مكة إلى هذا الفهم ، و بدأوا في التحرك لمواجهة ، و قد أخذ توجههم برداد عنفاً " شيئاً " فشيئاً " من أجل الوصول إلى إطفاء نور الحق ، و القضاء على الدين الوليد .

بدأوا - أولاً - بإغراء النبي ﷺ بالمال ، و الحاد ، و السلطان و بكل ما يريد شريطة أن يترك دعوته <sup>(١)</sup> لكنه صلى الله عليه و سلم رد عليهم بتمسكه بدعوة الله ، و حذرهم من عاقبة كفرهم ، و أخذ معهم أمر الله له في قوله تعالى ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا ﴾ فَقُلْ أُنذَرْتُكُمْ صَبِيحَةً مِّثْلَ صَبِيحَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿٢﴾ .<sup>(٢)</sup>

و حاولوا " سثنانياً " - مساومة رسول الله ﷺ ليجمع شيئاً من دينهم و شيئاً من دعوته ليلتقى الفريقان في منتصف الطريق ، و بذلك لا تضار آلهتهم لأنها ستعبد مع الله تعالى ، فرد عليهم رسول الله ﷺ بقوله تعالى ﴿ قُلْ يَتَأَيُّمُ الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَتَّبِعُ عِبَادُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾<sup>(٣)</sup>

(١) انظر ص ٣١٥

(٢) سورة فصلت آية ١٣

(٣) - سورة الكافرون

وطلبوا مدحاً ثانياً - أن يبقى أمره لنفسه ، و عني أن بيته فأن عديهم ذلك ، و عرفهم أنه رسول الله تعالى لهم : و للعالم كله .

عندئذ أخذوا في صمد الناس عنه بنشر الإشاعات الكاذبة عن رسول الله ﷺ فأكسوه بالسحر ، و الكذب ، و السفه ، و اتهموا القرآن بالاختلاق ، و النقل من الأساطير و اتهموا المسلمين بالضعف . و عدم التعقل - يحكى الله تعالى حملتهم هذه فيقول سبحانه ﴿ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ ﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ ﴿ وَقَالُوا مَا هِيَ هَذِهِ الرَّسُولِ يَأْكُلُ الضَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونُ مَعَهُ نَذِيرًا ﴾ ﴿ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكْوِينُ لَمْرَجَةٍ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾ وَقَالَ أَنْظِرْنَاهُمْ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴾ (١)

فلما بنسوا من محاولاتهم لرسول الله ﷺ ذهبوا إلى عمه عددا من المرات . مرة يطلبون منه أن يكف ابن أخيه عن دعوته لأنهما - في نظرهم - فرقت جمعهم و غابت أهنتهم ، و أساءت إلى أبااتهم .

و مرة يحاولون أن يستبدلوا به فتي منهم ، للقيام بقتله بعد ثلثه . فلما لم يستجب لهم أبو طالب ذهبوا إليه مهددين ، فكلّم أبو طالب محمدا ﷺ في الأمر ، فرد عليه بأنه مستمر على دعوته ، و لن يتركها بحال .

يصور ابن اسحاق ذلك فيقول ( و مضى رسول الله ﷺ في علي ما هو عليه يظهر دين الله و يدعو إليه ، ثم اشتد الأمر بينه و بينهم ، حتى تباعد الرجال . و تضاعفوا و أكثرت قريش ذكر رسول الله ﷺ بينها فتذا مروا فيه ، و حضض بعضهم بعضاً عليه . ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سنا و شرفا و منزلة فينا ، و إنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا ، و إنا و الله لا نصبر على

هذا من شتم آبائنا ، ونسفيه أحلامنا ، وعيب أمتنا حتى تكفه عفا ، أو ننازله و إياك في ذلك ، حتى يهلك أحد الفريقين ثم انصرفوا عنه .

معظم على أن طالب فراق قومه و عداوتهم ، و لم يطلب نفسا بتسليم رسول الله ﷺ لهم ، و لا لأحد منهم ، فبعث إلى رسول الله ﷺ فقال له : يا ابن أخي ، إن قومك قد جاءوك ، فقالوا لي كذا و كذا ، للذي كانوا قالوا له ، فأبى على و على نفسك و لا تخلي من الأمر ما لا أطيق ، فظن رسول الله ﷺ أنه قد بدا نعمة فيه بداء أنه خادله و مسلمه ، و أنه قد ضعف عن نصرته و القيام معه .

فقال رسول الله ﷺ : يا نعم ، و الله لو وضعوا الشمس في يميني و القمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله ، أو أهلك فيه ، ما تركته .

ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه و سلم ، فبكى ثم قام ، فلما ولي ناداه أبو طالب فقال : أقبل يا ابن أخي ، فأقبل عليه رسول الله ﷺ ، فقال : إذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت ، فو الله لا أسلمك لشيء أبدا .<sup>(١)</sup>

و حينئذ تأكدوا من قتلهم في تحريض عمه أبي طالب ، و تحريده ﷺ من الحساية و المساندة فوضعوا خطة متعددة الأطراف لإرهاب الرسول و المؤمنين ، و منع الناس من الاقتراب من رسول الله ، و الاستماع لدعوته . و يحمل هذه الخطة يتضح في النقاط التالية :-

- ١- قيام كل قبيلة بتعذيب ، و اضطهاد من أسلم من أبنائهم ، أو من عبيدهم .
- من ذلك أن أبا جهل كان إذا سمع برجل قد أسلم له شرف ، و منعه ، أنبه ، و أخزاه و أوعده بإبلاغ الخسارة الفادحة في المال ، و الجاه ، و إن كان ضعيفا " ضربه و أغرى به " <sup>(٢)</sup>

(١) سيرة النبي ص ١ ص ٢٦٥، ٢٦٦

(٢) سيرة النبي ص ١ ص ٣٢٠

- و لما علمت أم مصعب بن عمير بإسلامه أجاخته، وأخرجته من بيته . و كان من أنعم الناس عيشا، فتحشف جلده تخشف الحية <sup>(١)</sup>

- و كان أمية بن خلف الجسحي يضع حبلا في عنق مولاه بلال، ثم يسلمه إلى الصبيان يطوفون به جبال مكة، وكان أمية يشده شدا" ثم يضربه بالعصا، و كان يلجئه إلى الخدوس في حر الشمس، كما كان يكرهه علي الجوع، وأشد من ذلك أنه كان يخرج إذا حميت الظهيرة فيطرحه في بطن حاءمكة، ثم يأمر بالمسخرة العظمية فتوضع على صدره، ثم يقول: لا والله لا تزال هكذا حتى تموت، أو تكفر بمحمد، و تعبد اللات و العزى . فيقول بلال- و هو في ذلك أحد، أحد حتى مر أبو بكر يوما" و هم يصنعون ذلك به، فاشترى بـغلام أسود، و قيل بسبع أواق أو بخمس من النضه و اعتقه <sup>(٢)</sup>

- و كان عمار بن ياسر رضي الله عنه مولى نبي مزروم، أسلم هو و أبوه و أمه فكان المشركون - و على رأسهم أبو جهل يخرجوكم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبوكم بحرها . و مر بهم النبي ﷺ و هم يعذبون فقال لهم : صبروا آل ياسر ! فإن موعدكم الجنة، فمات ياسر في العذاب، و طعن أبو جهل سمية - أم عمار - في قلبها بحربة فماتت، و هي أول شهيدة في الإسلام، و شددوا على عمار بالحر تارة، و بوضع الصخر على صدره تارة أخرى، و بالتغريق نالته . و قالوا : لا تتركك حتى تسب محمدا" أو تقول : في اللات و العزى خيرا، فوافقهم على ذلك مكرها وجاء باكيا معذرا إلى النبي ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ <sup>(٣)</sup>

(١) ر منه العائدين ص ٥٨

(٢) سورة ابن هشام ج ١ ص ٣١٧، ٣١٨

(٣) سورة السجدة آية ٢٠

- و كان أبو فكيهة و اسمه أفلح - مولى لبيبي عبد الدار ، فكانوا يشدون برصده الحبل ثم يعزونه على الأرض<sup>(١)</sup> .

- و كان حباب بن الأرت مولى لأم أخت سباع الخزاعية . فكان المشركون يذبحونه أنواعا من التشكيل ، يأخذون بشعر رأسه فيجذبونه جذبا ، و ينوون عقه بدمية خفيفة و يضععونه مرات عديدة على فهم ملتزمة ، و يضعون عليه حجرا . حتى لا يستطيع أن يقوم<sup>(٢)</sup>

- و كانت زبيرة ، و الشهيدة ، و ابتها ، و أم عبيس إماء أسلمن ، و كان المشركون يسومونهن من العذاب أمثال ما ذكرنا .

- و أسلمت جارية لبي مؤمل - و هم حتى من بني عدى - فكان عمر ابن الخطاب و هو يومئذ مشرك - يضرها ، و إذا مل قال : إلى لم أتركك إلا ملالة<sup>(٣)</sup>

- و كان المشركون يلغون بعض الصحابة في إهاب الإبل و البقر ، ثم يلغونه في حر الرمضاء ، و يلبسون بعضا آخر درعا من الحديد ثم يلغونه على صخرة ملتزمة<sup>(٤)</sup>

- و قائمة التعذيب طويلة شملت أغلب من أسلم في مكة بعد الجهر بالدعوة ، يروى ابن كثير بسنده عن ابن جبير أنه قال : قلت لعبد الله ابن عباس : " أكان المشركون يذبحون من أصحاب رسول الله ﷺ من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم ؟

قال : نعم والله ! إنهم كانوا يضربون أحدهم ، و يجيعونه ، و يبطشون به حتى ما يقدر أن يستوى جالسا " من شدة الضر الذي به ، حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة ، حتى يقولوا له اللات و العزى إيمان من دون الله ، فيقول : نعم ! افتداء منهم بما يلغون من جثدهم .<sup>(٥)</sup>

(١) روضة المفطين ج ١ ص ٥٧

(٢) تقيع فوهم أهل الأثر ص ٦٠٦

(٣) سيره ابن هشام ج ١ ص ٢١٩

(٤) إرملة العالمين ج ١ ص ٥٨

(٥) شداه و التبليغ ج ٢ ص ٥٩

٢- إبعاد فريق من شباب الكفر ممن يجيد فن التعامل مع الناس ، ليسروا على القبائل في مواسمهم ، ليقولوا في رسول الله ما شاءوا من قول سيء ، ووشاية كاذبة .

٣- تكليف جماعة من ابنائهم لملاحقة رسول الله ﷺ عند البيت ، وشتمه ، ووصفه بكل صفة منفرة ، و إحاطته بالسحرية ، و الاستهزاء حتى تسقط مهابته في نظر الناس فعن عمرو بن العاص ﷺ أن عروة ابن الزبير سأله عن أكثر ما رأى من فريش إيذاء لرسول الله ﷺ .

قال : " حضركم ، و قد احتسح أشرافهم يوما في الحجر : فذكروا رسول الله ﷺ فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط : سمع أحلاما ، و شتم أباءنا ، و غاب ديننا : و فرق جماعتنا ، و سب أئمتنا ، لقد صبرنا منه على أمر عظيم . "

فبينما هم في ذلك إذ طلع رسول الله ﷺ فأقبل يمشى حتى استلم الركن . ثم مر بهم طائفا بالبيت ، فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ، فعرفت ذلك في وجه رسول الله ﷺ ، ثم مر بهم تالفة فغمزوه بمثلها ، فوقف ، ثم قال : أتسمعون يامعشر قريش ، أما الذي نفسى بيده ، لقد جئتكم بالذبح ، فأخذت القوم كلمته حتى مامتهم رجل إلا كأنما على رأسه طائر واقع ، حتى أن أشدهم فيه و صاوة قبل ذلك ليرفوه بأحسن ما يجد من القول فيقول : إنصرف يا أبا القاسم . فوالله ما كنت جهولا " فانصرف رسول الله ﷺ ، حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر و أنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكركم ما بلغ منكم ، و ما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .

فبينما هم في ذلك طلع عليهم رسول الله ﷺ فوثبوا إليه وثبة رجل واحد و أحاطوا به ، يقولون له : أنت تقول كذا و كذا ، لما كان يقول من عيب أئمتهم و دينهم .



مفعول فم رسول الله " ﷺ " : نعم أنا الذي أقول ذلك .

ورأيت رجلاً منهم يأخذ بمجموع رداءه " ﷺ " ، فقام أبو بكر رضي الله عنه ، و هو سكي  
و يقول : أنسلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ ثم أنصرفوا عنه ، فإن ذلك الأسد ما  
رأيت مريئاً نالوا منه فقط <sup>(١٢)</sup>

و قد سبق أن ذكرنا ما كان منهم مع رسول الله " ﷺ " في قصة اسلام حمزة رضي الله عنه <sup>(١٣)</sup>  
٤ - التعت في مواجهة رسول الله ، و طلبهم أموراً خارقة للعادة ، دليلاً على صدقه  
و هم مع ذلك عازمون على الكفر ، مهما جاءهم من الخوارق ، و لذلك قال الله تعالى  
نرسول الله " ﷺ " ليصرفه عن مواجهتهم : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَتْهُمْ  
آيَةٌ لِّيُؤْمِنُوا بِهَا قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُشْجِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ  
﴿١٤﴾ وَتَقَلُّبُ أَفْعَادِهِمْ وَابْتِصَارُهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ  
يَخْمَهُونَ ﴿١٥﴾ وَلَوْ أَنَّا نَزَّلْنَاهُ إِلَيْهِمُ الْمَلَأِيكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْتَوَاتَى وَخَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ  
شَيْءٍ قُبَلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَئِنْ أَكْثَرَهُمْ جَاهِلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ <sup>(١٤)</sup>

و قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَلَوْ  
جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿١٨﴾ ﴾ <sup>(١٥)</sup>

نقد رأى أهل مكة العديد من المعجزات الخارقة للعادة و على رأسها القرآن الكريم  
، و مع ذلك لم يؤمنوا ، فلما طلبوا خوارق جديدة لم يستجب الله لهم ورحمة لهم .  
لأنه سبحانه و تعالى لو أوجد لها ضم ، و استسروا على كفرهم لعذبهم عذاباً شديداً .

١٢) سورة البقرة آيات ٢٥٥-٢٥٦

١٣) سورة البقرة آيات ٢٥٦-٢٥٧

١٤) سورة الانعام الآيات ١١٣-١١٤

١٥) سورة البقرة آيات ١٧٧-١٧٨

يروى ابن كثير ان ابن عباس قال : " قالت قريش للنبي ﷺ : ادع لنا ربك يجعل  
انا الصفا ذهباً " و تؤمن بنت .

قال ﷺ : و تفعلوا ؟

قالوا : نعم .

فدعا الرسول ﷺ ربه فأتاه جبريل

فقال : يا محمد إن ربك يقرأ عليك السلام و يقول لك إن شئت أصبح الصفا لهم  
ذهبا . فمن كفر منهم بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحدًا من العالمين ، و إن  
شئت فتحت لهم باب الرحمة و التوبة ، قال : بل التوبة و الرحمة <sup>(١)</sup>

و قد واجه رسول الله ﷺ هذا العدوان بطرق عديدة أهمها : -

### ١- تقوية إيمان المعذبين :

أخذ رسول الله ﷺ في تقوية إيمان المعذبين ، و عرفهم أن المؤمنين  
دائماً في بلاء ، و أنهم ياتونهم يعملون للأخرة قبل الأولى ، يقول ابن اسحاق : " وكانت  
سورة مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر ، و نأبيه و أمه ، و كانوا أهل أول بيت في الإسلام  
إذا حميت الظهر ، يعذبوكم برمضاء مكة ، فيمركم رسول الله ﷺ فيقول ، فيما  
بلغني : صبرا " إلى ياسر ، موعدكم الجنة . فأما أمه فقتلوها ، و هي نأى إلا الإسلام <sup>(٢)</sup> .  
و كان يقول لهم ﷺ : " أشد الناس بلاء الانبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل  
يسأل الرجل على قدر دينه " <sup>(٣)</sup>

و كان المسلمون يرون في رسول الله ﷺ المثل : والقادة . فهو أسبقهم إلى العدو ،  
و أولهم في النصحية ، و أفضلهم في الشرف ، و النبل ، و الطهر . و لذلك ساءفوا في  
كل ما عاهدوا الله عليه .

ولقد كانت آيات القرآن الكريم تنزل عليهم تؤملهم في النصر و تحدد لهم معالم الطريق

١- البداية و النهاية ج ٢ ص ٥٢

٢- السيرة النبوية ج ١ ص ٣١٩

٣- فيض القدير ج ١ ص ٥١٩

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ مَبَقَّتْ كَفَرَتُنَا لِعِبَادِنَا الَّامْرُسَلِينَ ﴿١٧٧﴾ اِنَّهُمْ لَهُمُ  
الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٨﴾ وَاِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٩﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حَتَّىٰ حَبْرٍ ﴿١٨٠﴾  
وَأَبْصِرْهُمْ فَسَوْفَ يُبْصِرُونَ ﴿١٨١﴾ اَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٨٢﴾ فَاِذَا نَزَلَ بِسَاحَتِهِمْ فَسَاءَ  
صَبَاحُ الْمُنْذَرِينَ ﴿١٨٣﴾ ۝ <sup>(١)</sup>

وكان الرسول " ﷺ " حريصا على تعريف المسلمين بحدى العبد الواجب  
تسمه يروى البخارى بسنده أن خباب بن الارت جاء الى النبي " ﷺ " وهو متوسد  
رده ، وهو فى ظل الكعبة ، و قد لقينا من المشركين شدة ، فقلت : ألا تدعو الله :  
بقعد ، وهو محسر وجهه ، فقال : " لقد كان من قبلكم ليمشط بمشاط حديد ما دون  
عظامه من لحم و عصب ما يصرفه ذلك عن دينه ، و ليؤمن الله هذا الأمر حتى يسير  
الراكب من صغاء الى حضرموت ما يخاف إلا الله و الذائب على غصه " <sup>(٢)</sup>

و بهذا التوجيه النبوى للجماعة المؤمنة الأولى ، ظهرت قوة ، صامدة ، شمسية ..  
و عملها ، وعلى أمثالها ، وجدت الأمة الإسلامية ، وتحقق للأسلام و المسلمين الكرامة  
و الحرية .

### ثانياً : تفويض الارقاء

كان أغلب من يعذب هم الارقاء الذين أسلموا عند سادتهم ، و لذا هدى الله  
أبا بكر رضي الله عنه إلى تحرير من استطاع تحريره ، و بارك رسول الله " ﷺ " فعله .  
من ذلك أن أبا بكر رضي الله عنه مر على بلال " رضي الله عنه " وهو يعذب ، فقال لأمية ابن خلف : ألا  
تتقى الله و هذا المسكين ؟ حتى متى ؟  
قال له : أنت الذى أفسدته فأنقله مما ترى .

فقال أبو بكر : أفعل ، عندي غلام أسود أجلد منه ، وأقوى ، على دينك ، أعطيكه به

(١) سورة الصافات الآيات ١٧٧-١٧٧

(٢) الرحيق المختوم ص ١١٧

فقال أبو بكر : هو لك ، فأعطاه أبو بكر الصديق ﷺ غلامه ذلك وأخذ بلالاً فأعتقه . ثم أعتق معه على الإسلام قبل أن يهاجر إلى المدينة ست رقاب ، بلال سابعهم ، وهم عامر بن فهيرة ، شهد بدرًا ، وأحداً ، و قتل يوم بدر معونه شهيداً ، وأم عيسى ، و زبيرة ، وقد أصيب بصرها حين أعتقها ، فقالت قريش : هنا أذهب بصرها إلا اللات والعزى ، فقالت : كذبوا و برئت الله ما تضر اللات والعزى و ما تضرعان ، فرد الله بصرها ، و أعتق النهدية و بنتها و كانتا لامرأة من بني عبد الدار ، فخر بهما و قد بعثتهما سيدتهما بطحين لها ، و هى تقول : و الله لا أعتقكما أبداً .

فقال أبو بكر ﷺ : حل يا أم فلان

فقالت : حل ، أنت أفسدتكما فأعتقتهما .

قال : فبكم عما ؟

قالت : بكذا و كذا .

قال : قد أخذتكما و هما حرتان ، أرجعا إليها طحينها .

فالتا : أو تفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها .

قال : و ذلك إن شئتما .

ومر بحارية من بني مؤمل ، (حى من بنى عدى بن كعب ) ، و كانت مسلمة . و عمر ابن الخطاب ﷺ يعذبا لترك الإسلام ، و هو يومئذ مشرك و كان يضربها ، حتى إذا مل قال : إني أعتذر إليك ، إني لم أتركك إلا ملالة ، فتقول : كذلك فعل الله بك فابتاعها أبو بكر ، فأعتقها <sup>(١)</sup>

و قد عاتب أبو قحافة والد أى بكر ولده فيما فعله . لانه رأى أن أبا بكر ينتق ماله في تحرير الضعفاء الذين لا ينفعون ، و لا يدفعون ضراً عنه ( كما يتصور ) ..  
و هنا قال له أبو بكر : يا أبت إني لم أفعل ذلك إلا لله .

فقرن فيه قوله تعالى ﴿ فَأَمَّا مَنْ أُعْطِيَ وَاتَّقَى ﴾ ① وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ②  
فَسَتِيْسِرُهُ لِلْيُسْرَى ③ ﴿ و قوله تعالى : ﴿ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْرَى ④  
إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ⑤ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ⑥ ①

### ① اثنا : هجرة المسلمين الى الحبشة

شفت الدعوة مسيرتها الصعبة بين كفار مكة ، وأخذ الأذى يلاحق كل من أسلم ،  
و رأى رسول الله " ﷺ " بعد سنين من الجهر بالدعوة أن الكفار ماضون في عنفهم ،  
و عنتهم ، و صدّهم الناس عن سبيل الله .... و لذلك أمر رسول الله " ﷺ " أصحابه  
بالمحجرة إلى الحبشة ، لما فيها من موطن آمن ، و وجود ملك لا يظلم أحداً ..

روى عن ابن مسعود أن رسول الله " ﷺ " بعث أصحابه إلى الحبشة و كانوا نحو  
ثمانين رجلاً ، و امرأة و ذلك في رجب سنة خمس من النبوة .

نقول أم مسلمة : لما نزلنا أرض الحبشة جاورنا النجاشي خير جار ، و أمنا على ديننا  
كما وعدنا الله ، لا نؤذى ، و لا نسمع شيئاً نكرهه ، و أقمنا في خير دار مع خير  
جار .

و عاش المهاجرون بالحبشة مدة سمعوا خلالها أن صلحاً أبرمه الرسول " ﷺ " و أهل  
مكة فجاءوا إلى مكة عائدين فلما اكتشفوا أن شيئاً لم يحدث عادوا مرة ثانية إلى  
الحبشة ، و ظل المهاجرون في الحبشة إلى أن هاجر الرسول ﷺ إلى المدينة فقدموا إليها  
بعد فتح خيبر .

هذه الكوكبة السابقة إلى المحجرة كان لها فضل السبق في إيصال الإسلام إلى خارج  
الجزيرة ، و الدعوة إليه بعملهم ، و سلوكهم .... و بهذا السبق تميزوا عن المهاجرين  
إلى المدينة ..... يروى البخارى بسنده عن أبي موسى الأشعري رضى الله عنه قال "   
نخنا مبعث النبي " ﷺ " و نحن باليمن فخرجنا مهاجرين إليه .

أنا و أخوان لي أنا أصغرهم ، أحدهم أبو بردة ، و الثاني أبو رهم في ثلاثة و خمسين أو اثنين و خمسين رجلاً" من قومي فركبنا سفينة ، فالتفتنا سفينتنا إلى النجاشي بالحبيشة ، فوافقنا جعفر أبي طالب ، فأقمنا معه حتى قدمنا جميعاً إلى النبي ﷺ حين أفتتح خير ، و كان أناس من الناس يقولون لنا ، سبقناكم بالحجرة ، و دعت أسماء بنت عميس ، و هي ممن قدم معنا على حفصة زوج النبي " ﷺ " زائرة ، و قد كانت هاجرت إلى النجاشي فيمن هاجر ، فدخل عمر على حفصة ، و أسماء عندها فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟

قالت حفصة : أسماء بنت عميس .

قال عمر : الحبيشية هذه ؟ البحرية هذه ؟ ! !

قالت أسماء : نعم .

قال : سبقناكم بالحجرة ، فخرج أحق برسول الله " ﷺ " منكم ، فعضبت و قالت : كلا و الله ، كنتم مع رسول الله " ﷺ " يطعم جائعكم ، و يعط جاهلكم ، و كنا في دار ، أو في أرض البعداء ، و ذلك في الله و في رسوله " ﷺ " و أتم الله لا أطعم طعاماً و لا أشرب شرباً" حتى أذكر ذلك للنبي " ﷺ " ، و أسأله و الله لا أكذب ، و لا أزيغ ، و لا أزيد عليه . فلما جاء النبي " ﷺ " قالت : يا نبي الله ، إن عمر قال كذا و كذا .

قال ﷺ : فما قلت له ؟

قالت : قلت له كذا و كذا .

قال ﷺ : ليس بأحق بي منكم ، و له و لأصحابه هجرة واحدة ، و لكم أنتم أهل السفينة هجرتان .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى و أصحاب السفينة يأتون أرسالا يسألوني عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شيء هم به أفرح ، و لا أعظم في أنفسهم مما قال لهم النبي ﷺ

قال أبو بردة : قالت أسماء : فلقد رأيت أبا موسى و أنه ليستعيد هذا الحديث مني<sup>(١)</sup>

و قد سر رسول الله ﷺ سرورا بالغيا بعودة مهاجري الحبشة بعد هذه الفترة الطويلة  
و أمر الاسلام يعلمو، و سلطانيته يمتد شمال شبة الجزيرة و جنوبها ، و عندما نزلوا بالمدينة  
فدام الحبيب المحبوب ﷺ يرحب بعودتهم، و يعلن فرحه بهم، و ذلك فيما يرويه الخاتم  
مسند صحيح عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : " لما قدم جعفر بن أبي  
طالب من أرض الحبشة قال رسول الله ﷺ " ما أدرى بأيهما أفرح : بفتح حبيب أم  
بندوب جعفر " (١).

إن الهجرة إلى الحبشة كانت مؤقتة ، يلجأ إليها المسلمون ، يكتشفون بها معالم  
الناس : و يعرفون على مذاهب و عادات الاقوام . و لذلك عاد المهاجرون إلى المدينة  
موطن الاسلام ، و مستقرة ، و قاعدة انطلاقه إلى العالم كله .

### رابعاً : انتهاء المقاطعة :

لم تقف المواجهه بين كفار مكة ، و بين المسلمين عند الهجرة إلى الحبشة بل  
أحداث تزداد عنفاً و شدة لأن كفار مكة فشلوا في رد المهاجرين إليهم ، واعتقالهم  
بعدها كانوا يتصورونه أمرا سهلا .

و حينئذ رأى كفار مكة ضرورة القيام بعمل حاسم للقضاء على محمد  
و دعوته فلما تصدى لهم بنو هاشم ، و بنو المطلب ، و تحصنوا بشعبهم ، اتفقوا على  
مقاطعة بني هاشم و بني المطلب ، بصورة تامة ، لا يجالسوهم ، و لا يبيعوهم ، و لا  
يتزوجون منهم ، و لا يزوجونهم ، و لا يتزوجون منهم . و استمرت المقاطعة ثلاث  
سنوات حتى اشتد الأمر بيني هاشم ، و بيني المطلب ، حتى آكلوا ورق الشجر ، و كان  
يسبح للأطفال بكاء من شدة الجوع .

و استمر الأمر على ذلك حتى أذن الله له بالانتهاء ، يروي ابن كثير ذلك بقوله :  
( و جمعت قريش في مكرها أن يقتلوا رسول الله ﷺ علانية ، فلما رأى أبو طالب عمل  
القوم جمع بيني المطلب و بيني هاشم و أمرهم أن يدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم — م —

و أمرهم أن يمنعوه ممن أرادوا قتله ، فاجتمع على ذلك مسلموهم ، وكافروهم ، فممنهم من فعل ذلك حمية . و منهم من فعله إيماناً و يقيناً .

فلما عرفت قريش أن القوم قد منعوا رسول الله ﷺ ، و أجمعوا على ذلك اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا أمرهم أن لا يجالسوهم ، و لا يجابعوهم ، و لا يبايعوهم ، و لا يبايعوهم ، حتى يسلموا رسول الله ﷺ للقتل ، و كتبوا في مكرهم صحيفة ، و عهدوا ، و موافق . لا يقتلون من بني هاشم صلحاً أبداً ، و لا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموه للقتل ، فلبت بنو هاشم و بنو المطلب في سبعهم ثلاث سنين ، و اشتد عليهم البلاء و الجهد ، و قطعوا عنهم الأسواق ، و لم يتركوا طعاماً يقدم مكة ، و لم يأتوا بيعاً إلا يادروهم إليه ، فأشتروه ، فأشدوا بذلك أن يتركوا سفك دم رسول الله ﷺ . فكان أبو طالب إذا أخذ الناس مضاجعهم أمر رسول الله ﷺ فاضطجع على دراهمه حتى يرى ذلك من أراد مكرأً و اغتيالاً له ، فإذا نام الناس أمر أحد بني ، أو أخوت ، أو بني عمه ليضطجع على فراش رسول الله ﷺ ، و يأمر رسول الله ﷺ أن يأتي بعض فرشلهم فينام عليه .

فلما كان رأس ثلاث سنين تلاوم رجال من بني عبد مناف ، و من قصى ، و رجال من سواهم من قريش قد ولد لهم نساء من بني هاشم ، و رأوا أنهم قد قطعوا الرحم ، و استخفوا بالحق ، و اجتمع أمرهم من ليلتهم على نقض ما تعاهدوا عليه من الغد ، و البراءة منه ، و بعث الله على صحيفتهم الأرضة فلاحست كل ما كان فيها من عهد ، و ميثاق .

و يقال إنها كانت معلقة في سقف البيت فلم تترك اسماً لله فيها إلا لحسته ، و بقي ما كان فيها من ظلم ، و شرك ، و قطيعة رحم ،

و أطلع الله عز و جل رسوله على الذي صنع بصحيفتهم فذكر ذلك رسول الله ﷺ لأبي طالب .

فقال أبو طالب : لا و التواقب ما كذبني فأنطلق بمشي بعصايتي من بني المطلب حتى



أبى المسجد ، و هو حافل من قريش ، فلما رأوه عاهدوا لمخاضهم أنكرها ذلك  
 و طأوا أقدامهم نحر حوا من شدة البلاء ، فأتواهم لبعضهم رسول الله ﷺ ، فتكلم أبو طالب  
 فقال : قد حدثت أمور بينكم لم نذكرها لكم ، فأتوا بصحيفتك التي تعاهدتم عليها  
 فنعلم أن يكون بيننا وبينكم صلح ، وإما قال ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل  
 أن يأتوا بها ، فأتوا بصحيفتهم معجيين بها لا يشكون أن رسول الله ﷺ مدعو عن يديهم  
 في صلحها بينهم . و قالوا : قد أن لكم أن تقبلوا ، و ترجعوا إلى أمر أجمع قومكم ، وإما  
 فطع نيسا و بينكم رجل واحد ، جعلتموه خطرا " فهاككة قومكم ، و عشرينكم .

فقال أبو طالب : إنما أتيتكم لأعطيكم أمرا " لكم فيه نصف ، و إن ابن أخي أخير  
 و لم يكذبني - أن الله يرى ، من هذه الصحيفة التي في أيديكم ، و هنا كل اسم هو  
 له سهم ، و ترك فيها غدركم ، و قطيعتكم إيانا ، و تظاهركم علينا بالظلم ، فإن كان  
 الحديث الذي قال ابن أخي كما قال فأفبقوا ، فو الله لا يسلمه أبدا " ، حتى يموت من  
 عدوا أخيرا ، و إن كان الذي قال باطلا دفعناه إليكم فقتلتموه ، أو استحيتم .

فأتوا : قد رضينا بالذي نقول ففتحوا الصحيفة فوجدوا الصداق المصروف في رؤوف قد  
 أحمر حبرها ، فلما رأوها قريش كالذي قال أبو طالب قالوا : و الله إن هذا سحر من  
 ساحرتكم فأنكسروا . و نادوا يسر ما كانوا عليه من كفرهم ، و الشدة على رسول  
 الله ﷺ و القمام على رهطه مما تعاهدوا عليه " (١) .

ثم إنه قام في نقض الصحيفة نفر من قريش ، و لم يزل فيها أحد أحسن من بلاء هشام  
 ابن عسرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن خامر بن ثوى و ذلك أنه كان  
 من أغنى نضلة بن هشام بنت عبد مناف لأمه ، و كان هشام يئس هشام و أملا ،  
 و كان ذا شرف في قومه فكان فيما بلغني - يأتي بالبيع ، و بنو هشام و بنو المطلب  
 في الشعب ليلا ، فآو قومه طعاما حتى إذا بلغ به هم الشعب جئع عظامه من رأسه ثم  
 صارت على حبه فدخل الشعب عليهم ، ثم يأتي به قد أوقر برا فيفعل به مثل ذلك .

و قال أبو طالب : و قد أنكر رواية أخرى في الأرملة ، و كانت كل معنى لصحيفة ما كان اسم الله تعالى

ثم إنه مشى إلى زهير بن أبي أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم و كانت  
أمه عاتكة بنت عبد المطلب ، فقال : يا زهير أقدر رضىيت أن تأكل الطعام، وتلبس  
التياب و تنكح النساء و أحوالك حيث علمت : لا يباعون و لا يبتاع منهم ، و لا  
يسكنون و لا ينكح إليهم ؟

أما إن أحلف بالله لو كانوا أحوال أبي الحكم بن هشام ثم دعوته إلى مثل ما دعائك  
إليه ما أجابك إليه أبداً .

فقال : و أنت يا هشام فماذا أصنع إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر  
لقت في نقصها .

قائل قد وجدت رجلاً .

قال من هو ؟

قال أنا .

قال له زهير ابغنا ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي فقال له : يا مطعم أقدر رضىيت أن  
يهلك بظلمان من بين عبد مناف، و أبت شاهد عفى ذلك، موافق لقريش فيه . أما  
والله لمن تغلبتم من هذه لتجدهم إليها منكم سراعاً .

قال : ابغنا ثالثاً

قال : لقد فعلت .

قال : من هو ؟

قال : زهير بن أبي أمية .

قال : ابغنا رابعاً، فذهب إلى أبي البختري بن هشام فقال لهم ما قال لمطعم بن عدي  
فقال : و هل تجد أحداً يعين على هذا ؟

قال : نعم ! قال من ؟ قال زهير بن أبي أمية و المطعم بن عدي و أنا معك

قائل : ابغنا خامساً .

وذهب إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد فكنسه، و ذكر له قرايتهم، و حققهم فقال له : و هل على هذا الأمر الذى تدعوى إليه من أحد ؟

قال : نعم تم سبى القوم ، فاتعدوا عند الحجون ليلا بأعلى مكة فاجتمعوا هنالك و أجمعوا أمرهم و تعاهدوا على القيام فى الصحيفة حتى ينقضوها .

و قام رهير بن أبي أمية فطاف بالبيت سبعا ، ثم أقبل على الناس ، فقال بأهل مكة : أنا كل الطعام و لبس الثياب ، و نتو هاشم هلكى لا يتناعون ، و لا يتناح منهم ، و الله لا أحد حتى تمتق هذه الصحيفة المقاطعة الظالمة .

قال أبو جهل - و كان فى ناحية المسجد - و الله لا تشق .

قال : زمعة بن الأسود : أنت و الله أكذب ، ما رضينا كتابتها حين كتبت .

قال أبو البختري : صدق زمعة لا ترضى ما كتب فيها و لا تقر به .

قال المطعم بن عدي : صدقتما و كذب من قال غير ذلك ، نبرأ إلى الله منها و مما كتب فيها .

و قال : هشام بن عسرو : نبرأ من ذلك .

قال : أبو جهل : هذا أمر قد قضى بليل ، تشوور فيه بخير هذا المكان .

و قام المطعم بن عدي إلى الصحيفة ليشقها فوجد الأرضة قد أكلتها إلا باسمك اللهم<sup>(١)</sup> .  
و هكذا انتهت هذه الفترة القاسية التى مر بها المسلمون فى مكة ، و جاء الفرج من عند الله تعالى ، و انتهت هذه المقاطعة الظالمة .

و شاءت إرادة الله تعالى بوفاة أبي طالب عم رسول الله ﷺ و زوجته خديجة رضى الله عنهما فى عام واحد ، عرف بعام الحزن فكان أن سرى الله تعالى عن رسول الله ﷺ رحلة الأسراء و المعراح . و بذلك تحلت معالم الدعوة العالمية فى لقاء رسول ﷺ يا خواله الرسل . و نما أو حى إليه .

## المبحث العاشر

### استمرار الحركة بالدعوة

في خلال مرحلة الاضطهاد والمواجهة كان الرسول بهحركت بالدعوة في الاتجاهات متعددة، ماذلاً ما أمكنه من جهد ، وفكر ، وتوحيد .

فقد عرض الاسلام على القبائل :وعلى جميع الرافدين إلى مكة في مواسم الحج والتجارة ، وواجه كفار مكة بدعوتهم إلى الله : و تلاوة القرآن الكريم عليهم ، و أبدى لهم ما بدعوتة من صدق ، و حق . . و بين لهم أن ما منعهم من الإسلام المجتود ، و التعصب ، يدل على ذلك اقوال و أفعال تطلق بها الكفار .

يقول أبو جهل ( يا محمد إنا لا نكذبك و لكن نكذب ما جئت به ، فأنزل الله ﴿ فَلْيَرْجِعْ أَفَلَمْ يَكُنْ لَهُ بَاقٍ أَن يَقُولَ لَئِنِ جَاءَ بِدَعْوَانَا لَنَحْمِصَّنَّ فِيهَا وَلَئِنِ أُنْزِلَ عَلَيْهَا آيَاتٌ مِّن رَّبِّنَا لَقَالُوا لَحَدِيثٌ عَلَصَ عَلَيْهِ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴾ ١١

وغمره الكفار يوم ما ثلاث مرات ، فقال لهم في الثالثة :يا معشر قريش : جئناكم بالذبح ، فأخذهم تلك الكلمة ، حتى أن أشدهم عدواة يرفوه بأحسن ما أتوا عليه . و لما ألغوا عنه سلا جذور و هو ساجد دعا نبيهم ، فذهب عنهم الضحكة و ساورهم الخس و القلق : و أبشروا أنهم هالكون .

و دعا علي بن أبي طالب فسلم فزل على يقين من لقاء ما دعا به عليه : حتى أنه حين رأى الأسد قال : قتلى و الله محمد - و هو بمكة .

و كان أن بن خلف يتوعده بالقتل . فقال : بل أنا أقتلك إن شاء الله ، طامعاً ظمئاً أياً في عنقه يوم أحد - و كان خلدش غير كبير قال :إن عمداً قال : أنا أقتلك - يوم الله لم يصف علي لقتلى .

و قال سعد بن معاذ - و هو بمكة - لأمية بن خلف : لقد سمعت رسول الله ﷺ يقول : إهم أي المسلمين قاتلوك ، فتزعزع فرعاً شديداً ، و عهد أن لا يخرج من

مكة ، و لما أخرج أبو جهل للخروج يوم بدر اشترى أجود بعير بمكة ليسكنه من الفرار  
فقال له امرأته : يا أبا صفوان ، أنسيت ما قال لك أعوك البشري ؟ قال : لا والله  
ما أريد أن أجوز معهم إلا قريبا .

و كان "عليه السلام" يعيش مع المسلمين بمدتهم بالوحي ، و يعلمهم الإسلام و يخلا قلوبهم  
باليقين ، و يعمل على سلامتهم ، و تحقيق الخير لهم بكل ما أمكه . من ذلك لما  
اكتشف المشركون بعض الصحابة في شعاب مكة و هم يصلون مستخفين بأكروهم  
و اضطهدوا معهم ، أمر النبي ﷺ أصحابه بالاجتماع في دار الأرقم لكي يعبدوا الله  
بعيدا عن أنظار قريش ، و يتعلموا ما ينزل من القرآن الكريم <sup>(١)</sup>

و حين أسلم بعض الغرباء كعمرو بن عبسة ، و أبي ذر الغفاري ، أمرهم النبي  
ﷺ بالرجوع إلى قومهم ، لينشروا الإسلام في قبائلهم من ناحية ، و ليحافظوا على  
أنفسهم من كفار قريش الذين يفتنون الضعيف ، و الغريب الذي لا ناصر له <sup>(٢)</sup>

حرص "عليه السلام" على متابعة شؤون أصحابه بتقوية همهم و تثبيتهم عند حلول  
الشدائد و المحن هم ، فكان يزور الذين يعذبون منهم في أماكن تعذيبهم ، فيواسيهم  
بالصبر و الثبات ، و يبشرهم بالجنة ، كما في قوله لآل ياسر و هم يعذبون : " صبرا  
إلى ياسر فإن ساعدكم الجنة " <sup>(٣)</sup> ، وهو "عليه السلام" هو الذي وجه أبا بكر الصديق لشره  
العبد و إعتاقهم حسبه الله تعالى .

و كان عليه الصلاة و السلام يقوم بزيارة منتظمة لأبي بكر ﷺ كما جاء في  
حديث عائشة ؓ : " لم يمر علينا يوم إلا يأتينا فيه رسول الله ﷺ طرفي النهار بكرة  
و عنيا " .

<sup>(١)</sup> سورة آل عمران — ج ١ ص ٢٧٥ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخاري — كتاب مناقب الأنصار — باب إسلام أبي ذر — ج ١ ص ٢٤١ .

<sup>(٣)</sup> أخرجه البخاري في المشكاة — ج ٢ ص ٢٨٨ .

وكان رسول الله ﷺ يتعامل مع الواقع في حركته للدعوة وهو في مكة ، وجعل حركته محاطة بالسرية ليحقق ما يريد ، ولذلك لم يواجه دعوته لعمر بن الخطاب لشدته ولم يعاتب من عمه حمزة الإيمان لقوته ، وإنما تركهما وأمتاظهما لينأثرا بأسلوب مناسب لهما ، رغم أن الخير للدعوة كان في إيمان عمر وحمزة " ﷺ " .

لقد كان " ﷺ " يدور على الناس في منازلهم ، ومساكنهم . ويستفيد بالمواسم والأعياد ، ويقابل المفكرين والشعراء ليقتنعهم بدين الله تعالى .

وكان " ﷺ " يحتاط لدعوته ، ولنفسه وهو يتحرك بالإسلام ، فلقد حرج " ﷺ " إلى الطائف راجلاً ليلاً مع مولاه زيد ، حتى لا يعلم أحد من قريش توجهته ، فيحصلون على معاكسته <sup>(١)</sup> .

وعندما كان يتصل بالقبائل في مواسم الحج لطلب النصرة ، كان كثيراً ما يخرج في ظلام الليل <sup>(٢)</sup> ، ولا يعلن ذلك لأحد .

وعندما التقى عليه الصلاة والسلام بوفد الأنصار في السنة الثالثة عشرة من البعثة لمبايعته على الحماية ، والنصرة ، اتخذ سلسلة من التدابير الأمنية حتى لا يعلم به أحد من أهل مكة .

فكان أول إجراء آمي اتخذه : هو ضبط الموعد مكاناً ، و زماناً ، بدقة متناهية ؛ فكان المكان : " شعب العقبة الأيمن " .

والزمان : أوسط أيام التشريق ؛ حيث يكون الناس في زحمة الانشغال بتهينة أنفسهم للعودة إلى ديارهم ، وأولادهم .

و الوقت : نهاية الثلث الأول من الليل حيث يستسلم الناس للنوم <sup>(٣)</sup>

وثاني إجراء : هو الكتمان الصارم للأمر ، و خروج المختصين مثني و أفراداً

<sup>(١)</sup> " حقيق المحترم " ، ص ١٤٨ .

<sup>(٢)</sup> تاريخ إسلام — ج ١ ص ١٢٩ .

<sup>(٣)</sup> سيرة ابن هشام — ج ٢ ص ٤٩ .

مستأنفين : دون انتظار غائب : أو إيقاف دائم<sup>(١)</sup>

و ثالث إجراء : حضوره بعد اكتمال العدد ومعه عمه العباس ، ووضعته عليه الصلاة والسلام حراسة قوية وأمنية في مداحل الشعب<sup>(٢)</sup> حيث كلف أبا بكر بالوقوف على هم الطريق ، وكلف علياً بالوقوف على هم الشعب.

و رابع إجراء : هو حمله عليه الصلاة والسلام من كل متكلم أن يوجز في كلامه<sup>(٣)</sup> أو أن يخفض صوته ، حتى لا يطول اللقاء ولا يشعر به أحد .

وبعد ذلك قام "ﷺ" باختيار اثني عشر نقيبا .. تسعة من الخوارج : وثلاثة من الأوس - لتحمل المسؤولية وقال لهم : أنتم على قومكم كفلاء ، ككفالة الخواريين لعيسى بن مريم ، وإنا كفيل على قومي ... قالوا : نعم .

وهذا الإختيار بدأت سلامح القيادة الجديدة في المدينة المنورة وبدأت أنظار المسلمين تنحدر نحوها ليعيشوا عصر التمسكين ، والقوة ، وليؤدوا واجبهم مع دين الله تعالى .

ولسوف يرى في تعطيل النبي "ﷺ" للهجرة مدى الحرص الذي بذله "ﷺ"

لجعل إلى الغاية ، وبالهجرة تبدأ مرحلة جديدة في مسار الدعوة إلى الله تعالى .

وسوف نوضح ذلك في الجزء التالي بعون الله تعالى ..

\*\*\*

<sup>(١)</sup> المصنفات - ج ١ ص ٢٢١ .

<sup>(٢)</sup> مجمع النبی "ﷺ" في حجة الدعوة ص ٤١٢ .

<sup>(٣)</sup> الدعوة النبوية لأبي بكر - ج ٢ ص ٢٠٢ .

## المبحث الحادى عشر

### المسلمون فى نهاية المرحلة الحكية

اتسع نطاق الإسلام ، وكثر عدد الداخلين فيه ، ووصل حيرد إلى قبائل العرب جميعاً ، وانتقل المسلمون بالإسلام إلى خارج الجزيرة العربية . وأصبح عدد المسلمين كثيراً ، فلقد هاجر منهم إلى الحبشة ما يقرب من مائة ، وهاجر منهم إلى المدينة ما يقرب من خمسمائة صحابى وصحابية ، بالإضافة إلى عدد غير قليل من سراً فى مكة ، وفى غيرها ، وهم المؤمنون والمؤمنات المنتسرين إليهم بقوله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُّؤْمِنَاتٌ لَّمَّا تَعَلَّمُوهُمُ ﴾ .

لقد أدى هذا الانتشار الواسع للإسلام إلى ضرورة الهجرة من مكة ، لأن كفار مكة أخذوا يبذلون جهدهم لصد الناس عن الإسلام بوسائل عديدة ولم يعد مقبولاً أن يبقى المسلمون مستسلمين للطغاة وحققهم واضع ، فى الوقت الذى أخذ الناس فيه ينظرون إلى ما بين المسلمين وأهل مكة ، لينبوا عليه موقفاً ، ويتخذوا قرارهم فى الإيمان .

الأمر الذى دعا إلى ضرورة وجود دولة للإسلام ترفع رايته ، وتحمى أتباعه ، وهو الذى أراده الله تعالى ، وحققه بالهجرة إلى المدينة المنورة .

\* \* \*



## الفصل الرابع

### وكانز الدعوة

### المستفادة من المرحلة الحكيمة



لقد امتدت المرحلة الملكية حتى الهجرة إلى المدينة المنورة ، و وقعت خلالها أحداث عظيمة ، تقدم أضواء عالية في حركة الدعوة إلى الله تعالى : تظهر العصور والدروس ، و تكشف الطبائع و النفوس ، و تبين ما في كل موقف من ركيزة ، و مبدأ مدروس ، و تعود أهمية معرفة هذه المرحلة للدعوة إلى الله تعالى مع المسلمين في مرحلة قلتهم و ضعفهم ، و تصور كيف عاش المسلمون بالإسلام حصادين مما أدى إلى انتقالهم من الضعف إلى القوة : و من الهوان إلى العزة و الانتصار ، و هي أمور يحتاجها المسلمون المعاصرون .

كما أن أحوال الدعوة ، و مدى ارتباط المسلمين بالإسلام ، يحتاج إلى مراجعة ضرورية لقياس الأحوال على عصر التأسيس الأول ، لمعرفة الداء ، و يظهر الدواء . و في المرحلة الملكية حدد النبي ﷺ الأسلام بخلاء ، و دعا إليه بوضوح و تلقاه الصحابة منه نقياً ، صافياً ، و عاشوا به ، و عملوا له ، و شركوا من أجله لأنهم يعملوه أمانة ، و مسئولية ، و حاجة شخصية .

إن المسلمين في كل زمان و مكان عليهم أن يرتبطوا برسول الله " ﷺ " في أقوالهم ، وأعمالهم ، وأحوالهم ، و كافة شؤونهم ، وهذا يحتم عليهم ضرورة العودة إلى السيرة النبوية ، وأحداثها ، فهي الصورة العملية ، التطبيقية لتعاليم الله تعالى ، وهي القرآن متحركاً في السلوك والطاعة .

إن السيرة النبوية هي الوحى المتزل في صورة تطبيقية ، ولذا كانت مدارستها تصويراً حياً للإسلام ، و كان فهمها هو البداية الصحيحة للعمل بالإسلام . والمسلم الصادق يدرك تماماً أن السيرة النبوية ثقافة روحية ، وفهم للدين ، وإحاطة بالإسلام ناصعاً ، جميلاً .

لهذا و لغيره عقدت هذا الفصل لأطوف مع السيرة ، وأأمل في حركة الدعوة خلال المرحلة الملكية لأبرر أهم الركائز المستفادة منها ، وذلك فيما يلي : —

## الركيزة الأولى

### المعرفة الشاملة للمدعوين

من أساسيات النجاح في تبليغ الدعوة على وجهها الصحيح معرفة المدعوين والإحاطة بالواقع النفسي ، والفكري ، والاجتماعي لهم ، لأن ذلك ييسر عملية الدعوة ، ويمكن القائمين على شئونها من وضع الخطط الملائمة للمدعوين ، ومراعاة ما هم عليه من فكر ، ودين ، وإيماء .

إن المعرفة بالمدعوين تمكن الدعاة من مخاطبة القوم بلغتهم ، والدخول إلى عقولهم من الجوانب المؤثرة التي تدفعهم إلى النظر والتفكير .

إن كل جماعة لها خصائصها النفسية ، واتجاهاتها العقلية ، ونشاطها العسلي ، وفي هذه الجوانب توجد مفاتيح الولوج لشخصية الجماعة ، ولذاتية الفرد وسط الجماعة .

والمقصود بالجماعة الطائفة من الناس التي تكون مجتمعاً متماسكاً ، مترابطاً بواسطة استماعات خاصة كالوطن ، أو الدين ، أو الحزب مما يولف بين أفراده جماعة يشتملهم تماسك نفسي ، وولاء وجداني .

إن أي جماعة تعيش مدة ما في إطار انتماء معين ، تكتسب صفات خاصة ، واتجاهات جديدة ، وتعيش بشعور واحد ، وآمال واحدة .

إن الفرد يكتسب من الجماعة بفعل العدد شعوراً بقدرة لا تفهم ، بينما الفرد وحده يردغ عرائزه وتخضعها لعقله ، لشعوره بالمسئولية .

إن الفرد وسط الجماعة يذعن لعرائزه طوعاً ، نظراً لزوال الشعور بالمسئولية ما دامت الجماعة غفلاً ، وغير مسئولة .

إن الفرد في الجماعة تسرى إليه بالعدوى المشاعر الجماعية ، بطبيعة لم يتوصل إلى تفسيرها ، وإن كانت موجودة ، وتسهل ملاحظتها . وانتقال شعور الجماعة إلى الفرد بالعدوى يسهل للفرد أن يضعي بمصالحه الشخصية في سبيل الجماعة العامة .

وهذا استعداد مخالف لطبيعة الفرد لا يقدر عليه الإنسان إلا إذا كان جزءاً من جماعة .  
لهذا كان فهم المدعو من أساسيات تكوين الدعوة ، لتحذيروا المنهج الذي  
يتبعونه حين الدعوة ، لأن أهلهم النجاح ، وتحقيق ما يرجون من غايات .

ونعل الخاتمة التالية أوضح دلالة على ما نحن بصدد من تأثير الجماعة ،  
فما أحبها اتخذ موقفاً من الدعوة ، وكادت تصل إلى أعماقه ، ويستسلم لها عندما  
احتسبكم إلى طبيعته الخاصة ، لكنه لحظه العاثر قدر له أن يضع نفسه مرة أخرى في  
غمار الجماعة ، ويقع تحت تأثيرها ، ذلكم هو الوليد بن المغيرة فقد روت كتب  
السيرة أن النبي ﷺ " قام في المسجد يصلي ، والوليد قريب منه يسمع قراءته ، هاما  
فطن النبي ﷺ " لاستماعه ، أعاد قراءة الآية ، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه  
من بني مخزوم فقال : ( والله لقد سمعت من محمد ﷺ " أنفاً كلاماً ، ما هو من  
كلام الإنس ولا من كلام الجن ، والله إن له لخلوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن  
أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وأنه يعلو ولا يعلى عليه ) ، ثم انصرف إلى منزله  
، فقالت قريش : صبا والله الوليد ، ولتصبا أن قريش كلها ، فأوفدوا إليه أبا جهل  
يقتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه ، وما زال به حتى قام معه إلى  
مجلس قومه ، فقال لهم : ترعمون أن محمداً ﷺ " مجنون ، فهل رأيتموه يحق قط ؟  
ترعمون أنه كاهن ، فهل رأيتموه قط بتكهن ؟

ترعمون أنه شاعر وما فيكم أعلم بالشعر مني ، فهل رأيتموه ينطق بالشعر قط ؟  
ترعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه كذباً ؟

يسألهم ويحيونه : كلا ، في كل سؤال ، حتى أعياهم أن يردوا كلامه . فقال  
أبو جهل : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه .

فقال : دعني حتى أفكر .

ثم قال : ما هو إلا سحر يؤثر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ؟  
فهو ساحر وهذا هو السحر المبين .

ومن هنا كان لابد من تثبيت الإيمان في القلوب ، ومنحه القدرة على مغالبة هذه الموانع النفسية ، ولأنكفى يجعله إيماناً عقلياً يارداً لا يبد أن يتحول اليقين إلى إيمان وجداني ، حاكم على القلب ، راجح على ما يخالفه من رغب ، ورهب ، وأمل ، وألم . ولن يتهياً ذلك إلا بأن توجه إلى كل منافذ التأثير في الإنسان ، وهو وحده ، أو وهو في جماعة لتصل مسن خلالها إلى ما تريده من جعل الدعوة في قرار مكين ، وأن تغير بها النفوس قبل أن تغير بها السلوك .

يقول الدكتور / محمد رجب البيومي : إذا كان القرآن الكريم قد أوتي الإقناع المنطقي الملتزم ، فإنه لا يتعجه بحديثه إلى الفكر وحده ، فيلزمه الحجة ، مكتفياً به عن سواه ، إذ أن فاطر السموات والأرض يعلم أن المعرفة العلمية وحدها لا تكفي في الجذب والتأثير ، فلا بد معها من غزو مناطق الشعور ، وبعث كوامن العواطف ، حتى يتهياً السامع إذا سمع ، والقارئ إذا تلا ، إلى إنجذاب نفسه يدفعه إلى أشرف المبادئ ، وأحكم المثل .

ولو كانت المعرفة وحدها كافية للهداية لكانت كتب العلوم الأرضية المختصة دليل المهتدي ، إذا قرئت ودرست ، ولكنك تشاهد الناس يقرأونها مقتنعين ، ثم يخيدون عن أكثر ما تحدى إليه ، إذ أن العلم شيء ، والسلوك الإنساني شيء آخر ، لذلك اتجه القرآن إلى التأثير الوجداني بعد الملححة والبرهان ، ليغزو مناطق الشعور الإنساني بتصويره ، كما غزا مناطق التفكير العقلي بنجاحه ، فجاء التصوير البياني في القرآن الكريم آية الآيات في الروعة والإنعجار <sup>(١)</sup> .

والإنسان سواء أكان منفرداً أم في جماعة ، يسمع في طبيعته من الملكات المستعمدة ما يجعل إهمال بعضها إهداراً لجانب من الطبيعة الإنسانية ، خلقه الله تعالى ليقوم بدوره ، ويؤدي وظيفته .

(١) البيان القرآني — ص ٧٨ .

وحسن أوجه علماء الكلام إلى العقل وحده ، ماذا كانت الثمرة التي جناها الإسلام من وراء جهودهم الخارقة التي ظلت قروناً وقروناً تبتدىء ، وتعيد ، في حجاج عقلية ، باردة ، لا تثير وجداناً ، ولا تدفع إلى عمل ؟ ! !

إن علينا أن نلتقي بالإنسان في قواه المختلفة ، وأن نتعامل معها جميعاً ، نتعامل مع العقل بمآله من قوة الإدراك والتمييز ، ونتعامل مع الوجدان باعتباره وعاء الأحاسيس ، والمشاعر ، التي تنشأ عن التأثير بما يسر ويقر لم ، ونتعامل مع الإرادة باعتباره ما تتخذ من قرارات هي النتيجة النهائية لاستجاباتها أو رفضها للدعوة ، ذلك أن الصناعات النفسية للإنسان مرتبط بعضها ببعض ، ويؤثر بعضها في بعض ، والإنسان هو حالة نفسية ، مرتبط بالجوانب النفسية كلها ، يتأثر بها ويؤثر فيها .

يقول الدكتور / محمود حب الله : فالعقائد الدينية لا تعتمد على جانب واحد من جوانب الحياة النفسية للإنسان — الوجدانية والإرادية والعقلية — ولكنها تتصل بها كلها اتصالاً وثيقاً ، ولا ترضى نفس المرء ، ولا تكتمل شخصيته إلا إذا تهيأت شخصيته ، ونواحيه النفسية كلها ، وعملت معاً على تقبل كل عقيدة من عقائده ، فلا يوجد شيء من التضارب بين قواه المتعددة ، حول عقيدة من العقائد ، بل إسجام ووثاق ، فهو جد قبول عقلي ، واطمئنان قلبي : والتقاء مع الإرادة ، وذلك هو كمال الشخصية وكمال العقيدة <sup>(١)</sup> .

ثم يقول : وما دامت العقائد الدينية متصلة بكل من العقل والوجدان والإرادة احتاجت ، في وسائل نشرها ، إلى الاعتماد على كل هذه القوى <sup>(٢)</sup> .

وما دام هذا شأن من توجه له الدعوة وطبيعته ، فلا بد لها — كي تصل إلى التأثير فيه — أن تلاحظ طبيعته بكل جوانبها ، لأن الفرد في جماعة يواجه واقعاً يتبدل ،

<sup>(١)</sup> الحياة الوجدانية والعقيدة الدينية ... ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

<sup>(٢)</sup> اد ، ص ٢٧٤ .

في طبيعته بعض التعديل عنه وهو وحده، حيث ينشط جانبه الوجداني ، بسبب تفاعل مع الجماعة ، واستهوائاتها له ، وسيطرة روحها العامة على ملكاته الخاصة .

وقد سبق أن رأينا أن رسول الله " ﷺ " بعث إلى العالم كله ، ولذلك عرفه الله بطبائع الناس ، وواقع المجتمعات المختلفة عن طريق القصص القرآني الذي نزل أغلبه في مكة قبل الهجرة .

وقد احتوى القصص القرآني على نماذج من المجتمعات البشرية ووضح خصائصهم ، وحدد أساليب مخاطبتهم حيث نراه يمتدح الملائكة ، والضعفاء ، ويحلي حقيفة المنافقين والمشركين ، ويبين دور السفهاء والمترفين بين الناس ... إلخ .

وبذلك قدم القصص القرآني تحليلاً صحيحاً للنفوس، والعقول للناس أجمعين . إن الهيكل العام للقصص القرآنية يأخذ صورة واحدة، فهو قائم على دعوة الله يقدمها الرسول إلى قومه ، وإلى من أرسل إليهم ، فيقف المدعون موقف المعارضين والإنكار، فيأخذ الرسول في محاورتهم ، والرد عليهم ، ويناقشهم في شبههم ومعارضاتهم ، ويبين لهم الصديق بأدلة ، ويحدد لهم بطلان ما هم عليه ببراهينه ، ويصوب بهم خلال الحوار مع طبيعة النفوس ، واتجاهات العقول ، وميول الوجدان . إن القصص القرآني يبرز ملامح أشخاصه ومنهجهم في الجدل والحوار ، وموقفهم من الحق ، وبذلك يقدم للدعوة والدعاة صورة حقيقية للمدعوين .

وينتهي القصص القرآني دائماً ببيان حاقبة المؤمنين، ومصائر الضالين المكذابين . والواضح من هذا ما رأينا في تنشئة النبي " ﷺ " فلقد عاش الرعاه ، وعاش مع فئة العمال والأجراء ، وتعامل مع التجار وسادة الناس ، وكان له مع الملائكة مواقف وتصرفات ، وانتقل إلى عديد من الأماكن حيث سافر إلى المدينة ، وإلى بلاد الشام ، وتربى في بادية بني سعد .



ويكفي حياته المكية لأن مكة في ذلك الزمان كانت تحتوي على كافة أقطار  
 المجتمع البشري، حيث جعلها الله بركة تضم كل ألوان وأنشطة البشر، فيكون  
 محل التجربة لرسول الله " ﷺ " والدعوة إلى الله تعالى .  
 إن معرفة المدعوين ، والوقوف على المثيرات الوجدانية والعقلية ضرورية  
 لدعوة ، وحتى لا يحدث انفصال بين الداعية والناس .

لقد كان رسول الله " ﷺ " يحدث كل قوم بلغتهم : وفي كل أمر يهتفون .  
 وحين يقدم لهم الآيات الدالة على صدق الدعوة إختار الأدلة المناسبة ، فإن كانوا من  
 أهل السرح خاطبهم في الأشجار ، والنبات ، والثمار ، وإن كانوا من أهل البحر  
 خاطبهم بالماء ، والسفن ، والفؤاد والمرجان ... وهكذا .

إن خطاب العالم يختلف عن خطاب العاصي بالضرورة ، كما أن الحديث مع الكبير  
 ليس كالحديث مع الصغير ، والاضطراب الذي تتحرك الرجل ليس هي التي تتحرك المرأة .  
 والإنسان كما يتأثر بالجماعة يتأثر بالبيئة والثقافة ، والتوجه العام للمجتمع .  
 والإنسان الشرقي يختلف عن الإنسان العربي ، والعربي غير فلسطيني ، ومن لغافته  
 فلسفية ليس كمن ثقافته فنية أدبية ... والإنسان في مجتمع مستقر ينكر بطريقته تعابر  
 الإنسان في مجتمع مضطرب قلق .

وهذه مخاض مدى تنوع الناس ، وتعدد بؤر التأثير فيهم : مما يؤكد ضرورة  
 تداخل الدعاة مع المخاطبين : ومخاطبتهم بما يناسبهم <sup>(١)</sup> .  
 وفي العصر الحديث رأينا مدى تأثير الدعاة في أقوام يتفاعلون معهم ، وما  
 كان ذلك إلا بسبب معرفة الدعاة الشاملة بواقع المدعوين وطوائعهم .. الأمر الذي  
 مكّنهم من مخاطبتهم بأحسن . ومناقشتهم بالدليل المقنع : والبرهان السديد .

<sup>(١)</sup> لقد عاصرت مجموعة من الدعاة أمثالهم الأقرار الشريف - مشكور - مدعوة في بعض بلدان إفريقيا لكيهم  
 لعدم معرفة لغة وأحوال الناس فقلّوا مدة طويّلة يعطونهم مبادئ اللغة العربية ، ولم يشكروا من تبليغهم دين الله  
 تعالى .

## الركيزة الثانية

### دور الداعية

### بين الله والناس

ايصال الإسلام للناس فن لا يقدر عليه المسيح ، ولذا كان من الضروري إيجاد داعية ، تمتلك القدرة على أداء هذه المسؤولية .

إن الدعوة تستلج إلى داعية متمصف بصفات عديدة تجعله قادراً على القيام بواجب الدعوة على الوجه الذي يرضى الله ورسوله .

وأول هذه الصفات عساقفة الأصل ، وشرف المنزلة ، لأن الناس تعودوا أن تتنوع لعلية القوم ، والاستماع لأصحاب المنزلة فيهم .

وقد علم النظام القسلى أهل مكة أن يكون لكل قبيلة شيوخ ، ولكل واحد رئيس يأمر فيطاع ، ويحتاج فيعطى ، ولذلك وجب أن يكون الداعية بين الناس مستيزاً فيهم بكرم الخلق ، وعلو المنزلة كما كان رسول الله " ﷺ " فهو من تحرير العرب نفسها ، ومن تحريرهم نسباً ، فهو خيار من خيار .

ومن أهم ما يجب أن يتحلى به الدعاة أن ينشأوا نشأة عمالية ، يعايشون فيها الناس على اختلاف مواطنهم ومذاهبهم ، وثقافتهم كما أكرم الله رسوله " ﷺ " معايشة بني سعد ، والرعاة ، والتجار واليهود ، والنصارى ، وأهل مكة ، الأمر الذى يمكنه بعد ذلك من التعامل الجيد مع الناس جميعاً .

وما يجب أن يتحلى به الدعاة مكارم الأخلاق ، لأن ذلك أدعى للتفقه ، وأقوى فى التصديق .

وهذا هو رسول الله " ﷺ " أشهر بين قومه بالصدق والأمانة ، وكان الغرباء عن مكة يسألون عن حلق رسول الله فإذا علموا مميزه بالخلق الكرم أقبلوا عليه . والداعية وارث النبى " ﷺ " فى مهمته الإرشادية ، والقائم مقامه فى (الإلاغ دين الله ، وكان النبى " ﷺ " يرشد المسلمين إلى ذلك ، فقال لأصحابه : ألا لبلغ

الشاهد منكم الغائب ( <sup>(١)</sup> ) ، وقال ( تسمعون ويسمع منكم ويسمع من يسمع منكم ) <sup>(٢)</sup> .

وحتى يتمكن المسلمون من القيام بهذه المهمة قضى الإسلام بتخصيص فئة معينة للقيام بها ، فما صحح ولا يصح أن تقوم الأمة كلها على تخصص واحد ، وتحمّل سواه ؛ وقد بين الله تعالى أن على الناس أن لا يتجمعوا كافة على غرض واحد ؛ ولو كان هو الجهاد ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نُفِّرُوا مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

يقول على بن أبي طلحة عن ابن عباس في الآية: ما كان المؤمنون لينفروا جميعاً ويتركوا النبي ﷺ وحده فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة يعنى عصبته، هي السرايا فإذا رجعت السرايا وقد أنزل الله بعدهم قرآناً تعلمه القاعدون مع رسول الله ﷺ " وذلك معنى ﴿ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ﴾ أى يتعلم القاعدون ما أنزل الله على نبيهم وليعلموا السرايا إذا رجعت إليهم لعلهم يحذرونه <sup>(٤)</sup> ، وبمثل ذلك فسر مجاهد وقناة الآية .

وهذا التفسير ينهى عن التجمع الكامل للنفر، ويحث على بقاء جماعة مع النبي ﷺ " لمتابعة تعاليم الدعوة، وذلك هام في حد ذاته، لأن التفقه بالدعوة أمر ضرورى ؛ وهذا الوجه في تفسير الآية مقبول <sup>(٥)</sup> لأن النبي مصدر العلم ، والقعود معه يمدق التفقه والتعليم ، من غير سفر أو رحيل .

<sup>(١)</sup> صحيح البخارى — ج ١ ص ٢٧ — كتاب العلم — باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب .

<sup>(٢)</sup> الفتح الزباني — ج ١ ص ٢٦٤ — كتاب العلم — باب فضل تبليغ الحديث .

<sup>(٣)</sup> سورة المجرة الآية ( ١٢٢ ) .

<sup>(٤)</sup> تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٨٧ .

<sup>(٥)</sup> وهناك توجيهات أخرى للآية وهي أن نخرج طائفة مع النبي ﷺ ، أثناء الجهاد فبعد الفقه ليعلموا غيرهم بعد الرجوع إليهم في المشقة ، أو نعلم المجاهدين إذا انفروا بهم بعد المعركة .

وإن طُلب جماعة لعلوم الدعوة فرض كفاية، كالجهد تماماً، لأهمها معا يؤديان إلى حفظ الدين واضحاً من غير تحريف، وإلى حمايته قوياً بلا اعتداء، بل إن الدواعي عن الدين بالكسبة أحياناً يكون أحدى من الجلال عنه بالسيف .

هذا وقد أخذ الشاطبي <sup>(١)</sup> من قوله ﴿وَلْيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ﴾ أن الدعوة المنذرين قائمون مقام النبي ﷺ " لأن الله قال له ﴿إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ﴾ فالإنذار في الآيتين عمل مشترك يقوم به النبي وأتباعه من بعده على وتبوته .

ولئن كانت مهمة النبي في زمنه " ﷺ " صعبة فإن مهمة الدعوة اليوم كذلك لأن الهدف واحد وهو مخاطبة القلوب بالحكمة، ومجادلة المخالفين بالحسنى ، وما أكثرهم اليوم أكثرهم أيام النبي " ﷺ " .

ولئن كان الوحي ينزل بالدين على رسول الله جزءاً جزءاً فإن ما نزل منجماً قد جمع وحفظ كله ليبقى إجملة مع الدعوة زاداً لهم، وأملاً لدعوتهم في النصر والبقاء . ولئن عرّض الأشخاص المميزون فواحش على الأمة المسلمة أن تتخبر وتعلم ، وتدريب ، وكما تبذل جهوداً لتضريح الأطباء ، والمهندسين ، والضباط فعليها أن تبذل الكثير لإيجاد الداعية الكفاء الذي يفيد الدين ، والناس جميعاً .

والدعاة اليوم هم المبشرون المنذرون، الحاملون صوت النبوة، المكلفون بالوصولها إلى كل مكان في الوجود .. وقد قدر الله للدعوة أن تظل باقية في كتبها محفوظة بأمره، لكن الذي يجب أن يكون اليوم هو وجود الداعية الكفاء الذي يتخذ الرسول أسوته، ويحاول أن يستجمع ما أتصف به على قدر طاقته ﴿لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ .

ولا بد في تكوين الداعية أن يكتسب بعض الصفات الضرورية التي تجعله ذا صلة قوية

بأنه تعالى ، الذي يحمل رسالته ، ويبلغ دينه ، ويعيش مع وحيه سبحانه وتعالى ، كما  
تعله قوى الصلة بالناس فهم بحال حركته ، ومقاييس نجاحه ، وأمله كله ينحصر في  
هدايتهم .

إن الداعية يحتاج إلى هذين الجانبين لأهميتهما له : —

### أولاً : تقوية صلته بالله :

الداعية مرشد إلى الخير ، وموجه نحو الهدى ، وكل هدفه أن يعرف الناس  
برهم الخالق ليفوزوا بسعادة الدنيا والآخرة .

وعليه هو أولاً أن يمتن صلته بالله في يقين وقوة، ويجعل إيمانه قائماً على نفع  
القلب الكامل لمولاه ، والارتباط المطلق به ، والتوكل الراسخ عليه ، والتسليم التام  
لكل ما يأتي به من غير ارتياب — أو حرج — لتكون الدعوة بذلك نابعة من قوله  
ويعمله ، وكل ذلك سهل ميسور .

إن معرفة الله يلمسها من القرآن الكريم، كتاب الدعوة الذي هو دستور  
وهاديه ، ومن آياته يعلم أن الله واحد، منزّه عن الشريك في ذاته وصفاته وأفعاله .

وآيات القرآن واضحة في مفهومها ودلالاتها ، أنظر قوله تعالى : ﴿ إِنَّ

إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۖ ﴾<sup>(١)</sup>

نراها قد صرحت بوحدة الله من غير غموض ، بل إن القرآن يدافع عن  
هذه الوحدة فيدعو إلى ترك ما عداها فيقول ﴿ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ۚ إِنَّمَا هُوَ  
إِلَهُهُ وَاحِدٌ ۖ ﴾<sup>(٢)</sup> وينجحه بالدليل العقلي لمن يريد فيقول : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا إِلَهٌ إِلَّا اللَّهُ  
لَفَسَدَتَا ۖ ﴾<sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة الصافات الآية ( ٤ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الحج الآية ( ١٦ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة الأنبياء الآية ( ٢٢ ) .

ولا تقف الآيات عند الحديث عن وحدانية الذات بل تتكلم عن كل  
 كمالها بإثبات الصفات والآثار ، ومن هذه الآيات قوله تعالى : ﴿ هُوَ الْأَوَّلُ  
 وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ ﴾<sup>(١)</sup> وقوله : ﴿ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴾<sup>(٢)</sup>  
 فتجد هذه الآيات وغيرها تعرف بأن الله موجود ، قديم ، حي ، باق ، عليم ، مراد ، قادر ،  
 سميع ، بصير ، متكلم ، وإثبات هذه الصفات تنفي تضادها ، والصفات وإن تشابهت  
 ألفاظها مع مسميات صفات البشر إلا أنها ليست هي في الحقيقة لأن الله : ﴿ لَيْسَ  
 كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۚ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾<sup>(٣)</sup> .

والقرآن الكريم لا يترك الداعية يبحث وحده عن الدليل ، الدافع إلى الإيمان  
 بل يوجه نظره إلى الآثار الإلهية في المخلوقات ، ليتم إيمانه ، ويحس طسأينة خاصة تمر  
 بين جوانبه ، فلا يرى بعد ذلك إلا الخير المطلق يسرى في داخل النفس و خارجها ،  
 والمخلوقات عديدة ، والنظر فيها بين الدقة الإلهية ، والعناية الربانية ، ويؤدي إلى الإيمان  
 المطلوب ، فنفس الإنسان المركبة من باطن فيه جهاز هضمي ، وآخر للتنفس ، ومن  
 ظاهر به حواس وجوارح ، هذه النفس بكل أجزائها تقوم بوظائفها بطريقة تلقائية .  
 وقد وزعت الأعمال في براعة ودقة على كافة الأجهزة ، ليقوم كل بدوره ،  
 فالعين ترى ، والأذن تسمع ، واللسان يتكلم ، والرجل تمشي ، والأسنان تمضغ ،  
 والمعدة تهضم ، والرئة تستنشق .

وهذا كله يشير إلى العناية والدقة الموجودة في خلق الله تعالى ، وهو الأمر الذي جعل  
 العلماء يرون في القرآن الكريم أدلة خاصة به سموها : —  
 (١) أدلة العناية والدقة .

<sup>(١)</sup> سورة الحديد الآية ( ٢ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة الرعد الآية ( ١٦ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة الشورى الآية ( ١١ ) .

(٢) أدلة الحس والجمال .

(٣) أدلة الغاية والقصد .

وهذه أدلة تجعل الإنسان يؤمن بلا تردد بعد رؤيته لها ونظره فيها .

وقد حث الله الإنسان على النظر إلى النفس ، فقال تعالى : ﴿ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> ليروا فيها دلالة واضحة على وجود الصانع، وحكمته، ونسبته ويكفي أن ينظر الإنسان إلى نفسه ليرى كما قال الزمخشري في ابتدائها وتقلها من حال إلى حال، وفي بواطنها وظواهرها عجائب الفطر وبدايع الخلق، وحسنت بالقلوب وما ذكر فيها من العقول، وخدمت به من أصناف المعاني، وبالآلسن، والنطق، ومخارج الحروف، وما في تركيبها وترتيبها، ولطائفها من الآيات الساطعة، والبيئات القاطعة، على حكمه المذبر، ديع الأسجاع، والأبصار، والأطراف، وسائر الجوارح، وتأنيتها لما خلقت له، وما في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثنى، فإنه إذا حسا شئ منها حياء العجز، وإذا استرخى أناخ الذل <sup>(٢)</sup> .

وكما يجب النظر إلى النفس فإن هناك العالم الفسيح المسلو بالآيات السات والعيان الرائعة التي يجب النظر فيها ، يقول تعالى : ﴿ قُلْ أَنْظَرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ .

إن المدافعية وهو يلزم الدعوة عليه أن يفكر في هذا، وفي غيره، ليؤمن بالإيمان الواجب، ويعلم من غير تردد حق الله الذي آمن به فيؤديه .

وقد حصر الله سبب خلقه للجن والإنس في آداء هذا الحق فقال تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ <sup>(٣)</sup> .

<sup>(١)</sup> سورة الفرقان آية (٢١)

<sup>(٢)</sup> التفسير الكشاف ج ٤ ص ١٦ .

يقول الزمخشري أن معنى الآية ما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ولم  
أرد من جميعهم إلا آياها <sup>(١)</sup> ولذا دعيت كل الأمم إلى واجبتها ، يقول تعالى :  
﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الصَّلُوتَ ﴾ وكان  
النداء الأول في دعوة كل رسول هي ﴿ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾ لأن  
الإيمان بالله الخالق ، والتسليم له يقتضى حتماً وبالضرورة أن تكون العبادة له وحده .  
إن العبادة هي الحب الوثيق الذى يربط الإنسان بالله ، وليس هناك سبيل  
سواها ، والله قريب من عباده قريباً لا واسطة فيه ، والداعية يعلم ذلك فعبد الله  
مخلصاً له الدين ، ويتفرغ بكلية في عبادته ، ولذلك فعبادته غذاء روحى يترقى به ذاته ،  
وتذكره بالسلطان المطلق ، وتسمه بحسن الخلق ، وكريم المعاملة ، وذلك كله سر العبادة  
وحقيقتها فمثلاً عن الصلاة — كعبادة — قد أمر الله بإقامتها دون مجرد الإتيان بها  
لأن إقامة الشيء يعنى الإتيان به متوماً كاملاً ، يصدر عن علته ، وتصدر عنه آثاره ،  
ومن المعلوم أن العاية من الصلاة ذكر الله كما قال تعالى : ﴿ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴾ <sup>(٢)</sup>  
وآثارها تظهر على المصلى ذاته لأنها : ﴿ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ ﴾ <sup>(٣)</sup> وهى بالإقامة  
عبادة حقة ، فيها خضوع كامل ، ناشئ عن إحساس يقين بعظمة الرب القادر  
سبحانه وتعالى ، ويتبعها أثرها المراد الذى يظهر في البعد عن كل باطل ، والتخلق بكل  
حسن جميل ، وهكذا كل عبادة تعطى للنفس جرعة من الذكر ، وجزءاً من السعادة .  
ولا يرى الداعية من عبادته هذه المنزلة إلا إذا أداها مخلصاً كما أمر ، فإن  
القوم جميعاً : ﴿ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ <sup>(٤)</sup> وقد قال صلى  
الرسول ﷺ " ﴿ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ ﴾ <sup>(٥)</sup> ولذلك فهم

<sup>(١)</sup> التفسير الكشاف ج ٤ ص ٢١ .

<sup>(٢)</sup> سورة طه الآية ( ١٤ ) .

<sup>(٣)</sup> سورة العنكبوت الآية ( ٤٥ ) .

<sup>(٤)</sup> سورة البينة الآية ( ٥ ) .

<sup>(٥)</sup> سورة الزمر الآية ( ١١ ) .



بسبب هذا الإخلاص يشعرون بالمعية الإلهية دائماً ، ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُوَ سَعَهُمُ لَيْنَ مَا كَانُوا ﴾<sup>(١)</sup> أنظر إليهم بخدمهم : ﴿ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ ﴾<sup>(٢)</sup> لا يفارقون ذكره في لحظة من لحظات الحياة ، وكذلك يذكرونهم رهنم ، هني الحديث القدسي : ( أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه إذا ذكرني فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي ، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منه )<sup>(٣)</sup> ، وهم في ذكرهم الدائم يتقلبون بين الخوف والرجاء ﴿ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ﴾<sup>(٤)</sup> .

والداعية كما هو الواقع يعلم أن العبادة لا تقتصر عن نوعها الخاص السلبي رسم الدين إظهارها ، وحدد شعائرها ، كالصلاة والصوم والزكاة والحج ، بل إنه في كل حياته عابد كما أراد الله بالمعنى العام والخاص معاً ، فاجتماعياته عبادة يفعلها الله رب العالمين ، والسعي في معاشه ، والتعاون مع أهله عبادة يؤديها ، ويلتزم بها لأنها من حقيقة دينه .

والقرآن الكريم يقرن من خرج مجاهداً في سبيل الله بمن خرج سعيًا على المعاش فيقول تعالى : ﴿ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ<sup>(٥)</sup> وَآخَرُونَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ﴾<sup>(٦)</sup> .

إن هذا الفهم الأصيل يجعل العابد في علاقة خيرة مع الناس فيعود المريض ويطعم الجائع ، ويسقى العطشان ، ويرفع الأذى من طريق الناس ، ويدفع إلى السعي

<sup>(١)</sup> سورة السجدة الآية ( ٧ ) .

<sup>(٢)</sup> سورة آل عمران الآية ( ١٩١ ) .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخاري ج ٩ ص ١٢٩ .

<sup>(٤)</sup> سورة السجدة الآية ( ١٦ ) .

<sup>(٥)</sup> سورة المزمل الآية ( ٢٠ ) .

والضرب في الأرض : وهكذا ، يؤديها الداعية بهذا الفهم وتلك النية ويسلها لله رب العالمين .

وعبادة الداعية كما هو المطلوب استغراق كامل في عالم الروح لأنها عنده لذاكما تربطه تلقائياً بالله ، وتبرزه كحقيقته خاضعاً لربه، محباً هائماً في تعلقه به ، لأنه بإيمانه أشد حباً لله لأهم كما عرفهم بهم بقوله : ﴿ أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾<sup>١١</sup> والدعاة عباد الله بحق ﴿ تَحِبُّهُمْ وَتُحِبُّونَهُمْ ﴾ لأن الله يحب المتقين ، والمحسنين الصابرين .

ومع هذه العاطفة الصادقة من الداعية لا يملك أمام أمر الله إلا السج والبطاعة ويبحث عن المعروف ليفعله ، ويأمر به ، وعن المنكر ليحتجبه ، وينهى عنه . وبسبب استغراق الداعية في ذكر ربه الحبيب إليه كانت العبادة أعظم علاج لراحة نفسه ، ونسيان آلامها ، كما أنها أعظم وسائل الشكر تحقق المدوة التام ، ألا تراها كانت علاجاً لرسول الله " ﷺ " يوم أن أكثر القوم من أكاذيبهم ومفترياتهم حتى ضاق صدره بما يقال ، فوجهه الله إليها علاجاً له فقال : ﴿ وَلَقَدْ دَعَلُمُ أَنَّكَ يَصْضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾<sup>١٢</sup> فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٣﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿١٤﴾<sup>١٣</sup> ووجهه إليها كذلك إذا أحس بالنصر والفجر شكراً ورضى، فقال تعالى : ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ﴾<sup>١٤</sup> وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ﴿١٥﴾ فَسَبَّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴿١٦﴾<sup>١٥</sup> .

والعبادة بدورها لا تأخذ عسراً في القيام بمهمتها في الشدة، أو الرخاء لأنها تعايش إنساناً منفعلاً بها، ومسلماً بأنه مخلوق يتصرف كإرادة الخالق ويؤمن أنه : ﴿ مَا

<sup>١١</sup> سورة البقرة الآية ( ١٦٥ ) .

<sup>١٢</sup> سورة الحجر الآيات ( ٩٧ - ٩٩ ) .

<sup>١٣</sup> سورة النصر .

أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِي أَن نُّبَرِّأَهَا إِنَّ  
ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ .

إن هذا الإيمان الراسخ ( من الداعية ) الذى استتبع عبادة مخلصه صادق،  
وحياً هائماً شاملاً، يودى صاحبه حتماً إلى التوكل الدائم على الله، والاستسلام له  
بلا تردد، لأنه ما دام قد ثبت في نفسه ثبوتاً جازماً أنه لا يعاقل إلا الله، واعتقد فيه  
تمام العلم وتمام القدرة على كفاية العباد، ثم تمام العناية والرحمة بجملة العباد وأحاديدهم  
وأهله ليس وراء منتهى قدرته، وعلمه، ورحمته، قدرة، ولا علم، ولا رحمة، فإنه متكامل  
لا محالة على الله : مسنم في انفعاله الروحي الصادق، لأن الله معه في كل أن وسال .  
ولتمام توكله نعله يسلم أمر رزقه إلى الله : ﴿ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ ﴿١٢﴾ .  
وبترك كل شيء لإرادة الله لأن المسألة هي : ﴿ إِنْ أَلْحَكُمُ إِلَّا اللَّهُ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ ﴿١٣﴾ .  
وبشكر النعم وبصبر على المكروه : ﴿ وَلَتَصْصِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَىٰ اللَّهِ  
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴾ ﴿١٤﴾ .

وعلى الحملة فإن المرء كما يقول الحكيم الترمذى : ( من نور الله قلبه  
بالإيمان قويت معرفته، واستنارت بصيرته بنور اليقين، فاستقام قلبه، واطمأنت نفسه،  
وسكنت، ووثقت، وأيقنت، وسعدت برحمة الخالق، واتتمته على نفسها، فرضيت به  
وكيلاً، وتركت التدبير عليه : فإن وسوس له عدوه بالرزق، والمعاش لم يضره  
قلبه، ولم يتحير لأنه قد عرف أن ربه قريب، وأنه لا يغفل، ولا ينسى، وأنه رؤوف  
رحيم، وأنه حلیم ودود، وأنه رب عفو غفور، وأنه عدل لا يحور، وأنه عزيز لا تمتنع منه  
الأشياء . وأنه يبر ولا يحار ) ﴿١٥﴾ .

١١ سورة الحديد الآية (٢١) .

١٢ سورة الشورى الآية (٥٨) .

١٣ سورة يوسف الآية (٦٧) .

١٤ سورة إبراهيم الآية (١٢) .

١٥ الرياضات وأدب النفس ص ٩٣

وهذه الصلة الصادقة مع الله تكتمل عقيدة الداعية فيكون حيرا في كافة الجوانب ويمتلك القدرة على الدعوة والبلاغ ، وحينئذ يمكنه أن يبيض على الناس بما امتلأ به ، فكل إناء بما فيه ينضح ، والظل في استقامته ، وامتداده يتبهد أصله .  
إن داعية متمتعاً بهذا اليقين يخدم الدعوة أكثر من آلاف ضعف إيمانهم ، وهذلت عقيدتهم ، لأن هؤلاء الآلاف يضررون ، ولا يفيدون ، وقد أتى الإسلام من قبلهم .

### ثانيا : توثيق ارتباطه بالناس :

لا يقف أمر الداعية عند تحسين صلته بالله على نحو ما سبق فإن ذلك يفيد شخصه أولاً وهو مستوى يحتاج إليه كل من أسلم وجهه لله وهو محسن ، وإنما على الداعية أن يحسن صلته بالناس فمعهم تكون دعوته ، ولهم ينشرها ، وبهم يحقق نصرها وفورها ، وهذه الصلة الاجتماعية ضرورية للداعية لأنه :

**أولاً :** أخ للناس استظهر عليهم بالنصح والتوجيه .

**ثانياً :** محل الثقة والنظر لما له من صفات ولما ينادى من مبادئ .

**ثالثاً :** رائد الجماعة وزعيمهم ، ولذلك وجب أن يتحلى بصفات تجعله يعيش وسط الناس في فهم وتقدير ، ويتألف معهم في مودة ، ويتحلى بما يضعه في الريادة من غير منازعة وشكوك .

والناس جميعاً إخوة ومردهم جميعاً إلى عنصر واحد ، هو آدم أب البشر أجمعين ، وعلى الداعية أن يتيقن ذلك ، ويعمل على أساس أنه ليس هناك فرق بين إنسان وإنسان بسبب لونه ، أو طبيعته ، أو عنصره ، وإنما التفاوت بشيء خارج عن ذات الشخص وعنصره كإيمان ، أو عمل ، أو إخلاص ، وهو تفاوت لا يمس الإنسانية في شيء ، وقد وضع الله هذه الحقيقة بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ (١) .

يقول الرحمن شري: إن معنى الآية، فما منكم منكم أحد إلا وهو يدل بما يدل به  
 الآخر. سواء بسواء، فلا وجه للتفاخر، والتفاضل في النسب <sup>(١)</sup> وذلك شيء طبيعي  
 لأن الإنسان خلق مكرماً كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَخَلَقْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ  
 وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ <sup>(٢)</sup>  
 يقول الألوسي: أي جعلناهم قاطبة برهم، وفاجرهم، ذوي كرم أي شرف وشان <sup>(٣)</sup>  
 وهذه الكرامة الإنسانية جاءت النداءات في القرآن الكريم مصدرة بـ ﴿ يَا بَنِي آدَمَ ﴾  
 ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ﴾ لتوحيها بهذه الصفة العامة التي يأخذ منها أي إنسان بقدر ما يأخذ  
 الآخرون سواء بسواء .

إن هذا الفهم عند الداعية يجعله لا يفرق بين إنسان وإنسان في دعوته ، ولا  
 يفرق بينهم بسبب غنى ، أو حسب ، أو ما شاكل ذلك ، فلا يدعو القوي تاركاً  
 الضعيف ، أو ينص غنياً مهملًا الفقير ، أو يقصر دعوته على الرجال دون غيرهم ،  
 وذلك لأن دعوته عامة للجميع ، وهو المكلف بنشر هداية الله بينهم ، والمكمل محتاج  
 إليها ، بل إن الضعيف الضال أحوج إليها من سواء ، ولذلك فالإعراض عنه ليس من  
 صفات الداعية المثالي ، ولقد أودع الله للدعاة دراساً في هذا الباب بما حدث من النبي  
 ﷺ " مع عبد الله بن أم مكتوم ، فرغم أن عبد الله كان أعمى مما جعله لا يتحقق  
 عن عمل النبي ﷺ " في مجلسه، فدخل عليه طالباً للتعليم، في الوقت الذي كان النبي  
 ﷺ " مشغولاً فيه بتعليم غيره من صناديد قريش ، وكونه أعمى يعطيه العذر في  
 عدم تندير الوقت المناسب للسؤال ، وسبق القرشين في الحضور يعطى النبي ﷺ " عذراً في إسهال عبد الله ، خاصة وأن عبد الله أسلم من قبل ، والقرشيون لم يسلموا  
 بعد ، وفي إسلامهم إسلام غيرهم ، رغم ذلك فقد عوتب النبي ﷺ " في هذا الموقف

<sup>(١)</sup> تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٦٩

<sup>(٢)</sup> سورة الإسراء الآية ( ٧٠ ) .

<sup>(٣)</sup> روح المعاني ج ١٥ ص ١١٧ .

حتى لا يقال أنه أهمل عبد الله لفقره وعماه ، وأهتم بغيره لجأه وغناه ، ولا يبقى هذا القول بعد ذلك بداية سيئة يهتم فيها الدعاء بالأشياء الظاهرة ويتركون بين بعض الخلق وبعض مما ليس لهم به سبب ، فقال تعالى : ﴿ عِبَسَ وَتَوَلَّى ۖ أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَكَّى ۚ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى ۚ أَمَّا مَنْ آسَفَنِي ۚ فَأَنْتَ لَهُ تَصَدَّى ۚ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَكَّى ۚ وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْعَى ۚ وَهُوَ يَخْشَى ۚ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ۚ ۝ ١١ ۚ ۝ ١٢ ۚ ۝ ١٣ ۚ ۝ ١٤ ۚ ۝ ١٥ ۚ ۝ ١٦ ۚ ۝ ١٧ ۚ ۝ ١٨ ۚ ۝ ١٩ ۚ ۝ ٢٠ ۚ ۝ ٢١ ۚ ۝ ٢٢ ۚ ۝ ٢٣ ۚ ۝ ٢٤ ۚ ۝ ٢٥ ۚ ۝ ٢٦ ۚ ۝ ٢٧ ۚ ۝ ٢٨ ۚ ۝ ٢٩ ۚ ۝ ٣٠ ۚ ۝ ٣١ ۚ ۝ ٣٢ ۚ ۝ ٣٣ ۚ ۝ ٣٤ ۚ ۝ ٣٥ ۚ ۝ ٣٦ ۚ ۝ ٣٧ ۚ ۝ ٣٨ ۚ ۝ ٣٩ ۚ ۝ ٤٠ ۚ ۝ ٤١ ۚ ۝ ٤٢ ۚ ۝ ٤٣ ۚ ۝ ٤٤ ۚ ۝ ٤٥ ۚ ۝ ٤٦ ۚ ۝ ٤٧ ۚ ۝ ٤٨ ۚ ۝ ٤٩ ۚ ۝ ٥٠ ۚ ۝ ٥١ ۚ ۝ ٥٢ ۚ ۝ ٥٣ ۚ ۝ ٥٤ ۚ ۝ ٥٥ ۚ ۝ ٥٦ ۚ ۝ ٥٧ ۚ ۝ ٥٨ ۚ ۝ ٥٩ ۚ ۝ ٦٠ ۚ ۝ ٦١ ۚ ۝ ٦٢ ۚ ۝ ٦٣ ۚ ۝ ٦٤ ۚ ۝ ٦٥ ۚ ۝ ٦٦ ۚ ۝ ٦٧ ۚ ۝ ٦٨ ۚ ۝ ٦٩ ۚ ۝ ٧٠ ۚ ۝ ٧١ ۚ ۝ ٧٢ ۚ ۝ ٧٣ ۚ ۝ ٧٤ ۚ ۝ ٧٥ ۚ ۝ ٧٦ ۚ ۝ ٧٧ ۚ ۝ ٧٨ ۚ ۝ ٧٩ ۚ ۝ ٨٠ ۚ ۝ ٨١ ۚ ۝ ٨٢ ۚ ۝ ٨٣ ۚ ۝ ٨٤ ۚ ۝ ٨٥ ۚ ۝ ٨٦ ۚ ۝ ٨٧ ۚ ۝ ٨٨ ۚ ۝ ٨٩ ۚ ۝ ٩٠ ۚ ۝ ٩١ ۚ ۝ ٩٢ ۚ ۝ ٩٣ ۚ ۝ ٩٤ ۚ ۝ ٩٥ ۚ ۝ ٩٦ ۚ ۝ ٩٧ ۚ ۝ ٩٨ ۚ ۝ ٩٩ ۚ ۝ ١٠٠ ۚ ۝ ١٠١ ۚ ۝ ١٠٢ ۚ ۝ ١٠٣ ۚ ۝ ١٠٤ ۚ ۝ ١٠٥ ۚ ۝ ١٠٦ ۚ ۝ ١٠٧ ۚ ۝ ١٠٨ ۚ ۝ ١٠٩ ۚ ۝ ١١٠ ۚ ۝ ١١١ ۚ ۝ ١١٢ ۚ ۝ ١١٣ ۚ ۝ ١١٤ ۚ ۝ ١١٥ ۚ ۝ ١١٦ ۚ ۝ ١١٧ ۚ ۝ ١١٨ ۚ ۝ ١١٩ ۚ ۝ ١٢٠ ۚ ۝ ١٢١ ۚ ۝ ١٢٢ ۚ ۝ ١٢٣ ۚ ۝ ١٢٤ ۚ ۝ ١٢٥ ۚ ۝ ١٢٦ ۚ ۝ ١٢٧ ۚ ۝ ١٢٨ ۚ ۝ ١٢٩ ۚ ۝ ١٣٠ ۚ ۝ ١٣١ ۚ ۝ ١٣٢ ۚ ۝ ١٣٣ ۚ ۝ ١٣٤ ۚ ۝ ١٣٥ ۚ ۝ ١٣٦ ۚ ۝ ١٣٧ ۚ ۝ ١٣٨ ۚ ۝ ١٣٩ ۚ ۝ ١٤٠ ۚ ۝ ١٤١ ۚ ۝ ١٤٢ ۚ ۝ ١٤٣ ۚ ۝ ١٤٤ ۚ ۝ ١٤٥ ۚ ۝ ١٤٦ ۚ ۝ ١٤٧ ۚ ۝ ١٤٨ ۚ ۝ ١٤٩ ۚ ۝ ١٥٠ ۚ ۝ ١٥١ ۚ ۝ ١٥٢ ۚ ۝ ١٥٣ ۚ ۝ ١٥٤ ۚ ۝ ١٥٥ ۚ ۝ ١٥٦ ۚ ۝ ١٥٧ ۚ ۝ ١٥٨ ۚ ۝ ١٥٩ ۚ ۝ ١٦٠ ۚ ۝ ١٦١ ۚ ۝ ١٦٢ ۚ ۝ ١٦٣ ۚ ۝ ١٦٤ ۚ ۝ ١٦٥ ۚ ۝ ١٦٦ ۚ ۝ ١٦٧ ۚ ۝ ١٦٨ ۚ ۝ ١٦٩ ۚ ۝ ١٧٠ ۚ ۝ ١٧١ ۚ ۝ ١٧٢ ۚ ۝ ١٧٣ ۚ ۝ ١٧٤ ۚ ۝ ١٧٥ ۚ ۝ ١٧٦ ۚ ۝ ١٧٧ ۚ ۝ ١٧٨ ۚ ۝ ١٧٩ ۚ ۝ ١٨٠ ۚ ۝ ١٨١ ۚ ۝ ١٨٢ ۚ ۝ ١٨٣ ۚ ۝ ١٨٤ ۚ ۝ ١٨٥ ۚ ۝ ١٨٦ ۚ ۝ ١٨٧ ۚ ۝ ١٨٨ ۚ ۝ ١٨٩ ۚ ۝ ١٩٠ ۚ ۝ ١٩١ ۚ ۝ ١٩٢ ۚ ۝ ١٩٣ ۚ ۝ ١٩٤ ۚ ۝ ١٩٥ ۚ ۝ ١٩٦ ۚ ۝ ١٩٧ ۚ ۝ ١٩٨ ۚ ۝ ١٩٩ ۚ ۝ ٢٠٠ ۚ ۝ ٢٠١ ۚ ۝ ٢٠٢ ۚ ۝ ٢٠٣ ۚ ۝ ٢٠٤ ۚ ۝ ٢٠٥ ۚ ۝ ٢٠٦ ۚ ۝ ٢٠٧ ۚ ۝ ٢٠٨ ۚ ۝ ٢٠٩ ۚ ۝ ٢١٠ ۚ ۝ ٢١١ ۚ ۝ ٢١٢ ۚ ۝ ٢١٣ ۚ ۝ ٢١٤ ۚ ۝ ٢١٥ ۚ ۝ ٢١٦ ۚ ۝ ٢١٧ ۚ ۝ ٢١٨ ۚ ۝ ٢١٩ ۚ ۝ ٢٢٠ ۚ ۝ ٢٢١ ۚ ۝ ٢٢٢ ۚ ۝ ٢٢٣ ۚ ۝ ٢٢٤ ۚ ۝ ٢٢٥ ۚ ۝ ٢٢٦ ۚ ۝ ٢٢٧ ۚ ۝ ٢٢٨ ۚ ۝ ٢٢٩ ۚ ۝ ٢٣٠ ۚ ۝ ٢٣١ ۚ ۝ ٢٣٢ ۚ ۝ ٢٣٣ ۚ ۝ ٢٣٤ ۚ ۝ ٢٣٥ ۚ ۝ ٢٣٦ ۚ ۝ ٢٣٧ ۚ ۝ ٢٣٨ ۚ ۝ ٢٣٩ ۚ ۝ ٢٤٠ ۚ ۝ ٢٤١ ۚ ۝ ٢٤٢ ۚ ۝ ٢٤٣ ۚ ۝ ٢٤٤ ۚ ۝ ٢٤٥ ۚ ۝ ٢٤٦ ۚ ۝ ٢٤٧ ۚ ۝ ٢٤٨ ۚ ۝ ٢٤٩ ۚ ۝ ٢٥٠ ۚ ۝ ٢٥١ ۚ ۝ ٢٥٢ ۚ ۝ ٢٥٣ ۚ ۝ ٢٥٤ ۚ ۝ ٢٥٥ ۚ ۝ ٢٥٦ ۚ ۝ ٢٥٧ ۚ ۝ ٢٥٨ ۚ ۝ ٢٥٩ ۚ ۝ ٢٦٠ ۚ ۝ ٢٦١ ۚ ۝ ٢٦٢ ۚ ۝ ٢٦٣ ۚ ۝ ٢٦٤ ۚ ۝ ٢٦٥ ۚ ۝ ٢٦٦ ۚ ۝ ٢٦٧ ۚ ۝ ٢٦٨ ۚ ۝ ٢٦٩ ۚ ۝ ٢٧٠ ۚ ۝ ٢٧١ ۚ ۝ ٢٧٢ ۚ ۝ ٢٧٣ ۚ ۝ ٢٧٤ ۚ ۝ ٢٧٥ ۚ ۝ ٢٧٦ ۚ ۝ ٢٧٧ ۚ ۝ ٢٧٨ ۚ ۝ ٢٧٩ ۚ ۝ ٢٨٠ ۚ ۝ ٢٨١ ۚ ۝ ٢٨٢ ۚ ۝ ٢٨٣ ۚ ۝ ٢٨٤ ۚ ۝ ٢٨٥ ۚ ۝ ٢٨٦ ۚ ۝ ٢٨٧ ۚ ۝ ٢٨٨ ۚ ۝ ٢٨٩ ۚ ۝ ٢٩٠ ۚ ۝ ٢٩١ ۚ ۝ ٢٩٢ ۚ ۝ ٢٩٣ ۚ ۝ ٢٩٤ ۚ ۝ ٢٩٥ ۚ ۝ ٢٩٦ ۚ ۝ ٢٩٧ ۚ ۝ ٢٩٨ ۚ ۝ ٢٩٩ ۚ ۝ ٣٠٠ ۚ ۝ ٣٠١ ۚ ۝ ٣٠٢ ۚ ۝ ٣٠٣ ۚ ۝ ٣٠٤ ۚ ۝ ٣٠٥ ۚ ۝ ٣٠٦ ۚ ۝ ٣٠٧ ۚ ۝ ٣٠٨ ۚ ۝ ٣٠٩ ۚ ۝ ٣١٠ ۚ ۝ ٣١١ ۚ ۝ ٣١٢ ۚ ۝ ٣١٣ ۚ ۝ ٣١٤ ۚ ۝ ٣١٥ ۚ ۝ ٣١٦ ۚ ۝ ٣١٧ ۚ ۝ ٣١٨ ۝ ٣١٩ ۝ ٣٢٠ ۝ ٣٢١ ۝ ٣٢٢ ۝ ٣٢٣ ۝ ٣٢٤ ۝ ٣٢

إن النبي ﷺ " في هذا الموقف كله كان يعمل للدعوة ويسعى إلى إسلام القوم وتركيتهم، باذلاً من نفسه جهداً، وعملاً، كما تفيدُه التاء في " تصدى " والقوم الذين تصدى لهم النبي ﷺ " هم عتبة، وشيبة، ولدا ربيعة : وأبو جهل، والعباس ابن عبد المطلب، وأمية بن خلف، والوليد بن المغيرة، وهم قادة مكة ورؤسائها، مما جعل الرسول يرجو من إسلامهم إسلام غيرهم <sup>(٢)</sup> ولذلك بقي مستمراً في دعوتهم ، فلما جاءه عبد الله ودعاه لم يقطع حديثه معهم ، وإنما أعرض عنه ، فكان العاب موعظة ترسي مبدأ إسلامياً هو الحرص على كرامة الإنسان مطلقاً : يجب الانتباه لها والعمل بموجبه .

### المركبة الثالثة

**Black and white**

الداعية رائد في مجتمعه ، يقود بالحنى ، ويدعو إلى الحق والصواب ، وينادى بالخير المطلق للناس أجمعين .

وهذه المهمة التي يقوم بها الدعاة تحتاج إلى شخصية ذات مواصفات معينة تساعد على القيام بهذه المهمة المتعبة ، الشاقة .

<sup>(١١)</sup> سورة عبس الآيات ( ١ - ١٠ ) .

<sup>(۱۰)</sup> تفسیر، انتشارات ج ۴، ص ۲۱۸.

إن الدعوة فهم دقيق للإسلام ، وتقدير صحيح لمخاطبة الناس ، ومهارة فائقة لمواجهته  
المواقف المناجحة ، وذكاء فريد للبيان والتفصيل . والدفاع عن الحق ، وإزالة شبهة الباطل  
والزيوف .

فلما و غيره أرى حاجة الدعوة إلى صفات معينة في تنبؤ دين الله للناس .

ويمكن تقسيم هذه الصفات إلى أطر رئيسية هي : —

**أولاً :** صفات التكامل الذاتي ، وأهمها الصدق ، والأمانة ، والإخلاص ، والذكاء

**ثانياً :** صفات الترابط والمودة ، وأهمها الحلم والتواضع ، والقناعة ، والكرم .

**ثالثاً :** صفات الريادة والتوجيه .. وأهمها المشاركة الوجدانية ، والقوة ،

والشجاعة .

وهذه الصفات تحتاج إلى بيان ...

" أولاً "

### صفات التكامل الذاتي

يبحث الله رساله بعد ملوغهم سن الأربعين ، لئله حد الرشد ، وشروع الحفل ،

يقول الله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً ﴾ لأن كمال الرشد يساعد

على تكميل الغير ، ونحن هنا نشير إلى أهم الصفات البارزة في الشخصية الكاملة

لتكون منارة في تنشئة الدعوة ، وتوجيههم نحو النجاح في مهمتهم .

إن تأثير داعية واحد يقيم بالصفات المنشودة أفضل من تأثير مئات الدعاة

الذين انقلبوا الإمامة والدعوة ، وظيفه ، يكفيها حضور الأوقات والإنصراف من المسجد

تجمعت مسرة أحد العلماء يقول : إلى أو من مائة واحد ، عظمتته بحدوث عن

الإيمان بالله تعالى الواحد . الأحد ... ولكنه بين أن مقصده الداعية المثالي ولو كان

واحداً ، لأن الكثرة ، غير المهيأة لا تفيد مثله .

ومع ايمان المؤمنين المخلصين أرجو للدعاة أن يكونوا على مستوى دعوة الله تعالى .

وأهم صفات الكمال الذاتى ما يلى : —

## ١ - الصدق :

**والصدق** فوق أنه فى حد ذاته سلوك سام، وصفة راقية، فهو مسع الثقة، وأساس التسليم، لأن الصادق لا يخالف الواقع ، وكل قوله مسلم، لا يحوم حوله شك، أو تكذيب .

والصدق فى الداعية ضرورة، لأن ما يذكره ليس رأياً شخصياً، ولا احتشاداً ذاتياً، لأنه مبلغ دعوة الله كما جاءت، ومبين لغوامضها، وناقل كل بيان قيل فى شأنها ، وكل هذا يحتاج إلى صدق فى التبليغ، ودقة فى النقل والبيان، حتى يتيقن المدعو من أن كل ما يسمعه من الداعية هو رسالة الله، وأن الدعوة كما بدت من قوله هى هى كما تركها رسول الله " ﷺ " فلا تزيد أو تنقص .

ولذلك كان من الحكم الخالدة فى رسالة الإسلام أن أهم صفة اشتهر بها النبي " ﷺ " هى صفة " الصادق الأمين " وقد ذكر النضر بن الحارث بعض أوصافه لقومه فقال لهم : ( هو أصدقكم حديثاً ) <sup>(١)</sup> ، ولما سأل هرقل أبا سفيان ( ولم يكن قد أسلم بعد ) عن محمد قائلاً : وهل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه : لا .

فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذكر الكذب على الناس ويكذب على الله <sup>(٢)</sup> ، وهذا القول من هرقل يبين أهمية الصدق لأن دعوة الله لا نعلمها إلا من مبلغها ، ومن كذب على الناس جاز أن يكذب على الله ، أما من إلتمز الصدق مع البشر فهو صادق حتماً مع الله سبحانه وتعالى .

ولما بدأ النبي " ﷺ " بجهر بدعوته سأل الناس ( لو أخبرتكم أن غيلاً يخرج من سفح هذا الجبل ، أكنتم مصدقي ، قالوا جميعاً : ما جربنا عليه كذباً ) <sup>(٣)</sup> ، وإنما

<sup>(١)</sup> سيرة النبي ج ١ ص ٣١٩ .

<sup>(٢)</sup> صحيح البخارى ج ١ ص ٥ ، ٦ - باب بدء الوحى .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخارى ج ٦ - كتاب التفسير - باب ثبت هذا أبى لهب .



بدأ معهم بإظهار إقرارهم بصدقه ليوضح لهم أن دعوتهم هي الحق ، لأنه لم يعهد فيه الكذب قط .

وقد كثرت التسيهات والتوجيهات في القرآن الكريم والحديث النبوي لإلزام الصدق في كل شيء ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ (١) .

ويقول النبي ﷺ " ( عليكم بالصدق فإن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة ) " (٢) بل يصل الأمر في أهمية الصدق إلى جعله أحد الصفات الأساسية للمسلم ، لأن الإسلام في حقيقته نبذ للأوهام ، وبعد عن الباطل ، وهو بذلك يتنافى مع الكذب ، ومن افتراه ليس مؤمناً كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَذِبُونَ ﴾ (٣) .

وسئل النبي ﷺ " ( أياكون المؤمن جباناً ؟ فقال : نعم ، فقيل : أياكون المؤمن بخيلاً ؟ فقال : نعم ، فقيل له : أياكون المؤمن كذاباً ؟ فقال : لا ) " (٤) .  
وإن كان هذا شأن المسلم على إطلاقه فما بالك بالداعية الذي هو في أشد الحاجة إلى أن يتبع ، وبغير الثقة في صدقه لا يكون هناك اتباع ، ألا ترى أخوة سيدنا يوسف " عليه السلام " حينما احتجز أخوهم " بنيامين " عند يوسف " عليه السلام " ذهبوا إلى أيهم قاصين ومن أجل أن يثق في قولهم قالوا : ﴿ وَسَقِلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعَبِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٥) بل إن رسل الله إلى لوط " عليه السلام " يقولون له : ﴿ وَأَتَيْنَكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ (٦) فتجددهم بظهور صفة الصدق لمحدثهم على وجه التأكيد ، فيها ، ليكون ذلك أدعى إلى السماع ،

(١) موطأ مالك ج ٤ ص ٢٢٧ - ما جاء في الصدق .

(٢) سورة النحل الآية ( ١٠٥ )

(٣) موطأ مالك ج ٤ ص ٢٢٨ - ما جاء في الصدق والكذب .

(٤) سورة يونس ، الآية ( ٨٢ ) .

(٥) سورة الحجر الآية ( ٦٠ ) .

وأسرع في الموافقة، لا فرق كما هو مذكور بين الملائكة والبشر، لأن الإقناع لا يتم إلا بالأمر الواقع، ويعيش التصديق دائماً مع الحق والثبات ، ومن أكثر من الدعوة حاجة إلى الإقناع والثبات !!! .

صحيح أن الدعوة تشمل في طياتها عناصر الثقة بها، من واقعيتها في التمتع ببعض ودقة في الإسهاد ، لكن هذا لا يعنى الداعية من ضرورة الثقة فيه أبصاً، لكن تصفى إليه الأذان ، وتسمع العقول، وتفكر الأفئدة، وبعدها يكون قد أدى ما عليه .

## ٢ . الأمانة :

وما يلزم الصدق صفة الأمانة الشاملة لكل ما يقوم الإنسان به سواء نفسه ونساء الناس، من قول، أو عمل. ومن أكبر الخيانات أن تكذب الحديث حيث يقول "كبرت خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مصدق، وأنت له به كاذب"<sup>(١)</sup> ولذلك أمر الله المسلم بأن لا يخون في أى جانب من الجوانب حيث قال تعالى :  
 هُوَ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمْنَتَكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾<sup>(٢)</sup>  
 وكما ارتبط الإيمان بالصدق فهو يرتبط بالأمانة ، ويجب أن يشتهر الداعية بالأمانة كما أشتهر بالصدق عند الجميع من أسلم ومن لم يسلم ليتحقق خير كثير للدعوة .

## ٣ . الإخلاص :

يحتاج الدعاة إلى الإخلاص لله تعالى وهم يبلغون دينه ..  
 والمقصود بالإخلاص أن يكون العمل كله لله : لا بداخله غرض آخر ، وأن يبحث في كل أقواله ، وأعماله : وأحواله عن مراد الله وتوجيهه فيما سيقوم به .  
 وقدونه في ذلك رسول الله " ﷺ " انذى عاش عمره للدعوة ولم ينظر لنفسه آخر .  
 عرض عليه كفار مكة المال ، والملك ، والسلطان ، والمرأة ليترك الدعوة . فكان رده واضحاً بأنه لن يتركها ولو ملكوا قوى الكون وأعطوها له في يده ، ونحت نحتاً قد<sup>(٣)</sup>

<sup>(١)</sup> سورة الأنفال الآية ( ٢٧ ) ..

<sup>(٢)</sup> البقرة - باب الأدب المفرد .

<sup>(٣)</sup> انظر ص

ولصدق إخلاصه " ﷺ " لدعوة الله تعالى تحسّل في سبيلها الكثير . فقد أودى في نفسه ، وولده ، وسائر جوات حياته ، وظل صابراً محتسباً ، راجياً رضوان الله تعالى ، لذلك وجب على الدعاة أن يعيشوا للدعوة ، وبخاصة أن الله تعالى قد يسر لهم أمر المعاش ، في هذا العصر .

إن الداعية المخلص لرسائله مسئول عن : —

— العلم بالدعوة : وذلك لا يتأتى إلا بالقراءة الدائمة والتعلم المستمر ، وليحصل للكتاب نصيباً من حياته ، يعود إليه أثناء تحضير درسه ، وإعداد خطبته .  
ومن المعلوم أن الداعية يعرض دعوته جزءاً ، جزءاً ، وعليه حينئذ أن يعد لكل جزء عدته بالقراءة ، والفهم والإعداد .

— تخير الوسيلة : وهذا يحتاج إلى النظر في كافة الوسائل الممكنة لتخير المفيد منها ، فقد يكون المفيد كتاباً ، أو حواراً ، أو مصاحبة ، أو حديثاً مطولاً .

وله في رسول الله " ﷺ " أسوة ، فلقد دعى حديثه " رضي الله عنهما " بالعمل ، ودعا أبا بكر بالكنمة الموجزة ، ودعا غيره بالخطبة المطولة ، أو برؤية العمل والتطبيق .. وهكذا .

— تحمل المشاق : يلقى الدعاة في أعمالهم عديداً من العقبات ، بعضها من المشركين وبعضها من غيرهم ، من شياطين الإنس والجن ... وقد عشنا مع رسل الله " عليهم صلوات الله وسلامه " ، ورأينا المعاناة التي قابلتهم أثناء قيامهم بالدعوة إلى الله تعالى .. ومع ذلك لم تثن لهم قنانه ، ولم تضعف لهم عزيمته ، واستمروا على إخلاصهم في الدعوة إلى الله تعالى .

عني هذا يجب أن يستمر الدعاة غير مهالين بما يعترضهم من مشاق ، متمسكين بذلك لله رب العالمين .

٤ . الذكاء والبديهة : يتعرض الدعاة لمواقف تحتاج منهم إلى بديهة متوقدة تمكنهم من إيجاد الحل المناسب لها ، في إطار المشروعية الإسلامية ، وبسرعة خاطفة، منعاً

لنشر الملل مع المدعويين .

إن الذكاء العادى ، والذاكرة الضعيفة تضر أكثر مما تفيد فى بعض الأحيان ، وكثير من العباقرة فقدوا تفوقهم بسبب بطشهم فى التفكير ، وإيجاد الحلول ، ومعالجة المواقف .. لأن الإنسان قد يكون مثقفاً ، غزير المادة ... ومع ذلك يرتج عقله ، وثقونه ذاكرته إذا صادف موقفاً ، حساساً ، مفاجئاً .  
وقديماً قالوا ( إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه ) .

ذهب غلام مع وفد قومه لتهنئة عمر بن عبد العزيز ، ولما وقفوا بين يدي الخليفة إشراب الغلام للكلام .. فقال عمر : يا غلام ، ليتكلم من هو أسن منك .  
فقال الغلام : يا أمير المؤمنين : إنما المرء بأصغريه ، قلبه ولسانه ، فإذا منح الله عبده لساناً لافظاً ، وقلباً حافظاً فقد أحاد له الاختيار ، ولو أن الأمور بالسن لكان هنها من هو أحق بمجلسك منك .  
فقال عمر : صدقت <sup>(١)</sup> .

والقلب الحافظ لا يكون إلا من ذاكرة حسنة ، وبديهة حاضرة ..  
وقد درس علماء النفس ظاهرة ضعف الذاكرة فوجدوها ضارة بالإنسان ، وخاصة الإنسان العادى .

يقول "كارل سيشور" : إن الرجل العادى لا يستخدم أكثر من عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستدكار ، ويضيع منه تسعون فى المائة بإهماله قوانين التذكر الطبيعية <sup>(٢)</sup> .  
إن العلم هبة إلهية يعطيها للمتقين من عباده كما يقول تعالى : ﴿ وَآتُوا اللَّهَ وَيَعْلَمُكُمْ اللَّهُ ﴾ .  
ويقول الإمام الشافعى :

شكوت إلى و كيع سوء حفظي      فارشدني إلى ترك المعاصي  
وأخبرني بأن العلم نور      ونور الله لا يعطى لعاصي

<sup>(١)</sup> ابن عسيرة ص ٤٢ .

<sup>(٢)</sup> التذكير فى الجواهر ص ٦١ .

وأهل التصوف يشعرون بالإلهام الإشرافي ، ويدكرون أن أهل الله يكون الله معهم دائماً عوناً ونصيراً .

ومع أن الأمر هبة إليه فإننا نطالب بالأخذ بالأسباب ومطرّد العادة .

أراد النظام أن يوجه ولده إبراهيم للدعوة إلى الله تعالى فأحضره إلى الخليل بن أحمد ، فقام الخليل باختبار ذكائه ، والوقوف على درجة بديهته ، فأحضر كأساً ، وقال له : صف هذا الكأس .

فقال إبراهيم : بمدح أم بدم ؟ !

فقال الخليل : بمدح .

فقال إبراهيم : تريك القذى ، ولا تقبل الأذى ، ولا تستر ما وراء .

فقال الخليل : بدم .

فقال إبراهيم : يسرغ إليها الكسر ، ولا تقبل الجبر .

وهنا أخذ يعلمه ، ويوجهه لما رأى فيه من فطنة وذكاء ..

ومن هذا الباب أيضاً أن الحافظ العراقي لما ذهب إلى شيخ ابن البابا ليتلقى

عنه الحديث اختبره أولاً حيث قال له : من ابن البيع ؟

قال الحافظ : الحاكم أبو عبيد الله النيسابوري .

فقال له : من أبو محمد الهلالي ؟

قال : سفيان بن عيينة .

قال له : هلم يا بني : وعرف مكانته من الوعي والإدراك ، وإستعداده للتعليم، وعلمه .

إن مثل هذا الاختيار يتم اليوم في عدد من الدراسات المتخصصة التي تبدأ من

وقت مبكر كدور المعلمين والمعلمات ، ومعاهد الخدمة الاجتماعية ، والمدارس

العسكرية المتنوعة ، وذلك كله لينجح الطالب بعد تخرجه فيما يوكل إليه من أعمال .

وقد أدرك قدر هذا الاختيار المبكر مع الاختيار أصحاب المذاهب الوضعية

ورجال الأديان الأخرى فعملوا به وأخذوا يعدون لاطلهم دعاة هبهم الذكاء والنشاط والإخلاص ، وغير ذلك من الصفات التي تنتشر بها الأفكار والعقائد .

وإعداد الدعاة إلى الإسلام يجب أن يتدرج في هذا الخط الطيرعى : حيث يختارون في سن مبكرة ، ويختار مستوياتهم الذهنية وقدراتهم الشخصية ليسهل إعدادهم ، ويكونوا بعد تخرجهم على مستوى واجب الدعوة ، وأهمية العمل لها .

### " ثانياً "

#### صفات الترابط والمودة

تأليف القلوب عملية أساسية في الدعوة إلى الله تعالى ، ولذلك يجب على الداعية أن يهتم بهذا الجانب الحيوي في نشاطه ، ليرتبط مع الناس في مودة وإخلاص . ويعتمد هذا التأليف على ملامح شخصية الداعية ، ولذا نوصي بتسوية نميزه بالصفات التالية : —

#### ١ = الحلم :

**والحلم صفة هامة للداعية** تسمح القلوب ، وتذيب الإحس ، وتعطي له خيراً كسبوا من الصلابة في مواجهة أشد المواقف ، وأحلكها ، وهو أول ما يحتاج به الخلق الحسن ، لأنه يقرب الغريب ، ويذهب العداوة .

وهل يستوى الحلم والتهور ؟ أبداً لا يستويان لأن الحلم سد الأخلاق ، والحقيقة أنه : ﴿ وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ (١) والحلم ليس دليل ضعف أبداً بل هو الدليل على القوة ، والمالك لنفسه عند الغضب هو القوي في الحقيقة . قول النبي " **يُبْرَأُ** " : ( ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ) (٢) والإسلام رغم أنه يعطي للنفس حقها في مقابلة السوء بمثله حيث قال تعالى :

(١) سورة فصلت الآية ( ٣١ )

(٢) موطأ مالك ج ٤ ص ٩٥ . ما جاء في الغضب .

﴿ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ وهذا شيء طبيعي يتفق مع غريزة الإنسان في الانتقام والانتصار إلا أن الأصحى من الانتصار هو أن يكون المرء حلماً يعفو عند الإساءة . فقال تعالى عقب هذا الجزاء المتلى : ﴿ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ﴾ ويكون الآخر على الله يحتم العفو إلى درجة كبيرة .

والضرورة هذه الصفة للداعية أمر الله رسوله بها فقال له : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (١) ، وقاله له : ﴿ فَأَعْفُ عَنْهُمْ وَأَصْفَحْ إِنْ اللَّهُ تَحِيَّتُ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٢) .

وعلى الدعاة أن يهتسوا بالحلم والعفو ليصلوا إلى غرضهم ، ولا يجعلوا مشهم الغضب والانتقام ، لأن ذلك ينشر المدعويين منهم ولا يجيبهم في استماع الدعوة وتفهمها ، يقول الإمام الغزالي : ( أما حسن الخلق بعد العلم ، والورع ، فضرورة لينمكن من اللطف والرفق ، وهو أصل الباب ، وأسلمه ، والعلم والورع لا يكفيان فيه فإن الغضب إذا هاج لم يكف مجرد العلم والورع في قسعه ما لم يكن في الطبع قبوله ، وعلى التحقيق فلا يتم الورع إلا مع حسن الخلق ، ومقدرة صاحبه على ضبط نفسه وقت الشدة والغضب ، وبه يصير الداعي على ما أصابه من دين الله ، وإلا فإذا أصيب عرضد ، أو مالد ، أو نفسه تسي الدعوة ، وغفل عن دين الله ، واشتغل بنفسه ، بل ربما تقدم عليه ابتداء لطلب الحاء والاسم ) (٣) .

يقول الشيخ / ابن علوى الحداد : ( على الدعاة أن يكونوا على غاية من الصبر ، والاحتسار ، وسعة الصدر ، ولين الجنب وحفظ الجناح ، وحسن التأليف ، وإن دخل عليهم شيء من أذى الجاهلين ، عليهم أن يصبروا ، ويعرضوا ويقولوا خيراً لأنهم من عباد الرحمن الذين إذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً ) (٤) .

(١) سورة الأعراف الآية ( ١٩٩ ) ..

(٢) سورة السائدة الآية ( ١٢ ) .

(٣) الدعوة الثامنة ص ٩

(٤) الإحياء ج ٢ ص ٢٩٢

ويقول ابن تيمية (ولابد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الفرق ولا بد أن يكون الداعية صبوراً على الأذى، فإنه لابد أن يحصل له أذى، فإن لم يصبر ونعلم كان ما يفسد أكثر مما يصلح، وينقل ابن تيمية ما قاله القاضي أبو ليلى (لا يأمر ولا ينهى إلا من كان رفيقاً فيما يأمر به، رفيقاً فيما ينهى عنه، حليماً فيما يأمر به، حليماً فيما ينهى عنه) <sup>(١)</sup>

ويكفي الدعاة أن يتعنسوا من توجيهات القرآن الكريم المؤكدة نحو الخدم والعنبر حيث قال تعالى: ﴿وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ <sup>(٢)</sup> .

#### ٤ . التواضع :

**والتواضع أحد الصفات الأساسية التي تساعد على المعاشرة الحسنة، لأن التواضع يعيش مقدرًا لنفسه وللناس، ومقدرًا من الآخرين ، ومن هذا المنطلق لا يبدو متعالياً قط، ولا يكون وضعاً ألبداً ، ويشعر أن المساواة الأصيلة هي الروح المسيطرة فيألف ويؤلف ويأنس ويؤننس به .**

ويستقر التواضع في النفس بسبب يفتن بها بأنها والناس جميعاً من نفس واحدة، وما انقسمت إلى القبائل والشعوب إلا لأجل التعارف، واللقاء، والتألف، حفاظاً على ما عليه الإحساس الواقعي بالأصل الواحد ، واتباعاً لتعاليم الرب الواحد الذي كفل للناس مرسية متكافئة فلا يمتازون بخلقهم، أو لونهم، أو ثقافتهم، وإنما يكون التمايز تابعاً للإيمان والعمل ، وحتى مع التميز بالإيمان والعمل فإن الواجب على المؤمن أن يتمسك بالتواضع حتى النهاية لما يحققه من فائدة ، أنظر ما قاله الله تعالى لتأصيل هذه الحقائق : ﴿يَتْلُهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاهُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ <sup>(٣)</sup> فالجميع من

<sup>(١)</sup> الحصة في الإسلام ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

<sup>(٢)</sup> سورة النور الآية ( ٢٢ )

<sup>(٣)</sup> سورة الحجرات الآية ( ١٣ ) .



أصل واحد والتفرق للتعارف، والكريم هو التقى، والذي يحكم بالدرجة الصادقة هو الله العليم الخبير، أما هذا الذي يتعالى حتى ولو يتقواه فلا يعتد به لأنه زكى نفسه مخالفاً أمر الله القائل : ﴿ فَلَا تُزَكُّوْا أَنْفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ﴾ (١١) .

والداعية الذى جعل همه الدعوة إلى الله ، يجد نفسه ملتزماً بالتواضع، لينمكن من التماس طريق الله الذى دعا إليه عباده الصالحين ليتحقق له كل ما وعد الله به ، من تمتع كامل بالدين، ومن تمتع عظيم بالآخرة فإن الواقع أن : ﴿ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَافِيَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (١٢) .

والتواضع يمكن صاحبه من الاستفادة بكل آيات الذكر، والكون، لأنها لن تصرفه عن فهمه لتواضعه كوعد الله القائل : ﴿ سَأَصْرِفُ عَنْ آيَتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ (١٣) فيبين أن عقول المتكبرين وحدهم هى التى لا تفهم ولا تعي، فيجادلون فى الحق بعد تبينه، ومهما عرضت لهم الآيات الواضحات كونه، أو قولية، لا يرونها، ذلك حالهم ، وحال المتكبرين دائماً ، ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ ، وإنما فقدوا كل هذا لأنهم بالتكبر بعدوا عن رحمة الله وحيه ، إنه لا يحب المتكبرين ويفقدون هذا الحب لا يجدون أى حب من الناس ، لأن الملائكة تنادى أرواح البشر أن الله يغض فلا تأفأ بغضوه ، وسيجدون أنفسهم بعد ذلك فى عزلة من الناس ، وهذا مما لا يرضاه داعية لنفسه .

على الداعية أن يلتزم التواضع ليقرّب من الناس، لأن دعوته فى حاجة إلى صلة مستمرة بهم ، وعليه أن يكون قريباً إلى قلوبهم وأرواحهم ، والتواضع هو ضمان ذلك كما بينته الحقائق الدينية التى عاشها النبي " ﷺ " تطبيقاً على نفسه، وتوجيهاً لمن بعده.

١١ سورة النجم الآية ( ٣٢ )

١٢ سورة القيسم الآية ( ٨٣ )

١٣ سورة الأعراف الآية ( ١٤٦ )

من المؤمنين ، إقرأ هذا الأمر إلى رسوله " ﷺ " : ﴿ وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ <sup>(١)</sup> والمس منه التوجيه الواجب إلى التواضع لأنه بهذا الخفض يقرهم ، ويوجه عقولهم وأرواحهم ، وكان النبي " ﷺ " لا يتعالى على أحد من أصحابه بل يجلس معهم ويعرفهم أنه كأحدهم في كافة شئون حياته ، وإذا ما مر بصبيان دسغار وقف وسلم عليهم ، فلقد مر أنس على صبيان فسلم عليهم وقال : كان النبي يفعل <sup>(٢)</sup> بل إنه يوضح لأصحابه تواضعه فيما قام به من عمل ، فيقول " ﷺ " ( ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم ) ، فلما سأله جابر عن نفسه قال ( وهل من نبي إلا وقد رعاها ) <sup>(٣)</sup> .

وعلى الدعاة أن يلتزموا بالتواضع الكامل حتى يتمكنوا من تادية دورهم ويضربوا في هذا المجال صوراً عملية كثيرة .

### ٣ . القناعة والزهد :

الزهد الصادق يتبعه قناعة بما أوتي ، وعفاف عما في أيدي الناس ، ولا تقف النفس الكريمة بصاحبها عند الزهد : والقناعة ، والعفاف ، بل إنها تطبع بطابع السخي المعطي حين يجد الذي يعطيه غير منظر علم أحد ، أو شكره ، لأنه أنفق لوجه الله : ولا ينتظر ثواباً إلا من الله ، وما ذلك إلا لإيمانه بحقائق القرآن الذي يتلوه ويرشده والتي منها : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا يُنْفِقُكُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا إِلَّا لِنَفْسِكُمْ ۚ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴾ <sup>(١)</sup> .

إن الداعية في أمس الحاجة إلى نفس زاهدة تؤمن بالزهد وتعرف فضيلته وترى أن

<sup>(١)</sup> سورة الشعراء الآية ( ٢١٥ ) ..

<sup>(٢)</sup> رياض الصالحين ص ١٧٤ .

<sup>(٣)</sup> صحيح البخاري ج ٤ ص ١٩٦ - كتاب بدء الخلق - باب يعكفون على أصنام لهم

<sup>(٤)</sup> سورة البقرة الآية ( ٢٧٢ ) .

( هذه الحياة الدنيا ليست دار التمتع الكلى ولكنها فترة مؤقتة تنبئ عليها كل سعادة الآخرة ) ﴿ وَإِذَا الدُّنْيَا الْآخِرَةُ لَهِيَ الْحَيَوَانُ نَزَحْتُمْ عَنْهَا ﴾ (١) وبذلك فليس الهدف منها التلذذ من الشهوات والمطعم ، وليس هو شأن المؤمنين أبداً أما الكافرون فإنهم ﴿ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ﴾ (٢) وهذا الزهد لا يكون المؤمن منعماً في تصرفه ، وفي الوقت نفسه لا يحرم من الدنيا ﴿ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴾ (٣) وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .

هذه الحقائق ترسخ في نفس الداعية فيعطى بلا حد ، ويعلم أن الله سيخلفه ويعوض عليه بالنجاح في دعوته .

#### ٤ = الكرم والسخاء :

والكرم والسخاء صفة من أهم صفات الداعية حيث تقرب القلوب النافذة وتمهد العقول للطاعة ، ولذلك كان من أول الأوامر الأخلاقية للرسول " ﷺ " ﴿ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴾ (٤) أي لا تعط مستكثراً ما أعطيت للناس فحده " ﷺ " يعطى عطاء من لا ينشى فاقه، وكان كما وصفه ابن عباس ( أجود الناس ) (٥) "وَلَمْ يَنْتَفِعْ بِشَيْءٍ لَا عَنْ شَيْءٍ سَلَّ فِيهِ" (٦) ولا يكفى في الكرم العطاء المادى وقت وجود المال فس ( ليس الغنى عن كثرة العرض ولكن الغنى غنى النفس ) (٧) بل لا بد من نفس كريمة استجمعت كل خواص الكرم وأصالته في كافة حالاتها .

(١) سورة الشعراء الآية ( ٢١٥ ) .

(٢) رياض الصالحين ص ١٧٤ .

(٣) سورة المدثر الآية ( ٦ ) .

(٤) صحيح مسلم ج ٧ ص ٧٣ .

(٥) صحيح مسلم ج ٧ ص ٧٣ .

(٦) صحيح البخاري ج ٨ ص ١١٨ .

ومن هنا نجد القرآن الكريم يحث المؤمنين الالتزام بمكارم الأخلاق ، غير حاجتين بما يعرضهم من عقوبات ويعد "كريم أحد الأسباب التي حبيب الناس في رسول الله ﷺ" ويقول عائشة : ( كان رسول الله أجود الناس كلها ) ، ومن المعروف أن الإنسان عند الإحسان وإنه يروي أن رجلاً أتى النبي ﷺ وسأله فأعطاه غصناً من حنين فرجع إلى قومه مسلماً وهو يقول لهم ( أسلموا فإن محمداً يعطي عطاة ما يخشى فيه الفاقة )<sup>(١٦)</sup>

### "ثالثاً"

#### صفات الريادة والتوجيه

**والداعية لا يكتفى بالموودة مع الناس لأنه صاحب رسالة يعمل لنشرها فيهم ، ويهديهم بها ، وذلك لا يتأتى له إلا إذا تمتع بشخصية مؤثرة فيها قدرة الحدث النفسي ، ومنها يقبل التوجيه والريادة ، نفي أن هذه الشخصية لابد أن تمتلك مجموعة من الصفات ذات التأثير والريادة ، ومنها :**

#### ١ - المشاركة الوجدانية :

وهي صفة هامة للداعية ، تجعله يعيش حياة الناس ، يشعر بشعورهم ، ويتفعل مع آراءهم ، وحياتهم ، ويتداخل في تفكيرهم ، وكافة شئوهم بصدق وفهم ، وانتميل ، ويجب أن تأخذ هذه الصفة عنده شكلاً عاماً بمعنى مواجهتها تلقائياً مع الجميع بلا تفرقة بين غني وفقير ، أو رئيس ومرتوع ، ورفيع أو وضع لكى يصل بالدعوة إلى الجميع ، فإن المشاركة تضيء إحساساً عملياً له قوته في الوصول والتأثير ، ومن المعروف أن المشاركة الوجدانية هي الرباط الخيري الذي يصل القلب بالقلب ويربط العقل بالعقل والجسم بالروح<sup>(١٧)</sup> وهي التي تنشئ كل التصرفات الحسنة والسلوك الفويم ، وتأثيرها في الحياة الاجتماعية مؤكد بسبب خلوها من الزيف والتصنع ، ولأذا

<sup>(١٦)</sup> القفا ج ٦ ص ٢٢٨ ،

<sup>(١٧)</sup> الشخصية ص ٤٠

يظهر مع أول مقتضى : ولكلى أمر : ولا تحتاج إلى عناء كبير لكن تعرف . وتذكر .  
للازمة القول ، والسلوك ، والعمل .

والداعية لها ينتظره الناس ويقدمونه عليهم ، فيأخذون رأيد ، وينهجون هجته  
ويعملونه رائد لهم وما استحق ذلك عندهم إلا بعد أن تأكدوا من الصور العديدة هذه  
الضعف ، فهو حبيب يمتنى الخير للجميع ، كما ينسأه لنفسه ، فيصل الرحم ، ويكرم  
الجار ، ويقرى الضيف ، ويخلص للجميع ، ولا يترك أمراً فيه مصلحتهم إلا وبحث عليه  
ويبعدهم عن سواه ، ودائماً تلقاه مهتماً بالخير والنفع ، فيكرر النصيحة ، ويأمر  
بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، وتعاونته مع الجميع يفسسه الجميع ، في كثرة . ووضوح .  
وهو في هذا لا يظفر من الناس جزاء أو شكوراً ، وكل ما ينسأه أن يجعل الأهمهم  
متفحمة لدعوة الله مقبلة على تديرها واليقين ها .

والداعية يطبق أشكال هذه الضعفة عن اقتناع ها ، لأنها أوامر دينية إلهية ، وحياتية  
رسوله " ﷺ " مع الناس ، وإذا كانت هذه مصادر دعوته فهو أحق الناس بتطبيقها .  
إنا الدروس المستفادة من فهمه لحقيقة الإنسانية ، ودعوة الإسلام للتعارف  
نتم المشاركة الصادقة ، وجدانياً ، وعقلياً ، وحسياً ، ليصنعوا جميعاً ما يفيدهم وينفعهم :  
وأيات القرآن تؤكد لها وتحت عليها ، أنظر قوله تعالى حينما يخاطب الذوم بصيغة  
الجماعة فإنه لا يفرق بين إنسان وإنسان ، ولا بين مؤمن ومؤمن ، فإخطاب واحد  
للجميع إذ نادى ﴿ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ ﴾ ، ﴿ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ﴾ وهذا يعلم المشاركة  
بل إن القرآن يعلم الناس أن يكون دعاؤهم لأنفسهم ولغيرهم إذ يقول هو أهلاً لنا  
الضبط المستقيم ﴿ ١٩ ﴾ وهو دعاء في سورة الفاتحة يقرأه المسلم كل يوم داعياً  
بصيغة الجماعة إشاراً لغيره ، وترجمة لنفسه ، من الأناية ، ولأنه شيء نبيه الله ورسوله ،  
حيث يقول تعالى : ﴿ وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ " " ويقول إخباراً

عن سيدنا إبراهيم عليه السلام : ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ  
 الْحِسَابُ ﴾ <sup>(١)</sup> وذلك ليس بدعا فإن القرآن يمدح المؤمنين الأول ، لأنهم تركوا  
 أنانية الذات إلى حب الجميع حيث كانوا لا يدعون للأحياء وحدهم بل يقولون :  
 ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا  
 لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ <sup>(٢)</sup> ولم يكن بالقول فقط وإنما بالعمل كان إيتارهم كما يفيد قوله  
 تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يَحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ  
 فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ  
 وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(٣)</sup> فترى الأنصارى ساكنى  
 المدينة يحب المهاجر إليه من مكة بكل صفاء ، ويؤثره على نفسه خاصة ، وسبب  
 ذلك أن وجدانهم قد آمنت بهذه المشاركة عن اقتناع فتمسكوا بعد ذلك من تأسيس  
 مجتمعهم على الحب ، والخير ، والمشاركة ، وكل ما حرصوا عليه هو أن ينسحق الحبل  
 من قلوبهم وأن يوقفوا شح النفس ليصلوا إلى الفلاح ، وذلك درس للداعية .

أن الداعية ملتزم بأن يحسن صلاته مع الجميع تنفيذاً لأمر الله تعالى :  
 ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِالْقُرْبَىٰ وَالْقُرْبَىٰ  
 وَالْمَسْكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنُبِ وَآبِ السَّبِيلِ  
 وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ﴾ <sup>(٤)</sup> يبين الزمخشري في تفسيره هذه الطوائف فيذكر أن ذا القربى  
 كل ما بينك وبينه قربي من أخ أو عم أو غيرهما ، والجار ذى القربى هو من قرب  
 جواره ، والجار الجنب من بعد جواره ، وهو أجنبي ، والصاحب بالجنب الذى

<sup>(١)</sup> سورة إبراهيم الآية ( ٤١ )

<sup>(٢)</sup> سورة الشورى الآية ( ١٠ )

<sup>(٣)</sup> سورة النحل الآية ( ٩ )

<sup>(٤)</sup> سورة النساء الآية ( ٣٦ )

صحيحك في أمر ما أو المرأة ، وابن السبيل المسافر المنقطع أو الضيف <sup>(١)</sup> ويجب أن تأخذ هذه الجاهة الحسنة أشكالمها المتعددة فهي على النبي ، والبر ، والمأمور بها في قوله تعالى : ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى ﴾ <sup>(٢)</sup> وهي نصيحة خيرة ، وتواصى بها لأنها من صفاتهم ، ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ <sup>(٣)</sup> وهي أمر بالمعروف وهي من المنكر اللذان هما أساس خيريتهما كما أخبر الله : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(٤)</sup> وسب فلاحهم الذين أمروا به في قوله تعالى : ﴿ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ <sup>(٥)</sup> .

ويعد الداعية أمامه كذلك صورة النبي " ﷺ " وتطبيقاته هذه الصلوة ، فلما كان قبل البعثة كما وصفته زوجته خديجة ( إنك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتقوى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الحق ) <sup>(٦)</sup> وكان يشارك في وفد أحدائهم الكبرى فساهم في حرب الفجار ، وحلف الفضول ، وبناء الكعبة ، وعاش في الرعاة والتجار ، والأثرياء ، والكبار ، والصغار ، وكان الجميع يذكرونه ويحذرونه إليه . فلما بعث عليه تضاعفت اهتماماته بالناس كما وصفه الله : ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ <sup>(٧)</sup> وكان يوال الناس بالنصح والإرشاد قاصداً نجاتهم وسعادتهم ، وكان " ﷺ " يسبقهم في كل أعمالهم ألا تراءى في يوم " بدر " يترك ابنته مريضة في المدينة ويذهب إلى الحرب لا يجلس في العريش

<sup>(١)</sup> تفسير القشيري ج ١ ص ٥٧٦

<sup>(٢)</sup> سورة التوبة الآية ( ٢ )

<sup>(٣)</sup> سورة البقرة الآية ( ١٧٧ )

<sup>(٤)</sup> سورة آل عمران الآية ( ١١٠ )

<sup>(٥)</sup> سورة آل عمران الآية ( ١١٤ )

<sup>(٦)</sup> صحيح البخاري ج ٩ ص ٢٨ - كتاب التعبير

<sup>(٧)</sup> سورة التوبة الآية ( ١٢٨ )

الذى بناه له الصحابة خلف الصفوف ، بل ليكون في الصفوف ، يرمى بالحصاء ، ويناشد الله ، وينظم الصف حتى أشفق عليه الصديق أبو بكر " ﷺ " فقال له : بعض مناشدتك ربك فإنه منجز لك ما وعد وتنتهى المعركة ، ويأتيه خبر وفاة ابنته وهو عائد إلى المدينة .

وكان " ﷺ " يحاول دائماً مصلحة الناس ويتصرف وفق ذلك ، من ذلك ما ذكره " ﷺ " ( يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إلى منه خشية أن يكبه الله في النار )<sup>(١١)</sup> فهو يعطي هذا إنقاداً له من النار ويترك غيره الأحب .

إنه " ﷺ " في موالاته النصيحة ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، قد ترك للمسلمين عموماً ، وللدعاة على الخصوص ثروة طائلة تخدمهم بالدين كله . وعلى الحملة فإن هذه المشاركة بكل جوانبها ضرورية لمن وقف نفسه لدعوة الله حتى يأخذ المبادرة ، ويتقدم الصفوف ، ويكون ثقة القوم ، وأملهم ، ويعدونهم الحاقداً ، وينحو من عداوات المعارضين .

## ٢ - القوة والسجاعة :

وهذه صفة أخرى تساعد على الثقة والقيادة وهي صفة تسبى على تقدير الشخص لنفسه وفهمه لواقع حياته وأتباعه لتعاليم دينه المؤكدة ، فبذلك يبعد تلقائياً عن الذل والضعف ، وعن الخوف والاضطراب ، لأنه يثق في المفاهيم التالية : —  
أولاً : المؤمن يجب أن يكتسب من إيمانه الثقة ويشعر بالتفصيل والكرامة لأنه بالإيمان يردى ما عليه ويترك ما عدا ذلك لله الذى يصرف كل شيء : ﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾<sup>(١٢)</sup> .

<sup>(١١)</sup> صحيح مسلم ج ١ من ٩١ - كتاب الإيمان - باب تأليف قلب من يخاف على إيمانه  
<sup>(١٢)</sup> سورة النور الآية ( ١٧٥ ) .

<sup>(١٢)</sup> سورة النور الآية ( ٨ ) .



ثانياً : الخائف كله بقبضة الخائف سبحانه وتعالى ويبدء وحده النفع والضرر وكل الخلق حاصع له وما على المؤمن إلا أن يقصر خوفه على الله كما قال تعالى : ﴿ وَفَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١) .

ثالثاً : الأهل والرزق محدودان تماماً بحيث ﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ (٢) ﴿ وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ (٣) . وقد ثبت أن رزق الرجل يكتب بعد نفخ الروح في المصغرة كما يكتب أجله وعمله (٤) .

وما كانت حكمة المصغرة قد ثبتت عند الساعة فما عاين إلا أن يظهر المؤمن في كل حركته لأن ﴿ الْعِزَّةُ لِلرَّسُولِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٥) وهي عزة ناشئة من الإحساس بالكرامة التي أولاهها الله للإنسان على العموم ، وناشئة من لذة الإيمان وحلاوته عند المؤمن على الخصوص ، فإذا ما بعد الإنسان عن العزة فقد بعد عن الإيمان ، ولا يقبل من المؤمن قبل عذر إذا سار في مسلك ذليل فإنه بذلك يظلم نفسه وسوف يسأل ﴿ فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ﴾ (٦) فمن يقبل منه أنه كان ضعيفاً في بلده لأن الأرض كلها لله وهي واسعة ، وكان عليه أن يهاجر إلى مكان آمن فيه صيانة لكرامته وحماية لعزته التي يجب أن يتمسك بها بكل شدة ، ولن ينقص من قدره شيء ، وأن الحقيقة في قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (٧) .

(١) سورة هود الآية ( ٦ )

(٢) سورة الأنعام الآية ( ٢٤ )

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ج ١٦ ص ١٩٢ - كتاب القدر

(٤) سورة النفاق الآية ( ٨ )

(٥) سورة النساء الآية ( ٩٧ )

(٦) سورة فاطر الآية ( ٢ )

وليس من العزة أن يظلم الإنسان غيره، أو يطغى عليه، لأن العزة خلق تمتع  
 يتمتع بها من يحافظ عليها لنفسه، ولغيره انطلاقاً من فهمه لذاته، ولديه، والحياء .  
 ومن مستلزمات هذه العزة أن يكون صاحبها شجاعاً، قوياً، في شخصه  
 ورأيه لتكون حيرة في ذنبا، ومقولة من كافلة العقول .

وقد أراد القرآن الكريم أن يبسط هذا المعنى في الأصناف والعقول محضاً به  
 وأكثر من وصف الله بالقوة ليكون ذلك إيماء إلى المؤمنين بأن يكونوا أقوياء ،  
 وكذلك وصف بالقوة جبريل ورسله والمؤمنين حتى يتضح شرف القوة ورفعتها .  
 ومن القوة المطلوبة أن يملك الداعية القدرة على ضبط نفسه والسيطرة عليها  
 بل إن ذلك هو كل القوة في الواقع لأن النفس خيراً وشرّاً تتنوع بحسب قواها .  
 وأحسن الناس من يحكم شهوته، وغضبه، فيعطى لنفسه العاقلة زمام أمره، ويصرف  
 بعيداً عن أى إنفعال يفسد عليه وجهته مهما كان حقاً .

يقول ابن مسكويه <sup>(١)</sup> : ( شبه القدماء الإنسان وحاله مع الأنفس الثلاثة بإنسان  
 راكب دابة قوية، ويقود كلياً ، فإن كان الإنسان من بينهم هو الذى يروض دابته  
 وكليه ، فلا شك في رشد عيشته وحسن أحواله ، وإن كانت البهيمة أو السبيحة  
 هي الغالبة ساءت الثلاثة ) <sup>(٢)</sup> ، ولذلك كانت وصية النبي " ﷺ " للصالحين الذى  
 سأله النصيحة ( لا تغضب ) <sup>(٣)</sup> ليكون قوياً بحق ، فليس الشديد بالصرعة إنما الشديد  
 من يملك نفسه عند الغضب <sup>(٤)</sup> .

ومن هنا يقول ابن المبارك أن المقصود من قوله تعالى : **هُوَ وَجْهٌ مُّسْتَبِشِرٌ**  
**حَقٌّ جِهَادِيٌّ** هو جهاد النفس <sup>(٥)</sup> ولذلك فالعزيز هو الذى يحكم نفسه ولا يجعلها

<sup>(١)</sup> ابن مسكويه أن النفس الإنسانية لها ثلاث قوى أو أنواع ثلاثة بهيمة ( شهوية ) وعشوية ( عصبية ) ونمالة ( عاقل ) وكل من حاله  
 بوجه ونحوه التغلب على آخرها . ويرى أن النفس العشرية تفرق بينها قبل الألب . والبهيمة تحكم قلده لأنها لا تملكه . والإنسان يجرى به .  
 فقد تملكه فلهذا يفرق بينه وبين البهيمة .

<sup>(٢)</sup> تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص ٥٥

<sup>(٣)</sup> مؤلفات مالك ج ١ ص ١٤٠ ما جاء في التهذيب

<sup>(٤)</sup> مؤلفات مالك ج ١ ص ١٤٠ ما جاء في التهذيب

<sup>(٥)</sup> ثم الجوى ص ٤٠

تميل بالغضب الذي يفسد على الإنسان وجهته، ويحول بينه وبين الرشاد، ولذا كان من أهم صفات عباد الرحمن أنهم ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾<sup>(١)</sup> إن سيطرة العقل الهادئ تجعل الإنسان واقعياً في الموقف فيبدى الحق، ويظهر الرأي ، ويصل بالإقناع إلى ما يريد .

ومن هذه القوة إعلان الرأي في ثبات لا يعرف التغير، أو الثلوث، بسبب محاباة أو تحامل، لأن هدفة شر دعوته الحق المؤيده بالدليل، وهي محفوظة لا تتغير، ولكنها تغير وتصلح وتعلم، فإظهارها على وجهتها وبشكل مرن هو المطلوب، مهما كان الحال أو الموقف أو القوم: ولا عليه ما دام يتجرد في هدفة ويبعد عن الدعوة أى أثر شخصي محتمل ، وللداعية أسوة في رسول الله " ﷺ " فلقد أعلن كلمة الله وهو وحده وسط قوم كافرين بها ومعارضين لها ، ومع ذلك لم يبال بأعمالهم ، بلجأوا للتهديد والوعيد . فرد عليهم قائلاً لهمه : ( لن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه )<sup>(٢)</sup> ، ولجأوا إلى محاولة إغرائه فكان يتهمز فرصة فريحتهم منه ويدعوهم إلى الله ، وقاطعوه وقومه فذهب إلى غيرهم من القبائل يدعوهم ، ولم يحدث أن غير الدعوة مع تغير الظروف واختلافها ، بل كان العذاب الشديد يلحق به وبعض المسلمين، ومع ذلك كان يثبت على الصبر وينتظر الأمل، ويواصل دعوته، لأنها الحق ولا بد أن تعلن .

يقول الرمنشري في تفسيره : أن المعنى أن تحتهدوا في إقامة العدل حتى لا تجوروا وتقيموا شهادتكم لوجه الله تعالى كما أمرتم بإقامتها ؛ ولو كانت الشهادة على أنفسكم، أو آبائكم، أو أقاربكم ، ولا تمنع الشهادة بسبب فقر أو غنى )<sup>(٣)</sup> وعلى الجملة فإن الداعية إذا جمع الصفات السابقة فإنه يكون قد وضع نفسه في

<sup>(١)</sup> سورة الفرقان الآية ( ٦٢ ) .

<sup>(٢)</sup> سيرة النبي ج ١ ص ٣٧٨ .

<sup>(٣)</sup> تفسير الكشاف ج ١ ص ٥٧٠ .

الطريق المستقيم لدعوته ، وحصل نفسه بأخلاق الألفة والريادة ولا عليه بعد دلت إلا أن يملك أفقاً يمكنه من فهم الواقع ويستطيع به عرض دعوته على وجهها السليم .

### الركيزة الرابعة

#### الملازمة

#### بين الدعوة والواقع

مرت الدعوة في مكة بمراحل متعددة تدور بين السرية في الدعوة، والجمهور الخاص، والجمهور العام، وكان لكل مرحلة ظروفها الذي حتم صوراً معينة في أساليب ووسائل الدعوة .

وحين ننظر إلى الدعوة في العصر الحديث ، ونأمل واقع العالم المعاصر نرى أنفسنا أمام مجموعة من الحقائق ، أهمها :

**أولاً :** موج العالم بموجات عديدة ومتعارضة في المذهب، والفكر والسلوك . فمن الناحية الفكرية والمذهبية نرى في كل دين أقلية تلتزم به ، وأكثرية تدعيه وتطبق ما يعارضه، وتكتفي بمسميات لا مضمون لها .

والذين يتمسكون بدينهم منقسمون إلى جماعات مختلفة كل منها يدعي الحق لنفسه فقط ، ويرى أن ما عداه باطل ، ولو كان هذا الانقسام في الفروع لهذا الأمر ، لكنه كثيراً ما يكون في الأصول مع أنها واحدة لا تنوع .

**ثانياً :** نكتفي الدول الإسلامية برموز إسلامية على أساس أنها الإسلام فتحافظ على الشعائر الدينية كالصلاة ، والصوم ، والحج ، وتنظم الأحوال الشخصية كالزواج ، والطلاق ، والميراث وفق شرع الله تعالى ، وتترك ما عدا ذلك لقوانين البشر التي وضعها الناس لأنها تتصور أن تطبيق كافة أحكام الشريعة أمر مستحيل، أو يذهبون إلى عدم تقبل الناس لها .

**ثالثاً :** سيطرت صورة الحياة الغربية القائمة على الفكر الوضعي على الاتجاهات الثقافية ، والفنية ، ومختلف جوانب الحياة الاجتماعية ، وتقبل الجمهور ذلك وإن حالف تعاليم الإسلام مخالفة ظاهرة .

**رابعاً :** تعمل أجهزة التوجيه ، والتثقيف بعيداً عن قيم الإسلام ذاتها ، حيث ترى في أجهزة الإعلام الصور الخلية ، والمسلسلات المأبوضة ، والقصص والأفلام محمواها الخسار ، ولذلك أقره السوء في التوجيه .

**خامساً :** برزت طبقات في المجتمع الإسلامي تتسلخ عن الإسلام باسم التمييز والتجديد ، وأصبح له صوت واتباع ، وهي ترحب بالفكر الوضعي . وتندفع عنه .

**سادساً :** تمكن الغرب المسيحي النحوي ، والفني من فرض أنماطه الخيالية على العالم الإسلامي الضعيف . ولم يجد المسلمون أمامهم إلا الخضوع للقوة التي تملك المال ، والصوت ، وكل ما يحتاجه الضعفاء .

وكل مخلص لإسلامه يجد نفسه أمام قوة ترقب عمله ، وتناول هيبته بأساليبها ، ودهائنها .

**سابعاً :** نجد الدعاة أنفسهم تحت المراقبة الدقيقة لقوى العالم المختلفة ، حيث نأل كلماتهم ، ونقرأ كتبهم ، وتتابع حركاتهم وأعمالهم ، بحيث لو رآه أحطوا في دعوتهم ، وعملهم ، فإن التشنج لم يأتى سريعاً تحت مسميات عديدة تجعلهم في مصاف الذين يعتقدون على حرية الآخرين .

**ثامناً :** ألف العامة في المجتمع الإسلامي البعد عن تعاليم الإسلام ، وجهلوا الإسلام كله ، وصار علمهم بالأفلام ، والأغاني ، والأزياء ، والألعاب الرياضية هو اهتمامهم ، وهو ثقافتهم .

لقد راعى شباب وخدامهم يعرفون أسماء ومراكز الملاحيين في الأندية الأوربية وغيرها ، وفي نفس الوقت لا يعرفون عن الإسلام إلا قليلاً .. ووجدتهم فحورين هذه المعرفة . غير عاتين لجهلهم أمور دينهم .

## هذا هو الواقع ..

بسم الدعوة حقيقة ربانية ، حفظها الوحي ، وصانتها قلوب قلة مؤمنة ،  
ونحتاج إلى من يتحرك بها ، ويبلغها للناس بالحسنى وبصورة تحبب ، وتنهج منهاج  
تفتح العقول والقنوب ، بعيداً عن التصادم ، والعنف ، والعدوان .

## فهل يا ترى ؟ !

يتعلق الدعوة منهج المرحلة السرية بما فيها من التحير والاكتفاء ، وترك البعض ،  
والاكتفاء بالاتصالات الفردية ، حتى لا يحدث تعارض ، ومخالفة .

أم يتبع الدعوة منهج الدعوة الجهرية الأولى بما فيها من الدعوة العلنية مع بقاء  
جمهور المسلمين في صمته ، كل في عمله ، لا يشعر بمسئوليته المباشرة تجاه الآخرين .  
أم تتبع منهج الجهر العام ليقوم كل مسلم بإعلان الإسلام ، والدعوة إليه ،  
وتحمل مسئوليته تجاه دين الله تعالى .

إن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعض الناس ، لأنه يحتاج إلى دقة النظر ، والتأمل  
في النتائج ، وتحليل الموقف لتكون الدعوة إلى الله متلائمة مع الواقع ، وليتخذ الدعوة لكل  
حالة منهاجها المناسب .

فهناك حالات تحتاج إلى السرية ، وأخرى يناسبها الجهر الخاص ، وثالثة تحتاج إلى الجهر العام .  
والداعية هو صاحب القرار في ذلك ..

وليكن قرار الداعية واضحاً وهو يتخير الموضوع ، والوسيلة والأسلوب ..

فمن ناحية اختيار موضوع الدعوة عليه تحديد ما يريد وليركز على العقيدة

لأنها أساس الدعوة ، وعليه أن يكون مع العقيدة ملتزماً بقول الله تعالى :

﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلُكُمْ أَمَّا

بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ [٢٢٠]

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَآبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَۢمُ ٱلَّآ نَعْبُدُ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكُ بِهِۦ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَآئًا مِّنْ دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (٢٤٠) .

وحيث يتكلم في العقيدة ، فإن من الأولى أن يبدأ بالأهم ثم المهم بعده ، على صوء ما يراه مناسباً لدينه ، ولئن يدعوهم .

إن غرس التوحيد في القلوب هو أساس العقيدة ، وبعده يأتي إسمات الرسالة وأركان العقيدة كلها .

وإذا ما اعتقد الإنسان أطاع كل ما يتفق مع عقيدته لأن أساس البناء هو العقيدة .

ولتكن الصورة البيانية الحسن هي لباس العرض : وأسلوب الدعوة ..

وعلى الداعية أن يدرك أن الدعوة السليمة لا تحتاج إلى السب والتلعن ، وليس منها العدوان ، وسوء الخلق .. مع كافة المدعوين .

وحيث يختار الوسيلة فعليه أن يجعلها مناسبة للناس : فمع العلماء يكمن الكتاب والمحاضرة والندوة ..

ومع متوسطي الثقافة تكون الصحيفه والبرامج التوجيهية ، ومع العامة يكون الجدل ، والحوار ، والمقارنة ... وهكذا .

ومع الأسلوب عنيه أن يعود للقرآن الكريم بأخدمته ، فلقد كان القرآن الكريم مناط أسلوبه الكفار ، والمنافقين ، والمؤمنين . ويناقش الملائم والفراء ، ويتحدث إلى الرجال والنساء ، والكبار والصغار .. وهكذا .

ولذلك كانت الملاءمة بين الدعوة والواقع ضرورة أساسية لنجاح الدعوة .

إن لعقيدة أساس البناء ، وغرسها في القلوب مهمة الدعاة ... وليكن معلوما للجميع أن الشريعة تأتي تابعة للعقيدة الصحيحة بصورة تلقائية .

## الركيز الخامسة

### إدراك

### مسئولية الدعوة

تسترجعنا تاريخ الدعوات الإلهية منذ آدم " عَلَيْهِ السَّلَام " إلى محمد " ﷺ " فليس ضخامة الجهد المبذول ، والمعاناة التي بذلها الأنبياء لأداء الأمانة التي أحسوها في سبيل الله تعالى .

ولذلك نشير إلى ضرورة إدراك هذه الحقيقة ليقوم الجميع بما يجب عليه إزاء الدعوة .

إن الدعوة إلى الله تحتاج إلى إخلاص المستدعين جميعاً ، وخير الله مودة أن تتكاتف الأمة كلها في هذا المجال .

لقد رأينا رسول الله " ﷺ " يقوم بالدعوة ، ويقوم معه كل من يدخل في الإسلام ، ولذلك أخذت الدعوة الصورة الجماعية منذ النشأة ، ولم يحدث مرة أن الرسول " ﷺ " كان في اتجاه ، وكان المسلمون في اتجاه آخر ، ورأينا — كذلك — المسلمين وهم يدعون إلى الله في صورة تقرب الناس إليهم ، وتعريفهم بالإسلام برفق وهدوء ، وتدعو إلى الله بالحسنى والخلق الجميل .

ورأينا أصحاب رسول الله " ﷺ " رعم الضعف ، والثقة يقومون بالدعوة ويضيفون للإسلام أتباعاً : مؤمنين ، صادقين ، فلقد أدخل مصعب بن عمير الإسلام في كل بيوت المدينة .. وعاش جعفر بن أبي طالب في الحبيسة داعياً محبوباً بين خير المسلمين .

وليس من فقه الدعوة أن يخاطب الناس بما ينفرهم من دين الله تعالى ، فلقد علمنا الله أن تقول لأهل الكتاب : ﴿ وَإِنَّهُمْ وَإِنهَكم وَاحِدٌ ﴾ ونقول لهم : ﴿ وَوَقَدْ آوَى إِلَهُكُمْ لَعَلَّه هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .



وليس من فقه الدعوة أن يستلزم الدعوة مع المسئولين ، عن طريق التسيير ، ونشر النقد بصوت مسموع ، لأن كثيراً من المسئولين يحتاجون إلى النصيح الهادئ ، والكلمة الصادقة يسمعونها بخلق الإسلام ، وسلوك المؤمنين .

وليس من فقه الدعوة أن يتفرق الدعوة إلى شيع وفرق ، لأن ضرر هذا أكثر من نفعه ، وكيف يتصور الدعوة أنهم ينادون للتوحيد ، وهم يتقسمون حتى ينحدر إلى الناس أن لكل جماعة دعوة ، وأن لكل فريق إله .

إن أصحاب الهوى والغرض أفسدوا ما بين الدعوة والحكام ، فانقسم العالم الإسلامي على نفسه ، وأصبح صراعه مع ذاته ، وخير للإسلام أن يكون الأمر على غير هذا النمط .

إن من فقه الدعوة أن يكون العلماء والأمراء معاً في طريق واحد ، لعامة واحدة ، وخدمة أهم جميعاً في الأمة الإسلامية يعملون لله ورسوله .

وإلى على يقين من أن العلماء إذا تمكنوا من عرض الإسلام بصورته النقية ، الصحيحة ، بعيداً عن التشنجات المذهبية ، والحصصية الفكرية فإنهم سيحققون به ومعها قضية إسلامية تفيد العالم كله .

إن ملامح الخطاب الديني الإسلامي يقوم على الأسس التالية : —

**أولاً :** أن يكون ممدد الموضوع ، واضح الهدف ، في إطار المشروع الإسلامية .

**ثانياً :** الالتزام بشرف الوسيلة ، وحسن الأسلوب ، وجمال الطلب .

**ثالثاً :** مراعاة حق المخاطب في الفهم ، والمنافسة ، وحرية اتخاذ ما يرى .

**رابعاً :** ضرورة الالتزام بالمرجعية الإسلامية بمصادرها المعروفة في كل جوانب عملية الدعوة .

ولكل هذا كان إدراك مسؤولية الدعوة ، والوقوف على أبعاد هذه المسؤولية

ضرورة هامة لنجاح الدعوة إلى الله تعالى .

## الركيزة السادسة

### دور المرأة المسلمة

#### في الدعوة

المرأة نصف المجتمع أكرمها الله تعالى ، وجعلها من الرجل ، ومعه **بَعْضُكُمْ**

**مِنْ بَعْضٍ** ، فتحقق هذا بالإسلام الحقوق التي كانت محرومة منها .

وقد كلف الله تعالى المرأة بالإسلام ، وحدد لها دورها في إطار أسرة كريمة ،

وفي حركة مجتمع طاهر ، ولعل ما نشير إليه هنا دورها في حركة الدعوة إلى الله تعالى

فالمرأة هي أم الرسول ﷺ ، وهي التي أرضعته ، ونشأته وأشرفت على تربيته .

وهي روجة الرسول ، أمنت به ، وصدقت برسالته ، وأعنته بمطامير ، وبسرير

له الطريق بأمر الله تعالى فكانت خير عون على تبليغ الرسالة .

لقد كانت خديجة " رضي الله عنها " بأمر الله خير معين لرسول الله ﷺ

تبع خبره ، وتطمئن عليه ، وتسعى لتعرف حقيقة ما كان يراه الرسول ﷺ في

مبدا بعثته ﷺ .

ولقد شاركت المرأة العربية في مكة في حركة الدعوة منذ البداية . . . . .

روجة عمار : تتحمل الأذى في سبيل الله تعالى ، وتتقبل الموت راضية مرضية . فتصير

أول شهيدة في الإسلام .

وهناك عدد من السابقات إلى الإسلام، منهن من هاجر إلى الحبشة ، ومنهن

من هاجرت إلى المدينة ، ومنهن من بقيت صامدة في مكة .

وقد انتهرت امرأتان في بيعة العتبة الثانية، وبايعتا رسول الله ﷺ بيعة الحرب ، وسافعا

في بيعتهما، فلقد سقطت أم عمار جريحة في غزوة أحد ، وفي جسدتها اثنا عشر جرحا

وتلك إشارات تؤكد دور المرأة في حركة الدعوة إلى الله تعالى، ويجب على

المسلمين تنشئة بناتهم على الإيمان الصادق، وحب الدعوة إلى الله، ومداومة الأمر

بالعروف، والنهي عن المنكر لتكون المرأة هي المدرسة الصالحة لتخريج حيل صالح.  
مؤمن .

والمرأة في العصر الحديث يمكنها أن تؤدي للدعوة خدمات حيلة عن طريق  
أبنائها وبناتها، ويمكن أن تحيط أسرتها بسياج يحميها من أي فساد في الخلق والسلوك .  
ويمكن للمرأة المسلمة أن تحول بيتها إلى مركز للإشعاع والخير لأولادها  
وجاراتها ، وصديقاتها ، فتستفيد بأوقات الفراغ في مدارس فكرة دينية ، أو حملات  
قراءة ، أو قراءة حديث تبوي شريف .

إن المرأة المسلمة يمكنها عن طريق الاشتراك في الجمعيات الخيرية ، والوطنية  
من تقديم الإسلام عملياً لأخواتها ، وبذلك تكون سبباً في تعليم الإسلام للناس .  
إن الفراغ عند المرأة كثير، وبدل أن يضيع في متابعة الأفلام ، والمسلسلات ،  
والجلوس الطويل أمام التلفزيون يمكنها أن تحول بيتها إلى مدرسة صغيرة ، نلبي فيه  
آيات الله والحكمة ، وذلك فضل يوفق الله من يشاء من عباده له .

إن الإسلام لم يقف حائلاً أمام المرأة أبداً، فهي نصف المجتمع، وأسمها، وأخواتها  
، وبناتها ، وصديقاتها ، وجاراتها في حاجة إليها .

ويوم أن تقوم المرأة المسلمة بواجبها فإنها تقدم عملاً عظيماً للمجتمع وللناس  
ولم يخل الإسلام على المرأة بعلم أو تعليم ، فضليها العلم فريضة كطلب  
الرجل له ، وقيامها بالتدريس والدعوة أمر مقرر في دين الله تعالى : "وها هي السيدة  
عائشة " رضي الله عنها " تروي الأحاديث لأصحاب رسول الله " ﷺ " وأتباعه ،  
وكانت مصدر فتوى للمسلمين ، ولقد شاركت في الحياة العامة، والأنشطة العسقية .

ومن هنا نؤكد على ضرورة اشتراك المرأة المسلمة في حركة الدعوة استنباطاً  
من سيرة رسول الله " ﷺ " وحركته بالدعوة إلى الله تعالى .

## الخاتمة

الحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وأشهد أن لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً رسول الله .

## وبعد ،،،

فلقد انتهيت من كتابة المرحلة الملكية ، ووقفت بها عند بدايات الهجرة لأننى أرى الهجرة بداية المرحلة المدنية .

وحاولت أن أكتب السيرة النبوية بالتفصيل لأعيش مع رسول الله " ﷺ " فى حياته وأوصافه ، وشماله لأحقق أملاً عشت طويلاً ، وعشت مع حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة وهو يتنقل بها بين القبائل والأماكن العديدة ، لأرى منهجية العمل للخدمة الإسلام ، ونفع الناس أجمعين .

ثم كانت أهم الركائز التى استنبطتها من السيرة النبوية ، والحركة بالدعوة خلال هذه الفترة .

## وأمل ..

أن يكون كتابى هذا مفيداً فى السيرة والدعوة ، ومرجعاً للمسلم العادى ، وللمدارس المتقف ، والعالم المتجد .

وأعتذر عن كل تقصير وقع منى لأن التقصير من لوازم أى عمل بشرى ..  
وأسأل الله تعالى أن يتقبل هذا العمل حالصاً لوجهه سبحانه وتعالى ، وأن يجعله لى فى الدنيا ذكرى ، وفى الآخرة نوراً وذخراً ، وأن يفعلى به يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم .

ربنا عليك توكلنا ، وإليك أنبنا ، وإليك المصير ..

وأخبر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ..

## المؤلف

## فهرست الموضوعات



## فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المتقدمة	٧
الفصل الأول	
الواقع العالمى قبل مجئ الإسلام	
التمهيد	٢٧
المبحث الأول ( العرب )	
جغرافية بلاد العرب	٢٨
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٣٢
أوضاع العرب الدينية	٤١
المبحث الثانى ( الروم )	
جغرافية الدولة الرومانية	٥٦
الأوضاع السياسية والاجتماعية للرومان	٥٩
الأوضاع الدينية للرومان	٦٥
المبحث الثالث ( الفرس )	
جغرافية الفرس	٧١
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٧٢
أوضاع الفرس الدينية	٧٥
المبحث الرابع ( الهنود )	
الموطن الجغرافى	٧٨
الأوضاع السياسية والاجتماعية	٨٠
الأوضاع الدينية	٨٢

## الموضوع \_\_\_\_\_ رقم الصفحة \_\_\_\_\_

### المبحث الثاني

#### ملاءمة الواقع العالمي للحركة بالإسلام

٨٧	١ — شيوع الضلال الديني .....
٩٢	٢ — هوان الإنسان .....
٩٣	٣ — سهولة التواصل .....
٩٥	٤ — تعدد الصراع .....
٩٨	٥ — النضج الفكري .....
١٠٣	٦ — إنتظار رسول جديد .....

### الفصل الثاني

#### السيرة النبوية من الميلاد إلى الهجرة

١٠٩	التمهيد .....
١١٢	المبحث الأول ( السب الشريف )
١٢٧	المسألة الأولى : أصالة النسب .....
١٣٣	المسألة الثانية : بعد الأباء عن الشرك .....
١٤٤	المسألة الثالثة : صلة بني هاشم بسائر العرب .....

#### المبحث الثاني ( إرهابيات الميلاد )

١٥٣	الإرهابيات ومناقشة الآراء حولها .....
-----	---------------------------------------

### المبحث الثالث

١٧١	ميلاد النبي محمد ﷺ .....
-----	--------------------------

### المبحث الرابع

١٨٤	محمد ﷺ " في ديار بني سعد .....
-----	--------------------------------



## المبحث الخامس

١٩٣	..... شق صدره " ﷺ "
-----	---------------------

## المبحث السادس

٢٠٢	..... محمد " ﷺ " في مرحلة الصبا
٢٠٣	..... — عناية عبد المطلب بحفيده
٢٠٦	..... — عناية أبي طالب بابن أخيه
٢٠٨	..... — الرحلة الأولى إلى الشام ( مقابلة بحيرى )
٢١٥	..... — رعى الغنم
٢٢١	..... — حرب الفجار
٢٢٨	..... — حلف الفضول
٢٣٣	..... — الرحلة الثانية إلى الشام ( التجارة لخديجة )

## المبحث السابع

٢٣٧	..... الزواج لخديجة " رضى الله عنها "
-----	---------------------------------------

## المبحث الثامن

٢٤٣	..... بناء الكعبة
٢٥٤	..... بناء عبد الله بن الزبير للكعبة
٢٥٧	..... الكعبة والمسجد الحرام

## المبحث التاسع

## المقدمات العملية للبعثة النبوية

٢٦١	..... أولاً : كثرة الميشرات
٢٧٠	..... ثانياً : إنتشار العلم بخاتم النبوة
٢٧٤	..... ثالثاً : منع الجن من الاستماع

الموضوع	رقم الصفحة
رابعاً : تكامل شخصية محمد " ﷺ "	٢٨١
١ — سمو السلوك	٢٨٢
٢ — جمال الخلق	٢٨٦
٣ — عظمة الخلق	٢٩١
٤ — حلاوة المنطق	٢٩٧
٥ — كمال العقل	٢٩٨
خامساً : تحبيب الخلاء لمحمد " ﷺ "	٣٠٠
المبحث العاشر	
بداية الوحي	٣٠٩
١ — الرؤيا الصادقة	٣١١
٢ — نداءات الملائكة	٣١٤
٣ — كلام الشجر والحجر	٣١٦
٤ — لقاء الملائكة	٣١٧
٥ — مجيء جبريل بالقرآن	٣١٩
فتور الوحي	٣٢٤
المبحث الحادي عشر	
تواصل الوحي	
صور الوحي	٣٢٦
المبحث الثاني عشر	
السيرة الحمديدية من الرسالة حتى الهجرة	
تمهيد	٣٣٦

الموضوع ..... وع

رقم الصفحة

- أولاً : المرحلة السريّة والسابقون إلى الإسلام ..... ٣٣٦
- ثانياً : صلته بأعمامه في المرحلة السريّة ..... ٣٣٩
- ثالثاً : مرحلة الخهر بالدعوة ومواجهة المتاعب ..... ٣٤٢
- ١ - السؤال عن صلته " ﷺ " ..... ٣٤٢
- ٢ - موقف أبي لهب وزوجته ..... ٣٤٢
- ٣ - السخرية والاستهزاء ..... ٣٤٤
- ٤ - بنت الدخيلة الكاذبة ..... ٣٤٦
- ٥ - مساومات وتخليط ..... ٣٤٨
- ٦ - الاضطهاد البدني ..... ٣٤٩
- ٧ - محاولة قتل حميد " ﷺ " ..... ٣٥٢
- ٨ - نتائج الاضطهاد ..... ٣٥٥
- ٩ - أبو طالب يحتاج لابن أخيه ..... ٣٥٩
- ١٠ - المقاطعة العامة ..... ٣٦٠

المبحث الثالث عشر

- عام الحزن ..... ٣٦١
- الاستعانة بغير أهل مكة ..... ٣٦٣
- المحاولة الأولى ..... ٣٦٣
- المحاولة الثانية ..... ٣٦٥

المبحث الرابع عشر

زواج النبي " ﷺ " بعد وفاة خديجة " رضي الله عنها "

- أولاً : سودة بنت زمعة ..... ٣٧١
- ثانياً : عائشة بنت أبي بكر ..... ٣٧٤

الموضوع	وع	رقم الصفحة
ثالثاً : أم حبيبة بنت أبي سفيان .....	٣٧٦	
المبحث الخامس عشر		
تتابع مجيء نصر الله		
النصر الأول " إسلام عداس " .....	٣٧٧	
النصر الثاني " إسلام الجثن " .....	٣٧٨	
النصر الثالث : إجارة المطعم بن عدي " .....	٣٧٩	
النصر الرابع " أضواء وسط ظلام القبائل " .....	٣٨١	
— إسلام سويد بن الصامت " ﷺ " .....	٣٨١	
— إسلام إلياس بن معاذ " ﷺ " .....	٣٨١	
— إسلام أبي ذر الغفاري " ﷺ " .....	٣٨٢	
— إسلام الطفيل بن عمرو " ﷺ " .....	٣٨٣	
— إسلام ضماد الأزدي " ﷺ " .....	٣٨٤	
النصر الخامس " الإسراء والمعراج " .....	٣٨٥	
١ — مفهوم الإسراء والمعراج .....	٣٨٥	
٢ — ثبوت الإسراء والمعراج .....	٣٨٥	
— رواة حديث الإسراء .....	٣٩١	
— الزيادات عن رواية حديث أنس .....	٣٩٢	
— التعارض في أحاديث الإسراء .....	٣٩٧	
— فك تعارض الأحاديث .....	٣٩٩	
٣ — كيفية وقوع الإسراء والمعراج .....	٤٠٠	
— مناقشة الآراء .....	٤٠٠	
— التوفيق ورد الاختلاف .....	٤٠٤	

الموضوع	رقم الصفحة
النصر السادس " إسلام الأنصار "	٤٠٥
اللقاء الأول	٤٠٥
بيعة العقبة الأولى	٤٠٧
بيعة العقبة الثانية	٤٠٩

### الفصل الثالث

حركة النبی " ﷺ " بالدعوة

إلى الله تعالى

التمهيد	٤١٩
المبحث الأول " تحديد مفاهيم الحركة بالدعوة "	٤٢١
أولاً : مناهج الدعوة	٤٢١
ثانياً : المضمون الفكري للحركة	٤٢٣
ثالثاً : أسلوب الدعوة	٤٢٧
رابعاً : وسائل الدعوة	٤٣٦
خامساً : وسائل الداعي والمدعو	٤٤١
المبحث الثاني " حركة الرسول " ﷺ " بالدعوة خلال المرحلة السرية "	٤٤٢
أولاً : الدعوة إلى العقيدة	٤٤٣
ثانياً : الاتصال الفردي	٤٤٦
ثالثاً : تخير المدعوين	٤٤٨
رابعاً : تجنب ضلالات القوم	٤٤٩
خامساً : دعوة الأقربين	٤٥٠
سادساً : إسلام الضعفاء	٤٥١
سابعاً : الاكتفاء بأهل مكة ومن يأتيها	٤٥٢

٤٥٦ ..... تأمناً : التخفي في العبادة والتروحية .....

٤٥٨ ..... تاسعاً : حمل المسلمين مسئولية الدعوة ..

### المبحث الثالث

٤٦٣ ..... الوسائل والأساليب خلال المرحلة السرية ..

### المبحث الرابع

٤٦٤ ..... المسلمون خلال المرحلة السرية .....

### المبحث الخامس

٤٦٨ ..... المرحلة الأولى للجهار بالدعوة .....

٤٨١ ..... اسلام حمزة .....

٤٨٢ ..... اسلام عمر بن الخطاب .....

### المبحث السادس

٤٨٧ ..... مرحلة الجهر العام بالدعوة .....

### المبحث السابع

الحركة بالدعوة خلال مرحلة الجهر العام

### وسائل الدعوة

٤٨٩ ..... المسألة الأولى : تنوع وسائل الدعوة .....

٤٨٩ ..... أولاً : الاتصال بصوره المختلفة .....

٤٩٦ ..... ثانياً : الدعوة بالحوار والمفاوضة .....

٤٩٩ ..... ثالثاً : الدعوة بالانتقال إلى القبائل .....

٥٠٠ ..... رابعاً : الدعوة بمحاكاة ثلثي فود .....

٥٠٣ ..... خامساً : الدعوة بإرسال الرسائل .....

الموضوع	رقم الصفحة
سادساً : الدعوة بالعمل والتطبيق .....	٥٠٧
سابعاً : الاستفادة من عادات المجتمع الجاهلي .....	٥٠٨

### المسألة الثانية

#### أساليب الدعوة

أساليب البلاغة القرآنية .....	٥١٠
(١) التصوير الحسي بالكلمات .....	٥١٩
(٢) التصوير بالتشبيه .....	٥٢١
(٣) التصوير بشرب المثل .....	٥٢٢
(٤) التصوير القصصي .....	٥٢٤
(٥) التشويق والإثارة .....	٥٢٩
(٦) التصوير الصوتي بالترتيل .....	٥٣١
(٧) إظهار عوامل الطاعة .....	٥٣٣

### المبحث الثامن

#### نوافق الأسلوب والموضوع

في مجال العقيدة .....	٥٣٤
في مجال العبادة .....	٥٣٧
في مجال المعاملات .....	٣٥٧

### المبحث التاسع

#### مواجهة علوان الكفار

محاولات الكفار في إيقاف حركة الدعوة .....	٥٣٩
---	-----

الموضوع	رقم الصفحة
مواجهة محاولات الكفار .....	٥٤٥
أولاً : تقوية إيمان المعذبين .....	٥٤٦
ثانياً : تحرير الأرقاء .....	٥٤٧
ثالثاً : هجرة المسلمين إلى الحبشة .....	٥٤٩
رابعاً : إنتهاء المقاطعة .....	٥٥١
المبحث العاشر	
استمرار الحركة بالدعوة .....	٥٥٦
المبحث الحادي عشر	
المسلمون في نهاية المرحلة المكية .....	٥٦٠
الفصل الرابع	
الركائز المستفادة من المرحلة المكية	
تمهيد .....	٥٦٣
الركيزة الأولى " المعرفة الشاملة للمدعوين " .....	٥٦٤
الركيزة الثانية " دور الداعية بين الله والناس " .....	٥٧٠
أولاً : توثيق صلته بالله .....	٥٧٣
ثانياً : توثيق ارتباطه بالناس .....	٥٨٠
الركيزة الثالثة " صفات الدعاة " .....	٥٨٢
أولاً : صفات التكامل الذاتي .....	٥٨٣
١ — الصدق .....	٥٨٤
٢ — الأمانة .....	٥٨٦
٣ — الإخلاص .....	٥٨٦
٤ — الذكاء .....	٥٨٧



الموضوع	رقم الصفحة
ثانياً : صفات الترابط والمودة ...	٥٩٠
١ — الحلم .....	٥٩٠
٢ — التواضع .....	٥٩٢
٣ — القناعة .....	٥٩٤
٤ — الكرم .....	٥٩٥
ثالثاً : صفات الريادة والتوجيه .....	٥٩٦
١ — المشاركة الوجدانية .....	٥٩٦
٢ — القوة والعزة .....	٦٠٠
الركيزة الرابعة " الملائمة بين الدعوة والواقع " .....	٦٠٤
الركيزة الخامسة " إدراك مسئولية الدعوة " .....	٦٠٨
الركيزة السادسة : دور المرأة المسلمة في الدعوة " .....	٦١٠
الخاتمة .....	٦١٢
فهرس الموضوعات .....	٦١٥

\* \* \*

وَأَخِرُ دَعْوَانَا أَنْ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ